



جورجي أمادو

JORGE AMADO

تريزا باتيستا

ترجمة: عوني الديري

رواية

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

٩٢٥

١٥٢٢.٥

ٲرٲزا باٲٲسٲا

TEREZA BATISTA

تريزا باتيستا

TEREZA BATISTA

رواية

تأليف
جورجي أمادو

ترجمها عن البرتغالية
عوني الديري

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل

Tereza Batista Cansada De Guerra

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

The Wylie Agency (UK) Ltd.,

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2008 by Grapiúna - Grapiúna Produções Artísticas Ltda.

All rights reserved

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-345-9

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtlef

149 شارع حسبية بن بو علي

هاتف/فاكس: +213 21676179

الجزائر العاصمة - الجزائر

e-mail: editions.elikhtlef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنسيق وفرز الألوان: أيجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

آراء في الرواية

"إنها التكوين الذي تصوّره فيدياس البرازيل، جورجى أمادو، على شكل رواية تتوزّع بمنهجية واقعية حرّة تماماً. تمتزج فيها المعرفة الجادة بفرح لغوي شفاف ينغرز في الدم. إن أمادو "مايسرو" الرواية البرازيلية، يجيد لعبة التقابل والثنائية في تشكيل الموضوع الأثير لديه: الإنسانية المعبّدة مقابل اللاإنسانية..."

الناقد أحمد خلف
(مجلة ألف باء)

"... وهناك رواية أمادو تريزا باتيستا التي لا يمكن نسيان عوالمها وبطلتها وأحداثها، صراع أثقل عليّ، ولكنه صراع محبّب أن تفاضل بين جودتين وبين طبقين فآخرين يحمل كل منهما خصائصه، ومذاقاته، ومكوّناته... ويجعلنا نشكر اللذين أتاحا لنا أن نتناول من هذين الطبقين".

عبد الستار ناصر
(جريدة الجمهورية)

"تريزا باتيستا واحدة من روائع جورجى أمادو... وها أنا من جديد، كأني ألقى ذاكرتي، وأستعيد فرحي بشبابي... اللغة الحارة... الدم الحقيقي الذي يجعل الملامح ملامح... واللغة الخاصة... ونكهة الأرض التي لها رائحة أمة ومزايا إنسان... إن أمادو يكتب عن برازيله التي يمكن لفرط إيمانه أن تصير برازيلنا، أو أن تفيدنا بأن نحب أرضنا ونكون لصيقين بها..."

الشاعر يوسف الصايغ
(مجلة ألف باء)

"منذ زمن طويل لم أطالع قصة بمثل هذا الشغف ولا أبالغ إذا قلت إنني رحّت أفترس صفحاتها الأربعمئة واثنين وستين كما كانت أعين الرجال تفرّس تريزا باتيستا، دون أن تشبع من التحديق... إنها كرنفال الواقعية والشعر".

أنطوان رعد
(جريدة الحياة اللبنانية)

"أعتبر رواية تريزا باتيستا للكاتب البرازيلي جورجى أمادو التي نقلها إلى العربية الأديب اللبناني عوني الديري، هي رواية عام 1989".

الروائي غلزي العبادي
(استفتاء عام 1990)

"... هذه الرواية إذاً هي واحدة من البدايات للواقعية السحرية في أدب أميركا اللاتينية، تملك أن تعطي الروائيين في العالم كشفها الفني الخاص وتضعهم أمام بدايات تجديدية ألا وهي القدرة على إعطاء البعد الأسطوري للواقع..."

عبد الرزاق المطلبى
(جريدة العراق)

"منذ أيام، كنت في زيارة للدكتور عصام عبد علي في دار المعرفة، وسألته عن رواية جورجى أمادو، تريزا باتيستا التي ترجمها الأديب والصدىق عوني الديري، فأجاب: لقد بيع منها أكثر من ثلاثة آلاف نسخة خلال عشرة أيام....!"

الروائى عبد الرحمن مجيد الربيعى
(ملاحظات فى الثقافة)

مقدمة المترجم

لا شك أن جورجى أمادو هو أكبر روائي البرازيل، وأكثر أدباء أميركا اللاتينية انتشاراً في العالم، إذ تُرجمت رواياته التي زادت على الثلاثين، إلى أربع وأربعين لغة، ولكنها في لغتنا العربية ظلت محدودة، لأسباب عديدة أهمها قلة المترجمين عن البرتغالية التي كتب بها أمادو.

وما يميّز أدب هذا الروائي العملاق هو امتزاج الخيال بالواقعية، والحيوية الغنائية بواقع حياة الضائعين في قاع المجتمع. كما تميّز أدبه الإقليمية ذات البعد الإنساني، إذ إن قدرة أمادو لا حدّ لها في اختراق المكان، والمكانية، ليضع الإنسان في زمن عليه أن يغادر فيه ذاته ومكانه تفاعلاً مع إنسانية لا تحدّها الجغرافية. وقد ذهبت رواية أمادو تضرب بجذورها في منطقة برازيلية حافلة بالعنف تبرز فيها الأجناس والثقافات، وهناك، في باهيا، ولد في عام 1912 لمزارع فقير، في جزء من "مضلع الجفاف" الذي لا يلين في إحكام قبضته على ملايين البرازيليين.

وينظر جورجى أمادو، المولود في تلك الأرياف القاحلة - الخصبة، الصاخبة - الهادئة، شطر البحث حيث مرافئ الحب والموت والأعياد والفرق والشعر والعنف، يرى وجوه الناس على صفحة المياه نقية - عكرة، وتبدأ المعاناة. وهناك، عند شواطئ باهيا ترى الفتى الصامد بنزيفه يمعن تأملاً في أوجاع بني جلدته، فينسال حكايات طويلة سيكون لها أن تترجم إلى أكثر لغات العالم لأنها كتبت بلغة الإنسان، ثم اقتبست مسلسلات تلفزيونية وأفلاماً سينمائية، وكتبت لها سمفونيات موسيقية عديدة وأخرجت مسرحياً، وأعدّت ربايعات إذاعية، وأغاني شعبية أصبحت شائعة في أميركا الجنوبية شيوعها في أوروبا وأفريقيا البرتغالية.

وإثر رواياته الشهيرة "بحر ميت"، "بل الكرنفال"، "فرسان الأمل"، "والكمين الكبير" وغيرها، تحوّل إلى تخيل شخصيات نسائية فذة، فكانت "غابريلا، قرنفل وقرفة"، "دونا فلور وزوجاها"، "الفتاة العنز"، و"تريزا باتيستا تعب من الحرب".

قد يتبادر إلى الذهن، مع تريزا التعبة من الحرب، مشهد امرأة مدججة بالسلاح، تقارع عبر حرب طاحنة يختلط فيها جمال المرأة بالدماء، وتنهار فيها الأجساد وتتهاوى، وصراخ الموت يعلو عبر الخراب؛ ولكن تريزا ليست محارباً في هذا المعنى، فهي إنسان بكل ما تحمله الكلمة من معنى وأبعاد، يناضل ضد المجتمع المادي والمآسي الناتجة عن بشاعته، وقدرها أن تحب وسط الكراهية، واللذة، وأسواق البغاء، والملاهي، ولكنها تظل متشبثة بحبها حتى النهاية.

تريزا باتيستا هي الحب والكر

هية بأعمق صورهما وأعنف تأثيراتهما، يتصارعانهما عبر النضال المتواصل ضد رغوات الوضعاء، ووحشية الإنسان، وشيطان السلطة المتجسد في نظامها ورجالها وقيمها وكيفما تشكلت أساساً وجوهرًا.

وفي دم تريزا باتيستا دم عربي أيضاً، كما يتكهن المتكهنون، فتستحق ترجمتها المجازفة والعناء، ومع المعاناة تبدأ مشقة الترجمة كعملية إعادة بناء حقيقية، ترافقها ساعات التردد، وأيام السأم، ولحظات التعب مما يعرف طعمه الذين عانوه كثمرة حرب من نوع حرب تريزا التي قيل عنها أيضاً إنها مالوية، أنغولية، غجرية قارئة كف، ابنة الإله شانغو أو يمنجا آلهة الحب والبحر، ولكن كل هذه المقولات أشياء تقال، لأن تريزا امرأة، إنسان، وأجزم أن دمها، هو دم يمتزج فيه الدم العربي الحار بالدم البرازيلي الراقص حيوية ورغبة.

عوني الديري

القسم الأول

عندما علموا بأن ساعود إلى تلك الربوع، طلبوا أن آتيهم بأخبار تريزا باتيستا وأن أستجلي حقيقة بعض الأحداث التي ظلت غامضة؛ أجل، ما لا ينقص العالم هم الناس الفضوليون.

ورحلتُ أُللم الأجزاء هنا، وهناك، في معارض المنطقة الوسطى، وعند أرصفة الميناء؛ ومع الزمن، والثقة، وضعني بعضٌ من أصحاب النعمة، وبعض آخر من البائسين، على علم بالعقد والأزمات، وكل منهم يروي بطريقته الخاصة وفقاً لمستوى إدراكه. وبقدر ما استطعت الإصغاء والاستيعاب، ربطتُ بين أجزاء الحكايات والأنغام المتوافقة مع خطوات الرقص وصرخات اليأس، وتنهدات الحب تمتزج كلها وتتسارع لدى المتعمقين بأخبار الفتاة النحاسية اللون وعاداتها ومسالكتها. ولم يتكوّن لديّ الكثير لأصفه لأن الشعب هناك قليل الكلام، ومن يعرف الكثير يتكلم أقل من سواه حتى لا يُمنح شهادة كذاب.

تحركات تريزا باتيستا، تلك، حدثت في ذلك المكان الواقع على ضفاف نهر ريال، عند الحدود الواقعة بين باهيا وسرجيبني ضمن مساحة واسعة من الأرض. هناك، كما في العاصمة، المكان إقليم مأهول بأمة من الهنود المتحضرين والخلاسيين، والمتولدين من الزنوج والهنود؛ قوم قليلو الأنماط كثيرو الحركة، وأقل منهم في ذلك سكان العاصمة من الخلاسين المولعين بالغناء والرقص الفولكلوري. وعندما أشر إلى عاصمة هذه الشعوب الشمالية، يعرف الجميع أنني أعني مدينة باهيا التي يسميها البعض السلفادور دون أن يدري أحد سبباً لهذه التسمية. ولن تفيد مناقشة التيار أو مجاهته عندما يمتد اسم باهيا ليشمل حدّ فرنسا الفاصل ومرتفعات ألمانيا الثلجية؛ هذا دون أن نشير إلى شواطئ أفريقيا.

اعذروني إذا لم أروِ كل شيء تفصيلاً إثر تفصيل، فأنا لا أفعل ذلك لعدم معرفتي به، وهل في هذا العالم من يعرف حقيقة تريزا باتيستا بنضالها وامتعتها كاملة؟ لا أعتقد وإن بنذر قليل.

1

وما دمت تسأل مع هذا القدر من اللطف فدعني أقول لك: يكفي الشقاء أن يبدأ، وحين يبدأ فليس هناك من يسيطر عليه. ينتشر، ينمو، ويصبح سلعة رخيصة كثيرة الاستهلاك. أما الفرح فعلى العكس، إنه غرسة واهية، صعبة الشتل وذات ظل قليل وديمومة قصيرة، لا تتكيف مع الشمس والرياح والمطر وتقتضي عناية يومية وأرضاً خصبة، لا يابسة، ولا رطبة، تكلف زراعتها كثيراً الأغنياء الغارقين بالمال. الفرح يحافظ على نفسه بالشمبانيا، أما الكاشاسا فإذا ما جاءت بتعزية فإنها لا تعني إلا الشقاء؛ والشقاء غرسة ذات جذور شرسة، يمتد في الأرض دون حاجة إلى عناية، ينمو وحده ويورق، وتلقاه في كل الدروب. وفي ساح الفقراء يا صديقي يزدهر الشقاء فلا ترى غيره نباتاً، وإذا لم يكن لصاحبه جلد غليظ وكاهل جاسئ، ذو نواتئ في الداخل والخارج، فلا يقدم ولا يؤخر أن يعد نفسه من الشرفاء، إذ ليس من اعتبار زائف ليؤول إلى شيء. وأمر آخر أقوله لك وأنت تلازمي، لا من أجل إطرائي أو من قبيل إعلاء شأن المنهكين في الأرض، ولكن كونه حقيقة خالصة: وحده الشعب الفقير يمتلك الأصالة والقدرة على التكيف مع مثل ذلك الشقاء فيتمكن من الاستمرار حياً. وكوني قد قلت ولم يعترض أحد فأنا من يسأل الآن: "ماذا يهّمك يا أخي أن تعرف عن مشقات تريزا باتيستا؟ أو تستطيع أن تداوي أحداثاً مضت؟"

تنكبت تريزا عبئاً ثقيلاً، قليلون من الرجال يستطيعون أن يتنكبوه... وظلت تتقدم فلم يرها أحد تشتكي أو تطلب الرحمة، وإن وجد، في مرات قليلة، من ساعدها فقد فعل ذلك بواجب الصداقة لا لضعف الفتاة، وحيثما وجدت كان الحزن يتبدد. ولم تعر تريزا الشقاء إلا قليلاً من الاهتمام، ووحده الفرح، كان صاحب القيمة في حياتها. فهل تريد أن تعرف إذا كانت تريزا من حديد، وإذا كان قلبها مصفحاً بالفولاذ؟ من حيث اللون كانت مشهورة بجلدها النحاسي لا

الحديدي، أما قلبها فكأنما صُنع من الزبد، ومن الأفضل القول إنه من العسل. أما الأستاذ، صاحب المصنع، ومن يعرفها أحسن منه، فقد منحها اسمين لم ينادها يوماً بغير أحدهما: "تريزا شهد العسل"، "تريزا قرص العسل" وكان ذلك هو كل الإرث الذي أبقاه لها.

أزهر الشقاء باكراً في حياة تريزا، وددت يا أخي أن أعرف كم من الشجعان سيقاومون لو مرّوا بما مرّت به، وتغلّبت عليه، في دار النقيب، وأي نقيب؟ أجل إنه النقيب جوستو أو لنقل المرحوم جوستيانو دوارتي دا روزا. نقيب في أي سلاح؟ إن أسلحته كانت حزاماً من الجلد الخام وخنجرًا ومسدساً ألمانياً وزخرفاً وسوء أخلاق ورتبة غني وصاحب أراضٍ بقدر ما تجيزه الشارات التي يحملها العقيد، ولكن كان لديه على كل حال ما يكفي حتى لا يبقى فلاحاً وضيعاً ولكي يضيف الألقاب إلى اسمه... أما أراضى العقيد: فراسخ وفراسخ ممتدة متواصلة من السهول المخضوضرة، فقد كان يمتلك منها إميليانو الأكبر سناً في آل غويدس وصاحب المصنع، وهو في الوقت نفسه قانوني اختصاصاً، بختم وريشة، وإن لم يكن يمارس المهنة فهو لم يرغب في لقب آخر غير لقب أستاذ. إنها الأزمنة الحديثة، ابن عمي، فلا تجزع: فقط تتغيّر الألقاب فالعقيد أستاذ والسركال مدير، والمزرعة شركة، أما الباقي فلا يتغيّر والثراء هو الثراء والفقر هو الفقر مع وساحة الشقاء.

عن بداية حياتها، أستطيع أنؤكد أن تريزا باتيستا كان لها بداية ونيف؛ والعذابات التي قاستها صغيرة، قلة قليلة من أهل جهنم قد عانتها؛ يتيمة، لطيمة، وحيدة في هذا العالم، وحيدة ضد القدر والشيطان... وعبرت الصغيرة الوحيدة أسوأ مراحل الشقاء وأكثرها إيذاءً، وخرجت منها سليمة معافاة والابتسامة على ثغرها... ابتسامة على الثغر. لا أعرف في الحقيقة، فإني أقول ما سمعتهم يقولونه؛ وإذا شاء المحترم الكشف عن وقائع هذه الحالة من بدايات تريزا باتيستا، فما عليه إلا أن يستقل قطار الغرب البرازيلي إلى ربوع المنطقة الوسطى، فهناك من بقي مستعداً ليخبره بكل التفاصيل الصغيرة.

كان صعباً على تريزا أن تتعلّم البكاء لأنها ولدت لتضحك وتعيش فرحة. لم يدعّوها وشأفها، ولكنها أصرّت بعناد، وحتى الحمار لم يكن يعتاده. إنه تشبيه سيئ، أيها السيد، ولكن من الحمار لم يكن عندها إلا العناد، فلم تكن امرأة

مسترجلة ولا عاقراً ولا ذات فم بذيء... على العكس، إنها ذات فم معطر ولا أنظف، ولا هي سليطة لسان أو مثيرة شغب أو محرّضة، وإذا كان أحد قد أخبرك بشيء من هذا القبيل فقد أراد أن يخدعك أو أنه لا يعرف حقيقة تريزا باتيستا. قلت، وأؤكد، إنها مستبدة في مقاييس الحب. وفي الحب كانت شديدة الاستقامة... فلماذا إذاً كانوا يسمونها تريزا الجميلة العراك؟ أجل لأنها كانت جميلة العراك، حقاً، ونداً لها لم يوجد شباب ولا قلب ولا حيوية؛ كانت تحسّ بالنفور من زمر الشباب المنحرفين فلم تدخل قط في أوساطهم، ولكنها لم تكن تتغاضى عن رؤية رجل يضرب امرأة.

2

العرض الأول الذي تمّ الإعلان عنه رسمياً، والذي كانت ستؤدّيه تريزا باتيستا في ملهى باريس الليغري الواقع في فاتيكانو من منطقة ميناء أراكاجو في سرجيبي ديلراي، تأجّل عدّة أيام بسبب جراحة أسنان طارئة لنجمة العرض نفسها. وتمّ التأجيل بقرار جزم به فلوريانو بيريرا المعروف بفلوري باتشولا صاحب الملهى، والذي يعود بخلقه القوي أصلاً إلى ولاية مارينياو. وقد حافظ فلوري على صلابه طبعه فلم يتذمّر ولم ينح باللائمة اعتباطاً على أحد كما حصل عادة في مثل هذه الحالات.

كانت الحفلة الأولى لنجمة السامبا المثيرة قد أثارت اهتماماً كبيراً، لأن اسم تريزا باتيستا كان معروفاً في بعض الأوساط، ويتردّد على ألسنة المتجولين، وفي السوق والمرفاً والمنطقة العامة، وكان باتشولا ذا فعالية في الدعاية، لا يزاحمه مزاحم في استنباط الجمل والشعارات الدعائية. أما لولو سانتوس محامي الفقراء الشهير في سرجيبي كلّها، فهو من جاء بتريزا إلى فلوري. وقد عُرف لولو بمرافعاته في المحاكم وخطبه الملهبة وعباراته الروحية، فبرع في المسائل الجنائية براعته في شرب البيرة. وكان في كل مساء يتباحث مع زبائنه في مقهى وملهى مصر، ضاحكاً على البلهاء منهم، وراسماً الأساليب الدفاعية عبر دخان سيجاره المتطاير باستمرار؛ ومنذ عطل شلل الأطفال رجليه عن الحركة، راح لولو سانتوس يتنقل متوكئاً على عكازين، قائماً بهذا العمل بسرور كبير ومزاج جيد لا يتبدّل. وكانت تربطه صداقة قديمة بتريزا باتيستا فقد أُشيع

أنه سافر منذ عدة سنوات إلى داخل باهيا، بطلب، وعلى نفقة إميليانو غويدس صاحب المصنع والأراضي الواسعة في الولايتين، بغية حسم دعوى كانت قد قُدمت ضد تريزا باتيستا، واعتبرت باطلة لأن المدعي عليها كانت قاصراً، ولكن أي شيء من كل ذلك لا ينطبق على هذه الحالة، إذ لا يهم هنا سوى الكلام عن الصداقة بين الفتاة واللّسن الذي يساوي وحده مجموعة كاملة من خريجي الحقوق وحَمَلة المؤهلات والمتدربين اللّبقين والخطباء والأساتذة المتفرغين وأصحاب الرداء المهني.

الملهى مليء بالرواد، وعلى كثير من الحيوية، في جو صاخب، تزيد صخباً فرقة جاز منتصف الليل؛ والزبائن ينفقون على البيرة والكوكيتلات والبراندي والويسكي.. في ملهى باريس الليغري، هذا، يستمتع شباب الطبقة المخملية في أراكاجو بأسعار معقولة، وكما يمكن ملاحظته في كتيّبات الدعاية الموزعة بكثرة في المدينة، فإن الشباب المخملي، هناك، هم من الموظفين في المكاتب التجارية، ومن الطلاب والموظفين الرسميين والجباة، بالإضافة إلى الشاعر جوزي سارايفيا والرسام جنر أوغوستو؛ بعضهم مؤهلون وأكثرهم متسكعون، بالإضافة إلى المحترفين من أصحاب المكاتب والمؤسسات الصغيرة، ذوي الأعمار المختلفة. وقد ذهب بعضهم بشبابه المخملي إلى ما بعد الستين. وكان فلوري باتشولا، المولود من أب أبيض وأم هندية، ذو القامة الصغيرة والكثير من حسن الكلام، وقوة الإقناع، قد قام بتفخيم خاص لحفلة أميرة السامبا والإثارة، ولم يأل جهداً ليُجعل من ظهور تريزا الأول على خشبة ملهى باريس الليغري أمراً جليلاً وحدثاً لا يمكن نسيانه.

3

بالنسبة لليلة عرض أول كانت تبدو شديدة الثقة بنفسها مع قليل من العصبية تعمل على إخفائها، وهي جالسة في ركن من أركان الصالة تنتظر وقت تغيير ملابسها، وهي تتحدث إلى لولو سانتوس وتصغي إلى تعليقاته الخبيثة المتعلقة بالزبائن. تكاد لا تعرف أحداً في المدينة بينما اللّسن كان يعرف كل الناس.

وعلى الرغم من الضوء الخافت وموقع الطاولة المنعزل فإن روعة تريزا لم تكن خافية على أحد. ولفت الأستاذ لولو انتباهها إلى إحدى الطاولات التي يجلس إليها شابان شاحبان يشربان كوكيتل براندي ويبدو شحوب أحدهما مرضياً:

- الشاعر لا يرفع عينيه عنك يا تريزا.
- أي شاعر؟ أذلك الشاب هناك؟
- وقف الشاعر ذو الشحوب المرضي رافعاً الكأس بيده متوجّهاً إلى تريزا واللسن، ويده الأخرى فوق ناحية القلب بحركة عريضة تعبيراً عن الصداقة والإخلاص. حرك لولو سانتوس اليد والسيجار معاً رداً على التحية:
- إنه جوزي سارايففا. موهبة عالمية. شاعر، ولكنه مع الأسف ذو حياة قصيرة.
- وماذا به؟
- مسلول.
- ولماذا لا يعالج نفسه؟
- يعالج نفسه؟ إنه يقتل نفسه ويقضي ليالي بيضاء وهو يشرب بوهيميا. إنه أكبر بوهيمي في سرجيبي.
- أهو أكثر بوهيمية منك؟
- لست شيئاً بالنسبة إليه، إني أشرب كميتي من البيرة، ولكنه لا يتقيّد بقاعدة، يبدو كأنه يريد أن يموت.
- أمر سيئ حين يريد الناس أن يموتوا.
- بعد عدة دقائق، وهو الوقت الذي يتناول خلاله الموسيقيون كأساً من البيرة عاد الجاز يصطخب. ومشى الشاعر لينتصب أمام تريزا ولولو:
- لولو، أخي، أرجو أن تقدّمني إلى إلهة الليل.
- صديقتي تريزا، الشاعر جوزي سارايففا.
- قبّل الشاعر يد الفتاة وهو مثقل بالشراب وفي عينيه مسحة حزن حاول إخفاءها ببعض الحركات المفتعلة بشكل فجائي:
- لماذا تخفين كل هذا الجمال؟ إنّ جمالك تزينه أمارات النعمة والشهرة. دعينا نرقص يا نعمتي الإلهية.
- وبينما هما يتوجّهان إلى حلبة الرقص، توقف الشاعر سارايففا أمام الطاولة ليجرع ما بقي في كأس الكوكتيل وقرب تريزا من رفيقه:
- أيها الفنان، تمتّع بهذا النموذج العلوي الجدير برافائيل وتيسيانو...

نظر الرسام جنر أوغوستو إلى وجه تريزا، ومنذ ذلك الحين لم يعد ينساها. وابتسمت تريزا بلطافة محافظة على المسافة، سئمة القلب، فارغته، وغير مهتمة بنظرات الإعجاب والتملق، وانسحبت بتمهل.

راح الشاعر وتريزا يرقصان. قطرات من العرق تنبع منه خوفاً من الفشل في قيادة السيدة ذات الحركة التي لا أخفّ منها، والإصغاء الذي لا طائل منه؛ كانت تريزا قد تعلّمت أن ترقص مع الأستاذ، بكمال، ناسية العالم عبر دفء الموسيقى وعيناها مغمضتان.

ومن المؤسف أن تكون مضطرة إلى فتح عينيها لتصغي إلى الشاعر المسكين الذي يخرج من صدره تنهّد عميق مع الكلمات الحلوة:

- هي أنت نجمة السامبا المثيرة، أليس كذلك؟ هل تعلمين أن إعلان فلوري لعرضك الأول هو قصيدة؟ طبعاً لا تعرفين، ولست تحتاجين إلى المعرفة، فدورك هو أن تكوني جميلة، ليس إلّا. في الحقيقة تساءلت عندما قرأت الدعاية: يا جوزي سارايفي الذي تعلّم كل شيء، قل لي، ماذا أعطت هذه الفتاة لباتشولا فتمكّنت من أن تجعل منه شاعراً؟ أما الآن فأستطيع أن أجيب. بل أستطيع أن أنظم لك قصائد دون أن أقتفي آثار فلوري الشعرية.

وهنا بالذات، أراد أن يردّد أبياتاً من الشعر الغزلي في غمرة الرقص على أنغام الجاز، ولكن يفعل ذلك بالتأكيد لو لم يقع بجانبه حادث هامشي جاء نقطة الانطلاق إلى الأزمة.

رجل وامرأة يدوران رقصاً على الحلبة وجهاً لوجه. أما الرجل فكان محاسباً متجولاً، يبدو عليه ذلك من ملابسه الأنيقة: سترة رياضية أنثوية، وربطة عنق جذابة، ولم ينسَ تصفيف شعره وطلاءه بالدهن اللّماع؛ ومن الطريقة التي يُغدق بها بالإغراءات والوعود على مسمع الفتاة التي بدت كل شيء من السمنة وقلة التجربة، وذات جانب من الرأس جذاب، وبعد أن كانت تبدو متلمّظة بمعسول الكلام و متمتّعة بأناقة ولطافة النجم اللامع، فقد عبّرت فجأة عن ارتباك وقلق وعادت تنظر إلى باب المدخل. وصاحت فجأة:

- "إنه ليبيوريو، نجّني يا الله"، فرّت من ذراعي شريكها وأرادت أن تهرب فلم تجد مكاناً، ثم بدأت بالبكاء مرتعبة.

كان ليوريو الذي أحدث دخوله، برفقة ثلاثة مرافقين، ارتباكاً لدى الفتاة، شخصاً طويل القامة يرتدي اللون الأسود وكأنه في حداد وذا عينيْن ناعستين وشعر أشعث وكتفين منحنيين وفم أشدق. إنه من الناحية الجمالية على عكس الجمال تماماً، وبدا كأنه راجع من دفن. توجه نحو حلبة الرقص ووقف أمام الفتاة الخائفة وقد سُمعت له خُنة في الصوت:

- أهكذا يا عاهرة ذهبت تزورين أمك المريضة في بروبريا؟

- ليوريو، لا تثر فضيحة، حباً بالله.

ابتعد المحاسب المتجول، وقد اكتوى سابقاً بمشيلات لها، ولكي لا يوسّخ سجله مرة أخرى في المختبر الصيدلي الذي من أجله يسافر إلى باهيا وسرجيبي والأغواس متنحياً إلى مسافة بعيدة، في حين أن زملاءه في المهنة كانوا قد انتصبوا واقفين لمساندته إذا اقتضى الأمر.

وكان الشاعر قد همَّ بالرجوع إلى الرقص دون أن يعير أهمية كبيرة لما يحدث، ولكن ما هو أكثر شيوعاً في الملهى هو نطحة القرن الخطيرة. وها هي الصفة تأتي مدوية إلى حدّ غطّت معه على صخب الجاز...

أوقفت تريزا خطوها الراقص في الوقت الذي شاهدت فيه يد الفظّ الغليظة تهوى ثانية على وجه الفتاة وسمعت صوته الأخن يقذف بكلمات طالما سمعتها في السابق: "تعلمي أن تحترميني يا كلبة؟"، الصوت كان مختلفاً ولكن العبارة هي نفسها وكذلك وقع يد الرجل على وجه المرأة.

في البرهة نفسها أفلتت تريزا من ذراعي الشاعر سارايفيا واتجهت نحو الاثنين:

- الرجل الذي يضرب امرأة ليس رجلاً، إنه جبان...

إنها أمام الطويل القامة، ترفع رأسها إلى أعلى وتخبره:

- وأنا لا أضرب الجبان ولكني أبصق في وجهه.

وانطلقت البصقة، متدربة منذ صغرها على إجادة كل أنواع العراك والحرب مع الأولاد السيئ التربة فإن تريزا باتيستا كانت تجيد التصويب، ولكن البصقة هذه المرة بسبب طول الشخص المصوّبة إليه أخطأت الهدف، وبينما نظر الرجل شزراً، استقرّت البصقة على الأرض.

- يا بنت الزانية!!

- إذا كنت رجلاً فتعال واضربني.

- فوراً يا زانية.

- عجل إذا.

اقتربت ولكنها لم تنتظر أن يُسرع إليها، فوجهت إليه رفسة مستهدفة بها خصيته، ولكنها أخطأت هدفها ثانيةً فالرجل كان ذا فخذين قطبيين.. وفقدت تريزا توازنها فانتهاز أحد مرافقي الرجل المتطايير العينين شزراً الفرصة، وأمسك بها من الخلف، شاداً ذراعيها، وواضعاً وجهها أمام متناول الآخر. ولم يكتف ليوريو بضرب المرأة بل استعمل لذلك قبضة يده فحطمت الضربة فم تريزا.

قفز الشاعر سارييفا فوق قليل الحياء الذي يؤدب نجمة السامبا الدافئة، فوقع الثلاثة أرضاً. وبقفزة واحدة انتصبت تريزا لتبصق من جديد في وجه ذلك النموذج الفظ، ولكن البصقة هذه المرة كانت دماً وقطعة من سن صغيرة. واستجمع الفريقان قواهما: من جهة مؤيدو ذي القرنين الكبيرين، ومن جهة أخرى الرسام جنر أوغوستو وهو بعض شفتيه، والمحاسب المتجول الذي كانت قد قادتة الحيلة إلى إهمال رفيقته وتركها لقدرها؛ أما الفتاة المجهولة فقد قامت بما يجب القيام به. واستمر الجاز بالعزف ولكن الراقصين أهملوا الحلبة تاركين إياها خالية للمشاهدين؛ ووقف أحدهم فوق الطاولة وبيده ورقة من فئة عشرين كروزيرو وراح يتحدث بصرخاته الحيوانية:

- إني أراهن بعشرين كروزيرو على الفتاة، فمن يدفع؟

وتمكنت تريزا من الإمساك بشعر التيس الأشعث تريد أن تقتله بينما هو يحاول أن يهوى بقبضة يده على فمها من جديد ليكسر لها سناً أخرى؛ ولكنها، سريعة، لبقة، كانت تحمي نفسها بعيدة عن متناوله وتستمر شداً بخصلات شعره الطويلة، تبصق على وجهه وتنتظر الفرصة المؤاتية لتسد له ضربة بجذائها على خصيته، وتحلق الزبائن حول حلبة الرقص ليزيدوا من متعتهم بالمشهد المثير. أما الفتاة التي تسببت بكل ما يجري فإنها كانت ترافق الضربات من بعيد ولا تعرف إلى جانب من يجب أن تبقى.

خلال العراك وصل إلى المكان هندي ذو عضلات لفحتها الشمس وجلد عملت فيه رياح البحر، وبعد أن شاهد بعض الجولات، قال للجميع:

- بحق السماء، إني لم أشاهد حتى اليوم أنثى أجمل عراكاً من هذه المرأة.
في تلك اللحظة ظهر رجلاً أمن بلغهما الضجيج فعرفا ليبيوريو وأصدقاءه، ثم
وزنا بنظراتهما الزبائن وانطلقا غاضبين نحو تريزا مع الاستعداد اللازم لتعليمها
كيف تكون المناطحة.

- إلى هناك، أنا من يهذب يا يانسان. أطلق الهندي صرخة الحرب هذه
ولم يعرف أحد لماذا يا يانسان. هل قالها وهو يعني تريزا منادياً إياها، دون
خوف، باسم رمز من رموزه الإلهية، يريد بذلك أن يظهر أمام الجميع الأكثر
شهامة، أم أنه أراد أن يلقن أمثلة للداخلين في معركة مع المعلم جانواريو
جريبيا؟

جعل دخول الهندي الجميل رجلي الأمن يفرّان كل واحد باتجاهه، فمنع
أحد أتباع الطويل القائمة عن وضع كعب حذائه في وجه الشاعر جوزي
سارايفيا صاحب الصدر الضعيف والقلب المتعب، وقد تمدّد أرضاً دون
كلمة... وصل إليه الهندي، كأنه الإعصار، فرفعه وعاد يتابع الجولة بينما عاد
الحارسان ليقفا من جديد. وعندما شعر أحد مرافقي الفظ الغليظ مسدسه
مهدّداً بإطلاق الرصاص انطفأت الأضواء. كانت آخر صورة شوهدت هي
منظر لولو سانتوس واقفاً على عكاز واحد والسيجار في فمه ويدور بالعكاز
الآخر في الهواء. وما كادت الظلمة تسيطر على المكان حتى سمعت صرخة
حيوانية أطلقها ليبيوريو، سببها أن تريزا كانت قد أصابته بضربة عنيفة من
رجلها في المكان الذي يجب أن يضرب فيه. لم يتمّ العرض الراقص الأول في
تلك الليلة، وما تمّت مشاهدته من عرض قليل قامت به أميرة السامبا في باهيا،
لم يكن وحده السبب في جعل ظهور تريزا على حلبات رقص أراكاجو حدثاً لا
ينسى. أما الطبيب، جراح الأسنان جميل نجار الذي كان قد راهن بعشرين
كروزيرو، فإنه لم يتلق شيئاً من أميرة السامبا ليركب لها سناً من الذهب مع
الكثير من الجفصين في لثتها العليا حيث هوت قبضة الحديد على فم تريزا لتشق
لها شفتيها، فبالنسبة إلى جراح الأسنان، إذا كان لا بدّ من المطالبة بدفع، فالدفع
هذه المرة لا يتمّ بالمال.

اعتنى فلوري بآثار الجراح على فم تريزا باتيستا، وبقي الأمر متوقفاً على كلمة يقولها جراح طب الأسنان ليتمكن صاحب الملهى من تعيين تاريخ جديد لعرض تريزا الأول الذي أصبحت جماهير الزبائن تترقبه بكثير من الشوق، ودون أن يضطر إلى تأجيله مرة أخرى.

أما طبيب الأسنان جميل نجار فقد اتخذ من العلاج فرصة ذات فائدة ليصل إلى مبتغاه: "إنه عمل راق يا عزيزي باتشولا، وليكن ما يكون، فهو يحتاج إلى فن وعناية كبيرين؛ إلى أهلية، تحتاج الوقت الكافي لتصل إلى الكمال؛ والمسألة ليست مسألة سن ذهبية وحسب بل مسألة تلاؤمها مع الفهم الإلهي، ولا يمكن أن تكون غير مدروسة كأنها عمل تجاري، فالأمر دقيق وحساس".

أما فلوري فلكى يستعجله قال:

- "إني أفهم جيداً هواجسك الوجدانية يا حضرة الطبيب الذي ركب لي أسناني الاصطناعية. ولكن عليك أن تذهب بخفة، فلا تضع الصبغ الذهبي، أرجوك"، وبينما كان فلوري يفكر في أساليب الدعاية التي سيستخدمها للعرض المقبل. كانت اللوحات الملونة قد علقت في كل زاوية من زوايا محلة فاوستو كاردوزو، قرب القصر الحكومي، وكتب عليها بحروف بارزة: "قريباً جداً، في ملهى باريس الليغري، إمبراطورة السامبا المتألقة"، "السامبا بنفسها ترقص"، "راقصة السامبا الأولى في البرازيل". إعلانات فعالة في نظر فلوري ولكنها ناقصة ودون ما تستحق النجمة الكبيرة. أما لائحة المولعين براقصة السامبا التي لا مثل لها فيجب أن تحمل أولاً اسم صاحب الملهى نفسه، قبل اسم المحامي وطبيب الأسنان المؤهل، والشاعر والرسام، وإذا لم يكن من أسباب موجبة لذلك، فعلى الأقل لأن صاحب الملهى هو من يدفع التكاليف، مع أحكامه المسبقة، على عائدات الليلة المثمرة، المجيدة.

الجميع مشوشون. أما فلوري الذي شاب وهو يتعامل مع الفنانين فقد وجد أنه من الضروري القيام مساء بتمارين يومية، بينما النشاطات الطبية جارية على أسنانها وشفرتها المتماثلة للشفاء، بغية محافظة أميرة السامبا على الانحناءات الخلفية اللازمة للسيطرة على التوازن؛ والأمثل في تلك التمارين هو التدريبات الإيقاعية،

وفي هذه الحال يكون العازف هو فلوري باتشولا نفسه ذو المواهب المتعددة: بيانو،
قيثارة، كمان، مغني أناشيد عميان...

ولكن كيف يواجه انحراف المعجيين من الذين يأتون خلف الراقصة، من
أمثال طبيب الأسنان والشاعر والرسام والمحامي اللّسن ليزعجوا التدريب ويفسدوا
على فلوري مخططاته المبيّنة.

كان فلوري قد وصل إلى أراكاجو منذ أكثر من عقد من الزمن بصفة
مسؤول عن تصفيات شركة جوتا بورتو وألما كاسترو وممثل رسمي لمجلة "أين يحرق
الفلفل؟" التي ستقدّم على مسرح ركريو في الريو دي جانيرو ثلاثمائة عرض، ولكنه
كان في أراكاجو أقل نجاحاً وسعادة (بالكلام فقط) منه عن رحلته إلى الشمال.

وعندما حلّ فلوري محلّ المندوب المفوض في سان لويس دو ماراتيا، كان ما
يزال شاباً متحمساً لم يتكشف بعد عن موهبة الإداري لبيوت وشركات العروض
الفنية. ولم يكن يمتلك بعد الخبرة الفنية لذلك، لكن الخبرة ما لبثت أن تكونت إثر
سلسلة من الصدمات خلال الرحلة من سان لويس إلى بلين فمناوس. وخلال
رحلة العودة طلعت له الجميلة ألما كاسترو فولّهته وجعلته يتخلّى عن وظيفته في
شركة تصدير الباباس؛ ولكن المسألة كانت ذات نهاية غير مرتقبة، لا انفعالات
فيها. وعندما علم بانصراف عازف البيانو المفاجئ والخياني، ولأنّ عينه على المغنية،
عرض نفسه عازفاً ليستمر العمل، ثم أوكلت إليه مهام مساعد للمتعهد الفني
والنجم الرئيسي جوتا بورتو في كل ما هو متعلق بالمشاكل العملية والالتزامات تجاه
المشرفين على المسرح وعلى شركات النقل وأصحاب الفنادق وغيرهم من رجال
الأعمال.

عند الحلول في مدينة جديدة، كان يعمل على تقليص أهمية المندوب الرئيسي.
وفي أراكاجو غدا العرض المسرحي مكماً لأوقات السينما، وعندها، لم يعد المكان
يدعى شركة ألما كاسترو وجوتا بورتو، فقد تقلّص الاسم وأصبح مجموعة ألما
كاسترو. وبعينين مبلّتين بالدموع، جمع جوتا بورتو آخر نقوده المعدنية، ورأى
نفسه خارجاً منهزماً بعد أن قبل ألما كاسترو في جبهتها وفلوري على خديّه، وهو
متشكك من الأخير، وإذ ذلك وجد المخرج المسرحي الذي كانت الفتيات يفقدن
النوم وهنّ يفكرن فيه نفسه مجبراً على التخلي عن كل شيء بسهولة.

وجاء فلوري إلى ريسي في مع السيناريوهات وحافظة الملابس والكمائن وأربعة رسوم كبيرة من ضمنها رسم ألما كاسترو. ودون أن يكون معه قطعة نقود معدنية فائضة، بلغ قمة الاحتراف المسرحي. ولكي يبرهن كم كان قادراً، فقد تمكن المدير العام الجديد من أن يقدم العرض نفسه في ماسيا وبينيدو وأراكاجو.

في أراكاجو، ولكي يسمح بانطلاق العاملين معه إلى الريو، ترك نفسه رهينة في الفندق الذي حجز المعدات، لأن الفرقة كانت عاجزة عن دفع المصاريف؛ ومن الريو دي جانيرو أعطت ألما كاسترو الأمر الضروري لإطلاق سراح المدير الجديد والخطيب السابق.

لم تكن تنقصه علاقات الصداقة والجنس في مدينة الريو، انطلاقاً من القائد سانتوس فريرا العضو البارز في جمعية لوز برازيليرا، وكذلك في أخوية ألما كاسترو، إلى الآخرين من كبار السن الأغنياء وأصحاب النفوذ والمشاهير وذوي المراتب العليا؛ وبفضل هؤلاء لم يتم إعطاء أي أمر للقيام بأعمال خشنة.

بعد عشرة أيام في الفندق، اكتشف السيد ماروزي أن بقاء الأسير في غرفة مزدوجة يأكل بمقدار ثلاثة نزلاء لم يكن إلا ليزيد تكاليفه، فاعتبر المال مفقوداً والأمر منتهياً، حتى إن مدير الفندق ماروزي عرض مساعدته لتحمل تكاليف السفر؛ لكن فلوري، وقد أخذه الشغف بالمدينة الجميلة المضيافة، أثر البقاء، وبقي يتابع الحركة المسرحية، مكوناً لنفسه المادة والتجربة، وامتهن تدريجياً حرفته، من موظف في ملهى إلى مدير فشريك فصاحب ملاهي تور إيفل وميرامار ولاغارسون وأورو فينو، إلى أن بلغ ملهى باريس الليغري.

راحت تريزا تتدرب مرتدية ملابس، هي ملك الشركة. حتى الآن: قبعة ريش، وسترة شفافة، وأوفرول... وبقي جزء كبير من جسدها عارياً؛ ولكن لماذا يبقى عارياً؟

وراء البيانو كان فلوري حزيناً يستنكر في قرارة نفسه وجود حاشية الأدب والفن والقانون، وعلى الأخص وجود طبيب الأسنان؛ وكل الحاشية عند أقدام تريزا باتيستا. ولكنه، أبعد من معرفته بكل ما يجري، فقد كان فلوري عنيداً، مقاوماً، علّمته الأيام كيف يكون صبوراً؛ وما دام هو سيد الملهى ورب عمل النجمة الكبيرة، فمن في الميدان أفضل منه؟

الجميع مغرمون، وليس أقل منهم غراماً. المحامي اللّسن لولو سانتوس الذي، على الرغم من عكازيه، كان له صيت زير نساء خطير. جميعهم حول تريزا، وكل واحد يُظهر نفسه أكثر غراماً بها.

الشاعر سارايفنا كان قد أعرب عن توله في ديوان شعري غنائي كانت تريزا مصدر إلهام لبعض أهم قصائده في الجزء الذي أسماه فتاة النحاس، وكان هو من أعطاه ذلك اللقب الذي عُرفت به فيما بعد.

أما طبيب الأسنان جميل نجار وهو ابن عربي، ذو دم حار، فكان قد عرض عليها أن يجعلها سعيدة بينما كان يمسك بقمها مفتوحاً ويضع لها السن الذهبية، وكان الرسام وهو يحدّق فيها بعينه الزرقاوين العميقتين، يبقى صامتاً، وهو يجلس في مكان خلفي ويرسم لها لوحات ملوّنة، كانت هي الرسوم الأولى التي رسمها جنر أوغوستو لتريزا باتيستا، وطُبعت في كتيّب لائحة الأسعار وكتيبات الإعلان عن النشاطات الفنية اليومية.

وكانت كل رسوم تريزا من صنع جنر أوغوستو إذا لم تخن الذاكرة، ما عدا اللوحة التي تمّ رسمها في محترف النهر الأحمر، عندما ارتأت تريزا أن تعرض نفسها نموذجاً لذلك الإطار الكبير الذي تقف فيه فوق الذهب والنحاس، وتبدو امرأة كاملة، في قمة الجمال، وزهرة العمر، وترتدي الملابس نفسها التي كانت ترتديها في باريس الليغري: قبعة ريش صنع باهيا وأوفرول قصير شفاف فوق صدرها النافر، بينما فحذاها عاريان ولون بشرتها وضّاء شيطاني.

كانت تريزا تسخر من هؤلاء وأولئك؛ وعلى الرغم من اللطافة والالتزام بما يحيط بها من الطيبين رقيقي الإحساس الذين يغمرونها بالقصائد الغنائية، فقد كانت تفتش دائماً عن صداقة حقيقية لحاجتها إلى حرارة إنسانية.

ولم تكن تعطي نفسها بسهولة، وذلك، ربما لأن المهن الوحيدة التي أتيح لها أن تمارسها كانت مهناً تناط فقط بخادمة تقوم بالأعمال كافة، من داعرة إلى عشيقة، ولأنها كانت قد تمدّدت في فرش رجال عديدين، وذلك خوفاً بالدرجة الأولى، وكسباً للحياة بالتالي. وعندما كانت تحسّ بالرغبة فقد كانت تنتفض مسعورة من الفراش لأنها لا تقوم بذلك إلا عن حب، ولا يكفيها الميل العابر. فلا محترف الفن فلوري، ولا الطبيب المرشح للزواج منها، ولا اللّسن لولو سانتوس، ولا الرسام

الصامت ذو العينين النافذتين، ولا الشاعر، للأسف، لا أحد من كل هؤلاء قرع باب قلبها وأشعل الشمعة المنطفئة فيه. لو قال لها لولو سانتوس يوماً: "يا صديقتي أريد أن أنام معك فإن لم تفعلي تأملتُ أكثر مما أستطيع تحمله لذهبتُ وإياه دون اكتراث، بعيدة الروح لأنها تمارس عملاً، ولأنها مدينة للمحامي بخدمة سابقة، إذا فرض عليها أن تدفع الدين بجسدها فلن تنكر عليه حقه وليكن ذلك واجباً مؤلماً من الواجبات التي يجب أن تلتزم بها. ولو وصل مرة الشاعر جوزي سارايفا بربطة عنقه السخيفة، وكالعادة يسعل فيصطخب البلغم في صدره، وقال لها إنه يموت سعيداً إذا اضطجع معها قبل الموت لتمدّدت في فراشه بالطريقة نفسها، ولكانت تفعل الشيء نفسه مع مموّ لها بالدفع الآجل فلوري باتشولا، ومع الشاعر المولّه. أما أن تعطي نفسها بلذّة ورغبة، فهي عاجزة عن ذلك. كما هي عاجزة عن أن تبدي اهتماماً بأحد، فهذا الأمر مستحيل هو الآخر، وحتى تكون هي نفسها في الفراش وبالعلاقة حب، فيجب أن تدفع سعراً مرتفعاً وبعملة صعبة اسمها الشقاء. واكتفى اللّسن والشاعر بإبداء رغبتهما دون أن يطلبها منها ذلك، ومكثا ينتظران لأنهما لا يريدانها بالتسوّل والمال.

أما الآخرون فقد طلبوا مرات متكررة وتوسّلوا، ولكنهم لم يحصلوا على شيء، ولو أن ذلك كان ليتمّ بأي مبلغ من المال ويجعلها غنية، لما كانت لتفعله؛ وما دام في حقيبتها بعض المال وهي تنتظر أن تنال أجرها كونها راقصة سامبا، فستبقى سيدة نفسها مع ذلك، وإن وقتاً قصيراً.

عندما وصلت لتقيم في غرفة مؤجرة في دار العجوز أدريانا وفقاً لاقتراح لولو، تلقّت عرضاً مغرياً عرضته عليها فراندا صاحبة بيت الدعارة الأكثر أناقة والأعلى سعراً في أراكاجو. فراندا تلك، السيدة الجنوبية، لا يعطي مظهرها العمر المسجّل لها في سجل الولادة، حسنة الطلعة، لبقة في المفاوضات، ثرية المظاهر تغطّيها الملابس الحرير وتنتعل الكعب العالي. وكانت تريزا قد سمعت باسمها يتردّد على لسان النقيب الذي كان يسيطر في ذلك الحين على أراكاجو. كانت فراندا قد أصبحت على علم بوصول تريزا بواسطة لولو سانتوس الزبون الدائم والعليم، من يدري؟ إنها أمور من الماضي.

وجاءت فراندا شخصياً لتقدّم العرض بنفسها لتريزا فتناولت المهفة وطردت العجوز الفضولية أدريانا بنظرة باردة، ألقتها عليها:

- إنك أجمل مما وصفوك لي يا تريزا...

هكذا بدأت عرضها.

وراحت فراندا تصف لها بيت العزّاب المسمّى راندي فو. دار واسعة قديمة تقع بين الأشجار وسط مساحة من الأرض مسيّجة بجدران عالية حوّلت الغرف الكبيرة إلى غرف حديثة. وتقع غرفة الانتظار في الطابق الأرضي. وفيها أسطوانات موسيقية وغرامافون ومشروبات، وفيها تُعرضُ الفتيات المتفرغات. أما الطابق الأول فتستخدمه فراندا لاستقبال رجالات السياسة والأدب والفن وأصحاب المصانع وكبار الفنانين، وهناك، غرفة الطعام، والمشمّل، و"تستطيعين يا تريزا أن تقيمي معنا إذا رغبت". كانت تظهر لها الاحترام بينما تعرض عليها المأوى والعمل حيث تقيم بعض المختارات من النساء الأجنبية اللواتي امتلأن بالمال وأخذن يعدن إلى الجنوب...

وتريزا تستحق الاستثناء، فإذا لم تشأ أن تقيم فباستطاعتها أن ترتاد المكان، عصرًا، وليلاً، في ساعات الحركة، حيث تخدم فراندا الجميع دون تمييز، وعلى قدم المساواة، ما داموا يدفعون التعريفة المحددة. وإذا شاءت تريزا استطاعت أن يكون لها زبائنها الخاصون، من أصحاب الامتيازات؛ وعرضت فراندا الواضحة في حديثها أن تختار لها الزبائن من النخبة وذوي الإمكانات المالية الكبيرة المدرّجين في مفكرتها، وهم أقل تطلباً وأكثر دفعاً للمال؛ وإذا كانت مؤهلة بقدر ما هي جميلة، فإن لديها المجال لأن تربح مالا سهلاً وسريعاً، وإذا لم تكن ذات نوبات جنونية تجعلها تلقم المال "للمعتاشين من مال العاهرات" فستصبح فاحشة الشراء.

كما أن تريزا ستتعرف إلى مدام جيرترود، الفرنسية، التي، بالمال الذي تربحه هناك، ستشتري داراً وأراضي في منطقة الألزاس، وهي مزمنة على العودة إلى الوطن في العام المقبل لتتزوج وتُرزق أطفالاً، إن شاء الله.

أوقفت فراندا المهفة، ففاحت رائحة مسك قوية امتزجت بالهواء الحار، بعد ظهر ذلك اليوم الصيفي، وكانت تريزا قد أصغت بصمت إلى العرض الكامل بكل ما فيه من المقترحات المغرية والمتعددة مبدية الاهتمام الأدبي، وعندما مطّت فراندا ابتسامتها العريضة منهية حديثها، أجابتها تريزا:

- "لا أنكر أني تعاطيت الدعارة سابقاً وأستطيع أن أعود إلى ممارستها إذا اضطررتني الحاجة، ولكني، حالياً، لست مضطرة إلى ذلك، وأشكرك. ربما في يوم ما". كانت قد تعلّمت الأساليب والطرق المهذّبة والفعّالة مع الأستاذ، وعندما كانت تتعلّم شيئاً فلا تنساه. كما كانت المعلمة مرسيدس في الابتدائية تُثني على ذكائها وشغفها بالدرس.

- وإن مرة واحدة، إذا دُفع لك مبلغ كبير، ودون التزام يومي، استجابة لنزوة واحد من الكبار؟ تعرفين أن أفضل قوم في أراكاجو يرتادون بيتي.
- لقد سمعتُ عن ذلك ولكن لا يهمني الأمر. اعذريني.

عضّت فناندا على طرف المهفة متكدّرة. فتاة مثلها بملامح الفجريات وذات جمال متفرد تسبقها الشهرة، هي اللقطة الأخيرة، بل قطعة الحلوى، للأسنان المتبقية، وعضّة الناب للزبائن المصّرّين، إنها المال داخل الصندوق.

- إذا قرّرت يوماً فيكفي أن تفتّشي عني... أيّ شخص يعلمك عن مكاني.

- شكراً جزيلاً... مرة أخرى أستمحك العذر.

وعادت فناندا من عند الباب المؤدّي إلى الشارع:

- هل تدرين أنني أعرف النقيب جيداً؟ كان أحد زبائن البيت، هناك.

انقبض وجه تريزا مسوداً كأن الليل قد هبط فجأة على المدينة:

- لم أعرف في حياتي نقيباً.

- لا؟

ضحكت فناندا، وانصرفت.

5

هناك لا أحد يلامس قلبها ولا أحد يوقظ فيها رغبة دفينّة فيشعل الشمعة المنطفئة. أصدقاء، أجل، البعض منهم: المحامي اللّسن، الشاعر، الرسام، وطبيب الأسنان، وصاحب الملهى. أما كعشيق فلا أحد. ومن ينسجم في صداقته مع امرأة جميلة؟ ومسائل القلب من يستطيع أن يفهمها ويفسّرّها؟

كم هو فسيح عالم أراكاجو حيث مشى الهندي العملاق. ذلك المتحضر ذو الدم الهندي، النقي، الخارج من الماء وقد أحرقت الشمس ولفحته الريح؛ أية نهاية حملته؟

تكاد تعرفه فقد لمحته أثناء العراك في الملهى وتعرفت إليه خلال الكأس التي احتسيها معاً في البار الواقع في نهاية الشارع عند آخر الليل. واختفى عند الفجر، لدى الضوء الأول؛ هو والفجر لون واحد، معدن متشابه، وفي الفجر ذاب العملاق الأبيض. عبر انسياب الضوء عند أواخر الليل وأوائل النهار رأته تريزا غارقاً في الصمت. كان يضرب الأرض بقدميه؛ ذراعاه في البحر، وشعره غيمة مطر في سماء زرقاء قائمة... لقد وعد بالرجوع. وحده، وضع حداً للعراك، ضاحكاً، متكلماً بصوت مرتفع، متوجّهاً إلى الحاضرين والغائبين، إلى الأشخاص والرموز. كم هو رائع في تقنية الهجوم والدفاع. عندما شهر أحدهم مسدسه في الملهى مهدداً بإطلاق الرصاص أطفأ فلوري الضوء، وأصبحت المسؤولية جماعية، وهكذا انتفت قانوناً، فمن يستطيع أن يعطي شهادة عما كان سيحدث في الظلام؟ عندما انتزع الهندي المسدس بحركة سحرية، ولو أن رجل الأمن لم يُدر فوهة السلاح إلى الأرض ويطلق الرصاص حتى لا يقال عنه كذاب، لكان الهندي نفسه قد فعل ذلك بكل برود ولطف. كل هذا حدث بقفزة واحدة في الهواء قام بها الهندي الطائر العملاق ذو العضلات التي لفحتها الريح والذي اسمه جانواريو جيريا. وجيريا أليس مشتقاً من ييريا العملاق؟ أليس جيريا ملك طير البحر، الطائر الكبير؟ هكذا عرفته وهكذا اكتشفته، ولكن كم كلّفها الأمر حتى تعرفه بما فيه الكفاية؟

عندما انطفأت الأضواء في الملهى، ازداد اللغط وبدأ يتسع، وحدث كل شيء سريعاً، ما لم يعط فرصة المتعة والإشباع الغرائزي لبعض الزبائن والفضوليين الذين انضموا إلى الحلقة. وعند صرخة "لقد جاءت العصا" التي أتت إنذاراً من الشارع تفرّق المشاهدون قبل أن تصل إمدادات الشرطة التي كان أحد رجال الأمن قد خرج ليأتي بها.

في الظلام، شوهدت تريزا أرضاً، فرعتها ذراعان وحملتاها عبر السلم الأسفل إلى الشارع، وراحتا تطوفان بها المنعطفات عبر أزقة ضيقة بطريقة صامتة بينما تفوح من صدر العملاق رائحة الملح. أخيراً وضعها واقفة على رجليها في هدأة ركن منعزل من الشارع، ووقف أمامها وهو يتسم:

- "جانواريو جيريا في خدمتك، في باهيا يعرفونني أكثر باسم المعلم جيريا ومن يحبني يسميني جانو". عندما يضحك يخيم السلام فوق العالم: "لقد جئت بك

من تلك المعمة لأجيبك الشرطة التي لا توقّر أحداً، هنا، وهناك، وفي أي مكان آخر".

- "شكراً جانو"، قالت تريزا، الحب لا يُشترى ولا يُباع ولا يتمّ بسكين في الصدر ولا يمكن تجنّبه، إنه يحدث.

يذكّرنا الهندي بأحد تعرفه، بمن؟ مهنته بحار، قائد مركب شراعي ومرفأه باهيا في مياه جميع القديسين ونهر براغواسو؟ ترك مركبه فلور داس أغواس في ميناء رامبا دي مركادو. لم يكن في الحقيقة عملاقاً كما بدا لها في العراق، ولكن ينقصه القليل ليكون كذلك. يخرج، ما يشعرها بالهدوء من صدره الرخامي، ومن عينيه الضاحكتين ويديه الغليظتين، ومن كل ما فيه، وهو يغرس رجله مجدفاً عبر نسيم البحر... لا، ليس هدوءاً بالمعنى الدقيق؛ وتصلح تريزا فكرتها: إنه بالتأكيد شعور قادر على الانفجار والإتيان بما لا ينتظر! إنه إحساس بالأمان وبالحقائق الثابتة. يا إلهي من يشبه هذا الرجل الخارج من البحر؟ ليس إنه يشبه الآخر بوجهه وشكله وقد تذكّرت أحداً تعرفه ممن تعرفهم. إنها بقربه لا تشبه مهتاجة خارجة من عراق، ولا تحسّ بخجل وهي تسمعه يروي أنه دخل إلى باريس الليغري في اللحظة التي كانت تبصق على وجهه الوضع؛ إنها في نظره امرأة شجاعة تستحق أن تُرفع لها القبة احتراماً.

- لست شجاعة أو أي شيء من هذا القبيل، ولكني لا أستطيع أن أرى رجلاً يضرب امرأة.

- "من يضرب امرأة ويضطهد طفلاً ليس زهرة عطرة"، وافق العملاق، "ولكني لم أشاهد البداية، وهكذا كانت إذاً؟"

في أراكاجو وجد جيريا طريقة ليخدم صديقه صاحب الطوافة فنتانيا، كايانو غونزا، الملقّب بأمير رخفة البحر، والذي استنجد بجانواريو في ساعة الضيق. والصديق لمثل هذه الأوقات وإلا لما يصلح الصديق؟

ولكني يعوّض الخسارة التي لحقت بصديقه الذي خذله صاحب سفينة بسبب لفرض الذي ألمّ به لأن صاحب البضاعة كان على عجلة من أمره ولا يمكن أن يؤجل موعد الإقلاع، فقد أطلق جانواريو جيريا العنان لمركبه في ميناء رامبا في رحلة عمل جميلة، والهواء الخفيف قد جعل البحر في عيد. ليلة الحادثة، وصل مساءً

إلى مرفأ أراكاجو، فأرسي لتفريغ شحنة التبغ والحصول على حمولة جديدة لتأتي الرحلة ببعض المكاسب الإضافية. عدة أيام في أراكاجو، لنقل إجازة. وبقي صديقه على متن المركب، وخرج هو تفتيشاً عن حلبة رقص والرقص نقطة ضعفه. وبدلاً من الرقص معركة، ومن المعارك الجميلة. وراحا يمشيان بلا هدف أو أي إحساس بالسوق. "لا بد أن يكون في هذه المدينة مكان مفتوح يمكننا فيه أن نشرب جرعة ما، نخب النصر وتعرف الواحد بالآخر". قال هذا وضاع الاثنان، هو يحكي وهي تصغي، تسمع أمواج البحر تتكسر، والهواء يعصف في الأشعة، واضطراب المياه عند غطس الغواصين إلى الماء؛ تريزا لا تعرف شيئاً عن البحر، وهي المرة الأولى التي ترى نفسها فيها قرب تهدب مياه المحيط المالحة، هنا أمامها، في صلصال أراكاجو بعيداً عن المدينة. تشعر، قربها، بخطوة رجل البحر المتهاوية، ذي الصدر الذي أحرقت الشمس وعملت فيه عوامل البحر والعواصف. أشعل جانواريو سيجاراً من التبغ المعجون: "في البحر أسماك وأنواء، وفيه الأخطبوط الأسود وأسراب المرجان، وفي البحر مراكب آتية من الجانب الآخر من هذا العالم، وفيه نباتات...".

- نباتات؟ في البحر؟ كيف يمكن أن يكون؟

واستمر يسيران. من مكان قريب، عند مدخل نصف مختبئ يقف فيه "قواد" كأنما لا عمر له يدعى ألفريدو يعمل لحساب أندراي صاحب السوق العمومية. هناك سُمع صوت اللسن وتعالى ضجيج عكازيه:

- آي... أنتم انتظروني.

- إنه لولو سانتوس يفتش عن تريزا، خوفاً من أن تكون قد وقعت ضحية خدعة من خدع ليبوريو أو رجال الأمن. وبمعرفته بكل خمارات أراكاجو دعاها إلى شرب كأس تذكارية، قريباً من هناك. اكتفت تريزا بعلامسة الكأس لشفيتها، فهي لم تألف تذوق الكاشاسا الحادة وذات الرائحة الخشبية. أما المضيف فقد راح يتناولها جرعات صغيرة، متلماً بها كأنما يشرب محلولاً من الدرجة الأولى، كنيذ بوردو أو كونيكا فرنسا، أما المعلم جيريا فقد قلب الكأس إلى جوفه دفعة واحدة:

- "أسوأ المشروبات هو الكاشاسا... من يشربه ليس بذي فائدة"، وبينما كان يضحك طلب كأساً أخرى. وراح لولو يروي آخر أخبار المعركة: "عندما وصل رجال الشرطة في نهاية الأمر، وجلوه جالساً مع الشاعر سارايفنا وفلوري

وهما يشربان البيرة بهدوء. أما ملك الاشمئزاز ليبوريو، فقد هرب. وتخيلي يا تريزا بمساعدة من؟ بمساعدة التي تلقت الصفعات وتسببت في كل شيء، إذ عندما سمع ليبوريو صفارات سيارات الشرطة أصبحت يدها أعلى من عناقيد العنب وهو يصرخ بأنه يستسلم ويطلب طبيياً، ويدّعي أنه أعيق، وهي، إذ لم تعد تلمح، في الصالة، المحاسب المتجول، فقد نسيت الصفعات التي تلقتها، وراحت تساعد السافل على النهوض ونزلا السلم معاً. إنهما يتشابهان، هي معتادة على الخيانة والانزلاق، وهو يعيش حياته في رذيلة الجرم المشهود والفضائح. صنف سافل من البشر"، استنتج لولو سانتوس. أراد الشاعر سارايففا أن يذهب به إلى نزل تيدينيا المفضل لدى الشاعر لقضاء أواخر الليل في أراكاجو، ولكن اللّسن المنشغل التفكير في تريزا رفض الدعوة. وراح الشاعر وحيداً، في صدره الصدمة وفي حنجرته الصهيل. وتفرّقوا بعد الكاشاسا. أوصل اللّسن تريزا في سيارة التاكسي إلى بيتها. إنه سافل حقير ليبوريو ذاك، والمشاكل تعيش معه في الفراش وتجلس إلى مائدته، وهو لا يستحق تسهيل الشرطة لأمواره.. ومن نافذة السيارة كانت ترى المعلم جانواريو جيريا يسير ناحية الجسر من حيث سيصعد إلى الطوافة... كان بلون الفجر وفي الفجر ذاب.

أحسّت بقلبها يضطرب، وبالصدمة التي أصابتها في الماضي، عندما طلع لها دانيال كأنه ملاك صاعد إلى السماء بعينه المنكسرتين، ولكنه تخلى عنها وهي خائفة القوى، بلا مقاومة أو شعور بما حولها. من يشبه الهندي النقي الدم؟ لا، لا يشبه أحداً، ولكنه يذكرها بدانيال الذي عرفته سابقاً، ولحسن الحظ أنها لا تتذكر به ملاكاً خارجاً من غرفة أو نازلاً من السماء، وهي منذ تلك الصدمة لا تثق بالرجل ذي الوجه الملائكي والصوت المتوجّع والفم المتوسّل والجمال الملتبس، وقد تستطيع أن تكون سعيدة في الفراش مع أمثال دانيال ولكنها وإياه جبانان مزيفان. وجدت نفسها وحيدة في غرفتها. ودّعت لولو سانتوس: "متشكّرة جداً يا صديقي"، ولم تسمح له بالنزول من السيارة، فهو لو نزل لأراد البقاء في الغرفة العارية من كل زينة. وفي الفراش الحديدي الضيق. وبينما تُغمض عينيها طالبة النوم عرفت من يذكرها به صاحب المركب الشراعي: إنه يذكرها بالأستاذ إميليانو غويدس... ولكنهما لا يتشابهان بشيء. فواحد أبيض رقيق، غنيّ ومثقف، والآخر

هندي أسمى البشرة أحرقتة ريح البحر، وفقير لا يعرف من القراءة غير القليل، ولكن كان بينهما صلة قرابة وهيبة عائلة واحدة؛ من يدري؟ ومن الذي يعرف الإنسان بكنيته؟

كان المعلم جانواريو جيريا قد وعد بالجيء ليأخذها ويُرِيها المرفأ والطوافة فنتانيا، وبداية البحر من هناك بعيداً عن المدينة، فأين هو الآن؟

6

وصل لولو سانتوس ليدعوها إلى حضور فيلم سينمائي، فهو مولع بأفلام رعاة البقر، ومكث هناك يتحدث عند الشرفة المطلّة على النهر، بينما تقوم العجوز أدريانا بتقديم المانجا وجوز الهند ليختار أحدهما أو يأكل الاثنين إذا رغب. التهم المانجا، فأكهته المفضلة، واستبقى الشاي للعودة من السينما. كانت أدريانا تعرض المانجا الأكثر جمالاً، وأجود الأنواع منها، الوردية، والغامقة، والصلبة، وقلب الثور وغيرها، معتزة بالبستان الذي تملكه خلف منزلها وهو كناية عن حقل صغير.

- هل تريد أن أقطعها لك قطعاً؟

- أنا أفعل بنفسى، أدريانا، شكراً.

وبينما يلتهم الفاكهة راح يوضّح التطورات الأخيرة:

- أنت ظاهرة يا تريزا. ما كدت تصلين إلى أراكاجو، حتى أصبح لديك فئة من المولعين وأخرى من الخصوم. تعبّد العجوز أدريانا، عبادةً، التدخّل في ما لا يعنيه:

- "من المولعين أعرف على الأقل واحداً..."، ألقت نظرة على اللّسن

وتابعت: "ولكن هل هناك من لا يحب هذه الفتاة الجميلة والطيبة إلى هذا الحد؟"

- اليوم، عصرًا، تحدّثتُ مع شخص قال لي: إن تريزا باتيستا هذه هي بئر من

الكبرياء، ومتحفظة إلى درجة الغباء...

- "ومن هو؟" أرادت تريزا أن تعرف.

- إنها فراندا... فراندا شهيرتنا، وصاحبة أشهر مسلخ للحوم الطازجة في

المدينة. يقال إنها لا تقدّم إلا الفيليه الطرية، ولكنها اليوم أرادت أن تقدّم لي لحم

كبش فرنسي فاسد.

قبل أن تنتهي إلى العمل في محل لبيع الخضار والفواكه، فإن العجوز أدريانا كانت قد تعاطت ذلك النوع من العمل. وفي المنزل الذي تملكه بالميراث كانت تسهّل الحياة للعزّاب الهارين تفتيشاً عن متعة. وما تزال، خدمةً لصديق، تسهّل الأمور، ولكنها تفضّل أن تؤجر الغرفة الشاغرة إلى فتاة موظفة، أو أخرى كتوم، ومن الأفضل أن تكون محميّة أحد ما. وظلّت أدريانا منذ أيام عزّها وحتى اليوم، تحمل حقداً على فراندا المتفوّقة عليها، والمليئة بالعقد، والتي تعامل زميلاتها بأعلى كنفيتها:

- هذه التي لا تسمّى كانت هنا وراء تريزا، مستلقية كأنها كتاب قديم مستعمل. وقد نصحت تريزا أن تحذرّها، فهي امرأة عادية وليست حشرة جميلة على كل حال.

- "لم أسء إليها"، قالت تريزا متعجبة وتابعت: "لقد دعيتي لأذهب معها فلم أشأ، وهذا كل ما حصل".

العجوز أدريانا تتساءل بفضول:

- ومن أيضاً لا يحب تريزا؟ أخبروني.

- لنبدأ، ليبوريو داس نيفس. إنه حيوان أعجم. لو توقفت الأمور عليه لكانت تريزا قابعةً في السجن، لكنه لم يقدّم دعوى في مركز الشرطة، لأنه على الرغم من حماية الشرطة له، فإنه يمنع نفسه عن الاعتداء على الناس الذين تربطني بهم صداقة، وعلى الأخص أنني محام في قضية ضده.

- "السيد ليبوريو" كانت العجوز أدريانو تلفظ الاسم باحترام ممتزج بالحزن.

- "إنه براز..." قال اللّسن ذلك يريد أن يظهر نفسه بمظهر القادر على جذب ليبوريو من عنقه.

- ليس في هذه الأرض شخص أقدر من ابن الزانية هذا، الوضع، السافل، إنّ ما يثير سخطي هو أنني عملت في دعويين ضده وخسرت الاثنتين، والآن أنا في صدد دعوى ثالثة وسأخسر من جديد.

- "أنت، لولو، تخسر في المحكمة!" قالت العجوز متعجبة: "يقولون إنك لا تخسر أبداً".

- ليس في المحكمة بل في القضايا المدنية. إن المتهتّك يعرف كيف يسلّح ارتكاباتّه. ولكن لا بد في يوم من أخذ هذا المفترى من عنقه.

- "وماذا يفعل؟"، اهتمت تريزا بالموضوع.

- لا تعرفين؟ سأخبرك فيما بعد، الأمر يحتاج إلى الكثير من الوقت، وها هي الساعة قد حانت لنذهب إلى السينما ويجب أن نخرج في الحال. غداً أو بعد غد أخبرك من هو ليوريو داس نيفس، المحتال رقم واحد في أراكاجو، استغلالي الفقر والفقراء.

وهم بأخذ عكازيه ليقف: "شكراً، أدريانا، يا حبيبي. شكراً للمانجا إنها أفضل مانجا في كل سرجيبي".

هبت نسمة علية من جزيرة جوز الهند ناحية المرفأ تُلطف الليل الرطب الحار والمُعرق. ومع هذا الهدوء والسكينة في ليل تسطع فيه النجوم، وهذه الساعة الجميلة لسماع الحكايات، لماذا الانحشار في حر السينما الذي لا يُطاق؟ وماذا أيضاً لو ظهر جانواريو؟

- لا يا لولو سنؤجل الذهاب إلى السينما، ومن الأفضل أن نبقي هنا منتعشين. نسمع الحكايات أفضل من أن نموت حرّاً داخل صالة العرض.

- كما تفضّلين يا أميري. حسناً، تبقى السينما ليوم غد، وسأقول لك الآن من هو ليوريو، ولكن قبل أي شيء اقلي أنفك لأن رائحة كريهة تفوح من هذا الشخص.

وضع لولو سانتوس عكازيه وأشعل السيجار من جديد، لم يكن يحب السيجار الذي يحصل عليه مجاناً من صديقه ريمون دوسونا في أشتانسيا، والذي يعمل في مصنع والكيرا.

كان لولو يتلقّى هدايا كثيرة من المأكولات والمشروبات والطيبات المختلفة، ويشترى أشياء أخرى ينسى أن يدفع ثمنها، ولو لم يكن كذلك، فكيف يستطيع أن يكون محامي الفقراء؟

كان يدفع من ماله الخاص في بعض القضايا بدلاً من أن يحصل على بدل عن أتعابه، وبينما يمجّ نفسه من السيجار بدأ يهتك فضائح ليوريو داس نيفس المتتالية:

- "سنتعاطى بالأدلة يا بنيّتي". بدأ كأنه في محكمة يدافع ويتهم منطلقاً بحماس، ورافعاً صوته مغمضاً جفنيه من وقت لآخر، واهباً نفسه الوقار والهيبة، مازجاً حديثه بشتائم صغيرة وأقوال شعبية. أخيراً شرح باختصار كيف أن ليوريو

بدأ حياته مصرفياً، بل حشرة مصرفية، ومعروف أن إعطاء رخصة مصرفي إلى حشرة يقتضي أن يكون صاحبها شريفاً. واستقرت لعبة الحشرة على أن تكون الثقة التي يجب أن يتمتع بها المصرفي هي العامل الأساسي في إدراك أغراضه الدنيئة؛ وإذا أصبح أحد أصحاب البارولي في كرة القدم، فقد جاءت فضيحتة الأولى في عدم دفعه المستحقات للمقامرين الراجحين في مكتبه. ولكي يجبروه على الدفع فإن بعض الزبائن، غير الراضين عن قلة حياته، تجمعوا تحت امرأة أحد لاعبي الكرة الملقب بقدم البغل لقوة قذفته، وراحوا يتعقبون المصرفي المحتال. في الواقع لم يكن قدم البغل مهتماً بالموضوع لشخصه لأنه لم يكن يقامر أبداً، ولكنه تحرك نيابة عن المرأة المسنة، جارتة السيدة ميلو التي شارفت على المائة، والتي كانت كل يوم أحد، تجازف بلعبة الثلاثية وهي طريقة مغامرة معقدة، وبها راحت تتعقب خلال أشهر متتالية تحقيق الربح.

كانت تحقق بعض الأرباح في السابق، ولكنها لم تجد يوماً أقل صعوبة في الحصول على أرباحها، ولم تعرف لأي سبب غيرت المصرفي السابق، ربما، لأنها أخذت بكلام ليوريو المعسول، فتحوّلت إلى مكتبه، تتعقب الثلاثية، بالإضافة إلى أناس كثيرين في ذلك اليوم كانوا قد قاموا على الثلاثية التي يسمونها الكلب. وسبب الإقبال ذلك، أنه في اليوم السابق، كانت الصحف والإذاعات قد بثت أخباراً عديدة عن كلب متشرد أنقذ طفلاً من الغرق في بحر أتاايا... وكانت نتيجة الشوط فوز ثلاثية الكلب، فتحوّل ليوريو إلى ما يشبه الدخان. الراجحة الرئيسية كانت المرأة المسنة ميلو التي أصيبت بصدمة كبيرة لدى اختفاء المصرفي؛ وهي منحنية كأنما أصبحت قطعتين، ومتكئة على عكازها، راحت تنادي على الله والرجال. إنها تريد أن تتسلم مالها الكثير؛ وغدا لاعب الكرة قدم البغل قاسياً، حانقاً، وأخذ على عاتقه إنقاذ جارتة من الآلام، وتقدم الثائرين على تصرفات المصرفي، مفتشاً عنه، حتى وجده في النهاية. وتمّ الدفع بالحوار والتهديد.

حاول ليوريو في بادئ الأمر أن يلف ويدور، منحياً باللائمة على الآخرين، ومستنبطاً وجود شركاء كانوا قد هربوا، ولكنه على أثر بعض الضربات التي تلقاها على كتفيه من قدم البغل وعدّ بالدفع خلال ثمان وأربعين ساعة.

كبيرة مصداقية الرجال، حتى وإن كانوا لاعبي كرة شعبيين يمتلك الواحد منهم مدفعاً في كل قدم كما كان المعلقون الرياضيون يصفون قدم البغل الذي لم يكن يجيد عمل شيء آخر غير كرة القدم. ومن ناحية ثانية فإن كرة القدم عنده لا علاقة لها بهذه الأمور وقد أبقى في الفريق، بالدرجة الأولى، لأنه كان يلعب باليسرى وليس من حارس مرمى بقادر على أن يلتقط كرة قذفها بيسراه.

أما خارج نطاق التدريبات فكان يستبدل النساء في الشارع ويزور البارات ويحضر منازعات البلياردو، وبعبارة أصح كان يتسكع.

مرّت الثماني والأربعون ساعة ولا أثر لليوريو فنزل قدم البغل من جديد إلى الساحة، ومع معرفته بمدينة أراكاجو وضواحيها، راح يفتّش عن اللص المختفي في زقاق ضيق قرب محلة اللحوم. كان ليوريو هناك يلعب النرد مع صاحب المحل السوري، عندما، ودون أن يقرع باباً، أو يستأذن بالدخول، دخل بصحبته أربعة مرافقين يشقّ طريقه داخل المحل التجاري. شهر السوري سكيناً، يريد بذلك أن يظهر بمظهر الشجاع، فانتزعوها منه وأنالوه بعض الصفعات على خديّه، وتلقّى ليوريو من حصته ما يستحق.

اكتفى الأربعة بالصفعات التي وزّعوها وهم لا يريدون أن يضيّعوا مزيداً من الوقت، إذ أعطوا السارق الأمثلة التي يستحق وانصرفوا في الحال مزهوّين. واعتبر ليوريو الأمر منتهياً، وكذلك أمر المال بالتأكيد: فمقابل بعض الصفعات واللكمات يصبح معفياً من دفع الديون.

من قال ذلك؟

خلافاً للجميع كان قدم البغل متفرغاً لهذا الموضوع، وكونه يمثل المرأة المسنة، فإنه لم يمنح المصرفي إخلاء السبيل.

أن يجمع ليوريو المال، فلا بأس، ولكن يجمعه ليدفعه...

ودفع ليوريو جزءاً هو أكثر من النصف بقليل، وبقي الجزء الآخر لليوم التالي.

ولم تتخلّ المرأة المسنة عن الباقي، لشدة الصدمة، فمن رأى مصرفياً يرفض أن يدفع؟

وكانت تصرّ على الحصول على مالها بالحاح وبأقصى سرعة.

واختفى ليوريو من جديد، ومن جديد عاد قدم البغل يفتش عنه، وبعد أسبوع، وبالصدفة، التقى به وسط شارع ميو في قلب العاصمة. وجاء من تلقاء نفسه كأنه ليس مديناً لأحد بشيء، يتمتم بحيوية في أذن أحد المحتالين غير المدرّبين بعد: "أحجار كريمة مقلّدة بإتقان". وعندما وقعت عيناه على قدم البغل فقدَ حيويته، وأعلن نفسه منهزماً ودفع باقي المبلغ إلى العمّة ميلو التي تسلّمت حتى الفلس الأخير، وبهذا لا بدّ من أن يكون قدم البغل قد ربح ملكوت السماء، فهو بعد عدة أيام مات في حادثة اصطدام الشاحنة التي كان يستقلّها فريقه إلى بينيدو مع بعض لاعبي الاحتياط لخوض مباراة ودية. انقلبت الشاحنة في الطريق ومات ثلاثة لاعبين أحدهم قدم البغل، ومنذ ذلك الحين لم يُعرف في عالم كرة القدم في سرجيبي لاعب له قذفته القوية، ولم يسر في شوارع أراكاجو متسكّع ذو قلب طيّب كقلبه. هذه الفضيحة في عالم مكاتب القمار كانت عرض ليوريو الأول في دنيا الأعمال.

فيما بعد، شارك ليوريو في عدّة عمليات تهريب واستمرّ في الدجل خلال العشرين سنة الأخيرة. ودافع لولو سانتوس مرتين عن حقوق زبائن دجل عليهم ليوريو. في المرة الأولى كانت قضية أحجار كريمة مزيفة، إذ إنّ ليوريو تاجر مدة طويلة بالألماس والزمرد والياقوت، وكان يبيع منها حجراً حقيقياً بين كلّ خمسين حجراً مزيفاً. وخسر لولو القضية لعدم توفّر الأدلة، وإذا أصبح ليوريو ثرياً، وهماً في المنطقة، أقام علاقة بالشرطة يرشي الحراس والأمن السري ويعمل بنشاط في أوساط الفقراء.

أما مصادر الأرباح الرئيسية فكانت: الرهونات، والديون بفوائد جائرة كأن يتلقّى مقابل الديون غير المدفوعة كل ما يملك المدين. وإضافة إلى الربا كان يتعاطى الكثير من الأمور المشكوك فيها.

وكان يُذاع عنه أنه شريك السي أندراي صاحب الفاتيكانو لاستثمار الغرف التي تؤجّر إلى العاهرات، بالليلة، أو بالساعة، ومن نصف الشهر إلى آخره كان يشتري مرتبات الموظفين الرسميين بأسعار منخفضة مستعملاً كل أنواع الضغوط للحصول على المال...

وفي إحدى هذه الحالات غلب لولو سانتوس على أمره وهو يدافع من جديد عن فقير، لعين، ضد ليوريو داس نيفس الذي كان ممولاً لمجموعة من لصوص

القمار، أصحاب الحيل والتزييف وأهل تركيب أوراق اللعب المؤشّرة، والروليت المنحرفة؛ فقد اشترى ثلاثة مرتبات شهرية من أحد موظفي إدارة البلدية. كان الأخير عنصراً جيداً ولكنه مقامر مدمن، وقد حصل منه المرابي على وكالة تكفل له الحصول على المبلغ المستحق. وفي حمأة الحصول على المال ليلعب الروليت، فإن المتهور طلب أن يملأ المرابي نفسه الاستمارة ووقع على ورقة بيضاء كتب عليها المحتال ما أراد: أي أنه كتب ستة أشهر بدلاً من ثلاثة.

ولم يكن من مجال لإثبات ما حصل، إذ إن الوثيقة كانت موقعة وثابتة وبتوقيع الشخص نفسه. ولم يفد بشيء أن يؤكد لولو سانتوس في المحكمة أن ليبيوريو اشترى ببعض فيش الروليت ثلاثة أشهر فقط من المرتب المتواضع لموظف البلدية. تألق لولو سانتوس في الوصف، وكان ليبيوريو ذاك يجعل نفسه في المحكمة مضطهداً مذلولاً. والله، أية قابلية لدى لولو سانتوس أن يفقد احترامه للقضاء ولقاعة المحكمة، وأن ينهار بعكازه على ظهر السافل. وتريزا لا تستطيع أن تتخيل مقدار السرور لدى اللّسن عندما رآها وهي تبصق على وجه ابن الزانية المعتاد على هذه الفضائح وعلى الشجاعة في ضرب امرأة... ولكن ليس عنده الشجاعة في مواجهة أحد الذين يعرفون كيف يتركون على وجهه العلامات. ولكنه، بشكل غير مباشر، وإذا أتيحت له الفرصة، فإنه يضطهدهم مستعملاً الامتيازات والعلاقات التي تربطه بأوساط الشرطة فيجعل حياتهم مستحيلة. إنه ابن زانية بالمعنى المطلق، سافل ومقرّف.

والأسوأ من كل ما سبق، أن الحكم في القضية الحالية سيُلفظ خلال أيام قليلة من الأسبوع المقبل... أمر مؤسف أن يكون دفاعاً خاسراً سلفاً... يكفي أن يتذكّر الأمر حتى تتقد عيننا لولو سانتوس شرراً وغضباً.

- سأخبرك بما يستطيع عمله ابن الزانية.

وكان يفصل المقاطع اللفظية: على لسان لولو سانتوس أي شخص كان ابن زانية، أحياناً يقولها بمحبة وأخرى باستظراف، ولكن ليبيوريو كان ابن زانية - ن - ية بالكلمة والمقاطع اللفظية المفصلة.

"في مزرعة ريفية صغيرة يحيط بها شجر المانجا والكاجو والفسق والسرو والتفاح السكري، وأبو ريحة، تعيش وتشتغل جوانا داس فولياس وهي زنجية طاعنة

في السن، وأرملة برتغالي هو سي منوال فرنسا العجوز الذي يعرفه لولو سانتوس معرفة شخصية. وكان سي منوال هو الذي جاء إلى أراكاجو بزراعة الخس والبندورة الكبيرة الحجم، والقرنبيط والملفوف والهندباء وغيرها من خضريات الجنوب، يزرعها إلى جانب الجيلويرا والأنفوريا والشمام والبطاطا الحلوة في أرض المزرعة المخصصة.

وكون البرتغالي زبائن موثوقين دائمين لعمله الصغير الذي أخذ بالازدهار. منذ الفجر يبدأ العمل، وتجده هناك، مع الزنجية داس فولياس التي صاحبها في بداية الأمر، وبعدما كبر ابنهما وأحسن هو بالعرشة القوية الأولى في قلبه، تزوجها في المكتب الشرعي ثم في الكنيسة. ولم ينتظر الابن موت الأب فحمل معه مدّخرات أبيه واختفى في هذا العالم. ولم يستطع البرتغالي أن يتحمل الصدمة. فورثت الزنجية جوانا الموقع الزراعي وبعض المال الذي تسلمته من الإشبين أنطونيو منيوتو وهو ميراث مستحق فعلاً.

زنجية قوية البنية: متانة ثور، ووفاء كلب، وتفكير في الابن. وتعاقدت مع مساعد لها للعمل في المزرعة ولحمل الخس والطماطم والملفوف إلى الزبائن. - "انتظر حتى أعود فتكمل الحكاية..."، طلبت العجوز أدريانا مستفيدة من فترة راحة اتخذها لولو.

- دقيقة واحدة ريثما اجلب الكوارع.

- "يا للسفالة!!"، قالت تريزا متعجبة: "إنه أشأم البشر ليوريو هذا".

- اسمعي الباقي من الحكاية وسترين أي مشؤوم هو أنا!!

كان النسيم العليل يأتي من ناحية المرفأ ولولو سانتوس منطلق في الكلام عن البرتغالي منوال فرنسا وزوجته وابنها الشريد، بينما تريزا تفكر بجانوناريو جيريا. إلى أين ذهب؟

وعد بالرجوع وبأن يأخذها لترى الطوافة ويتمشياً بعيداً عن المدينة عند الشواطئ الرملية، فلماذا لم يأت؟

وضعت أدريانا الكوارع في الصحون العميقة ومعها مزيج الذرة الهندية وجوز الهند... فنسي اللسن برهة الجزء المثير من الاهتمام الموجه إلى ليوريو داس نيفس آه... لو كان في المحكمة الآن!!؟

- "إلهية. هكذا وببساطة، إلهية هذه الكوارع يا أدريانا"، لو كان في المحكمة!! لو كان في المحكمة!!؟

"أيها السادة المحلفون: إن المرأة المفجوعة بزوجها، والمحرومة من ابنها التائه في الجنوب، تسلّمت من الأخير كتاباً. وبعده بقليل برقية. أما الكتاب فقد شرح الابن الضال فيه أنه سلك المسالك الوعرة في الريو ووقع في مأزق، فتورّط بالديون وأصبح مهدّداً بالسجن إذا لم يدفع خلال عدة أيام ثمانمائة ريال ملكي، ونادى الولد الضال على أمه لتقوم باللازم، وبأقصى الطرق الممكنة: إذا لم ترسل المال فإنه سينهي حياته بطلقة في صدره. كان واضحاً أنه لم يكن ينوي أن يطلق النار على نفسه، ولم تكن المسألة أكثر من مزايمة غير مألوفة، ولكن الأم المسكينة، الأمية، المتألّمة بسبب وحيدها المعبود، جُنّ جنونها، إذ كيف تتدبّر الثمانمائة ريال ملكي التي طلبها الفتى؟

وكان جارها الذي طلبت إليه خدمة قراءة الكتاب والبرقية قد سمع الناس يتحدثون عن ليوريو، المرابي، واستحصل على عنوان الأخير، وإذا بالعجوز بين يدي المرابي الذي سلّفها الثمانمائة ريال على أن تعيدها إليه ألفاً وخمسمائة ريال بعد ستة أشهر؛ لاحظوا الفوائد أيها السادة المحلفون، الفوائد الجائرة التي لم تعرفوا هولها ومرارتها يا سادة المجلس التحكيمي.

وجهّز ليوريو السند بنفسه: إذا لم تدفع جوانا في التاريخ المعين، فإنها تفقد موقع المزرعة، الذي يبلغ سعره عشرة آلاف ريال على الأقل؛ وإلى آخره أيها السادة المحلفون...

وقبلت الأرملة بالتوقيع على السند التنفيذي، ووقع عنها جوال ريس خادم ليوريو لأنها لا تعرف القراءة والكتابة وعاجزة عن تصوير اسمها تصويراً. وكان عميلان آخران من عملاء عديم الضمير ليوريو قد اتّخذا شاهدين على الوثيقة. وأخذت جوانا القرض مطمئنة لأن الإشبين أنطونيو منيوتو الرجل المستقيم ورجل الكلمة، كان سيدفع لها ألف ريال بعد أربعة أشهر، وأما الخمسمائة ريال المتبقية فقد كانت الأرملة ستقتصدها خلال ستة أشهر، كونها قد حافظت على زبائن أوفياء منذ أيام زوجها. وجاءت الأمور كلها كما توقّعت: فقد دفع الإشبين في التاريخ المحدّد، وفاقت مدخراتها الخمسة آلاف كروزيرو، وفتّشت عن ليوريو لتدفع الدين.

هل تعرفين ماذا قال لها؟ تكهنوا. تكهني إذا كنت قادرة يا تريزا، تكهنوا أنتم أيها السادة الشرفاء في المجلس التحكيمي.

- ماذا؟

- إنها كانت مدينة له بثمانين ألف كروزيرو، أي بثمانية آلاف ريال بدلاً من ثمانمائة.

- ولكن كيف؟

- كان هو من حرّر سند الوثيقة، وكتب المبلغ بالأرقام: 8000 كروزيرو وما كادت المرأة تخرج حتى سارع القدر إلى زيادة صفر على الرقم، مستعملاً القلم نفسه، والحبر نفسه، وفي الساعة نفسها.

ومن أين لهذه الفقيرة التعيسة أن تتدبر ثمانين ألف كروزيرو قولي لي؟ من أين أيها السادة المحلفون؟

وطلب ليوريو من العدالة أن يوضع الحجز على المزرعة حتى يُصار إلى بيعها بالمزاد العلني، وبالتأكيد فإنه هو نفسه من سيفوز بالمزرعة مقابل أربعة مثاقيل من العشرينات الألفية.

- هل فكّرت يا تريزا بما ستؤول إليه أحوال هذه المرأة التي عملت طيلة حياتها في تلك المزرعة ووجدت نفسها فجأة مرمية خارج قطعها الصغيرة من الأرض مجبرة على التسوّل؟ هل فكّرت، تريزا؟

سأضرب نفسي، سأصرخ، سأطالب بالعدالة، ولكن ماذا يفيد كل هذا؟ لو أن المحكمة كانت محكمة شعب لكان الأمر مختلفاً، ولكنها محكمة مطرقة مدنية. من ناحية أخرى لو وجد شخص جيد، يعرف من هو ليوريو، ومتأكد من أنه زور الوثيقة، لكان بالإمكان كسب قضية الأرملة وإقامة دعوى مضادة بتهمة التزوير لغرض السرقة، ولكن كيف العمل ما دام هناك ورقة موقعة، وتواقيع شهود وليس من أحد بقادر على إثبات أن الصفر قد أضيف فيما بعد".

أخذ المحامي اللسن استراحة، وبدأ أن هذا الإذلال يُشعل له وجهه ويجعله جميلاً تقريباً ثم استطرد:

- يعرف الجميع أن هناك أكثر من مأساة تسبب فيها ليوريو، لكن المؤسف أنه لا يمكن القيام بأي عمل، فهو سيبتلع أرض منوال فرنسا وستعيش الزنجية جوانا

من التسوّل، أما الابن الشقي، ابن الزانية هو ما هو، فإني أرجو أن يضع رصاصة في صدره لأنه لا يستحق شيئاً آخر.

وقع الصمت كحجر على التراب، لعدة ثوان، فلم يتفوّه أحد بكلمة. وضاعت تريزا في المسافات، ولكنها هذه المرة لا تفكّر بالمعلم جانواريو، المدعو تحبباً جانو، ولا برمال البحر، إنما بالزنجية جوانا فولياس، السيدة جوانا فرنسا، منحنية فوق الأرض إلى جانب زوجها البرتغالي، ثم وحيدة، تزرع، تحصد وتعيش من عمل يديها، بينما ابنها في الريو في حمأة الرذيلة، يطلب المال ويهدّد بقتل نفسه، فإذا أخذوا أرضها وربح ليبيوري القضية فماذا يحصل لجوانا داس فولياس، وأين ستدبر الضروري لتأكل، ومن أين تدخر ليبدّد ابنها مدخراتها؟

عادت العجوز أدريانا بالصحون إلى المطبخ.

- قل لي شيئاً يا لولو.

قالت تريزا وهي تعود من البعيد.

- ماذا؟

- لو أن السيدة جوانا كانت تعرف القراءة والكتابة، فهل يكون لهذه الوثيقة المزورة القيمة التي لها؟

- لو أنها كانت تجيد القراءة، وتعرف كيف توقّع اسمها؟ كيف ذلك؟ إنها لا تعرف، لقد انتهت، ولم تذهب إلى المدرسة، وهي أمية الأب والأم.

- ولكن لو كانت تعرف فهل يبقى المستند ذا قيمة؟

- طبعاً لا، لو كانت تعرف كيف توقّع اسمها لعدّ المستند مزوراً. ولكن مع الأسف ليس هذا بواقع الحال.

- هل أنت متأكد مما تقول؟ هل ترى أنه يمكن أن يعدّ مزوراً؟ ولماذا ترى هذا؟ أين يجب أن تُثبت السيدة جوانا أنها تعرف كيف توقّع اسمها؟ في المحكمة؟

- أية قصة هي هذه؟ أية قصة لنثبت أنها تعرف أن توقّع اسمها؟

أطرق برأسه مفكراً ثم تبين حقيقة ما تعنيه تريزا. وثيقة مزورة؟ توقيع اسم؟

واستطردت تريزا:

- السيدة جوانا تعرف القراءة وتعرف توقيع اسمها، وستصل إلى المحكمة وتقول: هذه الورقة مزورة وأنا أعرف توقيع اسمي.

- ومن سيعلم جوانا داس فولياس توقيع اسمها خلال أسبوع أو أكثر قليلاً؟
إنها تحتاج إلى شخص قدير وموثوق.

- الشخص هنا، أمام عينيك، هو أنا، خادمك. في أي يوم ستعقد المحاكمة؟
بدأ لولو سانتوس يضحك مقهقهةً. إنه خلق ليضحك، وجاءت العجوز
أدريانا راكضة، قلقة:

- ماذا بك يا لولو؟

كفّ لولو عن الضحك وقال:

- أريد فقط أن أرى وجه ليبوريو داس نفيس في هذه الساعة. تريزا، أستاذة
تريزا، إني أعلنك قمة في المعرفة، سأذهب حالاً إلى البيت لأدقق في هذا الموضوع،
وأظن أنك كلت لليبوريو بالمكيال الذي يستعمله. إلى الغد أدريانا، الكوارع الإلهية
الجميلة... وكما يقول المثل: من يسرق لصاً؟ إني أريد فقط أن أرى وجه وعاء
البراز في ساعة الهتك العظيم، وسيكون ذلك أكبر نصر حققته في حياتي.

وبينما ظلت تقف في الشرفة المطلّة على النهر، نسيت تريزا لولو سانتوس
وجوانا داس فولياس وليبوريو داس نفيس. أين ذهب؟ لقد وعد بالجحيء ومعه غليون
التبغ المعجون، بجلده المسوح بالريح، وصدره الرخامي، ويديه الكبيرتين اللتين
رفعتها في الهواء. لم يأت لماذا؟

تريزا باتيستا تفتش عن جانواريو جيريا في المدينة النائمة، عند المرفأ المقفر،
وحيدة، مصلوبة، مجروحة الكبرياء... من يدري؟ فهو لم يستطع أن يأتي لأنه
مشغول أو مريض، ولكن ماذا كان يكلفه أن يعلمها بالأمر، كأن يوفد أحداً مع
رسالة؟ وعدها بالجحيء ليأخذها عند أول الليل ليأكل سمكة حارة، على الطوافة،
مصنوعة على الطريقة الباهيانية. "طبخ الأكل بالزيت مهنتي". وبعدها يذهبان لرؤية
بحر الأمواج والعواصف، بعيداً عن المدينة، البحر الحقيقي، لا ذلك المصب النهري؛
"جميل نهر كوتنكيا"، لا يريد أن ينكر، إنه نهر عريض ويمتد حتى جزيرة جوز
الهند، وواسع من ناحية المدينة، وترسو فيه مراكب كبيرة وسفن شحن صغيرة،
ولكن البحر "سترين" شيء آخر، ولا يصح تشبيهه بالنهر، البحر طريق بلا نهاية،
وله قوة تستحيل السيطرة عليها، له قدرة الأعاصير، ونعومة العاشق عندما يصبح
زَبداً فوق الرمال؛ لم يأت، لماذا؟

لم يكن على حق أن يتعامل معها كأنها امرأة ما؛ إنها لم تطلب أن يأتي. في الأيام الماضية، كان المعلم جانواريو ينتظر تفريغ الطوافة والانتهاء من تنظيفها ليتسلم الحمولة الجديدة من أكياس السكر، فاستفاد من زيارة تريزا والجلوس معها على جسر الإمبراطور ليخبرها عن المراكب والرحيل في البحر، وعن العواصف والأنواء وحوادث الموانئ والمراسي الصخرية التي تواجه ربانة المراكب، وعن القراصنة، وأمهات البحر ورموزه الإلهية، وحدثها عن الأعياد، فهناك، العام كله أعياد: عيد يسوع البحارة في الأول من كانون الثاني عندما ترافق المراكب المجاذيف ذهاباً وإياباً في مياه بوافياجين، ثم تنطلق السامبا ليل نهار، وعيد القديس بون فين في الأسبوع الأول، ومن الأحد إلى الأحد، تتزين البغال والحمير والمهور والحياد بالزهور، وتحمل فتيات باهيا الأباريق الملأى بالماء فوق رؤوسهن، ويغسلن بالمياه المقدسة كنيسة شفيعنا بونفين وهو زنجي أفريقي وأبيض أوروبي، قديسان في قديس حقيقي واحد من باهيا؛ وعيد الإلهة يمنجا، في النهر الأحمر في الثاني من شباط عندما تحمل الهدايا المتراكمة في علائق القش إلى أم المياه وسيدة البحار من صابون وعطور وصيغة ومحابس وخواتم مصقولة وعالم من الزهور وأكوام من الرسائل تطلب الرحمة، والبحر هادئ والسماك وفير، والفرح والصحة والحب، ويستمر الاحتفال منذ الصباح وحتى ساعة طلوع النجم القطبي عندما تنطلق المراكب في موكب جنائنا، وفي طليعتها مركب المعلم ليفيانو ليقدم الهدية الكبرى، هدية الصيادين عند منتصف البحر، حيث تنتظر الملكة مرتدية رداء شفافاً من الحرير الأزرق وتأخذ بيديها إبريق الماء المعطر: تعطري يمنجا تعطري!!

وكلمها عن باهيا، وكيف ولدت المدينة في البحر وصعدت إلى الجبل، تقسمها المنحنيات. وكلمها عن السوق وعن مياه الأطفال ومرسى الميناء والمدرسة وإلهة العواصف يانسان، وفي رأيهِ التَّحَبُّبي أن تريزا لا بد وأن تكون ابنة يانسان كون الاثنتين متساويتين في الشجاعة وفي التصرف: وعلى الرغم من كونها امرأة، فإن يانسان قديسة شجاعة فهي إلى جانب زوجها شانغو شهرت أسلحة الحرب، لا تخاف الجان والموتى وتنتظرهم وتطلق صرختها إلى الحرب: ها أنذا!!! وفكرت من جديد:

أمس، لمس شفتيها بأصابعه وهما على جسر الإمبراطور، فلاحظ أنه لم يبق أثر للكلمة ولم يبق إلا السن التي لم تركب بعد. ولم يتجاوز جانواريو تلك اللمسة

الخفيفة من أصابعه التي كانت كافية على كل حال لأن تجعل تريزا تشتعل ناراً. وعوضاً عن أن يطمئن على سلامة شفثيها بامتحان أعمق، وبيع بعض القبلات، فقد سحب يده كأنما كان قد أحرقها ثغر تريزا المرطب، ثم جلب مجلة تصدر في الريو وفيها تحقيق صحفي ملون عن باهيا مع صورة شغلت حيز صفحتين لميناء المدينة، حيث ترسو في المقدمة فلور داس أغواس بشراعها الأزرق الخفاق، وهو وراء الدفة، عاري الصدر، يرتدي سروالاً؛ قبطان المركب جانواريو الذي عند تريزا يُدعى جانو: "من يحبني ينادني جانو".

نزلت تريزا إلى الشارع الأمامي تفتش عن العملاق الذي يتهادى في مشيته البحرية، وجمرة غليون التبغ المعجون تُضيء الطريق.

وبينما تسمرت على جسر الخشب اللولبي، غير بعيدة، راحت تتبين في الظلمة الطوافة فتانيا المطفأة الأضواء، ولا حركة على متنها، ولو أن أحداً هناك فهو نائم بالتأكيد، ثم تستمر لا تستطيع أن تُمسك نفسها عن الاقتراب. أين هو المعلم جانو؟ أين اختبأ عملاق البحر؟ إلى أين وصل سيد النسور في تحليقه؟ أين هو طائر البحر الكبير؟

من هناك، يظهر الطابق الأول من فاتيكانو مزيناً بالأضواء الملونة الحمر والخضر والصففر والرمادية والزرق، كأنها تدعو الأجانب وشباب أراكاجو المخملي إلى صالة رقص ملهى باريس الليغري.

من يدري؟ ربما كان جانواريو يسيطر الآن على حلبة رقص، وسيدة جميلة من خليعات المرفأ بين يديه، فالرقص نقطة ضعفه، ولكن، ألم يصعد سلم الملهى في ليلة العراك بعد أن فرغ من الرقص؟ من يعطي تريزا القدرة على اقتحام الباب، وقفز درجات السلم، وبلوغ الصالة، مقلدة ليوريو داس نيفس، والاتجاه إلى حلبة الرقص فتقف مطعونة في كرامتها، ويدها في زناها تحدياً وامتعاضاً أمام جانو الذي يضم إلى صدره صدر امرأة:

- أهكذا إذا يكون السيد جانو قد ذهب، ليأتي بي من البيت كما وعد؟ كان فلوري قد منع تريزا من ارتياد الملهى ليلاً، ليحافظ على صورة تريزا الثابتة لعرضها الأول الذي يجب أن يتم قبل أن يشاهدها الزبائن، ويبدأوا التعليق اعتباطاً؛ وهي إن بدأت بالظهور ليلاً لترقص وتحادث هذا وذاك، فإن أحداً من

الزبائن لن يفكر فيها ثائرة وهي تبصق على وجه ليبيوري تتحدّى نصف العالم بوقفه حرب. فقط يرونها ثانية في الليلة الكبرى لتقدم أميرة السامبا، وهي ترتدي السايوت وقبعة الريش.. هذا بالإضافة إلى الشفة التي لم تشفَ تماماً، والسن الناقصة... وللحديث عن السن، فقد تساءل فلوري ساخراً من الحياة، متى ينتهي الدكتور جميل نجار من تحفته الفنية؟ لم يتأخر قط جراح أسنان هذا التأخير كله لتרכيب سن ذهبية. كاليشتو كروسو، خلاسي متقاعد، ميسور الحال، صاحب مطبعة، وأمير الجوخ في أراكاجو، معجباً بأسنان الذهب كان قد وضع منها سبعة، أربعة في الأعلى وثلاثة في الأسفل، وقد وُضعت كلها برمشة عين لدى الدكتور نجار. خلال جلسة واحدة وضع له ثلاثة، ثلاثة أضراس ذهبية كبيرة، والعملية كلها لم تستغرق نصف الوقت الذي صرفه الدكتور نجار على سن الذهب الوحيدة في فم تريزا باتيستا. ولا تفعل ذلك لأنها ممنوعة أو تجنباً للحنّة، ولكن بالدرجة الأولى لأن ليس لها حق عليه، أي حق وأقله بأن تمنح قائد المركب الشراعي عن رغباته، سواءً كان يرقص أو يطارح الغرام أو يتلمّس جسد امرأة، أو يتقلّب في فراش إلى جانب امرأة ما، كهيكل سفينة من خشب الكوكونو. حتى ذلك اليوم لم تكن تستطيع أن تعلن نفسها عشيقة: لم تلقَ منه سوى نظرات هروبية، إذ كان يحوّل نظره عنها في كل مرة كانت تأخذه بالجرم المشهود وهو يأكلها بنظراته. صحيح أنها كانت تناديه جانو تعامللاً مع الحبيب، وبالمقابل كان يعطيها أسماء مختلفة: تيتان، سانتا، موسورومين، ياون، وهنا كانت نهاية الخجل؛ عملياً توقفت تريزا عن الانتظار، كأنها تستعيد في نفسها امرأة ذات حس بالكرامة... منه يجب أن تنطلق الكلمة الأولى تعبيراً عما يُضمّره ضاحكاً، متحدثاً لبقاً ولكن لا يتجاوز هذه الحدود الأفلاطونية؛ هنالك شيء ما يمنع صوته عن أن يكون أكثر دفئاً، يمنعه عن كلمة حب وحركة حنان، ويخفق الرغبة الأكيدة في المعلم جانواريو جيريا.

أخيراً، لم يفِ بوعده، ولم يأتِ إلى الموعد، وتركها بالانتظار منذ السابعة مساءً، ثم ظهر لولو سانتوس يدعوها إلى السينما ففضّلاً البقاء في البيت، والمحامي يخبر عن ليبيوري داس نيفس حكايات الاعتداء والأحزان؛ إنّه المخلوق الأكثر إثارة للقرف والاشمئزاز، ليبيوري ذاك؛ واستأذن اللّسن بالانصراف بعد التاسعة راضياً عن الحياة ما دام قد اكتشف بمساعدة تريزا طريقة ليهزم الجبان اللّثيم في الجلسة المقبلة؛

وتمنّت تريزا ليلة سعيدة للعجوز أدريانا وحاولت أن تغفو ولكنها لم تستطع، فتناولت معطفها الأسود المطعم بالورود الحمراء، هدية الأستاذ الأخيرة، وغطت رأسها وكتفها وسارت باتجاه المرفأ.

لا أثر للمعلم جيريا، للعملاق جانو. وكل ما بقي لديها هو أن تعود إلى البيت، تحاول أن تنسى، أن تضع الرماد على الجمرة المتوقدة؛ ويكفيها التصفيق والهتاف عندما يحين وقتها. أيها القلب اللامنطقي عندما تكون معه تحسّ بسلام وتصبح هي نفسها، هادئة، ومنسجمة مع ذاتها مستعدة لأن تضع الحياة في أحشائها ودون أن يزعجها شيء. سهل أن تحب، حركة واحدة فتشتعل النار المحرقة في الصدر والشفيتين، وصعب أن تنسى، فالشوق يستهلك صاحبه، والحب ليس شوكة يمكن اقتلاعها، أو ربما يمكن معالجته، إنه وجع مؤلم وملحاح، يقتل من الداخل؛ وإلى هناك تذهب تريزا، متدثرة بمعطفها الإسباني، باتجاه البيت. إنها صعبة الدموع وبدلاً من البكاء تصبح عيناها ناشفتين، قاسيتين.

ولكن أحدهم يسير باتجاهها مسرعاً، ظنّت تريزا أنه رجل يفتش عن امرأة عمومية ليأخذها إلى فاتيكانو عبر باب واتو ألفريدو.

- "انتظري يا سيدة، انتظريني أريد أن أكلمك. أرجوك انتظري..." فكّرت تريزا أولاً في إسراع الخطو، ولكن المشية المهرولة إليها وملاحظة التأثير في صوت الرجل جعلتها تقف، وبسبب الوجه المنشغل وتلك الرائحة المزعجة الشبيهة بما شمّته في صدر جانواريو وهي رائحة المد البحري، ولكن تريزا لا تعرف عن البحر غير القليل مما سمعته هذه الأيام من فم جانو الباسم، جانو الجلد الملفوح بالريح.

وقبل أن يتكلم راحت تتبيّنه وتحسّ بخفقة بين ضلوعه، وهنا حدث أمر سيئ:
- مساء الخير يا سيدة، أنا الربان غونزا صديق جانواريو. لقد جاء إلى هنا بطوافتي بغية مساعدتي في أمر ما ولم يعد بعد.

- هل هو مريض؟ لقد كان على موعد معي فلم يأت، وقد جئت أعرف عنه شيئاً.

- إنه مسجون.

عادا يسيران، فأخبرها كايثانو غونزا صاحب الطوافة فثانيا بقدر ما استطاع أن يوضح: كان جانواريو قد اشترى سمكة، وزيت الدند، وليموناً وفلفلأ حاراً ذا

رائحة، وكزبرة وكل البهارات اللازمة... طباخ كثير المواد! وهو في ذلك اليوم كان قد استرسل في نرقه. كان كايثانو قد عرف كل هذا لأنه أكل قليلاً عندما، بعد التاسعة، رأى أنها وصديقها لم يأتيا، فأخذ منه الجوع.. كان جانواريو قد ترك الطعام بعد الساعة السابعة على نار فحم متوهج، وخرج ليأتي بتريزا قائلاً إنه سيعود بعد نصف ساعة، وما عاد كايثانو ليراه بعدها. لم يقلق في البداية وقد ظن أن جانواريو قد ذهب في مشوار أو إلى صالة رقص كونه صديقاً لإحدى الراقصات، وكما قال، فقد جهّز لنفسه صحناً في التاسعة وأكل، ولكن ليس بما فيه الكفاية، إذ إنه في تلك الساعة أحسّ بنفسه متخوفاً، فترك الصحن والملقعة، وخرج يفتّش عنه ولم يفز بغير الأخبار قرب محل لبيع المثلجات حيث أخبره بعض الشباب أن الشرطة ألقت القبض على شخص كان يهرول في الشارع "خطير"، كما أعلن أحد المتكلمين منهم؛ ومن ناحية ثانية كان من الضروري حشد عشرة حراس ورجال أمن ليتمكّنوا من إلقاء القبض عليه، لأن الشخص كان خطيراً حقاً، ومقامراً في لعبة كرة القدم، وقد سبّب كسوراً لثلاثة أو أربعة رجال من الشرطة، إنه شخص كبير، يبدو بحاراً، ولم يعد ممكناً الشك في هوية الموقوف. فرجال الأمن السريون ما زالوا غاضبين منذ ليلة الشجار.

- لقد سرتُ من مكان لآخر وتوقفت في مركز الشرطة العام، ورحت إلى مخفرين فلم أعثر على خبر عنه.

"آه جانو، أوتظن أنني رغبت في نسيانك، وفي وضع الرماد فوق الجمر المتوقّد، وفي خنق الخفقات التي تحرق صدري؟.. لن أنساك أبداً؛ حتى عندما تعود الطوافة فنتانيا إلى البحر العميق، فسأبقى معك على الدفة أو قرب الشراع وإذا لم تأخذ بيدي فسأخذ أنا بيدك الكبيرة وهي تمسّ شفتي، وإذا لم تقبلني، فإن شفتي ستفتشان عن فمك القاسي، وعن الملح في جسدك، حتى وإن لم تكن تريدني...".

8

أخيراً قدّمت السمكة الحارة عند مؤخرة الطوافة لدى العودة في الثانية فجراً - "سمكة حارة تُلحس بعد أكلها الأصابع إعجاباً بطعمها الطيب". كان لولو سانتوس يلحس عظام السمكة مفضلاً أكل الرأس، الجزء الأطيب بنظره.

- "أهَذَا، لَدَى الْأُسْتَاذِ نَحَاعٍ كَبِيرٍ فِي رَأْسِهِ". لَاحِظَ الرِّبَانُ كَايْتَانُو غُونَزَا مُسْتَرَسِلًا فِي الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ وَ"أَنْ مِنْ يَأْكُلُ رَأْسَ السَّمَكَةِ يَصْبَحُ ذَكِيًّا إِذْ إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ عِلْمِيَّةٌ وَثَابِتَةٌ؟"

فِي تِلْكَ السَّاعَاتِ الْقَلِيلَةِ الْمْتَرَاكِضَةِ، غَدَا صَاحِبُ الطَّوَافَةِ فَنْتَانِيَا مُعْجَبًا بِلُولُو إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ. فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَيْهِ لِيُوقِظُوهُ وَيَسْحَبُوهُ مِنَ الْفِرَاشِ، وَكَانَ لُولُو يَسْكُنُ فِي رَابِيَةِ سَانتُو أَنْطُونِيُو فِي بَيْتٍ مُتَوَاضِعٍ ذِي حَدِيقَةٍ.

- "إِنِّي أَعْرِفُ أَيْنَ يَقَعُ مَنْزِلُ الْمُحَامِي لُولُو"، اسْتَدْرَكَ السَّائِقُ، وَفِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ دَاعٍ لِلْاسْتَدْرَاكِ، فَكُلُّ أَرَاكَاجُو كَانَتْ تَعْرِفُ عُنْوَانَ وَكَيْلَهَا الْمُنْتَدِبَ.

صَوْتُ نِسَائِي تَعَبٍ وَمُتَرَدِّدٍ، أَجَابَ، وَسَطَ قَرَقَعَةِ السَّيَّارَةِ، عَلَى مُنَادَاةِ الرِّبَانِ غُونَزَا؛ وَعَلَى الرِّغْمِ مِنَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ، عِنْدَمَا قَالُوا إِنَّ الْمَسْأَلَةَ ضَرْبُورِيَّةٌ وَتَتَعَلَّقُ بِإِخْرَاجِ أَحَدِهِمْ مِنَ السَّجْنِ، جَاءَ الصَّوْتُ وَدِيًّا:

- فِي الْحَالِ، لَا تَأْخِيرَ.

وَفِيمَا بَعْدَ وَهُوَ يَنْحِنِي فَوْقَ النَّافِذَةِ، أَرَادَ لُولُو أَنْ يَعْرِفَ:

- مِنْ هُنَا، وَمَاذَا تَرِيدُ؟

- "أَنَا، أَسْتَاذُ لُولُو، تَرِيْزَا بَاتِيْسْتَا"، قَالَتْ أَسْتَاذٌ اعْتِبَارًا لِلزَّوْجَةِ الَّتِي كَانَ ظَلُّهَا يُحْتَمِي وَرَاءَ قَامَةِ الْمُحَامِي، "عِذْرًا لِإِزْعَاجِي إِيَّاكَ، وَلَكِنِّي هُنَا مَعَ صَاحِبِ الطَّوَافَةِ فَنْتَانِيَا كَمَا سَأَشْرَحُ لَكَ، إِنَّهُ صَدِيقُ الْعَمَلِاقِ الَّذِي كَانَ تَدْخُلُهُ حَاسِمًا فِي شَجَارِ الْمُلْهَى، أَظُنُّ أَنَّ السَّيِّدَ يَعْرِفُهُ...".

- أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي ضَرَبَ الْحِرَاسَ وَرَجَالَ الْأَمْنِ فِي مُلْهَى بَارِيْسِ اللَّيْغَرِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ؟

تَرِيْزَا مُتَجَهَّةٌ بِكَلِيَّتِهَا وَلُولُو رَاضٍ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْمُلْهَى:

- إِنَّهُ هُوَ، أَجَلُ أَيُّهَا السَّيِّدُ.

- انْتَظَرُوا قَلِيلًا فَسَأُصَلُّ فِي الْحَالِ.

عِدَّةُ دَقَائِقٍ، ثُمَّ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ فِي الشَّارِعِ؛ شَوَّهَدَتْ الزَّوْجَةُ دَاخِلَ الْحَدِيقَةِ وَهِيَ تَقْفِلُ الْبَابَ وَصَوْتَهَا نَاهٍ أَمْرًا: "انْتَبِهْ لِلْمَطَرِ يَا لُولُو! ادْخُلِ السَّيَّارَةَ. سَقُّ إِلَى الْأَمَامِ يَا تِيْسَاو...". شَرَحَتْ تَرِيْزَا كُلَّ الْقِصَّةِ. كَايْتَانُو كَانَ قَلِيلَ الْكَلَامِ:

- لقد قلت لجانواريو: يا صديقي، انتبه، رجل الأمن أسوأ من أفعى، إنه لا ينمو بغير الخيانة. لم يعر الأمر اهتماماً، إنه كذلك، يواجه كل شيء بصدر مفتوح. ثناءب لولو وهو ما يزال مغالباً النعاس:

- لا ليس من موجب للفتّ على كل المخافر. الأفضل أن نذهب مباشرة إلى الأعلى، إلى الأستاذ منوال رييرو مدير الشرطة العام، إنه صديقي، ورجل خير.

ورسم لمدير الشرطة صورة من الإطراءات: عالم قانون ورجل كتب، ذو ثقافة واسعة، شجاع، لا يستطيع أحد أن يناقشه، ولكنه لا يتغاضى عن الظلم والاضطهادات التي لا سبب لها، ما عدا، طبعاً، اضطهاد الخصوم السياسيين؛ ولكن ليس له في هذه الأمور أي غرض شخصي، فإذا اضطهد المعارضين إنما يفعل بحكم وظيفته المسؤولة عن الأمن العام، منفذاً الواجبات الإدارية التي لا بد منها في المسؤولية. هذا ولن نتكلم عن ابنه الذي يمارس الكتابة بموهبة هي في سن الورد.

وعلى الرغم من تقدّم الساعة، في غرفة الاستقبال في مقر إقامة مدير الشرطة، كانت الأضواء ما تزال مشتعلة، وكانت هنالك حركة.. جندي من الشرطة العسكرية، يعاني الشوق إلى أيام كان خارجاً فيها عن القانون، يحرس مدخل الدار، متكئاً على الحائط، يترنّح بين إغماضة عينيه وفتحهما، ويده مسدس. عندما عرف الجندي لولو سانتوس، تخلّى عن تأهبه وعاد إلى وضعه السابق مرتخياً ضاحكاً:

- هذا أنت يا أستاذ لولو؟ تريد أن تتكلم مع الرجل؟ تستطيع أن تدخل.

انتظرت تريزا والربان كايثانو في السيارة، بينما السائق يطمئنهما:

- استرخي يا سيدة، إن الأستاذ لولو سيخلص زوجك.

ضحكت تريزا خفيفاً دون أن تعترض، وتابع السائق روايته عن أمجاد لولو.

- "الرجل الملائم موجود هنا. إنه يفعل كل شيء ليساعد محتاجاً. هذا ولن نتكلم عن الذكاء. آه.. إن مرافعاته في المحكمة لا يستطيع مدّع عام إزائها شيئاً لا في سرجيبي ولا في الولايات المجاورة". ولكونه زبون محاكم، فالسائق راح يصف بالتفاصيل المثيرة الحكم على المتهم موازينيا أحد أواخر الذين وصلوا إلى الداخل بالرشقات وبيوت الخرطوش: "آتياً من الأغواس ووراءه لا أعرف كم من القتلى؛ وارتكب هنا في سرجيبي عدة جرائم أخرى، وعيّن لولو سانتوس من قبل القاضي للدفاع عنه مقابل أتعاب قليلة، أو، مجاناً، لأن القاتل لم يكن لديه ستافو

واحد.. والله، من لم يحضر تلك المرافعة من "الطقطق للسلام عليكم" والتي استغرقت سبعا وأربعين ساعة من الأسئلة والأجوبة، لا يعرف من هو المحامي ذو النخاع في الجمجمة؛ اسمعوا كيف بدأ المرافعة: بدأ مشيراً إلى القاضي بإصبعه ثم إلى المدّعي العام فألى المحلفين واحداً واحداً ثم وضع إصبعه في صدره مشيراً إلى نفسه وقال:

- من ارتكب تلك الجرائم هو المدّعي العام وهو السيد القاضي والأعضاء الموقرون في مجلس العدل، وأنا، نحن كلنا، والمجتمع برمته من ارتكب.. لم أر شيئاً في حياتي أجمل من هذا، حتى اليوم اهتزّ عندما أخبر، فأظن أن الأمر يحدث الآن بالذات".

وأخيراً، وهو يدخن سيجار سان فليكس كان قد قدّمه له مدير الشرطة الذي جاء يرافقه حتى الباب، ظهر المحامي ضاحكاً لمزحة قالها صاحب النفوذ الوفي. وأعطى أمراً للسايق:

- يا تياو إلى المركز.

كان جانواريو يخرج من الباب عندما توقفت السيارة، وانسحبت تريزا تركض وهي تمدّ بذراعيها إليه، وتعلّقت في عنق العملاق. ابتسم القبطان جيريا، وهو يحدّق في عينيها: لقد تحوّل قراره الذي لا يُقاوم إلى مياه تنساب في الأسفل؛ كيف لا يقبلها في حين هي قد أخذته بقبلة من ثغره. عند باب المركز كان الجلادون ينظرون، فأوامر المدير العام، مع الأسف، لم تكن تقبل النقاش: "اطلقوا سراح الرجل حالاً، وإذا تعاطيتم معه فسيكون لي عمل وإياكم".

لقد تصادموا بالضرب، ويكفي أن ترى عين صاحب المركب الشراعي لتعرف ما فعلته الشرطة.

لقد بدأت المعركة في الشارع وتكرّرت في السجن: وعلى الرغم من عدم ملائمة المكان والزنازة الضيقة، فإن المعلم جيريا لم يخرج منها بشكل سيئ.. لقد تلقى ولكنه أنال ما تيسّر، وعندما تركه الجبناء واعدن بالرجوع فيما بعد لحفلة جديدة، ولقهوة الصباح، بمعناها التحقيري، على حدّ تعبير أحدهم، فإن الملاح كان ما يزال متماسكاً تماماً وإن بدا ملطخاً، وكان الجلاد ألسيدو والتحري أغنالدو ملطخين بالقدر نفسه.

اشترك الجميع في التهام السمكة الحارة بمن فيهم السائق الذي كان مستعداً في تلك اللحظة للتخلي عن أجره مقابل الرحلة التي لا نهاية لها، ولكنه في النهاية تلقى الأجرة حتى لا يصدّم القبطان غونزا الدقيق جداً في المسائل المالية.. وكشف لولو سانتوس عن وجه آخر للسائق، أن تياو معروف في عالم السامبا والمسيرات الراقصة وبطل عدة كرنفالات.

ورافقت الكاشاسا أكلة السمك، لولو اللسان يشرب كما هي عاداته جرعات موزونة، ويمدّ لسانه مع كل جرعة، بينما جانواريو وكايتانو يقلبان الشفاه، فيتبعهما السائق بالحركة نفسها وإلى جانب المعلم كانت تجلس تريزا وهي تأكل بيديها؛ فمنذ سنوات عديدة لم تأكل هكذا كأن تجمع الأكل بأصابعها، كتلة سمك مع بعض الطحين وتغمس كل شيء بالذرة الهندية المطحونة.

أفرغت القنينة الأولى بسرعة ففتحوا قنينة الكاشاسا الثانية، وبدأ لولو يُعرب عن دلائل التعب لأنه أكل ثلاثة صحون. أما السائق تياو، عقب هذه الكمية من السمك الحار والكاشاسا، فقد دعا كل الموجودين إلى أكلة فجوادا في داره، نهار الأحد في نهاية شارع سيماون دياس، عندما غنى للأصدقاء آخر مؤلفاته الموسيقية وهو يعزف على الكمنجة.. منزل رجل فقير لا مظاهر ولا اعتداد بالنفس ولكن لا تنقصه الصداقة.. وإذ كان قد قبل الدعوة فإن لولو تمّدّد على ظهر السفينة ونام.

كانت الساعة الرابعة صباحاً، وراح الضوء يتسلّل عبر الليل الذي ما يزال ساطعاً، فجلس إلى جانب السائق الفرحان، المعلم جانواريو جريباً وتريزا باتيستا باتجاه أتالايا، والسيارة تترنّح يساراً ويميناً، إذ إن تياو كان قد شرب الكثير من الكاشاسا وغنى السامبا التي ألفها عندما لُفّظ الحكم على اللص موازينيا، تقديراً لدفاع لولو سانتوس المثير:

"بلى، أيها الكبير

من قتل هو أنت،

لم يُطلق وحده الرصاص

فمن قتل هو أنت،

وهو القاضي والمدّعي العام،

من قتل هو الجوع،

وهو ظلم بني البشر.."

يفتح ذراعيه، يتحرك ليعطي الحرف قوة، يترك المقود، فتنحرف السيارة، تنزلق وتهدد بالانقلاب، ولكن في تلك الليلة أي حادث لا يستطيع أن يقع، إنها ليلة المعلم جانواريو جيريا وتريزا باتيستا... "الزواج هكذا، رجل وامرأة مولهان السواحد بالآخر، يستحق أن يحدث"، يقول السائق تياو واضع موسيقى الاحتجاج الذي انتهى إلى السيطرة على السيارة القديمة... من هناك ذهبوا عبر الطريق العريض المستقيم، أما تريزا وهي مليئة بالتأثر، فارتمت على صدر جانواريو. وفجأة كان البحر.

9

هنا، تنهدت تريزا، دارا فوق الرمال، وبللت الأمواج أرجلهما، وكان الفجر يولد من لون جانواريو. اكتشفت تريزا في النهاية من أين تأتي تلك الرائحة لتعطر صدر العملاق، إذ لم تكن غير رائحة البحر الطيبة؛ كانت قد بدأت تشم البحر وتذوقه. لماذا لا تريدني؟ سألت تريزا عندما خرجا وأيديهما متشابكة وهما يركضان فوق الشاطئ ليتعدا عن السيارة حيث استسلم السائق لشخير حماسي. "لأنني أريدك وأرغب فيك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها منفجرة بالغضب، وعندها وقعت أسير حبك، لهذا أبتعد وأهرب، أبعد يدي، أقفل فمي وأحرق قلبي. لأنني أريدك للحياة كلها لا لبرهة. آه لو كنت أستطيع أن آخذك معي إلى بيتنا وأضع في إصبعك خاتم خطوبة دفعة واحدة وللأبد.. آه لو كنت أستطيع، ولكن ذلك ليس ممكناً".

ولماذا لا يكون ممكناً يا معلم جانواريو جيريا؟ بخطوبة أو من دون خطوبة، لا يهمني. إلى بيتنا وإلى الأبد، أجل.. إني حرة بنفسي ولا شيء يربطني ولا أرغب في أي شيء آخر.

- ولكنني لست حراً.. تيتا، إني أحمل سلاسل حديدية في رجلي؛ إنها زوجتي ولا أستطيع أن انفصل عنها، لأنها تعاني مرضاً مزمناً، لقد خطفتها من بيت أبيها حيث كان عندها كل شيء ولديها خطيب تاجر؛ إنها دائماً مستقيمة معي، لقد تجاوزت كل حاجاتها دون المطالبة بشيء؛ تعمل وتبتسم، تبتسم حتى عندما لا

يكون لدينا ما نأكله؛ وإذا كنتُ قد تمكنتُ من شراء المركب الشراعي، فلأنها كانت قد ادّخرت بعض المال متلفة صحتها وراء ما كينة الخياطة طيلة اليوم؛ وبقيت طيلة حياتها عرضة للمرض، ضعيفة الصدر، وأرادت أن يكون لها ابن فلم تُرزق، وما خرجت من فمها قط كلمة شكوى؛ ما أجنه من المركب الشراعي أنفقه على الأدوية والأطباء لأطيل مدة المرض الذي لا يمكن الشفاء منه. عندما خطفتها من البيت لم أكن أكثر من متشرد في الموانئ، أعيش في الفقر والحزن وقلة التفكير. أما المرأة التي أحببتها وأردتها فقد سرقته من عائلتها، ومن إغراءات الخطيب، حيث كانت متعافية، جميلة، وسعيدة، وهي اليوم مريضة، حزينة وبشعة وكل ما عندها هو أنا ولا شيء آخر، ولا أحد آخر، فأنا لن أرميها في الشارع أو عند مصب النهر.. لا أريدك ليوم واحد، لليلة فراش وتنهيدة حب؛ إلى الأبد أريدك ولا أستطيع... لا أستطيع أن آخذ على نفسي عهداً لأني أحمل سلاسل في رجلي وأغلالاً في يدي؛ لهذا لم أملك قط ولم أقل لك يا حبي الكبير، فقط لم يكن لديّ الشجاعة على الهرب مرة واحدة، دون أن أعود، وفي نيتي أن أحملك إلى الأبد في أعماق عيني، بسوجهك الجميل ولونك المألوي وقوامك الخيزراني وذكري مراسيك، حتى أتغذى من ذكراك في وحدة ليالي الرحيل وأنا أنظر إلى البحر فأراك فيه.

- إنك رجل مستقيم يا جانواريو جيريا، تكلمت كما يجب أن يتكلم الرجال: جانو، يا جانو أغلالي، أي أمر محزن ألا أكون دفعة واحدة معك في بيتنا وحتى الموت، ولكن إذا لم يكن ذلك ممكناً فليكن ليوم واحد، لساعة واحدة، ولدقيقة واحدة، يوماً، يومين أو أقل من أسبوع، بالنسبة لي، هذا اليوم، أو هذان اليومان أو ذلك الأسبوع القصير، له حجم الحياة مضروباً بعدد ثواني وساعات وأيام الحب، حتى وإن كان شوقاً فيما بعد، وسأذوب رغبة ووحدة وأنا أحلم بك في هدأة المستحيل؛ حتى هذا يستحق العناء. إني أريدك الآن، في هذه اللحظة، حالاً، في هذه البرهة بالذات، دون تباطؤ ودون أي تأخير، الآن وغداً وبعد غد، الأحد والاثنين والثلاثاء، فجراً وعصراً وليلاً، وفي أية ساعة كانت، في أقرب فراش، على الحرير أو التبن، على الأرض، على الرمل، على سطح المركب، في مرسى البحر، حيث أردت أن يكون وإذا أمكن ففي ذراعي الواحد الآخر فاقدى الوعي، حتى وإن يكن بعدها الألم الموجه، فإني أريدك وسأحصل عليك، يا

جانواريو جيريا، ربان المركب الشراعي، العملاق، ملك النسور الياهيائي الأسوأ
قدراً والأقل حظاً في باهيا.

كان البحر اللامتناهي، أخضر وأزرق، كحلياً، قائماً، نقياً، زيتياً، مائياً، وكأن
لا ارتواء من البحر، فقد أمر جانواريو جيريا قمراً من الذهب والفضة ومنارة
مشتعلة في أعلى السماء أن ينيرا جسديهما في غمرة مطارحة الحب؛ كانا اثنين
عندما وصلا، وها هما الآن واحد فقط، على رمال الشاطئ، تتسلل إليهما موجة
فتطالهما.

تريزا باتيستا مشبعة برطوبة البحر، على فمها وشعرها المسبل، وصدرها
المفتوح، وسرة خصرها الهندي، وزهرة الطحالب تتقطر لآلي ندية، هنا يا
حبيبي، لأموتن على حدّ البحر الفاصل، بحرك أنت، بحر الأعشاب والطحالب،
بحر الفراق والغرق، ومن يدري فقد أموت يوماً في بحر باهيا، على مركبك
الشراعي، من فمك المالح وصدرك الأريبي في مركبك يرفع كل الأشرعة، وفي
غمرة الأمواج، ولدت من جديد عذراء بحرية، خطيبة وأرملة ملاح مركب
شراعي، وكلّي شوق هنا، يا حبيبي البحار...

10

لا أستطيع أن أروي لك الحكايات عن أمة تريزا.. يوجد بعض العارفين في
هذا الأمر، بعض مثقفي الكليات، وبعض أصحاب الحقائق الدبلوماسية الذين
يقودون البحث في هذه المواضيع، كاشفين بجرأة وعلم عن أصول كل واحد،
حاصلين بهذا على نتائج إيجابية لا أعرف إذا كانت دقيقة ولكنها بالتأكيد تلائم
الأحفاد، حتى إني أعرف أحد مطلقي العنان لشعورهم الفوقي يقدم نفسه سليلاً
للإله أوغون، فتأمل أي باحث تافه فتش له عن أصل عائلته، وبالتأكيد، كان هو
نفسه، وبكل تألق، إذ لا يجب على أحد أن يوكل إلى الآخرين مسألة أصل حساس
كهذا.

وكما تعرف أيها المواطن الشريف، هنا، امتزجت كل الأمم لتكوّن الأمة
البرازيلية. وفي قسمات الوجه، وقوام الجسد، وثنية العين، وطريقة السلوك، فإن من
له نظر يجد خاصية، منها يستوضح القرابة البعيدة، أو طريقة التمازج، وكيفية

حدوثها، وسيستوضح المدّعي أصله ويجد أنه نسيب الإله أوغون، وأنّ هذا الأخير يكون صلفاً لأنه كما تقول الحكاية كان يعاشر أوشوسي الإله لأغراض وقحة كأن يعتدي على بنات القديس بروكينيا. وإذا بدا لك هذا الأمر استنباطاً، فاطلب التوضيح من الرسام كريبه فهو من يجلو هذه الأمور للنبلاء، واضعاً نصب عينيه صورة الإله أوشوسي، بالإضافة إلى أنه صادق وواثق من الحديث عن تريزا باتيستا التي يهتم الكثير إلقاء الضوء عليها، فإن الاختلاف كبير في كل ما يقال في شأنها، آراء مختلفة، ونقاش طويل حول الكاشاسا رغبة في المحادثة.. مالوية الأصل طاغية الحسن، فقد جاء من يأخذها ويخفيها بدقة وسط البضاعة المنقولة ويحملها معه من هناك.. والبعض الآخر يتبينها فيجزم بأنها غجرية، قارئة كف، سارقة جياذ وأطفال تضع أقرطاً معدنية في الأذنين وتترّين بعقود من الذهب، وتمارس الرقص. ويقول البعض، إنّها من الرأس الأخضر، ذات ملامح هندية، متحفظة أكثر مما يتوقع منها، وذات شعر أسود مسبل.. أنغولية، ناغونية، كابينداوية، ذات قوام كونغولي أهيب، ومن هناك دمها النحاسي الذي امتزج بدماء كثيرة أخرى امتزجت بالتالي بالأمّة البرتغالية، ولكن، هنا تمازج الجميع... أفلست تراني زنجياً؟ أجل إنّ أول من تمّدّد في فراش جدتي كان برتغالياً عسكرياً.

في غمرة هذا اللغط يقولون جزافاً إنّ بائعاً متجولاً من حملة الحقائق هو الجد الأكبر لتريزا نتيجة إحدى صداقاته مع العاهرة المشهورة ميكالينا.. وعندما أقول بائعاً متجولاً من حملة الحقائق، أرجو أن لا أكون مضطراً إلى أن أوضح أنني أعني العربي، السوري أو اللبناني الذي يسمّونه هنا التركي.. في المنطقة الداخلية حيث ولدت تريزا كان الانقسام مستمراً في هذا الموضوع وظل صعباً معرفة ما إذا كان البائع المتجول قد ضمّ هو الآخر إلى صدره كومة القصب المغرية. إلى أين تصل الذاكرة؟ كانت نساء العائلات يشبعن أنظارهن ثم يخرجن بوقاحة يلصقنها بالأموات ويستمرّين بانتهاك القبور إلى أن يصلن إلى تريزا، وهنا فقد سمعتُ الكثيرات منهنّ يقلن في أكثر من محرقة كلامية، إنّ تريزا كانت بشعة ذات تكوين سيئ، وإنّها كانت تأسر الرجال بالسحر الأسود والكتابة لأنها كانت خبيرة وطيبة الفراش وليس لأنها جميلة. فانظر أيها المواطن الأصيل كم من التناقض! ومع ذلك فإنهم يريدون أن يصدّقهم الناس ويكونوا شهود عيان على خزعبلات التاريخ.

منذ زمن ليس ببعيد كنت متصالحاً مع نفسي. وأنا أكل قطع الحلوى المغمسة بالقطر، في بيتي الصغير، عندما بدأ أحد المشخصين يروي لبعض أهالي سان باولو وإحدى السيدات الفتيات، دائمة الابتسامات كأفواه الأغنياء، آه لو لم أكن متزوجاً!! كما كنتُ سأقول لك قبل أن أتوقف أمام زهرة سان باولو الندية، فإن المشخص شاب عصري لا يتفحص الكذب أراد أن يكون وسيطاً للزائرين فأكد أن تريزا كانت شقراء مشاكسة وسمينة، ومن الحقيقة لم يُبق لها سوى الشجاعة من أجل الوصول إلى غرضه بالقضاء على شهرة تريزا، بقوة الصراخ، وقال إن تريزا بينما تهرول في الشارع فقد نادى عليها للتقيد بالنظام بينما كانت قد صرخت صرختي ألم فبدا وجهها هزياً شاحباً. هنا، في السوق النموذجية، يا ابن أمي، يسمع الناس أشياء مرعبة وكذباً يقع كما المطرقة على الحائط.

لو كنت أنا المواطن النبيل لتركت جانباً مسألة الأمة هذه، فأية فائدة تعود إليك إذا عرفت أن في عرق تريزا دمًا مالوياً أو أنغولياً، أو إذا كان للعربي في يوم دخل في هذا الموضوع، وما إذا كان الأمر يعني الغجر الضاربين خيامهم في الغابات؛ كان شاب هناك قد أخبرني أن سيدة تدعى ماجدة مورائيس قد أفادت عند الشرطة، تدعمها أخواتها في ما تقول، إن تريزا كانت سوداء من عرق سيئ وبشع.. وهكذا كانت تريزا من لسان إلى لسان، من شقراء إلى سوداء، من جمال لا مثيل له إلى بشعة دميمة، وكنت أنا في بيتي الريفي الصغير، أصغي وألوذ بالصمت، فمن يعرف عن تريزا أكثر مني ولم يأخذني صديقاً؟

لا أستطيع أن أقدم لك أكثر من هذا عن أمة تريزا، ولا يهمني بشيء أن تكون هي نفسها الإلهة يانسان، توأمها أو نسيبة لها، ولكن ما يخص أمتك أنت يا صاحب النفوذ، ودون أن أذهب بعيداً أو أنتقص من الحقيقة، أستطيع في الحال أن أكتشف مزيجك الدموي الأقوى؛ إني أسمع تحت بياض جلدك قرع طبول تُصم الآذان؛ أن الإله السيد هو من أمة الخلاسين البيض الذين يسمّون أهل باهيا البيض، أمة الطليعة أقول لك، منها أوشوسي وشانغو اللذان يقيمان في منزل القديس جورجوس في مدينة باهيا قبله العالم.

أيام مليئة بالارتباك تعيشها تريزا باتيستا موزعة بين جوان داس فولياس، فلوري باتشولا، باريس الليغري، والربان جانواريو جيريا الذي اسمه جانو عند مداعبة نسيم البحر وإغماضة الجفنين وتكسر الأمواج ورغبات الحب لدى تريزا. أما حاشية المعجبين والوقت الذي تصرفه عند طبيب الأسنان وإلحاح فراندا فكانت كلها تُضاف إلى محور اهتماماتها.

حوالي الساعة العاشرة صباحاً، ترجلت تريزا أمام مدخل المزرعة الصغيرة في توقف لم يتوقعه سائق الباص الشعبي. في تلك الساعة كانت جوانا قد قامت بجزء كبير من كدحها اليومي: فالعامل الذي يشتغل معها يكون قد خرج في الباص الأول مع الخضار لزيارة الزبائن في الشوارع التجارية. وهي تشقى في العناية بالأرض قبل بزوغ الشمس، تهتم بالخضار، تقطف، تزرع، تضع السماد، وها هي تصل من أعمالها الزراعية الشاقة وتتوجه لتغسل يديها.

ها هما جالستان إلى طاولة غرفة الطعام مع الأقلام والحبر والكتاب والدفاتر وقد أخذتا قراريهما بإصرار... ذلك العمل لم يكن مجهولاً بالنسبة إلى تريزا، ففي أشتانسيا في الشارع الهادئ، ومع قلة العابرين، كانت قد بدأت بتعليم الحروف الأولى لولدي لولا ونينا اللذين انضمّا فيما بعد إلى أولاد الجيران، متمكنة من أن تجمع سبعة تلاميذ متحمّمين حولها بدائرة من الضحك والدلال. لم يكن هنالك الكثير لتعليمه في ذلك الوقت الذي تعلّمت خلاله تريزا باتيستا هي الأخرى؛ ما تعرفه الآن من الكتابة والقراءة يعود إلى تلك الأيام، التي، رغم كونها أياماً سعيدة وهادئة، فإنها ما تزال تثقل كتفيها بما سبقها وما أعقبها فتبدو لها أيام سوء وألم، ولا يسقط اسم السيدة مرسيدس ليما معلمة المحلة الريفية التي كانت هي الأخرى قليلة المعرفة وكثيرة التفاني. في الحصص اليومية، من العاشرة وحتى الحادية عشرة (باستثناء الأيام التي يأتي فيها الأستاذ إلى المدينة ويقيم في الدار) أمثلة ونزهة، كانت تريزا أثناءها تلقن الأطفال التهجئة وتعلّمهم الخط وتطعمهم السندويشات الكبيرة المعبّدة من الخبز والجبن ومعها حلويات منزلية وثمار وألواح من الشوكولاته إلى جانب المشروب الغازي. أولاد هيف، أذكفاء، وبعضهم من ذوي الحيوية والحركة الزئبقية، هكذا كانت هي نفسها في صف السيدة مرسيدس.

بعضهم الآخر أصعب تعلماً، ذوو رؤوس صلبة ولكن أي واحد منهم لم يكن يشبه جوانا داس فولياس، لا لأنها كانت قليلة الذكاء أو بلهاء، فعلى العكس كانت نبهة، وعندما عرض عليها لولو سانتوس مخطط المعركة فقد استوعبته فوراً. ترددت قليلاً في اعتماده، إذ في رأيها، ولأنها امرأة شريفة كانت تفضل أن تدفع للمرابي ثمانمائة ريال القرض والفوائد الباهظة المتفق عليها. ولكن اللسن لم يوافق مفسراً الأمر بقوله: "كل شيء أو لا شيء". فلكي تدفع الدين الحقيقي عليها أن تعترف على الأقل بجزء من صلاحية الوثيقة الموقع بالالتزام، وأن تتنكر في الوقت نفسه لتزييف الأرقام، ولكن كيف السبيل إلى إثبات التزييف؟ لم يكن من وسيلة لذلك مع الأسف، فالطريق الوحيد الذي يجب سلوكه، كان في إنكار التوقيع بالالتزام، وتجاهل الوثيقة واتهام ليوريو بتزييفها، بكل ما فيها، ظناً منه أنها أمية بجرّدة من كل شيء ومرمية في موقع العمل، والادعاء بأنها لم تأخذ مرة أي قرض وليست مدينة لأحد بشيء، كانت تعرف القراءة والكتابة وتوقع اسمها وهي كانت مستعدة لإثبات ذلك وهي تخطّ على مرأى من القاضي توقيعها على ورقة. أما لولو فكان يريد فقط أن يرى وجه ليوريو القذر في تلك اللحظة.

كان عليها أن تختار بين إجراءين: فإما أن تعترف بالوثيقة، في هذه الحال سيتم حجز موقع العمل وياع في المزاد العلني ويعطى بالتالي إلى ليوريو مع تقبيل يده، وليس لدينا ما ثبت به تزوير الأرقام، وهكذا تبقى جوانا داس فولياس تعمل خادمة لليوريو نفسه في الأرض التي كانت سيدة عليها وتخرج في طلب الإحسان والصدقة في شوارع أراكاجو، وإما أن تعلن أن الوثيقة مزورة بكلّيتها، ما سيجعل موقع العمل بمنأى عن كل تهديد، ويجعلها حرة في الوقت نفسه من دينها، المال المحفوظ لدفع الدين من حق لولو على أتعابه: "رجل مثلك، أستاذ، لا يوجد، عليّ أن أدفع أتعاب حنوك عليّ، لا لشيء إلا لأنك قبلت بالأمر دون أن تأمل في أية مكافأة". وهذا أمر لن يحدث يا عزيزتي لأن الكلفة والأتعاب ستكون على حساب سيئ الأخلاق إذا جاءت العقوبة عادلة، وكما يجب أن تكون؛ في الأعماق لم تكن تحبّ جوانا فكرة إعطاء أمثلة للمزيف: لقد كانت تمتلك ذكاء أهل الريف وخبرة نظرية تجعل تعلم الألفباء والمقاطع اللفظية والقراءة مسألة سهلة بالنسبة إليها.

لم يكن في يديها ما في عقلها من طراوة تسمح لها باستيعاب المسائل الحساسة والمزخرفة.. فإن يدي جوانا كانتا كمزلاجين أو كقطعتين من أرض يابسة، وكانت أصابعها كجذوع الشجر أو كأغصان غير متناسقة، يدان متعودتان على معالجة الأشياء القاسية وعلى الفرش وصيد السمك واستعمال الفأس والمنجل؛ فكيف لهاتين اليدين أن تعالجا الأقلام والريشات؟ بقيت تريزا في المزرعة الصغيرة حتى الثالثة بعد الظهر تعالج يدي جوانا متوقفة فقط لتناول غداء سريع. عمل مضن، وشغل مثير، تراقب معه أدنى تقدّم، وتحصي الركود في كل لحظة، متغلبة على الضعف، منتصرة على العمل الشاق وتجربة الاستسلام. أما جوانا فكانت تهتف أحياناً باسم منوال طالبة النجدة، وكانت تعضّ يديها أحياناً لمعاقبتهم؛ وامتلات عيناها بالدموع عندما تمكّنت أخيراً من خط حرف ج مقروء.

في باص الساعة الثالثة كانت تريزا تذهب إلى طبيب الأسنان، وبعدها مباشرة إلى التمرين في باريس الليغري حيث يلاقيها جانواريو في نهاية رحلته اليومية. ولجانواريو كانت تعمل أيضاً: تساعد في التحميل والتنظيف والصباغة وإعداد الأشرطة، وفي تجهيز الطوافة فنتانيا للانطلاق.. لم يعد شيء يجري في السر، حتى فلوري الذي يستعجل طبيب الأسنان وهو يرى في غبار الأرض مشاريع الجلوس والتمدد في الفراش مع نجمة السامبا المثيرة كان يرى فجأة صاحب الطوافة يقفز إلى المكان فتقهقه تريزا ضحكاً في زاوية من زوايا الملهى. ولكن كما تمّ شرحه سابقاً، فإن فلوري باتشولا الرجل الذي خبر الحياة والنساء لا يطفئ رغبته بسهولة في يوم، أكثر أو أقل، وعندما يتمّ تحميل أكياس السكر وترتفع الأشرطة في معالقها وتنفتح للريح وتُرفع المشكاة وتعود الطوافة فنتانيا خشباً متأرجحاً فوق البحر، فسيعبر الجسر باتجاه باهيا بانتظار المخطط وهو يتبيّن إثارة السامبا؛ كان ينظر دون ارتباك إلى العملاق في أعلى السلم: اذهب ودع الفراش الذي سَأتمدد فيه، فليس من فراش أكثر غضباً من فراش امرأة موجهة من الشوق.

مع وصول جانواريو استأذن الشاعر والرسام بالانصراف؛ لم يكن الشاعر يتعقّب غير سراب بعيد ورمز محبط وحلم زائل، مفتشاً عن الخلود في قصائده المولودة من حسناء النحاس أبيات شعر عن الحب والموت؛ أما الرسام فيبدو صامتاً عميق النظرات كأنما ينظر إلى الخارج والداخل متشبعاً من الصورة التي لا تُنسى

ومن كل تعبير، ومن عبء الماضي والقوة الحيوية، تريزا الراقصة، المرأة التي تكف عن الدوران، عذراء المنطقة الوسطى، امرأة المرفأ، العجرية، ملكة السامبا، ابنة الشعب، فكم من اللوحات وكم من العناوين التي وضعها تحت وجه تريزا؟

بعد التمارين، وحوالي الساعة السادسة مساءً، عادت تريزا إلى موقع العمل برفقة جانواريو، وابتدأ الدرس من جديد. وقت متعب ولكنه ترفيهي. ودون إضافة دقيقة واحدة. ففي تلك الجولة المكثفة النشاطات أصبحت تريزا وجوانا صديقتين. أخبرتها الزنجية عن الزوج: فلاح قوي ونشيط ذو قلب طيب، لم يحزن إلا على ابنه الذي رغب في أن يراه يحرق الأرض ويوسع المزرعة ويزيد من إنتاج الخضار والفواكه، وكذلك من الزبائن، محوّلًا الموقع الصغير إلى مزرعة كبيرة.. لم يغفر للابن هربه.. جميل وحار. كان يحب أن يحكّ شاربيه العريضين على جلد زوجته؛ لم ينظر قط إلى امرأة أخرى مكثفياً بزنجيته جوانا؛ وعندما ماتت كانت جوانا قد أكملت الواحدة والأربعين من عمرها منها ثلاث وعشرون سنة برفقة منوال فرنسا، ومنذ موت الزوج توقفت عاداتها الشهرية، وكأنها ميتة هي الأخرى في مثل هذه الأمور.

لولو سانتوس إلى جانب حمى المحكمة وسعير البار، كان يظهر في المزرعة الصغيرة ليلاحظ ويتأمل في تطورات العاملة.. ومنذ البدء لم يكن متحمساً: فيد جوانا داس فولياس، يد حراثة وتسميد وزرع وقطاف ولن تستطيع أبداً أن ترسم حروف اسم السيدة جوانا فرنسا؛ الوقت قصير، والجلسة قريبة، ومحامي ليبريو حاذق في تحريك الشطرنج، يستعجل القاضي ومع الحروف الأولى أصبح لولو حيويًا وعاد إليه تفاؤله.. فالقلم لم يعد يمزق الورقة وقلت نقاط الخبر... ومن يدي جوانا ودوخة تريزا بدأت تولد الحروف.

يد جوانا تسير وحيدة، وعندما تستأذن تريزا بالانصراف في الثامنة ليلاً في الباص المليء، في فضيحة قبلات، ويبدأ ليل الحب، فإن الزنجية تتابع المجازفة على الورقة، فتعيد كتابة الألفباء، كلمات وكلمات أخرى، أما اسمها فتعيد كتابته مرات لا تحصى.. نقطة الخبر الأول تتحوّل إلى كتابة، والخدوش في كل مرة أكثر نظافة وأكثر ثباتاً، وأقل إغلاقاً على الفهم.. تدافع جوانا داس فولياس عن كل شيء بقدر ما تستطيع، عن موقع عمل منوال الذي تحول معها إلى مزرعة نموذجية، وإلى

بستان فاكهة مختارة، منه تكسب خبزها وهو إرث من الزوج، وأرض خصبة منها تأتي بالضرورة لنفقات البيت وما زاد عن ذلك فلجنون الابن العاق الذي تحبه.

12

في حديث مع لولو سانتوس، عدت العجوز أدريانا فتيات اليوم حمقاوات ولا تفكير عندهن ولا يفكرن في الغد.

- إنها مجنونة، إنها ترمي بعيداً بحظها الكبير.. (عنت بحظها الكبير سيناتورا صناعياً).

كان اللسن قد وصل لزيارة تريزا ففتحت له العجوز قلبها:

- تريزا لا تبقى في البيت، إنها تخرج توماً بعد تناول القهوة وتبقى ليل نهار وراء هذا البحار اللعين. فتاة بهذا المستوى والجمال تستطيع الحصول على كل ما تريد وتطمح فيه في مدينة أراكاجو، حيث لا يعدم وجود رجل مستقيم، متزوج، ذي مركز مرموق، وصاحب مال يصرفه، ومستعد لأن يحميها ويتحمل مسؤولية معاشرتها امرأة من صنفها.

أدريانا لم تكن تموت حباً بفيراندا، ولولو يعرف أسباب العداوة، ولكن الحقيقة يجب أن يقال: "هذه المرة فإن الحمقاء تتصرف بأحسن ما يكون. لقد أرسلت تعرض على تريزا لقاءً سرياً في بيت العزّاب، أتعرف مع من يا لولو، تكهن إذا استطعت، وخفضت صوتها لتفصح عن اسم الصناعي المصرفي، السيناتورا! وهو، لقضاء بعد الظهر في فراش تريزا، مرة واحدة، يعرض ثروة صغيرة ويبدو أنه رآها في أيام أشتانسيا وحمل لها ولها قديماً وضغطاً طبخ على نار خفيفة (واعذرت من لولو عن التعبير الذي ردّته فيراندا)، وكانت فيراندا قد توسطت أدريانا ووعدتها بعمولة معقولة.. إنها لتريزا الفرصة السانحة، وأبعد من ذلك أيضاً إمكانية الغنى الكريم إذا أعجب بالفتاة و(هو بالتأكيد سيكون معجباً) على أن يضعها في بيت مؤثث من كل شيء؛ تريزا مشتهة؛ أين عقلها؟ إنها لم تكف بالرفض ومقابل إلحاح أدريانا التي تعهدت بالتقيد بكلمة السوعد التي أخذتها على نفسها أمام فيراندا، هدّدت تريزا بالرحيل؛ إنه سخف لا معنى له احتقار أغني رجل في منطقة سرجيبي. إن ذوات العقول الهوائية فتيات اليوم يفكرن دائماً في الممارسة ليس مع من يدفع بدل الأتعاب، ولكن مع خنافس منهزمين،

وهنّ متعلقات بأي نوع من الفقر، إهنّ ينسين الشيء الأساسي، المال، سيد العالم، ويتنهين جميعاً إلى مستشفيات المعوزين".

تسلّى لولو سانتوس بياس المرأة المسنة، اليأس الصدمة بسبب العمولة التي وعدتها بها فراندا: العجوز أدريانا امرأة التقاليد والمبادئ الكتوم، تحولت إلى سمسار في خدمة أشهر امرأة دعارة في أراكاجو؟ فلمن أعارت كبريائها المهني؟
- لولو، إن الأيام تترك آثارها، ولكن المال لا يحمل رائحة ولا أثراً.

- أدريانا يا جميلتي اتركي الفتاة بسلام، تريزا تعرف قيمة المال، إنها لا تخدع نفسها، ولكنها تعرف أكثر قيمة الحب والحياة، أو تفكرين أن السيناتور وحده هو من يركض وراء تريزا حاملاً حقبة بيده وضغط روث الحصان في مقعده؟؟ (اعذريني على الكلمة، ولكني أردد أيضاً كلام فراندا) وهناك شاعر تغمره القصائد، وكل معنى من معانيه يساوي ملايين الصناعي وهو يموت من أجلها. إذا لم تكن قد أعطت نفسها للشاعر، فلماذا تعطيها لسيد الأقمشة؟ إنها لم تردني أنا يا أدريانا، أنا المعروف بكسارة جوز الهند بالنسبة إلى نساء أراكاجو، إنها تريد فقط من توجه إلى قلبها بالكلام.. اتركي تريزا بسلام خلال هذا الوقت القصير من الحب والفرح وهيئي لتهمنيها بعطف وتعطيها راحة الصداقة عندما، غداً أو بعد غد، من الآن ولعدة أيام مقبلة، يكون البحار قد رحل وبدأ زمن اليأس المر والاندثار ندماً.

ووعدت أدريانا: ستكون أختاً وأماً لتريزا وستمسح دموعها، "ولكن تريزا يا عجوزي صعبة البكاء، وإذا كانت ذات رأس فارغ فإنها وحدها المسؤولة". والتمع في عيني أدريانا بريق أمل: عندما تبرد معاناتها وتصبح حرة طليقة من وجود الكبير الهامة، ربما أعادت تريزا النظر في موقفها، وانتهت إلى قبول قطعة الحلوى من أب الوطن.

13

"فقط، بعد ظهر يوم الرحيل، تقول لي، لا أريد أن أعرف سلفاً يوم ذهابك"، طلبت منه تريزا. لقد تصرفا كما لو أنهما كانا يعيشان معاً طيلة الحياة، دون أن يتوقعا فراقاً قريباً، وكما لو أن الطوافة فنتانيا كانت ستبقى جاثمة إلى الأبد في مرفأ أراكاجو. على رمال الشاطئ في غابة الفستق، في تعرجات الجزيرة، في غرفة تريزا، على مؤخرة الطوافة، يعيشان أيام العيد هذه، يجنون تراهما يملآن سرجيبي حباً.

شارك جانواريو بكل تفاصيل حياة تريزا، أثناء التمارين يعلمها قفزات وحركات الجسم اللين، وكيفية إعطاء السامبا الأناقة والشجاعة، إذ ما تزال تريزا تشعر ببعض الحياء وهي تؤدّي دوران السامبا الأنغولية. ربان مركب شراعي، وراقص بطبيعته، يرافق باهتمام كبير أقل تقدّم تحرزه جوانا داس فولياس، ويضحك بفرح عندما يلاحظ أن اليد تتحرّك في النهاية وتصبح قادرة على إدارة الريشة والقلم وهي تهتزّ فوق الورقة، دون أن تجعلها كما في السابق. وما زالت تلتطخ بالحرير دون أن تحول الأحرف إلى نقاط سوداء مفهومة. وهناك دائماً لحظة، خلال الصف، كان الثلاثة يتسمون فيها معاً، تريزا، جانواريو وجوانا داس فولياس.

يتمشيان ممسكين الواحد بيد الآخر في المرفأ ويجلسان معاً يتحدثان على جسر الإمبراطور، وعند مؤخرة الطوافة فنتانيا؛ ومرة ترك المجاذيف وأخذها بين يديه في الزورق المتهادي وكان الإبحار خفيفاً وذاتياً عبر مجرى النهر، وبعدها رسا في جزيرة جوز الهند، وخرج الاثنان لاكتشاف خبايا المكان. في ليلة أتالايا كانا يلاحقان القمر في السماء وحيدين على الشاطئ الممتد، وقد خلعا ملابسهما، ودخلا البحر، بينما تريزا قد أسلمت نفسها وسط المياه وكلها ملح ورائحة بحرية.

- "أنت لست يانسون الآن، إنك يانسون فقط في ساعة العراك. أنت الآن جانابينيا، ملكة البحر". قال لها جانواريو، المعتاد على تعاويد آلهة البحر. كان في نية تريزا أن تسأل عن المركب الشراعي فلور داس أغواس، وعن الرحلات البحرية الطويلة، ونهر باراغواسو وجزيرة إيتاباريكا ومرافئ اللهو، وكيف تكون الحياة هناك في باهيا؛ ولكن منذ تلك الليلة في أتالايا، عندما أخبرها بما هو أهم، لم يعودا إلى الحديث عن هذه الموضوعات، وعن المراكب الشراعية، ونهر باراغواسو وماراغو جيبي وسانتو أمارو وكاشويرا، وعن الجزر والشواطئ ومدينة باهيا، وعن مياه بحر جميع القديسين؛ لقد تحدّثا عن موضوعات أراكاجو، عن الجلسة الأخيرة من دعوى جوانا داس فولياس التي عيّنت المحكمة تاريخها، وعن باريس الليغري، وعن التمرينات على عروض الرقص، بحيث إن العرض الأول أصبح قريباً، وعن سن الذهب التي بلغت مرحلة الصب وهل أن جميل نجار طبيب أسنان أو نحات؟ فنان جراحة الأسنان يجيب الطبيب وهو يعرض التحفة. كانا يمارسان هذه الأحاديث كما لو أنهما لن يفترقا أبداً، وكما لو أن الحياة توقفت عند ساعة حب.

نهار الأحد، ذهبوا إلى الغداء في منزل السائق تياو، بصحبة لولو سانتوس والبحار كايستانو غونزا، كما هو متفق عليه. أكلة فيجوادا بكل معنى الكلمة، تستحق أعلى درجات التقدير وإبداء الإعجاب.. حفلة تضجّ بالحياة، والمدعوون كثيرون، سائقون من المحلة، موسيقيون هواة مع الكمنجة والناي، وعازف مندولين من الدرجة الأولى، وبنات الجيران صديقات زوجة تياو ممتلئات إثارة، وكاشاسا وبيرة؛ أما للنساء فالمشروبات الغازية. شربوا، غنّوا، ثم رقصوا على أنغام الغرامافون، الجميع يعدّون جانواريو وتريزا زوجاً وزوجة:

- تلك الجميلة هي امرأة الضخم الجثة.

- رجل بحر، تعرفه ما إن تراه.

- يا لهذه القطعة من جمال النساء.

- إنها عنب رازقي، ولكن لا تتحدث معها، إنها متزوجة من ذلك التيهور، زوجة بحار؛ من لا يعرف؟ قريباً تغدو أرملة، إمّا بسبب موت زوجها في البحر، وإمّا لأنه راحل لتوه؛ حب رجل البحر يدوم المسافة بين ضفتيّ نهر. ولم تهرب تريزا باتيستا مع علمها بأن فرحها مؤقت وبأن رجلها رحال. ثمن باهظ يجب أن تدفعه هو حياة النضال: ولكنّ وهم الحب يستحق العناء.

14

بحركة من الكاتب القضائي وقف الجميع، إذ إنّ لحظة لفظ العقوبة الحاسمة كانت قد حانت. وبينما يقف، ألقى القاضي نظرة بطرف عينه إلى لولو سانتوس. كان وجه لولو ينمّ عن أسف ويرتدي ملامح النية في رفض التزوير والتزييف والسرقة والجريمة، ولكن لن يخدع القاضي الجدير ذا الصيت اللامع الأستاذ بنيتو كاردوسو: علوم عالية ومقالات في مجلة المحاكم التي تصدر في سان باولو ونال شهرة مشرّع لامع، بشهادة البروفسور روي أنطونس من جامعة برنامبوكو الذي جيء به إلى سرجيبي لمعالجة قضية جنائية معقدة، إن الأستاذ كاردوسو بالإضافة إلى معرفته العميقة بالقانون، له معرفة بالرجال تثير الإعجاب.

في عمق عيني المعوق، كان القاضي يتكهّن بوجود طبيعة احتيالية: إنّ الجلسة لن تكون أكثر من مهزلة من الخدعات، ولكن إذا كان كشف القناع عن اللص

يقتضي الكذب والمراوغة في النهاية فلا بأس؛ لولو سانتوس، رجل القانون الحاذق، مجهّزاً نفسه بالمخططات والأفكار المسبقة، سيأخذ أسوأ محتمل في المدينة، المرتكب موبقات التزييف في أماكن العدالة، مستعملاً القانون لأغراضه وغير مدان أبداً، من أجله؛ فكم من المرات أحلى الدكتور كاردوسو سبيله لعدم توفر الأدلة، ولكنه يعرفه مذنباً؟ أربع مرات على ما يتذكر... "إنّ الإفادات والشهود كانت رائعة يا لولو، ولم يعد من الضروري الإدلاء بكلمة حتى يلفظ القضاء حكمه العادل. وعندما ينتهي كل شيء، فإن القاضي بفضول عبثي سيرغب في استجلاء أمر واحد فقط".

ألقي القاضي على ليوريو داس نيفس نظرة قاسية من الامتعاض والكره! إلى جانب المراسي بدأ الخريج من كلية الحقوق سيلو ميلو، محامٍ دخل السلك من باب التلاعب، يحسّ بأن القضية خاسرة من خلال القلق الذي ارتسم في عيني موكله الشبقتين إلى الربا والنفاق.. وكيف رئيس المحكمة حنجرته القضائية، وقرأ الحكم، في صوته الأجش البطيء، وفي الاعتبار التي سبقت القرار، بدأ ليوريو داس نيفس يكشف عن نفسه، ويتفرّغ من انتفاخه ككيس تمّ تفريغه في النهاية، بينما عاد لولو سانتوس يرافق كل تفاصيل الوقوع في الشرك المنتظر: ليوريو كيس فارغ، بل كيس قذارة... وظل صوت الدكتور بنيتو كاردوسو احتفالياً، يلفظ كل مقطع لفظي، كل حرف، وفي نهاية القطعة التي يقرأها، تلفّظ بتفخيم للمقطع الأخير: "لهذه الأسباب، ولعدم توفر الأدلة، أحكم بإسقاط العمل التنفيذي الحالي الذي يطالب به ليوريو داس نيفس ضد جوانا فرنسا، وأحكم بعدم صلاحية الوثيقة المزورة التي ارتكزت عليها الدعوى وانتظم الطلب بموجب الإثباتات التي حملتني على هذا الاستنتاج (تزوير المستند) أحكم، بتحويل الوثيقة إلى العدالة دون ادّعاء أي طرف، وإذا وجد، فبعد الحكم تستخرج نسخة طبق الأصل عن القرار الحالي وترسل إلى الوزارة العامة، وذلك لاتخاذ العقوبات اللازمة؛ أما تكاليف المحكمة الناتجة عن تصرف مسببها لتصرفه بنية الغش وسوء القصد، فيدفعها الجاني ويدفع بالإضافة إليها أتعاب المحاماة بنسبة 20% من قيمة تكاليف المحاكمة.

"فقط أريد أن أرى وجه ليوريو"، قال لولو سانتوس لتريزا باتيستا في تلك الليلة التي وضعوا فيها مخطط النضال في بيت العجوز أدريانا.. ولم يشاهد وجهه

يتصبّب بالعرق البارد، ولكنه سمع صوته يخنخن بصرخة نزاع، فأحسّ لولو عندها أنه، قد تقاضى بدل أتعابه وأتعاب تريزا وجوانا داس فولياس: "أعترض، أعترض! لقد خذلوني، إنها مؤامرة ضدي، إنهم يسرقونني" صرخ ليوريو ضائعاً، يائساً، كاد القاضي أن يرفع الجلسة، وإذا كان ما يزال واقفاً، أشار بإصبعه مهدداً، وقال:

- "كلمة واحدة بعد، وأرسل في إلقاء القبض عليك وإيداعك السجن بتهمة تقليل الاحترام للعدالة... رفعت الجلسة". ابتلع الوضع لسانه وأوقف اعتراضه الدليل؛ أما المحامي سيلو ميلو، فقد بدا وجهه كوجه فأر، وبانت عليه هيئة الأحمق، ودون أن يفهم، وإن نصف ما حدث في المحكمة، سحب زبونه إلى خارج القاعة. خرج الحاضرون ووضع الكاتب القضائي الكتاب الأسود الذي تمّ فيه تسجيل الحكم، على ذراعه... وأخيراً بقي القاضي وهو يجهز نفسه للخروج والمحامي يهتئ عكازيه، وحيدين... إنهما صديقان منذ زمن بعيد؛ وإذا بالقاضي، بصوت انخفاض إلى حدّ التمتمة غير المسموعة، وبثقة، يستفهم من المحامي عن الحلقة المفقودة التي كانت تشغله، وكل الباقي يبدو شفافاً واضحاً: "سيد لولو، قل لي، من علم الزنجية توقيع اسمها؟" تأمل لولو سانتوس في القاضي بنظرة متشككة: "من؟ السيدة كارمليتا مندونسيا، هي قالت هذا، هنا، منذ قليل، بعد أن أقسمت على ذلك، إنها المرأة الأكثر استقامة، المحترمة من كل ولاية سرجيسي، معلمتنا نحن جميعاً، ومعلمتك أنت، نظيفة، طاهرة، وذات كلمة لا تقبل التكذيب".

- ومن يكذبها؟ لو كان في نيتي تكذيبها لفعلت ذلك أثناء المحكمة. معلمتي، أجل.. ومعلمتك أيضاً، فأنت كنت تلميذها المفضل لأنك كنت الأذكي... - "والمعوق... ضحك لولو.

- "أجل... أجل... اسمع يا لولو، ما دام الحكم قد لفظ: السيدة "كارمليتا" لم تر قط تلك الزنجية قبل أن تدخل هذه الصالة، لقد جاءت لأنك أخبرتها بالحقيقة وأقنعتها، وعملت هي خيراً لأنها جاءت. إن ليوريو عفن مكروه ويستحق الدرس الذي أعطي له، ومع هذا لا أظن أنه سيرعوي، إنه وُلد سيئاً. ولكن سيد لولو قل لي من هو العبقرى الذي توصل إلى أن يجعل تينك اليدين ترسمان دون ذبذبة حروفاً يمكن قراءتها؟... اللّسن، مبتسماً، عاد يحدّق في القاضي وعيناه خاليتان من كل شك وتساؤل:

- إذا قلت إنها جنية ساحرة الجمال فلن أكون بعيداً عن الحقيقة. لو لم تكن قاضياً محترماً لكنت دعوتك إلى أن تذهب معي يوم الجمعة المقبل إلى ملهى باريس الليغري، في المنطقة، ولقدّمت لك الحساء...

- وهل الحساء امرأة عامة؟

- إنها تريزا باتيستا، جمال قلّ نظيره، يا عزيزي. وهي في العراق أفضل منها في الكتابة.

قال ذلك وغادر الصالة تاركاً القاضي يفكر كم تحمل الحياة من المفاجآت العبثية أحياناً. فتلك الدعوى لا تعدو كونها الآن حيلًا وخدعاً تصبّ في مجرى الحقيقة والعدل. مسرعاً، وهو يتنقل على عكازيه، جاء لولو سانتوس لملاقاة سيلو ميلو الذي ينتظره مهزوماً ذليلاً مفتشاً عن اتفاقات خارج القاعة، كان اللّسن قد أخذته فرحة عيد: آه.. لقد تبدّل وجه ليبيوريو بفعل البراز الذي سكب عليه.

15

مهزلة من الخدع، حسب قول القاضي الأكبر؛ فقد تقمّص الحاضرون هيئة تنكيرية، بحيث إن كل واحد لعب ورقته على أكمل وجه، إن مدبر طلب التنفيذ ليبيوريو داس نيفس، الذي تبدّل لونه من شاحب ضعيف إلى هزيل أبيض، فقد بذلك السيطرة الذاتية على نفسه في اللحظة الحاسمة. أما لولو، في ذروة التوقد إلى النصر، فقد حفر من الصخر كلامه الموحى، المؤثر: هناك في قاعة المحكمة، طالب ببراءة المدّعي عليها ومعاقبة المذنب وتنفيذ حكم العدالة. لقد استحقّ العمل، عناء الزيارة التي قام بها إلى المعلمة الموقرة كارمليتا مندونسيا لإقناعها:

- معلمتي العزيزة، لقد جئت إليك لتذهبي إلى المحكمة شاهدة، ولكي تدلي هناك بشهادة زور.

- شهادة زور، لولو هل جننت؟ دائماً بضروب جنونك... لم أكذب قط في حياتي، ولن أبدأ الآن بالكذب. وأين؟ في المحكمة...

- تكذّبين لإنقاذ الحقيقة وكشف القناع عن المجرم، ولانتشال امرأة فقيرة، أرملة، من البؤس، ومن يريدون أن يسرقوا القليل الذي تمتلكه... ولتجنب

السبّوس، فإن هذه المرأة الخمسينية قد تعلّمت القراءة والكتابة خلال عشرة أيام ولم أرَ في حياتي شيئاً نبيلاً يعادل هذا الأمر. وبشكل مأساوي، راح لولو يقصّ الحكاية بكل تفاصيلها من البداية وحتى النهاية. المعلمة كارمليتا، عندما كرّست نفسها للخدمة العامة، تفانت بحماس منقطع النظير في مسألة تعليم البالغين، وأتت بمنجزات مشهود لها، وهي مؤلفة عدة أطروحات ودراسات حول الموضوع! أصغت المعلمة إلى الوصف باهتمام كبير وتراءى لها منظر الزنجية المنحنية فوق الورقة محاولة السيطرة على الريشة والقلم، وانتصرت لقضية جوانا داس فولياس:

- لا يمكن أن تكون قد اخترعت هذه الحكاية لولو، لا بدّ وأن تكون حقيقة. اعتمد عليّ، وفي اليوم المحدّد تعالٍ وخذني فسأقول ما تريد أنت. كان القاضي يعرف أن لولو يقوم بهجوم معاكس مستعملاً السلاح نفسه الذي استعمله ليبيوريو: الكذب وشهادة الزور، وذلك بإنكار كل مصداقية للوثيقة المقدّمة أساساً للمطالبة، معلناً إياها مستنبطة ولا أساس لها من الصحة من أول حروفها إلى آخرها، مدّعياً أن موكلته لم تستدن قط أي مال من المدّعي، وليست مدينة له بشيء إطلاقاً، وإن بإمكانه أن يثبت هذا بطريقة واضحة، ساطعة لا تقبل الدحض، لأنها، لكونها تعرف القراءة والكتابة، لم تكن تحتاج إلى من يوقّع عنها التعهد. تلك الوثيقة ليست إلا فظاعة مزوّرة كيهودا يا حضرة الرئيس.

وقدّم لولو إدلاءً جديداً عن الأحداث وبصيغة جديدة: في الحقيقة، كانت السيدة جوانا فرنسا تحتاج إلى ثمانية آلاف كروزيرو لمساعدة ابنها الوحيد المقيم في الريو، ولما لم تكن تملك المال فقد فتّشت عن المرابي ليبيوريو داس نيفس لتطلب منه قرضاً للأهمية المشار إليها. فأبدى المرابي استعداداً لإعطائها القرض إذا كانت مستعدة لدفع خمسة عشر ألف كروزيرو بدل الثمانية آلاف بعد ستة أشهر. أمر مدهش يا حضرة الرئيس!! فوائد بنسبة مائة وخمسين بالمائة سنوياً أو لنقل بنسبة اثني عشرة بالمائة شهرياً، ومقابل هذه الفوائد الوحشية، تخلّت السيدة جوانا عن العملية، وكونها أقرضت بعض المال الذي وفره زوجها إلى صديقه ومواطنه أنطونيو سلامة المعروف بأنطونيو منيوتو، ولكون الدين

يستحق بعد عدة أشهر، فإنها التبعات إلى مدينتها طالبة منه أن يدفع لها مسبقاً الثمانسبة آلاف كروزيرو التي تحتاج إليها بشدة، فقابلها الصديق بالإيجاب في الحال؛ وكونه على علم بما يعني الأرملة، ولا أحد يعلم من يطلعه وكيف، فقد اطلع ليوريو على حقيقة هي أن الزبينة حين كانت إلى جانب زوجها كانت قد طلست التوقيع عنها على الأوراق الضرورية كونها لم تكن تجيد القراءة والكتابة، وإذا علم ليوريو بذلك فقد مخطط لعمله الاحتيالي وبنيته الاستيلاء على أرض المدعى عليها، كما فعل سابقاً، وبطرق غير شرعية، مستولياً على ملكيات ضحايا بريئة، ضحايا خدعه الزائفة.. وهكذا اخترع الوثيقة بمساعدة الموقعين بالنيابة؛ وفي الوثيقة التي هي أساس المطالبة، فقد نسب إلى المرأة الفقيرة ديسناً له، ليس بقيمة المبلغ المتواضع نسبياً، الذي كانت تنوي اقتراضه، ولكن بقيمة هي عشرة أضعاف ذلك المبلغ وعينه على الأرض التي تحولت بقوة مساعد الزوج فرنسا إلى مزرعة صغيرة وبستان يثيران الحسد، ولكن، في التسليح المريع لتنفيذ المخطط المحرم فات المزور شيء مهم، هو تفصيل جزئي ذو أهمية كبيرة، إذ بعد الزواج بقليل، أو لنقل، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً فإن منوال فرنسا عرجلاً من كون زوجته الشرعية أمية، تعاقد، لتعليمها القراءة والكتابة، مع المعلمة السيدة كارمليتا مندونسيا الاسم الذي تضاف إليه الأوصاف المشرفة، معلمة عسدة أجيال من السرحيين ذوي المكنات والمراكز الكبيرة في الحياة العامة ومنهم السيد القاضي الأول نفسه. وبحال أشهر من العمل الشاق، مطبقة معلوماتها في هذه المادة، تمكنت السيدة كارمليتا مندونسيا، بقدرتها العجيبة ومجدها التربوي في منطقة الداخل، من أن تنتشل السيدة الجميلة جوانا من أنياب الجهل مضيفة حياتها بالكتابة والقراءة.

لقد جرى هذا منذ خمسة عشر عاماً وأربعة أشهر يا سيدي القاضي. "إنه عفريت حاذق لولو سانتوس"، فكر القاضي وهو يصغي إلى الشاهدة؛ لقد تمكن من الحصول على إفادة السيدة كارمليتا بأنها علمت السيدة جوانا داس فولياس تصوير أحرف اسمها وجاء يعلن أن الأخيرة متعلمة منذ خمسة عشر عاماً.

- انقلاب جبار... ولكن ما إن دخلت المرأة الثمانينية الطيبة، "الأم الروحية للكثيرين منا"، كما قال اللسن بعبارة المؤثرة، وبجد التربية في منطقة الداخل، إلى

قاعة المحكمة، حتى لاحظ القاضي كأنها طيلة حياتها لم تقع عينها على الزنجية القسوية البنسية الجالسسة بصمت إلى جانب لولو سانتوس؛ فقط القاضي وليبوريو ليبوريو داس نيفس انتبها إلى الهفوة التي ارتكبتها المعلمة العتيقة. من علم المدعى عليها الكتابة والقراءة؟

- نعم، منذ خمسة عشر عاماً علّمت جوانا فرنسا الأحرف الأولى وأساليب الكتابة، منقذة إياها من الأمية، وهي نفسها هذه الموجودة هنا غير أنها الآن أقوى وأكبر سناً.

ومن سيناقش تأكيد المعلمة كارمليتا مندونسيا؟ عفريت اسمه لولو سانتوس وكذلك أنطونيو سلامة أو منيوتو لكونه قد ولد في بوفوا دو لانيوسو في البرتغال، فقد ألقى الدرس بصورة كاملة كما علمه المحامي، ولكي يحدث ويدرب البرتغالي، فقد كان ينتقل إلى منطقة لارانجيراس برفقة جوانا. وأكد أنطونيو إفادة المحامي لولو وقال إنه سلف الثمانية آلاف كروزيرو إلى العمّة كما رغبت، بحياً بذلك عن سؤال المتدرج الجديد في سلك الحمامة سيلو ميلو؛ وقال: وإن كانت المدعية أمية وإلى الوقت الذي كاتته، فقد عرفها دائماً ضليعة في الحساب، والويل لمن يحاول أن يخدعها في هذا المجال!

ونجح انقلاب الرحمة بتغيب الشاهد الثالث عن الحضور بتحريض من لولو سانتوس. جوال ريس، المعروف بجوال ماو دي غاتو في الأخراج الواطئة وفي كل قرى المنطقة؛ متقاعد حذر وعليم في هذه الفنون الصعبة، خجلاً، من المحكمة، فقد رحل عن أراكاجو حتى لا يأتي ويشرح للعدالة كيف وقع الوثيقة المزورة موضوع الدين، كما لو أنه وقعها بطلب من جوانا فرنسا، دون أن تكون هذه الأخيرة قد طلبت منه أي شيء من هذا القبيل؛ ولكنه فعل ذلك بطلب من ليبوريو داس نيفس حاميه وسيده؛ ومن سحب ماو دي غاتو من قرية أراكاجو غير المدعي مستعملاً لذلك علاقات وتأثيرات في بعض أوساط الشرطة حيث إن الشرطة والجريمة يستدانحان؟ ولمن ينفذ جوال ريس هذه الخدمات الاجتماعية؟؟ ولمن يؤدي أجور إيجار الغرف إلى العاهرات؟ "سيدي القاضي، لمن كل ذلك؟ إلى الرجل النبيل، المحافظ على سمعته، غير الملوث ليبوريو داس نيفس، فيا له من منافق يا حضرة الرئيس...".

لقد استحق العمل عناء الحديث مع السيدة كارمليتا وطابع التأثر في الصوت، والسفرة القصيرة إلى لارانبجيراس والتهديدات التي وجهها لماو دي غاتو، وبطاقة الدرجة الثانية في القطار إلى لسيتي، والعودة المجانية بسبب عدم القدرة على الاختيار بين الوقوع في الفخ وبين التخريب المعنوي لنصرة الحق. لقد استحق العمل العناء! كل هذا، وفوق كل شيء، التوقيع خمس مرات الذي رسمته جوانا أمام القاضي على ورقة نظيفة بيضاء، دون أية نقطة حبر، ودون أي اهتزاز؛ توقيع جوانا داس فولياس الواضح البسيط غير المزخرف: جوانا فرنسا والحرف الأول يكاد يكون جميلاً يا حضرة الرئيس.

16

دون حراك، كأنها تمثال حجري منصوب على الجسر العتيق، كانت تريزا باتيستا تتابع استعدادات رحيل الطوافة فنتانيا: الأشرطة مهيأة للإبحار، يضرب فيها نسيم البحر، والمشكاة معلقة، والمعلمان غونزا وجيريا في المقدمة والمؤخرة، على الدفة والمجذاف في آن: منذ قليل قفز جانواريو إلى أعلى، بهلوان، فنان، ملك طير البحر، الطائر الكبير، عصفور البحر العملاق. "هذا هو جانو، رجلي، زوجي، حبي، حياتي، موتي"؛ قلب تريزا يزداد خفقاناً، وجسدها الأهيف يرتجف، ما يجعلها تمثالاً مصنوعاً من مادة الألم. عند الأصيل، وهما يجلسان في مقهى وبار. مصر على انتظار نتيجة جلسة طلب التنفيذ الذي يتوسله ليبوريو داس نيفس ضد جوانا داس فولياس، قال لها جانواريو: "غداً، مع هزيع المدة الأولى"، وبينما يأخذ يد تريزا بيده الكبيرة، أضاف: "سأعود يوماً". ولا كلمة أخرى.. فجأة بردت شفتا تريزا وتبدل لونهما، تجمدتا بفعل هواء الأصيل البارد، يهب حاملاً الحزن، وعيناها في البعيد، تفكر في الفراق الأكيد، وفجأة خرج لولو والزنجية من الشارع يقفزان فرحاً بالانتصار: سنذهب لنحتفل. عالم متناقض، الحزن والفرح يمتزجان. في بيت جوانا، وضعت الطاولة، وفتحت الزجاجات، وتقدم لولو يحبي تريزا ويتمنى لها الصحة والسعادة، وأية سعادة! هو زمن الشقاء أتى؛ وفي اللحظات الأخيرة اتكأت على صدر الرجل الذي وُلدت من أجله ولقيته متأخرة؛ مع مرارة الفراق وعنف الشعور به والغضب

النواتج عنه تعضّه مداعبة، وهو يقرّبها من صدره كأنها تريد أن تدخل تحت جلده.. في اللحظات الأخيرة من ليلة الحب، التنهدات تختنق والبكاء ممنوع، ثم جاءت موجة وغمرتهما، وجاء البحر وحمله هو... وداعاً أيها البحّار! وبقفزة من الطوافة وصل جانواريو إلى الجسر قرب تريزا وأخذها بين ذراعيه. القبلّة الأخيرة تدفّى الشفتين الباردتين. حب البحارة يدوم بدوام المدّ، وعند المدّ ستشرع فنتانيا باتجاه الجنوب تفتيشاً عن ميناء باهيا. كم من المرات أرادت تريزا أن تسأل كيف هي الحياة هناك، ولماذا تسأل، والأشعة جاهزة للإبحار، والمشكاة معلقة؛ واقتربت الطوافة من الجسر وعلى المجذاف المعلم كايثانو غونزا... يبتلعان ريقيهما، يرخيان أسنانهما، ويسلمان شفّتيهما لليأس، ففيهما تحترق المسافة في قبلة ملتهبة، وفيهما يذوب الموت في الحياة. وترك تريزا على شفة جانواريو علامة وضعتها بسنها الذهبية. القبلّة الملهبة تترك على شفة جانواريو نقطة من الدم، إنها ذكرى تريزا باتيستا على طرف فمه، وشمة وشمّتها سن ذهبية: نهر وبحر؛ نهر ونهر، سأعود يوماً حتى وإن أمطرت ناراً، وتحول البحر إلى صحراء؛ سآتي وسط العاصفة والإعصار تفتيشاً عن المرفأ الضائع، عن صدرك الحجري اللين، عن بطنك الفخاري الأملس، عن محارك اللؤلؤي وأسنانك النحاسية وظل البرونز ونجمة الذهب؛ نهر وبحر، نهر ونهر، مياه الوداع، وأمواج لا شيء آخر بعدها.. وعن الجسر، من بين ذراعي تريزا، قفز البحار إلى حافة الطوافة؛ عملاق مترجل، طعمه مالح، ورائحته رائحة البحر، القيود في معصميه والأغلال في رجليه. تريزا تمثال من حجر، لا تتحرّك، وعيناها ناشفتان، الشمس تتحرّك في السماء، فجر من الأحزان الكثيفة؛ ليل لا نجوم فيه؛ والقمر دائماً وأبداً بلا فائدة؛ هواء البحر يضرب سريعاً في الأشعة وفي فم المعلم جانواريو، الوداع الأكثر إيلاماً؛ وداعاً تيتا الفتنة؛ يتهدّج الصوت؛ وداعاً جانو الحب، يجيب قلب ممزّق في منازعة الفراق؛ وداعاً يا مياه الوداع؛ أيها البحر والنهر؛ وأنت في خطى المحار، وفي مصارعة العواصف؛ وداعاً.

العملاق مترجل وصوت البوق يمزّق الفضاء يأمر بالتحرك، وها هي الطوافة فنتانيا تغادر ميناء أراكاجو، ميناء سرجيبي ديل راي، وعلى المجذاف كايثا

نوغونزا، إلى جانب المعلم الأكبر، الهارب، جانواريو، العصفور المقطوع الجناحين
أسير الأصفاد والسلاسل... على خد مياه النهر والبحر، ارتفعت ذراع العملاق
وتمايلت يده الكبيرة: وداعاً. إنها تمثال من حجر على جسر الألواح الخشبية المهترئة
بفعل الزمن؛ هناك ظلت تريزا باتيستا مسمرة وخنجر يحفر في صدرها. وداهمها
الليل بالظلمة والفراغ والشوق والفراق: هو ذا حبي، بحر ونهر.

17

وأخيراً، السنن من ذهب، والقلب من جليد، وفي تمايلات رقصة الخطب
والسامبا الدائرية، قدمت تريزا باتيستا نجمة السامبا المحرقة، وإمبراطورة الدوران
المثيرة، عرض ليلتها الأولى في باريس الليغري في الطابق الأول من مبنى فاتيكانو من
منطقة أراكاجو. أمام المرفأ حيث كانت الطوافة فنتانيا جاثمة، وما زال يلعلع في
الميناء صوت البوق الصاعق يؤذن برحيل المعلم جانواريو جيريا الذي جاء ليثير
المشاكل ويقتل حباً من كانت هادئة القلب مرتاحة إلى أن تصنع حياتها من
جديد.. تلك الحنجرات الأنغولية كان هو من علمها إياها؛ سفير الكرنفال،
وراقص العيد. منذ احتفال التأسيس منذ سنة وحتى اليوم لم تعرف قاعة باريس
الليغري، في أية مناسبة أخرى، ما تعرفه هذه المرة من حشد صاحب ومن حيوية
وفرح تعري شبيهة أراكاجو المخملية، عندما تنطلق أنغام فرقة جاز منتصف الليل،
يزدحم الراقصون على حلبة الرقص؛ على الطاولات الممتلئة بالناس، استهلاك كبير
من البيرة والكوكتيل والكونياك الوطني، والويسكي المزيف الآتي من منطقة النهر
الكبير الجنوبسي لاستهلاك المتصنعين. حاشية الموهلين حباً، وفيه: الرسام جنر
أوغوستو بعينيه العميقتين تعباً. والشاعر جوزي سارايفا بأبيات الشعر المتيمّة،
وزهرة قطفها عند العبور، وطبيب جراحة الأسنان جميل نجار ساحر الفن الجراحي،
والمظفر اللسن لولو سانتوس، وسيد الملهى السعيد الطامع في فراش النجمة فلوريا
موريرا المعروف بفلوري باتشولا الذي، في الكمين الذي ينصبه الجميع، المرشح
الأوفر حظاً لكونه رب العمل.

وبالإضافة إلى الأربعة الذين ذكرت أسماؤهم، كانت هناك على الأقل دزيتان
من القلوب الخافقة، وثلاث من ذوي الميول المكبوحة إلى "رسولة السامبا الإلهية"،

كما كان يقرأ في اللوحات الملونة. ولا داعي لذكر أولئك الذين، لأسباب سرية ومقتضيات خاصة، لم يستطيعوا المجيء شخصياً إلى الملهى للتصفيق لعرض سيدة السامبا (التعبير تماماً كما هو في لوحات إعلان فلوري). واحد على الأقل أرسل من يمثله: السيناتور الصناعي، الذي هو في رأي أولئك الاقتصاديين ورأي العجوز أدريانسا، أغنى رجل في سرجيبي... فتراندا؛ جالسة إلى طاولة قريبة من حلبة الرقص، ترافقها بعثة من الفتيات القلقات، قد شرفت المكان بحضورها، لقد تلقت وكالة من الوجه الكبير لتحرق اللعبة وتعرض عند الضرورة ما تريده المرأة الشهيرة من أجل قضاء بعد الظهر في العبث بين جدران بيت العزّاب... وبعد ذلك، فإذا نالست إعجابه، وكانت من ذوات الشبق، كما كانت تبدو، يتعهد الرجل الكبير عسندھا بأن يحميها: بيت معيشة، حساب خاص في المحلات التجارية، كماليات، ألواح شوكولاته، ساعات يد ذهبية، خاتم ألماس (صغير)، وحتى مرافق إذا لم يكن بد من ذلك.

... على متن البحر، في أعالي المنجو سيكو تبحر الطوافة فنتانيا، تتقاذفها الأمواج وتضرب بها ريح الجنوب. هناك جانو حبيبي، في الأنواء، وعلى طريق الضياع، في الليل المظلم الفارغ، لا، لا أريد تصفيقاً وهتافاً وهدايا، ولا أريد المال رزماً، ولا عقيداً يحميني، وأرى في المرافقين فظاعة، ولا أريد قصائد الشاعر؛ لا أريد (غير صدرك الأريبي، ورائحتك، رائحة البحر، وفمك المالح الزنجبيلي. في تلك اللحظة، أطفئت الأنوار، كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأعلنت شبكة الجاز البداية وفتحت الممرات لتمر نجمة السامبا المثيرة، ووقع ضوء أحمر على حلبة الرقص: تريزا باتيستا، ترتدي السايوت وقبعة الريش والصندل والأساور والخشاخيش، وكلها من شركة جوتابورتو وألما كاسترو؛ جمال آلهات البحر، أو جمال الفجر، من الرأس الأخضر، أو سمراء خلاسية وطنية تتقطر دلالاً وكبرياء... تصفيق... هتاف، وإعجاب، جاء فلوري بباقة زهر تعبيراً عن لطافة المكان، أما الشاعر جوزي سارايفا فجاء بوردة طرية، وحفنة من أبيات الشعر.

في السوقت نفسه، ولأي شيء، لن يعتربها الضعف ولا لسبب مشابه لما حدث ليلة العرض الأول؛ فما كاد التصفيق يتوقف حتى استطاعت تريزا أن

تسمع عند إحدى الطاولات القريبة من الحلبة نقاشاً حاداً بين وضع منحرف يتدرّب على استعمال سلاحه للمرة الأولى في مهنة سمسار دعارة، وفتاة متعبة بدأ يعدو عليها الزمن. كانت تريزا قد انحنت انحناءة شكر على الزهور وأبيات الشعر والتصفيق عندما لعل صوت الرعديد بالتهديد ما جعل المرأة تجهش بالبكاء:

- سأشوّه خلقتك؟

- رفعت تريزا نصفها المنحني، ويدها تحت حزامها، ومع ذلك الشرر المفاجئ في نظرها قالت:

- "شوّه خلقتها لأني أريد أن أرى، أيها الشاب الصغير، شوّه خلقتها أمامي إذا كانت لديك الجرأة". لوهلة ساد منظر عصبي: كان اللعين يريد أن يقوم بردة فعل، وتقدّم خطوة ناحية النجمة. هل يكون هنالك شجار كالمرّة الأولى لا يُنسى؟ هل يتم تركيب سن ذهبية أخرى يقوم به بنزق طبيب الأسنان جميل نحر؟ ولكن الجبان لم يقم بردة فعل، فغداً محرجاً، لا يعرف أين يضع يديه وكيف يخفي سحنه فكلمة تريزا جعلت القانون يسود بما فيه الكفاية. تحية تأييد واسعة لكلماهما جاءهما من الجمهور، وفي ذلك البحر من التصفيق انطلقت تريزا باتيستا برقص السامبا، نجمة الترنج ومهنة أخرى: عندها الكثير وتعطى وتزاد، هي التي مع كل ما لها لا ترغب من الحياة في غير أن تكون سعيدة إلى جانب رجلها في البحر.

عند عصر اليوم الثاني من تلك المناسبة، ونزولاً عند طلب اللّسن وبرفقتة، كانت في قصر العدل وفي غرفة من المحكمة تمّ تقديمها إلى القاضي بينيو كاردوسو، وإلى محامين ومدّعين عامين، وكتاب قضائيين وسواهم من الأساتذة المرموقين: "تريزا باتيستا النجمة المسرحية" خجولة لكونها نجمة ولهذا التبجيل، تغدو أكثر جمالاً بابتسامتها المرتبكة. ظنّ الجميع أنها نصر حديث العهد حقّقه اللّسن المعوق زير النساء، وفقط رئيس المحكمة كان يعرف المغامرة، مغامرة أو أعجوبة، معلمة الحروف الأولى لجوانا داس فولياس العاملة المسنة ذات اليدين اللتين كأنهما جذعان. واتّسعت نظرات إعجاب القاضي في الحال وتحوّلت إلى نظرات وإخلاص ورغبة: آه! إنه رئيس محكمة الدولة. وقدّم لها الإعجاب والعطف، ولكن مع

التزامات قاض يصل متعباً إلى عائلته التي أسسها قانونياً ليكون له بيت شرعي،
كيف يمكن أن يفكر في العشق، في عشيقة، في صديقة، ليكون له بيتاً عسكرياً؟
وسط بحر التصفيق، ابتدأت الفنانة تريزا باتيستا، عبر حركات من الارتفاع
والانخفاض، بعرض أخذ؛ القلب بارد كأنه جزء قائم لوحده. آه.. لو كان
باستطاعتها أن تبكي، ولكن الأسد لا يبكي وكذلك البحار: يا مياه بحر الفراق، يا
بحر الأعاصير! أين يسير المعلم جانواريو جيريا، جانو الحب، في طريقه إلى ميناء
باهيا؟ أرخت تريزا نصفها الأسفل كما علّمها؛ مشكاة أُلقيت إلى الأعماق؛ الرحم
في صعود وهبوط؛ بذرة السرة زهرة؛ قلب بارد؛ جليد ومسافة؛ "آه جانواريو
جيريبا، عملاق البحر، ملك الطير المحوم فوق أمواج العاصفة، متى أراك مرة
أخرى، وعلى صدرك أتذوق طعم الملح ورائحة البحر، وأموت بين ذراعيك،
تلهبني قبلتك؛ أيها الحب متى المرة الأخرى؟"

القسم الثاني

الصفيرة التي طعنت النقيب بسكين لقطع اللحم المجفف

1

لا أشك في أنك إنسان مندفع، واجهت أحداثاً واعتبرت الصدمات بما لديك من مزايا، ولكني أسألك مع هذا إذا كنت قد رأيت إنساناً نرّ فيه الجرب، وأكل من لحمه وانفتحت جروحته وقد وُضع في كيس وحُمِل إلى المحجر الصحي. قل لي إذا كنت قد حملت على ظهرك مسافة فرسخ إنساناً أجرب يلفظ أنفاسه الأخيرة والعفونة منه تفسد الهواء وصديد القيح ينسال من كيس القنب الذي وضعته فيه لتحمله إلى المحجر الصحي. شيء يجب أن تراه يا صديقي.

فليصدق من يشاء، ولينال من تولاه الحقيقة، كانت العاهرات ولا أحد آخر، هنّ اللواتي قضين على الجرب عندما شاع أسود ضدّاً في تلك الربوع. طريقة تقال، وأسلوب في الكلام، إذ هنا أرض مهملّة وصحراء قاحلة وآخر الدنيا، ولو لم تكن شقيّات شارع كانكرومولي، لما بقي أثر لحي لوروي الحكاية. من اهتمّ وقضى على الجرب كانت المدعوة تريزا باتيستا نفسها، الملقبة بتريزا الجراحية، وتريزا المتمايلة، وتريزا التهيدات السبع، وتريزا عمل الإحسان، أسماء كلها مستحقة، كما أنّها استحقّت اسم تريزا الأمل، هدية من خبراء موريكايبياء وهكذا انتهى الوباء وشوهد الناس عائدين إلى ديارهم. لقد قضت تريزا الجرب بأسنانها بغية شفاء المصابين به، ثم لا كته وبصقته... لا كته بتلك الأسنان الحادّة، مع سن الذهب بينها، هدية طبيب أسنان أراكاجو، لجمالها. شيء لتشاهده فلا تنساه يا رفيقي... أنا، ماكسيميانو سيلفا، المعروف بماكسي، الملقّب بملك الزنجيات، مراقب المركز

الصحي في بوكين، حي أزرق وشاهد على ما رأيت، وحتى اليوم أغمض عيني وأرى تريزا بكل روعتها ترفع الكيس عن الأرض وداخل الكيس يتحرك ويصلي مصاب بالجرب هو الشاب زكرياس. أغمض عيني وأرى: تذهب تريزا موازنة الحمل على كتفيها، منحنية، في طريقها إلى المحجر الصحي. تريزا: انتهى الخوف، اسم آخر أعطي لها وربما كان الاسم الأول الذي أعطيت إياه منذ زمن طويل، فهل تعرف أيها المتميز لماذا، وكيف؟

2

لم تكن تريزا باتيستا قد أكملت الثالثة عشرة من عمرها، حين باعتهام عمتها فيليبيا بمبلغ ألف وخمسمائة كروزيرو وكمية كبيرة من المواد الغذائية وخاتم مقلد ولكنه جميل مع ذلك، إلى جوستينيانو دوارتي دا روزا، النقيب جوستو، المعروف بالغنى والفحولة وإثارة المشاكل التي تطوف منطقة الداخل كلها وتتجاوزها إلى أبعد من هناك. وحيثما كان النقيب يمرّ مع أزلامه، ومع قافلة من البغال المحملة والحياد المسرّجة، والشاحنة والمسلحين بالبنادق ليفتح مخيماً لأعماله المزدهرة، كان يصل الخبر أولاً مع الحصان الذي يجرّ العربّة.

لم يكن النقيب يناقش كثيراً، ولكنه كان يحب أن يلاحظ الاحترام الذي يفرضه وجوده. "إنهم يرتجفون خوفاً"، كان يتمم باعتزاز، ترتو كاشوخو سائق من حملة المسدسات وهارب من عدالة برنامبوكو؛ وعندما كان ترتو يلوح بسكينه ولفة تبغه، كان الخوف ينقلب إلى رعب حقيقي. لا تدفع عناء المناقشة مع النقيب، فمن يناقش أكثر يخسر أكثر وبالنسبة إليه فإن حياة الرجل لا تستحق أكثر من عشرة نحاسيات من العسل المصفى". وكان الناس فيما بينهم يحصون عدد الأموات والكمائن والخدع في عراكات الديوك الهراتية والتزوير في حسابات المخزن والتعويض الذي يدفعه شيكو ماسيولا بصفة فروقات، والأراضي التي ضمّها النقيب إلى ممتلكاته بسعر الموز البنّس وتحت التهديد بالخنجر أو البندقية، والفتيات القاصرات اللواتي اغتصبهن في عمر مبكر؛ هذا والفتيات كنّ نقطة ضعف جوستينيانو دوارتي دا روزا، فكم من اللواتي فضّ بكاراقتن وهنّ دون الخامسة عشرة من العمر؟ وإن عقداً من الخواتم الذهبية معلقاً في عنق النقيب جوستينيانو،

تحت قميصه، وداخل سمّة الصدر، يرُنُّ في الطرقات رنين أجراس تيس يقود قطيعاً:
وكلُّ خاتم في العقد رمز لقاصر فضّ بكارها، ولا نتكلم عن اللواتي كنَّ في سن ما
بعد الخامسة عشرة، فهنَّ لا يُحصين.

3

قفز جوستنيانو دوارتي دا روزا عن مقعد قيادة الشاحنة الصغيرة وكان بكامل
أناقته: طقم أبيض، حذاء من الجلد، وقبعة باناما، وبكثير من التعالي قدّم إصبعين
إلى روزالفو ولكنه مدّ يده كاملة إلى الأم فيليبا، وبدا مع الأخيرة متحبباً وعلى
وجهه المستدير ابتسامة:

- كيف حالك يا عمّة؟ هل أستطيع الحصول على كوب ماء؟

- تفضّل بالجلوس يا حضرة النقيب فسأجيئك بالقهوة.

وكان النقيب، عبر نافذة الغرفة المتواضعة، يرمق بنظراته النزقة الفتاة
الصغيرة المنطلقة بعفوية في بستان الفاكهة الكثيف وقد تسلّقت إحدى أشجار
غويابا قفزاً، طلوعاً ونزولاً، وفي أعلى الشجرة توقفت عن الحركة لتقضم ثمرة
غويابا. بدت فتاة ذات جسد طويل أهيف ونهدين يكادان يظهران تحت قماش
سترها الشيت، وقد وضعت تنورتها بين جنببيها الطويلين. نحيلة وطويلة، وما زالت
دون المرأة في رأي فتیان الجيرة، وبعضهم من المنحرفين في المعرفة، والمسعورين في
الصيد المستمر للقاصرات الميالات بفعل الرغبات المبتدئة إلى هتك اللمسات الأولى
والقبلات والالتصاقات. وكلهم لم يتصلوا بتريزا بل كانوا يلهون معها بلعبات
الحرب والتخفي، حتى إنهم جعلوها قائدة لهم، ذكية وشجاعة إلى آخر الحدود.
وكانت تسبق الجميع في العدو خفيفة لا تجارى وقادرة على تسلق أعلى
الأغصان... واستيقظت فيها شيطنتها بقدر قليل ليس أكثر من فضول الذهاب مع
الخلاسية السمرء جاسيميرا والسمنية سيسا للتجسُّس على حوض سباحة الفتیان
في النهر.

عينا النقيب ترافقان الصغيرة من غصن إلى غصن، وكان تنقلها يجعل تنورتها
تتطاير لتكشف عن لباس ملطّخ بالطين، ويزداد النقيب جوستنيانو دوارتي دا روزا
تحديقاً ليرى ويتخيّل بصورة أفضل.

وكذلك عينا روزالفو الناعستان المتعبتان اللتان بفعل الكاشاسا تبقيان مطرقتين إلى الأرض إجمالاً، قد دبّت فيهما الحياة فجأة عندما نظر إلى الصغيرة تريزا، وراحتا تصعدان عبر الفخذين والمؤخرة. وكانت فيليبا تترصد نظرات جوستينيانو دوارتي دا روزا ونظرات زوجها روزالفو وهي تصنع القهوة. "إذا تأخرتُ فإن الزوج سيبدأ بضم الصغيرة إلى صدره". وكانت فيليبا قد بدأت تلاحظ نوايا زوجها تجاه قريبتها منذ زمن طويل، وهذا سبب إضافي وقوي يصبّ في خانة نوايا النقيب الأكيدة. ثلاث زيارات خلال أسبوعين، وحديث طويل حميم وإضاعة وقت. متى، في النهاية، يقرّر النقيب أن يفتح أوراقه على الطاولة ويتحدث بالأعمال؟ في رأي فيليبا إنه آن الأوان لوضع حدّ لهذه المحاملات والأوليات، إذ إن النقيب قد عرض ما فيه الكفاية من الغنى والسلطة والرجال وأبدى الرغبة والقدرة، فلمماذا لا يتكلم دفعة واحدة؟ أو يظن أنه سيأخذ الباقية العطرة مجاناً؟ إذا كان يتخيّل أن بإمكانه أخذ الفتاة بهذه الطريقة فهو إذاً لا يعرف فيليبا؛ إنّ النقيب جوستو صاحب أراضٍ واسعة وغابات مزروعة وقطعان ماشية وأفضل مخزن في المدينة وزعيم رجال عصابات وقاتل وعنيف وسيئ، ولكن كل هذا لا يجعله سيداً على تريزا وحرّاً في التحكّم بمصيرها، وليس هو من أطعمها وألبسها خلال أربع سنوات ونصف، وإذا أرادها فيجب أن يدفع.

ليس هو من أطعمها وألبسها ولا روزالفو أبو الكاشاسا والكسل والإهمال بعينه وبقايسا الرجل والعبء على ظهر فيليبا. فلو توقف الأمر عليه لما استطاعوا إنقاذ البائسة اليتيمة الأب والأم، ومع هذا، تراه الآن يلحس شفّتيه بلسانه عندما تمرّ الصغيرة ويرافق بنهم تكوين جسدها وتكوّن ثدييها ومنحنيات الأرداف الأولى، وبالفهم نفسه يرافق بعينه سمّة الخنسزير في الحظيرة... رجل ضحل لا يفيد بشيء ولا يعرف إلا أن يأكل ويشرب.

من الذي يقوم بأعباء البيت، ويشتري الطحين والفاصولياء واللحم المجفف والملابس المستعملة وحتى كاشاسا روزالفو؟ إنها هي، فيليبا بعائدات عمل يديها، تزرع، تربّي الدواجن وتبيع إنتاجها أيام السبت في معارض السلع. صحيح أن تريزا قد شاركت في النفقات وساعدت في أعمال البيت والبستان، ولكن ما كلفته، كثيراً كان أو قليلاً، من أكل وملابس وتعلّم الأحرف الأولى والحسابات

هو أضعاف ما أنتجته، فمن الذي أعطاهما كل ذلك؟ هي الخالة فيليبا شقيقة مارينا أم تريزا، التي ماتت مع زوجها في حادثة الباص منذ خمس سنوات، والآن عندما ظهر لتريزا من يتقدمون لها، فمن العدل أن تكون هي فيليبا من يقبض ويستلم. وقد تكون ما تزال تريزا حصرماً ولم يحن وقت قطافها بعد، فإذا نضجت بعد سنتين فسيكون وقت قطافها ناضجة قد حان، وهي، كما هي الآن، صغيرة جداً وليس بالإمكان إنكار ذلك. وإنه لعمل سيئ إعطاؤها إلى النقيب الآن، ولكنها، فيليبيا، ستجنّ إذا اضطرت إلى الانتظار أو اعترضت. أنتظر لتراها في الفراش مع روزالفو أو في الأحراج مع فتى من فتیان الجيران؟ وإذا اعترضت جوستينيانو فسيحمل هذا الأخير الفتاة عنوة، بالعنف، وبجناناً في النهاية. ستكمل تريزا بعد أيام قصيرة الثالثة عشرة من عمرها، وهي، فيليبيا، كان لها من العمر أكثر من هذا بقليل عندما أقام لها بورسيانو حفلة العيد، وفي الأسبوع نفسه نال منها الإخوة الأربعة لبورسيانو والأب، وإذا لم يكتفوا، فإن العجوز أتلفينو قد مسح بها شاربيه، وكانت رائحته شبيهة برائحة الأموات؛ ولم تمت فيليبيا بسبب هذا ولم تعوّق، ولم يكن ينقصها سوى أن تتزوج لدى الكاهن وبمباركته. وأين تجد موهبة في حمل القرون كموهبة روزالفو التي لا مثيل لها في الجوار؟ أبو قرون بقدر ما هو مدمن على الكاشاسا..

يقتضي الأمر معرفة إدارة المحادثات حصولاً على الحد الأقصى؛ فهي بحاجة إلى بعض المال الإضافي لتذهب إلى طبيب الأسنان وترتب نفسها قليلاً فتشتري بعض الملابس وزوج أحذية. أصبحت مهمة مع الوقت، ولم يعد الرجال يسعون وراءها، وعندما يتوقفون وينظرون فلكي يستطلعوا الوقت الذي تنضج فيه تريزا.

إن النقيب إذا أراد الصغيرة فيجب أن يدفع سعراً مرتفعاً، ولن يكون السعر ما دفعه بدل الكثيرات اللواتي أكلهن. إنه عندما يكتشف فتاة تروق له عمراً وجمالاً يبدأ بالتردد على الأبوين ويؤدي الصداقة، آتياً معه بعلبة من القهوة وكيلو من سكر وبعض الهدايا المغلفة بالورق الأزرق، والشوكولاته، ويصبح صوته هادئاً ويبدأ بإغراء الصغيرة بقطعة حلوى ثم بالوعود. إنه كريم مبذر في الوعود، ولكنه في الحقيقة بخيل، هذا النقيب جوستينيانو دوارتي دا روزا.

في يوم ما، ودون سابق إنذار، قد يضع الصغيرة في الشاحنة عنوة أو إغراء، وهو يضحك في وجه أهلها. فمن لديه الشجاعة للشكوى أو الاعتراض؟ أليس هو الزعيم السياسي في المنطقة؟ ومن يعين مدير الشرطة؟ أمّا المكلفون الرسميون في الدولة، أفليسوا من مسلحي النقيب؟ ويعرف الجميع أن رئيس المحكمة يشتري من مخزن جوستنيانو دون أن يدفع وهو مدين للنقيب بالمال، ومع ذلك فإن رئيس المحكمة هذا يستطيع أن يُعيل زوجته وأولاده الطلاب الثلاثة المقيمين في العاصمة بينما هو هنا في هذه الحفرة يُعيل فتاة هوى، وهل أن هذه المصاريف قائمة على مرتب الجوع الذي يدفع للقضاة؟ فكيف العمل، أجيئوا إذا كنتم تعرفون!؟

وقد حدث مرة أن جوستنيانو أوقف الشاحنة عند باب دار "فنسلو" والد إحدى القاصرات التي ما يزال صدرها منبسطةً وتدعى ديفا. وبحركة من النقيب إلى القاصر، ودون أية كلمة أو تفسير أخذها معه، فذهب فنسلو إلى القاضي ومدير الشرطة فروى ما حدث متوعداً مهدداً بالقتل... ووعد القاضي بالتحقيق في الأمر فتبين له أن رواية المدعي ليست حقيقية وأن الخطف والاعتصاب لا أساس لهما من الصحة. وأمام القاضي وقف مدير الشرطة يعدُّ بعمل سريع وتحرك فوري، فوضع المدعي فنسلو والد القاصر في السجن حتى لا يقلق الهدوء العام بادعاءات كاذبة ضد مواطنين شرفاء، ولكي يقطع مدير الشرطة دابر التهديد ويفرض الاحترام، أرسل إلى السجن فنسلو من أعطاه أمثلة أقامه بالضرب فيها وأقعده، وبالمقابل، وبينما يخرج الأب المحزون من النظارة في اليوم التالي، يجد الابنة ديفا، وقد أُعيدت له مع رسالة شفوية من النقيب تقول: "كانت مفتضة البكارة منذ وقت طويل، الكلبة".

لا تريد فيليبا إلا المفاوضة والحصول على بعض الأرباح؛ فإن تريزا وإن كانت صغيرة، فهي الرأسمال الوحيد الذي يبقى لها. ولو كان بالإمكان الانتظار عدة سنوات، لكانت بالتأكيد ستحقق أفضل الأرباح لأن الصغيرة تنطلق بقوة، ونساء العائلة كلهنّ جميلات إلى حدٍّ كبير ومحظوظات، يتصارع من أجلهنّ الرجال. حتى فيليبا بأسنانها البشعة ما زالت تحتفظ بسمة من الجمال في حركة الردفين والتماعة العينين. آه، لو كان بالإمكان الانتظار! ولكن النقيب قد خطا خطواته الأولى ولم تعد فيليبا قادرة على فعل أي شيء.

اخترق صوت فيليبا صمت النوايا والحسابات: "تريزا"، نادى: "تعالى إلى هنا يا عفريته".

ابتلعت الصغيرة ما في فمها من الغويابا، وقفزت، عن الشجرة، راکضة إلى المنزل، والعرق يلمع على الوجه النحاسي، وبدأ الفرح في عينيها وعلى شفثيها!

- هل ناديت، يا خالة؟

- اسكبي القهوة.

ذهبت الصغيرة وهي ما تزال تبتسم لتأتي بصينية الشاي النحاسية، وفي الممر أمسكتها فيليبا من ذراعيها، وأدارتها إلى الخلف فإلى الأمام وهي تعرضها كأنما لا تريد أن تبيعها:

- "ما هذه الأعمال؟ ألا تلاحظين الزيارة؟ قبل كل شيء اطلبي البركة من النقيب". أخذت تريزا اليد السمينة ذات العروق الناتئة ووضعت شفثيها على الأصابع المثقلة بخواتم الذهب والألماس فحدقت في أجملها وهو كناية عن خاتم أخضر:

- البركة، من السيد النقيب.

- باركك الله.

ووضعت فيليبا يدها على كتف الصغيرة بعد أن داعبت وجهها قليلاً، ثم أطرقت تريزا أمام روزالفو وقالت:

- البركة يا عمي.

أحسّ روزالفو بحرقه من الغضب في حنجرتة: آه للحلم الدفين! طيلة سنوات وسنوات، يراها تكبر؛ يكتمل تكوينها يوماً بعد يوم، ويتكهن بجماها النادر، إنها إنتاج أجمل مما كانت عليه أمها كاريتا الفاتنة وخالتها فيليبا حين كانت فتاة عامية تدور حوله وتلهث في أثره، فأنقذها روزالفو من حياة البغاء وتزوج منها. منذ متى يحصي على العجوز مشاريعها؟ فجأة جرت من تحته الماء ووقفت الشاحنة في الباب تنتظر وترتو كاشوحو وراء المقود؛ لقد علم روزالفو بالأمر منذ زيارة النقيب الأولى. إذاً، وبحق الشيطان، لماذا لم يقم بأية حركة، ولم يقدم الساعة ولا ورقة الحكم وتاريخ الموت؟ لماذا لم يأت الوقت بعد؟ لأنها ما تزال طفلة غير بالغة، ومن

يعرف جيداً هو روزالفو: "أنا من يعرف جيداً، إذ أبحس عليها عند الفجر؛ ولم يحن الوقت بعد لتعرف رجلاً يا فيليبا، ثم إن بنت الأخت لا تُباع، إنها الابنة اليتيمة لشقيقتك التي ماتت، لقد انتظرت كل هذه السنين بصبر ورغبة يا فيليبا، وبيت النقيب، كما تعرفين، هو الجحيم. إنها ابنة أختك يا فيليبا وما ستقومين به هو خطيئة، خطيئة مميتة، ألا تخافين عقاب الله؟"

- "لقد أصبحت فتاة راشدة" قال جوستنيانو دوارتي دا روزا ولسانه يرطب شففيه الغليظتين، وفي عينيه الناعستين نظرة صفراء.

- "أجل لقد أصبحت امرأة" صرخت فيليبا لتبدأ المفاوضات.

كذب، وهراء، تعرفين أنه كذب يا فيليبا، أيتها العاهرة العتيقة الفاحشة، والتي لا قلب لها، لم تأتِ عادتُها الشهرية بعد ولم تنزف دماً، إنها طفلة، قريبتك، ومن دمك. وضرب روزالفو على فمه بيده حتى لا يصرخ: آه. لو كانت فتاة بالغة وقادرة على استقبال رجل لأخذتها زوجة لي، وقد جهّزتُ كل شيء من أجل ذلك ولم يعد ينقص سوى حفر القبر لأدفنك فيه يا فيليبا الفاحشة ذات الصدر السذي لا رحمة فيه، وأنت تتاجرين ببنت أختك. وخفض روزالفو رأسه: فالأكبر من الصدمة والغضب هو الخوف.

مدّ النقيب رجليه القصيرتين وفرك يديه الواحدة بالأخرى وسأل:

- بكم يا عمّتي؟

اختفت تريزا من ناحية المطبخ، وظهرت في مخزن التبغ، وعند الرجوع مع الكلبة ركض الاثنان وراحا يلهوان ويدوران فوق الأرض. نبح الكلب فضحكت تريزا، هي أيضاً حيوان ريفي بريء وصحّي. لمس النقيب جوستو عقد الخواتم وعيناه الناعستان تكادان تغمضان:

- قولي كم تريدان؟

5

تناول جوستنيانو دوارتي دا روزا رزمة النقود من جيبه وراح يعدّها ورقة ورقة بتمهّل وامتعاض. لا يروقه أن يتخلّى عن المال، ويحسّ بوجع تقريباً عندما لا يبقى له مخرج سوى أن يدفع أو يعطي أو يردّ.

- فقط، احتراماً، لأنك كما قلت ربيت الشابة وأعطيتها لتأكل وتتعلّم. وإذا كنت أعطيك هذه المساعدة فلأنني أريد ذلك. ولو كنت أريد أن آخذها بأية طريقة فمن الذي يمنعني؟ نظر نظرة احتقار ناحية روزالفو وبلّل إصبعه بلسانه ليفصل بين الأوراق المالية بشكل أفضل.

كانت عينا روزالفو ثابتتين في إطراقهما إلى الأرض. يحسّ بصدى الأوراق المالية المتعاقبة بغضب وخوف وعجز عن التحمّل. هذا المال الذي تنتزعه فيليبيا مقابل فعلتها الفظيعة سيبقى محرّماً عليه، إثم لن يرى حتى لونه إلا إذا تمكّن من سرقة، والسرقة مجازفة كبيرة. آه. لماذا انتظر طويلاً تنفيذ المخطط المكتمل في رأسه تفصيلاً إثر تفصيل؟

مخطّط بسيط، سهل، سريع التنفيذ! أصعب ما فيه حفر المكان الذي سيدفن فيه الجثة، ولكن روزالفو كان يعتمد، حين تأتي الساعة، على مساعدة تريزا. أجل، على تريزا. فمن غيرها المستفيد من موت فيليبيا؟ ستتحرّر من العبودية المنزلية وستصبح زوجة روزالفو، سيدة البيت والبستان والدجاجات البياضة والخنازير. ظلّ خلال أشهر وأشهر يصمّم ويطور ذلك المخطط وهو يرى قرية فيليبيا تكبر وتصبح صبية يوماً بعد يوم. وراح يلاحظ تكوّن ثدييها ويرافق الطيات الأولى في بطنها الذهبي.

عندما كانت فيليبيا تنام نومها الثقيل عند الفجر الخافت، كان هو يراقب تريزا في سريرها الحديدي أو مستلقية فوق الأرض بلباسها القذر وهي تفتح رجلها؛ من يدري إذا كانت تحلم هي الأخرى! وكان يُشبع نظره من الجسد العاري الذي اتخذ أشكالاً ليست نهائية بعد ولكن صلبة وجميلة. ولم يكن بحاجة إلى أن يلمسها، أو أن يلمس نفسه، وكان يكفي أن يراها حتى تصعد اللذة إلى صدره، وتدخل في لحمه، وتجعل العرق ينبع منه.

تخيّل اليوم القريب الذي كانت ستبلغ فيه تريزا سن الرشد، وتصبح امرأة. في يوم العيد هذا كان روزالفو سيذهب لإحضار اللازم من مخبأ الغابة ويقوم ليلاً بالعمل... الرفش أداة متعددة الاستعمالات ويكفي للإجهاز على فيليبيا وحفر مدفنها قبراً على القياس، دون صليب ودون "يرقد هنا"، فالشقية لا تستحق كل هذا، وكان روزالفو قد سرق الرفش من بستان تيماتيو منذ أكثر من ستة أشهر ثم

أخفاه، ومنذ ذلك الحين كان قد قرّر أن يقتل فيليبا عندما تصبح تريزا في سن البلوغ.

لم يكن يتصوّر سوى أن اختفاء فيليبا سوف يقلق الجيران والمعارف ويقود إلى أسئلة واستقصاءات... وأقل من ذلك هو معارضة تريزا وخروجها للدفاع عن خالتها إن أنكرت عليه المساعدة ولم تقبل به رجلاً. وأي شيء آخر لم يكن يستقر في عقل روزالفو: فقد اكتفى بسرقة الرفش والحبل وتخيل المخطط: يُجهز على فيليبا حين تكون المكروهة نائمة، فهي عندما تكون متمددة فلا يظن أحد أن الميت يكون غير ما هي. في السرير، وهو يتمدد إلى جانب زوجته، كان روزالفو يرى الرفش يشقّ جمجمتها ووجهها... وكان يتخيّل وهو يحفر في ظلمة الليل الوجه المشوّه وقد غدا قطعة من الدم: اذهبي وتدبري فحلاً في جهنم أيتها العجوز العاهرة الفاسقة. وعند سماع صوت الرفش في رهبة المكان وهو يحطم العظام والغضاريف فإنه يحسّ بمنتهى اللذة. ولم يكن روزالفو يغامر بأبعد من تلك المخططات والتصورات، فهي تكفيه وزيادة، لتملاً أيامه الفارغة وتعطي الكاشاسا طعماً، وتمنحه أملاً. الحياة والموت ولدا من دم تريزا الأول، حياة روزالفو وموت فيليبا.

أما الآن فإن التصاميم والأحلام قد تبدّلت بين يدي النقيب بسبب فيليبا المرأة السيئة إلى حدّ بيع ابنة أختها اليتيمة، والتي لا مثيل لها في العالم. لماذا لم يضع روزالفو خطته موضع التنفيذ، ولماذا بقي ينتظر أن ينفر الدم من تريزا ملطخاً وردتها الذهبية الصغيرة فيجعل منها صبية بالغة ومهيأة؟ لماذا لم يتصرّف من قبل ولم يقدم دفعة واحدة زمن الحياة والموت، فأى سوء كان ذلك؟ والآن من سيقوم بكل ذلك هو النقيب، لقد باعت فيليبا تريزا الصغيرة، ابنة أختها اليتيمة فيا لها من خطيئة مميتة.

- "من كان سيمنعني، قولي". استدار جوستنيانو باتجاه روزالفو.

- هل كان سيوقفني أحد يا روزالفو؟ أنت، ربما؟

وطلع صوت روزالفو من التراب، من غبار الأرض، من كهوف الخوف!

- لا أحد، لا، أيها السيد. أنا؟ لينقذني الله ويحرسني.

بالنسبة إلى فيليبا، تمّت الصفقة، وفي ساعة الدفع القاسية تحبّبت حذرة

ولكن واثقة:

- قل لي، سيادتك؛ يا حضرة النقيب، أين كنت ستجد صبيةً موهوبةً مثلها؟
تعرف القيام بعمل كل شيء، داخل البيت وخارجه، تعرف القراءة والحساب
وتذهب وحيدة للبيع في المعرض، فأين كنت ستجد جميلةً مثلها؟! هل في هذه
المدينة من فتاة تصل حتى قدميها؟ لكي تجد واحدةً مثلها يجب أن تذهب إلى
العاصمة، هناك ربما! ولكن من سيتمتع بها، أليس سيدها يا حضرة النقيب؟
أعطاهم الورقات المالية بتمهل قائلاً لها إنه غير نادم، لا يتراجع، ويفي بوعدده:
- أقول لك يا حضرة النقيب إن شخصاً قد جاء إلى هنا، شخصاً مستقيماً
وليس أياً كان يعرض الزواج على تريزا، صدق.
- زواج؟ ومن هو، وإن أسأت السؤال؟
- السيد جوفنتينو، لا أدري ما إذا كنت تعرفه. شاب يمتلك حقولاً واسعة
من الذرة الصفراء والمانديوكا ويبعد مكانه من هنا مسافة ثلاثة فراسخ إلى ناحية
النهر. رجل شغول.

6

تذكر روزالفو في أيام المعرض، يوم السبت بالذات، وبعد ما باع جوفنتينو
أحمال الذرة الصفراء والبطاطا الحلوة وأكياس الطحين جاء يجري محادثة ويحكي
حكايات ويعلق على أحداث، وظلّ مدة طويلة معهم. وتحرك النزق في فيليبا، إذ
ظنت أنها الغاية من الإلحاح، ولكن روزالفو علم بنوايا ذلك الشخص وسعيه خلف
الصغيرة، وهذا هو الصحيح. وكانت النية، في أن يضطجع معها، ولكن لم يكن
هناك تفسير لعمل ذلك، فجوفنتينو كتوم ولم يكن يذهب إلى أبعد من النظرات،
ومن كلمة إلى أخرى، وفي أقصى حد، كان يدعو روزالفو إلى جرعة، ويقدم البيرة
إلى فيليبا، والغوارانا إلى تريزا. وكانت فيليبا تتأكد من نصفها الأسفل الإغرائي
كما في الزمن السعيد، ووصل جوفنتينو، فمار أحد، يشدّ ربطة عنق، آتياً معه بذلك
الحديث عن الزواج. كان يومها محظوظاً إذ غدت فيليبا غاضبة، متوحشة، وأصبح
طلب الزواج مسألة مضحكة. كانت قد قضت نصف ساعة في الغرفة، تتصابي،
بينما الشاب في الصالة مع روزالفو وزجاجة الكاشاسا، وعندما أطلت أنيقة،
معطرة، فبدلاً من أن تجد ممولّها في زيارة حب لقيت طالباً ليد ابنة أختها، ورمت

الشباب خسار ج البيت، فهل كان ذلك الطلب ممكناً؟ أين تلقى طلباً للزواج من صغيرة في سن الثانية عشرة؟ إنها ليست بالغة بعد!! وبدأت فيليبيا العمّة الحريصة على حفيدها، الأكثر غضباً وانكساراً.

- "سأنتظر وأعود"، أعلن جوفنتينو وهو يذهب لتوّه.

لن تصل إلى حضن جوفنتينو ولا إلى حضن روزالفو، وانتهى النقيب من القول وأعاد القول إن ألفاً وخمسمائة كروزيرو، مبلغ كبير يا سيّدة فيليبيا.

- كرّر القول، إن شئت، ريثما أعدّ النقود.

انتزع ورقة من دفتر الحساب الصغير، ورسم المبلغ فوقها ووقع... التوقيع معقّد ولكن النقيب يعتزّ به.

- نخذي هذا المبلغ للمشتريات من المخزن. تستطيعين أن تشتري بالجملة أو تأخذي حاجاته بالفرق، ألف كروزيرو لا تنقص نحاسة واحدة.

رفع روزالفو نظره إلى المال... طوت فيليبيا الأوراق المالية ووضعتها في الورقة حيث وقع النقيب أمر السماح لها بالمشتريات، ووضعت الرزمة الصغيرة في أسفل لباسها. ومدّت يدها نحوه، فسأل جوستينيانو دا روزا:

- ماذا؟

- الخاتم. سيادتك قلت إنك ستعطي الخاتم.

- "قلت إني سأعطيه إلى الفتاة، إنه مهرها"، وضحك: "جوستينيانو دوارتي دا روزا لا يترك أحداً للإهمال".

- أنا أحتفظ به يا نقيب. فتاة كهذه لا تعرف قيمة الأشياء، فقد تضيّعه أو ترميه في مكان ما. أحتفظ به لها، إنها قريبتى ولا أب لها ولا أم.

نظر النقيب إلى وجه المرأة شزراً؛ إنها غجرية رهيبة.

- لقد دخلت في الاتفاق، أيها النقيب، أليس كذلك؟

جاء بالخاتم ليعطيه للصغيرة ويكسب مودّتها؛ لا قيمة له، إنه زجاج ملوّن وشفيف مذهّب، وانتزعه من إصبعه: ذهب مقلد، زمردة مزيفة، حجر أخضر جميل. في النهاية ليس من سبب يدعوّه لاستمالة الصغيرة، فقد دفع السعر المتفق عليه وهو السيد.

نظّفت فيليبيا الحجر بقماش فستانها، ووضعت الخاتم في الإصبع وأبدت الإعجاب به وهي تديره باتجاه ضوء الشمس، راضية. ليس أحب إليها في هذا

العالم من السلاسل والأساور والخواتم. فقد صرفت كل الفائض المالي التعيش على
نحشاخيش باعة الحقائق المتحولين...

سحب النقيب جوستو رجله ووقف يرنُ حول عنقه عقد الخواتم الذهبية،
جرس العذارى، وغداً، يُضاف إليه خاتم ذهبي جديد، عيار ثمانية عشر قيراطاً.
- الآن، نادي على الصبية، سأذهب في الحال.

وهي ما تزال منبهة بالخاتم رفعت فيليبا صوتها:

- تريزا؟ تريزا، عجلي.

جاءت الصغيرة برفقة الكلب ووقف الاثنان بالانتظار:

- هل ناديت، عمّة؟

آه. لو لم يكن روزالفو مشدوداً إلى الأرض، ولو أضيئت في قلبه شمعة واستطاع
أن يقف على رجله. يا إلهي كيف يجب أن يكون الزوج إذا كان واقفاً أمام فيليبا!
روزالفو يفلق فمه قسراً، تشتعل في صدره الشتائم واللعنات فتكاد تخنقه. فيليبا، أيها
الطاعون، المرأة التي لا قلب لها ولا أخلاق، أيتها الأم المنحرفة! إنك ستدفعين في يوم
عقاب خطيئتك المميتة، فيليبا، الله يطلب الحساب، وابنة أختك يتيمة لا تُباع، ابنة
بالتبني، ابتنا فيليبا، بيعت كما يُباع الحيوان... إنها ابتنا أيها الطاعون الأسود.

عبر انبهارها بالخاتم، تماوج صوت فيليبا شبه دافئ:

- تريزا إنك ستجمعين أشياءك كلها وستذهبين مع النقيب، وستقيمين في
بيته، وستكونين مطيعة له هناك حيث ستمتلكين من كل شيء، وستكونين سيدة
راقية، والنقيب رجل طيب.

بشكل عام، لم يكن من الضروري تكرار الأوامر إلى تريزا، في المدرسة كانت
المعلمة مرسيدس تُثني على إدراكها السريع وذكائها المتوقد وعقليتها المتأهبة، وفي
لحظة واحدة، تعلّمت أن تقرأ وتكتب. ولكن هذا النبأ لم تفهمه تريزا:

- أقيم في بيت النقيب؟ لماذا يا خالة؟

من أجاب عن السؤال كان جوستنيانو دوارقي دا روزا نفسه. انتصب واقفاً
ويده ممتدة إلى الصغيرة:

- ليس من الضروري أن تعرفي لماذا، لقد انتهت الأسئلة ومعني تصغين
وتطيعين، اعرفي هذا جيداً وتعلميه مرة واحدة. هيا.

اتجهت تريزا إلى الباب منسحبة ببطء، فأمسكها النقيب من ذراعها؛ سمين، طويل، ذو وجه مستدير، يكاد يكون بلا رقبة، ومع كل ذلك الجسد الضخم كان جوستنيانو قوياً لئن الحركة، خفيفاً، سريعاً، يجيد الرقص، وقادراً على كسر طابوقة بضربة من قبضة يده.

- دعني. قالت تريزا وهي تتشبث في الأرض بقدم واحدة.

- هيا.

كان يسحبها عندما عضّت الصغيرة يده بقوة وبكل ما استطاعت أن تعضّ، فتركت أسنانها علامة من الدم في الجلد القاسي الذي يكسوه الشعر، فانقضّ النقيب عليها لكنها اختفت في الغابة.

- ابنة الزانية! عضّتي وستدفع ثمن فعلتها. ترتو! ترتو!

صرخ بالمرافق الذي يغفو في الشاحنة: "هنا، ترتو! وأنتم أيضاً!" وتوجّه إلى العمّة: "لنذهب ونأت بالفتاة، ليس لديّ وقت أضيّعه".

انضمّ ترتو كاشوخوا إليهم وخرج الجميع إلى البستان.

- وأنت يا روزالفو، ماذا تفعل هنا واقفاً؟

استدارت فيليبيا نصف استدارة وتفرّست في الزوج:

- ألا تأتي؟ أعرف ما تريد أيها التيس القليل الحياء، تعال قبل أن أفقد

صبري.

اللعة على هذه الحياة الشقية، ماذا يستطيع سوى أن ينضم إلى الآخرين؟ ولكني لا أذهب بإرادتي، هذه الخطيئة يا الله ليست خطيئتي، إنها خطيئتها هي وحدها امرأة السوء التي تعرف أن بيت النقيب هو الطاعون والجوع والحرب. وانضم روزالفو إلى عملية صيد تريزا.

دامت العملية ساعة تقريباً، وأكثر، ومن يدري، فالنقيب لم يسجل الوقت في ساعة يده ذات العقارب الدقيقة، ولكنهم كانوا جميعاً يضعون أيديهم على أفواههم عندما تمكّنوا في النهاية من الإحاطة بها في الغابة الكثيفة، وكان روزالفو قد ذهب من الناحية الأخرى... الكلب لم ينبع في وجهه ولكنه نبع في وكجوه الآخرين، وللمرة الأخيرة لمس روزالفو جسد تريزا وضمّمها بين ذراعيه وأخذها إليه من صدرها ورجليها... وقبلها قبل أن يسلمها.

ووجه ترتو رفسة عنيفة إلى الكلب فأسقطه أرضاً، كاسراً له إحدى قوائمه ثم ذهب ليساعد روزالفو، فأخذ تريزا من ذراعها بينما روزالفو يمسك ساحباً بالذراع الأخرى محاولاً أن يبدد شحوبه بالضحك. كانت الفتاة تحاول أن تعضّ، تغالب، وعيناها تقدحان شرراً، وفرك بيده الغليظة المفتوحة مرة، مرتين، ثلاثاً، أربعاً... خيط من الدم انهمر من الأنف، ابتلعت تريزا شيئاً فشيئاً. لم تبك. القائد لا يبكي. هكذا تعلمت من الفتيان أثناء اللهو الصباني في لعبة الحرب.

- هيا.

سحبها إلى الشاحنة هو وترتو كاشوخو. ومشت فيليبيا باتجاه البيت وحجر الخاتم الأخضر يلمع تحت أشعة الشمس. وقف روزالفو في مكانه خائر القوى ثم مشى إلى حيث الكلب. كان الكلب يتلوّى ألماً بسبب قائمته المكسورة. على جانب الشاحنة كان مكتوباً بأحرف زرقاء زاهية: باتجاه القدر. ولكي يُجبرها على الصعود وجه لها جوستنيانو دوارتي دا روزا مرة أخرى واحدة من الصفعات القوية. وهكذا أبحرت تريزا باتيستا في طريق قدرها المأساوي طريق الطاعون والجوع والحرب.

7

رفعاهما إلى داخل الغرفة وأغلقا الباب. كان عليهما أن يأخذاها من رجليها وذراعيها بعدما قفز جوستنيانو وترتو كاشوخو من الشاحنة. الغرفة الصغيرة، المظلمة، ليس فيها غير نافذة مسيجة بأسلاك مربعة يتسلل عبرها الضوء والهواء. ووضع على الأرض فراش عريض مزدوج وعليه شرشف ووسائد صغيرة وبالقرب منه إناء للتبول. وكانت صورة زيتية لمريم والملاك جبريل معلقة على الحائط إلى جانب سوط من الجلد الخام. كانت الغرفة تحتوي سابقاً على سرير، ولكن، وقع إطار السرير مرتين خلال تطورات ليلة المجون في كل مرة: مع الزنجية أوندينا القفزة الشيطانية، ومع غراسينيا المرتعبة التي جُنَّ جنوبها في ذلك الملجأ. بعدها قرّر جوستنيانو أن يُلغي السرير ووضع الفراش أرضاً عند المكان الذي تأتيه الشمس أسهل وأكثر راحة.

وكان يمتلك غرفة كهذه في منزله في المدينة، خلف المخزن. وكلتاها متشابهتان تقريباً ومخصصتان للغرض نفسه: نزوات النقيب جوليو مع العذارى

اللواتي يقطفهن عبر تفتيشه عنهن أو اللواتي يستدلّ عليهن. كان يفضل الجديّدات، وبقدر ما تكون جديدة تغدو مفضّلة، وعندما كان يوصي عليهنّ يفرض أن يكنّ عذارى بالدليل والبرهان، ومن اللواتي تقلّ أعمارهن عن خمسة عشر عاماً وهنّ ما يزلن برائحة الحليب كما قالت لسه فراندا عاهرة أراكاجو التي تتظاهر بالآداب، عندما كانت توكل إليه بالفتاة زيفادوترا التي قالت إنّها ما تزال برائحة الحليب ولكنها كانت قد مارست الدعارة منذ أكثر من عام، فراندا لا تستحقّ إلا الضرب! اللواتي هنّ دون الخامسة عشرة، وعذارى، يستحقن شرف وضع نحام الذكرى في العقد الذهبي. وجوستنيانو دوارتي دا روزا، كان يتصرّف باستقامة في ما يتصل بخصوصياته، فهناك من يهوى جمع الطوابع بالآلاف في جميع أنحاء العالم، من ملك إنكلترا المتوفّي، إلى زورواسترو كورينفا الموظف في البريد والذي عنده زوجة جميلة، وهناك هواة آخرون يفضّلون جمع الخناجر كما يفعل ميلتون غويدس أحد أصحاب مصنع السكر؛ وفي العاصمة هواة جمع المسابح اللولبية وعلب الكبريت والبورسلين والعاج وحتى الصور الحديدية التي تُباع في المعارض، أمّا جوستنيانو فإنه يهوى جمع القاصرات، يقطف ويرسم نماذج بألوان وأعمار مختلفة، بعضهن تجاوزن سن الحادية والعشرين، نساء عاميات، ولكن لا يضع نحام الشرف في العقد الذهبي في عنقه إلا لمن يقلّ عمرها عن خمسة عشر عاماً.

فسوق ذلك الفراش وفوق الآخر الذي يمتلكه في المدينة، جندل الكثيرات؛ بعضهن علمات، خبيرات، متكيفات في الممارسة، مهيآت، وهنّ إجمالاً من الأكبر سناً، ولكن معظم الأخرى من الصغيرات، الخائفات، القلقات، المحازفات، وهنّ يهربن إلى السزوايا بينما يطاردن النقيب الرياضي. وفي إحدى المرات، بالت إحداهن في ملابسها خوفاً، وعندما تمكّن من التقاطها وشدها إليه كانت قد بالت على نفسها بالكامل وبللت الفراش ورجليها، والشيء الأكثر جنوناً هو أن جوستنيانو حتى الآن ما يزال يلتهب رغبة كلما تذكر ذلك المشهد.

ولكسونه رياضياً، فإن النقيب كان يفضل اللواتي يُبدن مقاومة ما في البداية. أما الهيئات، السهلات المنال، ومع المعرفة بالممارسة، فلم يكنّ يعطينه الشعور نفسه المستقد بالسلطة والنصر والفتح المبين. أما الخجل والحياء والمعارضة والتمرد فكانت تُجبره على أن يوظّف العنف ويعلم الخوف والاحترام الواجبين تجاه السيد

والعشيق؛ قبلات يعقبها الضرب؛ وكان الضرب يعطي اللذة بعداً، ويجعلها أعمق وأكثر كثافة. وكان كل شيء ينتهي إلى الأفضل، بعض الضربات على القفا، بعض الصفعات، وأحياناً عملية نفخ الغبار عن الملابس، ولم يستعمل الحزام أو سوط الجلسد الخام إلا عندما أبحر أوندينيا على أن تفتح جنبيها. بعد أسبوع أو أسبوعين علسي الأكثر، كانت قد استسلمت لا تريد شيئاً آخر، وأحريات غيرها غدون مزعجات بتمسكهن اللحسوح، وكنّ يدمن وقتاً أطول بصفة محظيات.. مثلاً غراسينيا؛ كان عليه أن يحجمها بالضرب لكي يفرسها ويتركها غير موافقة مع ارتعابها، ولم يمض أسبوع بعد الليلة المرة التي تعلّمت فيها الخوف والاحترام حتى بدأت تنتهد لقلة الصبر، ووصلت بها الشجاعة إلى أن تأتي وتدعوه إليها في الساعة غير المناسبة.

في أراكاجسو حيث كان يذهب غالباً في عمل، كانت فراندا فرحة، ممازحة، تعرض عليه صبية عذراء، دائماً قاصر مفضوضة البكارة حديثاً. بيت عزاب مريح، وتقريباً بيت رسمي نظراً لكثرة السياسيين الذين يرتادونه بدءاً بالمحافظ إلى كبار رجالات العدل من رؤساء ومحاكم وقضاة وكبار موظفين وصناعيين وأصحاب التجارة الواسعة والمصارف (إنه أفضل تجمع رسمي للدولة كما يقول اللّسن لولو سانتوس وهو يتوكأ على عكازيه). ويحمي بيت البغاء ذاك رجال الشرطة (إنه المكان الأكثر محافظة على الشرف في أراكاجو بما في ذلك بيوت أحسن العائلات، وهذا أيضاً رأي اللّسن، الزبون الدائم).

مرة واحدة تنقّص هدوء المكان اللائق براحة وسلطة زبائنه من المشاهير، ومن نقّص الهدوء كان النقيب جوستو وهو يحاول إزاحة أثاث الغرفة حيث اكتشف خدعة الحجر السّمين الذي دسّته فراندا لتوهم فتاة جديدة آتية من الداخل. وإذا انقضت سورة الغضب وهذا المزعج المخيف أصبحا صديقين، وكانت الداعرة، مع فرنيش، تتعامل معه فقط كونه مرعب كاجازيراس الجنوية ومدخن الفتيات العاصيات؛ وفي بيت الدعارة الخاص بفراندا كانت الفتيات الأجنبية طيبات هنّ الأخريات، مستوردات من الجنوب، فرنسيات من الريو وسان باولو، بولونيات من بارانا، ألمانيات مسن سانا كاتارينا، ولكنهنّ شقراوات مؤكسدات ويقمن من كل شيء بطرف، ولم يكن النقيب يحتقر غريبة مؤهلة، وعلى العكس، كان يقدر ذلك كثيراً.

كانت الفتيات متوفرَات في الأزقة وزوايا الشوارع والأماكن الآهلة والدارات الفخمة والمدن المجاورة، وعلى الأخص في غابات ذلك الداخل الفقير؛ ومن كان يعرضهن هم الأهل والأتباع. رايْموند أليكاتي مزارع قصب السكر في أراضي المصنع، مقابل الخدمات الصغيرة كان يسلم الفتيات إلى النقيب. وسيسرو، ضارب طبل، طبال، وهو يستقبل الهنود والزنوج، كان سهلاً عليه الحصول على لقطة جيدة، وعندما يقول إنها بكر فلم يكن أحد يشك في ذلك. وغابي أيضاً، صاحبة نزل نساء في المدينة، منذ متى وإلى متى ستظل تطلق البضاعة الشهية، ولكن مع هذه العجوز كان الأمر يتطلب القليل من الانتباه حتى لا تحصل على هر بدل الأرنب. وفي أكثر من مناسبة هدّد جوستينيانو بإقفال مكانها إذا حاولت خداعه من جديد، ولكن التهديد لم يكن ليفيد، وكانت المرأة الفاسدة تكرر الخداع.

وأفضل الجميع هن اللواتي يعثر عليهنّ بنفسه عندما كان يقف في شرفة المخزن، أو في الشارع أو في الحفلات الراقصة، وعبر روحاته وجيئاته إلى حلبة عراك الديوك الهاراتية؛ منهنّ من كلفنه القليل، رخيصات، مجاناً تقريباً، أو مقابل شيء لا يُذكر، وأخريات كنّ أغلى ثمناً، وكان عليه أن يدفع لهنّ، مانحاً إياهن الهدايا والمال المحدود كتريزا باتيستنا، ولكن الأغلى من الجميع كانت الشاذة دوريس.

هل كان يجب وضع اسم دوريس في التقرير؟ معها كان الأمر مختلفاً، إذ كان عليه أن يخطب ويتزوج عند الكاهن، وفي المحكمة، وأن لا يقطفها في أي من غرفتيه الصغيرتين المظلمتين، بل في الغرفة الزوجية الكبيرة في محلة ماتريز. وبعد الزواج في المحكمة وإثر مباركة الكاهن، فإن الخاتنة اللطيفة تبدأ اليوم ممارسة أسلوب السعادة التقليدية التي تزدهر في مكتب الزواج (حسب التعبير الشعري للأب سيريليو)، فتسحب العروس لتحضير ملابس العرس وترتدي ما يتلاءم مع السفر في القطار لبداية شهر العسل؛ ولكل حالة حلتها، وكل حلة جديدة أغلى من سابقتها ومعدّة للاستهلاك بالمناسبة.

لا في غرفة الفراش الأرضي، ولا في غرفة فندق ميريدونال الفخمة، في باهيا، بل هناك في غرفتها الخاصة والمجاورة للصالة التي يتجمّع فيها عشرات المدعوّين الذين يجهزون، بإشراف أم العروسة، على الطعام والشراب، ومع هذا الإسراف في الأكل والشرب بدأ النقيب يطالب بدفع التعويض عن ذلك التبذير للمال.

رافق النقيب العروسة دوريس وساعدها على خلع ملابسها منتزعاً عنها البرقع والإكليل والفيستان الذي يدوس على طرفه، بينما هو على عجلة من أمره ليسحق عظامها الرقيقة، ووضع يده فوق شفتيها فارضاً الصمت. وفي الصالة المجاورة نخبة المدينة وأكثرها رقة وأهمية هي دوريس القشطة التي تقتل الجوع والعطش... البيت مليء بالناس ودوريس لا تستطيع أن تُمسك نفسها...

تناثرت الأزرار عن الجسد الصغير وانفكت التوراة تحت يدي جوستنيانو دوارتي دا روزا الثقيلتين، وشدت ذراعه صدر الضعيفة التي لم تستطع أن تتحمل البداية ففتحت عينيها ورغبت بشيء واحد هو الصراخ، رغبت في أن تصرخ عالياً إلى درجة أن تسمع المدينة كلها وتهرع للنجدة... ثم وجد النقيب ذراعيه مكتفتين فوق النهدين الصغيرين وهو يتسم، فأبعد عنها ملابسها الداخلية، وكما الكلب في مثل هذه الحال، انقضّ النقيب على تلك التي كلّفته ثروة وحساباً مفتوحاً في المخزن وفساتين وهدايا ومصاريف فكّ الرهن والزواج وغيرها.

8

احتفل جوستنيانو دوارتي دا روزا بميلاده السادس والثلاثين عندما تزوج دوريس كورفيلو وهي في الرابعة عشرة من عمرها. والابنة الوحيدة للمرحوم الدكتور أوبالدو كورفيلو: رئيس بلدية وزعيم معارضة سابق، بالإضافة إلى كونه طبيباً أحزن غيابه كل المدينة: ذكرى ذائعة، وشهرة بالاستقامة والمقدرة الإدارية مع براعة في ممارسة مهنة الطب والشعور الإنساني... (إنه جمجمة في التشخيص على حدّ قول الصيدلي تريغويروس، وأبو الفقراء على ألسنة الجميع) كان كل هذا عندما ترك لزوجته وابنته ذات الاثني عشر عاماً بيتاً مرهوناً وأكواماً من الاستشارات الطبية غير المدفوعة، وبرسم التحصيل.

خلال حياة الطبيب لم يكن هناك مصاعب... فهو صاحب أكبر عيادة في المدينة، يناضل فيها أربعة عشر طبيباً لمنازعة العيش، وكان الدكتور يحصل منها على الضروري لإعالة عائلته ولبعض الرفاهية إرضاء لذوق السيدة بريجيда المرأة الأولى في الحياة العامة بجدارة واستحقاق. واستطاع الطبيب من عمله في العيادة أن يشتري داراً في محلة ماتريز... قسم كبير من زبائن العيادة كان من الفقراء المدقعين الذين لا مكان

لهم يسقطون فيه موتى.. وقسم كبير آخر كان يسير فراسخ وفراسخ ليصل إلى الطبيب، وأكثر الزبائن قدرة كانوا يجلبون معهم بدل أتعاب الطبيب جذور البطاطا الحلوة أو البنجر السكرين والقرع وغيرها، وآخرون لم يكونوا يأتون بغير كلمات نحجولة، يدفع لك الله، حضرة الطبيب؛ وبعض آخر كانوا يأخذون من الطبيب بعض المال لشراء الأدوية، ففي ذلك البلد لا حدٌ للحاجة إلى النقد... على الرغم من كل ذلك ومن رفاهية السيدة بريجيذا، فإن الطبيب كان يمكن أن يترك بعض المدخرات المالية وإن كانت قليلة، لو لم يتعاطى السياسة إرضاءً لصديق وتشريفاً للزوجة التي كان أبوها في زمن مضى قد وصل إلى مرتبة مستشار بلدي.

انتخابات رئاسة البلدية، والعناية بالحزب السياسي، وسنوات الإدارة في زمن العمل القليل في العيادة، والتغطية المالية التي يقوم بها أومبرتو سنتر المسؤول المالي، والزميل "المفتاح" الانتخابي، وأحد مراكز القوة للفوز، تلك التغطية المالية التي أدت إلى رهن البيت، وعلى الأخص فشل الحملة الانتخابية، كما أدت إلى انهيار الطبيب المالي الذي أصيب بخيبة أمل وأصبح لا يملك نحاسية واحدة.

خرج الطبيب من المعركة الانتخابية بأعصاب مرهقة وقلب مثقل. عوامل الاشمئزاز والصرف استهلكت فرحه المعتاد وحولته إلى كائن حزين وعصبي، ولو لم يمت إثر تحمة آلام صارخة، لما ترك شهرة طبيب وعطوف. وعندما جففت السيدة بريجيذا دموعها لتطلع على جرد الإرث، وجدت أنها قد انتهت إلى العيش براتب تقاعدي لأرملة طبيب في الصحة العامة وإلى استشارات غير قابلة للدفع.

بعد سنتين من يوم الدفن الذي لا يُنسى للدكتور أوبالدو كورفيلو، وقد سارت وراء جنازته من الكنيسة إلى المقبرة كل مدينة كاجازيراس الشمالية، فقراء وأغنياء، زملاء وخصوماً، حكومة ومعارضة، المجموعات الطلابية والكلية العامة، بعد سنتين أصبحت السيدة بريجيذا والابنة دوريس بلا سند مالي، واستحق رهن الدار، والراتب الشهري غير كافٍ فهو يُدفع حتى آخره بدلاً عن ديون أخرى. حتى المظاهر الخارجية لم تستطع دونا بريجيذا إنقاذها مهما حاولت إصلاح فساتينها وجربت إخفاء مداهمات الزمان وتبدلات الأحوال... وكان التجار يفرضون عليها دفع الحسابات، وأخذت ذكرى الطبيب المباركة تعود إلى الوراء وتبتدئ في الزمان ولم تعودا قادرتين على الحياة على نفقته.

كانت السيدة بريجيда على وشك التنازل عن عرش الملكة الأم السيدة الأولى في البلدية خلال إدارة زوجها، وحتى بعد هزيمته في الانتخابات فإنها حافظت على الجلالة، وعندما انتقل الدكتور إلى رحمة الله، فقد جعلت نفسها ذات روح عالية ومعنويات كبيرة. وإحدى العمّات، السيدة بونسيانا دي أزيديو، ذات اللسان السليط، كانت قد لُقبت السيدة بريجيда بالملكة الأم في اجتماع الطبقة الراقية في عيد السيدة حنة، بعد معاناة طويلة وجهد جهيد للتفريغ من حدة السموم! وأعجب اللقب السيدة بريجيда ووقع منها الموقع الحسن.

حافظت بريجيда، بالتضحية والحرص، على معطف وصولجان صغير ولكنها لم تعد تخدع أحداً. السيدة بونسيانا دي أزيديو وبروح تأرية ملحاح دسّت في عتمة الليل، خبراً قطعتة من جريدة يومية، تحت باب دار السيدة بريجيда: "ملكة صربيا في المنفى تعاني الجوع وتبيع جواهرها". من الجواهر، الجيدة في أيامها، امتلكت نصف دزينة، وباعت حتى الخواتم الأخيرة إلى تركي في باهيا، منطقة بيع الفضة والذهب من بيت إلى بيت، وباعت أثاثاً قديماً وصور قديسين وتماثيل خزفية عفا عليها الزمن... الجوع لم يكن قد دقّ بابها بعد، ولا باب ابنتها، فلطف النقيب جوستو غير المرتقب من حدوث الأسوأ، وخاصة عندما امتنع تجار الحبوب والبقالون عن البيع لها بالدين.

وكلمة لطف، ليست بالكلمة الصحيحة... جوستيانو دوارتي دا روزا، رجل ذو ثقافة ضحلة، لم يكن يمتلك أساليب اللطف والمجاملة واللطافات المضمرة... وفي يوم، وقف أمام النافذة حيث كانت بريجيда تنظر إلى الشارع، ودون أن يلقي بالتحية باشرها بصلافة:

- أعرف أن سيادتها تشتري لتأكل من زمرة عديمة الأخلاق ولم يعد لديها من تشتري منه... ففي مخزني تستطيع أن تشتري بالثقة كل شيء وعندما تشاء. صحيح أن الدكتور كان على خلاف معي ولكنه وجه.

كان النقيب قد تعلّم كلمة وجه في سفرة متأخرة إلى العاصمة. فعلى مقربة من قصر دسياتشوس كان أحدهم قد قدّم له سكرتير دولة قائلاً:

"الأستاذ دياسي وجه حكومي". قدّر جوستيانو التعبير حق قدره، وعلى الأخص أن الشخص الذي يعرفه قد قدّمه بالشارة نفسها: يا صاحب السيادة إن

للنقيب جوستينانو دوارتي امتيازات كبيرة في منطقة الداخل، ولن يتأخر في أن يصبح وجهاً هو الآخر. وراضياً عن هذا التعريف فإن النقيب دفع سعر البيرة والسيجار الذي قدّمه للشخص ودعا الصحافي للعشاء ثم وضع الكبرياء جانباً وسأل:

- "وجه"؟ بحق الشيطان ما هذا؟ تعرف أن هناك ما أجهله من هذه الكلمات الغربية.

- "وجه" تعني زعيماً سياسياً، واجهة السفينة، مهماً، رجلاً ذا قيمة معترفاً له بها، مشهوراً... مثلاً: روى باربوزا، ج. ج. سيابرا، غويس كلمون، والعقيد فرانكلين...
- هل هو فرنسي أو إنكليزي؟

- "ألماني"، أجاب المراوغ وهو يطلب مزيداً من البيرة.

على الوجيهاء السياسيين واجبات، وعلى الأخص عندما يواجهون حملة سياسية. ومع كل هذه الانحناءات، فإن الموت يأخذهم ويصبح القول غير مباح وتُدفن معهم أسرارهم، وها هو الدكتور قد انتهى بعد أن كان وجهاً.
عرض لا يُصدق! بعد عدة أيام اكتشفت السيدة بريجيда السبب الحقيقي لمقاربة التاجر لها وإفساحه المجال لشرائها بالدين... وبقي أن تقع أرضاً مغمياً عليها.

- لا، لم يكن ممكناً، لا يمكن أن يكون! عبث بلا حجم، غير ممكن تخيل الأمر، وفي الوقت نفسه إنه أمر واقع، فالنقيب كان يضع عينيه على دوريس ويدور حولها.

على الرغم من الأربعة عشر عاماً والعادة الشهرية المنتظمة، فإن السيدة بريجيда لم تكن ترى في ابنتها تلك صبيرة ناضجة وهي ترتدي الملابس القصيرة المزخرفة والأحذية الواطئة الكعوب. وكانت تحافظ على الصغيرة بأنسب ما يكون وأرخصه مما يتلاءم مع إمكانياتها ومنظوراتها الشخصية. ولم يمر قط في رأس السيدة بريجيда، وهذه هي الحقيقة العارية، أن هنالك أحداً يمكن أن يهتم بدوريس الصامته المنغلقة على نفسها، الصعبة، دون صديقات، والتي تقضي أيامها في الكنيسة والقداسات. إنها ستكون راهبة، كانت العمّات يردّدن، ولم تكن السيدة بريجيда تعترض، ولا تجد مخرجاً أفضل من ذلك وحلاً أنسب له.

ورثت دوريس عن أبيها مزاجيته العصبية، تحزن بسهولة، وتبكي للاشيء، وتقبع في الزوايا، حزينه، والحقيبة في يدها، ودون التوقف أمام الخصائص الفيزيائية، وهذا جزء كانت السيدة بريجيذا تفضل أن تلتزم إزاءه بالصمت، لم تكن بشعة الوجه أبداً، ذات عينين كبيرتين، واضحتين، وحزمة عظام ضعيفة، وفخذين كقطعتي خشب مجففتين، ونصفها الأعلى مسطح والثديان بلا حجم، ولم يكن لها قط حبيب... السيدة بريجيذا ذات الأمومة التي لا يجرو أحد على الشك فيها، وبينما تقرب ابتها من عنق الملكة الأم الرائع، كانت تنتهد بشكل مأساوي معلنة: قطي الدافئة!! أجل، كل شيء كان بالنسبة إلى القطعة الدافئة هو يسوع، راهبات المدرسة والمستشفى كنّ ينمّين فيها الدعوة والتحفظ، بينما الزميلات القاسيات كنّ ينادينها بالأم النحيلة.

الآن، ظهر النقيب! ما من شاب في الشارع أو مراهق في المدرسة رفع عينيه إلى دوريس بلطف أو كياسة أو عرض عليها أن ترافقه إلى المرتفع التقليدي المنعزل والمخصص للعشاق، والطريق الذي كانت كل الفتيات يمررن به عند خروجهن من الصفوف وهنّ يردّدن ما تعلّمنه.. من هذه الأشياء كانت دوريس تعرف فقط ما سمعتنّ يقلنه، وكانت الزميلات يجدن لذة في شيطنتهن وهنّ يأمنها على أنها كاتمة أسرار للقبل والمداعبات بتفاصيل مثيرة... وكنّ يطلعنّها على علامات ملطّخة في الرقبة والشفاه المعضوضه، مفتخرات بذلك. بصمت، ودون ابتسامات أو تعليقات كان دوريس تصغي... ما من شاب دعاها إلى مشوار خلف المرتفع.

وها هو النقيب فجأة، رجل غني وناضج، وأعزب دهره يغرس عينيه في الفتاة النحيلة، فمن كان يظن ذلك؟ النقيب جوستو رجل ذو سمعة سيئة، وقبيحة، ولا يوجد أسوأ منه... هو محترم، بلا شك لماله ورجاله ونفوذه وكونه مقاولاً، عنيفاً ودموياً... حتى الدكتور أوبالدو الذي قبل أن يتعاطى السياسة لم يكن يقول كلاماً سيئاً عن أحد، وكان لطيفاً جداً في حكمه على أخطاء الآخرين، لم يكن يتغاضى عن جوستنيانو، السوحش، حسب تعبيره وأحد الأسباب الرئيسية في فشل الدكتور في الانتخابات التي كان فيها مرشح المعارضة. كانت شجاعته في فضح التآمر، خلال المهرجانات، لرئيس البلدية القديم والمندوب الحكومي والنقيب، ضد المدينة... تلك المسائل المتعددة من الفضائح غدت معروفة لدى العامة إلى حدّ الفضيحة التي جعلت

آل غويلس حماة المدينة يسحبون ثقتهم ومساندتهم لزمرة الشر في السلطة. وعندما انتُخب، لم يستطع الدكتور عمل الكثير ضد المتهمين بسبب عدم توفر الأدلة، والتضامن بين المتأمرين واكتفى بالإدارة الشريفة إزاء معارضة آل غويلس... كل شيء يجب أن تكون له حدوده بما في ذلك الشرف الإداري، وذلك السياسي الذي لم يستطع التمييز بين الحساسيات المختلفة في الحياة العامة، كانت مدته في المهنة السياسية قصيرة.. ومن بعيد، من حقول قصب السكر والبيت الكبير في مصنع السكر، فإن آل غويلس ابتدأوا بتمجيد الدكتور أوبالدو كورفيلو أسير الشرف، وانتهوا بالقضاء عليه سياسياً. في ذلك الوقت كان النقيب جوستنيانو يسير وفي عنقه حبل قصير، فقد كان السبب في سجن اثنين من رجاله في إحدى حفلات عراك الديوك. وعندما هُزم الدكتور أوبالدو في الانتخابات التالية، شوهه جوستنيانو دوارتي دا روزا وهو يجتاز الطريق الرئيسي ومحلة ماتريز على ظهر جواده وهو ينثر الورق الدعائي في الهواء.. بحذر.. أما رئيس البلدية الجديد فإنه لم يمارس حتى سلطته، وعاد الخوف يشيع من جديد تحت أقدام الجياد وفي طلقات المسدسات.

أجل، لم يكن جوستنيانو دوارتي دا روزا المعروف بالنقيب جوستو من ينظر إلى الصغيرة بطرف عينيه، وقد شوهه حتى في محلة ماتريز عند الشفق في ساعة الصلاة: العينان الناعستان، كأنهما عينا خنزير، محفورتان في دوريس.

وضعت السيدة بريجيда يديها على رأسها، ماذا أفعل يا الله؟ واعترقها الرغبة في الركض لمناقشة الموضوع مع الأب سيريليو والعمّة تيكامنزيس والصيدلي تريغويروس، ولكن الحذر احتواها، فقبل أن تخرج للكلام عن الموضوع يجب عليها أن تدرسه من كل نواحيه وتعطي نفسها المجال للتأمل العميق في هذه المسألة.

وبينما كنّ جالسات إلى جانب الطريق بعد العشاء على أحد المقاعد، كانت الأرملة وجاراتها يمارسن خلال الليل المنعش متعهنّ المفضلة التي لا يضاهيها شيء: مستعة نبش حياة الآخرين؛ وكانت دوريس تصغي صامتة... وفي مصهر العمات المحرق لا يوجد غفران ولا استثناء: إن التجار لصوص، والأزواج سفلة، والفتيات بلا حياء، دون أن نتحدث عن الزناة وأصحاب القرون الكبيرة.

عند سماع خطوات النقيب هيمن الصمت، صمت عصبسي، مثير، وكل عين تحدّق فيه بينما عيناه مسمرتان في دوريس. فكّرت السيدة بريجيда بالانسحاب

بصورة عادية مع ابنتها وأخذها إلى الداخل، وبإغلاق الباب وراءهما، ولكن الحذر، مرة أخرى، احتواها فأجابت على مساء الخير بشكل تحيبيّ وابتسمت للوحش.

9

عانت السيدة بريجيда مرارة الليالي البيضاء وأيام الحزن وهي تزن الأمور بما لها وما عليها، وتحلّ المشكلة وتتأمل في مستقبل الفتاة. كان عليها أن تحسب حساب كل شيء وتقرّره؛ فالفتاة الصغيرة البريئة، كانت تعيش بعيدة عن العالم ولا تهتمّ بغير المسائل الكنسية: فتاة هائمة بالمدرسة وأسوأ رفيقة في الأعياد وفي أمور اللهو، أما عن الشباب والعشاق فلا تتكلم، إنها فقيرة.

لقد ولدت دوريس لتبقى عزباء: لنقل، بسبب مزاجها وطرقها، ولكونها تجد صعوبة في الحصول على خطيب أو الزواج في سوق المدينة، حيث تكثر الصبايا في سن الزواج ويقلّ الشباب المتقدم. وكان الفتيان، لا يكادون يشبّون عن الطوق، حتى يأخذوا وجهة الجنوب تفتيشاً عن الفرص بسبب قلّتها هنا. وكان مال البلدية يأتي عملياً من ضرائب مصنع السكر، وملكية آل غويدس أصحاب المصارف في العاصمة وأسياد الأراضي، وعلى الأخص منها الأراضي الخصبة ذات المستنقعات المائية المتجمّعة من النهر والتي تنمو فيها غابات القصب والحقول الخضراء، خلافاً للأراضي الجافة القاحلة التي تقابلها. وكان المصنع يوظّف بعض أصحاب الامتيازات. وكانت قلّة أخرى من الشباب تعمل بالتجارة الصغيرة في الدكاكين والمخازن، بينما الباقون يهاجرون مستقلين قطار سكة الحديد. الفتيات يتعاركن بضراوة، للحصول على من تبقى، ومن وقت لآخر كانت واحدة منهنّ تتعلّق بذراع تاجر جملة متزوج وأب لعدّة أولاد، هاربة بجنون من اللف والدوران، وأما شرف العائلة فإلى جهنم وبئس المصير... وهنا تأخذ العمّات بالارتجاف.

أما آل غويدس فكانوا قلما يظهرون في المدينة. الإخوان الثلاثة ونسائهم والأولاد والأحفاد كانوا يذهبون إلى المصنع ويعودون توّاً إلى العاصمة، وكانوا يأخذون القطار عند محطة تقع وسط غابة القصب.. وفي شاليه محلة دوكونفنتو الذي يبقى طيلة العام مقفلاً، كان السيد ليريو الفلاح الحارس يقضي أوقات فراغه بين الأشجار التي يزيد عمرها على المائة سنة، ومن حين لآخر، وكل سنتين أو

ثلاث، كان أحد الإخوة مع زوجته وأولاده يظهر في عيد السيدة حنة شفيعة العائلة وعرابة البلدية، فتفتح نوافذ الشاليه وينطلق الضحك من الغرف والممرات، ويأتي من العاصمة زائرون، بينما الفتيات المحليات في أحلى حللهن، والشباب الآتي من الخارج لا يعرف أن هناك مثل هذه الكياسة. وكانت المسألة تدوم أسبوعاً، عشرة أيام، خمسة عشر في الأكثر.. وبعد أن يتعرضن للتقيل والمداعبة والملاعبة ويُتخلّى عنهن في فورة العيد، كانت الفتيات العذراوات اللواتي أصبحن الآن جماً متقدماً يعدن إلى زملائهن التافهين والواقفين في الشرفات من الأشقياء، داخل البيوت أو أثناء الأعياد الكنسية، وهنّ عزباوات في العشرين، وحتى لو رغبن في التمدد في غرف النقيب المظلمة، فإنه يرفضهن معتبراً إياهنّ مسنّات وعوانس.

عندما تصبح بالغة وامرأة في عرف المدينة، فالأمر تستطيع دوريس أن تصبو عندما تنهي الدراسة التكميلية في مدرسة الأخوات؟ يمكن تدبير الأمر بالواسطة وبالطلب المتواصل، كوفها يتيمة الدكتور أوبالدو، فتستطيع الحصول على مركز معلمة ابتدائية في إحدى مدارس البلدية أو الحكومة، أو قد تستطيع إكمال دروسها في الانخراط في سلك الرهبنة. مديرة مدرسة ابتدائية أو راهبة. فالسيدة بريجيда لم تكن تستطيع الخروج بافتراض ثالث.. زوج وزوجة؟ مستحيل... الفتيات الأخريات، في وضع أفضل منها مالياً وشكلاً، بنات فلاحين وتجار وموظفين، جميلات، متعافيات ومطروحات للزواج، كنّ يذبن على الشبابيك دون أن يفزن بزواج، فكيف تنزوّج دوريس الحزينة، النحيلة، غير المرغوبة، البشعة، المكفهرة الوجه، ذات الصحة العليلة إلى درجة مؤلمة. إن زواجها يمكن أن يتحقق بأعجوبة ليس إلا.

وتحققت الأعجوبة: لقد كان النقيب جوستو بيدي اهتمامه بوضوح، وفي المدينة كان قد ابتداء عيد التهنيدات وجاءت العمّات للاحتفال وهنّ في أحلى حللهن. كنّ يصلن إلى الاحتفال اثنتين اثنتين أو ثلاثاً معاً، وأكثرهنّ تكتماً يأتين وحيدات مرتديات الأسود، فيعطرن الممرات ويقفن في صف النقيب! كنّ يقلن أموراً مفزعة: "يقولون إنه...". "من أخبرني كان موجوداً...". "ليس من زمن بعيد...". وكانت السيدة بريجيда تسمع الحكايات المخيفة، تهزّ رأسها، لا تقول نعم أو لا، وتبدو وكأنها لغز... وتحيط بها العمّات، عصابة من بائنات العظم

الرخيصات، في الشارع الأعلى والشارع الأسفل، في القدّاس، في الزياح، وأثناء متّسع الوقت الكبير، وكانت السيدة بريجيда دائمة الالتزام بالصمت كأن ذلك لا يعني لها شيئاً.

في هدأة البيت الموصد وبعيداً عن ثرثرة العمّات، ليلاً، كانت السيدة بريجيда في تأملها العميق، تزن الوضع وتستعيد فظائع النقيب التي تبدو كأنها نشيد ديني بلا نهاية..

في النهاية، فظائع كتلك كانت تنقلص أهميتها عندما يسترخي المرء للتفكير في الموضوع بهدوء وتسامح. كانت العمّات يضعن الجمر خاصة على المسألة الجنسية وعلى اختراق القواعد التقليدية في حياة جوستنيانو دوارتي دا روزا. سلسلة من الفتيات والقاصرات في فراش فضّ البكرات، وفضائح في بيوت العزّاب وأماكن الدعارة، وخلاسيات فاحشات اغتصبهن وضربهن وتركهن مهملات في أسواق البغاء.. كان النقيب عازباً، ومن هو الأعزب الذي لا تسجّل حياته أحداثاً وانهيّارات من هذا النوع؟ ما عدا الرجل غير الطبيعي، المنحرف، من أمثال تيان فيوليتا بواب السينما ولوطي المدينة الرسمي، وكما يقولون، فإن أحد أبناء ملتون غويدس كان مشكوكاً في أمره من هذه الناحية، ولكن أهله كانوا قد أبعده إلى الريو دي جانيرو.

إن سجل حياة جوستنيانو يبدو حافلاً، ولكن من الذي ينجو من السنة العمّات؟ حتى الرجال المتزوجون الأكثر احتراماً لم يكونوا بمنحى، وقد اهتموا بأشياء وأشياء مزجت بعضها ببعض الآخر. حتى إنّ العمّات كنّ يتمتمن ويغتنن الدكتور أوبالدو نفسه، القديس كما يعرفه الجميع، وقد اتهمنه بالأختين لوريتو، وهما فتاتان تعيشان وحيدتين، ووريثتان لملكية دار وبعض المدخرات المالية، وكانتا زبونتين لدى الطبيب، وقد نسبت العمّات إلى الفتاتين علاقة عشق مع الطبيب في الوقت نفسه.. لم يكن أحد ينجو من السنة السوء تلك في أرض كهذه، ذات أعمال قليلة، وفي مكان موحش كهذا خلال الأمسيات البطيئة والساعات التي لا نهاية لها.

بالتأكيد، استنتجت السيدة بريجيда أنّه ليس ممكناً أخذ النقيب مثلاً يحتذى به في التقوى يستشهد به في ساعات التعليم الديني، كونه متمولاً وحرّاً فلن ينقصه الاستئناس بالمرأة. وعائلات كثيرة في زوايا الشارع وفي الحقول، كانت ترمي الفتيات في الطرقات، وتعرض العذارى للبيع من النوافذ وبأسعار منخفضة، ولم

يكن هناك اختيار: اللواتي يُقال عنهن من عائلة كريمة باستثناء القليلات اللواتي يتزوجن أو يهربن، كنَّ ينتهين عوانس شاحبات. والأخريات من الأكثرية العامة، كنَّ في أغلبهن يشكّلن جيشاً بكامله للأسواق العمومية.

لكونه عازباً، كان يحقّ للنقيب أن يرقّه عن نفسه. وأما المبالغات فكانت تعود إلى صحته القوية وطاقته الجنسية. بالإضافة إلى ذلك، هناك من يقول إن الذين تكون حياتهم أكثر انحلالاً يرتدّون إلى الحياة الكريمة ويصبحون أفضل الأزواج ومُثلاً علياً، وبعد أن يكونوا قد أنفقوا وهم عزّاب حصتهم من قلة الحياء، فإنهم يعملون على إنقاذ ماء الوجه فيما بعد.

بالنسبة إلى العمّات، كان فصل الناحية الجنسية في سيرة النقيب المتهتكة الخلاعية هو أكثر ما يهّم وأثقل وزناً من كل شيء آخر.. أما سوء الائتمان في الحسابات الجارية التي حقّق بنتيجتها أرباحاً مضاعفة، والعنف في التعامل، والعائدات المدفوعة بالتهديد والشجارات، وأعمال الشغب في عراك الديوك، والتزوير في أعمال الأراضي، والجرائم، والقتلى الذين أجهز عليهم أو أمر بذلك، كل هذه الأمور كانت تبدو أقل خطورة من سيرة النقيب الجنسية. ما لا يُغفر له هو التهتك: إنه النجاسة بعينها، الذي لا يُغفر للنقيب ولا للفتيات ولا للصبايا ولا للقاصرات، فهنَّ محكوم عليهنّ بالتهمة نفسها. في ذلك الفصل لا يوجد ضحايا، فالمنحرف الشاذ متهم، وكذلك هنَّ جميعاً. بعضهنّ خليعات والأخريات تائهات.

في الوقت نفسه، كانت السيدة بريجيда تتوقف أيضاً عند مظاهر عديدة من سلوك النقيب، وهي تحلّل القيمة الحقيقية للحكايات المتداولة وبعضها ذات تفاصيل مرعبة. فيما يتعلق بسوء الائتمان في الحسابات والمطالبة بالدفع بواسطة الصراخ والتضارب، فمن هو التاجر الذي لا تُلصق به تهمة سوء الائتمان؟ ومن هو الذي لا يستعمل كل الأساليب للحصول على الديون المتأخرة؟ وأفضل مثل على ذلك هو المرحوم الدكتور أوبالدو الذي ترك عائلته لرحمة القدر لعجزه عن المطالبة بالحساب ومفاتيح زبائنه. لقد ترك مجموعة من المدينين الذين عاجلهم وعانينهم خلال سنوات، والكثيرون منهم مدينون بحياتهم له، وواحد منهم لم يفتش عن العائلة في ضائقها وحاجتها لهذه الديون الشريفة، وبالمقابل فإن الدائنين هم الذين نبتوا للعائلة وطلعوا عليها بالكلام الغليظ.

في ليالي الأرق، ظلت السيدة بريجيда توضّح الأحداث والاثامات بتسامح. وبدأت صورة جوستينانو دوارقي دا روزا تأخذ ملامح إنسانية، ولم يعد الوحش مقلقاً إلى حدٍ كبير.. هذا دون أن نتحدّث عن الصفات الإيجابية: عازب وغني.

تسامح أو طيبة إرادة؟ على الرغم من كل طيبة الإرادة، فإن السيدة بريجيда لا تستطيع أن تتجاهل المناطق المظلمة والشكوك التي لا تغيب، وأصدقاء طلاقات الرصاص في الكمائن ورؤية القبور المفتوحة ليلاً. وفي محاكمة جريمة قتل الإخوة الثلاثة بريتو وأسيديرو وألسينو الذين قتلوا وهم نيام، لم تثبت التهمة على النقيب، بل على أحد المجرمين ويدعى كاسبار. وفي عشية يوم الحكم، فإن كاسبار ذاك كان قد شق نفسه! تأنيب ضمير بالتأكيد.

تبقى المحادثة الصعبة دائماً لليوم التالي. والسيدة بريجيда تخشى ردّة فعل الابنة العصبية والبكّاءة عندما ستُفصح لها عن رغبة الوجه السياسي الذي تُعمل فيه نقاشاً من هيئتي نفسها للروحانيات في خدمة يسوع الناصري، في صمت خاشع، كيف تستطيع أن تتخيّل النقيب وأسطورته المروعة؟

آه! لن تقبل دوريس أبداً أن تناقش الموضوع، وهي نحيلة وهزيلة وأعصابها دائماً هادئة ولكنها عنيدة لا يضاهيها في العناد أحد، وقادرة على أن تقبع في الغرفة وترفض الخروج إلى الشارع.

عند الفجر، كانت السيدة بريجيда الأم الحبيبة، تزن العواطف والواجبات؛ تعرف أنه من المستحيل إجبار دوريس على الزواج من جوستينانو دوارقي دا روزا إذا ضربت الفتاة رجلها في الأرض وقالت لا. عنوة لا يمكن. إذاً، كيف أفعل يا الله لإقناعها؟

10

وكان الحديث غير المنتظر، مساءً، بينما الأم والابنة عائدتان من زيارة بروتوكولية إلى السيدة بياتريز زوجة قاضي الأمور المستعجلة وسيدة العاصمة... كانت الأخيرة قد جاءت لقضاء بعض أيام الإجازة مع الزوج وجاءت بابنها دانيال الذي بلغ السابعة عشرة من عمره؛ شاب ذو تكوين عذب، متأنق صغير وصاحب شكل يستحق أن يعلق قلادة في العنق. في الصلاة الأمامية وجوه أخرى رضية في حديث عالٍ واحتفالي، ودامت الزيارة مدة قصيرة.

في الطريق بادرت السيدة بريجيда ابنتها الفهيمة:

- شاب جميل! يبدو وكأنه لوحة فنية.

وأفلت صوت دوريس كالمعتاد:

- شاب؟ إنه ولد مدلل ومتمسك بملابس والدته. لا أطيق الشاب المائع.

تعجبت السيدة بريجيда من الرأي ومن لهجة الاحتقار.

- "من يسمعك يا ابنتي تتكلمين يظن أنك قادرة على أن تفكري في الفتیان

والشباب..". مازحت السيدة بريجيда. "ولد مائع تقولين، أما أنا فأقول إنه شاب

فهيم، ولم يرفع عينه عن ياقة فستان نيوزا علماً أنها ليست ياقة بل خلاعة،

فصدرها يكاد يكون في الخارج، هل لاحظت؟ إنك لا تلاحظين أبداً هذه الأمور".

وفجأة خرجت الكلمات من فمها: "إني أراهن أنك لم تلاحظي بعد النقيب

جوستو يجيل بنظره فيك".

- بلى، لقد لاحظت ذلك يا أماه.

صدمة وحرقة في صدر السيدة بريجيда.

- لاحظت؟ ومتى؟

- منذ وقت طويل يا أماه.

مشتا خطوات عديدة صامتتين، السيدة بريجيда تمسك بقلبها وتضع يدها فوق

صدرها المجهد، "يا إله السماء!"

- أتريد أن تقولي... أن تقولي إنك... غير سئمة من ذلك... وأنت غير...

- سئمة؟ لماذا؟ إننا خطيبان يا أماه.

أحسّت السيدة بريجيда أن قلبها يكاد يخرج من موضعه، إنها بحاجة طارئة إلى

ماء الورد وإلى كرسي تستطيع الجلوس عليه بينما شمس الصيف تزيغ نظرها

وتشوش على المعاني. هل سمعت جيداً وهل هذه ابنتها دوريس حقاً؟ ابنتها الفقيرة

والبريئة الصغيرة، هذه التي تتبعها جنباً إلى جنب في الشارع، وتعدّ نفسها خطيبة

النقيب بالصوت نفسه المنخفض اللين إلى حدّ الإلهاء عن الصلاة، وهل صحيح ما

تسمعه، أم أنه مجرد حوار لا يعدو كونه تصوراً خاطئاً؟

- ابنتي، حباً بالله أخبريني بكل شيء قبل أن أختنق.

ضحكت من جديد، هل هي ضحكة الظفر؟

- لقد كتب لي رسالة وأرسلها..
- أرسلها؟ إلى أين؟ ومن جاء بها؟
- أرسلها إلى المدرسة وتسلمتها بينما كنت عائدة إلى البيت، في الطريق. لقد كان شيكو الموظف لديه هو من جاء بها. وهنا رددت على الرسالة فكتب من جديد فرددت مرة أخرى. كان شيكو يعطيني رسالته وأنا ذاهبة إلى المدرسة، وفي طريق العودة إلى البيت كان يأتي ليأخذ الجواب. قبل أمس كتب يسأل إذا كنت أوافق أن أكون خطيبته وإذا كنت موافقة فإنه سيتكلم مع السيدة الوالدة.
- وأنت؟ هل أجبت؟

- في اليوم نفسه، يا أماء، لقد قلت له إنه بالنسبة لي يمكن أن يعدني خطيبته منذ الآن.

استوت السيدة بريجيда في وسط الشارع على مقعد الرصيف تنظر إلى الابنة النحيلة ذات الفستان القصير والحذاء ذي الكعب الواطئ والوجه البائن العظم، الابنة التي تكاد تكون بلا صدر، الطالبة البلهاء البريئة..
- آه! إن النار تشتعل في صدر بريجيда!

11

قاضي الأمور المستعجلة الدكتور أوشتاكيو فياليو غوميز نيتو، الذي يتعاطى نظم الشعر في ساعات الفراغ باسم فياليو نيتو، نشر عدة رباعيات في صحف ومجلات باهيا، وعندما كان طالبا نال مع فرجيل دي سبونيروس جائزة الشرف في المسابقة الشعرية التي أجرتها مجلة فون فون في الريو دي جانيرو، ذلك القاضي بالشكل الذي يبدو عليه، كأنه دليل على الثقافة الدينية، كان يدافع عن مسألة مدهشة بصورة جدية وبالأدلة، وفي رأيه أن جوستنيانو دوارتي يشتعل بالحب الحقيقي للقاصر، وليس الحب حقيقياً وعميقاً وحسب بل مؤلماً أيضاً. إنه الحب في أعرق صورته، حب هو سعادة الجنة وعذاب الجحيم.

- "إن للسيد رؤية في الحب هي من أغرب الرؤى بلا شك". فبالنسبة إلى ماركوس ليموس حارس السجلات والذي وهب نفسه للوحي الشعري هو الآخر، فإن القاضي كان فقط يتسلّى على حساب الأصدقاء، إنه متمايل.

- الأستاذ أوشتاكيو يحب المفارقات... كان يتأمل في المدّعي العام الأستاذ إييامينوننداس تريغو الضخم، الأنيق، ذي الذقن المزيّنة، والأب خمسة أولاد بينما السادس في رحم الأم، وله ثلاثون سنة من العمر غير كاملة.. وكان واحداً من الحلقة الضيقة ذات الثقافة المحلية المزدهرة، لكونه مجازاً في الحقوق أكثر منه حاكماً عادلاً. وكان في الادعاء العام عدماً، ولكنه مؤهل في فك الألغاز. ولم يكن يغامر في إنكار أو رفض رأي القاضي، مسؤوله الأعلى.

- "إنك سافل..." ضحك العضو الرابع في المجموعة، إيرتون أمورين، المسؤول عن جباية الضرائب، قصير النظر، ذو الشعر القصير جداً، وأحد قراء إيسادي كيروز ورماليو أورتيغون وصديق القاضي. "الحب شعور نبيل... إنه الشعور الأنبل".

- وبالتالي؟

- المشاعر النبيلة والنقيب جوستو نقيضان لا يلتقيان.

- إنك أكثر من ظالم لعزينا النقيب، فأنت عالم نفس سفلي... إنه الحب، الحب الحقيقي، وسأبين لك بالبراهين...

ليست فقط النخبة المثقفة بل المدينة بأكملها هي التي تهتمّ بتفسير الخطوة والزواج وأعمال النقيب الأخرى، التي هي في الحقيقة أعمال وضیعة... قبل أيام من استحقاق رهن البيت، عمل على فك الرهن منتشلاً الأرملة والابنة من الخطر الداهم، ومن فقدان الأثاث الذي كان قد اشتراه الطبيب بتضحية كبيرة.

- "هذا الكرم الواسع، هذا التخلي، أليس دليلاً كافياً على الحب؟" كان القاضي يُدلي بالحديث مع البراهين الساطعة.

- "وجهاز ملابس دوريس؟ من الذي دفع بدل الحرير والجوخ والأقمشة الناعمة والكشاكش والبرائم؟ ومن دفع بدل الخياطة؟ هل يمكن أن تكون السيدة بريجيда قد دفعت من الراتب التقاعدي؟ كل ذلك خرج من جيب النقيب، هذا النقيب ذو قبضة يد منكمشة عادة، بخيل، وفجأة يصبح مبذراً، منفتح اليد، يدفع دون أن يناقش.. لقد عادت السيدة بريجيда فائزة بحق الاستدانة من الدكاكين، منتصرة على التجار المنحنيين أمامها بالسلام وهم أنفسهم، أولئك المتلونون، من كانوا يضطهدونها قبل فترة لتدفع حساباتها المستحقة.

لو لم يكن حباً، ماذا يمكن أن يكون؟ كيف يمكن تفسير التبذير، والسماحات واللطافات. نعم، اللطافات التي قام بها النقيب، لو لم يكن كل ذلك حباً، لماذا يتنكب أحمال المال، ويتزوج؟" سأل القاضي، وهو يشير بإصبعه: "لو لم يكن مولها؟ وما الذي تأتي به دوريس غير عظامها الضعيفة؟ أموال؟ لم يكن لديها مكان تموت فيه. اسم الأب الشريف دون شك، ولكن أية فائدة يعود بها الاسم إلى جوستينيانو دوارتي دا روزا، وكذلك الشرف وذكرى الطبيب أوبالدو كورفيلو؟ إنه الحب الأعمى والكاوي ليس إلا...".

- "الأعمى بالدرجة الأولى". قاطع إيرتون أمورين متفكهاً.

وحده الحب الكاوي والأعمى يفسر الخطبة والزواج والمصاريف واللطافات في رأي القاضي الكبير أوشتاكيو؛ رأي قضائي وشاعر، جدير بالانتباه، وقد أخذ يشقّ دربه في المدينة. كان وقتاً غنياً بالمناظرات والآراء المتناقضة وبعض النكات الجريئة الفاقعة. السيدة بونسيانا دي أزفيدو التي لا تتعب، نالت نجاحاً كبيراً بأحد تحديداتها القيّمة: إنه زواج جحش قوي من خنزير سمين، تشبيه قاس ولكنه مصيب، ومن يستطيع أن ينكر؟

سواء كان حباً أو لسبب آخر مجهول، وكما تشاء العمّات، فإن النقيب جوستو كاد يفقد عقله، ولم يعد يبدو الرجل نفسه. أحد ديوكه الهراتية سقط في أحد العراكات، فلم يناقش جوستينيانو الأمر ولم يتهم أحداً بالسرقة ولم يهاجم الحلاق ريناتو صاحب الديك المنتصر.

مع كل ذلك، لم تستطع السيدة بريجيда كلياً أن تتحرّر من الأفكار السوداء التي تضطهدّها ليلاً.. اعتادت على وزن الأحداث والحركات والمكارم والحدود المرسومة. صحيح أن النقيب فكّ رهن الدار في المصرف، لا شك في ذلك، ولكنه لم يتنازل عن الدار في المكتب العقاري للأرملة، وأصبح هو الدائن؛ وعندما فاتحته السيدة بريجيда بالموضوع نظر إليها جوستينيانو بعينيه الناعستين كأنما يهاجمها: ألم يكونا في طور الزواج، هو ودوريس، وسيبقى كل شيء ضمن العائلة، فأين هي الحاجة لتبذير المال في المكاتب العقارية للحصول على التنازل وغيره من أعمال الغباء؟

وفي المحلات التجارية أيضاً حدث أن اعتذر لها التاجر:

- عفوك سيدة بريجيذا، فلمشتريات بهذا الحجم يجب استشارة النقيب... وضاعت وسط المكارم. السيدة بريجيذا كانت تحسّ بأن قدميها ليستا على أرض آمنة، وبوادر الكرم واللطافة لم تكن إلا أغطية فوق أرض العنف والغابة الصماء التي لا ظل فيها ولا ماء.. ولم ينقص شيء من الأمور الضرورية لتجهيزات العرس، ولكن لا يمكن مقارنتها بتجهيزاتها هي، الكبيرة، الغالية، التي لا تنسى في أحلام السيدة بريجيذا. هكذا، فإن الشكوك والظلال القائمة كانت تزعج حلمها ورضاهها، ولكن ليس بالنسبة إلى جوستنيانو دوارتي دا روزا ذي الوله المعلن على الملأ. دامت الخطوبة ثلاثة أشهر، وتمّ خلالها تجهيز أدنى الأشياء الضرورية من المستلزمات. كانت السيدة بريجيذا قد اقترحت أن تكون مدّة الخطوبة ستة أشهر، وهي مدّة معقولة... ستة أشهر؟ لخياطة بعض الفساتين وتفصيل الشراشف؟ سخف! فالنقيب لم يشأ حتى المناقشة... ولو عادت المسألة إليه فإنه كان سيتزوج في اليوم التالي من الخطوبة. أما دوريس ففي أمسية اليوم نفسه، لو أن المسألة تعود إليه وإليها.

واحتفاءً بطلب السيد، فإن جوستنيانو دوارتي دا روزا كان قد جاء معه بالقاضي أوشتاكيو ورئيس البلدية في زيارة إلى منزل محلة ماتريز. ودعت السيدة بريجيذا الأب سيريليو وبعض الصديقات الحميمات، بعد أن أعدّت المعجنات والفطائر والحلوى وقد تجمّع في المحلة فضوليون منهم العمّات والباقون من عامة الشعب. وعندما لاح طالب اليد يرتدي بدلة بيضاء وقبعة باناما وإلى جانبه القاضي ورئيس البلدية علت التمتّات.

وأمسك النقيب نفسه وألقى بنظرة هجومية. إنه رجل آخر هادئ، لم يرفع ذراعه ولا صوته، ونادى على ترتو باسم شيكو، ولم يحمل مسدساً، فقد اكتفى بالنظر، وكان ذلك كافياً. "يبدو أنهم لم يروا قط رجلاً يصبح خطيباً"، همس في أذن رئيس البلدية.

من أجل خاطر العائلة وإلا فإنه كان أعطى أمثلة لهؤلاء الرعاع. خلال مدة الخطوبة القصيرة وفي مناسبات عديدة، كان على وشك الابتداء بإعطاء أمثلة إلى أحد هؤلاء الرعاع، ولكنه كان يمسك نفسه عن ذلك مع آلام موجعة. وعندما كان يخرج في مشوار برفقة دوريس وأمها بريجيذا في طريقهم إلى

السينما أو الكنيسة، فإن أول انفجالات النقيب كان الانفجار الداخلي حين ينظر إليه أحد بفضول واضح. ولكنه مرة واحدة فقد عقله عندما بادلت إحدى الزوجات زوجها الحديث بصوت منخفض وهي تبدو غير راضية عن المشهد "ألم تعرفني قبل اليوم يا ابنة الزانية؟" صرخ وانطلق مهاجماً. ولو لم يكونا زوجاً وزوجة معوقة القدمين لجاء تبادل إطلاق النار بشعاً، وكانت السيدة بريجيда تتوسل: "هدئي نفسك يا نقيب". أما دوريس فبقيت صامته، غير منزعجة وهي تمسك بذراع الخطيب. الفضول، المناظرات، الآراء، نظرات التعجب وزيارات العمات غير المتوقعة إلى غرفة الخطوبة، وعبارات التفرغ والجمل الروحية، كل ذلك توقف دفعة واحدة وبصورة قطعية. ففي إحدى غزواتها الليلية، وبغية دس رسالة تحت باب القاضي، متعلقة بسلوك زوجته في العاصمة وعشاقها هناك، فإن الناصحة المنتصرة السيدة بونسيانا دي أزفيدو وكانت قد طلبت أن يرافقها شيكو الملقب بنصف الكعب وأحد العاملين في خدمة النقيب والمسؤول عن جباية الديون المتأخرة الذي بغية اغتصابها، شهر عليها خنجراً، وبصورة سريعة، ووخزها قليلاً برأس الخنجر المسنون... بعدها وجدت السيدة بونسيانا صعوبة في الوصول إلى البيت حيث أسلمت نفسها للقيء والنحيب. وفي نوبة انهيار عصبي لا مثيل له، انطوت على نفسها خلال أسبوع في بيتها، لا تضع قدمها في الشارع... وشاع الخبر، ثم تحول إلى مسألة ديون متأخرة، وبعدها خيم السلام على المدينة.

هكذا انقضت أشهر الخطوبة الثلاثة. كانت السيدة بريجيда تحاول أن توطد أواصر الثقة والصداقة مع صهر المستقبل دون أن تلقى الترحاب المطلوب. شخص قليل الشاعرية، فإن جوستينيانو دوارتي دا روزا، خلال زيارته اليومية بعد العشاء، كان يقصر الحديث على الأمور الجوهرية: موضوعات الزواج، والمصاريف التي لا بد منها. ما عدا ذلك، كان الخطيبان يبقيان في قاعة الجلوس، يجلسان على الأريكة، بصمت. كانت السيدة بريجيда تحاول أن تمد الحديث، ولكن المحاولة تبقى إضاعة للوقت ومسألة مستغفلة... ولا تواجهها إلا همهمات النقيب وصمت دوريس...

يبقى الخطيبان بالانتظار، صامتين، بانتظار أن تذهب السيدة بريجيда إلى المطبخ أو غرفة الطعام بحجة إعداد فنجان قهوة وتفتيشاً عن حلوى الموز أو الكرز،

المانجا أو الكاجو. ولا يكادان يريان ظهرها حتى يشتعلا بالقبل وتصبح أيديهما كثيرة الانشغال والحركة... السيدة بريجيда لم تعد تعرف إلى أين تذهب ومن أين تعود، وماذا تفعل، فهذه الأشهر الثلاثة أطول من أن تنقضي. لم تكن دوريس، الوقحة، تأتي لتتفقد أمها في حال تأخرت عن الرجوع، بل، كانت تفكر كيف لا تسمح الأم لهما بمزيد من الحركة؟ ألم يكونا مخطوبين، في النهاية؟

الأم المحتقنة غضباً، تزعق، تعالج، تصرخ، تربي ابنتها بأكبر درجة من العناية، تنشئها على المناقب والتعاليم الدينية، وتظن أنها تعرفها، تعرف كل شيء عنها، ولكنها لا تعرف شيئاً، على الإطلاق. لاحظت السيدة بريجيда كل ذلك، حزينة مبعدة نفسها إلى النافذة، ووجهها إلى الشارع، وظهرها للخطيبين.

وانقضى الوقت بين مسرات العائدات، والأشغال اليدوية، والقمصان واللباسات والمشتريات والإعدادات، وصنع الحلويات والكحول، والتحضير للحفلة، وبين الانشغالات الناتجة عن سمعة الخطيب المؤلمة، ومواجهة انفجار صهر المستقبل وسيد العنف. كانت السيدة بريجيда ترتعب من العنف، وخلال ذلك الوقت لم تحس دقيقة واحدة بنفسها منسجمة متوازنة؛ ومع كل ذلك، فإنها عندما علمت بقلق السيدة بونسيانا دي أزيديو، الذي كاد يقتلها، ورأس الخنجر المسنون مسدّد إلى رقبتها، فإنها لم تمسك نفسها عن الشعور بالكبرياء لشعورها بالسلطة. لقد استحقت الخبيثة، نفّاثة السم، ما تعرّضت له، وهذه أمثلة جيدة للعمّات الأخريات. الآن، الصديقات العطوفات، العمّات الغيورات، أصبحن يعرفن جميعاً أن عليهنّ ألا يتجاوزن الحدود، وإذا تجرّأن، فالآن، هكذا هو الواقع: من يتبدّل مع دوريس أو مع السيدة بريجيда فإنه يجازف بحياته... ومن شاء أن يجعل من نفسه حيواناً، فإنه يجد الطريقة في الحال. أمضت أمسية ساحرة، وسمعت على الأقل عشر روايات مختلفة عن الحدث، ولكن، مع الليل عادت ظلال الخوف المظلمة تسيطر عليها.

تلك الخطوبة كانت زجاجاً حساساً لا قيمة له، ومصنوعاً من مادة سريعة العطب. منشغلة الفكر بالصهر، بطريقته المكشوفة وغير الجادة، ومنشغلة، خصوصاً، بدوريس التي تستهلك نفسها بالانتظار: غضب، مزاج سيئ، ارتباك، استعجال وعدم اهتمام بأي شيء، فأين هي الصغيرة الخجول، طالبة مدرسة

الراهبات؟ دائماً تائهة الفكر وذات قابلية قليلة، ولكنها الآن لا تتذوق الطعام، وأصبحت حدقتها سوداوين، وظهرها منحنيًا وغدت أكثر هزالاً: عظام وجلد. قبل شهر واحد من الزواج، اعترتها الحمى وسعال متواصل. استدعت السيدة بريجيذا الطبيب دافيد، وبعد معاينة طويلة والسماعة الطبية على ظهر المريضة، ونقرات الأصابع على العظام الظاهرة "لنقل ثلاثاً وثلاثين"، فإن الطبيب نصح بالذهاب إلى العاصمة لإجراء فحوصات مختبرية، وربما لأخذ صور شعاعية، والأمثل هو تأجيل الزواج ريثما تعود دوريس قوية: "إنها ضعيفة جداً، أكثر من المعقول، والفحوصات لا بد منها"، استنتج الطبيب.

أحست السيدة بريجيذا بالعالم يدور بها:

- هل هي مريضة في صدرها، دكتور؟

- لا أظن، ولكنها قد تصاب في صدرها إذا استمرت هكذا، التغذية، الراحة،

الفحوصات، وتأجيل الزواج لعدة أشهر، مسائل لا بد منها.

أبقت السيدة بريجيذا، الملكة الأم، نفسها قوية: إن الأدوية التقليدية تخفض الحرارة، وبواسطتها قلّ السعال، وأصبح التحسن ملحوظاً لا جدال فيه؛ إذا فلتبق الفحوصات إلى يوم الذهاب الاضطراري إلى العاصمة في رحلة شهر العسل، ولم يعودوا للحديث في ذلك الموضوع؛ زجاج سريع العطب، مادة سريعة الانكسار، وخطوبة لا تستحق التقدير تدافع عنها السيدة بريجيذا، محافظة على نفسها وهي تبتلع القرف والاشمئزاز، والكثير الكثير من الخوف.

12

بالكعب العالي، وستان الحرير الطويل، والقبعة المزيّنة بالزهور الطبيعية، عبر الممرات التي تتعطر بالروائح الطبيعية، ومتألقة بالواجب الذي أدته، فإن السيدة بريجيذا كانت في يوم الزواج ذات نجم ساطع؛ أخيراً ها هو مرفأ الأمان والمرسى الأخير، لقد انتهت إلى الأبد تهديدات الشقاء، ولم تعد الأحوال مرضية وعلى قدر الحال. لقد أدت واجبها بوصفها أمّاً، وكانت تتلقّى التهاني بابتسامة مناسبة.

دوريس، بستان الزواج، وكثرة الزينة المأخوذة عن إحدى مجلات الريو، والنقيب ببدلة زرقاء من الكشمير، عريس جديد، والمدعوون بملابس الأحاد، ثم

الاحتفال بالزواج الذي لم يُتناول بالتعليق زواج أكثر منه في تاريخ كاجازيراس الشمالية، في محلة ماتريز، ثم الاحتفال الديني، مع دموع الأمومة وخطبة الأب سيريليو، أما عقد الزواج المدني ففي بيت العروس مع خطبة دافئة للقاضي أوشتاكيو فياليو غوميز نيتو، الشاعر فياليو نيتو، تضمّنت الخطبة صوراً صاعقة عن الحب، الشعور الإلهي الذي يحوّل العاصفة إلى سكّون، وينقل الجبال من أماكنها، ويضيء الظلمات.

وجاءت كل المدينة إلى محلة ماتريزا، بمن فيهم السيدة بونسيانا دي أزيديو، المصنوعة ثانية من القلق، والتهيئة لقبول الزعامات الجديدة: "إنهم قوم محترمون! واضح، لم يرَ أحد قبل اليوم عروساً جميلة كدوريس، صدّيقني، بريجيذا، إن النقيب وعائلته قوم محترمون، صدّيقني بريجيذا، يا صديقتي الحبيبة". راضية عن نفسها، فإن السيدة بريجيذا تنتهي إلى القبول بالتفخيم الذي تستحقه من العمّات.

الملكة الأم تترأس الاحتفال بانتباه، تدير الوليمة بمن حولها من نهمين، وتعطي الإماء والخدم الأوامر الدقيقة؛ وفجأة لاحظت مغادرة دوريس للصالة لتغير فستانها في غرفة النوم، تبعها النقيب، وأقفل الغرفة من الداخل عليهما، يا إلهي، هل يمكن؟ لماذا هذه العجلة؟ ألا يستطيعان الانتظار يوماً آخر، بعض الساعات، مسافة السفر في القطار، وصولاً إلى غرفة الفندق؟ لماذا هنا، على مرأى من كل المدعوّين تقريباً؟ على مرأى من المدعوّين، كل المدعوّين، أجل يا أماء. على مرأى من المدينة كلها إذا أمكن. على مرأى من الفتيات والصبايا، كلهنّ، ودون استثناء، على مرأى من هضبة العشق وراء المدرسة، واللواتي كنّ يتذوّقن نكهة القبل وغيرها، وعلى مرأى من اللواتي كنّ يفعلن الشيء نفسه في حدائق شاليه آل غويدس مع الأغنياء، ووراء شرفات المحلات التجارية مع المحاسبين في الأمسيات الفارغة. أجل على مرأى وأمام جميع اللواتي كنّ يأتين ليخبرنها عن القبل والعناق والتنهدات والزفرات والصدور المفتوحة والسراويل المحلولة، وجميع اللواتي كنّ يثرن حسداً ويذلّلنها بقولهن لها أخت متدرجة وأم رئيسة. لتأت كل نساء المدينة وليرين وليشتهين، المتزوجات منهنّ، الرصينات، والزانيات، والعذارى الغيبات الكثيرات المنتظرات في الحدائق وخلف البيوت، والعمّات في الشبايك والكنائس، والراهبات في الدير، والنساء العاميات من نزل غابي، والمستوحشات، فليأتين كلهنّ، دون أن تتخلف واحدة منهنّ.

اليدان مصلوبتان فوق الصدر الضعيف، العينان مضيئتان، الجسد النحيل في ارتجاف، ورغبة في الصراخ، أعلى الصراخ! دوستو، دعني أصرخ، لماذا تفرض عليّ الصمت يا حبيبي؟ تصرخ عالياً حتى تأتي النساء راكضات ويشاهدنها كما "كما خلقتني ربي" يشاهدن المسكينة دوريس وقربها رجل في الفراش متهيئ لامتلاكها، ومداعبتها لاهثاً من الرغبة. وفعل ما لا يفعله طالب مدرسة أو متسكع شاب في زقاق أومترو، فهو بعملية سريعة، يد في الأعلى، وأخرى في الأسفل ينتهي من اللعبة. ثم يستعجلها للركض لأن أحدهم يمكن أن يأتي إلى هنا. رجل وأي رجل! جوستينانو دوارتي دا روزا، النقيب جوستو، الفحل المعروف والمشهور والعالمي كله لدوريس، إنه زوجها. هل سمعتم؟ إنه زوجها، بعلمها، بشهادة موقعة من القاضي ووثيقة زواج من الكنيسة، زوج، عشيق، فحل، رجلها، وهو بكلية لها في الفراش، في الغرفة هنا قرب صالة الاستقبال، فتعالوا كلكم وانظروا...

13

اعذريني سيدتي، واسمحي بأن أقول لك، إن الشجار حتى الموت ليس مسألة صعبة، إذ إني قد حضرت كل المعارك الدامية. لقد رأيت الزنجي باسكوال دوسوسيغو صاحب كوخ أنغولي يواجه فرقة من الجنود، فقتل سبعة منهم، وكانت المهزلة. مع حمل السلاح، تصبح المسألة ذات أبعاد أعمق وأكثر اختلافاً. كل مسيحي مع المسدس بيده يصبح شقاوة. لقد انتهت أمة الجبناء: أضع فوهة النار في صدر قريبي فأترقى إلى رئيس عصابة من القتلة أو مفوض في الشرطة. أليس كذلك، يا ابن قومي الأبيض؟

ما أردتُ أن أراه لأؤمن، هو نبي قادر عليّ أن يواجه الرعب، أجل، سيدي، روحه من غير هذا العالم قهيم في عتمة الغابة، ليلاً، يقذف النار من منخريه وحادقتي عينيه، وجروحه تنزف دماً، ويكون ظهوره هو الظهور الأشدُّ إرغاباً. هل يعرف، صاحب السيادة، ما هو مدى أنياب الرجل الذئب؟ ومدى انغراس أسنانه؟ إنها شفرات حادة تقطع من بعيد.

في يوم من الأيام رحت أختصر الطريق عبر الغابة، وفي ظلمة الليل سمعت ضجيج البغل المقطوع الرأس. لن أكذب ولن أروي شعراً؛ كان يكفي أن ألقى

نظرة على الحيوان الذي من دون رأس حتى أصبح ناراً في مكاني وأفقد الحركة والكبرياء وأصرخ: "أنجديني يا أبتاه سيسرو، أنقذني من الشرير، آمين..." إليه أدين بالحياة، وإلى هذا الرمز الذي لا يقهر الذي أحمله في عنقي. مرّ الخبث عن بعد ثلاثمائة متر فلم يُبق ولم يزر وأصبح كل شيء يابساً، الغابة والعشب فقدم الحيوان والخشخشات كلها، غرسات القرع وزراعة القصب. انتبهي سيدتي: كفى كلاماً عن العنف، فالأمر يوسخ سمعة رجال كثيرين. كانت وحدها، تريزا باتيستا. رغبة في إنقاذ شقي مظلوم وسَيِّ الطالع وبهذا أردّ على تساؤل المتميز الراغب في معرفة ما إذا كانت الصبية تستحق كل هذه الشهرة في الشجاعة. لقد واجهت وقاتلت، وإذا كان الصديق لا يتمسك بكلامي، فيكفي أن يتحقق من الموجودين، إنها لم تهرب قط ولم تطلب العفو، ولم تستنجد بأحد لمساعدتها، وفي ساعة القدر لم يساعدها أحد، فوجدت نفسها وحيدة، ولم تكن في وحشة وحدها امرأة مهمة من الله ومن أهل الأرض، هكذا أقفلت جسدها: تريزا الجسد المقفل ضد الرصاص والخناجر وسموم الأفاعي.

لا أقول أكثر ولا أعقب، إذ إني سمعتهم يروون هذه الحالة الحقيقية مع التبديل الكبير في الفكرة، كل واحد يفكّ اللغز على طريقته، يصف ويضيف مغيراً في الأجزاء: وملحقات القواعد بالأحداث. أحد رابطي الأجزاء ببعضها، من الأغواس، متعجباً من هذه الصورة الكبيرة، وراغباً في تحليل الظاهرة بمنطقية وقاعدة، قال إن تريزا، عندما كانت حديثة السن، باعت روحها للشيطان، فصدّقه الكثيرون. ومحلّ آخر برازيلي يدعى لويس كامارا كاسكودور عندما رأى كل هذه القسوة والوحدة، وضع زهرة في يد تريزا. زهرة ترمز إلى الألم وتتطابق مع الحب.

أن يكون كل ذلك قد حدث، فإنّي لا أحمّل مسؤولية التأكيد، ولا أستنكر، فلا شيء يثير دهشتي، ولا أشكّ في شيء، ولا أناصر فريقاً ضد آخر، فأنا لست من هنا، لقد جئت من الخارج، ولكن انظر يا صاحب السيادة المتميز، كم أن العالم شكّاك، فتريزا التي عرفتها، وأستطيع أن أكون شاهداً عليها، الملقبة بتريزا القمر الجديد كانت ذات لون عسلي، وطبيعة إنسانية عسلية، وكانت تغني الأغاني الشعبية، وهي في كل ذاك الأكثر هدوءاً ومسألة وأنوثة ونعومة من كل نساء العالم.

لدى عودتها من النهر، صعدت السيدة بريجيда تتحدث وحيدة إلى نفسها، مُحاطة بالظلال المعتمة. وعند وسط المنحدر، وصل إليها الصراخ يقطع عليها حديثها الرتيب مع نفسها؛ ومع بعض الخطوات الأخرى، شاهدت الصغيرة تريزا مأخوذة من يديها ورجليها وهي تحاول التخلص من قبضة النقيب وترتو كاشوخوا.

اختبأت وراء شجرة المانجو، وضمت الطفلة التي تحملها إلى صدرها، ثم عادت تلتفت إلى السماء وتتمتم متضرعة، في يوم ما، يجب أن ينظر الله إلى مثل هذه القباحة ويرسل عقابه. فمتى تأتي نهاية عذابها؟

كان صراخ الصغيرة تريزا كأنما ينفجر في صدرها ويمزق قلبها هي: تمددت عيناهما، فأقفلتهما، وبدا الغضب على وجهها: لقد تغيرت السيدة بريجيда وتغير العالم كله من حولها. إن من يقود الفتاة من ذراعيها لم يعد جوستنيانو دوارتي دا روزا صهرها، المدعو جوستو، إنه الخنزير، الوحش الشيطاني، الخارج على المؤلف وغير المؤلف. يتغذى من الفتيات، يمتص دماءهن، يعض لحومهن الطرية، ويكسر عظامهن، الرجل الذئب يساعده مطيعاً ومنقياً عن الضحايا، يصطاد ويأتي بالصيد إلى الكلب الرئيسي من عصابة أولاد السوء. مشوة ومتوحش مفترس، وأبسط تسلية لدى الخنزير هو أن يفترس القاصرات؛ جبان يتمتع بأكل اللحم الطري. السيدة بريجيда في تلك الساعة تكهنت بالفكرة، وهذه الموهبة في التكهن كانت قد تكونت عندها منذ وقت طويل!

ما عدا الخنزير والرجل الذئب، هنالك أشخاص آخرون مُقلقون على قدم المساواة، ولا تستطيع السيدة بريجيда أن تحفظ أسماءهم في رأسها المرتبك، ولكن واحداً منهم ظهر لها في الغابة، إنها تاجرة لحوم المجازر، عرفتُها في الحال، إنها صاحبة المسلخ البشري: البغلة بلا رأس.

البغلة بلا رأس تستطيع أن تظهر بمظهر السيدة النبيلة، وأن تلعب دور العرابة، المجاملة، لكنها لن تخدع السيدة بريجيда بعد اليوم. عندما كانت قد ظهرت للمرة الأولى في مدخل المزرعة، بعد عدة أيام من دفن دوريس، فإن السيدة بريجيда كانت من استقبلها وكان النقيب قد خرج على جواده للتحدي في عراك الديوك...

وبينما تأخذ فتاة صغيرة غاية في الجمال من يدها، قدّمت السيدة غابي نفسها عرابة ووصية على الفتاة؛ إن السيد النقيب هو من أوصى على الفتاة لتساعد في تربية اليتيمة، وكان للسيدة غابي أساليب مميزة، ومحادثة مسلية، وتبدو مسنة ذات تربية مرهفة، وليس أفضل منها لزيارة تعزية، وقد عزّت فعلاً الأم المحزونة.

وبينما تتبادلان الأحاديث الحميمة تقريباً، لم تنتبها إلى عودة النقيب؛ في باب غرفة الاستقبال. مشيراً إليها بإصبعه الكبير، انفجر جوستنيانو دوارتي دا روزا بضحكات متواصلة تزداد وقعاً في كل مرة، ثم تحولت الضحكات المتقطعة إلى قهقهة طويلة، بينما يتلوّى بجويف بطنه. رجل قليل الضحك، ولكنه حين كان يضحك بتلك الطريقة، لم يكن يروق لأحد النظر إليه. كان يريد أن يتكلم فلا يستطيع وكانت الكلمات تدور ملتفة على الضحكة.

- صديقات، رفيقات، من كان يقول ذلك؟

وقفت السيدة غابي خجلة لا حول لها، ومعتذرة:

- "لقد انتهزتُ الفرصة لأقدم تعازي" واستأذنت بالانسحاب: "وداعاً أيتها السيدة المحترمة".

كانت مستعجلة لمغادرة الصالة، ممسكة بالفتاة من يدها، ولكن النقيب استوقفها:

- إلى أين تذهبين؟ تستطيعين أن تتكلمي هنا بالذات.

- هنا؟ أليس من الأفضل...

- هنا بالذات أفصحى.

- أجل، لقد أحضرت هذه المخلوقة، إنها تستطيع المساعدة في تربية

الصغيرة... نظرت إلى السيدة بريجيда بينما الأرملة تذرف الدموع الإلزامية.

وخفضت سمسارة الدعارة صوتها:

- إنها طيبة الطعم فيما يخصّ الشيء الأساسي.

أمسك النقيب نفسه عن الضحك بصعوبة، ولم تعد غابي تعرف إذا كان يجب أن تضحك أو أن تبكي شفقةً.

- اليوم سأستجلي الأمر، وإذا كانت تستحق العناء، فسأمرّ غداً من هناك وأدفع لك ما وعدتُك به.

- رجاء، نقيب، أعطني جزءاً، اليوم. إني محتاجة، يجب أن أدفع للتي جاءت بها، وقد جاءت من بعيد.

- أأدفع مالي سلفاً، لن تري هذا، لا اليوم ولا أبداً. هل نسيت أم أنك تريد أن أذكرك؟ أدفع غداً إذا كان هناك ما يجب أن أدفعه. وإذا رغبت، تستطيعين أن تأتي إلى هنا لتقبضي. وهكذا سترافقين حماتي قليلاً؛ مرافقة حماتي، آه! شيء مسل.

من جديد انطلق في الضحك، وغابي تتوسل:

- ادفع لي شيئاً اليوم، رجاء يا نقيب.

- تعالي غداً صباحاً. إذا كانت عذراء أدفع رزمة، وإذا لم تكن فأنصحك بالآ تظهرني هنا...

- لا أحمّل المسؤولية. لقد جاؤوا بها على أساس أنها عذراء وجئتُ بها في الحال إلى السيد النقيب. إن أفضل ما أتدبره آتي به إلى السيد.

- لا تتحملين المسؤولية، أليس كذلك؟ تريد أن تخدعيني مرة أخرى. ألم تفعلي؟ لماذا لم أدفع لك في المرة الماضية، أو تظنين أنني أبله؟ ولكن لا تضيعي الوقت بالانتظار. اخرجي من هنا.

- ادفع لي على الأقل المال الذي صرفته.

أدار لها النقيب ظهره، وهنا بالذات، أمام الحماة، سأل الفتاة:

- أما زلت عذراء. لا تكذبي وإلا ستنالين ما هو أسوأ من الكذب..

- لم أعد لا...

- عاد جوستنيانو وأخذ غابي من ذراعها ودفعها بقوة:

- إلى الخارج من هنا قبل أن أطيح بوجهك!...

- "بهدوء، يا نقيب، ما هذا؟" أخذت السيدة بريجيда تقول قبل أن تفهم

سبب ضحك الصهر وتألقه: "بهدوء!"

- لا تتدخل في ما لا يعنك، ابق في زاويتك حتى تبقي سعيدة.

مرة أخرى انطلقت الضحكات المتقطعة عندما سمع حماته تتحدّى سمسارة

الدعارة:

- اترك هذه الروح الجميلة بسلام...

كاد يموت ضحكاً!

- "هل تعرفين مَنْ هذه الروح الجميلة؟ ألا تعرفين؟ أجل ستعرفين الآن. ألم تسمعي قط عن غابي، بغلة الكاهن، التي كانت عشيقة الأب كابريسيو وبعد وفاته أسّست نزلاً للفتيات؟ وبمال القداسات..." آله تجويف بطنه وقد أخذه الضحك من فمه وحتى أحشائه:

- إلى هنا! إلهي! وكفى.

وهي تحبّ، أدركت غابي، بغلة الكاهن، الطريق العام، وذيلها بين فخذيها خاوية الوفاض، وأرادت الفتاة أن ترافقها إلا أن النقيب منعها:

- "أنت تبقين..." تأمل في جسدها بعين الخبير، لقد كانت تستحق العناء.

- منذ كم من الوقت؟

- منذ شهر يا سيد!

- فقط شهر واحد؟ لا تكذبي.

- فقط أيها السيد.

- ومن كان؟

- الأستاذ إميليانو صاحب المصنع.

كان يجب أن ينفجر ويحطّم أنف الداعرة القذرة اللصة لأنها حاولت أن تبيعه لحمًا من مسلخ آل غويدس. إنهم مزاحمون أقوياء، أغنياء، وعلى الأخص إميليانو غويدس. من المصنع لم تكن تأتي بغير الفتيات المفتضّات، ومن تلك الأنحاء لم يفز النقيب حتى اليوم بخاتم لعقده.

- أين صرّتك؟

- ليس معي شيء أيها السيد.

- اذهبي إلى هناك في الداخل...

ألقت السيدة بريجيда نظرة على صهرها، وأرادت أن تقول شيئاً ما، وأن تتلفّظ بكلمات قاسية تدينه، ولكن النقيب انطلق من جديد بضحكة: "روح جميلة، هنا روح جميلة"، وإصبعه يشير إلى حماته. وخرجت السيدة بريجيда وهي تنوح ودخلت الغابة عبر أبواب الجحيم.

لم يبقَ حتى أدنى بقايا الاحترام وكأنها أصبحت غير موجودة. في الليل، وبعد العشاء المظلم على ضوء الفوانيس، قام النقيب يفتش عن الفتاة الجديدة في الغرفة التي تنام فيها الطفلة.

"هيا حالاً"، إلى آخر الممر، عبر النور الأحمر الآتي من القنديل شاهدت بريجيذا الخنزير، المتماذي في غيّه، المسلوب الإرادة وكأنها تراه للمرة الأولى.

واعتمد على الفتاة؛ حتى قبل موت دوريس لم يكن سليم العقل؛ صياح النقيب كان يخترق الجدران: "إن ابن الزانية غويدس، انتهكها من الناحيتين".

خلال ذاك العام والنصف بعد وفاة دوريس ظهرت البغلة بلا رأس عدة مرات تأخذ بيدها فتاة في كل مرة، ولكن يكفي أن تلوح في الدرب أو على الطريق حتى تبيّن أنها السيدة بريجيذا. يكفي أن تراها حتى ينقلب العالم إلى جحيم تسكنه الشياطين. لماذا تدفع السيدة بريجيذا ثمن خطاياها وهي على قيد الحياة.

البغلة بلا رأس، صاحبة الكاهن، الناسكة، لا تخدع، وإن بقدر قليل، الخنزير الذي كانت نوبات غضبه تثر أوراق الشجر، وتقتل العصافير في الغابة:

- لا تجلبني لي لحوماً، لقد قلت لك إنني لا أكل فضلات الآخرين... سأطيح بوجهك يا كلبة...

صراخ وتنهدات، ودوي نوبات من الجنون، وصوت حزام الجلد، وزنجية تتوجع طيلة الليل، وفي عنق الخنزير عقد من الفتيات، والخاتم الأكبر فيه المصنوع من الذهب الصافي، هو لدوريس. رأس السيدة بريجيذا في كل مرة يزداد ثقلاً عن السابق، مرة في هذا العالم، ومرة أخرى في الجحيم، وأيهما أسوأ؟

أيسن هي تلك السيدة الجليلة بريجيذا، المرأة الأولى في حي العدل، أرملة الإنسان الشريف دكتور أوبالدو كورفيلو، والملكة الأم التي تترأس زواج ابنتها الوحيدة؟ انتفضت الأحداث في رأسها وذاكرتها الضعيفة... تخلّت عن الاهتمام بملابسها، وتحفظت بوضع الأردن على قبات قمصانها وستراتها، وارتدت الجوارب القديمة، وأهملت شعرها الأشعث، أصبحت تنسى الأحداث والتواريخ، وتخلط التفاصيل ببعضها، والذاكرة تذهب وتعود غير مستقرة، لا دقة فيها، تقضي أياماً وأياماً منهمكة في أفكارها، تتحدث وحيدة، وتهتم بحفيدها، وفجأة تغرقها حادثة

ما في اليأس. الوحوش يضطهدونها، وأمامها في المعاناة الجهنمية الخنزير الذي افترس ابنتها ويرمي إلى افتراس حفيدتها.

بقيت تعي كلياً الجريمة التي ارتكبتها. بلى، السيدة بريجيда كورفيلو التي ترى نفسها متساوية بغابي بغلة الكاهن لأنها غدت الخنزير، وترتو كاشوخو الرجل الذئب، لأنها جاءت بالصيد لجوستينانو دوارتي دا روزا. نقيب الخنازير والشياطين... قدّمت له ابنتها ليمتصّ دمها ويكسر عظامها ويأكل القليل من اللحم الذي كان عندها.

لا تحاولوا تبرئتها، رجاءً، معتبرين إياها مخدوعة وضحية الظروف، لأنها عدّت النقيب كائناً بشرياً وربطت بين الشبق المسعور إلى الفراش وبين قضايا الزواج النبيلة. إنها بحق تكفر عن خطاياها للجريمة التي ارتكبتها. كانت تعرف الحقيقة منذ البدء، لقد عرفت منذ نظرتها الأولى للنقيب، ولم تترك نفسها مخدوعة أبداً. لقد أمضت ليالي بيضاء وهي تفكر وعندها تماماً وسّعت موهبتها في التكهّن بالأفكار وقراءة المستقبل.

كانت تعرف، ولكنها لم ترد أن تعرف، وسكتت، ابتلعت السموم والأفاعي ونقرت بإصبعها على جرح السل في صدر دوريس، وبالإصبع الآخر نقرت على التراب، ومرّت بيد الغفران على أعمال النقيب السيئة... وقادت الابنة الفتية إلى الأعلى، إلى السرير الزوجي في غرفة النوم وبفستان الزواج... وكان الخنزير يأكلها ظهراً ومساءً ومع قهوة الصباح، وعلى كل وجبة يلتهم قطعة منها وعندما أصبحت حاملاً، كانت دوريس قد أصبحت صغيرة ونحيلة، ولم يبقَ في النهاية شيء ليدفن.

بسبب الجريمة البشعة، فإن الله القادر على كل شيء قد عاقبها بالجحيم خلال حياتها، في بيت صهرها اللعين، وفي حقول الأراضي المهملة. حيث الأجراء يتضورون جوعاً. وعراكات الديوك الهراتية ذات المناقير الحديدية، والأزلام ذوو الخناجر والبنادق، والفتيات الصغيرات، صغيرات وباكرات، وأحياناً القليل من النساء الناضجات، وكم منهن بعد موت دوريس؟ لقد أضاعت السيدة بريجيда العدد ولا يفيد الجمع بين نساء المزرعة لأنه يقتحم الكثيرات في بيت المدينة، خلف المخزن. تنسى أشياء كثيرة، وتذكر بعض الأشياء الأخرى. تنسى ارتباك وجنون دوريس. وإذا

ما تزال السيدة بريجيда معترضة على الزواج في قرارة نفسها، فإن دوريس مجنونة بكبريائها وجهلها، دخلت بإرادتها إلى غرفة النوم آخذة العريس من يده ساخرة ومتحدية. لقد انتزعت من ذاكرتها رؤية دوريس في غرفة العرس، إذ كانت دوريس قد أضاعت المحافظة الأخلاقية وانطلقت يدها ولسانها في التسكع، واستعادت السيدة بريجيда صورة الابنة، الطالبة البريئة التي لا تعرف التلاعب، ذات العينين المطرقتين، الموعودة للمسيح، في يدها المحفظة الصغيرة والصلاة تتردد على لسانها، ذات الدعوة الإلهية لأن تكون راهبة. إنها ضحية طموح الأم ورفاهية النقيب...

ونزعت أيضاً من عينيها وذاكرتها صورة دوريس الزوجة الموهلة الذليلة العبداء عند قدمي الزوج. لقد دام الزواج وفوران دم دوريس عشرة أشهر، واستغرقت معاناة المرض عشرة أيام سريعة، ولكنها كانت عشرة أجيال من الإذلال والأزمات العنيفة للسيدة بريجيда.

لم تكن، ولن يكون بعدها، زوجة أكثر وفاءً وصبراً. لقد تجاوزت دوريس تلك الشهور العشرة بصورة شاعرية، وهي تمنح مجاناً للنقيب. لقد عادت من شهر العسل بقلب مليء وبتوقد رافقها إلى أن ماتت، إنه الوقت الكافي للإنتاج. لقد تجاوزت مع أقل رغبة للحبيب السيد زوجها، تتوسل إليه ليمنحها نظرة، حركة، كلمة، وممارسة جنسية. كانت تمتلئ بالاعتزاز لأن تأخذ بذراع جوستنيانو خلال المرات المحدودات إلى السينما أو الزيارات القليلة إلى المدينة. لقد أضعفت السيدة بريجيда ذاكرتها لشدة ما حاولت أن تنتزع منها مشاهد غير لائقة: مشهد دوريس فوق حوض الماء الآسن وهي تغسل، ليلاً، قدمي الخنزير وتقبلهما، تقبلهما، إصبعاً إصبعاً، ومن مرة لأخرى، وبنعمة خالصة يمنحها إياها، وكان النقيب يضع رجله في وجهها، وهنا كانت العظام تقع على الأرض... فتمسك دموعها، وتجهد في الابتسام، فهذه ليست أكثر من مزحة مسلية... هكذا كانت مداعبات النقيب.

أي مقدار من الإذلال، أيها السيد! ولكن دوريس كانت تتمتع بتلك الحياة، ولم تكن تريد سوى أن تسام مع الزوج، وأن تستقبله بين رجلها، فيا لهذه الألاعيب المحزنة.

منذ البدء، مهتمة بالمشاريع والمطالبات، كانت السيدة بريجيда تحاول أن تتحدث مع صهرها بحثاً عن تفاهم قلبي عميق، على طاولة العشاء عرضت

اقتراحات متواضعة، مسكناً في المدينة، في محلة ماتريز، في بيت هو ملكهم فلا مصاريف إيجار، إنه نمط حياة جدير بعائلة ذات اعتبار كبير، وبكلفة قليلة؛ قسم كبير من المواد يأتي من المخزن، أما الخدم والخياطات فهم قوم يعملون مقابل طعامهم، ولاستقبال الأصدقاء وأصحاب الأراضي الكبار فإن السيدة بريجيда كانت تعرف كيف تقوم بشراء الصنف الضروري وبالكلفة القليلة. وضع النقيب الشوكة والسكين ولحق أصابعه منظفاً عنها بقايا الفاصولياء:

- أهذا كل شيء؟ أليس هناك شيء آخر؟

كلمة واحدة بعد لم تكن ضرورية لتوضيح أفكاره، وسقطت المحادثة في الترددات. بعد عدة أيام، عرفت الأرملة بتأجير البيت إلى أحد أتباع آل غويدس صاحب معمل تقطير الكاشاسا. لم تكن السيدة بريجيда التي كانت ما تزال مثقلة بالأحلام وبإمكانية التنفيذ قد فقدت الأمل، فعبرت إلى الضفة الأخرى، عبرت من الحوار إلى النقاش، ومن العروض إلى الالتزامات، أن يتصرف في بيتها دون أن يستشيرها، فيا للجرأة! فأين سيسكنون عندما يعودون إلى المدينة، أو أن الصهر يفكر في أن السيدة بريجيда ستنتهي في هذه الأحراج؟ والاكتفاء بغرف الأموال غير المنقولة في المخزن، وبحماية المحاسبين والأزلام؟ مع من يفكر النقيب أنه يتعامل؟ إنها ليست أياً كان.

وانفتح النقاش ثم أقفل في الحال وإلى الأبد. كانت السيدة بريجيда تعرف وهي في أعنف لحظات الانفعال وفي أوج الشعور بالانكسار كم كان النقيب قادراً على الانفجار: "براز!"

بقيت السيدة بريجيда فاعرة فاهها ورافعة يدها في الهواء. وكان النقيب يُطلق عليها من عينيه الناعستين: "أي بيت؟ ولا نصف بيت. فمن الذي فكّ الرهن في المصرف؟ كثيرة الغرور، امرأة من الأشراف بل كيس فارغ من الشرف، هذا ما أنت يا سيدة، وليس عندك مكان تُدفنين فيه. إذا كنت تجدين هنا مبيتاً وطعاماً فاشكري ربك لأنك أم دوريس. إذا كنت تريد أن تذهبي الآن، وتعاني الجوع في المدينة وتعيشي في مأوى الدولة، فالباب مفتوح، فاخرجي قبل الأوان، ولن يشاق إليك أحد، وإذا كنت تريد أن تمكثي هنا، وأن تعيشي على نفقتي، إذا ضعي لسانك في (...) ولا ترفعي صوتك بعد اليوم".

في هذه الساعة المحتدمة، أين هي دوريس لتساندها وتعطيها القوة والنضال؟ ولكن على العكس تماماً، فإن دوريس كانت دائماً إلى جانب الزوج ضد الأم نفسها:

- السيدة الوالدة أصبحت لا تطاق، جوستو صبور معها فوق الحد. عنده الكثير من المشاكل ليحلّها، بينما الوالدة تثيره. حباً بالله أوقفني هذا ودعينا نعيش بسلام. في أحد الأيام، وقد سمعتها تشتكي إلى إحدى زائرات المدينة، فقد وقفت دوريس في وجهها غاضبة:

- توقفي عن كل هذا ودفعة واحدة يا أماه، إذا كنت ترغبين في الحياة هنا، إنك تعيشين بالفضل وتبرّمين.

تخطّم تاج الملكة: نبيلة البراز، انقطع عرق من عروق عقلها. مكتبة، هزيلة انقطعت عن الكلام مع الصهر محتفظة بما تبقى من كرامة ومع ابتها دوريس إلا في الحالات الملحة، وراحت تتكلم وحيدة في الحقول.

أما فيما يتعلق بدوريس فقد أضاعت هذه الأخيرة كل بقايا الكرامة، والطهارة، واحترام الذات، وأصبحت ألعوبة بين يدي الزوج الذي عاد بكلّيته إلى عاداته وعقليته السابقة.

غالباً ما كان النقيب يصل من المدينة عند الفجر، وفي العرق الذي تجفّفه دوريس عن صدره كانت تشمّ رائحة النساء، والعطور الرخيصة، والروائح القوية، والبصمات الواضحة. ولم يخطر قط في بال جوستنيانو دوارتي دا روزا أن يخفي تلك الآثار مرة واحدة عن الزوجة. وهو في هذه الحال، يكاد يصل قادماً من عند الأخرى من غرفة المخزن الداخلية أو من نزل غابي، فقد كان يتعاطاها كفاكهة بعد وجبة طعام، وكانت النحيلة في تلك المناسبات تنهّد: آه! لم يكن من امرأة ساقطة ندّاً لها.

مرات أخرى كان يحدث أن يكون متعباً جداً إلى حدّ لا يغسل رجليه، فيرفض المياه الآسنة والحنان، "اذهبي إلى الجحيم واتركيني بسلام"، ويروح يغطّ في النوم. وكانت دوريس وهي المصدومة تقضي الليل باكية، تجهش بالبكاء بصوت منخفض حتى لا تزعجه. من يدري، قد يأكلها صباحاً عندما يستيقظ. وبالا انتظار فإنها عبدة عند رجليه.

لم تكن تغامر قط بالمطالبة بشيء، ولم تفتح فمها لشكوى واحدة حتى عندما كان النقيب التافه الغضوب يسيء معاملتها بالشتائم والتعنيف. ومن كانت تتأكل من الداخل فهي السيدة بريجيда التي دمّرت المرارة الدائمة عقلها. وفي إحدى المرات ولأن دوريس تأخرت في جلب سترته التي طلبها بصرخات حيوانية، وضع جوستنيانو يده على وجهها، على مرأى الأم:

- ألم تسمعي أنادي، يا زحافة؟

بكت دوريس في الزوايا، ولكنها لم ترد أن تصغي إلى كلام أمها التي اقترحت في ثورة انفعالها الأول أن تغادر البيت وتذهب حالاً... "مسألة تحمل على الجنون، إنه قطعة جماد بلا أهمية، أنا المذنبه". لقد تأخرت كثيراً، بين هذه وتلك، كانت المرأة النبيلة بريجيда تتصالح مع السيدة بريجيда الراجحة العقل.

بهذه الطريقة أو بأخرى، كذا أو كذلك، فقد عرفت دوريس كيف تحافظ على اهتمام النقيب، وربما لأن النيران المشتعلة في صدر المسلولة التي تستهلك نفسها كانت تجعل منها امرأة لا تضاهيها في الجنس امرأة أخرى. وكان النقيب مؤهلاً في هذه المادة واختصاصياً، وقبل يومين من المرض والموت كان ما يزال يمارس الحب معها بالطرق الحيوانية المحض، وكانت دوريس تمنح بلهفة اللقاء الأول نفسها في غرفة العرس في بيت محلة ماتريز عندما راحت تبدل فستان الزواج.

إنه حب زوجين، عميق ومؤلم بحسب زعم أطروحة الأستاذ القاضي كبير الجمجمة!

أقدم السل خبياً خلال أسبوع الحمل الأخير، وأصبح السعال الخفيف السابق سعالاً متواصلاً بعد الزواج. وازدادت أخاديد الوجه وانحناءة الكتفين، ولكنها فقط كانت تتقيأ الدم عند دنو أيام المخاض. أما الدكتور دافيد الذي جيء به في الشاحنة لإجراء المعالجة، فقد أشار إلى معانيته السابقة: "كنت قد أنذرت. كان يجب تأجيل الزواج وإجراء الفحوصات. الآن، أصبح الأمر متأخراً، ولم يعد الشفاء ممكناً وإن بأعجوبة".

وهي ترى الابنة تنزف حتى الموت، وتبصق الدم، فإن عروفاً أخرى انقطعت في دماغ السيدة بريجيда. فنسيت الأحداث الخطيرة والكلمات السيئة والكراهة، وأطفأت الصور الفاضحة وإذلال الزوجة والخطيبة لها. ووجدت من

جديد في ذاكرتها المعطوبة صورة الطالبة الصغيرة في مدرسة الراهبات، دوريس الطاهرة ذات العينين المطرقتين والصليب في عنقها، بعيدة عن السوء وفي طريق الرهبنة. ومع الابنة المستقرة من جديد في ذاكرتها رمزاً للقداسة، انعطفت إلى الجحيم، حيث تنفذ عقوبة جريمتها. ومن البراعة بقي لها ما هو كاف للعناية بالحفيدة.

الولادة والموت في الليلة الواحدة، وفي الساعة نفسها تقريباً. المولودة الجديدة، قوية وسمينة، جاءت إلى الدنيا على يدي القابلة نوكنيا، ولكن دوريس سقطت بين يدي الدكتور دافيد الذي تأخر في الوصول ليصدر شهادة الوفاة.

بماذا أحسّ النقيب بعدها؟ ذهب إلى المدينة، وبعد أن أوصل الدكتور دافيد إلى منزله، توجه بشاحنة إلى منزل غابي حيث أربعة ساهرين متأخرين كانوا يشربون الكونياك بصحبة فالديس الفتاة الخجولة من عملها. وبعد اتفاق مع أحد الأربعة على الليلة الكاملة كانت الفتاة تنتظر بفارغ الصبر، معاناة النعاس، انتهاء الكاشاسا التي يشربها الزبائن المسترسلون في مناقشة حول كرة القدم. في الشرفة، كان أرودا الفتى، وقواد غابي، يقف معانياً النعاس هو الآخر. ودخل النقيب عبر الباب الداخلي دون أن يقول كلمة، فأخذ زجاجة الكونياك وأفرغها في جوفه.

استيقظ أرودا غاضباً وقصد الشجار ولكنه عندما لمح جوستنيانو ابتلع رجولته. اكتفى النقيب بالفتاة فالديسي مع عدم وجود أفضل منها. وإذا كان قد حصل عليها بالقوة في الاتفاق السابق، فإنها قاومت الدعوة "اذهب من هنا"! فوجه لها صفتين وشدها من شعرها الطويل وأقفل عليها الباب، ومن هناك خرج عند الصباح الباكر.

في مركز المدينة كان خبر موت دوريس مع تفاصيله المذهلة قد جعل العمّات يعقدن اجتماعاً في جلسة داخل الكنيسة، فشاهدن النقيب جوستنيانو يجتاز الشارع آتياً من نواحي كياداغوا حيث العاهرات يمارسن أعمالهن.. كان مثاقلاً، ضخماً، متباطئاً، نجساً، حيواناً.

وإذا ماتت الابنة ودفنت، تخيّلت السيدة بريجيда أنها ستكون الوريثة، وبجراحة علوية حرّكت صوتها، وطالبت بالجرد، فضحك النقيب، الجرد كان قد أوكل إلى

القاضي الأكبر، وبخدمة جليلة ترك لها حق الاحتفاظ بالغرفة الداخلية والاهتمام بالطفلة المولودة.

ومع توالي الأيام وتعاقب الفتيات، بعد عام ونصف من دفن دوريس، أصبحت مهمة، هزيلة، وعلى قسط كبير من الجنون، بقيت السيدة بريجيда تعيش بين وحوش العمل الإلزامي: الخنزير، والرجل الذئب، والبغلة بلا رأس، يضطهدها شعور مؤلم بالذنب، كونها منفذة الجريمة التي لا تغتفر ضد ابنتها البريئة الضعيفة وهي هنا تنفذ العقوبة، عقوبة الجحيم وهي على قيد الحياة.

بعد ذلك وعندما تكون قد نفذت العقوبة كاملة، وقاست العذاب الذي أملاه الله، فإن ملاك الثأر يهبط من السماوات، وفي أحاديث لا نهاية لها مع نفسها تراها تحتفل بيوم التحرير. ملاك من السماء، القديس جورجيس، القديس ميخائيل، أو أب بائس بسبب الابنة المفضوحة، أو شريك سرق بتزوير الحساب، أو مربسي ديوك هراتية خاسر في الرهانات، أو مستلزم، أو شقي ما، ومن يدري فقد يكون الجبان الرجل الذئب هو من سيقتل الخنزير. وعندما تتطهر الخطيئة، فإن السيدة بريجيда ستنتلق حرة وغنية حتى توفر لحفيدها مصيرها بحكم الجذور الواحدة. آه! ليكن هذا قريباً. وقبل أن تصبح الطفلة فتاة في نظر النقيب، وتحوّل إلى خاتم في عقد عنقه.

ومن وراء شجرة المانجا، وهي ترتدي الأطمار والطفلة مشدودة إلى صدرها، وشعرها يتطاير، فإن السيدة بريجيда أضاعت المنظر، أخذ الوحشان الفتاة، الوحشان المهتاجان، ينشران الحركة في المكان، على النبات، في الحرج، في البيت، في السهل كله.

لقد حملا الجسد إلى داخل الغرفة وأقفلا الباب من الخارج، وبصق النقيب على كفي يديه وفركهما الواحدة بالأخرى.

وضع النقيب المفتاح في المزلاج، فتح باب الغرفة ودخل، غير مكان المفتاح ثم أقفل الباب من الداخل ووضع الفانوس أرضاً. ملمت تريزا جسدها، ووقفت مسندة ظهرها إلى الحائط في الركن البعيد، حذرة وشفاتها نصف منفتحتين، بدا جوستينيانو دوارتي دا روزا على غير عجلة من أمره، خلع سترته وعلقها على مسمار في الحائط بين سوط الجلد والرسم الزيتي للبشارة بولادة المسيح، وخلع سرواله وبدأ يفك رباط حذائه، واستغنى في تلك الليلة عن الماء الفاتر ليغسل رجليه

فغداً تغسلهما له المملوكة الجديدة في حوض الماء قبل أن تبدأ مهمتها. وظهر بسر والداه الداخلي الطويل وقميصه المفكوك الأزرار، وتجويف بطنه المنتفخ، والخواتم في أصابعه، والعقد في عنقه، وأبدى اهتماماً بالطعام الملقى هناك، فرفعه وتفحص الصحن وطاسة الماء التي كانت الطباخة العجوز غوغا قد وضعتها هناك. بقي الصحن غير ملموس ولكن تم شرب جزء من الماء، وعبر الضوء القليل راقب البضاعة: غالية الثمن، كونتو وخمسائة كروزيرو بالإضافة إلى قيمة المأخوذ من المخزن، ولكنه لا يندم، مال موظف جيداً: جميلة الوجه، ذات جسد أهيء سيكون أجمل عندما تكبر وتصبح امرأة في نصفها الأعلى وعند رديها. ومع ذلك، في رأي جوستنيانو دوارتي دا روزا لا شيء يضاهي حصرم الصغيرات كهذه، حين تكون ذات طعم حليب الأمومة على حد قول فراندا، فراندا الخداعة السافلة، ولكنها ذات طاقة عقلية. إذ كانت تعرف الرغبات والشهوات وتستعمل كلمات ملهبة وتستورد غريبات إلى أراكاجو: أجنبيات خبيرات، يفعلن كل شيء، إلا أن هذا ليس الوقت للتفكير في فراندا، ولتذهب بصحبها إلى الجحيم ومعها محافظ الولاية زبوناً وحامياً. لقد قالت فيليبا الحقيقة: لتجد واحدة أجمل من هذه. فقط تستطيع أن تلقاها إذا ذهبت إلى العاصمة، تعني باهيا، وحتى في أراكاجو لا يمكن الحصول على كمال كهذا، فاللون نحاسي والشعر أسود يترسل على الظهر والفخذان عاليان؛ إنها لوحة شبيهة بتلك اللوحات المصنوعة للقديسات، وهنا على الحائط واحدة منها، إنها تستحق أكثر من هذا السعر، لقد كلفت الكثير من المال ولكنها ليست غالية، ومن الضروري التمييز. مرّ النقيب بلسانه بين شفتيه متلمظاً، وخفض الضوء الملقى على الأرض، واشتدّ الظلام "تمددي هنا" أعطى أمره. "تمددي هنا". كرّر. ومدّ ذراعيه ليحبسها، فظلت الصغيرة ملتصقة بجانب الحائط، فضحك جوستنيانو ضحكة قصيرة. "تريدان أن تعشي، هل أنت خائفة من هذا؟ إذا أردت، هيا بنا! أقدر الملاعبة قبل الممارسة. اخذمي نفسك قليلاً ليكون دمك حاراً..". والنقيب يفضل هذا، فاللواتي ينطلقن في العمل دون مقاومة لا يبقى رغباً فيهن ما عدا دوريس، ولكنها كانت زوجته، وكيف استطاعت دوريس أن تقاوم في غرفة النوم قرب صالة الاستقبال؟ لم تستطع أن تصرخ، ابتلعت الخوف واشتعل النار في الداخل، حتى في بيت عزّاب فراندا وسط الفرنسيات والأرجنتينيات

والبولونيات لم يكن من امرأة نداء لها في الرغبة والقدرة. والنقيب يجب أن يقتحم. أن يحسّ بالمقاومة والخوف، وكلما ازداد الخوف كان ذلك أفضل. أمر مشير أن يرى الخوف في أعين السافلات، فذلك مثل كأس الكحول يجدد المزاج. "إذا أردت أن تصرخي، تستطيعين أن تصرخي: ليس في البيت سوى الخادمة والعجوز والطفلة، ولا أحد ينزعج من التنهدات والصراخ. هيا بنا، يا حلوتي". وخطا النقيب خطوة، ففرت تريزا منه، فتلقّت ضربة على أنفها. ضحك النقيب من جديد. إنها الساعة الأكيدة للبكاء، البكاء يدفع القلب ويزيد دم جوستنيانو اندفاعاً. وبدلاً من أن تبكي ردّت تريزا برفسة من قدمها: إنها مدربة على عراك الفتيان، فأصابت العظم في قصبة ساق الرجل العارية وجرح ظفر إصبع قدمها الجلد. خدش وسيلان دم: كان دم تريزا قد انهمر أولاً. انحنى النقيب ليرى بينما يضع قبضة يده على كتف الصغيرة بكل قوته لتلقينها الدرس. إنها مقاتلة عنيدة وذات تجربة في شجار الأولاد وقد تعلّمت أن المحارب لا يبكي وليس عليها أن تبكي. ولكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها عن الصراخ، فالصلف الفظ قد فكّ كتفها. "هل أحببت هذا؟ هل تعلّمت؟ هل أنت راضية أو أنك تريدين المزيد؟ تمّدي، يا شيطانة، تمّدي قبل أن أدجنك". وبدأ النقيب يغلي رغبة، لقد ساعدت المقاومة في إشعال شهوته، ونشّطت دمه وفتحت شهوته. "تمّدي!" بدلاً من أن تطيع فإن الشقية تحاول أن تصيبه مرة أخرى، فلاحقها النقيب بلا حياء، "سترين!" الجلف يحقن صدره وتريزا تحاول أن تملّص، وتفتح فمها لتتنفس لاهثة، جوستنيانو دوارتي دا روزا يستفيد من الفرصة ويتمكّن أخيراً من أخذها بين ذراعيه. شدّها إلى صدره يقبلها من عنقها ووجهها، يحاول أن يصل إلى فمها. ولكي يتمكّن منها بصورة أفضل خفف من الشدة، فتملّصت تريزا، هربت، ووضعت أظافرها في وجهه السمين الذي أمامها. آه! كادت تعمي النقيب الشجاع. من هو الخائف حضرة النقيب؟ ليس في عيني تريزا غير الكراهية، هذا ولا شيء آخر. "يا ابنة الزانية سترين ما يعجبك، لقد انتهى اللعب". تقدّم جوستنيانو فهربت الصغيرة، الظلال المعتمة تتمايل، الدخان يتصاعد، أحمر، خانقاً، يغزو الأنوف، فجئن غضباً، وأصاب النقيب صدر تريزا بضربة سُمعت كأنها ضربة على طبل. فقدت تريزا التوازن فذهبت إلى ما بين الحائط والفراش، تقطّب وجه

جوستنيانو، ابنة الزانية السافلة تريد أن تفقأ عينيه، فانحنى فوق الصغيرة لكنها تابعت التملص، فمدّ ذراعه ليمسك بالفانوس ويطفئه! أحسّ النقيب بلهب النار في ملابسه عند أعلى خصتيه. "أيتها المجرمة، القاتلة! دعي هذه الفتيلة حالاً. ستحرقين البيت وعندها أقتلك". تريزا واقفة، في يدها الفانوس يعلو ويتقدّم، خادعها النقيب مرة أخرى يحاول إنقاذ وجهه. أسندت ظهرها إلى الحائط وحركت الضوء لتثبت العدو في مكانه. وهي تفعل ذلك، برز الوجه الناضج بالعرق والانحراف. أين هو الخوف. الخوف القاتل لدى كل الأخريات؟ كراهية وحسب. من الضروري تعليمها الخوف. واحترام العشيق والسيد الذي اشتراها بصورة مشروعة. إنه سيدها وكيف يصبح العالم إذا لم يعد فيه احترام؟ وفجأة حقن النقيب نفسه وقفز بقوة وصوته يدوي فتمكن من إمساكها، غرقت الغرفة في العتمة وضاعت تريزا بين الظلمات. بالنسبة إلى جوستنيانو دوارقي دا روزا هو يوم مضيء، وحشر الصغيرة عند الحائط، وعيناها مليئتان بالكراهية، والمشعل في يدها غير ذي فائدة، من الضروري تربيتها وتعليمها الخوف. لقد جاءت الساعة وها هي الأمثلة الأولى. وتلقّت تريزا على وجهها يده المفتوحة، كم من المرات؟ لا تدري! وكذلك النقيب لا يدري هو الآخر. أمسك بالفانوس فحاولت الصغيرة أن تحمي وجهها بذراعها فلم يفد الأمر كثيراً. يد جوستنيانو دوارقي دا روزا ثقيلة، وهو يضرب براحة اليد وقفها والخواتم في أصابعه. وسال الدم من تريزا أولاً، نقطة، لا قيمة لها... فاكتمى النقيب ضرباً، فالدم من فم الصغيرة وسّخ يده. "تعلمي أن تحترميني، أيتها الملعونة، تعلمي أن تعطيني، وعندما أقول تمّددتي فيجب أن تتمدّدي. إني سأعلّمك الخوف، وستخافين كثيراً إلى أن تصبحي قادرة على أن تتكهني برغباتي كسائر الأخريات بل وأسرع منهن". توقف عن الضرب، لقد كانت أمثلة جيدة، ولكن لماذا لا تبكي ابنة الزانية هذه؟ حاولت تريزا أن تبتعد عنه فلم تتمكن، فأمسك بها النقيب ولوى ذراعها. أرخت الصغيرة أسنانها وشفتيها، فقد تجاوزها الألم وكاد الرجل يكسر ذراعها، لا يجب أن تبكي فالمقاتل لا يبكي في ساعة الموت. شعاع قمر يتسرّب عبر فتحة النافذة الصغيرة في أعلى الباب، شعاع ضئيل ليشهد على القساوة. مع الألم في ذراعها المتلوية، استسلمت تريزا ووقعت متمدّدة على ظهرها، "هل تعلّمت أيتها المتدللة؟" وبينما هو واقف أمام الصغيرة

الملقاة أرضاً، ينضح عرقاً، ومصاباً في رجله ومجروحاً في وجهه كان يضحك مظهرأ، فقبل أن يبدأ بالشتائم تأتي ضحكته لتندثر بعقاب القدر. رفع ذراع تريزا، إنها منهارة ولم تعد تشكل خطراً... في ثورة غضبه انتهى النقيب إلى الضرب من أجل الضرب، وأخذ يسيء المعاملة من أجل إساءة المعاملة، وفي أثناء شعوره بالإذلال نسي الشيء الرئيسي، فعوضاً عن أن يتهيج، أنهى الصراع بالتلاشي وبيست كل أجزائه. شعاع القمر يصل فوق الفراش المكشوف ليثير ردّة فعل في رغبة جوستينانو دوارتي دا روزا. أغلق عينيه الناعستين ونزع لباسه، وحرك حبات العنب فوق الصغيرة: "انظري يا صغيرتي، كل هذا لك، هيا بنا، انزعي فستانك بسرعة. انزعي فستانك، إني أعطيك أمراً". مدّت تريزا يدها إلى سحاب الفستان فرافق النقيب الحركة بخشوع، لقد سيطر على المتمرّدة الشيطانية "أسرعي، هيا، انزعي الفستان"، هكذا مطيعة، تعطيه المتعة: "أسرعي، هيا بنا"، ومرة واحدة أسندت تريزا يدها إلى الأرض، وقفزت قفزة فتى استعاد أنفاسه في العراق، وانحشرت من جديد في ركن الحائط. فقدّ النقيب عقله: "سأعلمك يا كلبة!" تقدّم خطوة فتلقّى قدم تريزا بخصيتيه، وجع لا أقسى منه ولا أسوأ، فأطلق صرخة مخيفة، وراح يدور ويلتفّ على نفسه. تمكّنت تريزا من الوصول إلى الباب، وطرقت عليه بقبضتيها، طلبت النجدة: "ساعدوني حياً بالله إنه يريد أن يقتلني". هنا بالذات تلقت الجلدة الأولى من سوط الجلد الخام سوط توصية، سبعة حبال من جلد الثور، مسرومة، ومصنوعة وفق الطلب، وفي كل حبل عشر عقد. جُنّ جنونه، بغضب، ومع الألم الذي ينال منه، لم يعد النقيب يفكر بغير الضرب. أصاب السوط تريزا على فخذيها، على بطنها، على صدرها، على كتفيها، على ظهرها، على قفاها، على حاشيتها، على وجهها وكل جلدة تترك آثار الحبال السبعة، وكل حبل يترك آثار العقدات الكاملة خطأ واضحاً وجرحاً لكل عقدة، ودماً منحصراً تحت الجلد أو سائلاً فوقه. الجلد سكين مسنونة والجلدات تصفر في الهواء.. كان النقيب، مجهداً وأعمى كرهاً يكرّ كما يفعل أبداً، حتى الزنجية أوندينا لم تتلقّ هذا القدر من الضرب. دافعت تريزا عن وجهها بيديها، بجروحها المفتوحة، ومع ذلك لا يجب أن تبكي. ولكن الصراخ والدموع كانت تقفز وتدور خارجة على إرادتها، ولا يكفي أن تريد: تريزا تتلوّى ألماً: "إلى هنا وحسب! حياً بالله!" من الغرفة المجاورة تصل

تضمر عات بريجيدا، غير ذات فائدة، لا تهدئ النقيب ولا تعزي الصغيرة ولا توقظ الجيران. النقيب الذي لا يتعب: تريزا تلتف على نفسها نصف مهتة، الفستان ملطخ بالدم، والنقيب يستمر بالضرب. "هل تعلّمت يا كلبة؟ مع النقيب جوستو لا أحد يتجرأ ومن يتجرأ يلقَ جزاءه... تعلّمي الخوف والطاعة". وإذا ما يزال السوط بيده، انحنى جوستنيانو دوارقي دا روزا ولمس الجسد المنتفخ ولحم الصغيرة... فضلة متبقية من الرغبة عادت تتحرّك في جزئه الأسفل المتوجع، فمكث فوقها وفرك وأشاح الحياء وأبعد الكبرياء. أحسّ بالصقيع في جسده، إنه بقية ألم ليست بذات أهمية وهي لن تمنع النقيب عن أن يبدأ باستعادة الألف وخمسمائة كروزيرو... الصغيرة تتحرّك وتجهش في البكاء يائسة. سحب جوستو الفستان إلى أسفل فشوهه الدم على القماش وعلى اللحم المفرور. لمس النهدين، ليسا بنهدين بعد، إنهما شكلان يولدان، أما الردفان فيكادان يأخذان شكليهما. إنها بداية امرأة ليس إلا، صغيرة، وحصرم حامض، ولكنها كانت تلائم ذوق النقيب وأحسن منها لا يمكن أن يكون. إنها كلب آت من الجحيم ولكنها لوحة رائعة. أكلة ملك. وعذرية طرية كهذه لم ير قط...، ولكن أبعد من الوجد، وسورة الانفعال، فإن النقيب عاد يتقد شهوة متأهبا بسلاح فعال للاقتحام، وسيبدأ المهمة. ولكن البائسة ضغطت على فخذيها وأقفلت حاشيتها فكيف تجد طريقة أو فرارا تنفذه؟ حاول النقيب أن يبعدهما، ولكن ليس من قوة إنسانية بقادرة على أن تفعل؛ مرة أخرى يتحرّك السوط في يد جوستنيانو دوارقي دا روزا ويعقبه نباح الكلب في ليل المملّات. وقف وأخذ يضرب بيأس، يضرب ليقتل، حتى يكون مطاعاً عندما يأمر ويرغب. دون طاعة ماذا يحلّ بالعالم؟ زعيق الوجد يضع في الغابة حيث تلجأ السيدة بريجيدا ومعها حفيدتها بين يديها. يتوقف النقيب عن الضرب عندما تتوقف تريزا عن الصراخ، وهي مرثمة ككتلة من اللحم. يرتاح قليلاً، يضع السوط أرضاً، يفتح فخذيها ويمسّ السر الخفي. وتحاول الصغيرة الحركة وصفعتان على وجهها تنتهيان بإحضاعها... النقيب يجب أن يأكلهنّ حصرماً برائحة وطعم الحليب... ولكن طعم تريزا دم..

عندما تمكّنت خيوط ضوء الفجر الأول من أن تتسلّل عبر فتحة النافذة الضيقة، دارت تريزا على نفسها، نصف محطّمة، والألم في كل مفصل من كيانها، وسحبت نفسها إلى حافة الفراش الموضوع أرضاً، وشربت على دفعتين بقية الماء في

إناء الشرب. وبجهد تمكنت من الجلوس، وشخير النقيب يجعلها ترتعد خوفاً. لم تكن تفكر في شيء، فقط كانت تحسّ بالكراهية. حتى الآن كانت دائماً مبتسمة ولعوباً متجاوبة مع الآخرين ومبتهجة، صديقة الجميع، وطفلة ناعمة.. ولكنها في تلك الليلة تعلّمت الكره، كل الكره ودفعة واحدة. أما الخوف فلم تتعلّمه بعد..

خرجت من الفراش زحفاً، وذهبت إلى الإناء المخصص لقضاء الحاجات داخل الغرفة تتلوّى من الألم وهي تجلس... واستيقظ النقيب على خرير البول. يريدّها متيقظة لا قطعة ميتة من اللحم الهشّ. يريد أن يراها تتلقّى العملية وجسدها يتلوّى مقاومة ووجعاً. وأن يسمعها تبوّل كان أمراً يثيره جنسياً حتى الجنون.

- تمّدي، سنقوم بإشعال فتيل آخر.

سحب تريزا من رجلها وألقاها إلى جانبه، عضّ شفيتها وكانت تمتزج الرغبة بالألم الموجه المكظوم. لا تقفلي فخذيّك إذا كنت لا تريدين أن تموتي متفككة. ولكن الشقية لم تقفل فخذيها وفمها وحسب، فقد فعلت أسوأ من ذلك: وضعت يدها في العقد وبشدة قوية في السلسلة الذهبية، تناثرت الخواتم في الغرفة، وكل خاتم هو رمز إلى فتاة أكلها حصرمها. "اللعة!" وبقفزة واحدة وقف النقيب ناسياً رغباته، وأحسّ بألم في قلبه وكل كيانه الشاذ. لم يكن في هذا العالم شخص، حيوان، أو شيء ذو قيمة وتقدير عند جوستنيانو دوارتي دا روزا، لا طفله الصغيرة ولا الديك الهراقي كلوديونور بطل الصنف الياباني النقي ولا المسدس الألماني، لا شيء عنده من كل ذلك أثمن من عقد الخواتم في عنقه، عقد العذراوات... في الليلة نفسها، الخواتم والعقد معاً: "آه! شيطانة! شيطانة، ابنة زانية، لم تتعلّمي بعد، وستتعلّمين. ستجمعين الخواتم واحداً واحداً!" وبينما السوط في يده أعمى من الغضب والانزعاج وبمظهر يثير الرعب، هوى بالضرب من جديد.

يكرّ بعنف ليروّض حيواناً ويجعل الغرف الأخرى في البيت تهتزّ خوفاً، ولم ينقص شيء سوى أن يقتلها. نباح الكلاب كان يجيب في المسافات البعيدة عن تأوهات تريزا: "خذي، يا كلبة، لتتعلّمي". تركها مغشياً عليها ولكن من جمع الخواتم كان النقيب نفسه.

عندما انتهى من جمعها، أحسّ النقيب نفسه ممتعضاً، تؤلمه ذراعه، وكادت يده تقطع من مفصلها، لم يضرب قط أحداً بهذه الصورة، وكان يعجبه أن يضرب

لتمضية الوقت، ولكنه في هذه المرة تطاول أكثر من المعقول؛ هذا الحيوان الشرس الذي أمامه صعب الترويض؛ ضربها ليكسر إرادتها فلم يكسر إلا قواها الجسدية. وما زال النقيب مشرقاً، لم يستسلم للتعب بعد، فحل قوي طيلة الحياة، وغطى الصغيرة بجسده، الصغيرة ذات الرأس العنيد، وها هي عذرية أخرى من الذهب تضاف إلى العقد.

نزل عن تريزا وتركها ملقاة في الزاوية كما تلقى الديوك الهراتية المهزومة... يحسّ بألم في جهازه. آه! ابنة الزانية متمرّدة، ولكن حتى الحديد ما كان ليحتمل هذا.

16

الخوف المطبوع على وجه الفتيات في ساعة الاستحقاق ينقر على رغبته الجنسية نقراً، ويعطيه بعداً أعمق وطعماً جنسياً نادراً. أن يراهن مرتعبات، ميتات خوفاً فإنها لذّة عنده لا تضاهي، وأن يكون مجبراً على امتلاكهن عنوة وبقوة السوط فهذه متعة من عند الآلهة. الخوف هو أبو الطاعة. ولكن تريزا هذه جديدة. آه! لا يرى النقيب في عينيها الخوف، وبقدر ما ضربها في الليلة الأولى فإنه لم يعرف منها غير صورة الغضب والتمرد والكراهية. أما الخوف فلا إشارة إليه.

جوستنيانو دوارتي دا روزا كما كان يعرفه الجميع، ويحترمونه، كان رياضياً، مربّي ديوك هراتية، وملك المراهنات. وقد راهن هذه المرة مع نفسه، فهو قد استطاع أن يفك مزاليج تريزا المقفلة، ويحصل على عذرية جديدة لمجموعته من الفتيات، فقد يذهب إلى أراكاجو إلى محل صياغة أبدون كارتبادو ليوصي على خاتم ذكر تذكاري عندما يكون قد دجّن الصغيرة أمام رجله، وجعلها منتبهة لأوامره ونزواته، مستسلمة ومتوسلة ومستعدة لأن تفتح جسدها عند أقل إشارة منه وأن تطلب المزيد. وسيعلمها أن تفعل كل شيء بمقدار ما تفعله نساء بيت عزّاب فراندا الأجنبية. لقد تعلّمت دوريس في لحظة وأصبحت خبيرة ووفية، ومن المؤسف أنها كانت هزيلة وبشعة... ولكن تريزا هي طبعة قديسة، لقد دفع النقيب ضعف سعرها من المال الكثير ورقة ورقة، وعليه أيضاً أن يضربها عشر مرات في اليوم، وبمقدارها ليلاً... يجب أن يراها ترتعد أمامه، وعندئذ يذهب إلى أراكاجو، إلى صياغة أبدون، ليوصي على خاتم الذهب.

خلال الأيام الأولى، بالإضافة إلى محاولة الهرب، لم يحصل سوى أن النقيب بقي في فراشه، بسبب الإصابة في إحدى خصيتيه نتيجة رفسة تريزا؛ لقد كانت السافلة مستعلة، وكادت أن تعوق النقيب طيلة حياته الباقية. مرتين في اليوم كانت الطباخة العجوز غوغا تفتح الباب وتدخل الغرفة آتية بصحن من الفاصولياء، مع الطحين واللحم المجفف، وبصفيحة ماء الشرب، وتأخذ المبولة لتفرغها. في الصباح الأول، عندما لاحت غوغا وهي تجلب وجبة الغداء، فإن تريزا لم تتحرك من الفراش، إذ كانت محطمة وخائفة القوى. وفي عتمة الغرفة نظرت غوغا إلى الدم ممتعة، وتناولت السوط، هزت رأسها وتكلمت من دون توقف:

- ماذا يفيد أن تعاندي النقيب. من الأفضل أن ترضي رغبته في الحال، ولماذا بحق الشيطان تريد أن تحافظي على "العشرينات الثلاث" من القذارة؟ بماذا تفيدك؟ إنك صغيرة جداً ومتطورة حديثة. إنهم رعا ع وسفلة وتضعين نفسك في أزمة معهم. من الأفضل أن تتجاوبي مع رغباته... لقد تعرضت للضرب المبرح وسمعتك تصرخين... هل تظنين أن أحداً سيأتي للتحدة؟ من؟ العجوز المجنونة؟ إنك أكثر جنوناً منها... أوقفي هذه الضجة فنحن نحتاج إلى النوم وليس ممكناً أن نسمع الصراخ طيلة الليل. ماذا فعلت للنقيب حتى تركه طريح الفراش؟ هل أنت مجنونة؟ إنك لا تستطيعين أن تخرجي من الغرفة وهذه هي أوامره.

"لا تستطيعين الخروج من الغرفة هذه هي أوامره"، سري إذا كنت أستطيع أو لا. وعند العصر، عندما عادت الزنجية فإن تريزا لم تمنحها حتى فرصة الدخول، وانزلقت مسن الباب المفتوح تلفت نفسها بشرشف وخرجت تدرك العالم.. في السبالة، رأتها السيدة بريجيда تمر: يا للنفس المعذبة، إنها بقية لحم من وجبة النقيب وفي يوم سيرسل الله عقابه. لقد استحققت بريجيда الجحيم في حياتها...

تمكسوا من العثور على الهاربة عند منتصف الليل في قفر بعيد. النقيب محكوم عليه بالسراحة الكاملة في الفراش. الجرح المشوه في حوض الوجه ممرغ بنوع من الشاي المصنوع مسن أوراق الميخار الملصقة عليه. دواء فعّال لشفاء التهاب العضلات. ومن القسراش أمر بإرسال البعثة لإلقاء القبض عليها بإمرة ترتو كاشوخو، وتوزع المسلحون في الغابة، ووجدوها راعي الحيوانات ماركينيو وهي

نائمة داخل عليقة وكان الأمر الواضح الذي أعطاه النقيب هو عدم الإساءة إليها. إذ إنه لا يسمح لأحد بأن يمسّ امرأته، وحده فقط من كان يحق له بتعنيفها.

جاء بها إليه وهي ملتفة بالشرشف. النقيب في جلوس نصفي، وظهره على الوسائد، تناول مسطرة كبيرة، وثقيلة، من خشب البلوط، قديمة من زمن العبودية، ومسطرة من هذه النوعية الممتازة لم تعد تصنع في هذه الأيام. الأزام كتفوا تريزا، وناولها النقيب أربع دزينات من قطع الحلوى: دزيتان في كل يد. لا يجب أن تبكي، ولكنها من النصف وإلى النهاية كانت تبكي بصوت منخفض وتحنق شهقاتها. مرة أخرى أقفلوا عليها الغرفة الضيقة.

من تلك اللحظة فصاعداً عندما تفتح غوغا الباب، كان أحد الأتباع يقف حارساً في الممر. في اليوم التالي وإذا بلغ الجوع منها مبلغاً لم تستطع تريزا أن تتحمل فنظفت الصحن مما فيه. لا يجب أن تبكي، ولكنها بكّت. لا يجب أن تأكل، ولكنها أكلت، مسجونة في الغرفة، لم تكن تفكر في غير الهرب.

وقد شفيت حصيتها، فإن النقيب عاد إلى رغبات الفراش. وفي أحد الأيام، ظهرت غوغا في غير الساعات المألوفة وجاء معها أحد الأتباع بالحوض وجرة الماء. أعطت العجوز تريزا قطعة من الصابون: إنها لك لتستحمي. فقط عندما انتهت من الحمام، عادت غوغا لتعلق منشقة في الحائط بين صورة مريم العذراء مع الملاك جبريل وسوط الحبال السبعة الذي ما زال ملطّخاً بالدم، وحينذاك فهمت تريزا سبب الحمام. وأعطتها غوغا التوصية:

- لقد طلب أن ترتدي ملابسك، إنه عمل لطيف. اعملي على أن لا تصرخي فالناس يريدون أن يناموا.

قميص مخرّم ومزخرف بالكشاكش، وقطعة ناعمة من فستان العرس اصفرّت مع الزمن. لماذا لا ترتدين ملابسك؟ أجمونة أنت؟

ضوء المصباح الباهت ينير سحنة النقيب الذي ينزع سرواله ولباسه، وتجنّباً للشكوك سحب العقد من عنقه، ثم ذهب يعلقه فوق الصورة على الحائط. "لماذا لم ترتدي القميص التي أرسلتها لك أيتها العاقبة، لماذا احتقرت هديتي؟"

وابتداً الضرب من جديد، الضرب والصراخ أصبحت مسألة رتيبة، فقط السيدة بريجيда ما زالت تهرب إلى الغابة تنادي على العدالة الإلهية. العقاب للبائس، العقاب

لفتاة الفضائح، لماذا كل هذا العناد والصراخ، هل تكون هذه العامية أحسن من دوريس حتى تجعل نفسها هذا الاعتداد وهذه الصعوبة! إنه الجحيم في الحياة. عنيداً ومنهجياً، وضع النقيب معالجته للأمر عدة مرات على المحك، ستنتهي تريزا بتعلم الخوف والاحترام، وتعلم الطاعة سيدة العالم؛ حتى الحديد يتلوى مع وقع السوط اللين على الجلد، لم تستغرق هذا الوقت واحدة أخرى من المسجلات في مفكرته، ولكن التجربة كانت قد علمت الشعب داخل البيت أن ينام على الزعيق والصياح. "ما هذا الزعيق الحيواني؟" أراد أحد الفضوليين المتعجبين، أن يعرف. "لا ليس شيئاً أيها السيد، إنها مجنونة، يربّيها النقيب". تحمّلت تريزا شهرين تقريباً.. كل مرة نال منها النقيب كانت بالإرغام: كل تطور جديد استغرق وقتاً من العنف... يأمر النقيب: (...)، وكانت الفاتنة تقفل فمها، فيأخذ بضربها بعروة الحزام على أعلى تنفّسها: "افتحي يا كلبة!" إلى أن تفتح. كل معرفة جديدة كانت تستغرق ليالي وليالي من التلقين، وكان ضرورياً أن يستعمل اليد المفتوحة ويضعها على وجهها. وأن يهوى بقبضته على صدرها، وبالحزام والمسطرة والسوط... واستمر الأمر هكذا إلى أن خارت قوى تريزا وأصبحت تفهم وتنفّذ... بآثار الجراح النازة والدم المحصور وزعيق الألم بدأت تريزا باتيستا مهامها في الفراش. "أديري ظهرك" كان يأمر النقيب، "ابقي على الأربعة"، ولكي يرى ظهرها وهي على الأربعة، كان جوستنيانو دوارتي دا روزا يستهلك جلد سوطه الخام، سوط الحبال السبعة، وكل حبل بعشر عقد.

كان النقيب جوستو عنيداً. لقد راهن مع نفسه: كان على تريزا أن تتعلّم الخوف والاحترام والطاعة المقدسة، وانتهت بتعلمها، فيا للفخر!

17

سابقاً، حاولت الهرب مرة ثانية. اكتشفت أن تأهب التابع الحارس في الممر خلال ذهاب وإياب غوغا قد توقف. ومتأكداً، فإن النقيب بعد شهرين من التدريب المكثف عدّ تريزا مدجّنة بما فيه الكفاية وخاضعة لإرادته.

وإذ لاحظت غياب الحارس، فرّت تريزا مرة ثانية، وهي ترتدي قميص دوريس. خفيفة السعي كحيوان غابة. لم تبعد كثيراً: فقد ركض على صراخ

غوغا تابعان والنقيب، وأحاطوا بها حول البيت، وعادوا بها. هذه المرة أمر النقيب بربطها بالحبال، فبقيت بلا حركة، ومن جديد ملقاة في الغرفة.

بعد نصف ساعة، ظهر جوستينيانو دوارتي دا روزا في الباب، وضحك ضحكته الأكيدة: "عقوبة القدر". كان يحمل بيده مكوى من الحديد مليئاً بالجمر الوهاج. رفعه إلى أعلى فم الصغيرة وفتح من الخلف وتطايرت الشظايا، ولمعت في الداخل جمرات الفحم المشتعلة. وضع إصبعه على لسانه، وفي عمق مكوى الحديد استقرت بصقته لتبتخر.

جحظت عينا تريزا، انقبض قلبها وخانتها الشجاعة، وعرفت لون الخوف وطعمه. أرجفت له صوتها وبكت:

- أقسم بالله إنني لن أهرب، فقط أريد أن أستحم إني مليئة وسخاً.
استسلمت دون أن تسترحم، صامتة؛ متضرعة ولم تتأفف بالشتائم. عندما كان ما يزال لها قوة كانت تقاوم ولا تستسلم. بكت وأدركت بالتأكيد، ولكنها لم تطلب العفو أبداً مع كل ذلك، أما الآن فقد انتهت:

- لا تحرقني، لا تفعل هذا، حباً بالله، لن أهرب أبداً بعد اليوم، أطلب العفو، افعل كل ما تريد، أطلب العفو، رحمة بأمك، لا تفعل هذا، سامحني سامحني!

ابتسم النقيب وهو يلاحظ الخوف في عينيها وفي صوتها، أخيراً لكل شيء في العالم ثمنه ووقته.

كانت الصغيرة مربوطة بالحبال ومعلقة من أسفل إلى أعلى... أحسن جوستينيانو دوارتي دا روزا نفسه في الفراش أمام أخمص قدمي تريزا العاريتين، فوضع المكوى المتقد على أخمص القدم الأولى ثم على الأخمص الثاني.. ففاحت رائحة اللحم المحروق، وشواء الجلد، والزعيق، ثم ساد صمت الموت.

بعد أن أحرقها بالمكوى، فإن النقيب راح يفكّها من الحبال؛ لم يعد من حاجة إلى الحبال وإلى تأهب الحارس في الممر وإلى إقفال الباب... فصل دراسي كامل في الخوف والاحترام، وانتهت تريزا إلى الطاعة.. افتحي فمك، فتفتح بسرعة، وعلى الأربعة فتكون في الحال. وحدها في هذا العالم ومعها الخوف، وها هي تريزا باتيستا خاتم في عقد النقيب.

بين المزرعة والمخزن أقامت تريزا طيلة أكثر من سنتين مع النقيب جوستو بالمصاحبة، كيف؟ لنقل محظية؟ إنها عشيقة النقيب الجديدة على اللسان العام، ولكن هل كانت حقاً كذلك؟ إن شرط المصاحبة أو الحظوة، أو الفتاة المعاشرة داخل البيت، أو الصديقة أو العشيقة، يقتضي وجود تفاهم عميق بينها وبين حامليها، وجملة واجبات متبادلة، وحقوق وملذات ومكاسب. وحتى تكون المعاشرة كاملة، فإن المحظية تشترط نفقات وبدل الجهود في التفاهم المتبادل.. المعاشرة بالمعنى الكامل والعاقل للكلمة هي مسألة رائعة كما هي حال بلينيا صاحبة كبير القضاة. فالقاضي كان قد أقام لعشيقته بيتاً في شارع متكتم تحيط به حديقة من شجر المانجا والكرز، وفيه كاراج وملجأ، ويحتوي على أثاث بسيط ولكنه ناعم، بالإضافة إلى الستائر والسجاد، وكان يهبها بالإضافة إلى الضروري للباس والتنزه، بعض المال الإضافي للنفقات الصغيرة. وكانت بلينيا سبب غيرة حتى النساء المتزوجات عندما كانت بكامل أناقتها وبعينيها المنخفضتين تتبعها الموظفة وهي تذهب إلى الخياطة.. كان عندها موظفة للخدمات المنزلية ومرافقتها إلى دور الخياطة، وإلى طبيب الأسنان والدكاكين والسينما، أجل، لأن شرف العشيقات سريع العطب ويحتاج إلى غطاء دائم، ومقابل هذه المكاسب، كانت بلينيا تلزم نفسها بأن تقدم للعشيق الرفيع الشأن أعمق مشاعر شخصها الكريم، وأن تضاعف الدلال والاهتمام وأن تكون له رفيقة وحبيرة بالإضافة إلى الإخلاص الذي هو واجب أساسي ورئيسي. وخرق مادة أو أخرى في هذه المواثيق للحياة الكريمة ينتج عن النقص في التكوين البشري، وها هي بلينيا نموذج المصاحبة المثالية، ولكنها في الوقت نفسه عاجزة عن الإخلاص وهو عجز فطري في شخصها اللطيف.. القاضي يدرك ذلك ويتغاضى عنه إذ كان يُغمض عينيه عن زيارات قريب عشيقته، أيام الجلسات، احتراماً للروابط العائلية. إن زوجته في باهيا تمتلك أقرباء من الذكور رفيعي الشأن ومرحين، فكيف يمنع بلينيا عن استضافة قريب لها شهم وهو وحيد عائلته خلال الساعات الطويلة التي يوزع خلالها العدالة في قاعة المحكمة؟ إنه رجل مقتنع، ورحابة الصدر لا بد منها في بعض الحالات لنجاح صداقة كاملة غير منقوصة.

ليس عشق تريزا عشقاً بالمعنى المعروف، وإن تكن قد انتهت إلى النوم في الفراش الزوجي، تارة في البيت الريفي وأخرى في الفراش القديم في بيت المدينة، وعلى الرغم من الرفاهية التي رفعتها إلى مرتبة أعلى من الأخريات، وأعطتها مستوى خاصاً في حلقة الخادמות والمحميات والداعرات اللواتي تعاقبن في حياة جوستينيانو دوارتي دا روزا. رفاهية ذات قيمة بلا شك، فبالإضافة إلى بعض الفساتين المستعملة من خزانة دوريس، حذاء ومرآة ومشط وقطعة زينة مشتراة من بائع متجول.. في الأشياء الأخرى، خادمة بمستوى الأخريات في العمل من الصباح حتى الليل، أولاً في بيت المزرعة، ثم على شرفة المخزن عندما اكتشف جوستينيانو براعتها في معرفة جداول الحساب والكتابة بالحروف الواضحة، خادمة ومحظية، فإنه أبقى تريزا صاحبة الامتياز الأول في الفراش خلال سنتين وثلاثة أشهر. كان عندها خصوم ومزاحمت. وقد بقين جميعهن في الغرف الخلفية ولم تترق واحدة من فراش القاع إلى الفراش ذي الشراشف النظيفة.

وامرأة واحدة لم تبق مفضلة طيلة ذاك الوقت الطويل عند النقيب، صديق التغيير، ووفود من الفتيات (صغيرات، كاهبات، ناضجات) عشن في بيت النقيب جوستينيانو، وبتصرفه. إن اهتمام النقيب الذي يبدأ قوياً كان يتبدد خلال أيام، أو أسابيع وقلمما يدوم أكثر من شهر.. وبعدها كانت التعيينات ينصرفن إلى العالم البعيد وأغلبهن كنَّ يذهبن إلى كياداغوا المكان المعروف للنساء العاميات؛ وقليلات من اللواتي كنَّ أكثر موهبة في الشكل، كنَّ يذهبن إلى أراكاجو أو باهيا حيث أسواق النساء أكبر وأوسع حركة. خلال عشرين سنة ونيف جهّز النقيب بضاعة متعددة ومختلفة الجودة لمراكز الاستهلاك.

في رأي المراقب القضائي إيرتون أمورين وباللغة العلمية، فإن ترجمة هذه العادة في التغيير تسمى عجزاً. "عجزاً جنسياً؟" المدّعي العام إيامينونداس تريفو يعترض ثائراً على تفسيرات إيرتون الماورائية، والذي كانت تسليته المفضلة تقوم على استغلال نية زملائه الحسنة وهو يلقي بالسخافات.

- ها أنت تأتي من جديد باختراعاتك.. من أجل نساء بهذا العدد فإنه يحتاج

إلى طاقة جحش جنسية.

تفسير كهذا، أجل:

- لا تقل لي دكتور الشهير إنك لم تقرأ قط مارانيون.

كان المراقب القضائي يحب الجلسات وهو يعرض القرارات الجديدة: "غريغوريو مارانيون عالم إسباني من جامعة مدريد، هو من يؤكد ويثبت يا حضرة القاضي أنه يقدر ما يكون عدد النساء أكبر، وتغيير الإناث متعددًا، يكون الشخص أكبر طاقة".

- "مارانيون؟" تعجب ماركوس ليموس مسؤول الوثائق في المحكمة: "كنت

أعرف النظرية ولكني كنت أعتقد أن صاحبها هو فرويد. مارانيون؟ هل أنت متأكد؟"

- الكتاب عندي في المكتبة إذا رغبت في التأكد.

- إنه مثقاب نساء يأكل ويبدل، يبدل ويأكل، إلى درجة أنني أنا نفسي

أرغب في أن أكون كذلك. الرجل لا يفعل شيئاً سوى افتضاض العذاري وأنت تصنّفه عاجزاً فأين تجد سخفاً كهذا؟ المدعي العام لا يقتنع.

رفع إيرتون ذراعيه إلى السماء: "أيتها الجهالة القديسة! لهذا بالذات يا عزيزي

أستاذ السنوات الخمس من التخصص في الكلية، لهذا بالذات: إن الفرد يحتاج إلى

تغيير المرأة مع كل خطوة ليثير نفسه ويحافظ على طاقته. هل تعرف أنت يا ممثل

التيابة العامة العزيز، من كان أكبر عاجز جنسي في التاريخ؟ دون جوان، العشيق

يتفوق، عشيق الألف امرأة.. ومثقاب آخر ثقوب كازانوفاً".

- أما هذه فلا إيرتون، ليست كذلك وإنها لمفارقة.

لكن القاضي غير الراغب في الظهور بمظهر الأقل ثقافة، أكد وجود مارانيون

والنظرية الانحرافية، وإن كانت حقيقة أم لا، فإن النظرية طُرحت موضوع نقاش.

نقاش مسهب، وفيما يتعلق بفرويد، فإن الموضوع كان مختلفاً: "نظرية الأحلام

والعقد، وقصة ليوناردو دافنشي تلك..".

- ليوناردو دافنشي، الرسام؟ كان الدكتور إيمينونداس يعرفه من الكلمات

المتقطعة.

- هل كان عاجزاً جنسياً هو الآخر؟

- عاجزاً، لا، كان منحرفاً.

موضوع مناقشات؛ عاجزاً كان أو مثقاباً، فإن النقيب مع وفرة الفتيات، ومن

حين لآخر كان يتمسك بواحدة منهن، على أن تكون صغيرة، جديدة، وما زالت

في لباس الطفولة.

- هذا للاستشهاد من جديد بفراندا العالمة، والتي هي بموضوعات الجنس ذات سلطة وخبرة تضاهي بهما فرويد ومارانيون ولكنها أقل تعقيداً منهما. مباشرة إلى فراش الزواج دليل على إعجاب النقيب، إنه امتياز وشرف بالإضافة إلى هدية فستان رخيص وزوج أحذية وأداة زينة وقطعة قماش؛ ومع هذا تنتهي علاقة الرفاهية مع المفضلات؛ النقيب لم يتعود رمي المال بعيداً، أما المصروفات والهدايا الثمينة فكان يقدمها صاحب السمو القاضي لأنه من السهل أن يكون الشخص مبدراً لأموال الآخرين.

لا كلمة عطف بل سحنة متجهمة، لا شكر أو ملاطفة، فقط السيطرة والرغبة في الامتلاك. وكان يحدث له، في الساعات الأكثر جنوناً، أن يشير إلى تريزا بحركة "إلى الفراش بسرعة!" يرفع تنورتها، يقضي حاجته غير القابلة للتأجيل ويأمرها بالرجوع إلى العمل.

هذا الشبق العنيف لم يكن يمنعه عن النوم مع أخريات. وقد أتاحت له الفرصة العناية بضيفتين، في الوقت نفسه، في المزرعة والمدينة، غير تريزا، وكان يزورهن جميعاً في اليوم نفسه... عجل لتكثير النسل، جواد في إسطنبول، ومع ذلك فإن إيرتون أمورين بالمزاح الذي لا يمكن تجاوزه كان يتهم النقيب بالعجز الجنسي، وتأکید سمو القاضي لا يقنع المدعي العام بأن مارانيون ذاك ليس أكثر من بهيم.

عندما جاءت تريزا باتيستا من بيت المزرعة إلى بيت المخزن، وجلست إلى طاولة صغيرة خُصصت لعمل الحسابات، كان فضوليون يمرّون في الشارع ليتمازحوا فيما بينهم: "إن صديقة النقيب الجديدة تستحق العناء!" في المدينة، كانت فتيات جوستينانو دوارتي دا روزا موضع هجوم دائم في مجلس العمّات، وفي اجتماعات المثقفين الأدبية. واحدة منهن، ماريا روماو، سببت ضجة كبيرة عندما شوهدت علناً وهي تعطي ذراعها إلى النقيب على رصيف السينما لافتة الانتباه بردفيها السمينين وصدرها العارم؛ بعد ذلك شاع خبر الحساب المفتوح لتلك الخلاسية في دكان إينوك على أنه حدث نادر، وجدير بأن يكون نبأ في صحف العاصمة.. طويلة سمينة ذات شعر مسبل، كأنها تمثال، العجيب أنها لم تكن صغيرة جديدة، وكانت قد أكملت التاسعة عشرة من عمرها عندما نالها النقيب جوستو من عائلة جيء بها من أعالي منطقة الداخل باتجاه مزارع الجنوب. وكان زميل

لجوستنيانو دوارتي دا روزا، وباللقب نفسه، النقيب نيكو سوبرينيو، يتاجر بسكان الداخل، يجمعهم في موسم الجفاف لبيعهم في غوباس، إنه عمل مزدهر ذو أرباح أكيدة. وبينما يمرّ من هناك، ونظراً لحاجته إلى مؤن، قايز ماريا روماو بلحم مجفّف، وفاصولياء ودقيق وسكّر أسمر... كانت ماريا روماو الأولى والأخيرة التي نالت حق الحساب المفتوح في الدكان. دائرة قديرة تحشر نفسها بوقاحة في أنوف السكان، ولكنها لم تدم إلا قليلاً إذ إنها لم تكمل الأسبوع الثاني بصحبته.

لم يكن النقيب موهوباً للصدقات الحميمة، وعلى العكس: كان متحفظاً بطبيعته وعدواً للعقد والمعقدين؛ وفي تلك الفترة، وبينما كان يسرّح ماريا روماو سأله صديقه الدكتور القاضي أوشتاكيو فياليو غوميز نيتو عن مصداقية النبأ الذي ينتشر في الشوارع فلم يخل عليه بالخبر الصادق؛ كان القاضي جديداً في المحكمة وعائلته في العاصمة، ويستحيل عليه بسبب وظيفته معايشة النساء العاميات فراح يفتّش عن فتاة يعدّها لها بيتاً، ولاحت له ماريا روماو مفصّلة جيداً وتفي بالغرض للحالات الطارئة:

- أصبح ما يقولونه يا نقيب؟ إن تلك الفتاة روماو لم تعد تحيا برفقتك؟
أجل، صحيح. لقد بادلت كل تلك الواجهة الكبيرة بفتاة صغيرة جاءتني بها غابي من أشتانسيا، من مصنع الجوخ. ارتاح النقيب قليلاً، وأكمل: "تظنّ غابي أنها خدعتني. لم يلد بعد من يخدع النقيب يا حضرة الدكتور".
- "قايزت، يا نقيب؟ قايزت، كيف؟" استفهم القاضي عن عادات تلك الأرض وعادات النقيب.

- إني أقوم ببعض المقايضات مع غابي، يا دكتور. عندما يكون عندها جديد تخبرني، إذا أحببت، قايزت، استأجرت، أقوم بأية عملية تمويل. وعندما أشبع من السافلة فإن المفاوضة تبدأ من جديد.

- "فهمت، لم أكن أفهم مباشرة، كنت سأفهم مع الوقت، أوتعني أن الصبية حرّة، ومن يرغب...".

- يكفي الحديث مع غابي. ولكن، وإن تطفّلت بالسؤال، فالدكتور مهتم بها من أجل أي شيء؟

شرح القاضي مشكلته، مع النقيب الذي يأتي له الدكتور بتوصية من أصدقائه ذوي النفوذ، كان يمكن أن يفتح صدره للكلام. إن زوجته كانت تُطيل البقاء في

العاصمة أكثر من مرافقة الزوج بحكم كون أولاده طلاباً في باهيا. كانت تأتي وتعود وكان هو يذهب ويرجع عندما يكون الأمر ممكناً...

- "مصرف هائل" قال النقيب وضغط على أضراسه.

"لو كانت.. ليس مستحسناً الكلام ولكن ما العمل؟ إن تربية الأولاد تقتضي توضيحات يا نقيب. الآن، انظر يا صديقي. في مركز قاضي الحقوق المستعجلة، ليس مستحسناً معايشة بيوت النساء، والشوارع المشبوهة" وأخيراً... فهم النقيب الوضع الحساس. يفكر في وضع مخلوقة مستقيمة تقوم بالمتطلبات، عندما عرف أن ماريا روما حرة، وأن النقيب لم يعد متهماً بها...

مع تعاقب الأيام تعلّم صاحب السمو، القاضي، الكثير عن العادات وعن النقيب. وأصبحتا صديقين، وتبادلا الخدمات، تجمعهما المصالح المتعددة، وهما في رأي الشعب شريكان في الأعمال الشائنة وتجمعهما عصابة الأربعة: النقيب، القاضي، المندوب ورئيس البلدية. ويفتخر القاضي بأن يعرف، كما لا أحد سواه، عواطف جوستينيانو دوارتي دا روزا. في حلقة المثقفين، وفي المناظرات الركيكة والنافهة، وكذلك في الأمسيات الطويلة مع حرارة صور بلينيا، فإن الدكتور أوشتاكيو كان يتحدث عن حياة الوجيه المحترم الجنسية والعاطفية. "الحب الجدير بهذه الكلمة العلوية يستطيع أن يرفع الرجل الناضج ذا المبادئ الراسخة للقيام بالأعمال الإنسانية الكبيرة، والحب الحقيقي، مرة واحدة أحسن به جوستينيانو وعاناه؛ وكانت دوريس هي موضوع ذلك الشعور النقي، فيا للأعمال الإنسانية الكبيرة التي قام بها النقيب، دليلاً على الحب والوله، دليلاً على الحب العلوي؟! أجل يا زملائي الأعزاء، يا صديقي الناعمة، من الذي يتزوج من مخلوقة بلا نعمة إلى هذا الحد، فقيرة ومسلولة؟ إنه الزواج، القمة في الجنون، الحب الإلهي أو الأعمى، كما تفضلون، هو حقيقي، أجل. النقيب لم يعترف قط بالحب أمام دوريس، وما عاد يحسن به أبداً، كل الباقي لا يعدو كونه ممارسات جنسية، وضاعات، وموضوعات فراش بسيطة ذات ديمومة تقصر أو تطول، ولكنها إجمالاً قصيرة".

تريزا لم يكن عندها حساب مفتوح في دكان إينوك، وما شاهدها أحد وذراعها إلى ذراع النقيب، في ساعة السينما. وبالمقابل كانت الوحيدة طيلة أكثر من سنتين المفضلة عند جوستينيانو دوارتي دا روزا المتمددة في الفراش الزوجي.

سنتان وثلاثة أشهر كاملة وكم من الوقت كانت ستبقى هناك لو لم يحدث ما حدث؟

السيد القاضي عالم نفس متعمق وشاعر متمرّد أهدى إلى بلينيا جزءاً كاملاً من الرباعيات الغنائية المؤثرة، لم يرفض فقط أن يضع تريزا إلى جانب دوريس في سلّم العواطف الخاصة "بجوستنيانو دوارتي دا روزا، ولكنه أيضاً أعلنها كما كان يفعل الشعب، عشيقة أو صديقة النقيب. صديقة؟ من، تريزا باتيستا؟ وبالتأكيد فإن صاحب السمو القاضي وقد وجد نفسه بطريقة ما معنياً بالأحداث الأخيرة التي جعلت عدم انخيازه في الأمر مسألة صعبة، وقلّلت من إلهامه الشعري، غير سائحة له بالتمييز بين الحب والكراهية بين الخوف ودعمه، قد رأى فقط ضحايا ومجرماً، والمجرم هو تريزا باتيستا، صغيرة وقليلة التجربة ومع ذلك فإنها الرذيلة بعينها وكالحجر شعوراً.

هناك من فكر تماماً بالعكس! وهم بعض الأشخاص الذين لا مكانة عالية لهم، ولم يكونوا قضائيين ولا رجال أدب من مستوى الدكتور أوشتاكيو فياليو غوميز نيتو والمدعو فياليو نيتو عندما يهبط عليه الوحي الشعري، بل كانوا لا يعرفون القوانين ولا فن الأدب. في النهاية وكما يمكن التحقق منه، لم يبقَ شيء واضحاً بسبب التدخل الحاسم للأستاذ إميليانو غويدس شقيق آل غويدس الأكبر.

19

إن مشاعر جوستنيانو دوارتي دا روزا بالنسبة إلى تريزا، تلك المشاعر القادرة على أن تدوم طويلاً في الخطوة والاهتمام المتنامي، ما زالت حتى اليوم بانتظار التحديد العادل لعدم وجود اتفاق بين المثقفين حول الموضوع... أما مشاعر تريزا باتيستا فإنها لم تفرض - ولا تستحق - المناظرات والتحليلات التي يجب أن تتقلّص كلها تحت عنوان الخوف.

في البدء، عندما قاومت واعتضت بيأس، فإنها عاشت وجعلت نفسها قوية بكراهيتها للنقيب، وبعدها، كان الخوف، ولا شيء آخر.

وخلال الوقت الذي ساكنت فيه النقيب، فإن تريزا باتيستا كانت عبدة ذليلة، في العمل والفراش، متيقظة ونبهة. من أجل العمل لم تكن تتحمّل أوامر؛

نشيطه، سريعة، يقظة، ولا تكلّ؛ ألقيت على عاتقها مسؤوليات أوسع الخدمات وأثقلها، من تنظيف البيت، وغسل الملابس والكيّ والعمل الشاق طيلة النهار. وفي العمل الصعب، جعلت نفسها قوية وقاومت، والمتأمل في جسدها النحيف لا يستطيع أن يحكم عليها بالقدرة على حمل أكياس الفاصولياء، ذات العشرين رطلاً، وأحمال اللحوم المخففة.

وعرضت نفسها على بريجيذا للمساعدة في تربية الحفيدة، ولكن الأرملة لم تكن تسمح لها بالاقتراب، حتى بالعواطف، ناحية الطفلة... كانت تريزا بالنسبة إليها الخائنة والعدوة التي تشغل فراش دوريس وتستعمل ملابسها (كانت الفساتين الضيقة تظهر محاسنها المتكومة بشكل مثير) وتمهّد لسرقة الصغيرة والإرث، وهي غارقة في الوهم. في عالم الوحوش، كانت السيدة بريجيذا تحافظ على قوتها في كل ما يتعلق بالحفيدة، الوريثة الوحيدة والشرعية لأموال النقيب، وفي يوم، عندما ينزل من السماء ملاك الثأر، فإن الطفلة الغنية والعجوز المطهرة في الجحيم ستذهبان للعيش في رغد وفي نعمة الله.

الحفيدة هي نصرها، وورقة تحريرها، ومفتاح خلاصها.

كلبة جيء بها من أعماق الجحيم على يد البغلة بلا رأس أو يد الرجل الذئب إلى حظيرة الخنزير، تتقنّع بأقنعة دوريس، والغاصبة هذه تريد أن تقفل على السيدة بريجيذا آخر باب للخروج وأن تسرقها وحفيدتها وأن تنتزع منها الأموال والأمل. وكلما كانت تريزا قريبة من الطفلة كانت السيدة بريجيذا تختفي مع الأخيرة.

من أعطاهما السلطة للعناية بالطفلة، لم تكن الطفلة لعبة، لم تكن فقط لعبة؟ فتريزا تحبّ الأطفال والحيوانات ولم تلهُ مرة واحدة باللعب. السيدة بياتريز، زوجة القاضي والعرّابة التي اختارتها دوريس وهي ما تزال في بداية الحمل أتت بلعبة من باهيا هدية في عيد الميلاد، كانت اللعبة تفتح عينيها وتغمضها وتقول "ماما"، وذات شعر أشقر مجعد وفستان عرس أبيض. وكانت اللعبة توضع في الخزانة وأيام الآحاد يُعطى النقيب الطفلة خلال ساعات معدودات، مرة واحدة أخذتها تريزا بين يديها وفجأة انتزعتها منها السيدة بريجيذا وهي تشتم بغضب.

لم تكن تريزا تتدبّر من العمل كالتخلص من البول والقذارة في الأنية المعدة لها، وتنظيف مجاري المياه، والعناية بالجرح المفتوح في فخذ غوغا وجلب الغسيل،

ولكن ما كان يؤلمها هو نية الأرملة السيئة ومنعها عن لمس الطفلة. كانت تراقبها من بعيد وهي تمشي بخطواتها الهادئة؛ وكان جميلاً أن تُرزق بولد أو أن يكون عندها لعبة.

واجبات الفراش كانت أكثر إيلاماً، تُستخدم مطيئة للنقيب، لترضي نزواته، ولتعطي نفسها بنعومة في أية لحظة في الليل والنهار.

بعد العشاء. وبحضوره، كانت تأتيه بحوض الماء الفاتر وتغسل رجله بالصابون. وكل هذا حتى تأخذ مكان دوريس في رأي السيدة بريجيذا، ولأن دوريس كانت سعيدة وهي تفعل هذا وتعبد رجله وتقبل فيهما الأصابع ودائماً ما تلهيه بانتظار الفراش والقيام بالمهمة. ولكن بالنسبة إلى تريزا، فالأمر هو واجب خطير وغير آمن وتفضل عليه ألف مرة العناية بجرح غوغا الذي ينبع منه القيح.

وعندما يتذكر دوريس أو لمجرد الإساءة إلى تريزا، كان النقيب يضع رجله في وجه تريزا ويدفعها أرضاً: "لماذا لا تقبلينها، ألا تعجبك، أيتها الطاعون؟ الأخريات كنّ يفعلن أفضل"، ثم يدفعها: رفسات وكدمات غير ضرورية، إطلاقاً، وبلا معنى، يكفي النقيب إعطاء الأوامر، وكانت تريزا تبتلع الكبرياء والقرف، وتأخذ بلحس رجله...

لم تحس تريزا بأدنى لذة، أو أقل رغبة أو اهتمام؛ كل ملامسة جسدية مع جوستنيانو دوارتي دا روزا كانت قرفاً واشمئزاً وبالخوف وحده تقبل وتفعل، أنثى بالتصرف، يقظة ومتأهبة. في تلك المرحلة من حياتها لم تكن مسائل الفراش والجنس تعني لتريزا غير اللكم والدم والقذارة والمرارة والعبودية، حتى إنها لم تتصور أن هذه المسائل يمكن أن تتضمن فرحاً وتبادلاً أو أنها ببساطة، لذيدة. هذه الأمور كون تريزا فقط وعاء يفرغ فيه النقيب ويروي منه رغبته كما يفرغ البول في الإناء. أما كيف يمكن أن يكون الجنس بطريقة أخرى، بعطف، وتلامس، وغزل، فإن هذه الأمور لم تكن تخطر ببالها. لماذا كانت عمّتها فيليبيا تقفل على نفسها الباب مع الرجال؟ لا تعرف! الرغبة والشبق والشهوة والفرح، كلها أمور لا وجود لها بالنسبة إلى تريزا باتيستا.

لم تطلب مرة واحدة شيئاً، كائناً ما كان، وهي لا تعني مع ذلك شيئاً. لقد أعطاهما جوستنيانو فساتين من جهاز دوريس، زوج الأحذية جاء من دكان إينوك، وقلادة أو أخرى رخيصة في أيام الرضى الكلي، عندما يكون ديك من ديوكه

الهراتية قد ترك خصمه مجندلاً في العراك وقد مزقته مناقير الحديد، حتى تلك الذكريات السائدة ما كانت لتستبدل الشعور الوحيد المسيطر على صدر تريزا: الخوف. وعندما يخطر لها الغضب في صوت النقيب وحركاته تعود إليها في الحال رجفة الموت في أخمص القدمين وتشعر ببرد الرعب نفسه الذي اخترقها وهي تراه حاملاً بيده مكوى الحديد، والجمر يتلظى فيه متقدماً. يكفي أن تسمعه يرفع صوته غير راضٍ ويتلفظ بكلمة بشعة، ويضحك ضحكته القصيرة، حتى يخرق برد الموت قلب تريزا باتيسا ويحرق أخمص قدميها بمكوى اللظى المستعر.

20

والنقيب جوستو، هل كان يعرف أن النساء، مثل الرجال، قدرات على المتعة؟ ربما كان يعرف، ولكن الموضوع لم يكن يهّمه كثيراً؛ ولم يهتم قط بمشاركة شريكته الرغبة والغزل: امتلاك مشترك، غزل متبادل ومحادثة هادئة بكلمات ناعمة، أمور لا وجود لها بالنسبة إلى النقيب، فإن الجميلة في الفراش هي تلك العذراء الحصرم، لكونها غير مجربة ومتخوفة صغيرة، أو لكونها قديرة وعالمة بالعهر، وهذه هي التي تلهب شهوته، وكما كان معلوماً لدى الجمهور، كان النقيب يفضلهن جديداً إلى حدّ أنه كان يُضيف إلى مجموعته في العقد عدد القاصرات الأقل سناً من الخامسة عشرة عاماً اللواتي يقطف عذرياتهن.

لم يرد أبداً مع النساء سوى الحصول على متعته الخاصة. كان يفترض بالتأكيد أن اللواتي كنّ أشدّ ألماً ومعاناة، هنّ المشاركات بصورة أفضل.

هكذا كانت دوريس التي استهلكتها الحمى؛ حتى في بيت عزّاب فناندا في أوساط الأجنيات، ما كان ممكناً العثور على واحدة كدوريس أكثر إجابة للصدارة. ومأخوذاً بعنجهية الفعل، كان النقيب يحسّ بنفسه راضياً عندما يلاحظ الارتباك والرغبة لدى شريكته فيعزو ذلك إلى صفاته الرجولية؛ رجل قادر أن يمضي الليل كاملاً وهو يتحقق من العذرية، وأن يمضي الفجر مع امرأة عامية حاذقة؛ منابع توقده لم تكن من متعة ورغبة لدى الشريكات، بل على العكس، فإنه كان يتردد عندما تبدي عذراء ولها وترغب في المبادلة وتطالب بالانتباه والعطف، أين يمكن مشاهدة هذا؟ الفحل المثقاب لا يدلّل امرأة.

ماذا جرى بالنسبة إلى علاقته بتريزا؟ لماذا تأخرت إلى هذا الحد في الفراش الزوجي؟ لماذا لا يستطيع النقيب التحلي عنها، ولا يتعب منها؟ سنتان؛ وقت مرعب! يلقي عينيه على تريزا فتتحرك الشهوة لديه وتنتشر في صدره. كان يسافر إلى النساء المرفهات في العاصمة، ولم يكن ينسى تريزا. وقد حدث له في المزرعة أن حطم "العشرينات الثلاث" لمخلوقة جديدة فوق الفراش الأرضي، وبعدها جاء إلى الفراش الزوجي واندس مع تريزا وهو ما يزال ملطخاً بدم الأولى.

لماذا؟ ألأنها جميلة وذات وجه وجسد جميلين، وفاتنة في نظر الآخرين وما تزال في جدتها؟ في إحدى الأمسيات وبينما تعرض عليه العاهرة غابي خبر صيد جديد حققته بنفسها: "على هذه أضع يدي في النار، فإذا لم تكن عذراء من غابة عذراء فلا تكلف نفسك دفع أي مبلغ"، فإنها، وهي العالمة باهتمامات النقيب، ولكي تجعل الاتفاق ممكناً، عرضت عليه استبدالها بتريزا، علماً أن طريدها ذات دمعة أكيدة:

- حتى إني أملك لائحة بالمرشحين المنتظرين دورهم.

النقيب لا يسمح باستلهام الشعر من امرأته، ومن لا يتذكر حادثة جونغا الموظف ذي المركز العالي؟ فقد خسر وظيفته وقدرته على استعمال يده اليمنى، ولم يفلت من الموت إلا لذنوب اقترفه طبيب مستشفى سانتا كاز؛ وكل هذا لأنه شوهده يحدث سيلينا على طريق النهر؛ لهذا أنهت غابي الحديث بصورة سيئة وابتلعت الضحكة؛ وبغضب، فإن جوستنيانو دوارتي دا روزا كاد يصدع صالة النزل بصوته:

- لائحة؟ أريني إياها لأني أريد أن أعرف من هم أبناء الزانيات الذين يتجرأون! أين هي اللائحة؟

اختفت مجموعة زبائن المساء، ووجدت غابي أكبر صعوبة في تهدئة النقيب الثائر: "ليس هناك أية لائحة، إنها طريقة كلام للإعلاء من شأن الصبية".

- لا حاجة إلى الإعلاء.

على الرغم من المنع، فقد استمرت الإعلاءات والأحاديث ولائحة الانتظار، وتردّدت أسماء جديدة اقتطفها النقيب سراً. في كل ذلك البلد الشاسع لا توجد امرأة واحدة أجمل من تريزا، وكان النقيب يحسّ بالاعتزاز كونه سيد تلك الجوهرة

القادرة على أن تملأ عيني الأستاذ إميليانو غويدس الصعب الاختيار، المليونير والإقطاعي، وعرضها جوستينيانو متباهياً في حفلة عراك الديوك الهراتية، وعندما كان يستقبل في دارته الريفية صاحب مزرعة، أو بائعاً متجولاً في المخزن، كان ينادي على المملوكة لتقدم القهوة أو الكاشاسا، فيتغزلون بالمالك الذي يُحسد على محظية بهذا الجمال. ولكنه كان أقل اعتزازاً بها منه بديكه الهراي كلوديونور البطل الذي لا يقهر والقاتل المفترس.

لم يكن النقيب حساساً تجاه الجمال بنوع خاص إلا في ساعة المفاوضة أو المقيضة أو البيع عندما يكون وجهه وجمال جسده الفتاة مالا نقداً. أما في الفراش، بعدها، فإن قيماً أخرى كانت ثقيلة في ميزان إعجابه.

دوريس، بشعة ومريضة، دامت بقدر ما عاشت، فلماذا إذا بقيت تريزا في السرير الزوجي طيلة هذا الوقت؟

ربما، من يدري؟ لأنه لم يحسّ بها لحظة واحدة تعطي نفسها كلياً. خاضعة، أجل، وبطاعة كلية، تركز للخدمة، وتنفيذ أوامره وتستجيب لنزواته دون تأفف تتصرف هكذا حتى لا تُضرب. ولكي تتجنب العقاب والضرب بالمسطرة والحزام وبسوط الجلد الخام، كان يأمر بتنفيذ، ولكنها لم تأخذ قط المبادرة ولم تعرض نفسها أبداً. متمددة، كانت تفتح رجلها وفمها. وكانت تعمل وتنفيذ والنقيب وحده من يأمر، لم تعرض نفسها قط. أما دوريس فكانت تفكك نفسها في الفراش: مثيرة، تعرض نفسها وتستبق أوامره، سأفعل كذا وكذا. مثلها لا أحد، حتى أجنيات فراندا. صامته وفعالة فإن تريزا كانت تنفذ الأوامر. لم تكن تترك للنقيب أن يحسّ بنفسه راضياً مع كل ذلك الخضوع: لقد كلفه جهداً كبيراً تعليم الخوف لتلك المتمردة، وتدجينها وكسر إرادتها. أن يكسر فإنه كان خبيراً بالموضوع، ولهذا بالذات ولأيّ مبرر أو من دون مبرر، فإنه كان يلجأ إلى الضرب بالمسطرة الكبيرة أو بالسوط ليقبى المحبة الاحترام حيّة ويمنع ولادة التمرد من جديد. دون الخوف ماذا يحلّ بالعالم؟

وحتى يصرفها من الخدمة، ولكي يفاوض عليها مع غابي أو فراندا لأنها تستحق العمل في بيت عزّاب فراندا، وجديرة بالعواصم. ولكي يبيعها إلى الدكتور إميليانو، كان النقيب ينتظر أن يسيطر عليها بالكامل ويتركها مغرمة متوسلة

كالكثيرات غيرها ابتداء من دوريس. إنه تحدّ، ورهان آخر مع نفسه! من كان يستطيع أن يتكهّن؟ والنقيب متحفّظ بطبيعته ولم يصل إلى المصارحات إلا قليلاً. كانت الأغلبية تتأمل في الأمر، بمن فيها العمّات والقاضي وحلقة الأدباء، وتعود الأقلية المتأملّة في الأمر بالمصارحة الطويلة إلى سبب وحيد: تكوين تريزا باتيستا الرائع ووصولها إلى عتبة سن الخامسة عشرة؛ ثديان نافران وردفان مقوَّسان مع ذلك اللون الملفوح كالنحاس والجلد الذهبي. جلد الدراقن حسب التشبيه الشعري للقاضي الملهم. ومع الأسف، فإن القليلين استطاعوا أن يقدّروا روعة الصورة الشعرية بسبب الجهل بالفاكهة الأجنبية. ماركوس ليموس حارس الوثائق في مصنع السكر، ذو الميول الوطنية فضّل أن يشبّهها بعسل القصب وبثمرة العناية؛ وكان اسم ماركوس ليموس في الأعلى من لائحة غابي. بالنسبة إلى النقيب؟ إنها مهر متوحش! ولكنه دجّنها وامتطّاها وفي يده الرسن وعلى فمها الكمّامة.

21

الصغيرة التي تقفز حرّة، فرحة، وهي تتسلق الأشجار وتتراكض مع الآخرين وتلهو بمسيرات ومعارك المسلّحين من الفتيان، المحترمة في العراق ولضحكاتها مع الزملاء في المدرسة، ذات الذكاء والذاكرة المشهود لهما من المعلمة. الصغيرة المجتهدة، الموهوبة، تنتهي إلى الموت البطيء على فراش الزنزانة الأرضي تحت لفح ضربات المسطرة الثقيلة وجلدات السوط. مرتعدة من الخوف، عاشت تريزا وحيدة، ولم تختلط بأحد، في غرفتها المقفلة. من الداخل، مستنفرة باستمرار: لم يكن الضغط يخفّف عنها إلا عندما كان النقيب يخرج بسفرة إلى أراكاجو وباهيا مرتين أو ثلاث مرات في العام.

سلخت من ذاكرتها أيام الطفولة والصفاء، في بيت عمها وعمّتها الريفي، وفي مدرسة السيدة مرسيدس، مع جاسيرا وسيسا، وفي الحرب البطولية مع الفتيان، وفي معرض السبت الأسبوعي؛ سلخت كل ذلك من ذاكرتها حتى لا تتذكّر العمّة فيليبا وهي تراها لتأتي مع النقيب وتقول لها إنه رجل صالح، وفي بيته سيكون عندك من كل شيء وستكونين سيّدة.. العم روزالفو رفع عينيه عن الأرض وخرج ببلادة

مزمنة للمساعدة في الطوق المضروب حولها؛ وكان هو من اعتقلها ولّمها وفي إصبع العمّة يلمع الخاتم. ماذا فعلت يا عمي روزالفو، أية جريمة ارتكبت يا عمّي فيليبيا؟ تريزا تريد أن تنسى؛ سيئة هي الذكرى التي تؤلم داخلها، والباقي تعيشه كحلم؛ تنهض عند شروق الصباح فلا آحاد أو إجازات، وفي الليل تتفرّغ للنقيب، وأحياناً يتواصل الليل مع اليوم التالي. عندما يحدث أن يخرج في سفر، ويبقى في المدينة فهي الليالي المقدّسة المباركة. تنام تريزا، ترتاح من الخوف، وفي الفراش تخرج من ذاكرتها ذكرى الشؤم الميتة ولكن المنحرف يرافقها في الحلم بثقل الحجر..

رغبت تريزا في إقامة علاقات صداقة مع الشباب والأزلام والنساء القليلات الموجودات، ولم يكن ذلك سهلاً. إنها فتاة النقيب التي تنام في فراشه الزوجي، والجميع يغرقون في خشية غضب جوستينانو دوارتي دا روزا السريع. إن محمّيته لم تكن لتقيم محادثات صريحة وبأسنان بارزة... الكثيرون من السكان شهدوا على ما حصل مع جونغا وقالوا في المحكمة إنهم عرفوا الأمر من الآخرين. ونجا جونغا بحياته محظوظاً. ودفعت سيلينا ثمن المحادثة والضحكة وسط الاستعراض أمام الجمهور، عندما أدخلها إلى الإسطبل. كان مشهدها يثير الحزن. امرأة النقيب: خطر الموت، مرض معد، وسم أفعى.

مرتين أخذها النقيب معه رديفة على حصانه إلى عراك الديوك الهراتية. كان النقيب معتزاً بديوكه اعترازه بجميلته المصنوعة من خشب الكوكونوس، وهو في غمرة متعته بإثارة حسد الآخرين. الشباب يحملون المال للمراهنات، والأزلام مستنفرون بالخناجر والمسدسات. على الحلبة ديوك الدم، مناقير الحديد، الصدور المنفوخة، والرأس المغسول بالكاشاسا. أغمضت تريزا عينيها حتى لا ترى فأعطاها النقيب الأمر بالنظر: "مشهد أكثر إثارة من هذا لا يمكن أن يكون؛ يقولون إن مصارعة الثيران أفضل، ولكنني أشك! آتي فقط إلى هنا لأني مؤمن بهذه الحقيقة". في المراتين خسرت ديوك النقيب الهراتية بشكل مروّع، وانهارت بصورة لا سابقة لها ولا يمكن تفسيرها. كان يجب أن يكون هناك تفسير، والذنب ذنب تريزا، الأمر واضح، بعينيها الحائرتين المليئتين بالشفقة وصرخة النزاع عندما وقع الديك متخبطاً وفي عنقه فتحة يسيل منها الدم. يعرف كم هو سيئ لبطل يحمل في العراك من الديوك الهراتية أن يجد نفسه وسط جوّ من التشجيع المصحوب بالبكاء سواء

من رجل أو امرأة. طالع شؤم لا مثيل له. في المرة الأولى اكتفى جوستنيانو ببعض الشتائم وبعض الصفعات حتى يعلم تريزا التقدير والإيحاء إلى الديوك. أمّا في المرة الثانية فقد عرّضها النقيب لعملية ضرب من تلك العمليات الكبيرة لأنها جاءت بسوء الطالع وسببت خسارة ماله في المراهنات وفي صدمته بانقيار الديك. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يأخذها معه قط على متن الحصان وحرّمها من حضور مصارعات الديوك! كيف يستطيع أحد ألاّ يُحبّ قتال الديوك وأن يكون عاجزاً إلى هذا الحدّ؟ وعدّت تريزا عملية الضرب ثمناً بخساً لإعفائها غير المنتظر، كما أنها كانت تفضّل، في ساعات التوقف عن العمل القليلة أن تُنقّب في العجوز غوغا عن القمل وتقتله.

هكذا، مع الاضطراب، انقضت سنتان من حياة تريزا في بيت المزرعة. وفي يوم فاجأها النقيب تعبت في ورقة بقطعة من قلم الرصاص؛ أخذ منها الورقة والقلم.

- اسم من هذا؟

على الورقة كانت تريزا قد كتبت اسمها، تريزا باتيستا دا أسونسيان، واسم المدرسة طوياس بريتو، واسم المعلمة مرسيدس ليما.

- إنه اسمي. أجل يا سيدي.

تذكّر النقيب أنه سمع فيليبيا تمتدح كتابة وقراءة الصغيرة أثناء عملية المفاوضة وهي تحاول أن تعطي قيمة للمادة التي تبيعها، ولكنه لم يعر الأمر اهتماماً لأن كل اهتمامه كان قائماً آنذاك على برعم العذرية:

- هل تعرفين عمل الحساب؟

- أعرف نعم يا سيد.

- الجداول الأربعة؟

- نعم يا سيد.

بعد عدة أيام نُقلت تريزا إلى بيت المدينة حيث وضعت صرّة ملابسها في غرفة النقيب. لم تحمل معها أي اشتياق إلى المزرعة، ولا حتى إلى غوغا بقمليها وجرحها المفتوح؛ في المخزن أخذت مكان موظف هاجر إلى الجنوب، وكان الوحيد الذي يعرف الجداول الأربعة: كان يدعى شيكو نصف الكعب، رجل ثقة،

ويحفظ في ذاكرته الموجودات المخزّنة والويل لمن يحاول أن يعث في البضاعة! أما جاببي الحسابات المتأخرة الذي لا بديل عنه، ذو الكشرة والأسنان النافرة باستمرار فإنه كان يجد صعوبة في جمع اثنين مع اثنين، وأما الولدان الآخران، وأحدهما اسمه بومبيو، والآخر بابا موسكاس فكانا يعرفان كيف يسرقان في الوزن والقياس ولكنهما كانا ضعيفين في الحساب. كانت تريزا تسجّل المواد المباعة بالفرق، وتجمع، وتتسلّم المال وتعيد الفكة وتجرد الحسابات الشهرية. خلال ثلاثة أيام بقي جوستنيانو يراقبها ثم أعلن رضاه. كان الزبائن يتجسّسون عليها بأطراف عيونهم، يلاحظون الطول وروعة التكوين، ولم يكونوا يرغبون في المحادثة، فامرأة النقيب مرض عضال، سم أفعى، وخطر الموت.

22

حدث مرة وتريزا ما تزال تسكن في المزرعة، أن جاء الأستاذ إميليانو غويدس إلى هناك وقد حملته النية للاطلاع على قطع رجل أعمال متنوعة، فإن جوستنيانو دوارتي دا روزا كان يشتري ويبيع كل شيء، يشتري رخيصة، ويبيع نقداً، وليست هناك طريقة أخرى لربح المال. وكان قد ألقى يده على عملية مربحة، عدة أشهر بعد مرور أحدهم من هناك ويدعى أغريينو في طريقه إلى معرض سانتانا، قطع ثيران ملجومة نحيلة كأنها جلد وعظام، أصابها مرض التيفوئيد فنفقت بعض رؤوس الماشية، وباع صاحب القطيع المواشي الباقية بقيمة عشرة ريالات للرأس، عند ساعة الدفع حسم جوستو سعر بقرة من الحساب كانت قد ماتت لدى رجوعها إلى أرضه، كما حسم سعر رأسين آخرين لقاء بعد المسافة من هناك إلى هنا. وأراد الراعي أن يعترض فأغلظ النقيب القول: "لا ترفع صوتك، لا تقل إني سارق، لا أسمح، خذ مالك واذهب من هنا ما دام لديك الوقت لتذهب يا ابن الزانية! وأرسل القطيع ليرعى في المرج ويسمن".

ولكي يتفحص القطيع ويختار بعض البقرات، قفز الأستاذ إميليانو غويدس عن حصانه الأسود؛ اللجام والمهماز من الذهب والفضة؛ فرحب به جوستنيانو بالخفاوة اللائقة بزعيم عائلة غويدس، أكبر الإخوة الثلاثة وسيد تلك الأراضي الحقيقي؛ وإلى جانبه، كان النقيب جوستو الغني المرعب يتحوّل إلى لا شيء، لا

أحد، ويسبدو فقيراً فقد الصلافة والرجولة في الصالة؛ وفي يده العصبية الكرباج المزيّن من أعلاه بالفضة، حدّق الزائر في السيدة بريجيда: بعيدة، شائخة، تلفّ الحفاضات حول حفيدها، لم تعد تبدو هي نفسها.

- "منذ وفاة فقيدتي اختلّ عقلها. لقد أسلمت نفسها لليأس وما عادت تختلط بأحد. إني أبقّيها هنا، شفقة" شرح النقيب.

رافق أكبر الإخوة غويدس بنظره الأرملة التي تدفن نفسها في الأحراج:

- من يقول؟ امرأة متميزة إلى هذا الحدّ...

دخلت تريزا إلى الصالة آتية بالقهوة، فنسي إميليانو غويدس السيدة بريجيда وغدرات الزمان، برم شاربه، وتأمّل في الخادمة. أصيب بالدهشة، ولم يعد قادراً على إخفاء تعجبه: يا إله السماء!

"شكراً يا ابنتي" ارتشف القهوة وعيناه على الصغيرة. كان نموذجاً جميلاً، طويل القامة، نحيل، ذا شعر رمادي وشارب مهذب وأنف مستقيم قليل الاحديداب وعينين نافذتين ويدين معتنى بهما، أعطته تريزا ظهرها وهي تخدم النقيب. كان إميليانو يزن الصفات القيّمة: أرداف وخصر، أما الخلف فكان متمرّداً في فستان لا يناسبها. رائعة! إنها ما تزال في طور التكوّن، وذات سلوك جيد، ومع العطف والحنان قد تصبح تحفة رائعة.

انتهى شرب القهوة، وذهبا راكبين لمعاينة القطيع. وهناك فصل إميليانو أفضل رؤوس البقر واتفق على السعر. في طريق العودة، خلال التفاصيل الأخيرة من عملية الشراء، وقف الحصان بباب النقيب، شكر الفارس واعتذر عن قبول الدعوة إلى الترحل.

- "شكراً جزيلاً، إني على عجلة من أمري". أهمز، ولكن، قبل أن يلكز الحصان، مسد شاربه، وقال: "ألا تريد أن تضم إلى الصفقة هذه الصغيرة التي عندك في البيت؟ إذا أردت فضع السعر الذي تريد".

لم يفهم النقيب في الحال: "صغيرة في البيت؟ أي منهن، أستاذ؟"

- أتكلّم عن الصبية، خادمك، إني بحاجة إلى عاملة في المصنع.

- إنها محميتي أستاذ، يتيمة الأب والأم وقد جاؤوا بها إليّ لتربيتها، لا أستطيع التخلي عنها. لو كنت أستطيع لكنت لك الآن. اعذّرني إذا لم أستطع أن أخدمك.

أنزل الأستاذ إميليانو يده، وبالكرباج ذي الرأس الفضي ضرب خفيفاً على
فخذ الحصان:

- لا كلام بعد اليوم في هذا الموضوع. أرسل لي البقر. إلى اللقاء.

صوت وصي عتيق وسيد عريق. بمهمازي الفضة لكز بطن الحيوان وشدّ
الزمام فجعل الحصان يقفز على حافريه الخلفيتين واقفاً! ثم أعاده إلى وقفته. وبلا
وعي تراجع النقيب خطوة. الأستاذ مثل مشهد المعتذر عندما لامس حافرا الحصان
الأماميان الأرض وتصاعد الغبار. صبراً، لقد كانت تربية الفتاة من مهامه ومع ذلك
لم يحدّد السعر. في عيني الأستاذ بريق، بريق ماسة خام يجب أن يستخرجها صانع
ماهر قدير. ماسة بهذا النقاء نادرة وفريدة من نوعها. واستمر يحدّق فيها، صرّة
الملابس فوق رأسها؛ وتمايل الردفين. تسلك طريق النهر، وكان أسفلها قد بدأ يذرّ
بقرنه. لو تمّت العناية بها، في الرفاهية وبالعطف، لكانت الكمال بعينه، ونزوة من
نزوات الآلهة، ولكن جوستنيانو، هذا الحيوان ذو الغريزة المنحطة عاجز عن أن يرى
ويهدّب ويشدّب، وعن أن يعطي القيمة الحقيقية للنعمة التي تقع عليه. لو كانت
للأستاذ إميليانو غويدس لحوّلها إلى جوهرة ملكية، باختصاص، وبطريقة ممنهجة،
وبهدوء ومتعة. آه: يا لاشتعال العينين السوداوين، وعدم إنصاف الحظ!

النقيب جوستو على شرفة البيت، يلاحظ في البعيد المطيّة الثائرة؛ حصان
أصيل وغالي الثمن؛ منذ قليل، وهو يقف على حافريه الخلفيين سبب له القلق،
وعلى صهوته فارس العز بمطرّزات الفضة...

جوستنيانو دوارقي دا روزا يعث في عقد الخواتم، عذريات مقطوفة، حصراً
أخضر، الأكثر عناية في الصنع هو خاتم تريزا الذي أكل عذريتها حصراً مقطوفاً
لستوه. لقد كلفته تريزا ألفاً وخمسمائة كروزيرو مع قيمة المواد التي أخذت من
المخزن. تريزا الجديدة، وبالغلاف، تريزا الثلاثة عشر عاماً، تريزا ذات رائحة
الحليب ولباس الطفولة، إذا أراد أن يبيعها، مفتضة البكارة ورغم كل شيء
فسيبيعها نقداً ويربح مالا في تحويل الملكية. إذا أراد أن يبيعها، فالأستاذ إميليانو
غويدس، أكبر إخوة الغويدس، صاحب فراسخ وفراسخ من الأراضي والأزلام
الذين لا يُحصون، سيدفع السعر الجيد ليأكل فضلته لكنه لم يكن ينوي بيعها، على
الأقل، في الوقت الحالي.

رطبت أمطار الشتاء الأرض القاحلة فتفجرت البذور متحوّلة إلى نبات، وازدهر الشجر. في احتفالات التسعة والمستقرضات المقدسة، تنطلق الفتيات بغناء الأناشيد، ويتضرّعن لكي يقرع الحظ أبواهن بالزواج، وينذرن من أجل ذلك النذور. في الدروب تتعالى أنغام الأوكورديونات في ليالي الرقص، وتشتعل القبائل بنيرانها المضيئة، وبعد الصلوات والتضرعات إلى الشفيع يبدأ الرقص وتنطلق الكحول وبأخص الكاشاسا. العشاق وبنات الهوى أجساد مرثمة في الغاب بين اعتراض وضحك... حزيران شهر القمح والبرتقال وقصب السكر ومواد الحساء وصنع الحلويات والمعجنات وكحول الفاكهة وشراب الجنيا ب والمواد الجاهزة والمصاييح المضاعة وشهر القديس أنطونيوس شفيع الراغبين في الزواج، والقديس يوحنا، والقديس بطرس شفيع الأرامل، بينما المدارس في العطلة الصيفية، إنه باختصار شهر تخصيب النساء.

في الصالة الخارجية من بيت صاحب السمو القاضي الأستاذ أوشتاكيو غوميز نيتو، المعروف بقصائده الغنائية الملهبة باسم فياليو نيتو، تجدد الأضواء مشتعلة، والكراسي تشغلها زائرات الحياة الحلوة لدى بياتريز غويدس وماركوندس غوميز نيتو الزوجة التي تكون في أغلب الأحيان غائبة؛ الأم العطوف في العاصمة وهي تعني بالأطفال، وفي أيامنا هذه، لا يمكن ترك الأولاد وحيدين في مدينة كبيرة، مع كل ما فيها من التواءات وانهايارات أخلاقية.

أمطار الشتاء مفيدة أيضاً للسيدة بياتريز، التي، منذ زيارتها الخاطفة في شباط الماضي، وحتى هذه الزيارة الحزيرية، خلال هذا الوقت القصير من أربعة أشهر، فقد بدت أصغر بعشر سنوات على الأقل.. جلد أملس، نقي، لا حفرة ولا تجعيد، وجسد أهيف، وثديان عاليان، ولا يقدر عمرها بأكثر من ثلاثين ربيعاً أحضره فاحفظنا يا الله من تفتّح يذهب إلى هذا الحد؛ وبتألقها المعتاد أطلت عني الصديقات؛ وبعد الزيارة فإن السيدة بونسيانا دي أزفيدو ذات العبارات الطنانة: "فلانة هذه هي المجد الأثيل للطب الحديث"، وبالنسبة إلى السيدة بونسيانا فإن الجراحة البلاستيكية كانت جريمة ضد الدين والعادات الحسنة: "تغيير الوجه الذي أعطانا إياه الله، وقصّ الجلد، وخياطة الثدين، ومن يدري خياطة أي شيء آخر،

هي الخطيئة المميتة.. " أما ماريكينياس بورتيليو فلم تكن موافقة: "إني لا أرى جريمة ولا خطيئة في التجميل"؛ وهي، بالتأكيد، لا تفعل ذلك ولا تجد سبباً له، كونها أرملة فقيرة، ولكن زوجة القاضي كانت تسكن في العاصمة وتعاشر الطبقة الراقية.. - "الراقية والواطئة، عمّة، ولكن الواطئة أكثر من الراقية..." قاطعت السيدة بونسيانا التي لا تُفحم "إنها تجاوزت الأربعين بكثير وتبدو الآن بوجه صبية، وأكثر من ذلك صبية صينية..."

وأشارت إلى عينيها الجديديتين اللوزيتين، اللتين استبدلت بهما السيدة بياتريز عينيها القديمتين الكبيرتين، المعطّنتين، الحزینتين، المتوسلتين، والعاملين المهمين في نجاحها السابق، الغارقتين مع الأسف في بحر من التجاعيد وفي رجلين نحيلتين يُنظر إليهما مع ذلك:

- أكثر من أربعين سنة؟ إلى هذا الحد؟

أكثر من الأربعين بالتأكيد، وعلى الرغم من الإرث والأهل، فقد تأخّرت في الزواج، وكان ضرورياً أن تنتظر صيداً ثميناً وقادراً أن يصمّ أذنيه عن كلام الملاء:

- "السيدة بياتريز عندما كانت صبية عزباء، كانت تتساهل. الآن، ابنها دانسيال الموجود هنا في العام الثاني والعشرين من عمره وهو الثاني لها. البكر، أزاليس، شارف على السابعة والعشرين، وبين الاثنين ولدت لها طفلة ماتت بالنزلة الصدرية، وفي كانون الأول المقبل سيُنهي دراسة الطب. نعم يجب أن تعرفي يا ماريكينياس، أنت التي تدافعين عنها كثيراً، إن الأولاد الذين بسبب براءتهم تذهب للمراقبة في باهيا، هما هذان الجريان القاسيا العود، وابنتها فيرا، فيرينيا، عمرها أكثر من عشرين سنة، وهي مع خطوتها الأنثوية قد سجّلت الخطوبة الثالثة؛ السيدة المحترمة تبقى في باهيا، للعب الورق والدعارة، ولا تخجل من أن تعلن نفسها الزوجة المضحية من أجل أولادها، كما لو كنا نحن عصابة من العجائز الخرفات اللاتي لا عمل لهن سوى الكلام السيئ عن حياة الآخرين. ألسنا كذلك بالمناسبة؟" وكانت الطيبة ماريكينياس بورتيليو تضحك؛ الأخريات في الوقت نفسه، كنّ يوافقن السيدة بونسيانا دي أرفيدو كونها على علم راسخ بحياة عائلة صاحب السمو ومعارفه وجيران السيدة بريجيديا في الشارع الذي تقيم فيه: "شهود عيان، عيان، يا سيداتي! كل يوم، بعد الظهر، تخرج الأم الحنون إلى زيارة المجاملة لمشيلاهما

في التقنع أو لملاقاة الدكتور ليريوبابيتا الأستاذ في الجامعة وعشيقها منذ أكثر من عشرين سنة، والظاهر أنه هو، عندما كان طالباً، من أقام لها العيد الأول. ولا تكتفي بتركيب القرون للقاضي، فإنها أيضاً تضع القرون للطبيب الفيزيائي الكبير، وتتغذى من الشباب. وهذا ما تفسره الضرورة لتغيير الوجه وتكييف الجسد، وانتعال نصف كعب ككعب كامل، تغيير العينين، وتخييط الثديين ومن يدري ماذا تخيط أيضاً؟" الحسد يملأ العمّات، يمرمر حلوقهن، ويفلغل ألسنتهن.

بعد عودتها إلى الجلوس، متوجهة بالكلام إلى زوجها بعد أن نظّفت الصحن من الرماد وأعقاب السجائر - كانت العمّات قد جئن ليغتن، بمجاملات مسمومة، كعصاة من كواسر الطير - دون أن تخفي السيدة بياتريز الانطباع السيئ الذي كوّنته خلال زيارة بعد الظهر إلى السيدة بريجيда وحفيدتها:

- المرأة المسكينة تعيش في العفونة، خلف الطفلة، وفي الإهمال، وقد تدهورت حالها أكثر خلال هذه الأشهر الأخيرة، إنها تثير الشفقة. ودائماً مع تلك الحكايات المنحوتة. لو أنّ في ما ترويه ذرة من حقيقة، فإنّ صديقك جوستنيانو هذا - إشبينا - يكون أكبر منحرف في العالم.

وردّ عليها القاضي بتفسيره التقليدي، وكانت تلزمه بالدفاع عن النقيب بعد كل زيارة تقوم بها إلى الحفيدة والسيدة بريجيда وأيضاً بوجود صديقات كثيرات للدكتور المرهف أوبالدو كورفيلو.

- مجنونة، مجنونة، فقيرة، لم تستطع أن تتحمّل موت ابنتها، تعيش هكذا لأنها تريد ذلك، وليس من طريقة لإقناعها بالاهتمام بنفسها. ماذا كان يستطيع النقيب أن يفعل؟ إرساها إلى مأوى باهيا؛ أو إلى مستشفى سان جوان دي ديوس؟ إنك تعرفين الظروف التي يعيش فيها المجانين. على العكس فإن الإشبين يحتفظ بها في بيته الريفية، يعطيها كل شيء، ويتركها تهتم بالحفيدة التي تتعلّق بها تعلقاً شديداً. من السهل على النقيب، مع العلاقات التي له، أن يتدبّر لها مكاناً شاغراً في المستشفى العقلي، ولكانت المشكلة انحلت... وتابع:

- أطلب منك بمحبة، يا صديقتي، أن تتجنّبي أي حديث سيء إلى احترام النقيب، وليكن ما يكون، فهو عرابنا، وقد كان لنا صديقاً خدوماً، ونحن مدينون له بالكثير.

- "مدينون، لا، يا صديقي.." كانت تقول صديقي وهي تضع في صوتها الوقور استهزاءً بصاحب السمو القاضي "أنت مدين.. ومدين بالمال، أظن".
- المال للنفقات، أو أنك تعتقدين أن راتب القاضي يكفي نفقاتنا.
- "لا تنسَ يا صديقي" من جديد لهجة الاستهزاء "إني أدفع نفقاتي الشخصية من عائدات ميراثي، ومع ذلك، بالجزء الصغير الذي تضعه خارجاً، كان ممكناً أن أنقذ الوضع بأعجوبة".

عدة مرات كان القاضي قد تسلّم راتبه شكلياً، وكل مرة كان يقوم بردة الفعل بالصورة نفسها، رافعاً يديه إلى السموات، فاتحاً فاه للاعتراض العنيف؛ وأحياناً لم يكن يعترض، ولم يكن يقول كلمة، كما لو أنه، ضحية من أكبر ضحايا الظلم، يتخلّى عن أي تفسير قابل للنقاش، وعن أي دفاع متفجّر، من أجل السلام العائلي.
مع ابتسامة خفيفة تركّب السيدة بياتريز أظافرها الطويلة والمهذبة، والعينان اللوزيتان تحيد بهما عن الزوج الرجل المسكين الذي لا تفيد ملاطفته لها بالطريقة المتكررة، وبالحركة الضائعة المضحكة. كان أوشتاكيو يزعجه بفكرة العشيقة الريفية، مع أقنعة الاحترام وأبيات الشعر الحماسي الجديد، فهو مقترع عجوز. وبكليته في أيدي النقيب، حقير من الصنف السافل؛ في خدمته، يرفع بيارقه ويغطّي على أعماله الشريرة. لقد حكم الحظ بأن لا يكون هناك احتمال عودة إلى السياسة وأن تكون هي، السيدة بياتريز نسيبة آل غويدس من ناحية الأم الضمانة الأكيدة. يدين لهم بتعيينه، هو أوشتاكيو، في رئاسة المحكمة منذ اثني عشرة سنة عندما بملاحظته التباس موضوع الإرث الموعود، من فرض عليها ذلك الحل حتى تتجنّب الهجر وجرح الشرف الرفيع وهزّت كتفيها تعليقاً: لا تتكلّم بهذا بعد، فالسيدة بريجيда تهمّها قليلاً أو لا تهمّها أبداً. راحت تزورها لتقوم بواجب اجتماعي، وقد أتت لتمضية بعض الأيام مع الزوج، بواجب اجتماعي ومصلحة شخصية: فلا أولادها ولا أنسابها يرغبون في رؤيتها مطلقة أو منفصلة عن الزوج. هذا العالم مليء بالتناقضات، إنها قواعد اللعبة ولا بد من التقيّد بها، ولا يستطيع أحد أن يتجاهلها.

لا أحد، غير دانيال، الابن الثاني، صورة طبق الأصل عن الأم، وقد دخل إلى غرفة الجلوس مع ابتسامة الإغراء الدائمة، ما كان على دانيال أن يأتي لتمضية شهر

العطلة برفقة أبيه، واضعاً المسافات بينه وبين السبعين سنة ضوئية في عمر بيرولا شفارتز لياون، مليئاً بالخواتم، والعقود والتعهدات وغيره العجوز المعوقة! وهو يضع نفسه موضع الساخر، ويملاً صدره بالتعهد، فإن دان لم يكن أكثر من فتى صغير. أحسّ دانيال بالضغط في الصالة، فهو يكره الشجار والمناقشات والأشخاص المغلقين ويحاول أن يبت الحياة في المحيط العائلي:

"رحتُ أرقب حال السوق؛ إنه بنسبة كبيرة حزين، أليس كذلك؟ لقد نسيت كيف كان، فأنا لم آتِ إلى هنا منذ جيل. لا أعرف كيف تتحمل الحياة هنا طيلة العام يا أبي، مع الذهاب مرتين فقط في العام إلى باهيا. إنها مسألة قاسية، سأخصّص في الحقوق كما تريد ولكن لا تطلب مني أن أكون قاضياً في منطقة الداخل، إنه قيد".

ابتسمت السيدة بياتريز للابن:

- أبوك يا دان كان دائماً قليل الطموح، إنه شاعر، ذكي، ومع هذا القدر من الثقافة، يكتب في الصحف، ومع امتيازات عائلي كان يمكن أن يشقّ لنفسه طريقاً سياسياً، ولكنه لم يشأ، ففضّل القضاء.

- "لكل شيء مكافأته يا ابني". ارتدى القاضي من جديد رداء الاحترام.

- "أصدق يا أبي". وافق دانيال متذكراً بلينيا التي سلّم عليها في الشارع، عشيقه الأب الدكتور القاضي.

- هنا أستطيع أن أدرس وأن أهنيء بهدوء كتابي الجديدين، كتاب قانون العقوبات وكتاب الشعر. وعندما أتقاعد أفكر بالتدريس في الكلية، تجذبي مقاعد التدريس، أما السياسة فلم تجذبي أبداً، على العكس: إنها تقزّزني! واختبأ في رداءه النقابي.

السيدة بياتريز تفضّل أن تغيّر مجرى المحادثة. إن أساليب أوشتاكيو الوقور تثير أعصابها، يا للتعب!

- دان، هل أيقظتَ تولهات كبيرة وجعلت قلوباً كثيرة تغلي؟ كم من الأزواج، وكم من المدافئ القلبية مهددة بالانطفاء؟ كان تنقر غراميات أبنائها، إنها أمينة سر متفهمة وشريكة موزونة، وعلى الأخص عندما كان دانيال يتوغل مع صديقة ما، في سكّته القصيرة.

- النِّسائيَّة ضعف، أمومة، ولكنها عداء أيضاً، مسلخ عام؛ لم أر قط شيء كهذا، الشبابيك مقفلة، والاهتمام قليل، على الأقل حتى الآن.

- "ألا يجذبك شيء؟ يقولون إن صبايا هذا المكان على الرغم من كونهن بنات البلد فإنهن من الصنف المتحرر" وتوجَّهت إلى الزوج من جديد: "ابنك هذا يا أوشتاكيو هو غازي العاصمة رقم واحد".

- "مغالطات بسبب عاطفة الأمومة، لا تصدِّق هذا الحديث يا أبي. إنَّ لي بعض الحظ مع كبيرات في السن، وبعض الغراميات الرومانسية ورصيдаً صغيراً في المِصرَف". تأمَّل القاضي بصمت زوجته، وهي تركِّز اهتمامها في أظافرِها، بينما الابن فاغر فاه، فبدا له الاثنان متشابهين، وكأنهما غريبان بالنسبة إليه. في النهاية، ماذا يبقى له في هذا العالم؟ الحفلات العائلية مع أصحاب الأرض، وصعوبة المهنة، والأماسي والليالي في حرارة بلينيا، الساحرة بلينيا، تحيلها وهي تتوسَّل متواضعة، متحفظة، وعندها ابن عم، لا بأس، إنها خطيئة عرضية.

أيدَ تضرب على الباب: زوجة رئيس البلدية العالية المقام في زيارة رفيعة الشأن لعقيلة قاضي الأمور المستعجلة. اختفى دانيال وذهب يقوم بجولة حول مخزن النقيب.

24

- "إني رومنطريقي غير قابل للشفاء، ماذا أستطيع أن أفعل؟" كان يوضح دانيال، الشهير في أوساط الكبيرات في السن، وهو في حرم الجامعة. طالب حقوق ودكتور في التهتُّك أكمل اختصاصه في الملاهي وبيوت العزَّاب وأوساط النساء؛ طويل، نحيل، واهي القوة، ويافع متكوّن: عينان منكسرتان كبيرتان متهدلتان (كأنهما عينا السيدة بياتريز قبل أن تحوَّلهما على الطريقة الغربية)، إنهما عينا نظرة تقدير الأسعار، كما يعلق زملاؤه؛ الشفتان غليظتان، والشعر مجعَّد بل محلزن، أما الجمال ففيه التباس كبير ليس لأنه متناسقاً بل لأنه مرضٍ، فقد جعل دان من نفسه معبود الفتيات في بيوت العزَّاب وساحر النساء الأنيفات في الوسط الاجتماعي العالي، اللواتي هنَّ الأكثرية على الحلبة بالتعديلات البلاستيكية على أشكالهن.. من هذه وتلك كان يقبل الهدايا ويعرضها باعتزاز: ربطات عنق، ساعات يد، بيوت

ريف وورقات مالية من فئة الكونتو، ويُظهر صوراً مثيرة معهن ليدغدغ غيرة الطلاب ويجعل من نفسه الأمهر والأحسن.

وحتى لا تجرح عواطفه، كانت زازا دوبيكو دوسي تدسّ في الخفاء جزءاً كبيراً من غلتها اليومية في جيب سترته، كان دان يذهب فجراً إلى بيت عزّاب إيزورا مانيتا وكانا ينزلان إلى شارع سان فرانسيسكو متغامرين إلى الغرفة المرتبة وفرّاش الشراشف النظيفة المعطرة بالخزامى: وفي غفلة منه كانت زازا، الكتوم، المرهفة، تجد الساعة والطريقة الملائمة لتدسّ المال في جيبه دون أن ينتبه إلى ذلك، إنها العبقرية كلها زازا دوبيكو دوسي. ويوضح دانيال:

- يكفي أن أظاهر بالانشغال ويستقرّ المال في الجيب دون أن تجرح عواطفني. وها هي السيدة أسونتابينوز دو أرابال زوجة رجل مسن وصاحب أفران لصنع الخبز، أربعينية في قمة القابلية تدسّ في الفرّاش المال والهدايا وتقدّم علناً الهبات، "لقد كلّف غالياً، يا جميلي، كلّف مالا كثيراً" (كانت تحصل على حسومات من أصدقاء زوجها) وفي الوقت نفسه تطري على المنشأ والنوعية، كشمير إنكليزي مهرّب قهرياً، وهي تتماجن، كانت تضع ربطات العنق على رقبة دان وتأخذه بضمة حول البطن: "انظر كيف أن عانستك هذه هي يد مفتوحة".

وكما كان يفضي دانيال سرّاً إلى زملائه، فإنه مع كل صفاته، مجتمعة، لم يتوصل أن يكون محترفاً حقيقياً، مع منظره الخارجي الكامل وهيئته الإباحية الطفولية الغامضة فإنه عاطفي ورذيل، عليم بكل الأمور الضرورية للعمل الشريف، قدير وعنيد، يرقص جيداً، ثقاب ممتاز، وشفتان ليّتا الحركة، وصوت دافئ، ساحر، موسيقي، ومسكر، لطيف في الفرّاش، وصاحب أحسن لسان كلب في باهيا، والشمال الشرقي وربما في كل البرازيل، ومع كل تلك الصفات:

- إني رومنطيسي غير قابل للشفاء، فماذا أستطيع أن أفعل؟ أتولّه ببقرة تافهة وأعطي نفسي مجاناً حتى إنني أصرف من مالي. أين ترى جيכולو وفياً ويحترم نفسه ويصرف ماله على النساء؟ لست أكثر من عاشق.

كان الزملاء يضحكون لسخرية تصل إلى هذا الحدّ من السخف، ودان ما عاد عنده حل، إنه حالة ضائعة وسخرية حتى أبعد الحدود، وذهب الأوفياء من أصدقائه بسبب وجود تولّحات مفاجئة عنده يطالبونه بإهمال حامياته الفتيات

وداعراته المرححات. إن حظه في العشق أصبح مضرب مثل في أوساط الطلاب والבוهميين الذين ينسبون إليه سبلاً من العشيقات مضاعفين الحالات. منذ كان فتى، مبتدئاً منحرفاً، كان يربح المال ويصرفه، مع النساء.

كان أولاد القاضي قلماً يذهبون إلى قصر العدل القريب لرؤية أبيهم. وكانت السيدة بياتريز بانتباهها إلى المناسبات والأساليب الحلوة، وفي معلوماتها المنطقية وتمسكها بوعود التربية الدينية، تأخذ برفقتها أحد الأولاد في زيارات إلى الزوج الأب. زيارات ثقيلة، بلا شك، ولكنها ضرورية لسمعة العائلة. أما دانيال، الأكثر تردداً والأقل تفرغاً، فهو منذ خمس سنوات لم يأخذ قطار ليسي برازيليرا البطيء. "فلماذا أذهب لأدفن نفسي طيلة شهر في تلك الحفرة؟ ماما، لو أستطيع أن أرى أبي عندما يأتي إلى هنا، دون أن أقول إن لدي برنامجاً لهذه العطلة" مكافأة له، سيزور الريو وسان باولو ومونتفيديو ويونس أيرس برفقة، وعلى حساب المخلصات الكريزمات لشكله الخارجي ومواهبه الكبيرة. هذه المرة، مع ذلك، فإن السيدة بياتريز لا تحتاج إلى الاسترضاء والمناقشة، وبصورة غير مرتقبة عرض دانيال نفسه للسفر: "أريد أن أغير أجوائي يا ماما"؛ فهذه الطريقة فقط يستطيع أن يتحرر من السيدة بيرولا شوارتز لياون، الجرثومية التي تحافظ على نفسها بمواد التجميل والجواهر. كاريكاتور صبية تستدعي البكاء، حتى إنها لم تعد تستطيع أن تضحك عالياً لكثرة ما شددوا من جلد وجهها، والمال عندها رُزم وتفوح من فمها رائحة الثوم.. أرملة ساوباولية، ستينية، في زيارتها إلى كنائس باهيا، وبالذات في كنيسة سان فرانسيسكو التقت بالطالب الشاب، الجميل المتدين، فأضاعت عقلها وتكوينها واستأجرت بيتاً على الشاطئ وفتحت له جيبها العامر. وراح مال صناعة الحقائق يتوجه مباشرة إلى جيوب تانيا الداعرة الخلاسية الواصلة للعمل حديثاً في بيت عزاب بيسورسيا وصديقة دانيال الحميمة.

تملّص من الاثنتين في الوقت نفسه، فأية عملية جراحية لا يمكن أن تقضي على رائحة الثوم في عنق السيدة بيرولا كما أن المال والدلال قد أزعجا تواضع تانيا فحوّلاها إلى ملحاحة ومتطلبة. كانت تمنح دان نيراناً ذات وهج خفيف. لم يبقَ عنده إلا الهرب، وذهب مع السيدة بياتريز إلى حدود الولاية حيث كان الوالد يدير العدالة ويكتب قصائد الحب.

أما الأخت فيرينا التي كانت قد انتُخبت ملكة جمال الجامعة، والتي أضاعت لقب الملكة لتحيز اللجنة الواضح، فقد لفتت انتباه الأخوين إلى بعض القصائد الأبوية المنشورة في ملحق جريدة المساء الأدبي:

"بعض الأشياء تفعل ولكنها لا تُعلن وإن شعراً" وخلقاً فإن إيزابيل كان صورة عن أبيه، "إنه أوشتاكيو ممضوغاً مبصوقاً"، كانت السيدة بياتريز تقول بمرارة، "ومن الذي لا ينخدع به؟ إني أعرف مملكتي". أما دانيال المشابه لأمه فكان ذا رأي مختلف: "لكل واحد طريقته التي تروق له، فاتركي الآخرين وشؤونهم. إذا كان يعجب الوالد أن يجسد إيماءات فلاحته الصغيرة أبياتاً من الشعر الإباحي فهي مشكلته هو فلماذا تنتقدينه؟ وحيداً في هذه المدينة الصغيرة المضجرة، حيث لا زوجة ولا أولاد يتفرغون لمرافقته، فإنه كان يقتل ضجره برواية المقاطع والقوافي الصعبة، خيراً يفعل. ماذا يعني الوكر المسعور بحق الشيطان؟ مع كل ذلك لا يوجد قاموس في هذا البيت".

القصائد الشعرية أيقظت فضوله، وعند وصوله إلى كاجازيراس حاول أن يكشف ملهمة توقدات والده الملهبة. وكان ماركوس ليموس الموظف الكبير في مكاتب المصنع وزميل القاضي في الآداب، من أعطاه إيضاحات عن بلينيا وبفضح علي، وكان ماركوس هو من كلمه عن تريزا باتيستا على التوالي.

عندما جاء في المرة الأخيرة إلى قصر العدل، كان شاباً في السابعة عشرة من عمره، فراح يحتك بالشابات هناك بجنون جنسي، وفي منعطف الممر تلمس صدر المتزوجة ذات الخصائص نفسها في مخاطرة جريئة وكان ذلك كل شيء. الآن وهو يمرّ في محلة ماتريز وينزل الشارع العام امتلأت النوافذ بالضحك والنظرات؛ عذارى بالديزينات. محكوم عليهنّ بالعزوبة والعنوسة، تلك الكلمة الخبيثة الأكبر سناً وطأت رجلها حفرة العنوسة، الثانية قد وضعت الرجلين معاً، وإنهن مع ذلك محكومات بعدم التصديق والهستيريا والجنون؛ دانيال لم يرق قط إباحية وحنوناً بذلك القدر، وإنثاءً، هكذا، يتوسّلن الفحل. "إن الحكومة"، قال دانيال لماركوس ليما وإيرتون أمورين، أثناء مشاركته في جلسة الأدباء، "إذا كانت تريد حقاً أن تعني بالسكان، فعليها أن تتعاقد مع نصف دزينة من الرياضيين الأقوياء وتضعهم في خدمة الجماهير النسائية اليائسة..".

الفكاهي إيرتون أمورين صعق للفكرة:

- فكرة جيدة، ولكن من أجل جماهيرنا النسائية هنا، فإن من الضروري وجود دزيتين أو ثلاث على الأقل من الأبطال الدوليين.

إذا أراد أن يملأ شهر العطلة بمواكبة العذارى من خلف الأبواب وتحت إمرته المواد الكثيرة والاختيار الواسع، فعليه أن يكون منتبهاً وأن يحتاط كثيراً حتى لا يرتكب خطأ فيقطع برعماً أو عنقوداً حصرماً، وغير هذا لا تريد الفتيات التأثيرات لكي تضع الواحدة فمها في العالم! "النجدة! لقد أكلني، انتهكني، كنتُ عذراء، إني حامل، نادوا على الكاهن والقاضي"، وتعلنه محباً وخطيباً ويتم تعيين الزواج على عجلة. ولكونه ابن قاضي الأمور المستعجلة، فليتنجب هذه المجازفة، لم يكن جيله يفضل العذارى، فهو من جيل يفضل المتزوجات، الصاحبات، أو الطليقات من كل قيد. ولكن المتزوجات، هناك، في تلك الحياة الريفية لم يكن يساوين عناء نظرة واحدة وهنّ يفقدن باكراً بريقهن في الأعمال المنزلية والأعباء المترتبة، وفي الرتبة والقهر اليوميين. ودانيال كاد لا يتعرف على صاحبة الصدر المعتر التي احتكّ بها منذ خمس سنوات في لقاء ملتهب سريع؛ إنها الآن سمينة وربة أسرة ونصفها الأعلى رخو، ولونها قاتم. وواحدة أخرى، امرأة خبيثة ذات عيين كسيرتين وتستحق نظرة تفحص لا تقاوم، وهي ترد ابتسامته، فقد تكشففت عن ثغر تنقصه الأسنان المعوض عنها بجسور اصطناعية؛ تعاسة وعدم اكتراث مع بعض الامتعاض.

وهناك ما هو أبعد من خطر الفضيحة. تخيل رجلاً منتهكاً في عرضه، متعجباً من قرنين نبتا له فجأة، يتهمه، هو ابن القاضي، بتدمير القواعد المسيحية السعيدة وبتوسيع المؤسسة العائلية المقدسة، وهذا لن يفعل إلا الأسوأ: تهديدات بالتأثر والقتل، ومطاردات، وطلقات رصاص! ودان ذو حساسية ضد العنف من أي نوع كان.

لم يكن بمقدوره أن يتسبب بورطة كهذه لوالده، ولا أن يعرض نفسه لغيرة الريفيين من أهل الداخل البدائيين الذين ما زالوا يعيشون في زمن الخرافات عندما كانوا يغسلون بالدم الشرف الجريح. في العاصمة، فإن الزوج المخدوع يقتل فقط إذا كان من الطبقات التي تسمى بالطبقات الأقل شأنًا، وحتى القتل من هذا النوع أخذ يقل أكثر فأكثر. وابتداءً من فضيحة أكيدة، وإذا كان الغضب كبيراً لأن قصة

حب الزوجة كبيرة، فإن الزوج يعاقبها بالضرب، أما إذا كان عقله خفيفاً، وعاجزاً عن أن يتحمل عبء القرنين فإنه يهجرها ويذهب إلى أخرى؛ ولكن الأغلبية المطلقة تتلاءم، وبقدر ما تكون الأغلبية غنية يصبح التلاؤم سهلاً. دانيال خبير بهذه المواد ويمكن الثقة به. ولكن في هذا الداخل المليء بالمزارعين وأهل البنادق، وحيث لم تصل الحضارة بعد، فمن المستحب تجنب السيدات المتزوجات مع التأكيد على احترام العائلة القائمة شرعاً.

بالمقابل، توجد المصادقات: عشيقات، صاحبات، حبيبات، بنات هوى، عزباوات يعشن مع متزوجين، وهذا لا يصل بالعلاقة إلى حدود مفاهيم الشرف التي يبت فيها القاضي والكاهن؛ فقط قضايا حب، واتفاقيات مالية، وخطر الفضيحة مع ذلك معدوم تقريباً، وأقل منه خطر العنف، ومن الذي سيشعل فضيحة بسبب العشق ويموت من أجل صاحبه؟ وفقاً لمفاهيم دانيال، في هذه الحالة، لا يمكن تشويه الشرف المصان.

امتحان سريع لمقاييس الحب المحلية يبين فوراً الذوق السيئ السائد في العلاقات الغرامية: تقدير مفرط للسمنة واعتبارها عنصر جمال وشرطاً للزواج بسبب المقتضيات المنزلية، وعلى الأخص المتعلقة منها بالطبخ، والعشيقة الجيدة يجب أن تكون طبّاخة ذات يدين ساحرتين في الطهي... هناك ثلاث فقط جذيرات بالاهتمام، واحدة منهن لا يستطيع أن يتعامل معها بإنصاف ويعلنها صديقة أو أي مرادف من مرادفات هذه الكلمة الناعمة: لكونها أيضاً، خادمة مملوكة لنزق السيد الكبير وغسل شراشفه.

الأولى تلك، خلاسية بيضاء ذات كعب عال، ولحمة رخيصة، هي الآن ممتلئة الجسم بيضاء اللون، سوداء الملامح وذات فم شهوي على وجه هادئ، وهي بالتأكيد جيدة في الفراش، ويمكن ملاحظة هذا الأمر من الغدة الصعترية في ردفها وهي منذ أكثر من خمس سنوات زوجة شرعية للمراقب القضائي إيرتون أمورين لكون زوجته الثانية مقعدة على كرسي طبي ذي عجلات، وكان بصعوبة قد طرح الموضوع للنقاش مع مكانته المرموقة وحصل على فرصة الظهور على التوالي أمام الكاهن والقاضي. وهكذا فإن القاضي قد زكى الأمر، وسمح له بالانتقال من هذه إلى تلك، وفي النهاية، يا أمّ السماء، راحت الأولى تقضي يومها جالسة

على كرسي ذي عجلات، غارقة، بصمت، لا تقوم بعمل شيء وتحمل فقط بقية نور، إنها ليست الحياة بالنسبة إلى أحد. الثانية، هي الأخرى ذات شكل مقبول، وذات نكهة أصيلة، والمعني بها هي بلينيا، عشيقة القاضي، ومن البعيد، تبيينها ماركوس ليموس في الشارع، من حيث جاءت، ومعها الخادمة، إلى طبيب الأسنان؛ عجل دانيال في الخطو ليلتقي بها ويراقبها من قرب؛ حسنت بلينيا من مشيتها المفزلة، وعلقت عليه عينيها المجازفتين لتتعرف عن قرب على ابن القاضي، فابتسم لها دانيال بلطافة وحيّاها: "البركة، أماء..." لم ترد عليه ولكنها وجدت النعمة في الضحكة العريضة، والعينين المطرقتين، وأدارت قفاها وذهبت... كانت خلال غياب صاحب الفضيلة القاضي تعزي نفسها مع قريبها، وهذه أمور عائلية. كانت قادرة على أن تجذب اهتمام الطالب وهو في عطلة الجامعة وإجازته من الحياة الصاخبة في العاصمة. أمّا الثالثة فهي الفتاة الصغيرة، الحلم، التي، قربها، كل الأخريات لم يعدن موجودات، بالله كيف تنبت في الأرض القاحلة، فجأة، زهرة بهذا السحر؟ ماركوس ليموس باعتزازه في أن يكون دليلاً سياحياً للشباب اللطيف، لم يستطع أن يقاوم ففضح وجود تلك القطعة الناعمة (كان قد أعطى لقب القطعة الناعمة قصائده المستلهمة عن تريزا) عشيقة النقيب... عشيقة بالمعنى الدقيق، لا، فقط نزوة من نزوات جوستينيانو دوارتي دا روزا. حدّق دانيال فيها. فطار صوابه، وإذا الوله نيران ملتهبة تحرقه.

25

سيئة شهرة النقيب... معتدّ، عنيف، مشاكس، ذو رغبات سيئة وغرائز أسوأ منها، ولكن دانيال الحذر، عدو الورطات، لم يحفل بأخبار ماركوس ليموس وعدها مبالغات من حافظ الوثائق اللطيف... كان دان يثق بنجوميته الثابتة وبتجربته العميقة في الحالات السابقة، فهل يصدّق ما يقوله الرجل الذي أعطى أهمية مبالغاً فيها لواحدة من العديديات، كيف يسمّيها دانيال؟ لنقل بنات؛ كلمة بمضمون محدود، أجل الكثير من اللطائف كان يهدي الواحدة ليحصل عليها، وبعدها، اثنتان أو ثلاث في الوقت نفسه، في المزرعة، في نزل، في زوايا الشارع، وعلى الأخص هنا في أعماق المخزن، في الأماكن المعدة لحياة الفتاة.

ولماذا يجب على النقيب أن يعرف؟ الحذر والاحتياط ضروريان؟ وفي الحيلة والحذر فإن دانيال يفوز بشهادة دكتور، في الحلقة الحالية فإن نجومية دان لم تخنه وتمت الأمور بمساعدة الظروف.

على الحدّ الفاصل مع المخزن، كانت تقوم دار آل مورائس، إحدى أحسن دور السكن في المدينة، تسكنها أخوات أربع من أرومة عائلية عريقة وورثات بيوت مؤجرة وأسهم في المزرعة الفدرالية؛ فرحات، منطلقات، جميلات، سيدات بيوت، مكتملات، يعشن في العاصمة، وبالتأكيد لا ينقصهن متقدمون طلباً للزواج، وبالتالي طلباً لحصة الميراث، ومع ذلك فإن الكبرى منهن في عامها الثامن والعشرين والصغرى في الثانية والعشرين، وكنّ يذبلن وقد حُكم عليهنّ بالعنوسة وليس لهنّ أهداف أبعد من الاحتفال بالأعياد الكنسية التساعية والثلاث عشرية، والقيام بالتحضيرات لعيد الميلاد المجيد وصنع الأقراص والحلويات، وقبل كل شيء، من الواضح أن اهتمامهن انصبّ على أعياد حزيران وظهور دانيال المفاجئ على الحدّ المجاور.

الكبرى ماجدة كانت تعزف على البيانو العزف الذي تعلّمته عند الراهبات، وكانت أماليا تغني أغاني "أعوامي الثمانية"، "الحمام"، بنبرة معبرة؛ وكانت برتا ترسم مشاهد طبيعية بأقلام تلوين وألوان مائية، ويمكن رؤيتها على جدران الدار الكبيرة وفي دور العائلات الصديقة، أما تيودورا فكان لها قصة حب مع قارع طبل يوناني شهير يعمل في سيرك الشرق الكبير، وقد تبادلت معه القبلات ولبست خاتم الخطبة في الظلمة وفي ضوء القمر، وهي التي تحدّثت أولاً عن الهرب، ثم هدّدت بقتل نفسها عندما اقتيد الرجل إلى مخفر الشرطة ليدي بالإيضاحات (بطلب من ماجدة، التي طلبته في السر إلى مركز الشرطة على أن لا يعرف أحد، لأنه إذا بلغ تدخلها الخفي مسامع تيودورا فسينهار العالم على رأسها) وقد وُضع قارع الطبل اليوناني أمام الحائط تحت تهديد سوط الجلد، فاعترف بأنه مواطن يوناني ومتزوج ولكن زوجته خائنه ثم تخلّت عنه. إفادة مخجلة وكئيبة. أما تيودورا فلربما كانت قد أوصلت شرف العائلة إلى الحضيض ولكنها واصلت ملاحقة الفنان الفقير وهو على حصيرة الخيزران الساحرة، لولا أنه لم يسرق البغلة في صمت الليل دون أن ينتظر فك جناح السيرك. حلقة رومانسية شاهدها المدينة مغناة قصيرة، ولكنها مكثّفة، إذ إن العشيقين معاً في كل مكان يقومان بعروض غزلية وتيودورا غير

مهمّة بالنصائح والنقد مع أحلام الحب التي تتحوّل إلى نواذر مضحكة، وما يزال الأمر حتى اليوم موضع شك يتحدّى لباقة العمّات؛ هل أن ملك الطبّالين الدولي (هكذا كانوا يلقّبونه في تقديم برامج السيرك) كان قد أغوى الشابة تيودورا، وجردّها من عذريتها، أو أنه أبقاها عذراء؟ في الساعة الحاسمة تخبر الأخوات الساعيات إلى الحقيقة بكل ما لديهنّ من إرادة ليعرفن، فإنهنّ لم يعرفن، والأكبر سنّاً المهتمة بإظهار نفسها بمظهر غير المكترث، النقيّة والمواليّة لتيودورا نفسها، كانت تحتفظ بالشك، وهي تحيب، بغمغمات، وبظنون غامضة وبتنهيدات عميقة عن كل تلميح أو محاولة استيضاح، وبينما تهدّد بالانتحار، منذ انطلاق السيرك، فإنها استنفرت ماجدة:

- تعرفين، يا ماجدة أني قلقة، لا تقولي شيئاً للأخوات.

- منشغلة؟ لماذا؟ ما الذي لم يأت؟ قولي حياً بالله.

- عادتي الشهرية.

- هل تأخرت كثيراً؟

- "تأخرت عدة أيام مع بعض الألم في الثديين وهناك بعض الظواهر الأخرى يا ماجدة"، وجمعت ماجدة الأخوات سرّاً "تيودورا حامل، إنها مأساة، ماذا يجب أن نفعل؟ لقد تحدثت عن قتل نفسها، وهي قادرة على كل شيء". "إنها مخبولة... فلتسبق حاملاً"، قالت أماليا، ورأت ذلك عملاً جيداً، والاستفادة من الجنين أفضل من الإجهاض، ولكن فيما يتعلق بتيودورا، فإنها ترى أنه من الضروري المناداة على القابلة نوكنيا؟ "اختصاصية، تصنع العجائب، نوكنيا؟" "اختصاصية، بلا شك، ولكنها طويلة اللسان، عاجزة عن الاحتفاظ بسر"، اعترضت ماجدة؛ "أليس من الأفضل لنا الاستنجاد بالدكتور دافيد طبيب العائلة؟" "لا نوكنيا ولا الطبيب" في رأي برتا: "أن تيودورا تريد أن تخلق لنا أشياء سخيفة لكي نفكر أن الأمر قد انقضى". "وأنت هل تظنين أنه لم ينقض؟" "أجل أظنّ ذلك، لم ينقض، إنه لم يأكلها، ولم يقتحمها..." "يكفي"، أمرت ماجدة، الأكبر سنّاً، "فلنتظر إذا".

لم تدم الإثارة طويلاً، وجاءت العادة الشهرية، ولكن تيودورا ظلت غامضة بعيدة وخطيرة، مع ذلك الشعور بالتفوق، شعور من يمتلك ماضياً وعنده أسرار؛ واستمرّت الأخوات بالشك والغيرة وهنّ يناقشن الموضوع، والمدينة أيضاً، ما تزال

حتى اليوم في الشك المحير... تيودورا، في النافذة مع أحلامها، العيان في البعيد والتنهيدات في الصدر... إنها بين غامضات كاجازيراس الشمالية الأكثر غراماً ويشكل مخزن النقيب جوستو المتلهي الأكثر ديمومة، للأخوات الأربع، وهن في نوافذ الطابق الأول من دارهن يراقبن الزبائن، ويسجلن حجم المشتريات، ويجن على التحيات، ويقتلن زمن الأشواك الطويل. ولكن الحركة في المدة الأخيرة ازدادت كما ازداد الزبائن الذكور؛ ماجدة، بحجة الأشغال غير القابلة للتأجيل عند الموظفة، ذهبت إلى المشتريات، واستوضحت سبب التجمع الجديد. لقد عرفت فوراً: فضول يتعلق، بالفتاة التي تجمع الحسابات، فتاة النقيب، مملوكة جديدة، ذات شعر مسبل، وهيئة قلقة، هكذا وصفتها ماجدة للأخوات، وهو مع ذلك، وصف صحيح. مع الوقت، تضاعف الفضول، وفقط ماركوس ليموس بقي زبوناً دائماً يشتري السجائر صباحاً والثقاب مساءً وهو يعود من مكتب المصنع.

عندما شوهد دانيال للمرة الأولى يستجلي بانتباه مرفهات الدار الأنيقة، فإن الأخوات الأربع تشبثن في مقاعدهن وجلست ماجدة خلف البيانو، وملأت المكان بالحنان الفالس، وكيفت أماليا صوتها وكيفت برتا الألوان المائية.. من المستحيل وجود أجمل منه وأكثر فروسية، مهذب، "أليس هو الطالب في العاصمة وابن القاضي"، قالت أماليا الخجولة التي كانت قد وصلت إلى الباب المؤدي إلى الشارع حتى تنقذ من الخطر الهر السمين ميموزا الذي راح طليقاً في الشوارع، وإذا بدانيال يقطع الطريق على الهارب، ويأخذه بين يديه ويعطيه لأماليا المرتبكة، وتحيات عريضة، وابتسامات وتطلعات، تحيي ماجدة وبرتا عندما ظهرتا في النوافذ، وشكر بكلمات شعرية على كأس الماء البارد الذي طلبه فقدّمته تيودورا بشخصها. في اللحظة نفسها من وصول النقيب جوستو، الآتي من المزرعة الذي، وهو يترجل من الشاحنة، شاهد تبادل الابتسامات والكلمات اللطيفة؛ كانت تيودورا منحنية أفضل انحناء لإظهار ثدييها عبر أطراف القميص بينما دانيال الشاب اللطيف، يقبل يدها:

- مرحباً بالنقيب.

- كيف تجري الأمور في هذه الأرض؟ وفي حين تقدّم دانيال ماداً يده ليسلم، فإن النقيب خفض صوته للمحادثة الخبيثة "أرى أن الصديق لا يضيع الوقت وقد قام بسطو مسلح".

علّق دانيال على الملاحظة بابتسامة تأييد؛ أخذ النقيب من ذراعه، وعيناه في الباب حيث كانت تيودورا تعرض صدرها، ثم حوّل نظره إلى شبائك الطابق الأول حيث تقف ماجدة، وأماليا، وبرتا، ولكل واحدة نظرة وبالذور... غطاء أفضل من هذا لا يمكن أن يكون؛ عزباوات جئن من السماء، ووقفن إلى جانبه. ومع ذلك فالفتاة الأخرى، وعلى الرغم من المشاكل، تستحق المجازفة ورمي النفس في المخاطر والحقارات، ومع صغيرة النقيب تلك في متناول اليد، ذلك السحر، كيف يمكن التفكير في امرأة أخرى؟ ودخل إلى المخزن آخذاً بيد جوستينانو دوارتي دا روزا.

26

فجأة أحسّت تريزا بثقل العينين اللتين ترمقاهما، فرفعت بصرها، بينما كان الشاب يتحدث مع النقيب واثقاً من نفسه؛ لعدم الاكتراث وبسبب الخوف، لم تكن تريزا تجد أية متعة في تبادل النظرات مع الزبائن، ومع ذلك كانت تلاحظ دخول وخروج ماركوس ليموس، والنظرة الشهيدة، والابتسامات في حضوره اليومي. غليظ، غير مرغوب، وكبير في السن مع سنواته الخمسين، فإن ماركوس ليموس كان يغمزها ويقوم بحركات غزلية. إنها المرة الأولى التي يفتر فيها ثغر تريزا عن ضحكة عند رؤيتها رجلاً وتحقق بعينها في شاب من الشارع، ثم راحت تتجاهله وهي تثبت نظرها على الدفتر الذي كانت تسجل عليه الأسعار التي يهتف بها بومبيو أو بابا موسكاس، وشيكو نصف الكعب عندما جاء بالصدفة، رجل الثقة يساعد في الحسابات. كان شيكو الذي يهتم بكل خدمات الشارع، من تسلّم البضائع التي تصل في القطار أو على ظهور الحمير، إلى الأشياء المعادة إلى الحمالين ورجال القوافل وأصحاب الشاحنات، وتسديد الأجور الشهرية والمدفوعات المتأخرة، قلّما يخرج إلى الشرفة. وكان ماركوس ليموس يتأخر في إشعال السيجارة بانتظار صيد نظرة من تريزا، وبانتظار أن يراها تضحك مرة أخرى. وكان ينصرف في النهاية. متأكداً من مكانه الطبيعي في الطابور: الاسم الأول في لائحة غابي، ولا يأتي أحد قبله في المخزن، وعندما ستجد نفسها وحيدة، في طريق المראה التي يضعها عليه النقيب، ستتذكره، فيعد نفسه في المركز الملائم.

مع قهقهات الضحك، رفعت تريزا رأسها من جديد، وكان الشاب يضع عينيه فيها من أعلى كتفي النقيب المنحني؛ إذ كان النقيب ينحني فوق تجويف بطنه في واحدة من تلك الضحكات التي لا يسيطر عليها. كان الشاب يتسم بينما يضع يده فوق الطاولة: الشفتان نصف مفتوحتين، العينان منكسرتان، الشعر متدرج، والنعومة في الوجه، فلماذا كانت تريزا تعرفه إذا لم تكن قد التقت به سابقاً؟ لماذا كانت ابتسامته كأنها اليقين عندها. فجأة تذكرت: إنه يشبه الملاك في صورة البشارة المقدسة الموضوعة في البيت الريفي على حائط الزنزانة، مثله، شبيهه بالتمام والكمال. تلك الصورة كانت الشيء الأجل الذي رآته تريزا في حياتها؟ إنها ترى الآن الملاك بنفسه، وبينما تخفض عينيه ابتسمت رغماً عنها.

كان بابا موسكاس يُملّي عليها الجزئيات: كيلو ونصف جابا بألف وأربعمئة، ثلاث أرطال طحين بثلاثمائة، رطل فاصولياء يابسة بأربعمئة، ليدر كاشاسا ومائتا غرام من الملح. بعد ذلك، انطلق صوت النقيب يضجّ بالضحك:

- تريزا، عندما تنتهين من عمل الحساب اذهبي وأعدّي القهوة.

كان دانيال يستعرض سيرة بيوت العزّاب والملاهي في باهيا: الجميلات، الأسماء، الألقاب، العمليات والنكات، وكان جوستنيانو دوارتي دا روزا يحب أن يسافر هناك، وكان الشاب يجد متعة في رواية تلك الأشياء.

وضعت تريزا الصينية فوق الطاولة وعليها ركوة القهوة والفناجين الصغيرة والسكرية، وبينما كانت تصبّ القهوة سمعت الشاب يقول للنقيب دون أن يرفع عينيه عنها بتوسّل وإلحاح:

- "يا نقيب بينما أحاصر القلعة، ألا أستطيع استعمال المخزن ملجأً مؤقتاً؟" انطلقت في الهواء رائحة القهوة، فارتشف دانيال جرعة من فنجانته "الذيذ! وهل أستطيع من وقت لآخر الحصول على قهوة كهذه؟"

- "من السّابعة صباحاً وحتى السادسة ليلاً يكون المخزن مفتوحاً وتحت تصرفك، أما القهوة فيكفي أن تطلب" وأمر تريزا "عندما يأتي الصديق دانيال إلى هنا، وأظن أن مجيئه سيتكرّر" ضحك، وهو ينقر بإصبعه الكبير بطن الشاب "اعملي له فنجان قهوة. وإذا كنت مشغولة، فسينتظر، ليس مستعجلاً، أليس كذلك يا صديقي؟"

- لا عجلة، يا نقيب، كل وقتي الآن مكرّس لهذا الموضوع بنوع خاص، عيانه في تريزا كأنه يتكلم عنها وإليها.

اختفت تريزا مع الصينية وفناجين القهوة، قال النقيب:

- لاحظ تيودورا! هل كنت تعرف أن اسمها تيودورا؟ وتنادى بتياو، يقولون إنها لم تعد تملك شيئاً تدافع عنه، إنها طريق مفتوح، وأن فناناً في السيرك مرّ من هنا حقق فيها ربحاً... أنا شخصياً، لا أشك، وأقول لك بصراحة، أن يكونا قد تبادلا قبلاً وعناقاً، فبالتأكيد وأنا شخصياً رأيت من هنا، من المخزن، الاثنين بفم واحد في باب بيتها، ولكن أن يكون هناك أكثر من ذلك، فلا أعتقد؛ وأين، بحق الشيطان، كان يمكن أن يضيئاً الشمعة؟ فكاجازيراس ليست باهيا حتى لا ينقص مكان، ولا حتى غابة كثيفة يستطيع أن يبقى الواحد فيها على راحته؟ هذا دون أن نقول إن الناس هنا بعضهم يراقب حياة الآخر، وسترى قريباً. فقط شخص واحد لا يتعاطى هذه الأمور ويفعل ما يريد، إنه خادمك الحاضر هنا. أتركهم يتكلمون وأذهب لأكل الأحسن والأفضل، وبالمقابل، لا أتعامل مع أناس متحفظين من قماشة الجارات... عندما أتعامل مع أمثال هؤلاء، فسأفضل الزواج. أفضل صيداً طازجاً لا يسبب التعب ولا وجع الرأس. وللكلام بصراحة، أظن أن الفتاة والفنان المذكور، راح يدفئ أحدهما الآخر، فإذا كانت قد أحسّت بثقل ما فهو ثقل اليد، والباقي كلام في كلام. على كل حال، سواء أكانت عذراء أو لم تكن، فهي قطعة من الجمال.

رفع دانيال صوته بينما نظره إلى تريزا، وإليها توجه بالكلام من أعلى كتف جوستنيانو دوارتي دا روزا:

- إنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي.

- إيه! ما هذا؟ لا تبالغ. ليس فقط أنها لا تروق لي وليست من النوع الذي أفضل، ولا لأني لا أقدر الجمال، ولكني أعطي الأفضلية لحديثات السن ولأني أيضاً عرفت كثيرات أفضل منها، ولا مجال للمقارنة. في أراكاجو في بيت عزاب فناندا توجد أجنبية إنكليزية أو بولندية، أعرفها: شقراء بكليتها، من الرأس إلى القدمين من شعر الذراعين إلى شعر البطن، الشعر يكاد يصبح أبيض لكثرة الشقرة، وهي تقول إن هذا الشعر له اسم في بلادها، لا أعرف ما هو، من الفضّة.

- بلاتينيوم أشقر. أكد دان.

- هذا بالذات، ليس كالشقرة الخاصة بنا، إنه أجعد محمر، شيء آخر، مثير. إن في نيتي الذهاب إلى أوروبا فقط لشراء أجنبية جديدة، ذات شعر أشقر وجسد أبيض بكليته.

كان دانيال يرهف سمعه، وعيناه مركّزتان على الفتاة، وكذلك تريزا باتيستا، لم ترَ قط أحداً جميلاً مثله. لا أحد؟ ربما الأستاذ صاحب المصنع، ولكنه كان مختلفاً، ودون أن تريد، تقع عينها على دانيال، وبإغراء تفتح شفيتها وتبتسم.

27

إنها في وضع معقد، تبتسم دون أن تعرف لماذا، وتنظر دون أن تريد.. والشباب في دوران، مشوار إلى فوق، آخر إلى تحت، ومرة من داخل المخزن ليكلّمها كان فقط يطلب كوب ماء. "ألا تقبل فنجان قهوة؟" "سأذهب إلى الداخل لأمشي". تريزا لا حول لها ولا قوة، الصوت يرتجف، خجلة، ما دام منتظراً فإن دانيال كان يقدم السجائر الأميركية إلى الباعة؛ سجائر مهربة، ولم يكن الشابان في المخزن يسيئان الظن، فهما مقتنعان بأن موضوع الفيلم كان شيئاً آخر وأنه يلعب مع تيودورا ورقة الصبية الأكبر سناً. وبرغبة كبيرة كانا يرافقان وبثبات، اللصّ الآتي من مدينة كبيرة ليقع في شباكه الضحية البريئة، ومع ذلك، فإنه كان لصاً ظريفاً ولم تكن الصبية بريئة إلى ذلك الحد.

في سرير الحديد وعلى فراش الصوف المكّيس بصورة نهائية، في غرفة بومبيو يتخيّل الأخير أنه يقبل وجهها البريء، بنكهته وتفجّره بالرغبات، وأنه قد نام عدة مرات مع تيودورا وأخرى مع تريزا. ويتخيّل نفسه في أوضاع مثيرة قد امتلك الواحدة بكفّ يده اليسرى والأخرى بكفّ يده اليمنى؛ هذا بالإضافة إلى عدة ممثلات سينمائيات وفتيات محليات. والمفضلات عنده تيودورا ومرلين ديتريتش؛ وعلى الفراش الموضوع على ألواح خشبية الخاص بابا موسكاس، القاتم، ذي الشفتين الغليظتين والشعر الزنجي الكثيف والمجعد، فإن الأخير يحمل على يده المثقلة بالأحلام كلاً من تيودورا وأخواتها الثلاث، والعديد من الزبونات وتريزا، وكذلك، اعذرني يا صديقي العزيز دان، السيدة بياتريز التي تخيّل بابا موسكاس أن الفرصة قد

سنحت له برؤيتها عارية، خلال العطلة السابقة عندما كان يعمل ساعي بريد لدى قاضي الأمور المستعجلة قبل أن يُصبح محاسباً، وبعد الحمام تحيّل بابا موسكاس أن السيدة بياتريز كانت قد تعرّت في الغرفة وعادت وعليها المساحيق ومواد التجميل الطبية، والطور، لتلوح له عارية وهي تضع على جسدها منشفة وجه لم تكن تغني عن شيء؛ وأمام الباب، في الأيام السعيدة، فإن المملوك قد لمس أماكنها الغزيرة شبقاً: هذه السيّد أنظفهن، فهي تضع العطور حتى في (...). أما المفضلة المتقدّمة عليهن جميعاً في خيال بابا موسكاس فهي تيودورا، تياو المشكوك في أمرها، وكان بابا موسكاس يتخيّل فنان السيرك وهو يضع بصماته عليها.

كان يحدث أن تأتي تيودورا إلى المخزن لبعض المشتريات، وفستانها متألّئ متطاير، والياقة عند منحنى الثديين، وكانا يتنازعان، (بلعبة المفرد والمزوج) الحق في خدمتها وتكحيل النظر بامتداد عنقها فانفراجة. وكانت تتظاهر بأنها غير منتبهة. ولكنها كانت تشارك في لعبة البائعين مؤخراً المشتريات ومفاصل يديها ملقاة على الطاولة لكي يزداد طرف الفستان من ناحية صدرها انفراجاً: وكانت تأتي دون أن تضع حاملة أثداء. مع المشتريات كانت تأتي معها بالبائع المسكين المحكوم عليه. وفي ليالي السهاد كانت نظرات البائعين الوضيعين الهروبية مادة حلم لتيودورا... لا تكاد تعطي ظهرها حتى كان بومبيو يصبق في كف يده اليمنى ويقذف في إناء البول، أما بابا موسكاس فكان يحتفظ بالرؤيا المتوقّدة لليلة الحب.

بالنسبة إلى الاثنين لم تكن هناك أمور غامضة: إذا كان دانيال لم يأكل تياو بعد فلن يتأخّر في أكلها؛ ولم يمر في رأسيهما أبداً أن الطالب يمكن أن يكون مهتماً بتريزا. ولم يكن ذلك فقط بالحكم عليه بأنه عشيق تيودورا، بل لأنهما ينسبان تريزا إلى النقيب. فقط هارب من مستشفى المجانين يجرؤ على مغازلتها، إلا إذا كان الأمر بالسرية المطلقة، باليد، والبصقة، وفي ظلمات الليل.

ولم تكن تريزا لتبقى دائماً أمام الطاولة الصغيرة لإجراء الحسابات. كان عليها أن تهتمّ بغرفة وملابس النقيب. أما تنظيف البيت والمخزن من الأوساخ وحتى آنية البول فإن البائعين كانا يقومان بها لدى وصولهما في الصباح الباكر.

كان شيكو نصف الكعب يضع القصعة على النار وفيها الفاصولياء اليابسة، واللحم المجفف والكزبرة والقرع والبطاطا وقطعة كبيرة من الصوصاج الرديء.

وكان قد تعلّم الطبخ في السجن. عند الظهر، وعندما تخفّ الحركة داخل المخزن، كان شيكو والبائعان الآخران يدخلون لتناول الغداء بينما تبقى تريزا وحيدة في المخزن للخدمة إذا ما دخل زبون ما.. وعندما يكون النقيب في المدينة فإن تريزا تضع منشفة على الطاولة، والصحون، والملاعق وتصبّ له الكاشاسا قبل الغداء، والبيرة خلاله. كان أكل جوستنيانو يأتي من نزل كورينا في طنجرة كبيرة ومتنوعة المحتوى. وكان النقيب يأكل على راحته، عدة صحون، ويستطيع أن يشرب بقدر ما يرغب ودون توقف، أما شيكو نصف الكعب فكان يحقّ له بزق من الكاشاسا عند الغداء وآخر عند العشاء، زق واحد، بجرعة دفعة واحدة. وتعويضاً عن ذلك، كان في ليالي السبت وفي غروب أيام الإجازات والأعياد المقدسة، يشرب حتى يقع كالميت على فراشه، أو في غرفة امرأة عامية رخيصة. في غياب السيد، لم تكن تريزا تضع منشفة على الطاولة، ولا تستعمل ملاعق، تأكل بيدها الأكلة الطيبة التي صنعها شيكو ودلّلها بأغنية.

استفهم دانيال بسرعة عن عادات وتقاليد المخزن بأسئلة يطرحها في بعض المناسبات على البائعين، في حين، وليستمر في إعجاب الشاين، كان يعرض نفسه على الأخوات الثابتات على شبايك الدارة.

الأخوات قلقات، يفترسهن الاستغراب وقلة الصبر: لماذا هذا الحياء السخيف؟ إنه واصل من العاصمة بشهرة الجريء الفاتح، مرعب الأزواج، وحتى بسمعة جيכולو، السيدة بونسيانا دي أزفيدو العارفة بسيرة دان في مشواره على الحدود المجاورة كانت قد ذهبت في زيارة وفصلت الفضائح، فذو التكوين الجميل ذاك كان يبقى بعيداً، كتوماً، دون أن يحاول تقرباً، ضائعاً، في الأوليات، وما كان أيضاً فوق المألوف، هو اهتمامه بالأخوات الأربع على قدم المساواة، يوزّع عليهن نفسه لطفاً وانحناءات في الوقت نفسه. ومن يعرف، ربما يكون سبب الحياء غير المعقول هو صعوبة اعتماد واحدة منهن! تيودورا الأصغر سناً، البطلة، أعطت انطباعاً لا يقبل الجدل بأنها السبب الوحيد لوجود الطالب هناك قبل الغداء وعند نهاية بعد الظهر... ولكن الأخوات يدّعين وكل واحدة تدّعي الأفضلية "اليوم قال لي وداعاً" تشير ماجدة "رمى لي قبلة" تعلن برتا "قام بحركة وكأنه يقربني إلى صدره" تقول أماليا. أما تيودورا فلم تكن تقول شيئاً، إنها سيدة الحقيقة. الأخوات الأربع ملتزمات بمعركة من الفساتين والتسريحات

والماكياجات والحرير والجوخ الذي تفوح منه رائحة النفثالين إذ كانت الخزانات قد فُتحت... من قبل كنّ متّحدات، أما الآن فإنهنّ متخاصمات ضمن مناخ من عدم الثقة والإباحية، وبكلمات فرحة وضحكات تهتّك تقف كل واحدة في شباكها ودانسيال في المكان المقابل والابتسامة على فمه، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم يقوم بمشوار صعوداً وآخر هبوطاً تحت شمس منتصف النهار أو مع لفحة برد السماء ويستريح في ظل المخزن... تنهدات الأخوات الأربع لا تتوقف على الشرفات؛ كانت برتا تذهب مسرعة لتبول، إذ كان يكفي أن تراه يمر حتى تحسّ بالبرد في الأسفل، وكان عليها أن تمسك نفسها وهي تسرع إلى الحمام.

والنقيب أيضاً أراد أن يعرف تطورات دانيال:

- والآن هل تذوّقت الفاكهة؟

- بهدوء، نقيب، عندما يحصل سأخبرك.

- فقط أريد أن أعرف إذا كانت باكراً، أراهن أنها باكر.

- ليسمع الله منك يا نقيب.

بقي الاثنان في سجال شعري حي ومضمون واحد لا يتبدّل.

حياة المواخر في باهيا هي موضوع أطروحة مثيرة لجوستنيانو دوارتي دا روزا؛ لقد غزا دانيال ثقته، وذهبا معاً إلى نزل غابي لشرب البيرة ورؤية النساء. وفي حين يضع ظهره على طاولة المخزن الكبيرة فإنه يقوم بتحليل نقدي للدعارة الرفيعة المستوى في المكان، كما أن دانيال بحضور النقيب كان يقصّ جناح تريزا في تغيير لغة كلام العينين والابتسامات المحمّلة بالعواطف، إنه يهيئ الموقع.

- بضاعة متدنّية، نقيب، بضاعة غابي هذه... إنها بصراحة متوسطة الجودة.

- لا تقل لي إنك لم تقدّر تلك الفتاة؟ فهي في الحياة العامة منذ لا يزيد على

الثلاثة أشهر.

- لم تكن شيئاً كبيراً. عندما يأتي النقيب إلى باهيا فإنني سأكون دليله

السياحي وسأريك ما هي المرأة. لا تقل لي من جديد إنك تعرف باهيا جيداً! من

لم يرتد بيت عزّاب زفرينا، ولم يذهب إلى بيت ليزيتي لا يعرف باهيا. ولا تأتي بمثل

البولندية في أراكاجو لأنني سأريك شقراء حقيقية، بلاتينيوم أشقر بالفعل، لا بالشعر

المصبوغ، ويا للمستوى الرفيع!

- متى تذهب إلى باهيا يا نقيب؟ ضع التاريخ وأنا أراهن على روزاليا بعشرة ضد واحد. إذا لم تنجح، فإن الحفلة لن تكلفك شيئاً، مجانية.
- قد اذهب إلى باهيا خلال هذه الأيام، مباشرة بعد الأعياد. لقد تلقيت دعوة من المحافظ لحضور حفلة الثاني من حزيران وسيتم الاستقبال في القصر. إنه صديقي وقد عرفني عليه أحد رجال الشرطة.
- هل ستأخر هناك؟ من يعرف فقد ألتحق بك.
- أنا نفسي لا أعرف، وكل شيء متعلق بالقاضي، عندي قضية في المحكمة. إنني أستخدم من المناسبة لأرى الأصدقاء، في وكالات الدولة، وهم رجالات حكومة، وأعرف أناساً كثيرين في باهيا؛ هنا، بعد آل غويدس، فأنا من محل المشاكل. سأأخر ما يقارب الخمسة عشر يوماً.
- مع هذه المدة، لن أستطيع اللحاق بك، فقد وعدت العجوز بالبقاء معه طيلة الشهر. ودون أن نتكلم عن الجارة التي عليّ أن أستجلي موضوعها، وأكتشف الحقيقة وما إذا كانت عذراء أم لا.. بالنسبة لي هي نقطة الشرف. ولكن دعنا نفعل الآتي: إنني أعطيك كتاباً تحمله إلى روزاليا، ويفتش عنها الصديق باسمي في الباريس.
- ملهى الباريس؟ أعرفه، لقد ذهبت إلى هناك.
- أجل إنها تغني هناك طيلة الليل.
- إذا، أعطني الكتاب، وسأعرف عليها. ولكن أنذرها لكي تحترمني وتهتم بي شخصياً. إذا كانت لا تريد أن تتعرض...
- إنني أتمسك بالرهان، يا نقيب، وروزاليا ستقبلك رأساً على عقب.
- المرأة التي تأمر النقيب لم تلد بعد، فكيف يمكن أن تجعل منه كلباً فرنسياً.
- الرجل الفحل لا ينحدر إلى هذا المستوى.
- مبلغ الرهان، كونتو كامل، مقابل مائة ألف ريس.
- لا تكرر هذا الأمر وإن بالمزاح، ورهانك أرفضه، اكتب لهذه السيدة، وقل لها بأنني أدفع لها مباشرة وأن عليها أن تحترمني، وأن لا تأخذني طريدة عندما أغضب فما يجب أن تعرف غضبي.

شهرة سوء، وتافه فرح، استنتج دانيال. ماذا يمكن التفكير في شخص يعلق في عنقه عقداً من الخواتم الذهبية وكل خاتم يذكره بأولئك العذارى البائسات

التيّيمات اللواتي اغتصبهن. وبينما يلوك النقيب فحوليته كان دانيال يقوّض تريزا بإغراءاته.

كان يغري تريزا، دون أن تريد، ودون أن تعرف لماذا، ورغماً عن إرادتها، فإن تريزا كانت تردُّ على نظراته: يا ليتنك العينين الحزینتين، الزرقاوين العميقتين، ويا لذاك الفم الأحمر، والشعر، إنه ملاك هابط من السماء. وعندما خرج النقيب والملاك إلى الشارع مسترسلين في الحديث الذي لا ينتهي خبأت تريزا في صدرها الوردة التي جاء بها... من خلف ظهر النقيب كان دانيال قد أراها الوردة العطرة ثم قبلها ووضعها على الطاولة الكبيرة... بالنسبة إليها فقد قطفها وقبلها، واستقرت على الطاولة وردة حمراء وقبلة حب.

28

في نهاية أسبوع الذبذبة والعصبية، طرحت ماجدة المشكلة، مع ما لديها من سلطة الأخت الكبرى، على طاولة العشاء:

- لا بد أن يحدّد موقفه. كائنة من كانت الخطيئة التي يختارها، فإننا جميعاً سنكون موافقات، والثلاث الباقيات يلتزم بهذا الاختيار، ويذهبن للعناية بتجهيزات العرس.

- أن يخطب الأربع معاً أمراً غير ممكن، إنه واحد.

- جيد أن يكون قد اختار اثنتين على الأقل... إنه أمر عظيم!

قالت أماليا ذلك، مظهرة اعتراضها على أي اتفاق.

- لا تقولي حماقات، ولا تكوني مدعاة سخرية.

- "من تكون مدعاة سخرية أكثر من امرأة متقدمة في السن تجري وراء شاب في مستقبل العمر". ومع العصبية التي كادت تنفّر من جلدها رأت ماجدة نفسها معتدى عليها فأجهشت بالبكاء.

- "إني لا أجري خلفه، هو من يجري خلفي، ولست متقدمة في السن، إني في العشرينات مثلكن"، وكانت الكلمات تخنقها التنهدات.

أحسّت أماليا بالندم "اعذريني يا أختي، إني أسبح في الزيت!" عانقت شقيقتها وبكتا معاً.

- "لماذا عليه أن يحدّد موقفه ما دام يحسّ بنفسه جيداً في موقعه؟" أعلنت برتا الأقلّ جمالاً، المكتفية بالقليل، فالقليل أحسنُ من لا شيء، وهي سعيدة بتلك اللذة؛ فبين الصعود والنزول في مشاويره يصيبها البرد في حوضها عندما تراه:
- ابدأن المشاكل وهو لن يعود أبداً.

آه، عدم رجوعه سيكون نهاية كل أمل: الاشتزاز، المرارة، البكاء دون سبب، المزاج السيئ، الانهيارات العصبية، سوء التفاهم بينهن لأقل الأشياء، الخبث، التآمر، الليونة المفتعلة، إنها الحياة التي تتنكر لها العزباوات. أجل، برتا على حق، ليس علينا أن نخبره، ونعين التواريخ، ونفرض القرارات.. ونذرت ماجدة نذراً للقديس أنطونيوس المزواج، وفتشت أماليا عن القديسة فيدنتي التي لا مزاحم لها في مواضيع الحب، ووعدت بأن تدفع لها النذر مقدّماً، أما برتا فإنها تفضّل القديسة الزنجية لوكايا، وفي زاوية من الشارع، اشترت لها الأعشاب ووضعتها أمامها للحمام، وهي أعشاب معصومة.

اكتفت تيودورا بالابتسام، صامته، فهي صاحبة تجربة ومتأكدة، هذه المرة أيتها الأخوات الحبيبات الكريهات لن تكون كسابقتها وتياو لن تتركه يهرب، فستهرب معه، حتى وإن أُجبرت على التخلي عن كل ميراثها، حتى وإن أُجبرت على بيع صكوك الإرث والبيوت المؤجرة. ألا يقولون إنه يأخذ مالاً من النساء المتزوجات وحتى من النساء العاميات؟ إن السيدة بونسيونا تؤكد بالأدلة والبراهين إنها فتاة غيرة وستثير فضيحة في الشارع، في العاصمة، وتفضح المبالغ والتواريخ الدقيقة. إذاً، جيد جداً: تياو مستعدة للدفع، فلديها مال مودع وعائدات شهرية، وإذا اقتضى الأمر فستقوم بسرقة مدخرات الأخوات وستفعل ذلك بسرور.

بالأسئلة والمحادثات، واللف والدوران، اكتشف دانيال الوقت المثالي. خلال وجبة غداء شيكو نصف الكعب والبائعين، عند الظهر، تبقى تريزا على الشرفة وحيدة في المخزن، ولكن زبوناً ما يمكن أن يأتي، وإنها مسألة لا بدّ من حلها لأمن المخطط: في غياب النقيب خارج المدينة، في الأعمال، أو مشغولاً في المزرعة. بقي دانيال منتظراً ومنتبهاً.

بعد عدة أيام من الانتظار ونفاد الصبر، رفض دانيال دعوة النقيب إلى سفرة قصيرة، يخرج فيها صباحاً ويعود مساءً، لمشاهدة حفلة عراك ديوك هراتية في المحلة

المجاورة من أراضي الداخل؛ عشرة فراسخ من طريق عام صعب الاجتياز بسبب الأمطار، ولكن ترتو كاشوخو، السائق الجيد، كان يستطيع اجتيازه في ساعتين. المقاتلون المفترسون يستحقون التضحية، وهي فرصة مناسبة لكي يربح الصديق مالاً كثيراً في المراهنة على ديوك النقيب. أمر مؤسف أن لا يكون دانيال قادراً على القبول، فقد حدث أنه في ذلك اليوم بالذات كان على موعد محدد، وفي مكان سرّي، وهي الفرصة الوحيدة ليأخذ بين ذراعيه الجارة الجميلة ويكتشف الحقيقة كاملة، يا للأسف يا نقيب.

- سبب وجيه، لا ألح، ابق هنا قريباً، تأكد مباشرة ثم قل لي إذا كنت على حق: الفتاة عذراء، وإذا كانت قد تلقت كثيراً ففي أوسط الأمور.. استأذن النقيب وجلس في الشاحنة إلى جانب ترتو كاشوخو "إني سأذهب مباشرة، وعليّ أن أمرّ بالمرعة سريعاً".

قبل الغداء، في مكان العقوبة التقليدي أمام الدارة الكبيرة، شرب دانيال ماء ورد بارداً وقد أخذ الكأس من يدي تيودورا ونظر في قبة العنق الذي يشرب منه الشديان "ألف شكر لأنك قتلت عطش مؤلّه ظمآن؛ الآن سأذهب إلى البيت لقتل الجوع إلى اللقاء أيتها الرائعة".

- ألسنت تريد أن تأكل معنا، ألا تريد أن تأكل أكل الفقراء؟

ووقفت تيودورا في البيت مشرّبة تعرض نفسها كلياً.

- "في مناسبة أخرى أقبل الدعوة بسرور وأتشرّف، ولكن اليوم وعدت أبويّ وهما ينتظراني وقد تأخرت؛ يبقى الصحن اليومي ليوم آخر، يا تيودورا، لمرة أخرى، لأعياد أخرى، من يدري، اليوم سأتمتع بأكلة إلهية يا أخت السماء؟ الوداع، سأقول للنقيب إنني اكتشفتك عذراء وخوفاً من الظروف احترمتُ برعمك الذي لم يبقَ منه شيء، وأما الباقي فملاعبات، وتأكّل، في المطارح الخصبّة العامرة". نوافذ الدارة الكبيرة خالية، الشارع مقفر، ومن ناحية الركن يعود دانيال إلى المخزن، عندما رآته تريزا يدخلت ظلت بلا حراك، بلا صوت، عاجزة عن الكلام والحركة، لم تحسّ بنفسها هكذا قط، والقلب غير منتظم، ليس خوفاً ولا نفوراً، فماذا يمكن أن يكون؟ تريزا لا تعرف.

لم يتبادلا كلمة واحدة، أخذها بين ذراعيه، واضعاً وجهه الدافئ على وجه تريزا البارد، كان لهاته معطراً والعطر يحكي بلا كلام. في الشعر، في الجلد، في

اليدنين في الصدر نصف المفتوح.. أما النقيب فتضوع منه رائحة العرق الكريهة ولهاث الكاشاسا، الرجل الفحل لا يستعمل العطور. ودون أن يتعد عنها فقد رفع دانيال يديه إلى وجه تريزا، يداعب الوجه بإصبعه، وبينما يحدّق في عينيها رأى فمها نصف منفتح فقبّلها. لماذا لا تحيد تريزا برأسها إذا كانت ترتعب من القبل، ومن قرف فم النقيب فوق فمها، يمتصّ رحيقها ويعضّها؟ أكبر من الاشمزاز كان الخوف.. وهذا الشاب لا يشعرها بالخوف، إذًا، لماذا توافق ولا تشيح بوجهها ولا ترسله بعيداً؟

فم دان، الشفتان، اللسان الطويل، الريق الطيب، كلها، جعلت فم تريزا يستسلم، وفجأة انفجر شيء ما في صدرها، فإنها بعينيها المستسلمتين لعيني الملاك السماويتين المبتلتين، تستطيع أن تبكي لأسباب أخرى على ألا تكون أسباب وجع سوط الجلد والكره العضوض والخوف الذي لا يوصف. هل يوجد في الحياة أشياء أخرى غير ما عرفته مع النقيب؟ لا تعرف فهي لم تذوّق إلا البضاعة العفنة، وحياتها طاعون، جوع. في أمطار الشتاء، تتفجّر البذور، وتدوي الرعود بهزيمها فإذا الأرض القاحلة المتشققة، الضحلة، تتفجّر ثماراً وأزهاراً.

عندما دخل البائع بومبيو إلى المخزن وعقبه بابا موسكاس، كانت تريزا في المكان نفسه، واقفة، منسيّة، خارج العالم، ومختلفة وثقيلة عما كانت عليه في تلك الليلة الممطرة، عندما كان الواحد والآخر منهما، في سرير الحديد، وعلى فراش الألواح الخشبية يخونان المختارة سابقاً تيودورا، وفي السر الأعماق، يملكان تريزا بكف اليد.

29

لقد قبّلها دان في عينيها، ثم في فمها، ويده اليمنى تنزلق على الظهر إلى الردفين واليد اليسرى تتغلغل في شعر تريزا وها قد مرّت أربعة أيام على القبلة الأولى من الشاب، ولكن تريزا ما زالت تحتفظ بها في شفتيها بانتظار الثانية. الصوت الدافئ يُشعل في صدرها النار:

- "غداً ليلة عيد القديس حنا" قال دانيال "وقد أخبرني النقيب أنه ذاهب إلى عيد يدوم طيلة الليل ولا يعود إلى البيت إلا في اليوم التالي".

- أعرف، يذهب كل عام، إلى الحفلة الراقصة في بيت سي مندينيو أليكاتي الريفى.

- غداً، كوني في التاسعة مساءً عند الباب الخلفى، في التاسعة تحديداً سيكون عيد القديس حنا عيدنا نحن.

من جديد الفم والقبلة، ولمست تريزا خفيفاً، وبخوف، خصلات شعر دان؛ إنها لينة كحرير دود القز. غداً عيدنا نحن، ودون خطأ.

30

لم يعود النقيب زوجته الشرعية دوريس، ولا تريزا خاصة، الفتاة البسيطة، على الاطلاع على خطواته وذهابه وإيابه، وجلساته الليلية ومشاريعه وقراراته؛ ولم يترك أبداً لامرأة ما المرأة في أن تسأل أين يقضى الليل، معها في البيت أو في بيت حريم غابى يشرب البيرة ويتفحص نزيلة جديدة، إنه في محلة قرية أسير أعماله المستعدة أو في عراك الديوك الهراتية، الرجل الذي يحترم نفسه يبقى المرأة في المكان المعد لها.

أما سفراته الطويلة إلى باهيا أو أراكاجو، فكانت تريزا تعرف بها عند غروب اليوم السابق ومع الوقت الذي تحتاجه لإعداد الحقيبة: قمصان مكوّية بصورة لا مثيل لها، وبدلات بيضاء ملطّخة.. كانت قد عرفت صدفة، من خلال إصغائها إلى جزء من حديث بين النقيب وشيكو نصف الكعب، عن برنامج تأخره في المزرعة ليسرّع الأعمال، وعن ذهابه إلى كريستيانا ليدقق في مبيعات الزنجى باتيستا، مبيعات الزنجى بالاسم فقط لأن المال والبضائع كانت لجوستينانو، وعن ليال بطولها هنا وهناك، وفي الحفلات في بيوت معارفه، في الأماكن السكنية والمزرعة، كونه راقصاً جيداً وهو دائماً متهيئ لضربة قدم في الأرض، وكون هذه المراقص أفضل المحطات لتوظيف صغيرات خضراوات بالتسمية الدقيقة للنقيب... إنها ليالي الراحة بالنسبة إلى تريزا.

في بيت رايغوند أليكاتي على تلة بعيدة في أراضي المصنع، وفي عيد القديس حنا، كانت تريزا تعرف أن النقيب لا يخل بالذهاب إلى هناك فحضوره المناسبة رئيسي ولا يمكن التساهل فيه في كل عام... ذلك الدنيوي أليكاتي، المحمي من آل

غويدس، ومخبأ المسدس، بالنسبة إلى جوستنيانو، كان شكلاً معروفاً في المنطقة: فمع زراعة قصب السكر، كان يبيع كاشاسا، ببعض أنواعها المعروفة بالمشيرة، وكان مستبدًا، وكأنه قائم من كفن، وذو شباب دائم، وفي أيام الواجب، كان يقفز في البيت لاستقبال الفحول وأمامهم كان الفحل الأكبر يلوي عذرية ما، لذلك كانوا يعرفونه أيضاً باسم رايموندو لاوي العذرية أو بالدنيوي لابس السترة الهندية، التي يقول إنه أوصى عليها في باهيا لدى المرحوم برنادينو كاشف الورق... مع كل هذا وأكثر منه، فإن الفتيات اللواتي كان يجمعهن كان يجهز النقيب وأشخاصاً آخرين بمن (حاجزاً لآل غويدس أصحاب المصنع أكثرهن جاذبية حسب الإشاعات) أو يرسل بمن إلى نزل غابي وإلى أماكن دعارة مختلفة كسوق كباداغوا؛ إنه يحتفل بالعيد ولا يزاحمه أحد، فإنه كان يقضي شهر حزيران مع العبيد في البيت، في قطف الثمار العذرية، ونجنا يا قديس أنطونيو ويا قديس حنا، ويا قديس بطرس..

العيد الأكبر هو عيد القديس حنا، ومع كومة كبيرة من الحطب المشتعل، وجبال من الذرة الصفراء، والألعاب النارية من الدوي المدفعي والانفجارات، والرقص الصاحب، كان يأتي إلى هناك أناس من كل المحيط، على الحصان، وفي عربات ثيران، على الأرجل، وفي شاحنة الفوردد... وكان رايموند أليكاتي يذبح خنزيراً وعجلاً وخروفاً ودجاجاً وفراخاً، وإذا العيد عامر بالأكل. عازفو القيثارات والكمانات والهرمونيكا برقصات الفالس ورقصة الشوارب والبولكا، والمازوركا، والذئاب، وسامبا الدوران... وتدور الموسيقى ويستمر الرقص طيلة الليل. كان النقيب يدفع الراقصين المتناسكين فهو جيد الرقص، لم يخسر مرة، وجيد الشرب، ويجيد الأكل بالشوكة، وعيناه تفتشان وسط الخراف المعروضة بالمزاحمة، وعندما كان يقرر، فإن رايموند المهتم بالأمر والمطري على المحاسن كان يتكفل بمناقشة النقطة الحساسة. من ذلك العيد لم يخرج النقيب أبداً خاوي الوفاض.

كوت تريزا البدلة البيضاء والقميص الأزرق. الملابس مغسولة ومطوية وجاهزة فوق الفراش والنقيب جالس عارياً. تريزا تغسل رجليه وتجففهما، ثم تخرج لتفريغ حوض الماء وهي ترتجف خوفاً. لم يكن خوفها ذاك الخوف التقليدي من المعاملات

السيئة والجلدات العادية، كان الخوف، اليوم، من نوع آخر، إذ كانت تخشى، كما تعود أن يفعل، أن يطلب إليها أن تتمدد ويأمرها بفتح فخذيها فيغير عليها قبل أن يرتدي ملابس العيد، اليوم لا، يا الله... واجب صعب ومكروه لتريزا الخاضعة للتنفيذ، كل الأيام في مسلسل العقوبة، ولكن اليوم، لا! يا إلهي! اجعله لا يتذكر.

عندما النقيب يأمر وعليها أن تطيع وليس من طريقة للاعتراض. ولا يفيد حتى أن تكذب قائلة إنها غير مهية في يوم هي ليست في كامل جهوزيتها؛ فجوستنيانو يحب أن يناها وهي في عادتھا الشهرية ويتهيج عندما يرى الدم يتقطر من رفيقته صارخاً وهو ينال منها: "إنها الحرب! (تعبير آخر تعلّمه من فراندا) فلتحيا الحرب!" هكذا يحدث بالتالي فور أن يفور دم الحياة للمرة الأولى، جاعلاً منها امرأة قديرة، إنها الحرب، القذارة والاشمئزاز، التي تعلن عن نفسها في هذه الأيام، والتي يكون الواجب فيها أكثر ثقلًا وإيلاماً. ولكن واجب اليوم هو الأكثر رعباً. اليوم، لا، يا إله السماء!

لقد عاد إلى الغرفة. يا إلهي! نقل النقيب قطع الغسيل عن الفراش إلى الكرسي، تمّدّد بالطول فبدا جذعه قوياً، وجسده مترهل البطن بالانتظار، لا شيء غير عقد الخواتم فوق صدره الغليظ. تريزا تعرف واجبها: إذا تمّدّد النقيب فعليها أن تتمدد أيضاً دون أن تنتظر الأوامر، العصيان مستحيل. ميتة من الخوف، من الخوف الدائم من أن تتعرض للضرب، ومع ذلك فإن تريزا كما لو أنها لم تره، مشّت تأتي بالثياب المغسولة.

- إلى أين تذهبين بحق الشيطان؟ لماذا لا تتمددين؟

مشّت إلى الفراش برجلين ثقيلتين وغليان في داخلها، أسوأ مما في الأيام التي تكون فيها غير متلائمة، ولكن ليس من وسيلة وها هي تنزع لباسها بيد بطيئة.

- بسرعة. هيا بنا!

صعدت إلى الفراش، تمّدّدت، اليد الثقيلة تمتد فوق جسمها، تريزا تتضايق، واحتناق في حنجرتها دائماً ما كلّفها الكثير ولكن ليس إلى هذا الحدّ. اليوم هو أبعد من حدود الاحتمال، إنه عذاب من نوع آخر، عذاب أكيد، ألم في القلب... عندما امتطأها فإن مقاومتها الداخلية كانت قوية إلى حد إغلاق أبواب جسدها التي اقتحمها بالحديد منذ أكثر من سنتين.

بالنسبة إلى النقيب كانت العملية طيبة كما لو أنها المرة الأولى، تريزا مضغوطة، وقاسية، ما عاد ذلك الجسد الطري، المرتخي، المستسلم، إنه الآن صلب، صعب ومقاوم. وأخيراً فهو مشارك، ظنّ النقيب ذلك وهو راضٍ عن نفسه مرة أخرى، منتصباً على الطبيعة المتمردة في الصغيرة، وليس من فحل يضاهيه.

في لحظة الرجفة، وقد كان مهتاجاً، أخذها من فمها، فم مر، وقبيح، مع الاستعجال لارتداء ملابسه لم يغسل النقيب نفسه، تضع اللباس والجوارب والحذاء للنقيب، ثم ناولته القميص والسروال وربطة العنق والسترة وأخيراً الخنجر والمسدس.

ترتو كاشونخو ينتظر في الشاحنة أمام المخزن، إنه سائق، حارس مسلح، ورفيق مشارك في الرقص، وعازف هرمونيكا، ومجلّ في الحروب؛ أما شيكو نصف الكعب، فكان قد خرج إلى الماراثون الذي لا ينتهي في ليلة القديس حنا، من بيت إلى بيت، يشرب العرق، الكونياك، والليكورز: ليكور الجنيابو والكرز، والخوخ، ولا يهتم أن يعرف الصنف إنّما العلامة، وعند الصباح يرمي على فراش الهواء فوق أكياس السمك المجفّف على القاع القذر والذباب فوقه لا يُعدّ، هذا إذا لم يبقَ مرمياً في غرفة إحدى الداعرات في سوق البغاء الخلفي في كياداغوا.

ببدلته البيضاء كما تقتضي الوجاهة، يأمر المطر فينهمر؛ إنه وجه سياسي، وبينما يعقد ربطة عنقه، فكّر النقيب لبرهة باحتمال أخذ تريزا معه وهي ترتدي فستاناً من فساتينها القليلة الاستعمال: شابة جميلة، وقطعة جديدة بالعرض في حفلة رقص موندينو لاوي العذرية. في لقاء المصنع بمناسبة عيد القديس حنا، فإن الدكتور إميليانو غويدس كان دائماً يقوم بقفزة مع الأهل والمدعوين في رقصة شعبية ليبين لضيوف العاصمة كيف يكون العيد النموذجي الحزيراني في الريف. كان يتأخر قليلاً، ويرتشف كأساً واحدة، ويشهد رقصة أخرى ثم يعود إلى الرفاهية في بيت المصنع. ولكن الأستاذ، وهو يرم شاربه كان يزن بعيني العارف المجموعة النسائية الحاضرة، بينما رايغوند منتبه لأي دليل على الاهتمام، إلى أقل إشارة إعجاب ليقوم بمعالجة التفاصيل ويضع المتقاة في تصرف سيد الأرض.

يعجب النقيب أن يعرض مملوكته تريزا أمام نظر غيره أكبر آل غويدس سناً. سيد كاجازيراس الشمالية. ولكن الأستاذ إميليانو في سفرة إلى بلاد أجنبية وقد ذهب حديثاً ولن يعود قبل أشهر. ومع ذلك توصلّ النقيب إلى أن يفتح شفّيته

وكاد يُعطي الأوامر إلى تريزا لترتدي رداء العيد، ولكنه بعدها راح يتأملها من رأسها إلى قدميها متفحصاً.

تريزا، متكهنة بنواياه، أخذها الخوف من جديد، ولكن ليس من المعاملات السيئة وألم الفراش، إنه خوف أكبر: إذا أخذها النقيب معه فسيبقى الشاب منتظراً تحت المطر، أمام الباب الخارجي؛ مستحيل! أين العيد الموعود؟ لن تعرف أبداً ذلك النداء في صدرها، وحرير الشعر، والفم المغري. كان الأستاذ إميليانو يستأنس مع الأجنيات في فرنسا، وأبعد من ذلك إذا سرى في العيد نبأ، وواجه موقفاً حساساً، وأعجبت فتاة ما النقيب وأراد أن يأتي بها إلى المزرعة؟ ماذا يفعل بتريزا؟ يعيدها في الشاحنة مع ترتو كاشوخو؟ امرأة جوستنيانو دوارتي دا روزا لا تسير وحيدة في الليل مع رجل آخر، ومع أنه رجل ثقة فلا يمنع أن يكون ترتو ضعيفاً ويجربه الشيطان في الظلام. وحتى لو لم يحدث شيء فإن الناس سينظرون إلى ما حدث بعين السوء، ومن يستطيع أن يُثبت العكس؟ لم يخلق جوستنيانو دوارتي دا روزا ليكون نصف رجل، يمكن القول عنه أي شيء.. وكل ما يقال فإنما يقال من وراء ظهره... يعدونه لصاً قاسياً، يُغري القاصرات، فظاً، ومنحرفاً، لص أراض، ماهراً في الوزن والحسابات، خداعاً في عراك الديوك الهراتية، مجرمًا مميتاً، من خلف ظهره، ولماذا لا يقولون هذا في وجهه، أين الشجاعة؟ ومع كل ذلك، لم يتهموه بأنه ذو قرنين زُرعا في رأسه، ولم يتهموه بالتعبّد للقديس كورنيليوس، وبالرجيل، وبكونه مخدوعاً من أنثى. ولكن النقيب لا ينخدع، إنه رجل يحترم نفسه ولا ينحدر إلى هذا الدرك. ولكن شباب العاصمة يبدون كالموز في أيدي النساء، ألم يبقَ دانيال مختلياً طيلة قبل الظهر بفتاة الدارة الكبيرة دون أن ينالها خوفاً من النتائج، ولكنه فعل كل ما عدا ذلك؟

أخذ تريزا معه لا يستحق العناء، والمملوكة قد حصلت على وجبة يومية جيدة تكفيها:

- عندما أخرج، أطفئي الأضواء، واذهبي للنوم.

- "نعم يا سيد" تنهّدت تريزا: آه، لقد عانت كل أنواع الخوف في بداية ليلة

القديس حنا.

اتجه النقيب جوستو إلى المخزن، وفتح الباب، إنها تُمطر في الشارع.

كان محيط المخزن يُطلّ على زقاق ضيق مكوّن من المساكن الخلفية، حيث كانت الشاحنة والعربات تفرغ البضائع التي كانت توضع لاحقاً في غرفة البيت تجنّباً للتكدّيس الذي يمنع الحركة في المخزن. كان النقيب في سفراته يشتري بضائع بالجملة وهي كناية عن مواد في طور التصفية، مواسم مقطوفة من الفاصولياء والقهوة والذرة! وإذا كان يملك سيولة ليدفع نقداً، فقد كان يحصل على حسومات خاصة من تجار الجملة فيربح في الشراء ويربح في البيع، وها هي ثروته الخارجة قليلاً عن نطاق المألوف أصبحت مبعثاً للحسد وإن لم تكن ثروة كبيرة.

كان المطر يطفئ في الشارع أكوام الحطب، المشتعلة ابتهاجاً، وفي الزقاق كان يشكّل أحواضاً من الماء، ويقلب صفحة الأرض. وبينما يلفّ نفسه بمعطف من المطاط، عند مثلث مدخل متاخم لحائط المخزن، كان دانيال يتفحص الليل وسمعه مرهف لأية حركة، بعينين تريدان أن تخترقا ستار المطر والظلمة.

في ذلك اليوم، بعد العشاء، كان دانيال قد سأل السيدة بياتريز: "يا عجوز، هل يمكن ألا يكون عندك سترة ما، لا قيمة لها، على أن تكون جميلة، تعطيني إياها حتى أهديها إلى فتاة جميلة؟ إن التجارة المحلية كالمخدر، مؤلمة".

- لا أحب أن تناديني بالعجوز، دان، إنك تعرف ذلك جيداً، لست عجوزاً إلى هذا الحد ولا منتهية.

- عفواً. ماما، إنها ليست غير طريقة تحبّية في الكلام؛ إنك ثلاثينية ما زالت في عزّ شبابها، ولو كنت أنا الأب الواقف هنا لما كنت تركتك تسيرين وحيدة في باهيا.. وضحك فرحاً معتبراً نفسه ذكياً ومسلماً.

- "إن أباك، يا بني، قلما يهتمّ بي. دعني أرّ إذا كنت أجد سخافة ما أعطيك إياها". في الصالة؛ بقي الأب والابن وحيدين، فحذّر الأب القاضي ابنه دانيال:

- لقد بلغني أنك تدور حول دارة الفتيات مورائس، وربما تسعى إلى تيودورا. وقد تكون سمعت في شأنها قليلاً وقالاً واتهامات باطلة، إنها فتاة كاملة، وكل ما حدث لم يعد كونه غراماً أحرق. إني أوصيك بالحدّ، فهؤلاء الفتيات من عائلة متميزة، وأية فضيحة معهنّ ستكون ذات صدى سيئ.. وأخيراً فإن المكان مليء

بالبقيات المتفرغات اللواتي لا حول ولا قوة لهنّ، ولا أزمات معهنّ، ولا كلام عليهنّ.

- لا تقلق، بابا، لست طفلاً، إني لا أضع يدي في النار، ولم آت إلى هنا لأسبّب لك وجع رأس. هؤلاء الفتيات لطيفات، إني أنسجم معهنّ وهذا كل ما في الأمر وأكثر من ذلك فليس عندي تفضيل لواحدة على الأخريات.

- لمن الهدية إذاً؟

- لمتفرّغة، لا حول لها ولا قوة، ولا أزمات معها ولا كلام عليها. كن مطمئناً.

- شيء آخر: إن أمك تقيم في باهيا بسبيكم. ولو عاد الأمر إليّ لكانت تعيش هنا ولكنها لا تستطيع أن تترك أختك وحيدة.

- "فرينيا؟" ضحك دانيال "بابا، صدّق ما أقول لك: فرينيا هي أكبر عقل في العائلة. لقد قرّرت أن تتزوّج من مليونير، فعُدّ الأمر مقضياً، عندما تريد فرينيا شيئاً فإنها تحصل عليه.. لا تقلق على فرينيا".

بالنسبة إلى وقار صاحب الفضيلة، كان دانيال يبدو رجلاً وضيعاً إلى حدّ بعيد. وعادات السيدة بياتريز إلى الصالة وهي تحمل معها منديلاً مطرّزاً بخيوط ذهبية. هل يفيدك هذا يا بني؟ "رائع، ماما، (مرسي)".

في الزقاق عند زاوية الباب الكبير، كان يلهو بالمنديل في جيب المعطف، يشعل سيجارة أخرى، وأنهمار المطر يغسل وجهه. في الشارع الأمامي، انطفأت كومة حطب الأخوات موريس، ولم تعد تسمع شرقة الحطب في النار التي يجددّها أحد الخدم المكلفين. وفي ليلة العجائب، في عيد القديس حنا، جلست العزباوات في الدارة الكبيرة، إلى مائدة الطعام، وعليها ما لذّ وطاب من الفواكه والثمار وكل أنواع الطعام الذي يصنع بالمناسبة، والليكور! الأخوات الأربع منتظرات هنّ الأخريات. إن المطر الغزير يمنع زيارات العمّات والأهل المتفرّغين وبعض الأصدقاء. ودانيال؟ في إحدى دارات العائلات، تحقّقت الأخوات بقلق، ففي أي منها يرقص إذاً؟ إذ إنه تلقّى دعوى إلى حفلة رايموند أليكاتي الراقصة. دانيال يفكر في الأخوات الأربع، إنهنّ طريقات عند فقدان الصبر على حدود الأمل الأخير، والأكبر سنّاً ما زالت مرغوبة بثدييها الصنميين. غداً بالتأكيد سيذهب

لزيارتهم ليأكل كانبجكا برفقة الأربع، فيعشقهن معاً متظاهراً بالخجل: ماجدة، أماليا، برتا، وتيودورا التي هي غطاؤه الرائع.. ينهمر المطر على وجه الشاب، لن يحتفظ في فمه بنكهة تريزا ولن يحسّ بصدرة رجفة الجسد الأهيف، وتلمع في العينين الرطبتين نزوة الاحتراق، عليه أن يذهب.

السمع مرهف: تبين أخيراً ضجيج محرك الشاحنة التي توقفت أمام المخزن، النقيب سيذهب، لقد غادر متأخراً ابن الأمة. وما كاد نور الأضواء الأمامية يشعّ عند الركن، يكشف الظلمة، حتى اختفت الشاحنة في المطر.

استهلك دانيال سيجارة أميركية أخرى مهربة... ترك الملجأ عند الباب الكبير واقترب أكثر، حيث يستطيع المراقبة، ولفه المطر يبدّد ضفائره اللولبية. وانفتح باب المخزن الخارجي بشكل مثلث، فتبين دانيال الوجه المبلّل والشعر المسبل المتقطر ماء: إنه وجه تريزا باتيستا.

32

إذا كان هناك من يحتقر الأعاجيب، فلست أنا. أفعل القليل أو الكثير، كما تفضّل سيادتكم، وكما تفهم بصورة أفضل... سيادتكم تجيء بدورك مع سيل من الأسئلة، وكل سؤال أكثر إحراجاً من سابقه. الناس ذوو الكلام الرتيب هم صناديق مقفلة من الاختصاص، يكيدون بالشعب الغبي، ويحصلون منه على الاعتراف والشهادة.. لقد عرفت مندوباً في الشرطة شبيهاً بهؤلاء، لم يكن أحد يعطيه أي اهتمام، فهو لم يكن يصرخ، ولم يكن يضرب، وأسير يده لم يتعرض قط للجلد. كان فقط يجيد الحديث الطيب، أخبرني، قل لي، اعمل لي معروفاً، وكان يرمي الحصرم ويقطف العنب. سيادتكم لست من الشرطة، أعرف، نعم سيدي، لا أريد أن أعتدي عليك، فلا تحمل سوء على محمل النوايا. ولكنك تصرّ كثيراً على الاستفهام عن تريزا باتيستا لأن الناس يظنون هنا حذرين ويريدون أن يشعروا بالاطمئنان، حيثما يكون الدخان فهناك نار، ومن يسأل يرد أن يعرف، فلماذا سبب حيطة الناس إذا؟ أمن أجل أن يصل النبأ قبلك عندما تعود إلى أرضك، فتخبر خصومك في مجمع الميناء؟ اعلم إذاً أنك هنا في المعرض تستطيع الحصول على أكثر من ثلاثين طريقة تصف فيها تنقلات تريزا باتيستا، وكلها بدفء الشعر، مع الروي

والقافية. وكل بيت شعر بثلاثمائة ريس، وهذا ليس مالا يذكر بل رخصاً تافهاً، في هذا العالم الغالي وكل شيء فيه بسعر الموز، فإن سيادتكم تجد عند وصولكم إلى فقر الشعب قصائد الحياة فقط. ومقابل شيء زهيد تتعلم سيادتكم قيمة تريزا.

بالإضافة إلى ما أخبروك وأكدوا لك، فقط أضيف أن الأعجوبة تتحقق، ولو لم تكن الأمة مزروعة بالقدسين وأصحاب الأعاجيب فما عسى يصبح من أمر الشعب؟ الأب سيسرو رومارو، والشفيع ميلانيا دي برنامبوكو والشفيع أفونسينا دونزيلا والقدس الأبرص شفيع ملومات دي بروبريا واسمه أرليندو داس شاغاس والسيد الصالح جيزوس داس لا با الذي هو شفيع أيضاً ويشفي كل الأمراض، ولولا أنه بواسطتهم قضي على الجفاف والطاعون وطوفانات النهر، ولولا أنهم اهتموا بالجوع وجراحات الشعب فأخذوا يساعدون الصعاليك في الغابات الوعرة لينتقموا من هذا الشقاء، آه: لو لم يكن بواسطتهم هم، فليقل لي السيد، الفارس، ماذا كان سيحل بالشعب؟ هل يبقى في مساعدة طبيب، أو مساعدة عقيد، أو مساعدة الحكومة؟ الويل لنا لو كان مصيرنا مرتبطاً بالحكومة والعظماء السياسيين واللوردات، لكانت منطقة الداخل قد انتهت إلى الجوع والمرض، وإذا كان الشعب ما يزال حياً فبفضل الأعجوبة.

يقال والملاك جبريل شاهد عيان على أن تريزا وهي صغيرة كانت غير عذراء، مدعراً بها، مبعوثاً في مطارحها، مستعبدة مذلولة، منتهكة العرض، بريئة، مالحة الدم، إنها هي من أتت بالأعجوبة. ولكن لا تتعجب سيادتكم إذا رأيتم متدخلة في أمور الشفيع بياتا أفونيستا دونزيلا التي هي ذات قدرة خارقة في هذا الفصل: كان قد انتهكها ثمانية عشر رجل عصابة في جلسة واحدة وكان آخرهم بيريلوليم المشهور بطول قياسه والملقب لهذا بيريلو أبي العصا، وبيريلو ذاك مات في الساعة نفسها من ألم في أحشائه، وإذا البنت في نهاية الاعتداء الوحشي كاملة وعذراء كما كانت من قبل. وقد كان الملاك أو الشفيع، أو الاثنان معاً من ناضل من أجل وقوع الأعجوبة وعرف كل الناس أن تريزا باتيستا عندما تغير رجلاً تعود مرة أخرى عذراء، عذراء بيكارة جديدة وهذا ما جلب لها الكثير من الشهرة والصيت.

إنها الأعجوبة الأحدث تحقّقاً، أيها السيد المتسائل، والأكثر قدرة كما غناها الأعمى سيماون داس لارا نجراس في طرق منطقة الداخل:

"كانت أعجوبة مميزة،
حقيقية، معززة،
مع تريزا حدثت
فقط لها تحققت،
في الليل تنتهك بكارتها
وفي النهار تفرخ عذريتها،
من يستطيع القول إن عجوزتي
لن ترجع عذراء بأعجوبة؟
هناك من يخلق الأعاجيب، ولكن لست أنا".

33

تلك الليلة، الطويلة كأنها مائة عام، بدأت هناك، حول المخزن، تحت المطر،
تريزا بين ذراعيه، ودانيال يقبل وجهها، عينيها، خديها، جبهتها، فمها. كيف
يمكن، في أقل من ساعة، أن يتحول شيء بشع إلى شيء جميل، وأن ينقلب الشقاء
فرحاً؟ في الفراش، مع النقيب متعبة، وعقدة في حنجرتها، وكتلة في معدتها،
واشمئزاز ونفور في جسدها، من الداخل والخارج، فهي عندما خرجت لتأتي بحوض
الماء وعندما، أخيراً، صعدتها، فإن تريزا بصقت راغية ثم تقيأت.

ولكنها عندما وضعت فستان الشيت على جسمها ووصلت إلى صدر دانيال
ويد تلمس صدرها، وشفتان مبتلتان تطوفان فوق وجهها، وجدت تريزا نفسها
مأخوذة بالعواطف والأحاسيس التي كانت تجهلها: نعومة تمرّ من جنبها، ويتولد
البرد في أحشائها، وحرارة تحرق وجنتيها، وفجأة الحزن والرغبة في البكاء، ورغبة
أخرى في الضحك. فرح كهذا لم تحسّ به أبداً إلا عندما لمست اللعبة في المزرعة،
ثم قفزت اللعبة من يدها مع كلمة طاعون، القلق، والراحة، وكل شيء يمتزج دفعة
واحدة. آه: كم هو رائع.

ما كادت تسمع الشاحنة تقلع، وضجيج المحرك يضيع في المسافات، حتى
ركضت وغسلت نفسها بالماء التي جاءت به في الحوض للنقيب فلم يستعمله لأنه
كان على عجلة للخروج إلى الحفلة.. لقد خرج متأخراً وكان لا يزال يرتدي

ملا بسه عندما قرع جرس الكنيسة معلناً التاسعة مساءً: في الساعة التاسعة تماماً، قال الملاك، فلم يكن عند تريزا الوقت لتضخّ الماء من البئر فتأخذ حماماً كاملاً، في حوض الماء المخصص للوجه - الذي هو حوض قدمي جوستينيانو في ساعة النوم - نظّفت نفسها من رائحة النقيب ما استطاعت، من عرقه، من مرضه، من بصاقه.

هناك قرب الباب الكبير، المطر يغسلها وينظّفها، قلب تريزا يخفق للقاءه مع صدر دان وهي تحدّق في وجه الملاك جبريل النازل من السماوات، وشفته تسودان فمها حيث يحاول اللسان أن يدخل.. تريزا لا تقاوم، تتركه يفعل ولكنها حتى الآن لا تشارك، وما زالت متغلّفة بالخوف والاشمئزاز. هناك حول المخزن في بداية الليل الفسيح، عندما فتح دانيال شفّتيها وغزا فمها بلسانه وأسنانه، وقبل الخوف المفزع جعلها عبدة. الخوف يهدأ ولكن تريزا تستعيد الكرة في الغزوة الأولى. للحظة واحدة سيطر عليها الكره فغطّى على الفرحة جاعلاً إياها مرتبكة إلى حدّ أن دانيال انتبه إلى الأمر الغريب وأوقف الملاطفة.. منعه المطر من أن يرى البريق في عيني الصغيرة، ولو أنه رآه فهل كان قادراً على الفهم.

دون أن يتكهّن به، فإن دانيال قد انزلق من بين الخوف والكره: يقبّل شفّتيها، عينيها، وجهها، ويمتص لسانها وشحمتي أذنيها، وأعطت تريزا نفسها، لا تفكر بالنقيب بعد، فانطفأ داخلها. وعندما، للحظة واحدة تركها تتنفس بلا حركة ابتسمت وقالت:

- إنه لا يعود قبل أن يطلع الفجر. إذا أردت فإننا نستطيع أن نذهب إلى هناك في الداخل.

في الحال أخذها دان وعلّقها بين ذراعيه تاركاً تريزا متمدّدة فوق صدره، تحت المطر حملها من الباب الكبير حتى مدخل الصالة، هكذا في مجلات بومبيو وبابا موسكاس القديمة يحمل عرسان السينما عرائسهم في ليالي المسرات.

وضعها في مدخل الباب، دون أن يعرف إلى أين يذهب، أخذته من يده وتجاوزت الصالة والممر حتى النهاية، حيث فتحت باب غرفة صغيرة مكدّسة فيها أكياس الفاصولياء وجريش الذرة الصفراء والمعلبات، وأحمال ثقيلة من البيكون واللحوم المجفّفة وسرير رغبات، في الظلام تفحص دانيال جريش الذرة الصفراء:

- سنبقى هنا، أليس كذلك؟

ردّت بالإيجاب بإيماءة من رأسها. أحسّ بها دانيال مرتعدة، إنه الخوف بالتأكيد.

- هل يوجد نور؟

أشعلت تريزا قنديلاً معلقاً وعبر الضوء الواهي الحزين تبين دانيال ابتسامة الاعتذارات؛ إنها صغيرة ليس إلا.

- كم عمرك يا جميلتي؟

- أكملت الخامسة عشرة، قبل البارحة.

- قبل البارحة؟ منذ متى تعيشين مع النقيب؟

- منذ أكثر من سنتين.

لماذا كل هذه الأسئلة؟ مياه المطر تسيل من معطف دانيال ومن فستان تريزا الملتصق بجسدها، وكأن آباراً قد تكوّنت في قاع المخزن. لا ترغب تريزا في الحديث عن النقيب، وفي تذكّر أشياء سيئة مضت. كانت مرتاحة في الظلمة والصمت. عند الباب الخارجي، فقط شفتان ويدان تلمسها. ماذا يهمّ الملاك أن يعرف إذا كان جوستينيانو هو الأول والوحيد. لماذا يستفسر واقفاً هنا، ينزّ مطراً وبرداً؟ أول ووحيد، لم يكن هناك آخر، وقد شاهد ملاك الغرفة كل شيء وعرفه.. لقد بدأت تميل بانتباهها عن الأسئلة لتسمع فقط موسيقى الصوت الذي هو أكثر تأثيراً من عينيه، صوت ليل من الكسل، صوت فراش (إني أسمع صوتك، أريد فراشاً بصورة طارئة، كانت تقول له مدام كالكويرو من المجتمع الباهياني الراقبي) يتغلغل في تريزا. لا تجيب عن الأسئلة: كيف جاءت لتستقر في بيت النقيب، أين أهلها، أين أبوها وإخوتها؟ ودون أن ينتبه، وخلال توقف الصوت، يعيد دانيال حركته كما في اللقاء الأول، وحيداً معاً في المخزن، يأخذ وجهها بيديه ويقبل فمها.. لقد خطف دان بشفتيه الخبيرتين القبلة الأولى التي منحها فم تريزا باتيسا غير الحاذق وتمسك مطيلاً إياها إلى ما لا نهاية.

- "لقد تكهّنت بعيد ميلادك وجئت بك هدية" ومنحها المنديل المطرّز بالذهب.

- "كيف كنت ستعرف؟ فقط أنا من يعرف"، ابتسمت ابتسامة عريضة

وسعيدة عندما رأت الشال الصغير "إنه جميل، ولكني لا أستطيع أن أقبله فليس عندي مكان أضعه فيه".

- "أخفيه في أي مكان، فقد تستطيعين استعماله في يوم ما" رائحة لحوم وبيكون رطبة تطلع من القاع: "قولي لي، أليس هناك مكان آخر؟"
- غرفته هو ولكني أخاف.
- من أي شيء، ما دام لن يعود باكراً؟ قبل أن يصل أكون قد خرجت.
- أخاف أن يعرف أن أحداً دخل إلى غرفته.
- أليس هناك غرفة أخرى؟
- هناك غرفة أخرى ولكنها شبيهة بهذه مليئة بالبضاعة، وحيث ينام شيكو، وفيها فراشه وأشياؤه الخاصة. آه، هناك غرفة الفراش الأرضي.
- فراش أرضي.
- يوجد هنا غرفة فراش أرضي وأخرى في المزرعة. وهي حيث...
- لقد سمعتهم يتحدثون، لنذهب إلى هناك فهذه الغرفة يستحيل أن تبقى فيها.

في غرفة الفراش الأرضي، تمددت الكثيرات مغتصات أو مملوكات وفي غالبتهن كاعبات، عذارى، والكثيرات هناك جلدن، وتلوين ألماً وتجاوبن بالصراخ والصفعات بالحزام الجلدي وبالسوط (سوط عريض فقط من الجلد، يختلف عن السوط الآخر في غرفة المزرعة) والدم يسيل وخواتم عقد النقيب تزداد. الشرشف ما يزال يحتفظ بعرق الصغيرة الأخيرة التي تمددت في الفراش، منذ عشرين يوماً تقريباً، فقيرة معدمة كانت قد راحت تصلي بصوت مرتفع، وتتوسل جاثية بكل مفاصلها إلى العذراء والقديسين أمام منظر جوستنيانو دوارتي دا روزا العاري وبيده السلاح الفعال. إنه القديس سيباستيان، قالت بتوقد، من جاء بتلك القهقهة من الضحك الذي لا يسيطر عليه، ضحكة من تلك الضحكات المعروفة.. وأكلها النقيب وهي ترتل، وسمعت الصلوات وترديد اسم العذراء والصرخات والقهقهات وبكاء الطفلة: القديس سيباستيان أو الشيطان الرجيم، تريزا في الناحية الأخرى من البيت، وحيدة في الفراش، لم تستطع أن تنام ليلة احتراقها تلك. لم تدم القصة أكثر من أربعة أيام. فالنقيب لم يستطع أن يتحمل الأمر مع تلك الصلوات والترانيم وإذ لم يكن من مكان شاغر للضحية في منزل غابسي، فقد أعادها إلى والديها مع رزمة ألف كروزيرو وكمية قليلة من المؤن الغذائية.

هنا على الأقل، لا يكذبون أحمال الجريش، واللحم المجفف والسّمك المملح، وفي أحد مسامير الحائط علّق دانيال معطفه وسترته وربطة العنق. وابتلعه التعجب عندما رأى السوط، وارتجف عندما فكّر في إيّلام الضرب بقطعة الجلد الخام.

- انزعي الفستان يا حبيبي وإلا فستالك لفحة برد.

ولكن كان هو من رفعه عنها، ومع الفستان ظهرت حاملّة الثديين ولم يبقَ على جسد تريزا سوى لباس الشيت المزهر: زهور حمراء شاحبة.

غرقت تريزا من جديد في الصمت، منتظرة. الثديان النافران، الظاهران لا تحاول أن تخفيهما! يا إلهي، فكّر دانيال، هل يمكن ألا تكون عالمة بشيء؟ تتصرّف كما لو أنها لم تدخل قط إلى غرفة مع رجل لتمتدّد معه وتمارس الحب ومع ذلك يجب أن تعرف، لا بد أنها تعرف بالتأكيد، تعيش مع النقيب جوستو منذ أكثر من سنتين، معه في الفراش، وإلا فأني صنف من الحيوان هو هذا جوستنيانو دوارتي دا روزا، بصوت الجلد؟

دانيال العجائز، دانيال السيدات، جيכולو فتيات الهوى، قد حدث له عدة مرات أن استحوذ على نساء متزوجات (بعضهن متزوجات منذ عدة سنين) أمهات، وليس فقط عذارى لمجرد رغبة في المتعة ولكن مملوكات وحوامل أيضاً. في البيت، مع الزوجة، الواجب والاحترام والطهارة وفراش صنع الأولاد، وفي الشارع مع العشيقة أو فتاة الهوى، المتعة والتشبع وفراش الرفاهية والحرية الإباحية. هذه هي عملة وتصرف الكثيرين من الأزواج ذوي المناقب العائلية: والنساء الجائعات، مع أول لقاء عشق، كنّ يدّعين حياء وتوبيخ ضمير، في بكاء الخطيئة ويليّه: "يا لزوجي الفقير، إني مجنونة بائسة شقية، ماذا سأفعل؟ يا لشرفي كامرأة متزوجة". وكان دان موظفاً نفسه لعمل هو مختصّ به ألا وهو، فكان صاحب تعزية من الطراز الأول. يحترف مسح العبرات، كان يعجبه أن يعلم أولئك الضحايا حقيقة المناقب الصلبة لدى الأزواج، أصحاب الفضائل عبر كل مراقبي المتعة. وكنّ يتعلّمن بسرعة منطلقات نفسياً، معجبات، غير مكتمليات، ومنعتقات من كل ذنب، طاهرات من الخطيئة، خاليات من عذاب الضمير ولديهنّ المبررات الكافية للتوغل في الزنا. كيف التعامل مع زوج هو بعقلية الذكر أو بحب الذات يعتبر المرأة وعاء، شيئاً،

جسداً لا حياة فيه، قطعة لحم؟ كيف التعامل معه؟ الجواب هو بأن يوضع في رأسه قرنان من القرون الكبيرة، مزهران.

ولكن الأمر مع تريزا مختلف، ليست زوجة ولا أمّاً لأولاد ولا حتى عشيقة أو داعرة في الروندي فو، إنها مملوكة بسيطة، فأى احترام يقدم لها النقيب؟ ومع كل ذلك فهي هنا واقفة بصمت وبالا انتظار، لا تعرف حتى أن تقبل، ذات فم متردد، غير أكيد. لا تبكي، لا تظهر تأنيب ضمير، ولا تنكر ذاتها ولا تشتكي: واقفة بالا انتظار، فتاة في الخامسة عشرة ما زال جسدها في طور التكوين، وفي الوقت نفسه ناضجة، دون سن محدّدة ومن يعرف أن يعدّ السنوات في روزنامة الألم؟ ليس دانيال، بالتأكيد، ابن العاصمة بالمعنى السطحي، البارع والوقح في ممارسات الحب السهلة! بالنسبة إلى دان الحلو، دان العجائز، فإن تريزا هي الغموض وهي السر الذي لا يمكن حل ألغازه.

ولكنه يلاحظ روعة الجسد وجمال الوجه ويبتهج، فتريزا بكلّيتها، من النحاس والفحم، فحم في العينين والشعر المسترسل، أما الثديان فصخرتان في فخر أعطتهما المياه طراوة، أوراكها وفخذاها طويلة، البطن لامع واضح والردفان مستديران والأسفل ما زال مراهقاً في استدارة متناسقة، وتحت حقل زهر لباسها وردة مزروعة في وادي النحاس، لم يشأ دانيال أن يقطعها حتى الآن، سيأخذ الوردة المختبئة فيما بعد وفي الوقت المناسب، وماذا الآن يا دانيال؟ فإن تريزا بالا انتظار.

ولمرة واحدة في الحياة لا يعرف دانيال الكلمات..

خلع القميص والسروال، عينا تريزا السوداءوان جمدتا أمام رؤية جسد الملاك وشعر صدره وتجويف بطنه الأملس وعضلات فخذه. وعندما خلع دانيال حذاءه وجواربه، رأت أن ساقيه ضعيفتان، وأن أظافر رجله معتنى بها! إنه سرور بالنسبة إليها أن تغسلها وأن تملأها بالقبل.

إنهما الواحد أمام الآخر، وابتسم وهو ما يزال لا ينبس ببنت شفة أو بكلمات. كلمات؟ يعرف الكثير منها، وكلها جميلة، مشتعلة ولها، عبارات حب، حتى إنه يعرف بعض الأبيات الشعرية الملهبة لوالده صاحب السمو القاضي، كلمات فقدت معانيها لكثرة ما استعملها مع السيدات المسنّات والمتزوجات المتهبات وفتيات الملاهي وبيوت العزّاب الرومانسيات، وأية كلمة منها لا تفي بالغرض للصغيرة الواقفة أمامه. ابتسم فردّت تريزا بالابتسام، جاء وعانقها جسداً

ضد جسد... يد دانيال تنزل حتى اللباس، ولكن قبل أن تصل إلى الحديقة الزهرة أحسّ من أعلى أصابعه بآثار الجرح. انحنى ليرى: أثر جرح قديم وفي وسطه ثقب كما لو أنه حدث بفعل مسمار. "ما هذا يا حبيبي؟" لماذا يريد أن يعرف إلى هذا الحد؟ لماذا يزعجها بالأسئلة والأجوبة في الوقت الوحيد من هذه الليلة القصيرة التي ربما لن تتكرّر أبداً؟ لقد كانت بفعل رأس الحزام في جلدة من الجلادات. هل كان يضربها كثيراً؟ وبسوط الجلد الخام؟ وما زال يضرب، ولكن لماذا يريد أن يعرف، لماذا يتعد عنها ويكفّ عن لمس جسدها ويحدّق فيها بنظرة ملاك مرتبك؟ ممّ يتعجّب؟ من يعرف يكاد لا يصدّق، ولكن ملاك الغرفة في زنزانة المزرعة قد شاهد كل شيء: السوط ومكوى الجمر الأحمر. أجل، ما يزال يضرب، يعاقب بسبب آية هفوة، بسبب لا شيء، وبسبب خطأ في الحسابات تدخل المسطرة الثقيلة في المشهد، ولكن ماذا يفيد أن يعرف ما لم يكن يملك أن يفعل شيئاً؟ لا تسأل شيئاً فالليل قصير، من الآن وبعد قليل، تنطفئ كومات الحطب المشتعل، وتصمت القيثارات واضعة نهاية للرقص والدبكات الشعبية. وعند عتبة الصباح يعود النقيب ويشغل الفراش الزوجي والعبدة تريزا. بعيداً من الأنانية والرقص الصاحب لدى الشباب والشعور السطحي والمغامرة التي لم تحسب نتائجها، بدا الشاب دانيال منزعجاً، يرى الإنسان كل شيء في هذا العالم: وضع نفسه على مفاصله، يقبّل آثار الجرح في بطن تريزا. "آه، يا حبيبي"، قالت، ولأول مرة كلمة حب. ليلي قصير، طويل، كأنه مائة عام.

35

بدأت تريزا بأن تكون الأولى وانتهت بأن تكون تريزا الأخرى، في تلك الليلة السريعة من الدقائق المسرعة في الارتباك والشحوب، والطويلة كأنها مائة عام من الاعترافات والبشائر.

وهي تستعيد نفسها من تلك الضمة التي انتفضت فيها متنهدة متلوية بالرجفة الأولى، رجفة طويلة عنيفة، في القلب والأحشاء، من رؤوس أصابعها إلى أطراف شعرها، أحسّت تريزا بدانيال قربها يأخذها من خصرها ويشدّ جسمها الناضج إلى جسده:

- "أنت امرأتى الحبيبة البلهاء التى لا تفهم شيئاً بعد ولكنك ستتعلمين كم هو طيب، سأعلمك شيئاً فشيئاً، سترين كم هو طيب"، وقبلها خفيفاً، لم تحب تريزا بشيء، فابتسمت أيضاً منتصرة. لو كانت عنده بقية حيوية لقاتل له أن يبدأ فى الحال وبسرعة. إذ لم يعد لديها غير عدة ساعات، وبعدها لن يلتقيا أبداً. التعهد لا يقبل النقض فى مفكرة النقيب. وعلى الأخص التعهد بحضور الحفلة الراقصة لمناسبة عيد القديس حنا فى دار رايموند أليكاتي. أما بمناسبة عيد القديس بطرس، فإنه يستطيع أن يلف ويدور كثيراً على رجله بحثاً عن فتاة جديدة، كما يستطيع أن يبقى فى نزل غابى يشرب البيرة مع العاهرات، دون تحديد ساعة معينة للرجوع باكراً أو متأخراً فليس من موعد محدد. بسرعة يا ملاكى، بسرعة، ليس من دقيقة واحدة نضيّعها، كانت تريزا تريد أن تقول ذلك لو لم يخنها الصوت وتنقصها القدرة.

يكفى أن تلقي بنفسها عليه، صدراً ضد صدر، جنباً مقابل جنب، غابة مقابل غابة، لتشتعل الرغبة من جديد فتية وملحة، لم تقل شيئاً وراحت يدها تنزل على جسد دانيال وهي تمسّ كل تفصيل من تفاصيله. مدّت ذراعها لتصل إلى قدميه وتداعبهما. وكانت تعطي أفضلية لشعر الصدر، وهناك تغلغل يدها بأصابع مفتوحة لتمشّط الشعر ولتمشّط أيضاً صفائر شعر الرأس الحلزونية. وهكذا راحت تتعلّم، وبفمها لامست شفتي دانيال. "يا حبيبتى، إنك لا تعرفين بعد كيف تقبلين، دعيني أعلمك"، جيכולو بالموهبة، وأيضاً بالمهنة فإن دانيال كان يجد متعة فى متعة رفيقته فى الفراش، سواء أكانت فتاة مرتبكة صبية أو عجوزاً غنية ومتفزلكة، "سأجعلك تصلين إلى الرجفة كما لم تفعل أية امرأة أخرى"، وكان ينفذ الموعد بالمال أو مجاناً.. شفاه، أسنان ولسان، وتريزا تتعلّم التقبيل. يدا دانيال تضاعفان التجسس فى الأمكنة الأكثر سرية فى حوض البطن الرطب وأماكن الليونة فى الردفين. يدا تريزا تكتشفان تفاصيل أخرى: الفمان فى العمل. فمه يعرف أن يفتش عن الارتباك المخفى، وفمها الآن يتململ فى معالجة القبلية ويتكشف عن معاناة وجرأة.

وقع دانيال ضحكاً وقال: "لا، لتكرّري يا حبيبتى، وإذا كانت الأوضاع والمواقع متعددة ومتنوعة، وكل وضع باسمه، وكل موقعة أكثر رشاقة من غيرها،

فسأعلمك إياها كلها". عاد ليضمها إلى صدره ثم رفعها، والواحد في الآخر، ودون أن يعلمها أحد تخاصرا وراحا دورانا. عذراء وأكثر من عذراء، باكر بألف برعم جديد، وكأن كل شيء يحدث للمرة الأولى؛ لم يحسّ دانيال أبداً بتلك الشهوة أو مثيلاً لها، فبالنسبة إليه أيضاً كان الأمر اكتشافاً وشيئاً جديداً.. في تمدد تريزا أطال متعته الشخصية ولكنه لم يستطع أن يوقف رفيقته اللحوح والمتأخرة عنه، ولم يستطع أن يحتويها. متبددة، العينان مغلقتان، تعيد تريزا ربط جنبها ولكن دانيال يستمر ويتابع ببطء، بالتقطير والمعرفة سيأتي بها، ومن جديد حملها على جناح الطير، والآن أجل، الاثنان معاً يصلان. اشتعلت في ليلة القديس حنا كومة حطب تريزا باتيستا، وإذا اشتعلت فقد احترق دانيال في نارها الملهبة والمشعة ولكن بهريق سريع وتدرج التنهيدات والآهات المشتعلة، لم تشتعل أية كومة حطب بمثل ذلك اللهب العالي والاحتراقات المتجمرة.

بعد المرة الثانية، أتى دانيال بسيجارة من جيب سترته ووضع رأسه على صدر تريزا الدافئ وراح يدخن بينما هي تداعب شعر رأسه. "سأقطع جذعك" قالت تريزا فضحك الاثنان. مداعبة أخرى لم تكن تريزا تعرف غيرها وقد تعلّمتها في طفولتها الأولى مع أمها التي كانت ما تزال على قيد الحياة قبل حادثة العربة. أطفأ دانيال السيجارة في كعب الحذاء، واحتفظ بعقبها في جيبه حتى لا يترك أثراً. وعاد يمدد رأسه على بطن الصغيرة، فأحست بخصلات شعره الأشقر فوق البساط الأسود وامتزج الشعور في رغبة شديدة وغفا دانيال على مداعبة تريزا لجلدة رأسه. تجاهلت تريزا غفوة الملاك الذي هو أجمل في حضوره منه في ألوان الصورة الشمسية، وفكّرت في عدة أشياء، في حين كان نائماً، تذكّرت المنحرف، وتذكّرت سيسون وجاسيرا والأولاد واللعب، لعبة المواجهة والحرب، وتذكّرت عمّتها مع غرباء في الفراش، وعمّها روزالفو بعينيه المتعبتين، عيني السكير، والاضطهاد في الهواء الطلق بينما العم يسلمها، والعمة فيليبا تضع في يدها الخاتم والسفرة في الشاحنة والزنزانة في بيت المزرعة، والهروب والمسطرة والسوط والحزام ومكوى الجمر.. وفجأة كل شيء أصبح ماضياً وكأن كل شيء أصبح فقط أحزان نفوس وقصة رعب ترويها السيدة بريجيда، وتعدّ ضروب جنون من ضروب الأرملة العجوز.. تلك الليلة من المطر رطبت الأرض القاحلة الضحلة، وقد وضعوا الفرح

والعطف فوق الوجع الماضي والخوف. مقابل أي شيء في هذا العالم، فإنها لن تعود إلى آلام النقيب.

الآن تستطيع أن تموت، ولكي تموت فلا ينقصها شيء؛ إنها حزينة في الوحدة والخوف: الموت أفضل من أن تعود إلى سرير النقيب. في المزرعة شاهدت تريزا الفتاة إيزادورا معلقة بحبل في باب الغرفة، ولسانها الأسود خارج من فمها المفتوح، وعيناها جاحظتان. لقد شنقت نفسها عندما علمت بموت زوجها جواريز في عراق بين السكارى مطعوناً بخنجر. حبال كثيرة في المخزن، بين انطلاق الملاك وعودة النقيب، وعندها الوقت الكافي لتعدّ ربط الحبل.

36

في تلك الليلة التي لا عدّ لها، بلا بداية أو نهاية، من اللقاء والفراق، من طلعات الفجر المتتالية، تريزا، المحكومة بالموت، هربت من حبل المشنقة على حصان من نار.

كان هو نائماً، وكانت هي تدغدغ نوم ملاك السماء، ولكنها أرادت أن تكون بين ذراعيه مرة واحدة، مرة أخرى، تحسّ به ضد صدرها قبل الوداع الأخير. تمسّ وجهه بخوف الملائكة الذين ينزلون إلى الأرض لينفذوا مهمات موكله إليهم، ثم يعودون ليقدموا الحساب كله، وفقاً لما تقوله السيدة بريجيда التي تعرف عن الملائكة والشياطين. أرادت تريزا أن تموت بين ذراعيه السماويتين، تموت وحيدة، على المشنقة، معلقة في الباب ولسانها في الخارج.

عند لمسة يد الصغيرة المترددة صحا دانيال ورآها حزينة، "لماذا أنت حزينة يا حبيبي، ألم يكن طيباً، ألم تحبّه؟" لا، لست حزينة، بل فرحة بالحياة، فرحة بالموت، ليل لا مثيل له من المغامرة التي لا نهاية لها، مرة أولى لا ثانية لها، دون مرة تالية، دون أخرى، دون مقبلة، وتفضّل أن تموت قبل أن ترجع إلى عبودية المسطرة وحوض الماء والفراش الزوجي وصفعة جوستنيانو دوارتي دا روزا؛ لا ينقص حبل في المخزن، وتعرف كيف تربط العقدة.

يا حمقاء، لا تقولي حماقات، لماذا لا يكون هناك ليالٍ أخرى، مثل هذه، وربما أحسن؟ بالتأكيد سيكون هناك أخرى. جلس دانيال، والآن، تريزا تريح رأسها

على عنقه، تحسّ بالعصفور على عريها وبالرغبات تتجدد. استريحني واستمعي يا حبيبي: يدا الملاك تغطيان صدرها، وتضغطان عليه بهدوء، وصوته يطفئ الحزن، يمزق الآفاق، وينقذ تريزا من المشنقة المحتمة عليها. ألم يكن عندها علم بسفرة النقيب إلى باهيا، وعن التاريخ المحدد لذلك؟ سفرة أعمال ومتعة، دعوة من المحافظ لحضور حفلة الثاني من تموز، والأبله لا يعرف أن العيد عام وأن أبواب القصر مفتوحة للشعب في ساعة الاستقبال، وأن بطاقة الدعوة قد طبعت شكلاً، وقد تكون مفيدة فقط للشرطة للتحقق من الشخص المنطلق تبغداً واعتزازاً بحكمته بينما هو في الحقيقة كلب فرح: جلسات في قصر العدل، زيارات إلى سكرتيرات المحافظات وإلى مجهزي المخزن بالمواد، ومع كتاب يقدمه إلى روزاليا فاريدا مغنية التانغو في التباريس: "في يوم يا حبيبي، سأعلمك، لذة لا مثيل لها، عندما يكون النقيب في باهيا وكل الليالي ستكون احتفالات بالعيد".

"المهم أن يكون عندك صبر، أن تتحملي صبر عدة أيام أخرى من المتطلبات وغلاظة النقيب، وأن تكوني ناعمة كالسابق، ولا تظهر شيئا"، ولكنه بالتأكيد سيأخذها إلى الفراش، وهذا لا، أبداً لا يهم! لماذا؟ لا أهمية له إطلاقاً ما دامت تريزا لا تشارك، وما دامت تبقي نفسها غائبة كما فعلت دائماً، لا تتجاوب لا تساهم، ولا ترتجف بين ذراعي النقيب، فبين ذراعي النقيب تشتعل تريزا اشمئزازاً، ما يجب فعله الآن هو الخضوع كما في السابق: الآن من السهل جداً تحمل العبء الثقيل، الفظ، لينتقم من كل ما سببه لها من ألم: "سنضع له القرنين الأكثر بروزاً في المدينة، وسترين النقيب برتبتين بجعلان منه جنراً".

قال لها كيف يجب أن تتصرف، إذ كانت لديه الخبرة والمعرفة وهو بنفسه، وبقدر ما سيكلفه الأمر، فإنه سيذهب في اليوم التالي إلى بيت الأخوات مورائيس ليأكل كاجيكا العيد، ويشرب الليكور، ويوزع اللطافات، مسألة مزعجة، ولكنها ضرورية مع ذلك، وكان النقيب قد أقنع نفسه بأن دانيال سيضمّ إليه واحدة من الأخوات وهي الأصغر سناً، وبسبب هذه الحجة الواعية يستطيع أن يبقى مزروعاً في المخزن يرى تريزا دون أن يثير الشبهات. وأكثر من ذلك، من يعرف، فقد تأتي قبل السفر فرصة أخرى ليلتقيا؟ في ليلة القديس بطرس، مثلاً!! "لا تتكلمي عن قتل نفسك، لا تكوني مجنونة، صغيرة، إن العالم ملكنا، وإذا حدث يوماً أن داهمنا

الجلاد، فلا تخافي، لأن دانيال سيعطيه أمثلة قاسية حتى يتعلم تحمّل القرنين بالمجاملة اللازمة والتواضع الوقور".

من كل ما سمعته، شيء واحد بدا لها مهماً حقاً: النقيب كان سيقوم بسفرة طويلة إلى العاصمة، عشرة أو خمسة عشر يوماً وهذا يعني عشرًا أو خمس عشرة ليلة من الحب... أخذت يدي دانيال وقبّلتها شاكراً.. بالنسبة إلى دانيال فإن النقطة الأكثر حساسية هي مشكلة شيكو نصف الكعب. كيف يفعل؟ هل يشتريه برشوة كبيرة؟ رشوة، لا يا ملاك السماء...!! ولا أية رشوة تشتري إخلاص شيكو لجوستينيانو، ولكن لا يعدّ الرجل مشكلة: كان ينام في المخزن خلال سفرات النقيب، وما بقي من البيت كان يسلمه لعناية تريزا.. فإذا دخل دانيال من الباب الخارجي الكبير، واستعمل الحبيان الغرفة الزوجية الأبعد عن المخزن فإن شيكو لن يعرف بشيء. "هل رأيت؟ كل شيء في مصلحتنا، يكفي ألا تترك في ذهن جوستينيانو أدنى الشكوك.. الأدنى، هل فهمت يا تريزا؟" كانت تفهم: لن تعطيه سبباً ليسيء الظن.

من منتصف المحادثة إلى آخرها كانت يدا دانيال قد عادتاً تطوّقاهما، مع كل لمسة أو دخول، رجفة في جسدها، تولد ارتباكاً خفياً. وإذا ما تزال منزعجة من الأفكار والكلمات، كانت تريزا تغلف نفسها وتفتحها بالخوف والكره والاحتقار والأمل والحب. وإذا قال ما هو ضروري، فإن دانيال حمل فاه وألقاه على صدر تريزا مطلقاً العنان للسانه، وتقدّم به نحو الرقبة فالعنق ليتوغّل إلى الأذن، ثم الشفاه، "ولن أتعب منك أبداً". "ليالٍ أخرى آتية كم هو رائع يا حبيبي"، قالت تريزا.

37

عند منبلج الفجر استأذن دانيال عند الباب الكبير بقبلة اشتركت فيها الأسنان واللّسانان والتنهدات. ولدى عودتها إلى البيت وحيدة، ذهبت تريزا تضع الماء في صندوق الحمام إذ كان جسدها ما يزال معطراً بعرق دانيال وغسلت نفسها بصابون الكوكو. ومن يعطيها الحق بأن تحتفظ على جلدها بتلك الرائحة العطرة! النقيب كان عنده حاسة شم صياد وكان عليها أن تخدعه حتى تستحق مرة أخرى زيارة الملاك.. تخلصت من الرائحة ولكنها احتفظت بطعم الشاب في فمها، على

صدرها، وفي شحمة أذنها، وقبل الحمام، قلبت تريزا الفراش المسطح، وبدلت الشرشف تاركة الباب مفتوحاً لنسيم الصباح حتى يبدد رائحة التبغ وأضواء أفراح الليل، وفرح الفراش القاسي وذكرى الحزن الذي أضاء قوس قزح.

كلمات، حركات، أنغام، ملامسات، عالم من الذكريات، في غرفة النقيب التي ما تزال مظلمة، وتمددة في الفراش الزوجي، تذكرت تريزا كل لحظة. يا إلهي كيف يمكن أن يكون طيباً ما كان بالنسبة إليها نزاعاً مؤلماً؟ وعندما دخلها دانيال بعد أن أيقظ فيها المعاني وأشعل الرغبة، عندما نالها وأعطاها نفسه وارتعصا معاً، فقط عندها عرفت تريزا لماذا، عندما كان العم روزالفو يشرب كاشاسا في خمارة مانويل أدورينيا ويلعب بأحجار الدومينو، كانت العمّة فيليبا دون حاجة أو سبب، مقبلة وسعيدة، تقفل الغرفة على نفسها مع رجال آخرين معروفين في المعرض أو من المزارع المجاورة أو مجرد عابرين بسيطين. كانت العمّة تهدد تريزا: "إذا أخبرتك عمك، سأضربك ضرباً يربّي به الحيوان وأتركك صائمة. ابق في الباب وانظري إلى الطريق، وإذا ظهر فاركضي وأخبريني بالأمر"، وكانت تريزا تصعد إلى شجرة المانجا وتحيل بطرفها في أبعاد الطريق. وعندما كان باب الغرفة يفتح ويأخذ الرجل طريقه، كانت العمّة فيليبا بكل لطف ونشاط ترسلها لتلهو وتعطيها حتى قطع الحلوى.. خلال السنوات في بيت النقيب، عندما تتذكر الحياة في مزرعة الأعمام، كانت تعمل على النسيان ولكنها في ليالي الوحدة، في ليالي النوم والراحة كانت الصور والأحداث تأتي لتسرق منها النوم، كانت تريزا تسأل عن السبب في عادة عمّتها الغريبة، وفي أن تكون قد فعلت ذلك مع آخرين في عمل شاق كهذا، فلماذا؟ لم يكن أحد يجبرها بالضرب وبسوط الجلد. لماذا إذاً؟ أخيراً فهمت السبب: بقدر ما يمكن أن يكون الأمر سيئاً يمكنه أن يكون طيباً، ويتوقف الشعور على هذا الشخص الذي تمتد معه المرأة.

لم يعد النقيب إلا بعد ظهر اليوم التالي، وبينما كان يترجل عند المخزن كانت الأبواب مقفلة بسبب عطلة عيد القديس حنا، سمع ضحكات في دارة الأخوات مورائس. نظر من الشباك: غرفة الاستقبال الكبيرة كانت مفتوحة وفي داخلها الشاب دانيال تحيط به الأخوات الأربع، ويبدو رقيقاً جداً ومسلماً وهو يروي أخباراً عن العاصمة، ويحكي عن أزمات المجتمع. وشاهد جوستينانو الرفقة

الفرحة.. يقتضي الأمر أن يقول للشباب أن يأخذ احتياطات أكيدة. فلا يترك ولداً لتياو إذا كان قد قرّر أن يقطف براعمها. إذا أكلها في السرّ، وكونها بالغة فلا يجب أن يسبّب الأمر تورطاً فتقوم ومع الجنين في الرحم وتطالب بالزواج وتضع فمها في العالم وتقوم بفضيحة من تلك الفضائح الكبيرة، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بابن قاضي الأمور المستعجلة؟ إن الأخوات مورائس هنّ من عائلة محافظة وماجدة عظم رقبة كما يقول قارع الطبل وهو يمثل الإرهاق في مركز الشرطة بينما يهدّده العتيق. ثم أعطى كتفيه.

38

في غرفة الطعام تكوي تريزا الغسيل، وفي المخزن شيكو نصف الكعب يقتضي على كاشاسا الغروب، عندما لا يكون المعلم حاضراً فلا يبقى أبداً في البيت وحيداً مع تريزا.. تيس قوي يكتفي ببضع ساعات من النوم ويجدّد نشاطه بحفلة الشرب الأسبوعية التي لا يقبل تفويتها أيام السبت وأماسي أيام الإجازة وأعياد القديسين، ومع ذلك فإنه بعيد عن أن يقارن نفسه بجوستينيانو دوارتي دا روزا القادر على أن يشرب أربعة أيام وأربع ليالٍ دون أن يغمض جفنًا، وفي الوقت نفسه يجندل الإناث ثم يخرج للسفر على حصان: إنها مقاومة حديدية، في المخزن، شيكو يغطّ في النوم، والنقيب واثق من نفسه ولا يبدو عليه أنّه شرب ورقص طيلة الليل، وعند الصباح انطلق إلى المزرعة وهو يقود الشاحنة، فلقد كان ترتو كاشونخو قد انهار مخموراً تحت المقعد الذي كان يجلس إليه العازفون، وفي المقعد إلى جانبه فتاة محمرة، صغيرة السن، بوجه فتي، وبشعة، وكان رايموند أليكاتي عندما رآه يصل إلى الحفلة قد جاء راكضاً يسلم عليه، حاملاً معه الفتاة وعيناها في الأرض.

- ارفعي رأسك ليرى النقيب رقبتك الضائعة.

جديدة مخضوضرة، وهي تناسب عقد النقيب، هذا إذا كانت باكرة.

- حجزتها لسيادتك يا نقيب، بالحفاضات كما تشتهي.. ولن أخدعك بالقول إنها عذراء "فالعشرينات الثلاث" قد أكلوها، إنهم جماعة المصنع، إنها شبه باكر والبرعم ليس قاسياً، ولكنها طريّة ونظيفة، لم تنطلق في الحياة العامة بعد، ليست مريضة، ولكي تكون عذراء ينقصها القليل.

أولاد الزانية آل غويدس هؤلاء!! دائماً هناك واحد متأهب في المصنع، والاثنان الباقيان يطوفان في باهيا في الريو، في سان باولو عندما لا يكونان في أوروبا أو أميركا الشمالية، يجهدون أنفسهم في العمل وفي قطف العذارى؛ بين الثلاثة، فإن الأكثر فعالية في إدارة الأعمال هو الأستاذ إميليانو وهو الأمر النّاهي، كما أنّه الأكثر تطلباً عندما يتعلق الأمر بالمملوكات فلا يقبل أياً كانت، وهو يختارهن بإصبعه، وحتى لو كان في المصنع بدلاً من أن يكون مستأنساً بأجنبيات فرنسا، فلن ينادي على تلك الجلفة ذات الأنف المزعج. لقد كان النقيب مخدوعاً.

- من قام بخدمتك؟

- السيد ماركوس..

- ماركوس ليموس؟ ابن الزانية!!

عندما لا يكون واحد من أرباب العمل موجوداً، فإن الموظفين كانوا يقومون بالخدمة. حتى حافظ الكتب والوثائق، وها هو النقيب سيأكل الفضلات، فضلات المصنع، سكرًا مكرراً، ودبساً بشوائبه. في البيت، بل في المدينة، لديه مملوكة يفتخر بها وذات وجهه وجسد لا يستطيع أحد أن يجد فيهما شائبة، إنها أجمل فتاة في المكان كله، ولا يوجد في المدينة في الدارات الريفية الكبيرة وفي المصنع غنية، فقيرة أو متوسطة الحال، عذراء، كاعب فتاة أو بنت هوى، بجمال مملوكته.. وليس مهماً ما يتركه هذا الأمر في نفس النقيب من انزعاج، فبالنسبة إليه لا يهم أن تكون جميلة أو بشعة بل إن الجديدة هي التي تفتح قابليته، ولكن ما يعجبه هو أن يعرف أن الأستاذ إميليانو غويدس أكبر الإخوة سناً، شيخ القبيلة، سيد الأرض، المعتر على صهوة جواده الأسود بمهمازي الفضة مستعد أن يصرف الكثير من أجل الحصول عليها ولا تهمه مسألة المال؛ والأرستقراطية في الحركات، وفي بحّة الصوت "ألا تريد أن تباع هذه الخادمة؟" لم تكن هذه الجملة كافية لتغطية الاهتمام: "سعرك هو سعري، من تخصّ هذه الجميلة والشهية المرشحة على لائحة الانتظار في نزل غابي وعند صف الزبائن أمام المخزن؟"

"إنها تخصّ جوستينانو دوارتي دا روزا الملقّب بالنقيب جوستو، كونه صاحب الأراضي الواسعة، وقطعان الماشية، والمخزن المليء والديوك الهراتية". وفي يوم ما

عندما تزداد فراسخ الأرض، والإيداعات في المصرف، وبيوت الإيجار، والامتيازات السياسية، فإنه سيصبح العقيد جوستينانو، وسيصبح وجهاً سياسياً حقيقياً غنياً وذا تأثير بقدر آل غويدس.. في يوم ما سيتحدث إليهم نداءً لند وعندها يستطيع أن يناقش في الخادومات والباكرات، وحتى أن يبادل الفتيات دون أن يحسّ في فمه طعم الفضلات المر. أجل، في يوم، ولكن حتى الآن، فلا.

- تريزا، تعالي إلى هنا.

بينما مكوى الجمر معلق بيدها، سمعت النداء، يا إلهي، هل يكون لديها الشجاعة لتحمل؟ الخوف ما يزال يغلفها كالشرشف، وملتفة بشرشف هربت في المرة الأولى، لماذا لا تهرب مع دانيال إلى البعيد من هنا، بعيداً من الفراش الزوجي، من صوت وحضور النقيب، بعيداً من المسطرة، من السوط، ومن مكوى الجمر؟ ومن جديد سينتقل من وشم الثيران بالنار إلى وشم تلك التي تجرأت يوماً أن تخدعه، ولكن ما الذي يعيقه إذاً أراد أن يفعل؟ وأمسكت تريزا نفسها. وضعت مكوى الحديد، طوت قطعة الغسيل، وعملت من أحشائها قلباً.

- "تريزا!" إنه صوت التهديد.

- إني آتية.

مدّ لها رجله فنزعت الحذاء ثم سحبت الجوربين وأتت بحوض الماء. رجلان سميتان معطّنتان برائحة العرق، أظافر وسخة، عفونة قاتلة، وكعب مخشب، أما رجلا دانيال فجناحان للطيران، ليحملاها في الهواء، ضعيفتان، نظيفتان، ناشفتان، معطّرتان، ولا تصلح أن تكون صاحبة له أو خادمة تخدمه ولديه في المدينة أكوام من النساء وفق اختياره. ولكن كان يقول لها يا حبي، حبيتي، لم أرَ أبداً امرأة أخرى بجمالك، لن أتعب منك أبداً، أريدك للحياة كلها، لماذا يقول لها كل ذلك إذا لم تكن هذه هي الحقيقة؟

غسلت رجلي النقيب بفعالية وانتباه، إذ يقتضي الأمر أن تبقى دون انفجار وعلى الأخص دون أن يفقد ثقته بها حتى لا تتبدّد سفرته إلى باهيا فلا يضع رجالاً في الكمين، ولا يأتي بالجديد الملطّي لوشم الخراف والبقر والثيران والنساء الخائئات. وكانت تريزا قد سمعته يقول في أحد عراكات الديوك الهراتية، حيث أخذها ليعرضها على الملاء:

- إذا تجرأت تعيسة ما في يوم من الأيام على خداعي، ولن يكون هناك امرأة واحدة تتجرأ، فإني قبل أن أقضي على الشقية سأشتمها في وجهها وفرجها بالحديد الملطى المخصص لوشم القطيع لأعلمها باسم السيد، فتموت عليمه.

نزع النقيب السترة وأخذ من الحزام الخنجر والمسدس. في ذلك الصباح من عيد القديس حنا أكل من فضلات المصنع، بعد رقصة فولكلورية حيوية ورغبة حب في التهادي على الأنغام المعزوفة.. وفي يوم، عندما يتعب من المملوكة تريزا، ولا بد من استبدالها عاجلاً أو آجلاً، فسيرسلها هدية إلى الأستاذ إميليانو غويدس، من وجيه إلى وجيه، احلم وكل يا أستاذ فضلة النقيب. الآن، لا، فهو بالمقارنة مع آل غويدس مجهول، ولا أحد متعباً هكذا، ويصل من ليلة صاحبة من الرقص والكثير من الكاشاسا، وطيلة الصباح مع الأنثى المتجاوبة اللينة، وما إن يضع عينيه على تريزا حتى يصطخب بالرغبة فيستجيب.

- إلى الفراش بسرعة.

أيام من الحزن ونفاد الصبر سبقت انطلاق النقيب إلى باهيا. مرة واحدة بادلت تريزا دانيال القبله عند منتصف النهار، وقال لها كلمة بحوية: "لقد تأكد تاريخ السفر". وعند المساء ترك زهرة على الشرفة، ومن أوراقها الذابلة عاشت تريزا الأيام الخمسة من ذلك الانتظار القاتل.

وكان دانيال يأتي يومياً، مع جوستينيانو دائماً يتحادثان ويضحكان برفقة حميمة، وكانت تريزا ترافق كل حركة بقلبها الخافق، وكل نظرة من الظهور السماوي، تريد أن تتكهن برسالة حب. عندما لا يكون النقيب حاضراً، كان الشاب يدخل بقدم ويخرج بقدم أخرى، صباح الخير، إلى اللقاء، وسجائر أميركية إلى الباعة، وينظر إلى تريزا بنظرة منكسرة، ولحسة لسانه لشفتيه يعني بها قبلة، قليلة مع ذلك، على الجوع الكبير المتطلب.

بالمقابل، وفي كل الأمسيات، كان يتفكّه مع الأخوات مورائيس، طاولة غنية بالحلويات، وأفضلها في العالم: حلوى الكاجو، والمانجا، والكرز، والغويابا، والزعرور، والخوخ الأحمر، والأسود الباذنجاني، المستدير منه والكبير، ومن تخونه ذاكرته يرتكب أعمالاً غير عادلة، فينسى على اللائحة حلوى الأناناس مثلاً وحلوى الزفير، ويا الله من حلوى الموز الملهبة! وكل التنوعات المصنوعة من

الذرة الخالصة، هذا دون التكلم عن الكانجيكاه والمهريسة مع رقصات السبارا الشعبية والإجبارية في شهر حزيران، ولا تتكلم عن الأوميزادا والجنيابادا وقطع اللحوم الرخيصة اللذيذة، والأجبان ومرطبات الكاجا والبيتانكا وليكورز الفاكهة. "وليمة متواضعة"، كانت الأخوات يقلن؛ نساء فانتات لإغراء دانيال الساحر.. في الصالون البيانو المغطى بشرشف إسباني مطرّز، المرتبط بذكرى العظائم الماضية، كان ينطلق مع أصابع ماجدة بمعزوفات بريما كاريزا والمارش التركي وبحيرة البجع وبقلم ملوّن كانت برتا تحاول أن ترسم جانب رأسه "هل ترى أنه يشبهك؟". "إلى حدّ كبير، إنك فنانة"، وتصفيق للمغنية أماليا المستعدة لكل شيء، ثم يطلب منها دانيال أن تكرر عندما ترتجف انفعالاً وهي تبدأ أغنية إن إكستريميس "الفم الذي لو استطاعت أن تقبله هو فمك القاسي".. وبحجة الاعتناء بأظافره كانت تيودورا تأخذه من يديه، ومفاصلها متداخلة بمفاصل يدي الشاب، والصدر دائماً في عرض إغرائي وذهبت إلى حدّ أن عضّت إصبعاً من أصابعه، الأخوات بصوت واحد يعترضن على صبغ الأظافر، فهو إخفاء وعدم رهافة. أما تيودورا فهي متصالحة مع نفسها، مع المقص، والمبرد وقينة الأسيتون، فهي لم ترَ قط يدين ناعمين كهاتين اليدين. نظيفات مسرّحات الشعور، غارقات في الكولونيا ومستخلصات العطور، كانت الأخوات الأربع شبه ضائعات. في المدينة، العمّات مقسومات إلى أجنحة: جناح يعلن قريباً خطوبة دانيال وتيودورا، إذ إنّ الشاب المسكين أسير الخدمة في الدارة الكبيرة والتي توقعه فيها الأخوات الذكيات، واتجاه آخر أضعف تأثيراً من الأول وتترأسه السيدة بونسيانا دي أزفيدو المراهنة على دانيال: إنه يأكل تيودورا إلى جانب الحلويات والوجبات الطيبة، ولا يأكل الأخوات الثلاث الباقيات إلا لأنه لا يريد.. النقيب شاهد العيان، والذي كان الطالب بالنسبة إليه محدثاً مسلياً وطريفاً، النقيب الذي على الرغم من بعض عاداته السيئة إلا أنه رجل كامل، لفت انتباه دان إلى خطورة جعل تيودورا حاملاً. ودانيال رداً عليه، روى له سلسلة من النكات الطريفة حول مسألة تجنّب إنجاب الأولاد، وكل نكتة أكثر طرافة من الأخرى، فذلك القدير كان يعرف أن يقول نكتة كما لا أحد غيره. وقد بقي للنقيب ألا يموت ضحكاً.

في يوم القديس بطرس صباحاً، ذهب جوستينيانو ليأتي بدانيال من بيت القاضي ليأخذه إلى حفلة عراك ديوك هراتية فذهبا في الشاحنة، تناولوا الغداء هناك، عند المساء عاد النقيب. كانت تريزا ما تزال مشتتة على أمل أن يكون قد ذهب إلى حفلة رايغوند أليكاتي، ليكون عندها وعند دانيال ليلة حرة للاحتفال.. لم يكن النقيب قد غير ملابسه، وهكذا، كما كان، خرج لتناول بعض البيرة في نزل غابي، وقد عاد باكراً لينام، بينما تريزا، متثاقلة القلب، غسلت قدميه؛ تنابها رغبة في الهرب تفتيشاً عن دانيال في الشوارع، في بيت القاضي أو في دارة موراييس، حتى تذهب معه في سكة نهاية العالم. ولشدة ما كانت تعيسة ومجروحة في الصميم لم تنتبه فوراً إلى معنى كلمات جوستينيانو: "غداً سأخذ القطار إلى باهيا، أما الآن فاهتمّي بالحقيبة وبالملابس"، "الآن، حالاً"، قالت، وهي تنتهي من تخفيف قدميه، "الآن، لا، غداً باكراً، فهناك متسع من الوقت". عندما عادت من تفريغ الحوض من الماء، كان قد أصبح عارياً وبالا انتظار، لم يحسّ النقيب أبداً أنه سجين الفراش الزوجي، فراش تريزا. لم تبقَ هناك أية واحدة أخرى طيلة هذه المدة وبمثل هذا الإغراء، فقد أكملت السنتين وقريباً الثالثة واهتمامه بها كان يزداد بدلاً من أن يخمد. ألأنها جميلة؟ ألأنها متجاوبة؟ ألأنها صغيرة؟ ألأنها صعبة؟ من يعرف، إذا كان النقيب نفسه لا يعرف؟

خلال السنوات العشر التي عاشت فيها بعد موت زوجها، فإن دونا أنكراسيا نيفياس دي موراييس الزوجة القوية والمغرمة بالأعياد، كانت تكرم القديس بطرس شفيع الأراامل، في الكنيسة صباحاً، وفي صالون الدارة الكبيرة ليلاً. كومة حطب كبيرة تشتعل في الشارع، وفي البيت توضع الطاولة الغنية بالمأكولات ويحضر الأهل المشهورون، والأصدقاء العديدون؛ وكان يأتي شبان يرقصون مع فتيات البيت، مع البنات الأربع في طور الزواج: ماجدة، أماليا، برتا، تيودورا، والبنات العزباوات، اللواتي أصبحن عوانس تقريباً، احتفظن بالتقليد.

فخلال القداس أشعلن الشموع عند قدم صورة الرسول بطرس، وفي الليل فتحن الدارة الكبيرة: بعض الأهل الفقراء، أصدقاء قليلون، ولا شاب، ولكن في عيد القديس بطرس ذاك فقد أخذت حفلة آل موراييس طابعاً جديداً: عمات

بالأكوام يلهث وراء الغيبة والأخبار والتكهنات، والشاب دانيال بعينه الحزنتين وضحكته العذبة، ولكن فكره هو حيث تجعل تريزا من أحشائها قلباً في الفراش الزوجي لجوستينانو دوارتي دا روزا.

في اليوم التالي أعدت تريزا الحقيبة للنقيب ووضعت فيها، كما أمر، بدلة الكشمير الأزرق النيلي المصنوعة أصلاً للزواج والمستعملة مرات قليلة، لذلك بقيت عملياً جديدة، إنها طقم احتفال مخصص للثاني من تموز في قصر المحافظة. ووضعت كذلك البدلات البيضاء وأفضل القمصان وبكمية كبيرة حتى يبقى طويلاً في سفرته.

وقبل أن يخرج ليستقل القطار، أعطى الأوامر إلى تريزا وشيكو نصف الكعب: "كل الانتباه للمخزن، وراقبا البائعين جيداً" عندما يكون المعلم في السفر فالبائعان يمكن أن يسرقا لمصلحتهما وأن يأخذا زوادة إلى البيت، وكالمعتاد عندما يتغيب النقيب، فإن شيكو نصف الكعب ينفذ أوامره وينام في المخزن، في فراش الهواء لينتبه إلى البضاعة ويقوم باحتياط أممي، ولكن أيضاً، وبالتأكيد، ليقيه ليلاً خارج حدود البيت الفعلية ودون إمكانية الاتصال بتريزا.

أما فيما يتعلق بتريزا، فإنه محظور عليها أن تضع رجلها خارج البيت أو المخزن أو أن تشجع الزبائن على المداعبة، وأن تكون محادثاتها مقتصرة على ما لا بد منه. بعد العشاء، فإن شيكو في المخزن المغلق، وهي في البيت في فراش النوم. إن النقيب لا يريد أن تكون امرأته مضغة في أفواه الناس، بسبب أو من دون سبب، فذلك سيّان عنده.

ودون أية كلمة، دون "إلى اللقاء"، ودون "إلى العاجل"، ودون أية حركة وداع، مشى إلى المحطة ومعه شيكو نصف الكعب يحمل الحقيبة. في جيب السترة، بطاقة دعوة المحافظة، وكتاب التقديم إلى روزاليا فاريللا، فتاة هوى تمارس العمل في باهيا، ومغنية في ملهى ومتخصصة بالتانغو الأرجنتيني، لامعة في الأدب والموسيقى: "فمك الداعر فم عاهرة...".

قبل أن يخرج بقليل، وفيما كان يبدّل ملابسه، وقد رأى تريزا في المرآة تدير ظهرها، أحسّ النقيب بتلك الرعشة في الأسفل، فرفع لها الفستان وفعل ما يريد بسرعة مخالفاً الطبيعة.

وكانت ثماني ليال كاملة في فراش النقيب الزوجي، وواحدة منها امتدت إلى صباح يوم الأحد بينما كان شيكو نصف الكعب يعاني آثار الليلة السابقة. فهو، يوم السبت يشرب زجاجتين من الكاشاسا، أما في المخزن، والمعلم في سفر، فهو لا يهمل مقابل أي شيء في العالم البضائع المؤتمن عليها.

مباشرة بعد أن يقرع جرس كنيسة القديسة حنة معلناً التاسعة ليلاً، بداية حياة العشاق، لتنتهز الصبايا الفرصة في المحلة. دانيال يصل إلى باب المخزن الخلفي الكبير، وكان يذهب قبل شروق الشمس في الظلمة الأخيرة من الليلة، وكان بعد الظهر (كان ينام من بزوغ الفجر حتى ساعة الغداء) يذهب ليستنكه مع الأخوات مورائس، ويصل إلى المخزن بحجة سؤال شيكو عن أخبار النقيب: "لم يبرق بعد ليعطي تاريخ الوصول، يا أستاذ". سجائر أميركية إلى بومبيو وبابا موسكاس وقطعة نقود إلى يكو، وعيناه المكسورتان ترتميان على تريزا. إنه يسمن بفعل أكل الحلوى والكابنچيكاس، ويُغرق الأخوات الأربع بالمحادثات المغرية وبالحكايات غير المعتمدة نهائياً الاختيار، الأخوات الثلاث الكبيرات يتنهذن، وتودورا لم يعد ينقصها سوى أن تجرّه عنوة إلى الفراش، ومن يعرف؟ فلولا العاصفة التي تحتاج تريزا ودانيال لقام بالخدمة لتودورا مجاناً.

ولكن من يعاشر تريزا، ومن يحملها إلى أبواب الفرح ويعلمها لون الفجر لا يستطيع أن يفكر في سواها. مغتصبة منذ أكثر من سنتين ونصف، مملوكة للنقيب كل الأيام، مغلفة بالخوف، ظلت بريئة، طاهرة وغبية، وفجأة استيقظت امرأة في تلك الليالي السريعة؛ وبالمحاضرات المكثفة انشقت عن بئر لا ينتهي من المتع، وأزهرت جمالاً؛ من قبل كانت صغيرة رائعة مراهرة ناعمة وبسيطة، أما الآن فإن زيت اللذة يمسح وجهها وجسدها، واللذة والفرح بالحب أشعلا في عينيها تلك النار التي لاحظ بريقها منذ أشهر مضت، الأستاذ إميليانو غويدس. وأكثر من ذلك، فقد تعلمت أيضاً بعض كلمات المجاملة وتنوع القبل وسر بعض الملاحظات، وليس ذلك بقليل لمن لم يكن عنده شيء، ولم يكن كثيراً لأن كل شيء مرّ في ومضة زمنية، بسرعة فائقة؛ وشباب دان لا يسمح لها بمعرفة واسعة وكاملة في المهنة، ذلك التمدد في المتعة، الرهافة الكبرى، الأخذ تدريجياً، على مهل وببطء،

مؤلم وبلا رحمة، فدانيال كان يعرف المدة القصيرة لتلك المغامرة من عطلته في منطقة الداخل، ويعرف وقت تريزا القصير. تريزا لم تكن تعرف شيئاً ولم تكن ترغب في التكهّن والنقاش واستجلاء الأمر.. أن يكون إلى جانبها، أن تلتف أسيرة بين ذراعيه، وأن ترضي رغباته وأن تدفع بالعمله نفسها، عبدة وملكة، ماذا هنالك أكثر لتريده؟ تذهب معه الآن، بالتأكيد؛ ولكن الاتفاق في هذا المجال قد تمّ وأقفل الموضوع، وما عاد يسمح بالأسئلة والنقاش، دانيال، هو ملاك من السماء، إله صغير، هو الكمال.

وعد بأن يأخذها معه محرراً إياها من أغلال النقيب، ولماذا لا يفعل في الحال ما دام جوستينيانو مسافراً؟ كان عليه أن ينتظر مالا من باهيا، العملية تستغرق بعض الوقت، وعد غامض، وتوضيح أكثر غموضاً وما كان واضحاً هو تأكيدات الرجولة: "ضعي في ذهنك أن النقيب حيوان وأنت تعلمت من هو الرجل الحق وما الفرق بين الشجاعة والاعتداد بالنفس".

مشاريع الحرب، تصاميم حياة المستقبل لم تشغل مساحة كبيرة من زمن ليالي مسرّات الفراش القصيرة. لم تصل تريزا إلى حدود الشك في الشاب، فلماذا عليه أن يكذب؟ في الليلة الأولى من الليالي الثماني، عند العودة من الانخلاع المجنون الأزلي، عندما كان دانيال ما يزال معها، مدّد رأسه على عنق تريزا الرطب فقالت له متأثرة: "خذني من هنا، أستطيع أن أذهب معك خادمة لك، معه لا أستطيع أن أعيش بعد اليوم..". شبه متردّد، وعدّها دانيال: "ستذهبين معي إلى باهيا، كوني مرتاحة..". ووضع طابعاً على الوعد بقبلة من تلوينات لسانه.

كل ما كان في السابق قدراً ومؤملاً مع النقيب، كان مع دانيال لذة من عند الله.

هكذا ماتت من الرعشة ورأسها وقع فوق بطن الملاك، ثم قالت: "فكرتُ أنني سأموت، ومن يدري فقد أموت إذا لم أذهب إلى باهيا، سأقتل نفسي، سأشقق نفسي في الباب، ومعه لن أعيش أبداً. إذا كنت لا تريد أن تأخذني فلا تكذب، قل لي الحقيقة".

للمرة الأولى والوحيدة رآته غضبان. "ألم أقل لك سأخذك معي؟ أوتشكين في؟ هل أكون رجل أكاذيب في ذهنك؟" طلب منها أن تسكت، ألا تكرر أبداً

مسائل كهذه. فلماذا تمزج في تلك الساعة بين التهديدات والأحزان؟ لماذا تقلص الفرح وتقضي ليلة المتعة وهي تحدث عن الموت والشقاء؟ لكل موضوع ساعته ولكل حديث مكانه.. ذلك أيضاً تعلّمته تريزا مع الطالب في الحقوق دانيال غوميز حتى لا تنساه بعد اليوم. لم تعد تسأله عن الهرب المتفق عليه ولا تفكر في حبل المشنقة.

دانيال لم يقل لها دوري، على الأربعة، مثل جوستينانو دوارتي دا روزا، الذي يهوي عليها بالحزام فما تزال حتى اليوم تحتفظ بآثار الجرح. هكذا ولدت من جديد تلك التي ماتت تحت وطأة المسطرة والحزام والسوط وكى الجمر. طعم الفلفل وعلامات الوجع والخوف تلاشت كلها واحدة واحدة، وإذا استعادت كل مفصل من مفاصل كينونتها، في الساعة الضرورية، ودون ظل الخوف، انتفضت بكليتها تلك المدعوة تريزا باتيستا، الرائعة، المصنوعة من العسل والشجاعة.

40

لا دانيال ولا أحد لاحظ الوقت قبل أن يقرع جرس الساعة التاسعة، حين جاءت برتا أبشع الأخوات الأربع بماجدة، إلى قاعدة الاستقبال، في العتمة التي تسيطر على الدار الكبيرة حتى تتسمّر الاثنتان على حافة النافذة في الكمين: - "إنه يأتي من هناك، انظري". قالت برتا ذلك وهي تعلم بالتأكيد الذي لا يقبل الجدل، لأنها عندما كانت تحسّ بوجوده، كان يصيبها البرد في الأسفل وتذهب بسرعة إلى الحمام لتبول.

وبينما هما مختبئتان وراء النافذة، رافقتا بنظرهما شكل الرجل وخلفه الطريق. فشاهدته، يدور حول الركن، وسمعتا وقع أقدامه القوي والبعيد في الزقاق. - لقد وصل إلى الباب الكبير، يجب أن يكون داخلاً.

كانت ماجدة، مقتنعة بمسؤولية الفتاة البكر فسهرت حتى الفجر وعرفته: إنه الجميل والسعيد عند بزوغ الفجر يعود من ليلة تريزا. لقد استعمل الحقيير الأخوات الأربع واقعة ريح وغطاء مثالياً وصلباً ليخفي عن جوستينانو دوارتي دا روزا وعن المدينة كلها ذلك التهلك الفاضح مع مملوكة المخزن، صاحبة النقيب البارع.

وطبيعي أن السافل شيكو نصف الكعب قد اغترّ ببعض من مال الكاشاسا، وفقط بدائي مثل جوستنيانو يستطيع أن يوكل أمواله وامراته إلى لص على الحضيض، ولكن وليكفل التغطية الكاملة فقد استغل حسن النية والصدقة والعواطف والمائدة الغنية عند الأخوات الأربع: ماجدة، أماليا، برتا، تيودورا؛ والأربع اللواتي صرن حديثاً دائماً على ألسنة الناس وفي خلوة العمّات، بينما المملوكة في الفراش، إنها مسألة كبيرة وكبيرة جداً.

في المدرسة، ربحت ماجدة جوائز عديدة في الكتابة ولكنها في بعض المراسلات تفضل استخدام حرف الطباعة، وفقاً لنصيحة السيدة بونسيانا دي أزيديو، ولكن أثناء الحادثة العظيمة وجدت فرحاً واحداً، فرحاً كثيراً، فرح عانس، إنها تستطيع أن تكتب تلك الكلمات السيئة التي يُمنع استعمالها على الفتيات والسيدات المتميزات: أبو قرون، رُجيل، ذو القرنين، جيكلو البراز، العاهرة المملوكة، أجل، العاهرة المملوكة.

غفت تريزا بعد الهبوط من السماء وبينما كان يدخن سيجارة، راح دانيال يفكر في أفضل طريقة ليُعلمها برحيله الوشيك إلى باهيا، إلى الكلية والملاهي، وزملاء الدراسة ورفقاء البوهيمية، وإلى السيدات العجائز، والفتيات الرومنطقيات: "سأرسل في طلبك فيما بعد، يا حبيبي، فلا تقلقي، ولا تبكي، وعلى الأخص لا تبكي ولا تحزني، فلدي وصولي إلى هناك سأهتم بالتدابير". ربع ساعة صعبة ليقنعها، مسألة مزعجة، دانيال يرتعب من المشاهد التمثيلية، ومن الفراق، ومن التملص، ومن التذمر والبكاء.. سيتمتع بالليلة الأخيرة ويقول لها ذلك في البرهة الأخيرة، مع الفجر عند الباب الكبير بعد قبلة الشفتين واللسان والأسنان.

نصح نفسه أنه ربما من الأفضل ترك الأمر لليوم التالي. يأتي عند الصباح إلى المخزن ليودّع الجميع معاً: "نداء مستعجل، غير متوقع، من الكلية، إذا لم أحضر سأضيع العالم كله، عليّ أن آخذ أول قطار، ولكن غيابي لن يدوم طويلاً. أسبوع واحد على الأكثر". ولكن إذا انزعجت تريزا، ووجدت نفسها مخدوعة وفتحت فمها للناس وقامت بفضيحة بوجود شيكو نصف الكعب والبائعين، ما عسى أن تكون ردة فعل المسترلم الأمين؟ عندها يأخذ علماً

بالقرنين المركبين لسيدته وحاميه، وعملياً وأمام عينيه. مجرم حتى القتل، فإن شيكو سيخبر دانيال بأنه سيحتفظ بالعقوبة لجهود وأفعال النقيب. الأفضل إذاً أن يذهب الآن دون أن يقول شيئاً. انحطاط أخلاقي، بلا شك، وفاضح، الصغيرة بسيطة وسريعة التصديق وعمياء من الوله تعدّه ملاكاً هابطاً من السماء وها هو يهرب خفية دون كلمة اعتذار أو وداع؟ لا يجب التفكير في هذا، لم يمر في رأسه جنون إلى هذا الحدّ، وهو سيتكلم في الموضوع حتى يمنع الشكوى والبكاء وأحاديث الشنق.

صوت جوستينانو دوارتي دا روزا يخرج دانيال من الفراش في قفزة واحدة، وتستيقظ تريزا. وقف النقيب في باب الغرفة، آخذاً قبضة سوط الجلد الخام بقبضة ذراعه اليمنى، وتحت السترة المفتوحة الخنجر والمسدس الألماني.

- "أيتها الكلبة النكراء، معك سأصفي الحساب بعد قليل، لن تنتظري طويلاً. هل تتذكرين مكوى الجمر؟ الآن سيكون مكوى اللظى لوشم النيران، أنت نفسك سُسْشَوَيْنَ اليوم". وضحك ضحكته القصيرة البشعة: "وها هو العقاب الذي لا بدّ منه".

إلى جانب الحائط وقف دانيال، شاحباً مرتجفاً، ملتزماً بالقلق، فأعطى النقيب ظهره لتريزا، كان عنده الوقت الكافي للاهتمام بالمتسكعة، ويكفيها الآن أن تفكر بالحديد الملطّي، وبخطوتين أصبح دانيال بمتناول يد النقيب فسدد له صفتين على وجهه فسال الدم من فمه، كانت أصابع جوستينانو دوارتي دا روزا مليئة بالخواتم. ومرتبعا، مسح دانيال زاوية شفثيه بيده، ونظر إلى الدم وتنهد.

- "يا ابن العاهرة، يا كلب الأجنبية لولو الفرنسية، كيف تستطيع أن تتجرأ؟ هل تعرف ماذا عليك أن تفعل لتبدأ لتبدأ...". ردّد: "إنك ستلكح.. وكل النساء هنا وفي باهيا سيعرفن".

"افتح السحاب وأخرج الأشياء". دانيال يبكي واليدان مرتجفتان. أمسك النقيب بقبضة السوط، وهزّه في الأعلى، الحبال الحمراء، والرعب قاتل، وقع الطالب، ولوى مفاصله، وانحنى بكليته.

- هيا يا كلب.

رفع ذراعه من جديد، فراح سوط الجلد يدور في الهواء: "هيا ستفعل أم لا يا ابن الزانية؟" دانيال ييلع ريقه والسوط يدور، وكان مستعداً أن يطيع عندما أحسّ النقيب بالسكين تخترق ظهره ببرد النصل المسنون وحرارة الدم. استدار النقيب فرأى تريزا واقفة ويدها ترتعد وشعاع في عينيها من الجمال المثير والكراهية العضوض. الخوف حيث هو والاحترام الذي لقنها إياه تعلّمته تريزا جيداً.

- اتركي هذه السكين، يا شقية، أأنت تخافين أن أقتلك؟ هل نسيت؟

- لقد انتهى الخوف! لقد انتهى الخوف يا نقيب!

صوت تريزا الحرّ يملأ سماء المدينة، ينطلق فراسخ وفراسخ ويطوف طرقات الداخل، وتصل أصداؤه إلى شاطئ البحر. في السجن، في الإصلاحية. في نزل غابري أطلقوا عليها اسم تريزا انتهى الخوف، وبعد ذلك أسماء عديدة أعطتها الحياة، وكان ذلك الاسم أولها.

النقيب يتفحصها ولكنه لا يعرفها. إنها تريزا، بلا شك، ولكنها ليست التي دجنها بالسوط، وليست تلك التي علّمها الخوف والاحترام، لأنه من دون الطاعة، كيف يكون العالم؟ إنها تريزا أخرى هنا تظهر تريزا انتهى الخوف! عجيب أمرها، تبدو أكبر، وكأنها أزهرت في أمطار الشتاء. هي نفسها وهي أخرى. ألف مرة قلبها عارية ونالها في الفراش الأرضي، بسوط الجلد، في سرير المزرعة العريض، وهنا أيضاً في الفراش الزوجي هذا ولكن عريها الآن مختلف؛ ويلمع جسد تريزا البرونزي، جسد لم يلمس قط، لم يمتلكه قط جوستنيانو دوارتي دا روزا. لقد تركها صغيرة فوجدتها امرأة، تركها عبدة الخوف فأنتهى الخوف لقد تجرّأت على أن تخونه، ويجب أن تموت بعد أن توشم بالحديد الملطّي بالأحرف العريضة. يسيل الدم من الجرح في ظهر النقيب، ورغبة غير مطاوعة تعتريه.. إنه يحسّ بالرغبة تشتدّ، تصعد إلى صدره، ويجب أن ينالها مرة أخيرة ومن يعرف ربما تكون المرة الأولى.

جوستنيانو دوارتي دا روزا، الملقّب بالنقيب جوستو، وتلقّب السيدة بريجيذا بالخنزير، أصيب بإحدى أسوأ النوبات، فأهمل دانيال وأعطاه إشارة بالتقدم، فأنتهز المدلل الفرصة وبصرخة مخيفة، عارياً، دخل دائرة آل موراييس. وتقدّم

جوسـتـنيـانو إلى الأمام وفي نيتـه أن يلتقط الملعونة ويخضعها في الفراش ويحطّم لها خالدها، وبرعمها الأخير، ويدخل في المسافة الضيقة ويمزّق أحشاءها، ويشمها بهذا الحديد الملطّي، في الداخل، ويدقّ عنقها، وفي لحظة الرعشة يقتلها؛ ولكي يفعل كل ذلك، انحنى فوقها. وبينما تتلوى تحته. طعنت تريزا باتيستا النقيب، مرة أخرى، بسكين قطع اللحوم المجفّفة.

القسم الثالث

الفباء

الحرب بين تريزا باتيستا والجذام

— أ —

أميغو اسمح لي أن أقول إنك قليل الحياء، تصم آذان الناس دون تحفظ وانقطاع: كأس كاشاسا فاخر، وسيل منهمر من الأسئلة. ألم تتعلم أن لكل امرئ الحق في أن يعيش حياته الشخصية بسلام ودون أن يتدخل فيها أحد؟ هل كانت ربة بيت صالحة؟ أجل يا سيدي، لقد ولدت حرة، ثم بيعت كعبدة، وعندما وجدت نفسها يوماً في بيتها المكوّن من غرفة نوم وصالة محاطاً بالأزهار وبيستان من الأشجار المثمرة، الوارفة، ومسيجاً يتفياً ظلالاً كثيفة، كان جميلاً أن ترى تريزا باتيستا منظمة، منسجمة مع نفسها، وهي في اهتماماتها المنزلية ورهافتها العذبة، دار نظيفة مهففة، ذات موقع جميل، ازدادت بين يدي تريزا فرحاً وكرماً! ومع رائحة القراصيا وركن الجنادب فإن أشتانسيا أرض النزق والحياة المرفهة لم تعرف داراً يمكن تشبيهها بهذه، وهنا أعطي الصديق رأبي المخلص المشابه لآراء الآخرين الذين عرفوها وتعاملوا معها في زمن الأستاذ؛ وإني أعطي الرأي مجاناً دون أن أطالب مقابل الخير بأي شيء سوى هذه الجرعات الرخيصة من الكاشاسا. إذا كان المزيد من التساؤل، أيها الفارس، كما يرى الكثيرون، قد غدا مزعجاً وأنه من الأفضل عدم الإجابة عن أسئلة الفضوليين الآتين من الخارج، فما هو الغرض من هذا التحقيق المستفيض؟ في اعتقاد زوجتي أن العزيز قد جاء بنية المصادقة، ولهذا فإنه يتدخل كثيراً، ويستجلي التفاصيل الدقيقة في حياة هذه المخلوقة. يمكن أن يكون الاعتقاد صحيحاً، ولكنني لا أنصحك بالاستمرار فلا تتوغل واطرك تريزا بسلام.

لماذا كان عليها أن تقبل بغريب، وأن ترفض أثرى رجال المال وأكثرهم وجاهة،
الناهي الأمر في السياسة وتبقى مستجيبة لكياسة الأستاذ وطيبته؟ سواء بالتدخل
الشخصي أو باستراق الأخبار من أي وجه منتفخ وإن كان صناعياً مصرفياً، أباً
للوطن، وغنياً فاحش الثراء؟ الصديق من أندر، فلا تتماذ في مخططك، من الآن
فصاعداً، وإذا تماديت فيه فإنك ستواجه بركاناً منفجراً. لكي تحصل على الطيبة
واللطف والرفقة الطيبة التي انقطعت، عليك بمعطف الحب وحده، يا صديقي العزيز،
مثلما كتبت فتاة ملهى في غيلوس مدينة الكاكاو والقحط الشعري: "إن الحب هو
معطف من المخمل يغطي عيوب الإنسانية". ومتدثرة بمعطفها المخملي، فإن تريزا قد
فعلت ما تستحق عليه التقدير والاحترام فاترك الفتاة بسلام، أيها الفارس.

من مهمات ربة المنزل مهمة واحدة لم تستطع إجادتها، هي إعطاء الأوامر
للموظفين والتعامل مع الخادמות عبر المسافة المفروضة، والتقليل من الطيبة المتحفظة
إزاء الخدم والفقراء بصورة عامة.

كانت قد تعلّمت الكثير مع الأستاذ وعلمته أشياء كثيرة وهي تبرهن له مع
توالي الأيام أن كل تمييز قائم بين البشر على أساس المركز الاجتماعي وقياس
الإنسان ووزنه بالمال هو تمييز باطل وخاطيء. إن الفروقات تقوم، تقاس وتوزن
وتعطى قيمتها الحقيقية عندما تكون المعركة مع الموت في سهل منبسط وعلى
أساس مبدأ واحد هو الإنسان بكليته. ومن هنا إنها لا تعير أكبر السخافات
اهتماماً، ولا مكان لحقوق المال والمعرفة الفاسدة عندها. أقل شأناً ممن ولماذا؟ لقد
كانت تريزا مساوية للغني والفقير فقد أكلت بمعلقة الفضة وبتهديب رفيع، وأكلت
بيدها وكان الطعام أطيب. لقد خصّص لها الأستاذ حارساً للحديقة وللستان
ليحرس بابها. ولكن في البدء، ولأنه لم يكن يعرف تركيبها المستقيمة، فإن الحارس
كان مختاراً ليحافظ أيضاً على الشرف والعفاف، ووضع لها خادمة للأعمال
المنزلية والمطبخية، وناداهما بيا مليكتي وأغرقها بالعطف، ومع ذلك كانت هي
أكثر من تعمل في البيت ولم تصبح قط سيدة مثاقلة عاطلة عن الحركة، أو قليلة
الإحساس، وعشيقة لورد متعجرفة تسمن في متع الأمر والنهي.

إذا كنت تفكر في مصطلحات، فتوقف أيها الفارس، ودع المتعبة من العالم
متدثرة بمعطف الحب. إن الكمال واحد في كل شيء، وفي كل لحظة، ولا يكرّر

نفسه.. حتى تريزا باتيستا لم تفكر بتكرار مصادقة كاملة، مكثفية بذكريات تلك السنين وبذكرى الأستاذ.

وفيما يتعلق بالطبيب الذي حدثك عنه، أيها الصديق العزيز، فإنه لم يكن أبداً عشيقها: كان رفيقاً في الأعياد والاحتفالات، هذا بصورة خاصة ليقفل الوقت ويهرب من الفتيات اللواتي قد يهدّنه بالزواج بسبب وعوده. وفي معرض الحديث عن نصف الطبيب ذاك، فانظر كم كانت تريزا باتيستا على حق في عدم التمييز بين الفقراء والأغنياء. فقط في ساعة الخوف يمكن قياس الناس ووزنهم ومقارنتهم بعضهم ببعض الآخر، بمقياس الحقيقة وميزاتها. لقد وقع حامل الدبلوم الطبي خارج مكانه حين كان واجبه بوصفه طبيباً أن يبقى في طليعة الجميع وقائداً، ولكن لمن؟ عندما ألقى الجذام رحاله في بوكين لم يبقَ لمواجهة إلا العاهرات، أيها الفارس، تقودهن تريزا باتيستا. كانوا قد سمّوها سابقاً تريزا قرص العسل، تريزا النسيم العليل، ولكنها فيما بعد أصبحت تريزا أومولو، تريزا الجذام الأسود؛ كانت مصنوعة من العسل فانسال عليها الصديد.

- ب -

بووا بوندا، ماريكوتا، ماودي فادا، بولوة فوفو العجوز غريغوريا الستينية، كابريتا ابنة الأربعة عشر عاماً ومنها عامان في الدعارة، كلهنّ، حفنة من العاهرات، يا رفيقي: وحيدات واجهن الجذام الأسود وانتصرن عليه، حيث هاجم أراضي منطقة بوكين وأخذ يقتل بلا رحمة؛ وقادت تريزا باتيستا المعركة إلى جانب الشعب.

حرب ضروس! لو أن تريزا لم تبادر إلى قيادة عاهرات شارع كانكرومولي، لما بقي أحد في محلة موريكاييا ليروي الحكاية... لم يعد بمقدور السكان حتى الهروب، مثل هذه الرفاهية ظلت وقفاً على متخمي مركز المدينة، من أصحاب المزارع الكبيرة والتجار وكبار الأساتذة، ابتداء من الأطباء الذين كانوا أول من أطلقوا أرجلهم للهروب، هارين من ساحة المعركة، واحد منهم إلى القبر والآخر إلى باهيا، في ذلك القرار الجبان والركضة المجنونة دون أمتعة أو استئذان، فإن الطبيب الوحيد بحجة الذهاب إلى أراكاجو للمجيء بالنجدة، قد استقلّ القطار الخاطئ غير

مكثرت بوجهته ومصيره، فبقدر ما يذهب القطار بعيداً يكون هو بمنأى عن الخطر.

وصل الجذام متكالباً، يحمل كرهاً عضوضاً قديماً ضد المكان ومن فيه، متعمداً القتل الذي يقوم به باحترام وبرودة وشر مستطير، وبدا الجذام قوياً، بشعاً سيئاً: إنه الجذام الأشرس فتكاً. قبل وبعد الطاعون، ستة أشهر قبله أو ثلاث سنوات بعده، هكذا ظلّ الشعب حتى اليوم يوزّع الزمن بتقويمه الخاص متخذاً من الحدث الرهيب منطلقاً لتوقيت الماقبل والمابعد... ومن الذي لم يرتعب من هجمة الموت الذي لا رقيب فيه؟

وحدها تريزا باتيستا لم ترتعب ولم تظهر أي خوف، وإن تكن قد أحسّت بالخوف فقد كظمتها في صدرها: ولم يكن ممكناً بغير تلك الطريقة أن تستحث حيوية نساء الحياة العامة، وأن تأتي بهنّ معها لمواجهة مهمة النضال ضد القبح والرعب... هذه هي الرجولة يا رفيقي، وليست الرجولة في أن يثير المرء أحداً ويستحثه للشجار متبادلاً معه اللكمات وطلقات الرصاص، وليست في الحزّ بالخنجر أو السكين البرنامبوكية، فهذه الأمور يستطيع أي حي أن يقوم بها، ويتوقف الأمر على المناسبة والضرورة. ولكن لمعالجة مصاب بالجذام الأسود، ومواجهة العفونة والبكاء في الشوارع الملوثة بالوباء وفي المحجر الصحي، فإن شجاعة شاربي العرق لا تكفي: فأبعد من المهمات الشاقة يقتضي وجود معدة وقلب، وفقط النساء التائهات امتلكن القدرة اللازمة لممارسة العمل الشاق.. وسط أمراض العالم تعودن على القبح واحتقار الأفاضل، ومن المراكز العالية والمواقع المرمّنة تعلمن كم أن الحياة تساوي القليل وكم يساوين هنّ غالباً. إن في أفواههن آثار جراح وفي جلدن قساوة، ومع ذلك فهنّ لسن قاسيات وغير مكترثات بأوجاع غيرهم، إنهن رجال بشجاعة فائقة. نساء الحياة العامة: اسم يقول كل شيء. في تلك الأيام تحوّل الفحل إلى مخنث جبان واختفى هارباً؛ الرجولة وحدهنّ العاهرات امتلكنها، عجائز وفتيات في مقتبل العمر، ولو كان لدى شعب موريكاييا المال والسلطة لأقام في محلة بوكين تمثالاً لتريزا باتيستا والنساء اللواتي جاهدن على قدر الحال، أو لأقامه لأومولو الإله الوثني الذي يشفي من الأمراض وعلى الأخص من الجذام الأسود. وهناك من قال إنه هو نفسه أومولو الإله الوثني الأفريقي، والذي

يشفي من الأمراض كان متجسداً بجسد تريزا وقد قضى على الجذام، ولم تكن هي أكثر من جواد القديس في المعركة الخالدة.

أمور كهذه لا يجب مناقشتها، إنها مصطلحات إيمان تستحق الاحترام، وسواء كانت هي سيدة نفسها وأفكارها وأعمالها، مستعملة الأمثلة التي تعلمتها وهي صغيرة مع فتیان هنود المزرعة في لعبة الجندي واللص، وقد شدت تجربة الحياة من عضدها في كل ما شوهده وما بقي لمشاهدته، أو أنها ارتدت شجاعة أومولو شفيح المصابين بالجذام الأسود، فإن من حمل العبء وواجه السوء كانت تريزا باتيستا. وهل أن شجاعة الآلهة وجمال الملائكة والقديسين وسوء أعمال الكلاب غير انعكاسات لشجاعة وجمال وطيبة وسوء عمل بني الإنسان؟

- ت -

ترجل الجذام الأسود في بوكين من قطار شحن سكة حديد ليسبي البرازيلية، يصيب العينين بالعمى بعد تفريغ الحذقتين، ويجعل الأصابع تتقطر صديداً؛ إنه جراح مفتوحة تفوح منها العفونة. وقد جاء من ضفتي نهر سان فرانسيسكو المكان الذي هو يعدّ من أمكنة إقامته المتعددة والمفضلة: ففي تلك الضواحي كانت الأوبئة تتقيد بالمعاهدات والاتفاقيات، عاقدة المؤتمرات وملقية المحاضرات. التيفوس ترافقه إلى هناك العائلة القاتلة من أنواع حمى التيفوئيد والبارا تيفوئيد والمالاريا والبرص الجادع، وفي كل مرة تبدو أكثر شباباً الحمى الصفراء ومعها الزحار المتخصص بقتل الأطفال، والطاعون الديبلي العجوز الذي ما يزال يصل في الطبيعة، والسل، وأنواع الحمى المختلفة وعلى الأخص منها أبو الجميع وبطيريركهم: الجهل. وهناك على ضفاف سان فرانسيسكو في داخل الولايات الخمس، كان للأوبئة حلفاء طبيعسيون ومقتدرون: أسياد الأرض، العقداء، مفوضو الشرطة، قادة قوات الفصل العامة، الزعماء، الأمرون، السياسيون، وأخيراً الحكومة العليا. أما حلفاء الشعب فيعدّون على الأصابع: يسوع الصالح، بعض المتضرّعين وقسم من الإكليروس وقلة من الأطباء والمرضيين، وبعض المعلمات ذوات الرواتب القليلة، وكلهم لا يشكلون غير كتيبة صغيرة ضد جيش المستفيدين من أنصار الطاعون.

ولو لم يكن الجذام الأسود، والتيفوس، والملاريا، والأمية، والبرص، ومرض الجروح المتقيحة، والجراشة الحكاكة وغيرها من الأوبئة اللعينة لتقفز إلى ساحة المعركة، فكيف يمكن المحافظة على حدود المزارع الواسعة سعة بلدان برمتها، وبالتالي كيف يمكن تربية الخوف وفرض الاحترام واستغلال الشعب؟ ومن دون الزحار، والخناق، والكزاز، والجوع بمعناه الحرفي، فهل يمكن أن نتصور عالم الأطفال الذين سينمون ويصبحون راشدين، وأجراء وعمالاً وشركاء وكتائب عديدة من الأزام الذين سيأخذون الأراضي ويتقاسموها؟ إنهم ليسوا كهؤلاء اللصوص المغلوبين على أمرهم، والذين ينتهون في الطرقات على صوت مكابح الشاحنات، إنها أوبئة ضرورية وكلية، من دونها يكون مستحيلًا الاستفادة من صناعة القحط المربحة، ومن دونها كيف يمكن الإبقاء على المجتمع منظمًا بحيث يمكن إحصاء الشعب الذي هو أسوأ لعنة من كل اللعنات المذكورة؟ تخيل أيها العتيق هؤلاء البشر ذوي الصحة القوية الذين يعرفون القراءة: أي خطر مرعب هم!

- ث -

تآليل الجذام الأسود انطلقت من الغرف المحصنة بالحجارة البيرانية الزائفة على ضفاف سان فرانسيسكو مبحرة من بروبريا لتستقر في بوكين. ولكي تختبر فعالية الأسلحة دون أن تضع الوقت أصابت الإطفائي والمهندس الميكانيكي، ولكنها نالت منهما ببطء وأعطتهما الوقت الكافي ليموتا في باهيا تغطي نأ وفاتهما الأخبار المثيرة في الصحف. بعد عدة أيام فإن برقيات آتية من منطقة الداخل تحولت إلى عناوين كبيرة من سبعة أعمدة على الصفحات الأولى: النخ يقتحم مرة أخرى. لماذا جاء وبهذا القدر من العنف؟ لم يكن ممكناً معرفة ذلك بالدقة والبراهين.. نسبت المعارضة سبب اللعنة الصماء على الرحمة إلى الاحتفالات المغرضة والتحريضية. من الآن وصاعداً يجب التعامل مع التأكيدات السياسية (المعارضة خاصة) بريية وشك، وبتحفظ طبيعي دون أن تمنح مصداقية كبيرة، وعلى كل حال فهذا ما ورد في هذه الأغاني الشعبية التي تصف المعركة الخالدة الرواية التي رواها المحتفلون... ما عدا ذلك لا أحد يعلم شيئاً عن أي تفسير ذي قيمة، ما عدا تفسير مقياس احترازي

حقيقي يقاس به تمويه سلطات الصحة العامة للأمر، ونقصان الاحتياطات للأوبئة المجتاحة والمستوطنة في الأرياف، وابتلاع أصحاب الاختصاص لما يعرفونه؛ والرواية قد كذبت على كل حال على السنة المسؤولين المتخصصين! المحتفلون كانوا يتوجهون بالتصفيق وبإظهار الامتنان العام للإعلان عن القضاء التام على الجدري الأبيض والزحار والتيفوس والبرص والأوبئة المجتاحة مستفيدين للقيام بتلك الاحتفالات من الزيارة الرسمية التي يقوم بها إلى بوكين مدير الصحة العامة في الدولة مع قافلته السعيدة.

احتفالات، ألعاب نارية، فرق موسيقية تعزف مع المسيرات الحماسية، أحاديث وأحاديث تتناول باستفاضة النية في تطوير المنطقة على أساس ما قد أعلن عنه سابقاً، وقبل كل شيء التطهير من الجذام الأسود وفي الحال، وفقاً لما تذكره البيانات الحكومية وإلى حد أن الوباء الواسع الانتشار، قد اختفى في الاحتفالات والطرقات وأركان الشوارع العريضة، والأزقة الضيقة وإلى الأبد، نظفت منطقة الداخل من الجدري الأبيض والزحار والتيفوس والأوبئة المستوطنة التي انتشرت مع الحكومات السابقة وفق معلومات الجميع. وليعيش محبوبنا الحاكم العام المدافع بلا كلل عن صحة الشعب، ليعش، وليعيش المحبوب مدير الصحة العامة، الموهبة الفذة المتفانية من أجل راحة أبناء الولاية الأعزاء، وليعيش أخيراً رئيس بلدية المدينة المحامي روجيريو كالداس الذي كان أقل من أكل من الشعارات الموجهة للنضال ضد الأوبئة المستوطنة في الريف، إذ إن الشعارات كانت قد التهمت فئران كبيرة وأحسن مركزاً، طيلة الحملة البيروقراطية وعلى طول الطريق من العاصمة إلى الداخل، ومع كل تلك القابلية في أكل الشعارات فقد بقي منها جزء كبير للإداري الغيور.

من بين الخطب البليغة، كانت خطبة رئيس البلدية المتحدث باسم السكان الكثيري الامتنان (عصابة من العاقين، المتشككين ومثيري الشغب، كانت قد أطلقت على رئيس البلدية لقب أبو التلقيحات) الخطبة الأكثر عنفاً واستنتاجاً، بالتأكيدات المطلقة التي وردت فيها، ومع القضاء المبرم على الأوبئة، فإن البلدية كانت ترتع في العصر الذهبي من الصحة والازدهار. لقد كان الوقت قد آن. وأخذ الكلمة أيضاً الشاب الموهوب الدكتور أوتو أشبينييرا الجديد في إدارة مركز

الصحة في بوكين الذي قال إنه وكونه مزوداً بالأجهزة والمعدات الكافية فإنه كان قادراً على مواجهة أي مرض معد، ويساعده في ذلك جهاز بشري مؤهل ومخلص في العمل، الشاب الظريف وريث تقاليد وامتيازات عائلة أشبينييرا كان يهني نفسه للسياسة وعينه على النيابة؛ خطاب يفتح القابلية، فالتهموا الهتافات.

لم ينقض أسبوع على الذكرى الوطنية والاحتفال بالقضاء على الجذام الأسود، حتى كان الأخير قد ترجل من قطار شحن سكة حديد ليسبي، صدفه أو عمداء، وقضى أول ما قضى على رئيس البلدية أبو التلقيحات وكان قد لقب بهذا اللقب لأنه تورط مقابل الدعم السياسي في عملية تلقيحات معقدة، تلقيحات للدواجن اختفت من البلدية وبيعت بأسعار بخسة إلى مزارعين في الجوار. كانت حقيقة التلقيحات المختفية ليست كما جاء في التقرير المتعلق بفقدانها في مركز الصحة الذي كان مجهزاً بطريقة جيدة كما ادعى أشبينييرا، والذنب في ذلك لم يكن ذنبه ولا ذنب أحد بالتالي ما دام قد قضى على الجدري بصورة تامة، ولأن أحداً هناك لم يسافر إلى الخارج، إلى البلاد الأوروبية المتخلفة التي ما تزال عرضة للوباء، "فلماذا التلقيحات، قولوا لي؟".

ما كاد الجذام الأسود يلقي برحاله حتى قضى في اليوم نفسه على رئيس البلدية، وجندي في الشرطة، وزوجة القسيس (الزوجة الحقيقية لا العشيقة والحمد لله)، كذلك قضى الجذام على سائق عربة وأجيرين في مزرعة العقيد سيماو لاميفو، وقد انطلق الجذام يحصد حياة الناس بدءاً بالأهم وصولاً إلى ثلاثة أطفال وعجوزاً طاعنة في السن والسيدة أورينيا بنتو التي كانت الأولى في سلسلة الموت. إلا أن تطور المرض لم ينتظر تفجر الجراح في الوجه واليدين والرجلين والصدر المستهلك لأنه لم يكن غيباً ليقى مهترئاً في الفراش مع الوجع الأليم، فقد اكتفى يومها بزهرة من القيقح في الصدر الواسع، وكان مشهداً بشعاً لمن يراه.

- ج -

جذام أسود خيم منتصراً على المدينة والريف. استؤصلت شأفته؟ هراء! أليس نبخ الزنج بشحوب فقر الدم والجدري الأبيض الشائع رفيقي الشعب الدائمين. في الأحراج وزوايا الشوارع، وبالجملة والمفرق، في المعارض، يهبان نفسيهما مجاناً؟ عندما تنشف البشرات الخبيثة، فإن الجدري يصبح أشد سرياناً، في الطرقات،

والأسواق، والاحتفالات، والشوارع. تلوث جراثيم الجراح الهواء وتقود خلفها جدري الزنج كافلة له البقاء الدائم في أرياف الداخل.

الجذام الأبيض خطر محدود، فهو قلما يقتل كبار القوم، إنه يقتل دائماً عدواً ما ليقوم بواجبه بوصفه مرضاً، ولكن إذا ما تأخر في المنطقة ينتهي الشعب إلى التعود عليه ويقيم معه قواعد التعايش، وعائلة المصاب بالجذام الأبيض لا تتلقح، ولا تتنكر ولا تأتي بطبيب وتستعمل وصفات رخيصة من أوراق الشجر، ولكنها تأخذ الاحتياطات للمحافظة على الأعين، أما الباقي فلا أهمية له! مكتفياً بتلك الأمور فإن النخ يقابلها بوضع علامات على الوجه وثقوب في الجلد وينشر لعدة أيام الحمى والوهن... ولكن أبعد من بشاعة الوجه المنقور والأنف المجذوع والشفة الشائهة، فإن الجذام الأبيض يجب أن يأكل نور الأعين، أن يعمي، كما أنه يفيد في قتل الأطفال مساعداً الزحار في مهمته التنظيفية. جذام تافه، أخطر بقليل من الحماق والحصبة، ولكن في هذه المرة لم يكن هو ذلك الجذام الخجول الخفيف السوطاة الذي يصل من ضفاف نهر سان فرانسيسكو في قطار سكة حديد ليستي البرازيلية، بل كان ذلك الجذام الأسود الذي يأتي ليقتل.

ودون إضاعة وقت فقد التحق بعمله تَوَّأ.. وبالعمل المكثف في مركز بوكين بدأ بتنفيذ المنهاج المقرر انطلاقاً من بيت رئيس البلدية وبيت الرعية حيث يقيم الكاهن مع زوجته الشرعية. المرض اللعين على عجلة من أمره. لقد أتى معه بخطط طموح: القضاء التام على سكان المدينة والأرياف دون أن يبقى على حي ليخبر عن الحدث. وبعد عدة أيام تمت ملاحظة النتائج الأولية: معاينة الموتى، الدفن، نعوش الأموات، لطم وبكاء.

حكاك، يصبح الجسم بعده مكسوراً بالثآليل، ثم تتحوّل الثآليل إلى جراح مفتوحة وترتفع الحمى وتحوّل إلى احتراق فيسيل القيح ليغشى العينين، ووداعاً يا ألوان العالم؛ ويتمّ تجهيز كل شيء لتكفين المصاب بعد أسبوع من إصابته؛ متسع من الوقت للبكاء والصلاة. وفيما بعد قلّت الصلوات ولم يعد من وقت لها.

سريعاً ومفترساً انتشر الجذام في كل الحي السكاني، ووصل يوم السبت إلى موريكابيا مقيماً في البيوت المنتشرة خارج المدينة حيث يعيش أفقر الفقراء، ومنهم العاهرات القليلات ذوات المهنة المحددة والمقيمات في شارع كانكرومولي. ففي

بوكين المدينة الصغيرة المتخلفة ذات الدخول المحدودة، فقط نصف دزينة من نساء الحياة العامة كنّ قد تفرّغن للدعارة وسكنّ المنطقة هناك، أما الأخريات فقد قمن بأعمال الفراش إلى جانب أعمال المطبخ وغسل الملابس، هذا دون أن تدخل في الحساب خياطة جميلة ومعلمة ابتدائية شقراء ذات نظارتين جاءتتا معاً من أراكاجو وكتاهما مرتفعتا الثمن ودون قدرة الأكثرية فبقيتا وقفاً على الوجهاء.

الميدان ملائم: مستنقع المياه العذبة الملوثة، التجيّف، النفايات، لذا ازدهر الجذام في موريكايبا معزّزاً قوته في المعركة التي ابتدأت منذ فترة قصيرة. كان الأطفال والكلاب يقلبون جبال النفايات بحثاً عن الطعام، وبقاياها على طاولات مركز المدينة؛ النسور الكواسر تحلّق فوق الأكواخ حيث كانت العجائز المسنّات يتلهين عند المساء بقتل القمل وهي التسلية الوحيدة والمثيرة، الرائحة تفوح في الهواء ملوثة مصيبة بالعدوى... بالنسبة إلى الجذام: إنه العيد..

وسكنت في مجتمع الفقر الأغاني الشعبية وأنغام الهرمونيكا والكمان، وكما حدث في المركز، في شوارع الوجهاء، كذلك في موريكايبا، فإن أوائل المتقلّين إلى رحمة الله تمّ دفنهم في المقبرة وفيما بعد كان ما كان...

- ح -

حي على خير العمل...

بالإضافة إلى محضّر الأرواح ماكومبيرو أغنيليو، في صومعته المقدسة، في موريكايبا والمشعوذة أردوينا، وكلاهما من أصحاب الزبائن الكثيرين والشهرة العريضة، فقد كان يعتني بصحة السكان في بلدية بوكين طيبان: الدكتور إيفالدو ماسكارينياس والدكتور أوتو أشبينيرا والمرضة غير المجازة جورسي التي هربت من أراكاجو وأصبحت شديدة اللهفة إلى العودة... وكذلك مكسيميانو، الملقّب بماكسي الزنجيات، فبالإضافة إلى كونه ممرضاً فقد كان، مراقباً، ورجل ثقة في المركز الطبي، والصيدلي كميليو تيزورا "المقص المسنون"، هو الآخر ذو سمعة في الطب مشهود لها، يتفحص الوصفات ويصف الأدوية ويقرّر حياة الآخرين من شرفة صيدلية الرحمة.

كان الدكتور إيفالدو ماسكارينياس، بتشخيصه ووصفاته المحددة، وقد تجاوز السابعة والسبعين من عمره يتوقف لزيارات المرضى، نصف أصم، وأعمى تقريباً، وعاجزاً عن فهم أمور الصيدلة. وعندما ترجل الجذام الأسود من قطار ليستي فإن الطبيب الصيدلي لم يندهش، فهو يعيش في بوكين منذ خمسين عاماً وقد سمع أكثر من مرة، وعلى لسان السلطات الحكومية بخبر استئصال شأفة الجذام، وكل مرة كان يرى الجذام عائداً وهو يتأبط ذراع الموت.

أما الدكتور أوتو أشبينييرا المتخرج من كلية الطب منذ عام ونصف والشاب المصري، فلم يكن قد نال ثقة السكان في بوكين بسبب السن (لم يكن قد بلغ الثلاثين ولكن شكله كان يوحي أنه في العشرين: ذقن خفيفة، شكل فتي صغير، ووجه لعبة) وبسبب كونه عازباً يصاحب فتاة عامة، ومثل هذه الأمور تعدّ فضائل بالنسبة إلى المحامين، وأخطاء بالنسبة إلى الأطباء؛ ومن السهولة معرفة الأسباب المنطقية، ولكنه لم يكن يقلق لعدم وجود زبائن، فهو من عائلة ميسورة وذات امتيازات خاصة، وقد عُيّن طبيباً في الصحة العامة ما إن أنهى دروسه في الكلية، وهو يقوم في بوكين بمرحلة التدرج لمدة ستة أشهر، دون الحاجة إلى يوم إضافي واحد، هي الوقت الدقيق اللازم للترقية؛ ولم يكن الطب يغويه بل تداعب مخيلته نوايا أعلى من نوايا أطباء الريف: اقتحام ميدان السياسة بأن ينتخب نائباً فدرالياً ثم يمتطي الحكم ويضرب رحاله في الجنوب حيث يمكن أن يعيش حياة مرفهة، في حين أنه في منطقة الداخل ينمو بلا إرادة منه، كبعض النباتات، على حدّ تعبير المجربين من أهل الحياة الحلوة، أو وفق ما يقوله الأطباء المؤهلون أو البسطاء الخبثاء.

عندما أخذ علماً بحالات الجذام الأسود الأول في المدينة، وقع متخبطاً في الهواجس: كان قد صدق الخطب الاحتفالية، ومعالجة الجدري ومحاربته، ولكنه تذكر بشكل غامض جداً بعض تصريحات أساتذة كلية الطب. مقابل ذلك كان عنده رعب من الأمراض بشكل عام، ومن الجذام الأسود، بشكل خاص، هذا المرض المخيف الذي عندما لا يقتل فإنه يشوّه؛ وتحيل وجهه متأكلاً، ذلك الوجه الأسمر المستدير المغربي الذي هو العنصر الأساسي في نجاحه مع النساء... فهو لن يستطيع أن يحصل على واحدة منهن تستحق العناء إذا أُصيب به.

في سنوات الدراسة الجامعية في باهيا اعتاد على معايشة الفتيات العاميات وهكذا، عندما كانت تريزا باتيستا قد عادت من رحلتها الفنية في الأغواس وبرنامبوكو، فقد ظهرت من جديد في أراكاجو (حيث كان الدكتور هاربا لعدة أيام من بوكين بحجة مناقشة مشاكل الصحة العامة المحلية مع الزعماء والمديرين) مسافرة وحدها بلا حقائب، ومتفرغة، فقد تعرّف عليها وراح يغازلها، أما أنيدا التي كان قد أتى بها من باهيا رفيقة مسلية في رحلات الشوق، فلم تستطع أن تتحمل الهدوء في منطقة الداخل أكثر من عشرين يوماً.

وكانت تريزا تسير مطأطئة الرأس، منهمكة، لا تجد في أي شيء رضى أو تعزية.. حتى تغيير المناخ ومنظر الأراضي الجديدة، والمدن المجهولة وكنائس بينيدو وشواطئ ماسيو ومعرض كاروارو وجسور ريسيبي والتصفيق للملكة السامبا، والقلوب المستسلمة لها، والتنهيدات المولهة، والعروض والتصريحات، كلها لم تستطع أن تكون دواء لآلامها، وبالقدر نفسه لم تفعل بعض الأزمات التي كانت تتدخل فيها كعادتها في مواجهة الظلم، متدخلة في ما لا يعينها، رغبة منها في تخفيف آلام الآخرين، وهي لا تستطيع أن تخفف من وجعها! فالويل من الوجع المستوطن في الصدر!

هذه المرأة المتدخلة في ما لا يعينها ولدت لتكون رجل دين أو سلطة لتزعج الآخرين في أفكارهم. قال المتشرد ماريو فارلينا في الأغواس إنه عندما وجد نفسه بصورة غير متوقعة خاوي الوفاض، جاءت تريزا تشجع رفيقته المنتحبة أليزتا وتعطيها المال لنفقات الولادة. وبلهجة ركيكة رطنة لقبها بتريزا العناية الإلهية بعض المخدّرين الذين واجهتهم تريزا في إحدى الليالي على شاطئ ريسيبي وتصدّت لسورة الغضب التي أصابتهم.. كان فضول إحدى الشابات قد تحوّل إلى خوف فاستنجدت بمساعدة العناية الإلهية بصرخات استغاثة سمعها الكثيرون من الناس ولكن أين هي الشجاعة لمواجهة عصابة الأندال ذوي السمعة السيئة؟ من الأفضل عدم التدخل، فهذه المسائل خطيرة، نصح المتحفظون الحذرون الموجودون في السهرة، ولكن تريزا لم تكتثر بالتحذيرات، وإذا الأشخاص القذرون قد بدأوا، وبحركات الهزء والوقاحات والشتائم التي لا مبرر لها: "انظروا إلى العناية الإلهية حارسة توأمها، المصطادة في الماء العكر"، وانتهى الجبناء إلى ترك الفتاة المخرجة التي

كانوا يزمعون على الاعتداء عليها، واختفوا مع قذاراتهم، كل ذلك لم يكن تعزية لتريزا في حزنها الدائم: فلا النزهات ولا الإباحية ولا الرحلات الطويلة، ولا العوائق الكثيرة كانت تستطيع أن تقتل الحنين الذي يستوطن في صدرها، ففي البحر وعلى اليابسة يطاردها ظل جانواريو جيريا الذي اختفى عند الفجر وعادت تريزا منكسرة الخاطر لا طاقة لها على شيء..

فلوري باتشولا الصديق وصاحب ملهى باريس الليغري كان هو الآخر يجتاز مرحلة من القلق والهموم فيما يتعلق بسير الأعمال: حركة ضعيفة ونقص عام في العائدات المالية، وليس من إمكانيات للتعاقد في الوقت نفسه مع نجمتين لحلبة الملهى المضاءة؛ اثنتان، أجل، إذ إن الأعمال التي كانت تسير بشكل سيئ كانت من الناحية الغرامية والإباحية تسير بشكل جيد: كان قلبه يخفق أملاً بوجود الفنانة الجديدة راشيل كلاوس ذات الشعر الأحمر الطويل المتعشك، والعنق المتعدد الثور الذي بفضلها تمكن فلوري باتشولا من أن يتغلب على غرامه اليائس لتريزا، فهو خلال أشهر متتالية استهلك آلام الانحناءات اللطيفة، وتوجه بعينه المتوسلتين إلى فتاة النحاس يسألها ويرجوها بينما هي دائمة اللطف والتعقل تستنكر الخضوع للامتحان الجنسي. ومن الأحزان والاكتئاب والمشاعر الثقيلة الناتجة عن تخلي تريزا باتيستا عن العمل، وعن مغادرتها المكان، تم إنقاذه في الوقت المناسب مع وصول راشيل كلاوس إلى المدينة، مغنية البلوز، الجنوبية الباردة، المرشحة لتقلم عروضها في باريس الليغري وللاستدفاء بين ذراعي السيد الكتيب: مخلوقة من جديد من رماد تريزا. والآخرون، أميغو؟ الشاعر سارايفا كان يجتاز سيراً على الأقدام الداخل تفتيشاً عن مناخ أفضل ليموت فيه، والرسام جنر أوغوستو ذهب إلى باهيا ليقطف المجد، والطبيب جراح الأسنان جميل نجار قد خطب وكان سيتزوج من غنية وارثة كان قد أجرى عليها خمس عمليات أسنان كبيرة. أما لولو سانتوس وكان الأحب بين الجميع إلى تريزا فقد سقط ميتاً بشكل مفاجئ غير مألوف في المحكمة القضائية بينما كان يدافع عن أحد حملة المسدسات في منطقة الأغواس.

وفي أراكاجو وجدت تريزا نفسها بلا أصدقاء أو عمل، محبطة المعنويات، وطريدة تلاحقها عروض ذلك الثري الذي أشير إليه سابقاً، أغنى رجل في سرجيبي حسب آراء المتخصصين في ثروة الآخرين والصناعي والسيناتور، وزير

النساء... وبدا ملحاحاً لأنه غير معتاد على الانتظار للحصول على رغباته، وغدا تصرفه غير لائق وهو يهدد بجعل حياتها جحيماً إذا لم تستسلم لوعوده الكريمة على كل حال. ولم تكن القوادة فراندا تترك لها مجالاً للموافقة أو عدمها: "فقط مجنونة هاربة من مستشفى الأمراض العقلية ترفض حماية الوجيه".

مجنونة من مستشفى الأمراض العقلية وفي البيت الذي لا حول له ولا قوة ومع السحنة التي لفتت انتباهها قليلاً في الطبيب الشاب المتحدث اللبق، الحسن المنظر، ومع قرارها النهائي بعدم الاستسلام لرغبة أب الوطن، لأنها لن تخاطر بعد اليوم بصحبة رجل كبير السن، قررت تريزا أن تقبل دعوة الطبيب الصغير لمرافقته إلى بوكين دون أي اتفاق على مدة الإقامة، أو على المطارحة الغرامية، والخوض في مغامرة قليلة النتائج.

ومع أنها لا تنتظر رؤية جانواريو جيريا قبطان المركب الشراعي الذي ربما يكون قد وجد بديلة عنها في مرفأ أراكاجو، وراح قلبه الميت يلد من حرارتها من جديد بحب لا أمل فيه كأنه الخنجر المطعون في الصدر، فإن تريزا باتيستا تحتفظ له بنوع من الإخلاص الاستثنائي، ولا تحاول أن تقيم اتفاقاً على ارتباط أو صحبة رجل آخر قد تهدد في أن تكون ذات طابع نهائي... مجنونة من مستشفى الأمراض العقلية؟ أجل يا فراندا، ولكنها حرة في أن تبهر إلى أي مكان إذا اقتضى الأمر.

- خ -

خطوبة، فزواج، أمر لا بد منه إذا عاد وحيداً إلى منطقة الداخل، وعلى الأخص مع رغبات الأمهات القوية في التفتيش عن صهر؛ مازحها أوتو أشبينييرا بذلك وهو يدعوها إلى أن تنقذه مما لا نية له فيه. ولم يعدها بغير العطلة المريحة... وإذا كان قد عيّن موعد الرجوع إلى بوكين وسمعها تقول إنها كانت تعباً من المدن الكبيرة كريسيفي وماسيو وأراكاجو وأن في نيتها أن تسافر إلى الداخل، فقد عرض عليها في الحال أن ترافقه في فترة نقاهة قائلاً: "إن بوكين هي الهدوء التام والسلام المطلق ولا يحدث شيء هناك سوى مرور القطارات اليومية، قطار إلى باهيا والآخر إلى أراكاجو وبروبريا".

بهذه الطريقة يكون في حالة ملائمة من الناحية النسائية، فهو لن يجازف بعلاقة مع صبية متزوجة في المدينة الميتة، يرى نفسه خطيئاً بصورة غير متوقعة، والأطباء أصحاب حظوة كبيرة في سوق الزواج المزدهر، ولن يكون مضطراً إلى معاشرة بنات الهوى المريضات، إذاً فهو لن ينتهي بالمثل أمام القاضي والكاهن ولن يصاب بمشكلة مرض الزهري، وبطبيعة وجهه الأسمر وبكلامه المنمق الجميل، فإن الطبيب قد ذكر تريزا بدان الذي كان أول من أحبت تريزا وأعطته نفسها كلياً، ولكن دون أن يقدر ذلك لأن دانيال كان منحلاً فاسداً منحطاً لا مثيل له، كذاباً ومزوراً، كحجر الخاتم الذي باعته به العمة فيليبا إلى النقيب. كانت الذكرى المحزنة قد جعلت تريزا تتردد لدى تلقيها الدعوة، ولكن مع كون أوتو أشبينييرا متحدثاً لبقاً وذا مظهر أخاذ. فإنه كان متناقضاً مع دان وعكسه تماماً بطبيعته المرحية وتصرفاته الصريحة ووعوده القليلة وانتهت تريزا إلى القبول. مع كونه جباناً خبيثاً فإن دان قد أظهر نفسه بمظهر الطيب الشجاع الشريف والمستقيم، وأقسم لها بحبٍ أبدي ووعداها بأن يأخذها معه إلى باهيا ويحررها من عبودية المسطرة الكبيرة وسوط الجلد الخام، ولكنه في الحقيقة كان مستعداً أن يتركها تغرق دون أن يستأذن منها على الأقل. لقد عرفت كل هذه الأمور في السجن، ولم ينقصها من يخبرها بالحقيقة ابتداء من غابي.. أفلم تسمع قراءة إفادة دان في المحكمة؟ إنه مدافع عن نفسه بشكل مثير لا مثيل له، فقد اتهمها بالمكر والإجرام، وأكد أنها كانت هي الداعرة الفاسدة التي أخذته إلى غرفة نوم النقيب بحجة حمايته من المطر، وهناك عرضت نفسها بإغراء! وكون دانيال ليس من حديد فقد حدث ما لا مفر منه بعد أن أقسمت له اللئيمة أنه لم يكن بينها وبين النقيب منذ سنة أية علاقة جنسية، وأنها لا تعدو كونها خادمة ولا شيء أبعد من ذلك؛ ولو أن دانيال عرف أنها ما تزال عشيقة جوستنيانو، لكان تنكر للعرض الملح كونه صديقاً للنقيب ويحترم المسكن الشخصي وملكية الغير. كانت تريزا قد عاشت في تلك المدة الألم الكبير، ولكن أكثر ما آلمها وساءها في تلك المرحلة المعيبة، كانت قراءة الإفادة التي أدلى بها دانيال، حتى الآن لم تعرف إلا القوم السيئين ولكن دانيال فاق الجميع سوءاً إنه ربما أكثر مدعاة للاشمئزاز من النقيب نفسه.

لذلك فإنها في السجن انقلبت إلى حشرة متمددة في غرفة ذات فراش أرضي، مقفلة على نفسها، ولا تثق بأحد. وعندما ظهر لولو سانتوس مرسلًا من

سرجيبي من قبل الأستاذ فإنها لم ترد الإصغاء إليه واعتقدت أن اللّسن واحد من الآخرين، ومن في عالم الوجدع والجبن يمد يد المساعدة؟ ثلاثة رجال اجتمعوا عليها مدججين بالسلاح، وجنديان ورقيب، ليأسروها! وحتى المحامي الذي أرسل إليها لم يتمكن من إخراجها من السجن، فأدخلها إلى الدير وأوكل بها إلى الراهبات لإعادة تأهيلها.. ومع ذلك استمرت تريزا تشكك في نوايا لولو لأنها تنتظر طويلاً دون أن يفي بالوعد التي وعد بها، واللّسن، تستراً ما عاد يتلفظ قط باسم الأستاذ.

فقط في زمن الأستاذ الذي كانت في البدء تشكك به أيضاً، كان على تريزا أن تستعيد الثقة بالحياة والكائنات البشرية. لماذا قبلت بأن تذهب مع إميليانو غويدس عندما ذهب ليأتي بها من منزل غابي، وبينما يأخذ بيدها، قال لها: "انسى ما حدث، والآن ستبدئين حياة جديدة!" هل كان ذلك لتهرب من طابور الزبائن الذي كان يزداد كل يوم، ومن دون انقطاع؟ لو أن ذلك هو السبب فحسب لكان بإمكانها أن تفعل ذلك من قبل، عندما راح ماركوس ليموس كل يوم ودون استثناء يعرض عليها شيئاً واحداً وهو أن تذهب معه لتعيش عشيقته متحررة من الزبائن. مرة واحدة وهي ما تزال في المزرعة كانت قد رأت الأستاذ، ومع ذلك فإنها لم تناقش ولم تستوضح لماذا؟ لأنه من بين كل الرجال الذين عرفتهم كان الأكثر جاذبية؟ لم يكن أكثر من دان حسناً، ولكنه كان أكثر هيبه يمتلك قدرة داخلية هي بالنسبة إلى تريزا رجاء لا تستطيع تحديده أو تفسيره؟ لأنه كان ذا قوة في الأمر وزعامة في مجاله؟ لماذا؟ تريزا لم تعرف قط: فهي على الرغم من الخوف من أن تنخدع مرة أخرى فقد رافقته ولم تجد أبداً سبباً للندم، فنسيت الماضي وابتدأت حياة جديدة مثلما قال لها، ومع الأستاذ تعلمت في ما تعلمته أن تتصرف دون أحكام مسبقة.

هكذا استطاعت تريزا أن تحكم على الطبيب أوتو أشبينييرا فهو، خلافاً لدان لم يكن يستعمل الشفة المغرية ليجتذبها واعدداً إياها بالسموات والأرض مع ملاطفة دائمة وحنان عميق ومطول؛ ولم يتحدث عن الحب، لقد دعاها فقط إلى ذهاب ممّتع، إلى رحلة بسيطة في منطقة الداخل ربما كانت مسلية. ولأنه وعدّها بالقليل انتهت تريزا إلى القبول. فلن تكون عندها أسباب لصدمة جديدة، ولأنها لم تكن تغذي الأوهام مع رفيق الدرب، الظريف، اللطيف، ولأنه كان يساعدها على

مغادرة أراكاجو هاربة من الطوق البشري حولها ومن توسلات وتهديدات الصناعي المليونير الكبير الذي كان يرسل إليها بإغراءات المزرعة والمصانع والجواهر الثمينة، وأعادت تريزا اللطافات والعروض بحجة أن الأستاذ إميليانو لا يجب أن يراها في فراش السيناتور وبين يديه.

- د -

دون أن يبدو على الأستاذ أنه كان معلم تريزا، فقد لفت انتباهها عند سكون المساء إلى تفاصيل البناء الدقيقة والهندسة الرائعة لدار قديمة كانت موجودة في مدينة أشتانسيا منذ زمن الاستعمار، ولكن الدار المصبوغة كلها بالأزرق أصبحت شوهاء بفعل الزمن والإهمال، وقصد الأستاذ بذلك أن يجعل تريزا تستوعب ما لم تكن قادرة وحدها على التعرف إليه وتقديره؛ وما عاد الأستاذ يقي على تريزا مخفية، بل على العكس فقد أخذ يعتمد الظهور معها وهي إلى جانبه.

عبر الصناعي الذي لم يكن قد انتخب سيناتوراً بعد، الطريق بخطوة وثيدة وقامة قصيرة وشعر مسرّح، معتنى به، ليسلم على الأستاذ إميليانو غويدس، وتأخر في المحادثة بكلمات غير مستقرة خيالية، وهو يعري تريزا بعينه الشبقتين، فقطع الأستاذ المحادثة بلباقة مختصرة، وبنبرة ذات وتيرة غير مبتذلة، فبادله إياها الآخر بحركة تعبيرية تاركاً تريزا على هامش اللقاء كأنه لم يرد أن يلمسها بغير رؤوس أصابعه، وبجملة واحدة، وبكلمات وبحركة ثري متعال، وعندما شاهدته الأستاذ ذاهباً علّق بقسوة مراقبة:

- إنه مثل الجذام الأسود يقضي على كل ما يلمسه، عندما لا يقتل فإنه يترك بصماته؛ إنه جذام أسود معد. وهرباً من عدوى الصناعي المكروه جاءت تريزا إلى بوكين ضمن أمتعة طبيب مركز الصحة العامة، متقنعة بقناع فتاة هوى، في حين أن الجذام الأسود الآخر، الجذام الحقيقي كان قد حطّ رحاله هناك لإفناء الشعب.

أسوأ من التعفن والموت هي الحياة مع إنسان آخر لا تربطها به إلا المصلحة المالية. إن ممارسة العهر لا تفرض موجبات ولا تستدعي الخجل ولا تترك بصمات، أما الممارسة الأخرى، حياة العشيق والبقاء الدائم إلى الطاولة وعلى الفراش، ومع أكاذيب العشيق وتباهيه فإنها مسألة مختلفة تماماً... "صديقة" كلمة جميلة تعلمت

معناها مع الأستاذ، صديق وصديقة، فقط أحست بذلك وبصورة تامة وهي مع الأستاذ غويدس. ولم تكن لها صداقة مع أي رجل آخر، حتى مع أوتو أشبينيرا الدكتور الصغير ذي المعرفة القليلة والخبرة المحدودة... "إيه، جانواريو جيريا أين تسير؟ صديقي، حبي، لماذا تتركني أنطفئ في مسافات العفونة؟"

- ذ -

ذهبت تريزا بعلاقتها مع الدكتور أوتو أشبينيرا مذهب المعيشة السطحية التي قضت عليها الأحداث بعد قليل، هل كان ذلك مخجلاً؟ لا، ولم يكن ذلك حياً... فكرت تريزا وحيدة بمواجهة الجذام الأسود المنقض كأنه القضاء والقدر، وأن تكون الأمور كذلك فأفضل من العقاب الذي تحسه في الفراش الخطأ؛ إنها لا تشاركه الفراش بوصفها عاهرة أو عشيقة... إنها عاجزة عن الرفاهية الجنسية المحض، ولكي تعطي نفسها بانسجام وتفتح نفسها للعرشة، فإنها كانت تحتاج إلى الكثير من العطف العميق والحب، وحين تشتعل فيها الرغبة وتصبح هذياناً وحمى فلم يكن من امرأة كتريزا. كانت جد مخطئة في أراكاجو عندما توهمت أنها ستجد متعة وفرحاً في فراش الطبيب الصغير ذي وجه اللعبة، الحسن، اللئيم، والذي لم تحس قط بأية خفقة قلب تجاهه؛ لقد توقف قلبها عن الخفقان منذ أن انطلقت الطوافة فنتانيا حاملة على متنها المعلم جانواريو جيريا إلى مرفأ باهيا. حرّة كالهواء، ولكن البحار كان يحمل في يديه الأغلال وفي رجليه القيود. لقد جاءت تريزا مع الطبيب هرباً من تهديدات الثري الكبير وتجنباً للاضطهادات، وحتى لا تتعرض من جديد للضرب والجلد معتقدة باحتمال هدوء العاصفة دون أن تترتب عليها واجبات أو أية اتفاقيات كبيرة. وكان من الأفضل لها لو أنها عادت إلى ماسيو أو ريسيفي لممارسة مهنة امرأة عامة، ولم تنقصها عروض كهذه في رحلتها، فإن صاحب فنادق وسيدات بيوت العزّاب والقوادات بأعداد غفيرة كن خلفها، ورفضت العروض محاولة أن تعيش بعائدات عملها كراقصة، ولكن، في الملاهي، فإن المرتبات بخسة وشبه رمزية، والراقصة ليست أكثر من عاهرة أغلى سعراً وأقل شهرة، لأنها تتلطي وراء الرقصة والأغنية اللتين تؤديهما؛ ومن السخف أن تسعى إلى العيش مستخدمة لقبها كفنانة وكفي اليدين للحصول على الأكثر من المال الحرام.

في أراكاجو كان فلوري يدفع لها مرتباً فوق العادة على أمل إقحامها بالتولّه المجنون. وهو الآن يفعل الشيء نفسه مع راشيل كلاوس ويخسر مالا. ولكنه في هذه المرة يدفع ويأكل على الأقل؛ خلال رحلتها كان أصحاب الملاهي يعرضون عليها أجوراً متواضعة، ولأنّها كانت تعدّها قليلة فقد كانوا ينصحونها لاستكمال المرتب المطلوب بما يجود به رواد الملهى الكرماء: لقب فنانة واسمها على لوحة الإعلانات الصحفية، ما يعطي المرأة قيمة أكبر، والنساء القادرات على إدارة شؤونهن بشكل صحيح، يشعن في الملهى النجاح ويحصلن على عائدات مرتفعة.. وهكذا كان على تريزا أن تمارس الحياة العامة، مع أناس آخرين، مع تعب يؤلم جسدها، وحنين يأكلها من الداخل.

لماذا فكرت في أنه كان ممكناً أن تكون سعيدة مع الطبيب الصغير، وأن تحس بالمتعة وهي تتمدد معه؛ لماذا ظنت فجأة أن بإمكانها أن تمنح نفسها رغبة ولذة؟ لقد رآته جذاباً، فظنت أن باستطاعتها أن تطفئ برفقته ذكرى قبطان المركب الشراعي محاولة بذلك أن تنتزع الخنجر المغروس في صدرها... حب بلا أمل، وكانت تحتاج إلى الخلاص منه.. من السهل التفكير لكن التنفيذ مستحيل؛ لقد كانت تحمله في جلدتها وقلبها، إنه يلفها ويجعلها غير قابلة لأية رغبة أو شعور. السخيفة، ذات الرأس الفارغ... عندما تمددت في بوكين مع الطبيب الصغير، وعندما أخذها بين ذراعيه أحست بالبرد، لأن معطف الثلج ذاك يغطيها في فراش الدعارة، ويحاول أن يجعلها دافئة وهي بعيدة، تباع الجمال والخبرة ولا شيء آخر... إنها بلهاء، قالت لنفسها، كانت تأمل في أن تكون قادرة على الاستئناس وعلى الشعور باللذة التي تطلع من رؤوس الأصابع وتؤلم البطن والصدر وتجعل الجسد والقلب ينسيان طعم الملح ورائحة البحر وصدر الرخام، السخيفة ذات الرأس الفارغ، ألف مرة سخيفة، الجسد بارد وبعيد، ويكاد يكون عدوانياً لشدة انكماشه، كأنها عذراء من جديد، ولهذا فهي تحظى بالتقدير أكثر من سواها... أما الطبيب فكالمجنون: "لم أر قط امرأة ضيقة إلى هذا الحد ولا يمكن لأية عذراء أن تقارن نفسها بها؛ شيء أكثر إثارة من هذا لا يمكن أن يكون". بالنسبة إلى تريزا كانت المسألة هي الإزعاج التقليدي الدائم: "آه كيف أمكنك أن تفكري هكذا أيتها البلهاء... آه منك جانواريو جيريبا يا من أقفلت إلى الأبد صدري وقلبي وعواطفني".

رغبة الطبيب المتقدمة لم تعد تتحملها تريزا، ففي كل لحظة ودون كلل وفي أية ساعة من اليوم كان الطبيب يرغب ويدعوها إلى الفراش معتقداً أنها كانت تشاركه وتبلغ معه تلك الأبحاد الجنسية. هكذا كانت مع النقيب الذي اتخذها عبدة في تصرفه دون أي اعتبار للساعة والمناسبة والمكان. ولم يكن لدى الطبيب شيء آخر يفعل في بؤكين، ولم يكن ينقصه السبب الوجيه الذي يتذرع به، كونه مديراً لمركز الصحة العامة: "لنقتل الوقت احتراقاً يا ملهبي الرقيقة"... ولو عاد الأمر إلى الطبيب لجعل ليلته تمتد طيلة اليوم وهما يقيمان في الفراش دون أية قابلية أخرى أو عمل آخر ما عدا الجوع. كان يعتقد أوتو أنه جوع يمسك بالاثنتين في حين كان يمسك به وحده، فبالنسبة إلى تريزا كان الأكل واجباً متعباً. ولكن كيف تقول له "إني ذاهبة الآن، ولا شيء يلزمي هنا، وإني متعبة من التمثيل، ولا شيء يتعبني أكثر منك، فقد جئت رفيقة بخدعة محزنة، وأستطيع أن أكون عاهرة، ولكني لا أعطي نفسي صديقة وعشيقة؟" كيف تقول له إنها إذا كانت قد قبلت بالحيء، وإذا كان يعاملها بلطف و ببعض الأساليب الراقية الناتجة عن الرفاهية مما يجعله أقل مثيراً للهزء، فقد قبلت دون قيد أو شرط؟ كيف تتركه هنا في المدينة الصغيرة دون أية تسلية، ودون أي شيء ملء الوقت؟ كان عليها أن تفعل، مع كل ذلك، ولم تعد تستطيع أن تتحمل القناع على الوجه المختنق.

دام ذلك أربعة أيام هي الوقت الذي تفجرت فيه البثرات المتدملة في المدينة المغزوة، المحكوم عليها بالموت.

زين البارات، يافطة بدائية معلقة فوق باب المشرب الوضع الذي يستحق أكثر من إعلان كهذا على قطعة من الخشب خربشت عليها الأحرف بالحبر الأسود، والمشرب مع ذلك لم يكن مضاء بالضوء الكهربائي، بل بواسطة مصباح آلي شاحب النور.

بعض الرجال يشربون الكاشاسا ويمضغون عجينة التبغ برفقة امرأتين كانتا تبدوان جدة وحفيدة، ولكن العجوز غريغوريا والصغيرة كابريرا الضعيفة وهي في مقتبل العمر، كانتا في الحقيقة فتاتي هوى بانتظار الزبائن؟ بانتظار نحاسية مهما كانت قيمتها ضئيلة، فهما لا تحصلان يوماً على زبائن، تجاوز الباب زكرياس الفتى الأجير في الأراضي المجاورة، وفي مزرعة العقيد سيمارو لاميغو. ثم أسند ظهره إلى البار بينما القنديل يضيء وجهه. فرغ ميسو سيد المكان السبابة والوسطى في تساؤل أبكم.

- إصبعان من الكاشاسا الصافية.

صَبَّ ميسو الكاشاسا على حساب العامل الأجير الذي كان يمتحن الصغيرة الواقفة عند الحائط، لقد جاء من أجل أن يجندل فتاة هوى، وهو لم يفعل ذلك منذ شهر لقلة الموارد، مسح فمه بظاهر يده قبل أن يرتشف العرق؛ هبطت عينا ميسو من الوجه إلى يد الزبون... رفع زكرياس الكأس الكبيرة، فتح فمه، فبانت البثرات بصورة أوضح فوق الشفتين وتحتهما؛ ويعرف ميسو الجذام الأسود بشكل أكيد، فلقد أصيب بأسوأ أنواع الجدري وهو نبخ الزنج، ونجا بحياته، ولكن آثار المرض ما تزال تسم وجهه وجلده وكل جسده؛ أفرغ زكرياس الكأس في جوفه، ووضعها على البار، ثم بصق على الأرض، فدفع ثم عادت عيناه تحدقان في الصغيرة. تناول ميسو قطعة النقود وتكلم:

- لا تؤاخذني على إساءة السؤال، ولكن هل يعرف الصديق أنه مصاب بالجذام الأسود..

- الجذام؟ الجذام الأسود، لا شيء من هذا... إن ما تراه ليس أكثر من بعض الثآليل.

كانت العجوز غريغوريا قد اقتربت من العامل وفي رأيها أنه إذا لم يعجب بالصغيرة فقد يختارها هي وقد أصبح من الصعب أن تتدبر زبونا في اليوم... ولكنها عندما سمعت ميسو، تأملت في وجه الشاب، وهي الأخرى تفهم الموضوع أيضاً إذ إنها كانت قد عاصرت انتشار الجدري دون أن يصيبها المرض، ومن يدري لماذا؟

"لا شك"، قالت، "إنه الجذام الأسود". ابتعدت مسرعة إلى الباب وأخذت الصغيرة كابريرا من ذراعها وذهبت بها معها.

لكن زكرياس ما زال يطالب:

- إيه، إلى أين تذهبان؟ تعالا إلى هنا، اللعنة.

اختفت المرأتان في الظلمة. قرّب العامل وجهه إلى الرجال وهو يحني رأسه، ويمضغ التبغ، وقال للجميع:

- إنها تآليل، شيء لا يذكر...

- "بالنسبة لي هو الجذام الأسود"، أجاب ميسو "ومن الأفضل أن تذهب حالاً إلى الطبيب وترى إذا كان لديك الوقت الكافي بعد".

جال زكرياس بنظره في المكان الصغير فوجد الرجال كلهم صامتين، وعاد يتأمل في يديه، فارتجف، ثم خرج من الباب... من مسافة بعيدة كانت العجوز غريغوريا تشد بقوة الفتاة كابريرا التي تقاوم دون أن تعرف السبب الذي جعلها تمنع الصغيرة عن التجاوب مع الشاب وتربح بعض المال الذي يزداد شحاً كل يوم، ولأنه ليس الوقت المناسب لاحتقار زبون ما... بين أديم الأرض واتساع السماء الساطعة النجوم، رائحة العفونة، زكرياس المنحني وهو يسير مسرعاً باتجاه مركز المدينة.

- س -

سنّ القانون ليطاع، قانون وتوقيت: هذه هي القاعدة.

كان توقيت مركز الصحة مبيناً على الباب، واضحاً للنظر: من التاسعة صباحاً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً، ومن الثانية وحتى الخامسة مساءً. نظرياً، فإن جوراسي مثل ماكسيميانو لم تكن تتحمل الإزعاج في أثناء الوقت المخصص لكتابة مذكراتها اليومية ورسائلها المؤثرة إلى خطيبها، بينما ماكسيميانو، بالشعور نفسه، لم يكن يتحمل أن يقطع عليه أحد الوقت المخصص لدراسة وتحضير لائحة مراهنات السباق. أما بالنسبة إلى الطبيب فإنه لم يكن يتقيد كلياً بالتوقيت، وكان يحضر بأفضل صورة يمكن أن تغطي على مخادعته في هذا المجال، صباحاً أو مساءً، ولكنه دائماً على عجلة من أمره، وفي الحالة الطارئة جداً كان يكفي الممرضة أن تجتاز الطريق - كون بيت الطبيب يقع مقابل المركز - لتناديه ولتسحبه في أغلب الأحيان من فراشه حيث، إذا لم يكن يضاجع تريزا، فإنه كان يغط في نوم عميق ناسياً حتى المطامح السياسية ومشاريع تنظيم نواة انتخابية في البلدية.

زكرياس متماد في ضرب راحتيه الواحدة بالأخرى، وفي الصراخ: "من في البيت؟" وكان يهز الباب بالضرب بقبضتي يديه.. كان الصيدلي تيزورا غائباً عن المدينة وفي سفرة إلى أراكاجو، بينما الدكتور إيفالدو في بيت أحد المرضى ولم يبقَ إلا المركز الصحي والطبيب العصري.

زكرياس يهدد بخلع الباب، والخوف يضج في صدره.. خرج رجل من الركن، أسرع في خطوه، ووقف أمام العامل:

- ماذا تريد؟

- هل يعمل السيد هنا؟

- أعمل، نعم، وماذا بعد؟

- أين الطبيب؟

- ماذا تريد من الطبيب؟

- أريد أن يفحصني.

- في هذه الساعة؟ هل أنت مجنون؟ ألا تعرف القراءة؟ انظر إلى التوقيت هنا، من الساعة...

- هل تظن، سيادتك، أن للمرض ساعة؟

الصوت مختنق، ورفع زكرياس يديه إلى أعلى عيني ماكس:

- انظر. كنت أظن أنها ثآليل، يبدو أنها الجذام الأسود...

تراجع ماكسي إلى الوراء دون أن يعي، فهو الآخر يعلم الكثير عن الجذام الأسود ويعرفه في الحال. إنه النبخ الزنجي أو الطاعون الأسود.

العاشرة مساءً. والمدينة تنام، والطبيب يجب أن يكون في الفراش الوثير مع المليحة المجلوبة من أراكاجو، خلاسية، تتوقف من أجلها الأعمال، وإلى واحدة كهذه يحتاج ماكسيميانو.. هل تستحق المسألة عناء إيقاظ الطبيب والمجازفة بإزعاجه؟ هل يسحبه من الدفء وفورة الشبق، برفقة السيدة التي معه؟

وتردد ماكسي إذ لا يجب أن يقلق راحته أحد عندما يكون مقتحماً. ولكن إذا كان الجذام الأسود فكيف العمل؟ عاد يتأمل في وجه الأخير فألفى الثآليل كستنائية، قائمة، إنها علامات المرض اللعين، الطاعون القاتل. خلال ثماني عشرة سنة

في إدارة الصحة العامة، وكان قد خدم في منطقة الداخل كلها، لم يتعلم ماكسيميانو إلا شيئاً واحداً.

- دعنا نذهب يا ابن عمي، فبيت الطبيب قريب، هنا على الحد المقابل.
من أجاب على ضرب راحات الأيدي، هذه المرة، كانت المرأة المدعوة تريزا باتيستا، وكان المساعد قد سمع الاسم وحفظه.
- أنا، ماكسيميانو، يا حضرة السيدة. قولي للطبيب إن في المركز هنا رجلاً مصاباً بالجذام: إنه الجذام الأسود.

- ش -

شيء لا يمكن تعلمه، بغير الممارسة، هو الطب، أكد البروفيسور هيلينو ماركيز في كلية الطب في باهيا، بينما يقدم لمادة الجراثيم المستوطنة الآخذة في الانتشار في منطقة الداخل. وفي مركز الصحة في بوكين، كان الدكتور أوتو أشبينيرا، الطبيب المتدرج حديثاً، يقضي ليلة ليلاء، وعرق بارد ينبع من جبهته، وقلبه هارب من مكانه، يسعى جهده ليتعلم بالممارسة ما لم يتعلمه بالنظرية... والممارسة هي الأخرى أصعب من النظرية، إنها مقرفة ومخيفة. إن المسألة هي بالتأكيد أسوأ أنواع النبخ الجذري، إنه النبخ الزنجي، وأسوأ أنواع الأخير الجذام الأسود كما يسميها الشعب، وللتعرف إليه ليس من حاجة إلى الدراسة الجامعية طيلة ست سنوات في الكلية، ويكفي التحديق قليلاً في وجه المصاب ذي العينين النافرتين من موضعيهما، خوفاً، والإصغاء إلى الصوت القلق:

- قل لي، دكتور، هل هو الجذام الأسود؟

هل هي حالة خاصة أم بداية الوباء؟ أشعل الطبيب سيجارة وكم كان قد أشعل منها حتى الآن، ومنذ أن جاءته تريزا بالنبا، وكانت أعقاب السجائر قد أصبحت كوماً على الأرض.

لماذا قبل المجيء إلى بوكين، بحق الشيطان، أمن أجل الترقية، أم لتأسيس قاعدة انتخابية؟ لقد أحسن برونو، زميله في المهنة، والشاب المحرب: "ليس من إغراء يجعلني أترك أراكاجو، فهذا الداخل معجون بالأمراض والنكد، إنه الموت، يا أوتسو". لقد تغلب على النكد وقضى عليه بأن أتى معه بتريزا الرائعة، ولكن كيف

يقضي على الجذام الأسود؟ رمى السيجارة أرضاً وسحقها بقدمه وغسل يديه بالكحول مرة أخرى.

وقع خطى في الشارع ويد تفرع الباب: دخل إلى صالة المركز الدكتور إيفالدو ماسكارينياس يحمل بيديه الحقيبة المهترئة بفعل سنوات الاستعمال الطويلة، ويفتش بنظره القلق عن المدير الشاب الذي استطاع أخيراً أن يحدد مكانه:

- لقد رأينا الضوء مشتعلاً فدخلت لأعلمك بأن روجيريو، روجيريو كلداس، مديرنا، هو في نزاعه الأخير، لقد أصابه النبخ الجذري وهو وضع خطير جداً وليس عندي غير بصيص أمل... الأسوأ أنه ليس الوحيد، فكذلك ليسيا، هل تعرف من هي؟ إنها زوجة الكاهن وليست عشيقته، فعشيقته تدعى شوكا، وهي الأخرى تنازع المرض؛ إنه أسوأ أنواع الجذام، وعسى ألا يكون الوباء الجرثومي؛ ولكنني أرى أن الزميل العزيز قد اطلع على الأمر وهو يفتح المركز في هذه الساعة بالتأكيد، لأخذ الاحتياطات، لأن المسألة تستدعي ذلك، وطبعي أنه سيبدأ بتلقيح كل السكان.

كل السكان، يعني بضعة آلاف شخص؟ ثمة أربع، خمسة آلاف نسمة هي عدد سكان المدينة والأرياف؟ ما هو مخزون التلقيحات الموجودة في المركز؟ وأين يحتفظون بها؟ هو، الدكتور أوتو أشبينييرا، مدير مركز الصحة لم تقع عيناه أبداً على أنبوب واحد ولم يسمع أبداً بأي شيء عن هذا المخزون اللعين. ولو أن هناك احتياطاً كبيراً من التلقيحات فمن الذي سيقوم بالعمل؟ أشعل سيجارة أخرى ومرّ بيده على جبهته: إنه العرق البارد. يا لهذه الحياة القدرة، كان بإمكانه أن يكون في أراكاجو، في الدفء والرفاهية مع فتاة شهية، مع تريزا نفسها أو أية واحدة أخرى من النوعية الجيدة، ولكنه يجد نفسه في أرض الجذام الأسود متعاقداً مع الخوف. إن الجذام حين لا يقتل فإنه يشوه؛ وتخيل نفسه تنهش الثور وجهه، وجهه الأسمر الشبيه بوجه اللعبة وجاذبيته الرئيسة للنساء.. ويلاه.. يا إلهي! ثم عاد فتخيل نفسه ميتاً محمولاً مع الدمامل المتقيحة إلى القبر.

تقدم الدكتور إيفالدو ماسكارينياس إلى داخل الغرفة بخطى وثيدة، ووقف إلى جانب زكرياس محاولاً أن يتعرف إليه: "هل هو ممرض المركز ماكسيميانو؟" لقد أصبح زكرياس غير معروف من وجهه المكسو بالثآليل... حدّق: "إنها ليست ثآليل، إنها دمامل، هو الجذام!"

- هذا الآخر قد أصيب أيضاً... انظر، إنه الوباء العام يا زميلي العزيز. إن الناس تعرف البداية ولكن لا أحد يعلم من يبقى ليرى النهاية. لقد شاهدت ثلاثة أوبئة من البداية إلى النهاية، ولكن لن أفلت من هذا الوباء، هذه المرة، ومع الجذام لا يستطيع أحد شيئاً. الدكتور أوتو أشبينييرا يرمي السيجارة أرضاً ويحاول أن يقول شيئاً فلا يجد الكلمات. زكرياس يريد أن يعرف:

- ماذا أفعل، دكتور؟ لا أريد أن أموت، لماذا عليّ أن أموت؟
ووصلت أخيراً الممرضة جوراسي إلى المركز بطلب من الدكتور أوتو. كانت تحلم بخطيبها عندما أيقظ ماكسي كل أهل البيت الذي استأجرت فيه جوراسي غرفة تقيم فيها وتدفع بدل التغذية اليومية؛ وجاء صوتها لدى وصولها معاكساً متعدياً:

- دكتور، لماذا أرسلت في طلبي في هذه الساعة؟
إنه طبيب صغير دائم الفوران الجنسي ولا يأتي إلى عمله خلال ساعات الدوام، ومع ذلك يرسل في إيقاظ الناس ليلاً. ثم، ارتفع صوتها من جديد:
- أي أمر طارئ هو هذا؟

الطبيب ظل صامتاً. وعلا صوت زكرياس مقاطعاً من جديد بلهجته القاسية:
- "أنجديني يا دكتور، حباً بالله، لا تتركني أموت". كان صوت زكرياس قد توجه إلى الدكتور إيفالدو المعروف في كل المنطقة.
الممرضة جوراسي ذات معدة حساسة، ويا للويل، إن في وجه الرجل شيئاً لم تعد إلى السؤال عن السبب الذي من أجله سحبوها من بين الشراشف في تلك الساعة المتأخرة وكرّر الدكتور إيفالدو بشكل رتيب:
- إنه وباء يا زميلي العزيز. إنه الجذام الأسود.

خلال معاناته الأوبئة الثلاثة الماضية التي كتبت له النجاة منها، كان قد عاجل معوقين، وعزى بمصابين، وساعد في الدفن، وتمكّن من إنقاذ البعض من الموت. فهل يجتاز الوباء الرابع؟ "لا يهم أن يموت الدكتور إيفالدو"، قال الدكتور أوتو أشبينييرا في نفسه، ولكن هو، أوتو، الشاب الذي يكاد يبدأ الحياة!! ويلاه.
الدكتور إيفالدو على الرغم من أن أوتو كان يعده عفناً ملوثاً منسياً ولا يفيد بشيء، فإنه يحب الحياة ويناضل من أجلها مع موارده المحدودة بوصفه طبيب أرياف.

وبين جميع الموجودين، وحده، هو، وزكرياس من يفكران بمواجهة المرض. الممرضة جوراسي تحس بدوار ورغبة في التقيؤ، وماكسي الزنجيات يحاول أن يتذكر المرة الأخيرة التي تلقح فيها منذ عشر سنوات ولا بد أن يكون التلقيح قد فقد مفعوله.

الدكتور أوتو يشعل ويطفئ السجائر.

صوت في الباب يسأل:

- الدكتور إيفالدو هنا؟

- من يفتش عني؟

- أنا، فيتال حفيد السيدة أورينيا، دكتور. لقد ماتت جدتي ورحلت أفتش عنك من مكان لآخر حتى وجدتك هنا. لقد جئت من أجل شهادة الوفاة.

- القلب؟

- يمكن أن يكون القلب، دكتور.. لقد ظهرت عليها مجموعة من الطفحات العرقية ثم اعترقها الحمى.

- "طفحات عرقية؟" طلب الدكتور إيفالدو التفاصيل وهو مذبذب الثقة.

- في الوجه واليدين، دكتور، وفي كل الجسم. ثم انحنت وماتت مع ارتفاع الحرارة. لقد سجل محرار الجار أكثر من أربعين درجة.

توجه الطبيب العجوز إلى المدير الشاب في مركز الصحة:

- الأفضل أن يأتي الزميل العزيز معي. لقد تأكد الوباء الجرثومي وها هي شهادة الوفاة الأولى.

سيجارة أخرى، وجبهة مبتلة بالعرق، وفم بلا كلمات، وإيماءة من الرأس بالموافقة! فما الذي يفعله الدكتور سوى الموافقة؟

وتأهبت جوراسي لمرافقتها إذ ليس من قوة تبقّيها في الغرفة الملوثة بذلك الرجل الرهيب الذي يحمل الجذام على وجهه. وإذا هي، جوراسي، ماتت في حصاد الطاعون فإن المذنب هو مدير الصحة العامة في الدولة، واعرفوا كلكم إنه يضطهدّها لدوافع سياسية وضيعة، وقد أرسلها إلى الموت في بوكين لأنها عذراء ومعارضة وهو لا يتحمل هذه المزاي.

وقبل الخروج، ذكر الدكتور إيفالدو ماكسي أن يعطي زكرياس محلول حامض البرمنجانيت ليمسح به جسمه، والأسبيرين لتخفيض الحرارة.. وأنت

أيها الشاب ارجع إلى بيتك ولف نفسك بأوراق الموز، وتجنب الضوء، تمدد، وانتظر.

- ماذا أنتظر، دكتور؟ أعجوبة من السماء، أو الموت؟ وماذا غير هذا؟

- ص -

صمت الجميع! الدكتور إيفالدو والطبيب في مركز الصحة والمرضة جوراسي وهم يتأملون جثة المرأة الطاعنة في السن أورينيا بنتو، والممددة فوق طاولة في غرفة مفرغة من الأهل وقطع الأثاث الأخرى وهي تنام في نوم حلمها الأخير، وقد ذهبت على أول سفينة من سفن الحمى التي جاءت لتبحر بالناس، وسط الصراخ والنحيب.

- "لقد ماتت من الجذام، إنه الوباء!"... صرّح الدكتور إيفالدو وهو يصرّ على أسنانه وكأن العمر والتجربة لم يفيدا بشيء. ارتعد وأغمض عينيه لكي لا يرى.

إن أورينيا بنتو لم تمت، لقد أراحت جسدها المتعب، لقد ظلت حية وقد أصابها المرض الذي انتشر ببطء، البثور تحولت إلى ثآليل وهذه إلى دمايل فانتفخ الجلد وانخسف ثم بدأت الدمايل بالتقيح والجروح بالسيلان متفجرة عن دهن أسود تفوح منه العفونة، وهو الجذام القاتل بلا رحمة، وبعده الموت بسلام. المريضة جوراسي ذات المعدة الحساسة تقيأت في الصالة.

- ض -

"ضاقت بي الحيلة، فأنا مدير المركز والمسؤول عن صحة السكان في البلدية، لم أتوصل بعد إلى العثور على هذه التلقيحات اللعينة التي في لحظة خاطفة أصبحت ضرورة ملحة! فأين هي يا سيد ماكسيميانو سيلفا داس نيفراس إن حفظتموها بهذه الصورة الدقيقة إلى هذا الحد؟ يا إلهي لماذا لم أفتش عنها من قبل؟ عندما قبلت بتحمل مسؤولية كهذه، أكدوا لي أن في بوكين مناخاً متميزاً وشروطاً مثالية للراحة وظروفاً تامة للصحة العامة، وأن الناحيين بكميات هائلة وأقسموا اليمين على أن بوكين هي الجنة، هي الفردوس المفقود في منطقة الداخل، وهي

السلام أخيراً. وأن شأفة الجذام الأسود قد استؤصلت، وليس هذا فحسب، بل شأفة كل الأوبئة بفضل التطور العلمي، فلتعش حكومتنا الأبوية! ولكنهم خدعوني بهذا، خدعوني! أين هي التلقيحات يا سيد ماكسي؟ فعلينا أن نقوم بالتلقيح حالاً ما دام هناك وقت وشعب".

الآن وقد خدعك الناصحون، يا طبيباً كيفما اتفق في أراكاجو، وأنت تعيش حياة الشاب الجميل ذي المكانة المحمية من قبل المحافظ، في شوارع المدينة، فلكني تترقى قريباً فإنك ستسجن في شوارع بوكين، الجنة، نهاية العالم، وإذا ظهر الجذام فيجب أن تظهر نفسك طبيباً ورجلاً حقيقياً.

وفيما يتعلق بالتلقيحات، فإن بقية من الكمية المسلمة أخيراً يجب أن تكون في خزانة المواد الطبية التي تكاد تكون فارغة من الأدوية، والمفتاح مع السيدة جوراسي الجاهلة التافهة ذات الوجه الشبيه بوجه من أكل الأوساخ فلم يستطعها.

"عجلي يا سيدة جوراسي، تدخلي، افعلي شيئاً ما، لا تنتحبي، لا تهددي بفقدان الوعي، يكفي تدمراً وتقيؤاً، اجلسي التلقيحات أو تهئي أنت وماكسي الزنجيات، نعم يا صاحبة السيادة وفخامته، لتخرجنا إلى الشارع وتلقحنا، فلهذا تدفع لكما الدولة مال الخيرين. احملا صندوق أنبوبات التلقيح فإن التجهيزات المتوفرة والباقية يمكنها أن تكفي الجميع ابتداءً مني أنا لكي أكون مثلاً من الصحة والحسوية للشعب. ولكني لا أذهب معكما لأن واجبي أن أبقى هنا، في قيادة العمليات".

"إن المخزون المتبقي، اعلم يا نصف الأبله، لا يكفي لتلقيح أطفال المدرسة، وبسطة وجهاء هنا وإليك بالباقي. ارفع رذن القميص لألقحك فعسى أن يكون الوقت ما زال مناسباً. سرى فيما بعد، وتنفيذاً للأوامر أستطيع أن ألقح هذا المتدخل الشجاع. أنا شخصياً لست محتاجة، فقد تلقحت في أراكاجو قبل المجيء، إذ كان خطيبي قد أخبرني إن الحديث عن القضاء على الجدري لا يعدو كونه ادعاء من جانب المدير الذي يضطهدين كون أبي من المعارضة وكوني أنا مخطوبة... هنا، قريباً من المكان، في منازل العائلات الغنية، وذات الأعمال التجارية، أستطيع أن ألقح ولكن لا تتكل عليّ في الخروج إلى الأكواخ والمجمعات الشعبية لتلقيح المجموعات البشرية الملوثة! أن أمسّ المصابين بالجذام وأرى القيح،

فلست أياً كان مثل متشردتك فتاة الهوى التي جئت بها من أوسخ الأمكنة ووضعتها في الشارع النظيف في مواجهة أشرف بيوت بوكين. إذا كنت تريد أن تلقح الفئة الوضيعة فما عليك إلا أن تنادي على المتشردة وتذهب معها".

"بالله، كفي عن النقاش يا آنسة، لا تشتكي، لا تهجميني، فأنا لا أستحق، لقد عاملتك دائماً بتهذيب ولكني أفرض الطاعة، فتقيدي بالأوامر، فأنا الطبيب هنا، مدير المركز، فاحترميني وأسرعني، ألا ترين أنني خائف؟؟"

"عندما يفتح البريد، أرسل يا سيد ماكسي الزنجيات برقية رسمية إلى أراكاجو واطلب مزيداً من التلقيحات بصورة عاجلة وملحة، فالجذام قد وصل وبدأ يقتل...".

ط -

طلباً للنجاة، فإن أول الهارين كانت الموظفة جوراسي، المريضة من الدرجة الثانية في سكرتيرية الدولة للصحة العامة.. قبل ذلك كانت تعمل في غرفة انتظار أحد الأطباء الاستشاريين، دون اختصاص، ودون شهادة، ودون أية ممارسة، ولكن كونها ابنة أحد المفاتيح الانتخابية في الحكومة السابقة، فقد تم تعيينها موظفة في الدولة، وإذ تحولت الحكومة السابقة إلى موقع المعارضة، فإن الحكومة الجديدة، انتقاماً، أرسلتها للعمل في أبعد مسالك بوكين الجبلية.

ولم تكن ذات معدة قادرة على تحمل النتانة والعفونة! وخلال أيام قليلة فإن المدينة كلها ستلوث.

في الليلة التالية ارتفع عدد المصابين بالجذام إلى سبعة، فألى اثني عشر مصاباً في صبيحة اليوم التالي، ثم بلغ عدد الذين سقطوا أمواتاً سبعة وعشرين في اليوم الخامس على التوالي. وهكذا فإن من تطور وارتقى في نموه كان القيح وعدد الأموات. وكانت البيوت المصابة تعرف من الستائر التي غطيت بالورق الأحمر لمنع الضوء من الوصول إلى الغرفة خلال النهار لأن الجذام يعمي البصر قبل أن يقتل. ومن المداخلن كان يتصاعد دخان روث الثيران المحروق الذي يبدد التلوث وينظف المنازل من تعشش الطاعون. المصليات في محلة ماتريز يحرقن الشموع تضرعاً من أجل زوجة الكاهن الشرعية، الكاهن الذي سيصبح فيما بعد حراً في أن يعيش

بسلام مع العشيقة، إذا لم يقض عليهما هما الآخران الجذام الأسود. المتضرعات يطلبن من الله أن يضع حداً للوباء الذي أرسله عقاباً للخاطئين من الرجال الذين وهبوا أنفسهم للملذات من أمثال مدير مركز الصحة العامة الذي يحتفظ بصاحبة دائمة عنده.. ومن مركز المراقبة الممتاز في الكنيسة لمحت جوراسي في طريقها إلى القطار تحمل حقيبة وهي متجهمة الوجه تتمتم: "أقبلوني إذا كان في نيتكم ذلك، ولكنني لن أبقى هنا دقيقة واحدة مجازفة بحياتي، وإذا أراد الطبيب فليذهب هو نفسه للتلقيح وليأخذ معه العاهرة لتساعده".

في اليوم التالي لليلة ملاحظة الحالات الأولى، فإن الممرضة وماكسي كانا قد خرجا إلى مجموعة الطلاب حاملين صندوق التلقيحات معهما. وصفت المعلمات الأطفال في صف واحد، وكان هنالك ثلاثة تلاميذ غائبين وأخبارهم سيئة: ففي البدء ظنت أمهاتهم أنهم أصيبوا بالحماق أو الحصبة، ولكنهن الآن تبين حقيقة الثآليل ذات اللون الخمري. وشاع النبأ في المدينة ومعه تفاصيل أخرى عديدة عن المصابين.. ومع فائض في التلقيحات فإن الموظفين الاثنین ذهبا إلى الطريق الرئيسي للتلقيح في بيوت الأغنياء.

لم تنتظر الممرضة جوراسي لمساعدة الفقراء والأكواخ: وارتعتب إذ انتبهت إلى أنها لمست في بيت السوري سكاف، التاجر القوي البنية، مصاباً بالجذام وهو في أسوأ مراحل.. وفي ثلاثة بيوت أخرى إلى الأمام تكرر الشيء نفسه.. "إذا، خذ صندوق التلقيحات أيها الطبيب، أعطه للمتشردة، وهي التي تذهب مع قريح حياتها إلى قريح الموت، وليس أنا العذراء، الفاضلة، والمخطوبة".

تقلص إلى النصف عدد الأفراد في المركز مع هرب الممرضة، أما الدكتور أوتو، فرفع يديه إلى السماء وهتف: "والآن؟ برقية جديدة إلى أراكاجو تطالب بمساعدتين متفرغين وقادرين: أرسلوهم في أول قطار". في البيت، يغسل الطبيب يديه بالكحول، يشعل السجائر ويطفئها، خائفاً، مستسلماً للإحباط، إنه لم يولد من أجل كل هذا.

وفاتح تريزا في أنه إلى أن يتم توزيع الموظفين وإرسالهم، في أراكاجو، فمن الذي يستطيع أن يساعد في أعمال التلقيح؟ وهو سيحتاج إلى أربع أو خمس مجموعات ما إن تصل التلقيحات المطلوبة. حتى الآن، كانوا يحاولون إنجاز الأعمال

بوجود ماكسيميانو والمرضة جوراسي، ولكن دون الأخيرة ماذا يفعلون؟ هو، أوتو مدير مركز الصحة لا يستطيع أن يخرج إلى الشارع ليقوم بالتلقيح كمستخدم وضيع، وليس قليلاً حتى الآن الطلب إليه المجيء إلى المركز صباحاً ومساءً لإعطاء التفسيات والنصائح ومعاينة المشكوك في حالاتهم الجديدة، "آه، إن الدمامل يا تريزا هي أفضع الأشياء!!".

كانت تريزا تصغي بصمت، محتقنة ومنتبهة، تعرف أنه خائف، ميت من الخوف، ومنتظر منها فقط أية إشارة ليحذو حذو الممرضة. لو أنها تقول له: "دعنا نذهب من هنا، ولماذا نموت شباباً، يا حبيبي؟" وهكذا فإن الدكتور ستكون عنده الحجة للهرب! "لقد ورطتك معي، سأخذك من هنا في الحال، علينا أن ندافع عن حننا. فهنا لا حب، ولا صداقة، ولا لذة في الفراش".

وفي حين كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، فإن الدكتور أوتو أشبينيرا كان يجد نفسه عصيباً ومعانياً أكثر فأكثر!

- هل تعرفين ماذا قالت ابنة الزانية عندما هددتها إذا لم تقم بالتلقيح؟ قالت لي أن أوكل إليك الأمر، تخيلي..

صوت تريزا ثابت وشبه سعيدة!

- لا بأس، أنا أذهب.

- ماذا! أنت! ماذا!

- إني سأخرج لتلقيح الناس. يكفي أن تعلمني العمل.

- وهل أنت مجنونة؟ لن أدعك تفعلين.

- لم أسألك أن تدعني أو لا. أأستحتاج إلى أناس؟

من محلة ماتريز، شاهدت المصليات تريزا تمر برفقة ماكسي الزنجيات، مع أدوات التلقيح، فرفعن رؤوسهن ليتحسسن الأمور بصورة أفضل، ومع ذلك، أوقفن الأناشيد... الصلوات تكاد لا تصل خارج الكنيسة، لأن المؤنات العجائز ما عدن يمتلكن القوة في الصدر لمناجاة اليأس.. إلى أين تذهب صاحبة الدكتور مع معدات المركز؟

في ساعة دفن زوجة الكاهن الشرعية سمعت الأجراس تقرر.. "أقوى فأقوى، يا سيد فيكاريو، اقرر بعنف، دع الضاربة تذهب بالقرعتين قرعة واحدة، لتعلن

للسلطات للجميع عن الوباء، عن الجذام الأسود الذي ينتهك مدينة بوكين. بكل قوتك يا سيد فيكاريو اقرع الأجراس واجعل الضاربة تجعل القرعتين قرعة واحدة".

- ظ -

ظروف تستحق التساؤل يا رفيقي! من يستطيع أن يشرف الأموات ويخشع لهم عندما يكون هو نفسه مشروع موت يتفحص يديه في كل لحظة، وينظر إلى وجهه في المرآة ليرى إذا كان قد وصل إنذار البثور الأول.

إن التأمل في الموت يقتضي الهدوء والتفرغ والنظام ووجود ميت لائق، أما إحراق البخور والجنائز الاحتفالي فوق ميت منسي فليس مهمة يجب القيام بها وقوفاً على الأرجل ووسط رعب الجذام ومع الميت المتعفن.

في مرحلة بدء الوباء، كان ما يزال في الإمكان دعوة الأصدقاء، وعمل الطعام، وفتح زجاجات الكاشاسا. ولكن عند مجرى الوباء السريع وكثرة أعمال الدفن لم يعد ذلك ممكناً، إذ كان يضيق الوقت وتفقد الحيوية والتألق الضروري للمحادثة، وهنا لا تعود كلمات الإطراء على الميت متوفرة، أما أهل الفقيد الخائرو القوى والمستسلمون للإحباط فما عادت عندهم الطاقة لتذكر الأناشيد الدينية عبر روائح البخور، وتذكر البكاء والابتسام، حتى في بيوت الفقراء، لأنه في الساعات الحاسمة يقتضي القيام بجهد كبير لتشريف الفقيد وتقديم الاحترام والتقدير له. فمع الوباء، وأي وباء! الجذام الأسود، يستحيل القيام بأي جهد.

أين البشر والمال للتأمل في الموت وحفر الرخام مع موت اثنين أو ثلاثة كل ليلة وفي الشارع نفسه؟ ولا يمكن الاحتفاظ ساعات معدودات بالجنّة المهترئة التي تحمل سريعاً إلى الخارج وبالضرورة الحتمية، لأنها الساعة الملائمة لانتقال المرض بالعدوى. ثم تأتي اللحظة التي لا يعود فيها وقت ورغبة للدفن في المقبرة ويكتفي المودعون بحفر مقابر على سطح الأرض وعلى حافات الطرق وحيث يكون الأمر أسهل.

عندما يأتي الطاعون والرعب، يصبح إحراق الروث وغسل القيح، وفقء الدمامل واحدة واحدة، والصلاة إلى الله أموراً شبه مستحيلة، فكيف العناية بمراسيم الموت، قل لي، يا رفيقي؟

عصر يوم أحد صفت فيه السماء، تم دفن روجيريو كلداس رئيس البلدية الملقب بأبي التلقيحات، وهذا اللقب المضحك يوحى بالعلاقة الوثيقة مع الجذام الذي يجتاح المدينة وقلة التلقيحات فيها. ونظراً لصعوبة الظروف، فإن بوكين كانت قد أضاعت عادة مراسيم الدفن الفخمة على أنغام الفرقة الموسيقية والجموع الحاشدة وحضور طلاب المدارس واستنفار جنود مركز الشرطة العسكرية وتوافد أعضاء الجمعية الخيرية كونفراريا، وجمعية لوجا ماسونكا، ووجود الشخصيات الكبيرة وإلقاء الخطب البليغة التي تبين فضائل الفقيد، ولا يأتى الحظ دائماً لحمل رئيس بلدية إلى المقبرة وهو ما يزال في أوج ممارسته للمهنة. المرافقون قليلون واختصر رئيس غرفة تجارة البلدية كلماته: "إنه ضحية الواجب الاجتماعي"، أكد رئيس غرفة التجارة مشيراً إلى النهاية المفجعة للإداري البار الذي كان خلال أيامه الأخيرة مؤلماً للنظر، ومزعجاً لحاسة الشم بسبب تفشي الدمامل التي انتشرت مع البثرات النبخية على امتداد جسده مكونة جروحاً متفتحة ملوثة، ومكونة ما يسمى بالجذام الناسوري الذي يسمى الجذام الأسود عندما يفضي إلى الموت. بالنسبة إلى الشعب فإن الجذام الناسوري كان نوعاً من الجدري هو أسوأ من الجدري الزنجي، لا بل أكثر الأنواع رعباً ويسمى بأم الجذام، وأكثر رعباً من كل ما وجد: الأسود، والأبيض، والزنجي وغيره. وبالتأكيد، وفي رأي رئيس غرفة التجارة، فإن رئيس البلدية المنتقل إلى رحمته تعالى، استكمالاً لواجبه الاجتماعي فإنه قد اختبر الجذام عسى أن يتم اكتشاف دواء فعال له قبل أن تسلم إليه مهام العناية بالسكان في البلدية والجذام هو وباء من الدرجة الأولى، والجذام الأكبر، الجذام الأسود، والجذام الناسوري أم الجذامات كلها.

وكان الدكتور إيفالدو ماسكارينياس هو الأخير الذي استحق بعد عدة أيام مرافقته إلى القبر والبكاء عليه، أصم، شبه أعمى، نصف منهار، يطوف الشوارع، ولم يقفل على نفسه قط، ولم يهرب جزعاً، فعندما كان قلبه ما يزال قادراً على الصمود اهتم بالمرضى، بمرضاه وجميع الآخرين الذين أعطوه علماً بمرضهم - وبينهم مصابون بالجذام ومحجوزون في الحجر الصحي - دون أن يوفر جهداً من

الجهود التي يستطيع القيام بها. لقد عمل بقدر ما استطاع وليس بالإمكان عمل الكثير ضد الطاعون. وكان هو من اتخذ الاحتياطات اللازمة لتجهيز المحجر الصحي، ومن نفذ تلك التلقيحات. كانت تريزا باتيستا ذراع الدكتور اليمنى في تلك الأيام الشاقة قبل أن يتوقف قلب العجوز عن الخفقان.

كاد يكون لديه الوقت الكافي ليرسل مع تريزا رسالة إلى زميله أوتو أشبينيرا مدير مركز الصحة، فإما أن يصل المزيد من التلقيحات، وإما أن يموت كل السكان بالجذام الأسود. وبعد ذلك قصر للمرة الأولى مع مرضاه.

- غ -

غانية، عشيقة، فنانة ملهى، هذه هي مهن تريزا، وهي بصورة عرضية معلمة أطفال وراشدين، وبالنسبة إلى رجال الشرطة في الولايات الفدرالية الثلاث، فإنها مشاغبة ومحترفة عراك ومشاجرات؛ تريزا باتيستا تلك تمكنت في أيام معدودة من النجاح في برنامج قمرىض كامل قام به كل من الدكتور إيفالدو ماسكارينياس وماكسي الزنجيات، وذلك لأنها كانت مخلوقة سهلة التعلم. هكذا قالت عنها السيدة مرسيدس ليما معلمة الأحرف الأولى. لم تتعلم غسل المصابين بالنبخ واستعمال الكحول والبرمنجنات لتنظيف الثآليل والتلقيح وحسب، فقد تعلمت أيضاً كيف تقنع أكثر المصريين على الامتناع عن التلقيح خوفاً من أن يصيبهم المرض عند إعطاء الحقنة. وفي الحقيقة فقد كان ممكناً أن يحدث، وقد حدث فعلاً وعدة مرات، أن الشخص الملقح كان يتعرض لردة فعل عنيفة على اللقاح من الحمى والبثور والثآليل، وإعاقة جامحة، ومن الجدري الأبيض الخفيف. ماكسي بدأ يفقد صبره، ويريد أن يحل مشكلة الفتاة العنيدة نفسها، ويقصر التلقيح على البعض دون البعض الآخر، نظراً للأزمات، ولصعوبة تنفيذ المهمة. ولكن تريزا، حكيمة صبورة، كانت تشرح له وتريه آثار التلقيحات التي قامت بها لنفسها، في ذراعها الأيسر، وقد حقنت نفسها من جديد لتبرهن على عدم وجود أي خطر. كل شيء كان يجري على ما يرام، وأصبح المواطنون يأتون ليتجمعوا أمام المركز بانتظار الملقحين. عندما كان مخزون التلقيحات قد نفذ أرسلت برقية جديدة إلى أراكاجو تطالب بإرسال دفعة جديدة على جناح السرعة.

بدا الدكتور إيفالدو أكثر قلقاً مع تفشي المرض المتزايد يوماً بعد يوم، وحصل من السوق التجارية على هدية من عدة فرشاة للمحجر الصحي حيث كان يجب عزل المعوقين الذين لا أمل في شفائهم من الحالة، أولئك الذين يشكلون الخطر الأكبر في تفشي الجراثيم. وقبل وضع الفرشاة في المحجر، كان من الضروري القيام بعملية تنظيف منهجية في المكان المتخفي في الغابة، بعيداً عن المدينة، لأن السكان كانوا يخجلون منه.

برفقة ماكسي الزنجيات، وكل منهما يحمل المعقمات والمياه في صفائح البنزين، فإن تريزا باتيستا دخلت في الطريق الممنوع! كانت الغابة قد ازدادت كثافة، وكان ماكسي يستريح واضعاً الصفيحة أرضاً ليفتحها بواسطة قطعة صغيرة من الخشب، ويتنشق منها. حيث يقصدون، منذ سنة، كان المحجر الصحي فارغاً. كان آخر من أقام في المحجر اثنان من المصابين بالبرص! رجل وامرأة ربما كانا متزوجين، كانا يأتیان إلى معارض يوم السبت لتسول بعض حفات الدقيق والفاصولياء والبطاطا الحلوة والقرع، وبعض النقود المعدنية القليلة التي تلقى لهما أرضاً، وكانا في كل مرة عرضة لتآكل البرص الذي حفر فيهما حفراً مكان الأنف والفم وأصاب الأذرع والأرجل بالبقع المرضية الملفوفة بالخرق والأقمشة. كانا معاً بالتأكد أو بفارق زمني قليل، ثم كفا عن الذهاب إلى المعارض في أيام السبت، وإذا لم يهتم أحد بدفنهما أو بالذهاب إلى المحجر، فإن النسور والغربان قد احتفلت بالبقايا، وكان الاحتفال هزياً، وتركت العظام على الأرض نظيفة من البرص.

كان ماكسي الزنجيات ينظر بتعجب وباحترام إلى الأنثى الجميلة، صاحبة الدكتور، لأنها دون حاجة إلى مساعدتها، ودون أي موجب ومن أي نوع، وأردانها مرفوعة، وقدمها عاريتان، كانت تغسل أرض الأسمنت في المحجر الصحي وتجمع عظام الأبرصين حتى تحفر لهما قبراً. وفي حين أن الموظفة "لا تلمسني" هربت بعيداً وأهملت المركز الصحي غير مكترثة بالواجبات والنتائج "أقيلوني، لا يهمني، لن أموت هنا" فإن فتاة الهوى، دون أجر، ودون سبب، كانت تذهب من بيت إلى بيت، لا تكل ولا تمل، ودون توقيت أو خوف تغسل المرضى، تدهن جروحهم بالبرمنجنات، وتفقد الدمامل بشوك البرتقال عندما كانت تتحول البثور حمراء كالخمر، وتأتي من زرائب الحيوانات بروت الثيران لتحرقه في داخل البيوت السكنية.

هو نفسه ماكسيميانو المعتاد على بؤس منطقة الداخل القاحلة، الخبير بأمراض الشعب وشقائه، الأعزب، بلا أهل أو أقارب، سيد حياته وموته والموظف للقيام بذلك العمل والمدفوع له أجر طفيف في نهاية الشهر، مع كل ذلك، فإنه في أكثر من مناسبة في تلك الأيام، فكّر في التخلي عن كل شيء، ومتّعظاً من الممرضة جوارسي فكّر في إعلان الاستقلال: "أيتها القدمان لماذا أريد كما؟"

أخيراً، وصلت التلقيحات التي جلبها الصيدلي كميليو تيزورا، الذي عندما كان في أراكاجو، جاءه نبأ الجذام القاتل فذهب بمبادرة منه، إلى مديرية الصحة حيث أعطوه الأدوية المطلوبة ووعدوه بالدعم القريب بالأفراد "قل للدكتور أوتو كي يذهب بنفسه لتدبر الأمر مع سكان المدينة إلى أن يتم التزويد بالأشخاص الأكفاء وليس سهلاً تقرير ذهاب أحدهم ليجازف بحياته مقابل مرتبات طفيفة" قال ماكسي الزنجيات:

- من المؤسف أن ليس من أشخاص مثلك يا حضرة السيدة. لو كان هنالك ثلاثة أو أربعة لكان ممكناً القضاء على الوباء اللعين.

رفعت تريزا باتيستا رأسها فبانت علامات التعب في زوايا عينيها وعلى شفتيها، ولكن توقد النحاس، والنور المضيء، أطفأ التعب في العينين: "أعرف أين أجد الأشخاص، اترك الأمر لي".

- ف -

في المساء وصل الصيدلي ومعه بلاغ مديرية الصحة في سرجيبي: الطبيب الصغير لم ينتظر دفن الدكتور إيفالدو، فالتقى مع كميليو تيزورا في المحطة... "لو كنت متعلقاً لكنت الآن بعيداً، ولكنك مسافراً في قطار شحن الساعة الخامسة من صباح الليلة التي أطلعني فيها زكرياس في المركز على البثورات في وجهه". فكّر جيداً، ووزن كل أمر محتمل، فوجد أن الذنب هو ذنب المرأة الشقية، وبحق الشيطان، ما الذي جعلها تخرج لتلقيح الشعب، ولتهتم بالمصابين بالجذام؟ امرأة سخيفة جداً تريزا تلك... ومهما يكن عندها من جمال وطيبة فإن في عقلها اختلالاً، إنها ليست امرأة، بل حيوان متوحش، بلا عواطف، عاجز عن التفكير والإدراك، وعن تقدير الحياة حق قدرها، أما هو، الشاب وذو المستقبل المرموق

الدكتور أوتو أشبينيرا فإنه يجد نفسه مهدداً في أن يرى وجهه الطفولي الذي تتبارى من أجله الإناث متحولاً إلى وجه مقلق مخيف، هذا إذا لم يفقد الحياة.

إنه صاحب رسالة ومن عائلة سياسية، وهناك سيحصل على إيفاد ليستبدل مرة واحدة بلد الجذام الأسود والفقر بأراضي الجنوب النظيفة، الغنية، حيث الاحتفالات الكبيرة، والحدائق والمسارح والأضواء والسيدات العصريات، والمواعيد من الصنف العالمي، ولكن لن يكون هناك امرأة أجمل وأطيب من تريزا، امرأة؟ إنها ليست امرأة، لا، بل رعب، إنها ملكة الجذام... وأكثر من ذلك، ظلّ يعيش في الخوف، مقفلاً على نفسه في داخل البيت، يغسل يديه بالكحول كل دقيقة، يمسح صدره بجرعات الكاشاسا، يدخن بلا تعب، ولديه الحاجة الدائمة إلى التبول وإلى تفحص نفسه في المرآة وجس وجهه تفتيشاً عن البثور، فإنه وسط ذلك الرعب فقد قناع التربية والطموح السياسي والاحترام الذاتي والعقل، ولم يعد الناجون يستهوونه ولم تعد أصوات بوكين الانتخابية ولا صفات تريزا وجمال جسدها وحضورها المهيّب ولا فتحة الملقط الضيقة تعني له شيئاً.

عندما أجرى معها المحادثة المتعلقة بهرب جوراسي فإن تريزا خرجت إلى الشارع لتلقيح الناس وبقي الطبيب طويلاً: لقد أشار إلى وقاحة الممرضة ليستحصل من تريزا على إشارة للهرب، دعوة للذهاب، نصيحة، تعليق، كلمة واحدة. وبدلاً من أن تعطيه التفسير الجيد، فإن التافهة لعبت دور أخت العزاء، وأجبرته على أن يذهب إلى المركز بدلاً من الذهاب إلى المحطة.

في المركز استقبل زيارة رئيس غرفة التجارة في المدينة، وتحدث التاجر، المزارع، الزعيم السياسي وصديق عائلة الدكتور الصغير بصراحة: "إن السياسي يا طبيبي الشاب، يجب أن يتصرف سياسياً، وإن وسط الاجتياحات التي أسوأها الجذام. إن المرض المفترس الذي يهدد سكان البلدية بالموت له وجه إيجابي غير الوجه الجرثومي بالنسبة إلى مرشح يريد أن يشق لنفسه طريقاً سياسياً سريعاً، وعلى الأخص إذا كان طبيباً، وأكثر من ذلك مديراً لمركز الصحة العامة".

وعليه أن يتحمل مسؤولية القيادة في طليعة الموظفين، أياً كانوا - في إشارة دقيقة إلى أنه كان قد شاهد صاحبة الدكتور تقوم بالتلقيح - لاجتثاث الجذام من آخر جرثومة في كيانه وتحرير البلدية من الوحش الذي لا رحمة عنده، ولا توجد

فرصة أنسب من هذه، يا عزيزي، حتى تستحق الاعتراف بالجميل وأصوات الناحيين في بوكين. إن الشعب يدفع بصورة مستقيمة وهو يعبد طبيباً متفانياً وقديراً. يكفي أن ترى امتياز الدكتور إيفالدو ماسكارينياس، فهو لم يعين مراقباً عاماً، أو رئيس بلدية، أو نائباً حكومياً لأن المراكز بالنسبة إليه والمسؤوليات لم تكن تعني شيئاً. ولكن الدكتور أوتو أشبينيير، إذا أمسك بالمناسبة من شعرها، ومع الامتياز العائلي الكبير ومع طرد الجذام الأسود من المدينة، فإنه يستطيع أن يقيم في بوكين قاعدة سياسية لا يمكن القضاء عليها، وستتوزع القاعدة بين البلديات المجاورة حيث سيصلون بالتأكيد إلى الجدري وشهرة الطبيب، ولشيء كهذا يا صديقي العزيز، يجب أن تقوم بمواجهة الوباء.

"اشكر ربك، يا حضرة الطبيب، اشكر الذي أعطاك فرصة أن تقطف من الأرض ما تعطيك إياه واستفد، انطلق في النضال، وقم بزيارة المصابين واهتم بهم، أغنياء وفقراء، واجعل من المحجر الصحي مكان إقامتك، وإذا أصبت بالجذام فلا يهم، فكونك ملقحاً فلن تموت بسهولة، تعريك الحمى عدة أيام ويمتلى وجهك بآثار البثور، وهذه الآثار شهادة لا أفضل منها لطبيب جذامي مرشح للانتخابات. وهناك خطر ما، واضح، وقد حدث أن أخذ الجذام معه أطباء ملقحين وكل شيء، ولكن من لا يزرع لا يقطف، وفي النهاية فإن الحياة هي لمن يلعبها في كل لحظة ويدفع ليرى..". وفيما أنهى نصائحه إلى تلميذه واستأذن بالانصراف، عند نهاية الطريق كانت فتاة الدكتور تلقح في باب أحد المنازل، جميلة إلى حدّ الإخافة وعلى الأخص بالنسبة إلى رجل فاضل مثله، يخاف الله، ومتزوج، كما لو أن الجذام الأسود لا يكفي.

- ق -

قدمت تريزا في نهاية النهار عرضها التمريضي لتجد مفاجأة في انتظارها: لقد وجدت أوتو مستسلماً للوضاعات: اللهاث يفوح كاشاسا، والفم مرتخ، والكلام ثقيل، فبعد استعراض المنظور الانتخابي ووجهة نظر الرجل الكريم الذي يفتش عن التدابير الاحترازية المتخذة في المركز، فإن الطبيب الصغير حاجزاً نفسه في البيت، أفرغ في فمه زجاجة كاملة من الأبيض النقي: وهو ذو مقاومة ضعيفة ضد

الكحول، ويسكر بسهولة، فعندما رأى تريزا تدخل بحوية مستعدة لوصف تطورات التلقيح، ابتعد عنها متهاوياً:

- "لا تلمسيني، رجاء. اغسلي أولاً بالكحول، اغسلي جسدك كله". واستمر في الشرب بينما كانت تستحم، لم يرد أن يأكل فبقي غارقاً في الكرسي وهو يتمتم. وظلّ يتعد عن تريزا إلى أن انحسر في الزاوية، فوضعت في السرير بملابسه مثلما كان. في اليوم التالي خرجت قبل أن يستيقظ، ومنذ ذلك الوقت لم يعودا يتحدثان تقريباً، لم يعد يمسه قط، وخلال الأيام التي ظلّ فيها هناك مناضلاً بالكاشاسا بين الرغبة والخجل من الهرب، كان أوتو ينام وحيداً على الأريكة في الغرفة بانتظار أن تذهب هي وتتركه وحيداً ومن دون ذلك الحضور الاتهامي. أجل إنه حضور اتهامي، لأنها كانت تخرج كل يوم صباحاً لمساعدة الدكتور إيفالدو وماكسيميانو وتعود مساءً محنية من التعب، في حين أنه كان كل يوم يقلل من حضوره في المركز الصحي حيث يزداد عدد المرضى تفتيشاً عن البرمنجنات والكيما والكحول الأثيلية؛ بالنسبة إلى الطبيب كانت الكاشاسا الدواء الوحيد.

عندما أيقظته تريزا من غطيته ذات يوم لتخبره بانتهاء مخزون التلقيحات وضرورة خروجه لفحص المرضى، كان الدكتور إيفالدو يجهل أن الطبيب الصغير كان قد أعدّ خطته: يذهب إلى أراكاجو بحجة المجيء بالتلقيحات وهناك يمارض، يتظاهر بأنه مصاب بالأنفلونزا، بالقضاع الكلوي أو الصفراوي، بفقر الدم الأنيمي، بحمى مسعورة، فأني مرض يمكن أن ينقذه، وعندها يطالب بمن يحل محله في إدارة المركز الصحي في بوكين. يذهب إلى هناك منخفض المعنويات: يرخي ذقنه، يهدل عينيه، يتوجع بصوته، ويستخدم الأساليب الناعمة. عندما قالت له تريزا ببعض القساوة أن يترك الزجاجة جانباً ويخرج إلى الشارع ليقوم بواجبه بوصفه طبيباً ويحذو حذو الدكتور إيفالدو، ويزور المرضى في البيوت والمحجر الصحي، أجاب بانفعال شديد:

- اخرجي حالا من هنا، اذهبي إلى الجحيم أيتها العاهرة القبيحة.

- لن أخرج من هنا. إن لديّ الكثير لأفعله.

أدارت له ظهرها وذهبت لتنام متعبة. إنها حرة على الأقل من رغبة الطبيب الصغير الذي لم تعد تستهويه مفاتن تريزا، وهو سكران مرتجف خوفاً من الجذام.

وعندما سقط الدكتور إيفالدو ميتاً، يعوزه القلب لا الشجاعة، وهو في ساعة الموت يطالب بالتلقيحات، فإن الطبيب الشاب لم ينتظر إلى أن يتم دفن زميله، "إني ذاهب لآتي بالمعونة، لأجلب التلقيحات، سأذهب وأعود، سأذهب سريعاً، راكضاً، سأذهب، ودون حقائب، وخفية"، وعند صفير القطار تسلل إلى المحطة وانطلق إلى باهيا. إن القطار إلى أراكاجو لا يمر من هنا إلا في الساعة الرابعة، ولكنه لم يكن مجنوناً لينتظر، ليبقى دقيقة واحدة في أرض الموت تلك، أرض الموت الأسود وعالم المرأة الشقية المجنونة التي ستنال جزاءها وسيأكلها الجذام بالكامل.

كان أهالي بوكين قد شاهدوا في تلك الأيام من الجذام الأسود أشياء مرعبة هي الأخرى. لقد شاهدوا مدير مركز الصحة الطبيب الشاب المتخرج من الكلية يقوم بهروبه الجبان إلى حد أنه استقل القطار الخطأ، وقام بالسفر إلى أراكاجو عبر باهيا وكأن الجذام قد طرده من المدينة... وكانت مسألة ركضته مستعجلاً الهرب، والسعي وصفها الصيدلي عند باب الصيدلية، قد أثارت الضحك وسط البكاء والنحيب على الأموات؛ "إلى أين تذهب بهذه السرعة يا طبيبنا الأوحده؟" "إني ذاهب إلى أراكاجو لآتي بالتلقيحات"، "ولكن هذا القطار لا يذهب إلى هناك، إنه آت من أراكاجو وذهاب إلى باهيا"، - "أي قطار يحل مشكلتي، أي طريق، لقد ضاق الوقت". "ولكن التلقيحات قد وصلت، إنها معي هنا وقد جلبتها، وهي كمية كافية لتلقيح الكبير والصغير في كل منطقة سرجيسي؛ كافية وتفيض عن الحاجة"، "إذا استفدت منها، وأبقها مع الناحيين في بوكين، وإذا أصبح عندك مال ومقدرة، فابق مع الفتاة، إنها من الطراز الأول".

لقد شاهد أهالي بوكين أشياء مرعبة في تلك الأيام من الجذام الناسوري. لقد شاهدوا عاهرات موريكابيا يؤلفن كتبية وحيدة صغيرة بإمرة تريزا باتيستا متوزعة بين المدينة والأرياف للقيام بالتلقيحات.

بوا بوندا ذات الهيكل الضخم، والنحيلة ماريكوتا التي تعجب مقدري النوع العظمي من النساء ماودي فادا السمينية للمعجبين بالنوع الممتلئ أو بالفراش اللحمي الوثير، وهناك من يحب هذا النوع. والعجوز غريغوريا ذات الخمسين سنة من النضال معاصرة للدكتور إيفالدو وقد وصلاً إلى بوكين في التاريخ نفسه، والصغيرة كابريرا ذات الأربعة عشر ربيعاً ومنها ربيعان في ممارسة الدعارة وذات

الابتسامة الطفولية.. عندما دعتهم تريزا إلى العمل، امتنعت العجوز لأن من الجنون إلقاء أنفسهم وسط الجذام، ولكن كابريرا قالت: "أنا أذهب"؛ وكان النقاش حاداً فماذا عندهم يخسرته غير الحياة؟ وحياة عاهرة في منطقة الداخل، تموت جوعاً، ما قيمتها؟ حتى الجذام لا يريد حياة رخيصة إلى هذا الحد وحتى الموت يرفضها.

وذهبت العاهرات الست، وتعلمن من تريزا وماكسي ومع الصيدلي كيف يقمن بالتلقيح وتم التعلم سريعاً، فبالنسبة لمن تحترف العهر مهنة، ليس من أمر يصعب عليها، صدقوني، ورحن يغسلن الملابس الملوثة بالطاعون، ويمسحن جروح المصابين بالبرمنجنات، ويفقأن الدمامل، ويحفرن القبور ويدفن الموتى.. العاهرات، وحدهن العاهرات.

لقد شاهد أهالي بوكين أشياء مرعبة في تلك الأيام من أم الجذام. لقد شاهدوا المصابين يسيرون في الطرق والشوارع، وقد طردوا من المزارع وهم يفتشون عن المحجر الصحي ويموتون وهم يمشون. وشوهد الناس يهربون تاركين بيوتهم خوفاً من العدوى ودون اتجاه، ودون هدف. وأصبح حي موريكابيا شبه مهجور.

هاربان ذهباً يطلبان الراحة في موقع عمل كلاوديو فقابلهما العمال هناك والبنادق بأيديهم ورموهما خارجاً قائلين "اذهبا إلى الجحيم"، ألحا على الدخول، فأمرت البنادق رصاصاً، فسقط واحد قتيلاً وأصيب الآخر، ولم يعرف كلاوديو أنه كان قد تلوث.. هو، وزوجته، ووالده ووليد جديد، فلم يسلم أحد منهم من مقبرة الجذام.

وأخيراً شاهد الأهالي المدعوة تريزا باتيستا تحمل في الطريق مصاباً بالجذام، بمساعدة غريغوريا وكابريرا وقد وضعت في كيس من الخيش ورفعته على كتفها. كان المصاب زكرياس، ولكن لا العجوز ولا الفتاة الصغيرة عرفتا الزبون في تلك الليلة.

وكان قد طرد من أراضي العقيد سيماو لاميغو مع ثلاثة من المصابين... فلم يكن العقيد يريد تلوثاً في أراضيه، وليذهبوا ليموتوا عند الأم التي خلفتهم وليس هناك حتى لا يلوثوا العمال الآخرين وأفراد العائلة الكريمة. عندما كان زكرياس وتابوكا قد أصيبا بالجذام كان العقيد مسافراً، لذلك بقي الاثنان هناك وحدث أن مات تابوكا بعد أن نقل المرض إلى ثلاثة آخرين. ومع وصول السيد انتهت المسألة

عندما تلقى السركال الأوامر الصارمة فتم إبعاد الأربعة إلى خارج الحدود عبر باب المزرعة الكبير، ثلاثة دخلوا في الغابة يفتشون عن مكان يموتون فيه بسلام ولكن زكرياس كان متعلقاً بالحياة. الجراح المتشققة ظاهرة في جسده العاري، ووجهه كأنه وجه مسخ: إنه الجذام الناسوري. منظر جهنمي، وحيث يذهب أو يمر، كان الناس يهربون، وخائر القوى سقط أرضاً أمام الكنيسة.

وجاءت تريزا، وبمساعدة العاهرتين - إذ لا رجل في المحلة، حتى ماكسي الزنجيات، تجرأ على لمس جسد العامل المدود - ولفته بكيس الخيش، ثم حملته على كتفها ناقلة إياه إلى الحجر حيث كانت امرأتان قد ذهبتا سيراً على الأقدام وشاب ريفي بالإضافة إلى الأربعة الآتين من موريكابيا. وبينما تجتاز تريزا الدرب الكثيف المشجر، سال قيح زكرياس على فستانها ثم وصل إلى جلدتها النحاسي.

- ل -

لم يبق لإدارة المركز الصحي غير ماكسي الزنجيات، ولأعمال التمريض غير عاهرات المنطقة، كان يضحك الصيدلي كميليو تيزورا متندراً وهو يعلق على هرب الطبيب، مفصلاً حياة الآخرين في غمرة الوباء.

حتى إنَّ طويل اللسان كان قد انتهى بوضع لسانه في الكيس عندما وصل إليه ماكسيميانو بوجهه الذي بدأ الجذام الأسود يغزوه بالبثورات الأولى على الرغم من تلقيح نفسه مرة ثانية عند بداية الوباء فقد انتهى بالحصول على حصته. وعندها قامت تريزا بقيادة المعركة، فوضعت المصاب ماكسي في محل إقامة الطبيب الصغير وفي سريره ما دام المنزل خالياً، في حين كانت تريزا قد عادت إلى موريكابيا مع الفتيات الأخريات.

وتحت إمرة تريزا كانت الفتيات قد لقحن أغلب سكان المدينة وقسماً من سكان الأرياف. وإذ كن معروفات في المنطقة كلها حيث كنّ يعشن ويمارسن عملهن فقد تمكّن بسهولة نسبية من إقناع الممتنعين عن التلقيح بالقبول به... في الريف، واجهت تريزا سيماو لاميغو الذي كان ممنوعاً على الملحقين أن يدخلوا إلى ملكياته إذ بعد التلقيح يأتي الجذام، كما كان العقيد يعتقد ويردد أمام الناس.

لم تكثر تريزا بالمنع، ودخلت دون أن تطلب إذناً تتبعها ماريكوتا وبوابوندا، وبعد الكثير من تراشق الألفاظ وإظهار المعاييب البشعة الواحد ضد الآخر انتهت تريزا إلى تلقيح العقيد نفسه. ولم يكن العقيد من النوع الذي يضرب امرأة ليسيطر عليها، وعلى الأخص جميلة جهنمية، ولم تكن هي تتراجع خطوة واحدة عن إصرارها على أن لا تعود قبل أن تلقح كل الأجزاء. وكان العقيد قد سمع عنها، وعرف عن المصايين الذين حملتهم على ظهرها إلى الحجر، وعندما رآها مستعدة لكل شيء، تواجهه بهدوء، كما لو أنها لم تكن واقفة أمام العقيد لاميجو، فقد فهم أن كل وقاره لا يعدو كونه غروراً باطلاً وجباناً إذا ما قورن بشجاعة هذه الأنثى. "أيتها الصبية، إنك كلبة مسعورة وربحت الجولة".

لم يكن التلقيح شيئاً مهماً: صعوبة هنا، أخرى هناك، تهديدات بالطعن، شتائم من مكان لآخر، وحوادث قليلة؛ أما شجارات عنيفة بقبضات اليد قهوي ثلاث أو أربع مرات على الوجه، فلم يحدث منها شيء. ولكن الصعوبة القاسية كانت في الذهاب إلى البيوت والحجر الصحي لمعالجة المرضى، في حين كان الصيدلي يقوم غالباً بأعمال الطبيب، وهن يقمن بكل الباقي: يضعن البرمنجنات والكحول الأثيلية على المرضى، يفقأن الدمامل بأشواك الليمون، ينظفن القيح، ويبدلن أوراق الموز الموضوعة تحت جسد المريض وفوقه في الفراش؛ ولم يكن هناك حاجة إلى شرشف وغطاء؛ وكن يحفرن في الجلد المكان الذي يسيل منه القيح المتفجر من الدمامل. ومن المزارع والإسطبلات والزرائب كن يأتين بروث الثيران ويضعنه أرضاً ويحرقنه، ثم يوزعن منه على البيوت التي فيها مصابون بالجذام لتحرق على الأرض وفي الغرف وينظف دخانها الهواء الملوث من الجراثيم الجذامية. وفي تلك الساعة الحاسمة كان روث الثيران عطراً ودواء.

متأزرة بمنديل رسمت عليه وردة حمراء وسوداء، كان الأستاذ إميليانو غويدس قد أهداها إياه في زمن الراحة والسلام عندما كانت تقيم في بيت نظيف وتعيش حياة الرفاهية والأنس، ها هي تريزا باتيستا تسير الآن في أزقة موريكابيا الضيقة. تعيش في كوخ مع ماودي فادا بجوار الأخريات في المنطقة الأكثر شقاء وفقراً في العالم، وفي أقبح المقاعد البشرية. ولكن في تلك المرحلة ولا واحدة منهن مارست عملها التقليدي، وليس ذلك تعالياً أو امتناعاً، بل لأنهن كن قد أقفلن المكان

وأعطى الوعود بالشفاء، وببساطة، كان، الرجال يمتنعون عن لمس نساء كهؤلاء. إنهن آبار الجذام الممتلئات به إلى درجة القدرة على تخطي الوباء الذي لا يوفر أحداً وعلى مواجهة العدوى باستمرار في بيوت المرضى ورعب المحجر الصحي والاقتراب من الجروح المتقيحة وفي جمع الموتى ودفنهم في المقابر.

كم من المقابر كن قد حفرها وقلما يساعدهن أحد العمال المتضامنين في المعركة المدهشة. كان الجذام قد قتل بسرعة فائقة وفعالة من لم يكن لديه الوقت ولا الطريقة ليحمل ميتاً إلى المقبرة. أما الموتى الأكثر إهمالاً، فإنهن أنفسهن كن يحفرن لهم القبور في الأرض ويدفنهم. وفي بعض الحالات كانت النسور والغربان تبدأ عملها ولا تترك للدفن غير العظام.

اثنان منهن أصيبتا بالجذري، ولم تصب واحدة بالجذام الأسود، لأن تريزا كانت قد لقحتهن في بداية العمليات... ومع الحمى القوية، مع أنها غير قاتلة، فإن بولوفوفو أخذت إلى بيت الطبيب الصغير الذي أصبح الآن مليئاً بالمصابين وغداً محجراً رفاهياً على حدّ التعبير الساخر للصيدي. وكانت تريزا تأتي صباحاً ومساءً لتهم المرأة الضخمة، التي أصبحت جلدًا وعظاماً وتحول لحمها إلى قيح، وكذلك لتهم بمأكسي. وكذلك بوابوندا التي ظهرت فيها الحمى وأصيبت بالبثور في جسدها مع دوار قليل، شيء لا يستحق الذكر، ولم يجعلها أسيرة الفراش فتابعت الاهتمام بأهالي موريكاييا حيث سجل عدد الموتى رقماً قياسياً في المدينة. لقد كانت بوابوندا ذات قدرة قوية وطاقة فعالة لا يبلغها أحد في التعامل مع الرفش وحفر القبور.

لم تمت إحداهن وعشن جميعاً ليروين الحكاية، ولكنهن ألزمن بمغادرة بوكين لكسب العيش في مناطق أخرى إذ لم يعد لديهن زبائن في بوكين، لا زبائن لمن يحمل في جسده جذاماً أسود بهذا القدر. وأصبحن تائهات فضلاً عن كونهن عاهرات... وكذلك تريزا باتيستا غيرت مكان إقامتها في بوكين عندما انتهى الوباء ولكن ليس لنقص في العروض، بل على العكس، وإذا رآها تجتاز مركز المدينة، على رأسها الإزار، دائمة الانشغال بالمعقمات والأدوية والبرمنجنات، وأكياس الخيش، والمرضى والموتى، فإن رئيس غرفة تجارة البلدية الفاضل، والذي هو في مركز المسؤولية كونه رئيساً للبلدية، وصاحب مزرعة ودكان وناخبين ومال

يقرضه بالربا إلى أيد أمينة، وزعيم العائلة المؤلفة من زوجته وخمسة أولاد، والذي لا ينازعه منازع حتى الآن، فإن رئيس الغرفة التجاري ذاك متأثراً بذلك القدر من الطيبة والجمال الموضوعين في هذا العمل المقرف، بدا مستعداً لأن يحدو حدو الناس الكثيرين وأن يتخذ صاحبة بيتاً عسكرياً لأنه، وكرئيس البلدية يحتاج إلى الاهتمام بالمظاهر: سيارة، دفتر شيكات، وصاحبة.

وترشح لتريزا أيضاً العقيد سيما لاميجو المتعود على المصاحبة، وألحوا إليها بالتركي سكاف التاجر بالجملة والمفرق، وكذلك ترشح الصيدلي سيد حياة الآخرين والطبيب في ساعات التفرغ وقلة العمل.

مصاحبة؟ أبداً. لا مصاحبة بعد اليوم. من قبل كانت عاهرة مفتوحة الباب لعفونة موريكاييا حيث لا ينتهي الوباء هناك كلياً، وعاد الجذام الأسود أبيض، وأم الجذام ابنة؛ وظل هناك الجدري، المرض اللعين في منطقة الداخل يصيب البعض بالعمى ويسبب الزحار الفعال في قتل الأطفال ويقتل راشدين في بعض الأحيان حتى لا يفقد العادة وليقوم بالواجب.

- ن -

النون حرف رقيق في الأبجدية، حرف الحكماء من أصحاب الحياة الصاخبة وسوء الطالع. ولكونها كتاباً مستعملاً يرغب الجميع في قراءته، ولتعرضها لكلام الناس وتعاطيها التضميد، لقبوها بتريزا النون والسبع حبات. وفي الاحتفال الديني لاستحضار الأرواح لدى الزوج أعلنوها تريزا أومولو.

- ه -

... وهكذا عندما وصل أخيراً الفريق الطبي من أراكاجو، والمكون من طبيين وستة ممرضين متخصصين لاستئصال شأفة الجدري وجدوا أنه كان قد استؤصل كلياً: حتى ذلك الحين لم يبق إلا معوقان يتقلبان في الحجر الصحي؛ منذ أسبوع لم تسجل حالات جديدة، ولا أموات برسم الدفن؛ الصدفة لم تمنع أن يكون المؤهلون في الفريق الطبي الواصل حديثاً كما هو مفروض، هم، في البيان الرسمي الحماسي الصادر عن مديرية الصحة العامة، من تمكنوا من القضاء التام على

الجدي الذي استفحل في ولاية سرجيبي، وذلك بالشجاعة والتفاني اللذين بذلتهما الفريق الطبي.. وقد أنصف البيان الرسمي أيضاً وعلى قدم المساواة الطبيب الشاب أوتو أشبينيرا الذي يكفي أن يكون قد تسلم إدارة المركز الصحي في بوكين واتخذ الاحتياطات الأولية الحاسمة ليقطع الطريق على الوباء، وذلك بفضل مؤهلاته الكبيرة وتعمقه في رسالته الإنسانية المشهود لها من الجميع، وبفضل تنظيم النضال وخوضه المعركة الطاحنة ضد الشر.

- "فقط أريد أن أرى؛ إذا لم يزل لدى الطبيب الصغير الشجاعة ليعود إلى هنا"... ألمح الصيدلي كميليو تيزورا، ولكن كونه معروفاً بلسانه السليط فلم يعره أحد سمعاً: وبعدها حصل أن مدير المركز الموجود في إجازة في باهيا قد نال الترقية الموعودة، الموعودة والمستحقة. وإذ إن والد جوراسي قد انتمى إلى الحكومة الجديدة، فإن ابنته قد ترقّت هي الأخرى وانتهت إلى ممرضة من الطراز الأول، بفضل الخدمات الجليّة التي قدمتها لمجموعة السكان خلال اجتياح الجذام لمدينة بوكين، وتزوجت بعد ذلك، ولم تكن سعيدة لأن الطبيعة الزراعية لا تتمكن من توفير التعايش مع الفرح بالنسبة إليها. فقط ماكسي الزنجيات لم يحصل على الترقية واستمر مطبياً بسيطاً، سعيداً أن يكون قد نجح بحياته وخرج بقصة يرويها وذكرى جديدة.

وعاد الأهالي إلى بيوتهم، وشاهدوا من جديد الأطفال والكلاب يعبثون في أكوام النفايات في موريكابيا تفتيشاً عن الطعام. الغربان المبعثرة في السهول كانت من وقت لآخر تنبش جثة مدفونة عند سطح الأرض تقريباً، تقتل بها الجوع.

ذكريان دينيتان احتفل بهما شكراً وحمداً: في حي إغنيلا من موريكابيا فإن الإله الزنجي أومولو كان له عيد، ورقص وسط الشعب على أنغام الأوبانيجي. في البدء رقص إجيّشيه فانتقلت العدوى إلى أومولو الذي مات ثم ولد من الجذام وفي يده الحربة وعلى وجهه المدمل غطاء من الحرير، ثم رقص جاغون، المحارب وعلى وجهه اللون الكستنائي الشبيه بلون الجذام، وأخيراً رقص الآلهة معاً وحيّا الشعب العجوز الذي يرفع يده ويردّد: أوتوتو يا أبي! وجاء الإلهان أومولو عانقا تريزا ومسحا جسدها ومنعاه عن كل أنواع الطاعون إلى الأبد.

وخرج موكب آخر من ماتريز يتقدمه رئيس الغرفة التجارية ورئيس البلدية بالوكالة، ويحمل الوجهاء صور القديس روكز والقديس لازارو وهما أوبالويه وأومولو عند القوم البيض، وسارت في الموكب حشود شعبية واسعة.. وكانت الأناشيد والصلوات والتضرعات، وقرعت الأجراس ابتهاجاً.

ولكي تذهب من بوكين حيث لم يعد لديها ما تفعله، فقد اضطرت تريزا باتيستا إلى أن تباع بعض مصاغها إلى التركي سكاف المرشح لأن يصاحبها لو كان ذلك ممكناً، ولكنه لم يكن... لم يعد من عشق بعد اليوم ولا حتى رفقة مغامرة تفتيشاً عن المتعة والهدوء. أبداً تريزا التي لم يرغب فيها الموت، والتي رفضها الجذام الأسود، هي من الداخل مسعورة محمومة، في صدرها خنجر مغروس عميقاً، إنها ستذهب في اتجاه البحر حيث تطفئ نفسها... "آه، جانواريو جيريا، أيها الطير العملاق، أين تسير الآن؟ حتى الموت لم يردني عندما رحت أفتش عنه يائسة وسط الجذام الأسود، من دونك جانو الحب، ماذا تعني الحياة؟

أريد أن أكون حيث تكون، أقضي آثارك في الخفاء، وأنظر إلى جانب رأسك في السفينة وأنا بعيدة، وأتألم لغيابك في البحر، إلهي، في أية ساعة يمر القطار إلى باهيا؟" تريزا تريد هي الأخرى أن تهرب، تهرب من الشوق القاتل ومن اليأس.

وبينما المصليات المتضرعات يعدن من الكنيسة شاهدن تريزا باتيستا تسير باتجاه المحطة وحيدة. واحدة منهن قالت ووافقتها الأخريات: "الوعاء السيئ لا ينكسر أبداً! أناس مستقيمون كثيرون ماتوا وهذه المتشردة التي حشرت أنفها في المحجر الصحي لم يصبها شيء. كان بإمكان الجذام أن يأكل وجهها على الأقل".

يجهل زكرياس كيف بلغ المحجر الصحي، وإذا كان شديد التعلق بالحياة فقد شفي. وعدا ما تم الاطلاع عليه في بعض النشرات الإذاعية فإن حكايات كثيرة حول الجذام الأسود قد طافت الدنيا وأصبحت تروى غناءً وأناشيد وترنيمات حول ما سببه الموت من الحزن.

عدة نشرات كتابية حول الموضوع كانت قد وزعت في معارض المنطقة الشمالية الشرقية. ولكن ليس من نشرة أو رواية أنصع حقيقة وأكثر صحة من هذه التي انتهت الآن إذ لم يبق شيء ليروى.

وقبل أن أنهى الحكاية، فإنني أكرر، وصدقوا إن شئتم: إن من قضى على
الجدام الأسود الذي اجتاح شوارع بوكين هن العاهرات، عاهرات موريكابيا وفي
طليعتهن تريزا! بأسنانها الحادة ومنها السن الذهبية، فإن تريزا باتيستا قد عضت
على الجدام وامتصته ثم بصقته في الغابة، وخرج الجدام طائراً إلى القطار، في هروب
خفي إلى نهر سان فرانسيسكو أحد محلات إقامته المفضلة، في حين أن الشعب كان
قد بدأ يعود إلى المنازل المهجورة.. وفي مغارة خفية فإن الجدام ينتظر الانقضاض
مرة أخرى. آه! إذا لم يحتاطوا فإن الجدام سيعود يوماً ليجهز على ما تبقى، والويل
للشعب! فأين يجد مرة أخرى لقيادة المعركة تريزا الجدام الأسود؟

القسم الرابع

الليلة التي نامت فيها تريزا باتيستا مع الموت

1

تلوى الأستاذ إميليانو غويدس، وقد انفك فمه المطبق تقبيلاً: "الويل لي يا تريزا"، ثم ألقى رأسه الفضي على كتف عشيقته. وبينما هي مسترسلة في التوقد الجنسي ذاقت في شفيتها طعم الدم وأحست في ذراعها بشدة قوية من أصابعه، وهوت جبهته تلامس كتفها، وبان في فمه نصف المفتوح الريق الأحمر، فأحست بثقل الموت فوق جسدها العاري. الموت يعانق تريزا باتيستا، يجثم فوق صدرها وبطنها، بين فخذيها وفي داخلها، ويمارس معها الحب، تريزا باتيستا في الفراش مع الموت.

هكذا إذا؟ الأعرج يتكلم عن المقعد والعاري عن المستر بورق التين. الانتقاد سهل وليس أبسط وأمتع من أن تنسب الأخطاء إلى الآخرين يا بني.. ولا يكلف جهداً القول إن تريزا باتيستا لم تنفذ الوعد وتركت الجميع في اللحظة الحاسمة بينما الاحتفال جاهز ليبدأ، والأطعمة موضوعة على الطاولة، وزجاجات الكاشاسا تملأ المكان. ولكن التفتيش عن الأسباب التي حدثت بها إلى القيام بهذا العمل هو ما يستدعي الجهد، وعند ذاك، لن يكون إلقاء القول على عواهنه.

يا بني إن في قعر حساء الأنغو لحمًا، ومن يفتش يحظى بالقطع الجيدة. ومن يريد أن يعرف حقيقة، إذا كان حدث ما بهذا الحجم قد وقع فعلاً، وما هي جوانبه وملحقاته، فعليه أن يخلط أوراق اللعب ويوزعها على المنهمكين والمهتمين في الأمر، وأن يخرج سائلاً الجميع، تماماً كما تفعل أنت الآن. ولا يهم إذا حدث أن

أدار أحد قليلي الأدب ظهره لك ولم يُعرك انتباهاً ولم يجبك إلى طلبك، فاحتقره...
أذهب من جديد ونقّب في حساء الأنغو وضع يدك في البشع والجميل، في القدر
والنظيف، وضع أنفك في كل مكان. إذا لمست بقرة أو قملة فلا تحزن، فهذا
يحصل غالباً. ولكن لا تصدق كل ما يخبرونك به، وانتبه إلى من يجيبك، ولا تخرج
من هناك وأنت تصدّق بشكل رخيص، فأناس كثيرون يحبون أن يعرفوا من حيث
لا يعرفون، وأن يخترعوا ما لم يكن له وجود.. لا أحد يريد أن يعترف بالجهل،
وهو يعد عدم معرفته بكل دروب حياة تريزا، نقصاً. انتبه، لكونك شاباً عصرياً
فمن السهل أن يخدعوك وأن تخدع نفسك.

فيما يتعلق بي يا بني، فإني أقول لك: ما حدث لاحقاً في مرفأ باهيا، في
الميناء الذي ولدت فيه، وضعت فيه، وفيه موطن قدمي، فإنهم يُصغون وينتبهون إلى
ما أقول وإني أستطيع أن أفيدك بعدة أمور متعلقة بتريزا وأزماتها، وبنظام التهذئة
والإضراب وجهل الشرطة، والسجن، والزواج والبحر اللامحدود، والعيش بالنضال
والحب... إني عجوز ولكني ما أزال قادراً على أن أنجب ولداً، ولقد أنجبت خلال
حياتي المظلمة أكثر من خمسين، وأثريت، وكان عندي عشرات من المراكب المبحرة
عبر الخليج، وإني اليوم فقير ولا أملك شيئاً، ولكني حين أدخل في مقاطعة الإله شانغو،
فإن الجميع يقفون ويطلبون أن أباركهم، وهناك أدعى ميغيل سانتا أوبا أريه، وفيما
يتعلق بتريزا فإني أضع يدي في النار دون أدنى خوف، صادقاً فيما أقول.

لم تحمل تريزا في صدرها الخيانة أبداً ولم تستعمل الغش... ولكن، معها،
أجل، فقد استعملوا الخيانة والغش واستغلوها بهما. وليس بسبب ذلك واجهت
القدر السيئ، ولم تدع سوء الطالع، معلنة نفسها ضحية العبث أو أمراً واقعاً، فاقدة
الأمل، مستسلمة. أبداً؟ لا أستطيع أن أجزم يا بني، فاعلم كم هو صعب إعطاء
النبا الأكيد. ولكن بعد الإمعان في التفكير أعتقد بأنها وصلت، وبعد تفاقم
الإضراب وأخبار البحر السيئة الآتية من البعيد، إلى التعب وعدم الاكتراث، وإلى
موانئ أمان غير أكيدة حيث تبلى سفن مهمة كمراكبي... جد متعبة ومكتفية
من الحياة، فقد انتهت دفعة واحدة إلى القبول بالعرض وأمرت بالاحتفال.. زواج
تريزا باتيستا ذاك أستطيع أن أخبرك به يا بني، وكوني كنتُ العراب فإني أعرف
الحبكة.. وكوني صديقاً من ناحية أخرى فإني أعطي الفتاة حقاً، فانظر جيداً.

سارت منطفئة الروح، مستسلمة للقدر، دون أمل، وتعبة إلى حدّ يكفي معه أن أقول لك إنها سمعت احتقار الشاب يشتمها بلغة وضيعة فلم تعره انتباهاً ولم تخرج وراء الجبان لمقاتلته كانت تعباً جداً من كل شيء حتى من القتال. ولكن أن حدث أن أحست بذلك الإحساس، فإن المسألة لم تكن إلا مرحلية. وكان يكفيها أن تتغلب على نكسة ريكونكافو لكي تعود تريزا كلية، تبتسم رافعة أشرعتها من جديد.

أستطيع أن أحدثك عن الزواج، أيها الشاب، عن إضراب سوق البغاء والتوقف عن العمل، وعن النساء العاملات هناك مجتمعات أمام الكنيسة، وعن مهمة الشرطة وسواها، عن كل هذا سأعلمك بالحقيقة، وكوني فقيراً ولكنني كنت غنياً فيما سبق، فإني أدعوك إلى أكلة سمك حارة من الطراز الأول في مطعم الراقية ماريادي سان بيدرو في أعلى السوق، ولكن، فقط، لا أستطيع أن أخبرك بما تطلب مني وتريد أن تعرفه عن حياة تريزا في مدة معاشرتها الأستاذ وموته. وليس عندي علم بهذه القصة، وما أعرفه عنها إنما سمعته سمعاً. وإذا كان الشاب يريد أن يعرف كيف حدثت الأمور فليذهب إلى أشتانسيا حيث حدث كل شيء. السفارة قصيرة، الناس طيبون، والمكان جميل، وهناك يلتقي النهران: بياوي وبياوتنغا ليكونا نهر ريال ويفصلا بين سرجيبي وباھيا.

ليختتم الحديث الطويل غير المنتظر في تلك الليلة من يوم الأحد، همس الأستاذ إميليانو غويدس:

- "ليتني، ليتني كنت عازباً لأتزوجك. لا، لأن الزواج يمكن أن يغير شيئاً مما تعنين لي" كانت الكلمات غزلاً، وموسيقى خفية، والصوت الأليف يغرق في الحياء بصورة غير متوقعة، ويبدو الصوت أيضاً أكثر خجلاً في سمع تريزا: "امرأتي..".

خجل مراهق يظهر بشكل مفاجئ، وحزن مهيم، وكائن بلا حماية. هكذا بدا، كأنه في تناقض كلي مع شخصية الأستاذ القوية، المعتاد على الأمر والنهي، الوثاق من نفسه، المستقيم الصلب، الوقح والمتطلب عندما يقتضي الأمر أن يكون في أغلب الأحيان لطيفاً ذا قلب دافئ كأنه سيدة في تصرفه المرهف، إقطاعي كبير، وصاحب أرض ومقاصب كثيفة ومصنع سكر ولكنه أيضاً رأسمالي مديني، مصرفي، رئيس مجلس إدارة عدة شركات وخريج كلية الحقوق، ولم يكن يخجل بقول هذا.

إنّهُ الأستاذ إميليانو غويدس أكبر آل غويدس أصحاب مصنع كاجازيراس
والمصرف الإقليمي في باهيا وسرجيبي وشركة إكزمبورتكس. ش. م. وهو
السيد الحقيقي لكل هذا، المقاول، الشجاع، الأمر الناهي، الكريم، أياً كان الكلام
عنه، فإن الصوت هو الذي فعل في تريزا فعله.

2

هناك في حديقة القراصيا، وقمر أشتانسيا ينساب ذهباً فوق شجر المانجا
والأباكاتي والفسق، وعطر الياسمين يطير مع نسيم نهر بياوتنغا، وبعد أن قال لها
بمرارة لم تتخيل أن تسمعها تريزا في يوم، وإن كانت قد تكهنت بأمور كثيرة،
وشيئاً فشيئاً على مرّ الأيام، فقد غمرها بين ذراعيه وقبّل شفّتها ثم خلص بصوت
متأثر مرتجف: "تريزا، حياتي، حبي، ليس لي سواك في هذا العالم...".

ثم وقف، كأنه شجرة باسقة: شجرة كثيفة الأوراق وذات ظل مغرٍ، طيلة
السنوات الست تلك فإن شعره الرمادي وشاربه الكث قد غديا فضيين، ولكن وجهه
ما يزال منبسّطاً وأنفه مشربباً، وعيناه نافذتين وجسده قوياً، ولا تبدو عليه السنوات
الأربع والستون الكاملة من عمره، وبابتسامة خجلى مختلفة عن ضحكته العريضة
حدّق في وجه تريزا على ضوء القمر كأنه يطلب منها الصفح عن الإيحاء بالخشونة،
والحزن، وحتى عن بعض الغضب الذي وسم الحديث، علماً أنه حديث حب نقي.

وبينما هي ما تزال ممدّدة في الأرجوحة، مصابة في العمق، في أعماق أعماقها
إلى حدّ أحست معه بعينيها مبللتين وبقلبها مفعماً بالصيغة اللبقة التي صاغها، فإن
تريزا رغبت في أن تقول له أشياء كثيرة وأن تعبّر له عن حب كبير، ولكن، وعلى
الرغم من الكثير الذي تعلمته بصحبته خلال هذه النصف دزينة من السنوات، فإنها
لم تجد الكلمات المناسبة. أخذت يده التي مدّها إليها ورفعت نفسها عن الأرجوحة
لترتمي بين ذراعي الأستاذ وتمنحه شفّتها من جديد، ماذا تقول له زوجي، عشيقتي،
أبي، صديقي، ابني؟ "ضعي رأسك على عنقي واستريحي يا حبيبتي". جبل من
الأحاسيس والمشاعر، والاحترام، والعرفان بالجميل، واللباقة، والحب، ولكن
الشفقة، أبداً... الحب؟ أجل... الحب والإخلاص، كيف يقول لها كل هذا دفعة
واحدة؟ "ضعي رأسك على عنقي واستريحي يا حبيبتي".

أكثر من رائحة الياسمين التي تعطر المكان، فقد اشتمت تريزا في صدر الأستاذ رائحة ذلك العطر السري، الخشبية الناعمة، والتي تعلمت أن تحبها، لقد تعلمت معه كل شيء. عند انتهاء القبة لم تقل إلا: إميليانو، حبيبي إميليانو! كان ذلك كافياً له، وكان يعرف كم كان يعني ذلك لأنها كانت دائماً قد نادته بالسيد ولم تقل له قط أنت أو أنتم وحتى في ساعة المطارحة الغرامية إذا سمح بأن تعبر له مرة عن حبها، لقد تجاوزا العقبات الأخيرة.

- لن تناديني أبداً بالأستاذ بعد اليوم وحيثما كان.

- "أبداً لن أناديك بغير إميليانو"، ست سنوات كانت قد مرت منذ أن انتشلها من سوق البغاء.

وبقوة الأربع والستين سنة من العمر التي قضاه حافلة، فإن إميليانو غويدس، ودون جهد، رفع تريزا بين ذراعيه وأخذها إلى الغرفة من بين ضوء القمر ورائحة الياسمين.

مرة، حملت كذلك تحت المطر، في بيت النقيب، وكما تحمل العروس في ليلة عرس، ولكن عرسها هناك كان تزويراً وخيانة، واليوم، فإن من يقودها هو الأستاذ، وهذي الليلة من الحب كأنها ليلة المسرات الأولى وقد سبقتها سنوات طويلة من التعايش اللبق ومشاركة فراش الملذات والمصاحبة بمعناها الكامل. "ليتني كنت عازباً لأتزوجك". إنها لم تعد عشيقة وصاحبة غير شرعية على الطاولة والبيت الموضوعين في خدمتها، إنها زوجة والزوجة الحقيقية.

خلال السنوات الست تلك لم يكن عندها في الفراش مع الأستاذ إلا لحظة متعة كاملة ومطارحة عشق بمعناها الكامل. منذ الليلة الأولى عندما ذهب الأستاذ ليأتي بها من نزل غابي حين وضعها وراءه على صهوة جواده وخرج بها من هناك. أثبت أنه معلم رفيع الحس. بين يديه الخبيرتين الصبورتين أزهرت تريزا امرأة لا تدانيها امرأة، ولكن، في تلك الليلة من الياسمين المتفتح، والأسرار والخجل التي لا حدود لها، والتي فتح فيها الأستاذ قلبه وغسل صدره وكسر طين الكبرياء فيه، وعندما غدت تريزا سنده على حياته المرتبكة ولبسماً لجرحه وفرحاً، وزوجته التي يشفق عليها في تلك الليلة الوحيدة من السلم مع الحياة، فإن الاهتمام كسا المتعة كساء ذهب بها إلى أبعد الحدود.

وخلال وقت الاسترخاء تبادلا مسرات العشق، وألغيب العرسان في ليلة الفرح، قبل أن يذهبا في رحلة خبيب: الفارس والمطية، الأستاذ إميليانو غويدس وتريزا باتيستا. وعندما همَّ الأستاذ بامتطائها، فقد تلقفته تريزا تماماً كما رآته في مزرعة النقيب وقبل أن تأتي لتعيش معه: ممتطياً مهراً أصيلاً وفي يده اليمنى رسن الفضة، ويده اليسرى يفتل شاربه ويحترقها بعينين ثاقبتين، فعلم أنها أحبته منذ ذلك الوقت عندما كانت عبدة تموت من الخوف، فقد تجرأت أن تنظر إلى رجل... كانت المرة الأولى.

عارية من الملابس ومن كل غطاء ولكنها كانت مكسوة بالقبلات، تلفه بذراعيها من أعلى، تأسره برجليها وتشده إلى بطنها، وتنتهي المطية إلى ميادين بلا حدود مطلقاً لها عنان اللذة... حصان لا يتعب عبر الجبال والأنهار، يصعد، ينحدر، يأخذ طرقاً فشعاباً ضيقة ويجتاز المسافات ماضياً عبر الغسق والشفق، والظل والشمس، آه، إميليانو، حبي، ويصل الاثنان معاً إلى خلية العسل... التفّ اللسانان على بعضهما وأصبح العناق هو المسيطر عندما انفتح الجسدان على الرجفة: "ويلي يا تريزا"، قال العشيق متعجباً، ثم سقط ميتاً.

3

وهي تقفز عن الفراش أحست تريزا بثقل الموت فوق صدرها وبطنها وبشجرة العشيق الأخيرة وارتعاصته العميقة؛ هل كانت ارتعاصة ألم أم لذة؟ "ويلي يا تريزا"، قال ذلك ومات وهو في غمرة الحب. الآن أصبح رفيقها في الفراش غير ذي حركة، وهي ما تزال في أوج توقدها الجنسي تحترق شبقاً وترخي نفسها للنشوة إلى أن أحست بثقل الموت. لا تستطيع أن تصرخ ولا أن تطلب النجدة مأخوذة من صدرها وحنجرتها ومن فمها الملطخ بالدم الآتي من الفم الآخر. حتى في الموت أحست بطريقة اختيار الأستاذ لساعته الأخيرة في السرية المطلوبة.

مضت عدة دقائق أحست خلالها تريزا بنفسها مجنونة ملعونة، وقد اتخذت الموت عشيقاً ورفيقاً في الفراش واللذة. عيانا جاحظتان، خرساء، ضائعة، جامحة، أما الفراش ذو الشراشف المغسولة بماء الخزامى، فلا تستطيع أن تستوعب الأستاذ الذي خانته قلبه المتعب من الكبرياء ونحيبات الأمل: هو الموت ممتدداً في حالة

العشق، وتريزا باتيستا قد تلقتة صدرًا إلى صدر بين ذراعيها، وساقها وفخذيها
وشدته إلى بطنها فدخل الموت آخذًا إياها ومعطياً نفسه لها.
انتهى الاحتفال. وفجأةً كان الموت، وحده الموت، يمتد في الليل ويتمدد على
الفراش ويبسط نفسه على بطنها ويسم بميسمه قدر تريزا باتيستا.

4

بجهد جهيد استطاعت تريزا أن تضع على نفسها فستاناً وتهرول لإيقاظ
الزوجين الموظَّفين لولا ونينا، ولمظهرها، وكأنها أصيبت بالجنون، تساءلت الخادمة
متعجبة:

- ماذا حدث يا سيدة تريزا؟

ووقف لولا في باب الغرفة وقد انتهى من ارتداء قميصه، فتمكَّنت تريزا من
أن تقول له:

- اذهب سريعاً وقل للأستاذ إماريليو ليأتي إليَّ بأقصى سرعة لأن الأستاذ
إميليانو بحالة سيئة.

خرجوا من الغرفة راكضين، لولا خارجاً إلى الشارع ونينا داخلة البيت شبه
عارية وهي تحاول أن تمسك بنفسها، وفي الغرفة، لمست وتفحصت الشراشف
الملطَّخة والموت، ووضعت يدها على فمها وهي تشهق: "ويلي لقد مات العجوز
وهو يمارس الجنس مع هذه الملعونة".

وعادت تريزا بخطوات بطيئة، وهي ما تزال دون القدرة على السيطرة التامة
على رجليها وانفعالاتها، وغير متماسكة التفكير في نتائج الحدث... نينا راکعةً أمام
الفراش، تتمم صلاة، وبأسفل عينيها تتجسَّس على وجه السيدة المتحجر، السيدة
هي امرأته بينما هي موظفة لدى الأستاذ. لماذا لا تركع اللعينة، هي الأخرى، جاثية
تصلي وتطلب الغفران من الله لها وللمرحوم؟ أجهدت نينا نفسها في التفتيش عن
الدموع، وكونها شاهدة على نزوات الصبا لدى الثري العجوز، فإن الخادمة لم تجد
أية مفاجأة في تلك الطريقة المتفردة في الموت. كان لا بد للعجوز أن ينتهي هكذا
نتيجة عسر هضم. قالت نينا مرة وكررت قولها لولا المرأة المكلفة بغسيل الملابس:
"في يوم من الأيام فإنه سينتهي في الفراش وهو يعلوها وجهاً لوجه".

خلال المدة الأخيرة، لم يكن الأستاذ يغيب أكثر من عشرة أيام ليعود إلى أشتانسيا، وعندما كان يضطر إلى التأخر نتيجة المشاغل الكثيرة، فإنه كان يعود ليملك وقتاً مضاعفاً وطيلة الأسبوع ويقضي ليل نهار في حجرة تريزا الخاصة وهو يعبث في ثديي التائهة وصولاً إلى الرجفة. عجوز أحق، ودون أن يقيس قوته ويتأمل في طاقته معتنياً بنفسه، فإنه راح يفرط في قواه مع شابة ملتهبة دون أن يرى غيرها أمامه بين كل اللواتي عرضن أنفسهن عليه ابتداء من نينا، بينما هو متعلق بالممر الضيق، دون أي اعتبار لسنه المتقدمة وللعائلات الوجيعة، ولم يكن قط راضياً عن الاستقبال في بيت عشيقته لرئيس البلدية ومدير الشرطة والسيد القاضي وحتى للأب فينيسيوس، وكان يخرج معها في الشارع ممسكة بذراعه ويذهبان إلى جسر نهر بياوي ليسبحا معاً في كاشويرا دي أورو في بياوتينغا، وقليلة الحياء تبدو بالمايوه مظهره جسدها، وهو عار يستر شجرة التين وثمارها الناضجة بواسطة لباس صغير؛ كل ذلك كان خلاعات غريبة تدمر العادات الصالحة في أشتانسيا. وهذا عار، فإن العجوز كان ما يزال يبدو فتياً جميلاً، ورجلاً ما زال في تألق حسن، ولكن من ناحية السن، فقد كانت تفصله أربعون سنة عن تريزا. كان لا بد من أن ينتهي نتيجة كل ذلك، فالله صالح ولكنه قبل كل شيء عادل ولا أحد يستطيع أن يتكهن بساعة العقاب.

عجوز ملتهب شبقاً... ومع ما كان يبدو عليه من القدرة والعافية كان سيكمل الخامسة والستين من عمره، وقد سمعته نينا يتحدث عشية قبل أمس مع الأستاذ إماريليو، عن العمل والمتعة، أما عن المشاكل والمصائب فإنه لم يتكلم، وكأنه لم يعرفها... رجل مرتاح يوزع الورق كشاب عصري وهو يتبجح بنفسه، لقد كان في الفراش، أو على أريكة صالة الاستقبال، أو الأرجوحة، أو في أي مكان وفي كل ساعة، صاحب المتعة المستمرة كما لو كان عمره ثمانية عشر عاماً، والأبعد من ذلك فإن ما يقل في السن المتقدمة لم يكن يقل عنده هو، ذلك الخاطئ المتحجر.

في الليالي الساطعة بالنجوم، والقمر ينساب ذهباً وفضة، عندما كان لولو ونينا يأويان إلى الفراش، فإن الرذيلين، الفاجر وقليلة الحياء، كانا ينصبان شبه خيمة تحت أشجار المانجا الكثيفة، وهناك كانا يقومان بكل شيء تاركين السرير المصنوع من

خشب الجاكاراندا والفراش الوثير وشراشف الحرير الناعم في الغرفة المطلّة على مجرى النهر. وكانت نينا تشق الباب المطل عليهما قليلاً، وتنظر عبر ضوء القمر تقلّب الجسدين وتصغي في صمت الليل إلى التنهدات والآهات والكلمات الفالته شعراً. كان لا بد للأستاذ أن ينتهي بجلطة إذ كان دمه حاراً وقوياً. كان هادئاً، وقلمها كان يثور، ولكن الدم كان يصعد إلى رأسه إذا حدث أن ثار أو غضب: فيحمر وجهه، وتتقد عيناه ناراً، ويزأر صوته فيصبح قادراً على ارتكاب أي عمل، لقد رآته نينا هكذا، مرة واحدة، عندما قلّل أحد بائعي القرع والبطايا الحلوة من احترامه: فقد أخذ البائع من رقبته وراح يصفعه دون توقف؛ اكتفى بعدها عند حركة وكلمة من تريزا جعلته يوقف العقاب ويستعيد هدوءه، أما الوقح، وعنقه ملطخة بعلامات تركتها أصابع الأستاذ، فقد هرب تاركاً سلة الخضار؛ أمرت تريزا بالإتيان بكأس ماء، وعندما جاءت بها الخادمة وجدته غارقاً في العناق والقُبْل ورأسه مسند إلى عنق فتاة الهوى؛ أما المخلوق المسكين فقد عاد ليأخذ سلة القرع ويعتذر عن عمله الأحمق، وقد استمر اشمئزاز الأستاذ منه بادياً على ملامحه، هذه المرة أخذ أمثلة وأكثر.

5

لماذا تبقى تريزا واقفةً هناك، ولا تأتي للصلاة على روح المرحوم؟ رجل صالح ومستقيم، بلا شك، ولكنه في رحيله الأبدى مع خطيئته المميتة، فوق العشيقة، وكونه متزوجاً وأباً وجداً، فإن إنقاذه لا يتم إلا بالصلاة الكثيرة والقداسات والندور والمزيد من أعمال البر والإحسان؛ ومن الذي يجب أن يتضرع أكثر من سواه إلى الله غير هذه المنحرفة الأخلاق؟ يجب أن تصلي وتندم على الحياة الخاطئة التي عاشتها مع زوج المرأة الأخرى، وعلى الرذائل التي بها فرضت عليه المستحيل وبددت قوى العجوز، إن العقاب الذي استحقه يقع عليها هي وحدها.

عجوز مرح، يحاول أن يظهر نفسه بمظهر القدير، وعلى مستوى قدرة امرأة عشرينية في البيت، ملتهبة، لا تكتفي، وهو يلعب دور الذكر الشاب القوي، المرة تلو الأخرى. لماذا لم تتدبر صاحباً من شباب المدينة لتوفّر على الحمار العتيق قواه؟ إنها وسخة إلى حدّ المحافظة على نفسها غير قابلة للمسّ أمام القاسي العود،

المستقيم، المناضل في استهلاكها، من يدري، فقد تكون الفنانة في الهوى قد قتلتها بالإصرار على الخطيئة وبهذه السرعة لتضع يدها على المبلغ الكبير دفعة واحدة.

لماذا لا تركع على ركبتيه لتصلي على روح الخاطيء؟ إنه لا يحتاج فقط إلى الصلاة، بل يستحق الأناشيد والزيارات والقداسات وأفعال الإيمان. لقد تعودت نينا أن تسترق الأحاديث عندما تقلب البيت مرتبة إياه هنا وهناك منتبهة إلى كل ما يحدث وهي تقوم بالعمل؛ فعند بداية الليل، وبينما تصل إلى الحديقة مع صينية القهوة سمعت إشارة إلى وصية في حديث الأستاذ مع الصاحبة. لماذا لا تشتكي القدرة، ولا تغطي وجهها بالسواد، ولا تتلو صراخاً وتنهداً، ولا يظهر عليها شيء من كل هذا؟

باقية هناك واقفة، بعيدة، صامتة. إن عليها، في الحد الأدنى، أن ترضي الموجودين بينما تنتظر الوصية، ومن ثم تذهب للتمتع بالحياة في أراكاجو وباهيا، وهي تبدد ثروة الأستاذ مع شاب عصري قادر أن يتحمل متطلباتها الجنسية التي لا ترتوي. إن الثروة التي ستضع يدها عليها قد جمعت بالاحترام حتماً، وستسرق قليلة الشرف المال من الأولاد والزوجة الشرعية التي من حقها الحصول على كل الميراث. إن العليمة، المتفenne، الحرّة، سترتكب خطيئة جديدة من الخطايا المميتة.

المخادعة، اللاأخلاقية، التي لا قلب لها، بعدما قضت عليه وامتصته حتى الموت، فإنها لا تشكر حتى أفضل ونفقات المليونير الفقيد ذي اليد المفتوحة، مجنونها، وحتى الوصية لا تذكرها بصلاة أو بذرف دمعة. في عينيها الناشفتين ضوء غريب، وفي عمقهما فحم أسود، وتستمر نينا باستنكار أعمال العجوز والملعونة وهي تصلي موجوعة الضمير.

6

بعدما ذهبت نينا لتعتني بهندامها وتغلي ماء، بقيت تريزا وحيدة في الغرفة، تنتظر الطبيب، وجلست إلى حافة الفراش وأخذت يد إميليانو اليايسة تقول له بصوت ذي لهجة حنين كل ما لم تعرف أن تقوله في بداية الليل، في الحديقة، تحت ظلال الشجر، والقمر المنير، وفي الأرجوحة المتحركة خفيفاً، حيث تحدث الاثنان، وكان الحدث اللامحدود بالنسبة إلى تريزا غير منتظر ومفاجئاً، بينما كان الحديث الأخير بالنسبة إلى الأرجوحة.

كان دائماً متحفظاً عند ذكر عائلته، وفجأة أفصح عن كل شيء في تقرير شفهي من الأحران، والاشتمزاز الكثير، بسبب عدم وجود التفاهم والعطف والوحدة القاتلة في بيت لا حنان فيه، وكان صوته مجروحاً، حزيناً، محمومًا. ليس له في الحقيقة غير تريزا الفرحة الوحيد الذي اعترف أخيراً بأنه إزاءه عجوز متعب، ولكن دون أن يتخيل نفسه مع ذلك يقف عند عتبة الموت. لو عرف لكان تكلم بذلك الحديث من قبل ولكانت الوعود منفذة الآن. ولم تطلب تريزا شيئاً ولم تطالب بأي شيء، كائناً ما كان، وتكتفي بحضور الأستاذ ولباقة.

"الويل لي، يا إميليانو، كيف أستطيع أن أعيش دون أن أنتظر وصولك المفاجئ، دون أن أركض إلى باب الحديقة عندما أتبين خطوك الثابت وأسمع صوتك السيد، ودون أن أرتمي على صدرك العريض وأتلقى قبلك وأحس على شفتي لهفة شاربك ودفء لسانك؟ كيف أعيش من دونك، إميليانو؟ لا يهمني الفقر والبؤس والعمل الشاق والعودة إلى سوق البغاء وحياة الضياع. ما يهمني هو غيابك فقط، ألا أسمع كلامك بعد اليوم، وضحكك العريضة تجوب أرجاء المنزل والحديقة وغرفتنا، ألا أحس بلمس يديك الثقيلتين الخفيفتين البطيئتين السريعتين واللتين هما الآن باردتان برد الموت، وألا أشعر بدفء قبلك وثقتك الأكيدة والامتياز بالعيش معك، إن امرأتك الأخرى ستكون أرملة، أما أنا فساكون أرملة ويتيمة".

لقد عرفتُ اليوم وحسب، أن ما أحسستُ به تجاهك كان حباً من النظرة الأولى، فانتسبتهُ فجأة. عندما رأيتك تصل إلى مزرعة النقيب متجلبياً بالفضة، وأنت المتكلم اللبق في الأرجوحة إميليانو غويدس صاحب مصنع كاجازيراس فقد نظرتُ يومها إلى رجل ووجدته جميلاً ولم يحدث لي هذا قط من قبل، الآن لم تبق لي إلا الذكرى، الذكرى ولا شيء آخر، إميليانو".

وهو يمتطي حصاناً أسود مسرجاً بالفضة البراقة في وهج الشمس، منتعلاً الجزمة مع موهبة الأمر والنهي، هكذا رآته تريزا وهو يقترب من بيت المزرعة وهي حينذاك طفلة بسيطة جاهلة، مستعبدة، لاحظت المسافة التي تفصله عن الآخرين، في غرفة الاستقبال صبت له القهوة المصنوعة لتوها، بينما هو إميليانو غويدس واقف وبيده السوط ويفتل باليد الأخرى شاربته، وهو يتأمل فيها وقيسها من أعلى

إلى أسفل... بجانبه فإن النقيب الرهيب لم يكن شيئاً، بل خادماً غبّ الأوامر، متملقاً... عندما أحست بنظرة عيني الصناعي الثقيلة اشتعل في تريزا أتون نار أحس الفارس بوهجه. وبينما هي تذهب بصرة الملابس باتجاه النهر الصغير كان ما يزال مطلقاً عنان حصانه للريح عبر الشمس اللامعة على الفضة، وعند الرؤية الأخيرة غسلت تريزا عيني البساطة من حولهما.

بعدها، عندما تعرّفت إلى دان وتولّعت به حتى الجنون، وبعقل سلبها إياه الشاب الجميل المغربي، تذكرت صورة الصناعي، وماثلت بين الوجهين دون أن تنتبه. وكل ذلك حدث في وقت يؤسف عليه وعندما طلع عليهما النقيب في الغرفة بصورة مفاجئة وهو يحمل على رأسه القرنين ويده السوط، فإن الأستاذ إميليانو غويدس كان يتجول سائحاً في أوروبا مع عائلته، وعندما عاد إلى باهيا بعد عدة أشهر، عرف بكل الأحداث في كاجازيراس الشمالية. فقد جاءته إحدى قريباته، السيدة بياتريز، مفتشة عنه فور وصوله، يائسة وهي تقول "إنك زعيم العائلة يا ابن عمي". إنها أنثى لا تتعب من الحياة كان قد ضاجعها أوشتاكيو في أعياد آذار قبل أن يتزوجها. لقد كانت في ورطة، وجاءت تطلب تدخل الأستاذ ومساعدته:

- إن دانيال قد وقع في ورطة محرّجة يا ابن عمي.. تورط؟ لا، لقد تمّ توريطه، يا ابن عمي إميليانو، وإذا به ضحية عاهرة من أسوأ العاهرات، أفعى حقيقية.

كانت تريد أن تمنع المحاكمة عن ابنها الذي وضع القاضي السافل الجديد اسمه في الدعوى كونه شريكاً، وفي وضع مضحك، وكانت تعني بالقاضي ذلك المرشح لوظيفة قاضي الأمور المستعجلة في كاجازيراس، الوظيفة التي جاءت من نصيب أوشتاكيو نزولاً عند طلب الأستاذ إميليانو، هل تذكر يا ابن عمي؟ والآن لكي ينتقم من الشاب المسكين، المجرد من ذاته، فقد طلب من المدعي العام توقيف دانيال مع الداعرة، وكانت تريد أيضاً، فيما تريد، أن يتم نقل زوجها إلى محكمة أخرى لأنه لم يعد ممكناً أن يخدم في كاجازيراس الشمالية بسلام بسبب العدالة ولم يستطع أن ينظم شعراً؛ أوشتاكيو لا يرغب في العودة، وهو على حق، ولكنه أيضاً لا يستطيع أن يبقى في العاصمة في إجازة دائمة، جاعلاً من حياة العائلة جحيماً. وتستطيع السيدة بياتريز، أخيراً، أن تطلب من ابن عمها الحبيب منديلاً نظيفاً حتى

تمسح به دموع الزوجة والأم، فمع هذه الأمور الباعثة على الاشتمزاز ليس من شيء بقادر على أن يفى بالغرض، "يا ابن عمي".

عندما تبين هوية تريزا في التقرير الغامض الذي سرده السيدة بياتريز، فإن الأستاذ، وقبل أن يهتم بموضوعات قريته، اتخذ الإجراءات اللازمة للتأمين على الفتاة فاتصل من باهيا بلولو سانتوس الموجود في أراكاجو. صديق موثوق، وصاحب براعة ثابتة، فإن اللسن كان عليمًا قديرًا في أمور القانون وكيفية التلاعب بها:

"أخرج الفتاة من السجن وأنقذها من كل تبعات القضية وضعها في مكان أمين وأقفل الملف".

لم يكن صعباً إخراج تريزا من السجن؛ قاصر، ولا تزيد على خمس عشرة سنة، وسجنها في معتقل عام يشكل خرقاً فاضحاً للقانون، وهذا، دون التحدث عن أعمال التعذيب؛ وتجارب القاضي في الحال وغسل يديه من أعمال التعذيب وقال إنه لم يأمر أبداً بالضرب، وإن يكن قد حدث مثل هذا فبأمر مدير الشرطة، صديق النقيب. ولكن فيما يتعلق بإقفال القضية فلا! إذ إن ذلك سيظل غير مستوف الشروط، وهو مستعد لأن يقيها قائمة حتى النهاية. لم يرد اللسن أن يلح كثيراً كونه من منطقة سرجيبي، وكون كاجازيراس الشمالية تقع في منطقة باهيا، وبعدها وضع تريزا في عهدة الراعيات في الدير، اتصل بالصناعي وأخبره برفض القاضي البديل إقفال القضية ومكث في أراكاجو ينتظر الأوامر الجديدة.

وإذ كانت تجهل تدخل الأستاذ، وبالاتفاق مع غابي التي راحت تفتش عنها في السجن محاولة أن تضعها تحت رعايتها، فقد هربت تريزا من الدير وانخرطت في سلك الحياة العامة.

7

بدين ومتقدم في السن، تميزه الجدية والشراسة في الأكل، يصغي في الاجتماع إلى الجميع وهو يلتهم من كل شيء بلا حجل، إذ إن الدكتور إماريليو هذا جعل من نفسه خلال السنوات الست الأخيرة صديقاً حميماً للأستاذ المترس طاولة الطعام الغنية التي تزدها تريزا بهاء؛ وكان الطبيب يأتي ليتذوق الطعام عند كل وليمة، ظهراً ومساءً على السواء، تقام على شرف إميليانو. ففي أشتانسيا كلها لم

يكن ممكناً أكل طيبات كهذه إلا في دار جوان ناسيمنتر فيليو، أمّا الخمر والليكورات الفرنسية الآتية في حقائب الأستاذ، فما أطيبها؛ لم يكن يماثلها شيء أبداً وتعددت زيارات الصناعي إلى أشتانسيا وتمدد وقت الإقامة أيضاً: "في يوم يا عزيزي إماريليو، سأتي لأبقى إذ ليس من أرض أطيب من أرض أشتانسيا ليمضي الإنسان شيخوخته بهدوء وتمهل".

على الباب وقع ضربات يد قوية. ودخل الطبيب دون أن ينتظر دعوة الأستاذ إلى الدخول، لأن الرسالة الشفهية التي أرسلت إليه خطيرة: إن هؤلاء الرجال الأقوياء، العصاة على المرض والتوعك، كأنما صنعوا من الفولاذ، عندما يمرضون فإن المسألة تكون دائماً خطيرة. عندما سمعت بضربات يد الطبيب، خرجت تريزا من الغرفة، وجاءت لمقابلته. فاستنفر الدكتور إماريليو أكثر عندما رأى الصبية: - "هل المسألة بهذه الخطورة يا عرابتي؟" كان يناديها بالعرابة ملاطفاً إياها، وكونه طبيباً رسمياً للعائلة فقد عالج تريزا بعد عملية الإجهاض، ومنذ ذلك الحين أصبح هو العراب.

من ناحية المطبخ وصلت صرخات لولا ونينا المتأوهة، بينما أخذت تريزا يد الطبيب الممدودة:

- لقد مات الأستاذ إميليانو.

- ماذا؟

هرول الدكتور إماريليو إلى الغرفة، أشعلت تريزا الضوء القوي قرب الكرسي الوثير ذي الذراعين حيث كان يجلس إميليانو ويقرأ بصوت عالٍ على مسمع تريزا المستمددة على الأرض عند قدميه. لمس الدكتور الجثة فوجد الشرشف مبتلاً "آه الويل لي"؛ بعيدة، صامتة، كانت تريزا تتذكر دقيقة إثر دقيقة السنوات الماضية.

8

كانت ردة فعل الأستاذ مرتبكة وعصبية. عندما وصل إلى كاجازيراس الشمالية وعلم بوجود تريزا في نزل غابي، قرّر أن يرسل الأخيرة إلى الجحيم لكنه فكّر أنها لا تستحق العناء. هو، الأستاذ إميليانو غويدس يتدخل ويزعج صديقه طالباً منه القيام باللازم، صديقه المحامي القدير، البارع، يأتي به من أراكاجو

ليخرجها من السجن ومن الدوامة التي هي فيها، ويضعها في مأمن، وهي البلهاء، بدلاً من أن تنتظر فإنها تخرج إلى سوق البغاء كأنما هي ذات دعوة إلى الدعارة لا تقاوم، فلتمارس الدعارة إذاً.

في أعماق نفسه رأى الأستاذ نفسه منزعجاً من طريقة تريزا في التصرف ولكنه كان أكثر انزعاجاً لأنه خُذع في حكمه عليها عندما عدّها جديرة بالاحترام والحماية. حين قابلها في مزرعة جوستينانو، رأى في عيني الصغيرة السوداوين لهباً نادراً وذا معنى. وكذلك فإن الأحداث اللاحقة، على الرغم من غموضها وانحيازها كما سردتها بياتريز وأوشتاكيو، أكدت له ذلك الانطباع الأول الذي كونه. لقد أخطأ، بأكثر مما يمكن تصوره، واعتقد نفسه إزاء واحدة من أسوأ العاهرات، وأعطى مع ذلك الحق لقريته بياتريز الأم الوفية، إن توقد العينين لم يتعدّ كونه شعاع شمس أضاء وجهه: "صبراً".

وكون الفراسة في معرفة الأشخاص، وتمييزهم، عنصراً أساسياً في القيادة التي يمارسها الأستاذ، الإقطاعي، الصناعي، المصرفي، فإنه كان يشعر بالاعتزاز عندما يحكم على شخص من النظرة الأولى، ولهذا أيضاً، كان صعباً عليه أن يخفي خيبة الأمل عندما يخطئ في حكمه... وجعلته خيبة الأمل يعود إلى القاضي البديل وهو بحاجة إلى أن يفرغ في أحد الخيبة التي تولّد طعم المرارة في حلقه.. واتجه إلى مركز البلدية حيث تقع المحكمة في الطابق الأعلى... ووجد هناك المسجل الذي عندما رأى الأستاذ لم يبقَ له سوى أن يطلب منه البركة: "أي شرف هو هذا، أستاذ! إن القاضي لم يصل بعد ولكنني سأنادي عليه في الحال حيث يقيم سيادته في نزل أغرينا، قريباً من هناك"، "واسمه؟" "الأستاذ بيو ألفيز، مساعد قضائي منذ سنوات عديدة وقد أصبح قاضي الأمور المستعجلة في باراكاسياو": وبينما ينتظر، وقف الأستاذ عبر النافذة يتأمل في الشارع الحزين ما زاد خيبة الأمل فيه، فهو لا يحب أن يناقش، فكيف بأن يخدع؟ خيبة أمل أخرى: ومن الآن ستزداد متاعبه النفسية.

كان وحيداً، غارقاً في ظل المشاكل الظاهرة في عينيه، مع رجفة عصبية في شفته، عندما دخل القاضي البديل الأستاذ بيو ألفيز مليئاً باللياقة والترحيب، كان يعد نفسه ضحية المظالم الدائمة وهو يتقهقر دائماً مخلياً مكانه ودوره للمحميين، ويظن نفسه دائماً ضحية مؤامرة يدبرها له رجال الإكليروس والحكومة والشعب مجتمعين معاً ليجندلوه أرضاً لدى كل خطوة يخطوها.. حاكم مريض، يد ثقيلة في

إلقاء الأحكام، لا حساسية عنده تجاه أي دليل أو برهان سوى كلمة القانون. عندما كانوا يأتون ليحدثوه عن الليونة، والتفهم، والشكوى، والصفح، والمشاعر الإنسانية، كان يجب متباهياً:

- إن قلبي هو بيت القانون وفيه حفرت الحكمة اللاتينية: "دور أليكس ساد ليكس". ممتلئاً غيرةً وحسداً، جعل من نفسه شريفاً ومسؤولاً ورأسماً ذا فائدة قليلة. وكان يخاف من الأستاذ إميليانو، ويضمر له الكره محملاً إياه مسؤولية بقائه طويلاً في المساعدة القضائية الوضيعة: إذ كان قد ترشح لرتبة قاضي أمور مستعجلة في كاجازيراس الشمالية حيث كانت زوجته قد ورثت مروجاً واسعة لتربية القطعان، ولكنه بقي مساعداً قضائياً، بينما أسندت الرتبة لمحام من العاصمة كان لقبه الوحيد الزوج المقرن لإحدى قريبات آل غويدس وكان قد تم تعيينه هو بالذات في المنصب عندما تدخل إميليانو للحصول على اللقب لأبي القرنين ذاك؛ وبعد زمن طويل وبثمن باهظ تمكن من الحصول على مرتبة قاضي الأمور المستعجلة وهو يخدم في محكمة باراكاو في البلدية الرئيسية، ولكن هدفه كان ما يزال كاجازيراس الشمالية حيث يستطيع أن يوسع نفوذه. والآن، وقد أرسل ليكون بديلاً عن الأستاذ أوشتاكيو في القضية موضوع النقاش، ظن أن ساعة الانتقام قد أوفت، وفي رأيه أن دانيال سيكون المتهم الرئيسي وليس فقط الشريك، ولكن مع الأسف: "دورا ليكس سيدا ليكس" فمن رفع السكين كانت الفتاة.

بعد القاضي دخل الكاتب وهو يكاد يموت فضولاً، وبحركة أرسله الدكتور إميليانو إلى الخارج وبقي وحيداً مع القاضي.

- "أتريد أن تتحدث معي، أستاذ؟ إني في تصرفك" أجهد القاضي نفسه محاولاً أن يحافظ على نفسه قوياً وجديراً ولكن شفته خائنه قليلاً بحركة عصبية.

- "اجلس، سنتحدث"، أمر إميليانو كما لو كان هو القاضي، والسلطة العليا هناك، في المحكمة.

احترار القاضي أين يجلس؟ فجلس في الكرسي العالي ذي المسند الكبير الموضوع في أعلى المنصة في إشارة إلى الرتب التسلسلية وفرضاً للهيبة على الموجودين، واضعاً نفسه بذلك في موضع أعلى من الأستاذ الواقف، ونظره شائع خارج النافذة، والذي تكلم بصوت لا ييدي أي انفعال:

- الأستاذ لولو سانتوس جاءك برسالة مني، ألم تستلمها؟
- إن الوكيل كان معي، طلب مني وقد قمت باللائم، فأرسلت مذكرة طلبت فيها إخلاء سبيل الفتاة القاصر التي أبقيت سجينة بأمر من مفوض الشرطة. وقد وقع الوكيل على التعهد بالمسؤولية.
- هل يمكن ألا يكون قد نقل إليك كل الرسالة؟ لقد أرسلت أطلب منك أن تقفل القضية. فهل وثقتها يا حضرة القاضي؟
- تضاعفت أمانة الغضب على شفة القاضي، وفتش القاضي عن القوة وسط الحرارة التي يحس بها:
- توثيق؟ مستحيل! إن القضية هي قضية جريمة قتل ارتكبت شخصياً ضد مواطن مهم في هذه المحكمة..
- مهم؟ كلام مضحك، مستحيل؟ لماذا يستحيل الأمر؟ لقد ورد في القضية اسم طالب شاب هو قريبي وابن القاضي غوميزنيتو، ويقولون إن حضرتك تريد أن تورد اسمه في القرار الظني انتقاماً.
- "بصفة شريك"... خفض صوته.. "وفي الحقيقة، برأيي، إن المسألة أكبر من هذه وأخطر لأنه هو مسبب الجرم".
- إلى الرغم من كوني اختصاصياً في القانون، فإني لم آت إلى هنا محامياً وليس لدي وقت أضيعه. اسمع أستاذ: يجب أن تعرف من الذي يحكم في هذه الأرض هنا، وقد جاءك البرهان سابقاً. لقد قيل لي إنك تريد أن تكون قاضياً في كاجازيراس. والمسألة بين يديك، لأنني ما زلت أحسب أن لولو لم يأتك بالرسالة كاملة. ضع الآن، حالاً، المسألة في الأرشيف، واطران منك يكفيان، ولكن إذا كان ضميرك يعذبك فإني أنصحك بالعودة إلى باراكاو في أسرع وقت، وأترك القضية للقاضي الذي سأختاره على ذوقي. إن المسألة بين يديك، فاختر.
- إنها جريمة خطيرة..
- "لا تجعلني أضيع المزيد من الوقت إذ أعرف جيداً أن الجريمة خطيرة ولهذا أعرض عليك مركز قاضي الأمور المستعجلة في كاجازيراس. قرّر في الحال، ولا تجعلني أضيع عقلي والمزيد من الوقت"، وضرب بالسوط على فخذه.

رفع القاضي بيو ألفيز نفسه قليلاً ومضى يفتش عن البواعث. لا يفيد
الاعتراض. فإذا لم يفعل فسيعود إلى باراكاو ويأتي مكانه قاضٍ آخر سيوقع على
إحالة القضية للحفظ مستفيداً من نعم الأستاذ الكثيرة. في الحقيقة فإن هذه القضية
ملئة بالأمور غير القانونية، ابتداءً من السجن وتعذيب القاصر التي استجوبت دون
وجود محقق قدير ودون محام معين من قبل المحكمة ليحافظ على مصالحها وذلك
لغاية تدخل لولو سانتوس الأخير، فضلاً عن عدم وجود أدلة شهود جديرين بالثقة،
فهي إذاً قضية ينقصها الكثير من العناصر ويساعد في ذلك وجود أسباب عديدة
أخرى ترجح كفة تحويل القضية إلى التوثيق. إن قاضياً شريفاً لا يسمح لنفسه بأن
ينجرف بمشاعر تار بدائية غير لائقة بقاضٍ كبير. إضافة إلى ذلك، أية أهمية تُعطى
لتوثيق قضية أخرى في قصور عدل منطقة الداخِل؟

لا أهمية بالتأكيد. لقد تعلم الأستاذ بيو حكاية عالمية وهو يقرأ زيفاكو
ودوماس وهي أن باريس تساوي قداساً. أفلا تساوي كاجازيراس الشمالية والحالة
هذه، عقاباً واحداً؟

عندما انتهى من الكتابة بحرف أنيق وبطريقة بطيئة مستعملاً ألفاظاً لاتينية،
رفع عينيه إلى الأستاذ الواقف عند النافذة وابتسم:
- لقد فعلت ذلك احتراماً للأستاذ وعائلته.

- شكراً وتهاني الحارة يا حضرة قاضي كاجازيراس الشمالية.
توجّه إميليانو إلى الطاولة فتناول أوراق التحقيق وتفحصها. قرأ هنا وهناك
مقاطع من الاتهامات والتحقيقات والإفادات التي أدلت بها تريزا وأدلى بها دانيال
هو الآخر، يا للحقارة! ترك أوراق التحقيق على الطاولة، أدار ظهره وذهب
خارجاً:

- اعتمد على التسمية الجديدة يا حضرة القاضي ولكن لا تنسَ أن كل ما
يجري في هذه الناحية يعني.

وإذ كان ما يزال مرتبكاً عاد إلى المصنع ولكن، عند ذهابه إلى أراكاجو ليلقي
نظرة على فرع المصرف هناك، التقى بلولو، ومن خلال المحادثة عرف أن تريزا كانت
تجهل كلياً تدخله في الأمر واهتمامه بها. آه، إذا إميليانو لم يخدع في الحكم عليها:
لهيب العين تؤيده قراءة التحقيقات فهي، إلى جانب كونها جميلة، كانت شجاعة.

استبق موعد الرجوع، ولم يشأ أن ينتظر قطار اليوم التالي، فسافر إلى المصنع في السيارة مستعجلاً السائق، وفي بعض الأماكن لم تكن الطريق أكثر من معابر قطعان الحمير وعربات الثيران. وصل ليلاً، وفي الحال ذهب ممتطياً حصانه إلى كاجازيراس إذ لم يمكث أكثر من الوقت الذي استغرقه الحمام وتغيير الملابس واتجه مباشرة إلى نزل غابسي. وقد ترجل، واجهته معارض السوق العمومية، حدث لم يسبق له مثيل، إذ لم يكن قد وضع قدميه هناك سابقاً. وعندما رآه الخادم أرودا ترك المشروبات والزبائن وخرج راكضاً لينادي على غابسي. وجاءت القوادة مسرعة، ولفرط ما أصابها من الحماس لم تستطع أن تتكلم:

- إنه شرف لا مثيل له، أعجوبة.

- مساء الخير. لقد توقفت هنا فتاة اسمها تريزا..

لم تتركه غابسي يختم حديثه، يا لتريزا الأعجوبة، إنها لا تقدر بثمن، لقد وصلت شهرتها إلى مسامع الأستاذ وجعلته يأتي إلى هنا زبوناً:

- أجل صحيح يا سيدي، إنها فتاة رائعة الجمال، ولا تزيد على خمسة عشر عاماً من العمر، إنها شيء ثمين وفي خدمة الأستاذ.

- "إنها ستأتي معي" ... سحب من محفظته بعض الأوراق النقدية وناولها إلى القوادة المتوقدة المشاعر: "اذهبي وجيئي بها".

- هل سيأخذها الأستاذ لهذه الليلة أو لعدة أيام؟

- مرة واحدة، إنما لن تعود. هيا أسرع.

كان الزبائن يتأملون بصمت وهم جالسون إلى طاولاتهم، وعاد أرودا إلى البار ولكن، منفعلاً، توقف عن الخدمة. وبلغت غابسي اعتراضها وأسبابها وتفسيراتها وأخذت المال، عدة أوراق من فئة الخمسمائة، ولن تربح شيئاً من النقاش، ولم يبق لها سوى انتظار عودة تريزا عندما يتعب منها الأستاذ ويسرحها من الخدمة... إنما ستتأخر قليلاً، شهراً أو شهرين على الأكثر..

- تفضل بالجلوس، أستاذ، تناول شيئاً ريثما تجهز حقيبتها وترتب هندامها..

- ليست بحاجة إلى حقية يكفي أن تضع رداء على جسدها ولا شيء آخر..

ولا تحتاج إلى أن ترتب هندامها.

وضعها خلفه على كفل حصانه وعاد بها.

أنهى الدكتور إماريليو الفحص الطبي وغطى الجثة بالشرشف:

- ألم يكن أمراً مثيراً؟

- "قال: "ويلي"، ومات، حتى إنني لم أعرف أنه مات... " تريزا ترتعد وتغطي وجهها بيديها.

وتمادى الطبيب في السؤال غير الملائم:

- كيف حدث الأمر؟ هل أكل كثيراً؟ وهل كان الأكل ثقيلاً، فذهب بعده

في الحال إلى... أليس كذلك؟

- أكل فقط شريحة سمك وقليلًا من الأرز وقطعة من الأباكاتي. كان قد

تناول وجبة العصر في الخامسة، وهي عبارة عن قطعة حلوى البامونياس. بعد ذلك خرجنا نتمشى حتى الجسر، وبعد عودتنا جلس في الحديقة وتحادثنا طيلة ساعتين وأكثر، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما أوينا إلى الفراش.

- هل تعلمين ما إذا كان عنده مشكلة كبيرة في الآونة الأخيرة؟

لم تجب تريزا، فهي ليس لديها الحق في أن تثير حنق الأستاذ وأن تعيد المحادثة والتذمرات والشكاوى، وإن على مسامع الطبيب، لقد مات فجأة وماذا تفيد معرفة ما إذا كان قد مات من مرض أم بسبب حالة نفسية؟ فهل سيتمكن الطبيب من أن يعيد إليه الحياة؟ وتابع الطبيب:

- يقال إن جايرو ابنه قد ارتكب عملية اختلاس في المصرف؛ مبلغ كبير

جداً، وعندما علم الأستاذ بذلك...

وتوقف عن التماذي لأن تريزا تظاهرت بعدم الاستيعاب، وبدأت غائبة وغير

متماسكة وهي تنظر إلى وجه الفقيد، وبعدها استمرّ مستفسراً:

- فقط أريد أن أعرف السبب في توقف القلب عن الخفقان. لقد كان رجلاً

ذا صحة جيدة، ولكن، لكل واحد منا أسباب تدفعه إلى السأم والكدر، وهذا ما يقتل الناس. قبل أمس قال لي إنه هنا في أشتانسيا كان يستعيد قواه ويريح نفسه من الإزعاج، ألم تلاحظي أنه كان مختلفاً؟

- بالنسبة لي كان الأستاذ هو نفسه دائماً منذ اليوم الأول.

قالت ذلك لتقطع المحادثة.

- "لا، ليست الحقيقة. كان يتحسن كل يوم، ومن كل النواحي، فقط أستطيع أن أقول إنه لا ندد له، لا تسألني أكثر".

خيم الصمت لحظة. تنهد الدكتور إماريليو؛ إن تريزا على حق، إذ لا يفيد شيئاً التنقيب في حياة الأستاذ، وفي هذه المرة فلا هدوء أشتانسيا ولا حضور الصديقة تمكنا من أن يعطيا قلبه القدرة على الاستمرار.

- يا ابنتي، إني أفهم جيداً ما حدث لك، وما تحسّين به. لو كان الأمر متعلقاً بي لكنا أبقيناه هنا حتى ساعة الدفن ونحن، أنت وأنا، والمعلم جوان والذين نريد لك الخير في الحقيقة كنا رفعناه إلى المقبرة. ولكن المسألة ليست متوقفة عليّ.

- أعرف، لا أتدمر، ولم تكن من دقيقة واحدة غير مليئة بالذكرى الطيبة.

- "سأحاول الاتصال بالأهل؟ إن ابنته وصهره موجودان في أراكاجو. إذا لم يعمل الهاتف فيجب إرسال أحد مع رسالة". وقبل أن يخرج استفهم: "أمن الضروري إرسال أحد ليغسل الجسد ويلبسه أو أن لولو ونينا يفيان بالغرض؟"

- أنا سأهتم به، وهو حتى الآن ما زال ملكي.

- عندما أعود سأجيء معي بشهادة الوفاة وبالكاهن.

ولكن لماذا الكاهن ما دام الأستاذ لم يكن مؤمناً بالله؟ ولكن ليس من أجل إيمانه بالله كان الأستاذ يترك المجال للاحتفالات الدينية، ويأخذ الكاهن إلى المصنع ليقسم القداس في عيد السيدة حنة. إن الكاهن فينيسيوس، وقد ذهب إلى روما لدراسة اللاهوت فإنه تعلّم شرب الخمر. وكان أفضل رفيق على طاولة العشاء.

10

كان لدى الأستاذ متعة حقيقية في أن يجمع حول مائدة العشاء التي تترأسها تريزا باتيستا مرتدية بنزق الملابس القطنية المجلوبة من باهيا، كلاً من صديقه ناسيمينتو فيليو زميله في كلية الحقوق، والأب فينيسيوس، ولولو سانتوس الآتي خصيصاً من أراكاجو بالإضافة إلى الطبيب.

كانوا يتحدثون قليلاً بكل شيء، مناقشين السياسة وفن الطبخ، إضافة إلى الأخلاق والدين والفن والأحداث العالمية والبرازيلية، وآخر الصرعات السائدة والموضة التي تصبح فاضحة أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، وتبدل العادات المقلق وتقدم العلم.

أما فيما يتعلق ببعض الموضوعات كالأخلاق، والفن، وعلم الطبخ، فقد كان الأستاذ وجوان ناسيمنتو وحدهما يبدیان الآراء، لأن الطبيب كان يجد الفن الحديث أمراً فظيماً ويعدّه خربشات لا قيمة لها ولا معنى، ولأن الكاهن كان ذا حساسية ضد أكثر الكتاب المعاصرين أرباب العري الجنسي والانزلاق الأخلاقي، بينما لولو سانتوس يؤكد أن ليس في العالم صحن طيب يمكن تشبيهه بصحن اللحم المصنوع مع الملفوف المسلوق بالحليب، تأكيداً ليس مقبولاً أبداً. بالمقابل، وكونه قارئاً لا يرتوي من القراءة، متادباً، متعلماً، وعجوزاً طيباً، وقد ترك دراسة الحقوق في منتصفها ليتماثل للشفاء في أشتانسيا من مرض في صدره فأقام هناك ولم يعد يخرج أبداً، يعيش من مدخولات تدار جيداً ويعلم البرتغالية والفرنسية في المعهد فقط ليملاً وقته، فإن جوان ناسيمنتو فيليو كان يعرف آخر كتاب يطرح في السوق، وآخر لوحة تبصر النور، وكان يحلم بأكل اللآك دي شين الآتي من بكين. وكان الأستاذ يأتيه بالكتب والمجلات ويمضيان ساعات وساعات منسيتين في تذوق أمتع أنواع البسكويت في الحديقة. وكان الفضوليون في المدينة يتساءلون عن تبادل الأستاذ المواطن صاحب المسؤوليات الكبيرة والأعمال الكثيرة الأمور التافهة مع المعلم ناسيمنتو فيليو مضيعاً وقته في أشتانسيا.

من ناحية أخرى، عندما كان الحديث يدور حول السياسة الوطنية، فلم يكن ينقص سوى تكبيل انطلاقة اللّسن والطبيب في تقييم المثل الحزبية، والأزمات الانتخابية، بينما كان الأستاذ يكتفي بالإصغاء غير مكترث، فبالنسبة إليه، كانت السياسة مهنة عوجاء هي من شأن الناس ذوي الصفات المنحطة والقابليات الوضيعة والمادة الرخيصة، وهؤلاء هم دائماً في خدمة الرجال القادرين حقاً والأسياذ الشرعيين في البلاد، أما الأخيرون، فإنهم كانوا يأمرّون وينهون وكل واحد يحكم في القطعة التي يملكها من الأرض بوساطة رتبة النقيب المتوارثة، هو مثلاً في كاجازيراس الشمالية حيث لم يكن أحد يحرك قشة من مكانها دون أن يأخذ موافقته، وكان يشمئز من السياسة ولا يثق بالسياسيين: "يجب إبقاء الأعين عليهم لأنهم محترفون في التزوير".

أما المناقشات الدينية، فقد كانت تتأجج ناراً نظراً للموضوع الممتع والمادة الواسعة. حيث يكون قد شرب قليلاً، فإن لولو سانتوس كان يعلن نفسه فوضوياً وتابعاً من اتباع كروبوتكين الذي لم يكن أكثر من عدو للإكليروس على الطريقة

القديمة، ويحمل شيطان الأب فينيسيوس مسؤولية التخلف في العالم، ذلك التخلف الذي هو العدو الشخصي تقريباً للخير. كان السجل مستمراً بينه وبين الأب الذي ما يزال شاباً متحمساً ومالكاً لبعض المعرفة والبراهين الملهبة، وكان ينتهي إلى توريط جوان ناسيمنتو فيليو ليلقي بعض الأبيات الشعرية عن حرب جونكيرو التي يعقبها تصفيق اللّسن. وكان الأستاذ، متلمظاً بالنبيذ المعتق، يتسلى بتبادل الحجج والاعتراضات والشتائم. كانت تريزا ترافق المناظرة محاولة إثبات وجودها مهتمة لحظة بهذا وأخرى بذاك، تستنكه الجمل المتلمظة المفخمة الخطيرة التي يرددها الكاهن، وتلك الجمل الساخرة المسلية التي يقذفها اللّسن ذو الفم المحقون بالشتائم والتجديف. وكان الكاهن ينتهي إلى رفع يديه إلى السماوات متضرعاً إلى الله وسائلاً الغفران لأولئك الخاطئين الظالمين الذين، بدلاً من أن يقدموا لله الشكر على العشاء الإلهي والخمر الفاخرة، فإنهم يتلفظون بالتجديف والكفر، واضعين وجود الله موضع الشك! في بئر الخطيئة هذا، كان الكاهن يقول: فقط ينجو الطعام والشراب وسيدة البيت من الخطيئة، أما الباقيون فإنهم كفرة، كفرة بالجمع، كما تقول أبيات الشعر التي يذكرها ناسيمنتو فيليو، وكما جاء في بعض عبارات الأستاذ الذي أكد بها أن كل شيء يبدأ وينتهي بالمادة، وليست الآلهة والمعتقدات سوى ثمار خوف الإنسان ولا شيء آخر.

في الليلة التي تلفظ فيها بتلك العبارة، بعد العشاء والنقاش الحاد، فإن الأستاذ على مرأى من تريزا توجه إلى الكاهن قائلاً:

- يا أبانا، إن السيد سيكسر ضلعاً من ضلوعي. إن الأب سيريلو من كاجازيراس ما يزال سيئ الصحة بسبب الروماتيزم الذي ألم به، ولا يستطيع أن يخدم المدينة في احتفالات القديسة حنة، ولا يستطيع أن يقيم قداساً في المصنع كما هي العادة في كل سنة. ألا تريد أن تأتي للقيام به؟

- مع سروري الكبير، أستاذ!

- سأرسل بمن يأتي بك نهار السبت، والمحترم سيقم القداس صباح الأحد في البيت الكبير، ويعمد الأطفال، ويزوج المخطوبين والمتعاشين ويتغدى مع الناس، وإذا أراد بقي حفلة الرقص في منزل "رايموندو أليكاتي"، إنه احتفال راقص يعجبك، وإذا لم ترغب فسأرسل بمن يأتي بك إلى هنا.

لو لم يكن يؤمن بالله، فلماذا كان يخصص المال للكنيسة، ويذبح الذبائح ويتعاقد مع الكاهن للاحتفال بالقداس في المصنع؟ وكانت تريزا تعرف أن كلمة لولو سانتوس الثقيلة والإعلان عن كفره لم يكونا أكثر من استعراض كلامي، إذ لا يوجد أحد أكثر منه وسوسة في طلب بركة الله قبل الدخول إلى حرم المحلفين أو إلى قاعة الدفاع في المحكمة، ولكن، فيما يتعلق بالأستاذ فقد كانت تستغرب التناقض الموجود في شخص عادي متعاطف إلى هذا الحد مع طريقة تصرفه.

لم تقل له شيئاً، ولكنه بنفسه لاحظ أو تكهن بالتأكيد، في البدء اعتقدت تريزا أن الأستاذ كانت لديه موهبة التكهن بالأفكار. وعندما خرج الكاهن برفقة ناسيمننتو فيليو، فقد طلب الأستاذ من جديد أن يصغي إلى شعر حرب جونكيرو ثم أشعل لولو سانتوس آخر سيجار، وألقى تحية المساء ثم انسحب تاركاً إياهما معاً في الحديقة، وبينما الأستاذ يأخذها من ذراعيها، قال:

- دائماً أسألني عندما لا تفهمين شيئاً، ولا تخافي من أن تثيريني يا تريزا. إنك تثيريني فقط عندما لا تكونين صريحة معي. إنك متعجبة ولا تفهمين كيف لاؤمن بالله، وفي الوقت نفسه أتعاهد مع كاهن ليقم قداساً في المصنع وفوق ذلك أقيم احتفالاً، أليست هذه هي الحقيقة؟

ابتسمت وألقت برأسها فوق صدر الأستاذ ورفعت عينيها إليه:

- لا أفعل ذلك لنفسي، أفعله من أجل الآخرين، ولأني أنا لهم. هل فهمت؟
- "أريد بهذا أن يعتقدوا وأن يفكروا في أننيؤمن. إن الشعب يحتاج إلى الدين والعيد، لأنه يعيش حياة حزينة، وأين رأيت مصنعاً بلا قداس يترأسه كاهن؟ وأين رأيت مصنعاً دون عمادة أطفال وعقد قرانات وإن مرة واحدة في السنة؟ إني أقوم بواجبي". قبل فمها ثم تابع:

- هنا في أشتانسيا، في هذا البيت إلى جانبك، أنا نفسي فقط، أما في الخارج فأني سيد المصنع، مصرفي، مدير شركة، زعيم العائلة، إني أربعة أو خمسة أشخاص، إني كاثوليكي، بروتستانتي، يهودي...

فقط في الليلة الأخيرة، بعد حديث الحديقة، علمت تريزا علماً أكيداً ما أراد أن يقول لها.

جاءت نينا بالحوض ولولا بوعاء الماء الساخن... وأبدى استعداداً لمساعدتها إلا أن تريزا صرفتهما: "إذا احتجت فسأنادي".

وحيدة غسلت جثة الأستاذ بالقطن والمياه الفاترة وبعد أن نشفتها من الرأس حتى القدمين فقد عطرها بالكولونيا الإنكليزية التي كان يستعملها. وبينما كانت تأخذ الكولونيا من المكان الموضوعه فيه في الحمام، تذكرت القصة التي حدثت على أثر بداية الصداقة بقليل. الآن لم يعد عندها إلا الذكرى. في كل مرة، طيلة تلك السنوات، كانت تتذكر ما حدث، فإنها كانت تشعر مع الذكرى بأنها مثارة: مع أن الساعة غير ملائمة. ذكريات كتلك، عطور وأدوات تجميل، كلها انتهت إلى الأبد، وماتت مع الأستاذ، انطفاء تام، وعبء ثقيل لم تتخيل تريزا أنه سيولد فيها يوماً من جديد شيء اسمه الرغبة.

ألبسته قطعة قطعة، مختارة له القميص والجوارب وربطة العنق والبزة الزرقاء الغامقة، ملائمة بين الألوان. كما كان يرغب الأستاذ، وكما علمها. ونادت على نينا ولولا فقط لترتيب الغرفة. أريد أن يكون كل شيء نظيفاً ومرتباً. بدءاً بالفرش وبينما كانا يغيران الشرشف واللحفان، فقد أجلسا الميت على الكرسي ذات الذراعين قرب الطاولة المكدسة عليها الكتب المختلطة بعضها ببعض.

في الكرسي، وبينما يدها موضوعتان من مرفقيهما فوق ذراعي الكرسي، فقد بدا الأستاذ متردداً في اختيار الكتاب الذي كان سيقراه في تلك الليلة على مسامع تريزا. آه، لن تسمع تريزا بعد اليوم صوته الدافئ الذي يقودها إلى دروب مظلمة، وهي جالسة عند قدميه ورأسها ملقى فوق ركبتيه، يبين لها كيف تتلمس الطريق في الظلمات، عارضاً عليها الحلول، طالباً منها الإجابات. يقرأ ويقرأ عندما يكون الأمر ضرورياً، حتى تمسك بمفتاح اللغز محاولة إدخاله في كل شيء وحتى في التفاصيل، رافعاً إياها شيئاً فشيئاً إلى مستواه.

12

ما كادا يصلان إلى أشتانسيا حتى نبتت موضوعات طارئة أجبرت الأستاذ على أن يذهب إلى باهيا تاركاً تريزا تحت حراسة ألفريدو وبصحبة الخادمة وكانت فتاة من المحلة.. منظوية على نفسها مع إحساس بعدم الثقة، وفي جسدها آثار إساءة

معاملتها، وفي قلبها ذكرى كل دقيقة من وقت قريب مذلّ من الضرب والشتائم التي لحقت بها من جوستينيانو دوارتي دا روزا ومن دان، من السجن والنزل، تعيش لتعيش دون أي أفق أو هدف، وحتى الآن لم تكن تريزا قد ألقت برأسها قطّ لاستراحة. لقد جاءت مع الأستاذ تحت رحمة الأحداث وبفعل الاحترام الذي أبداه لها. ترى هل انتهى الاحترام؟ وهناك أيضاً الجاذبية القوية إلى حدّ جعلها تعطي نفسها للمداعبة عندما قبلها عند باب النزل قبل أن يضعها خلفه على كفل الحصان. هكذا أتت دون أن تعرف ما هي نهاية كل هذا. وبينما غابي تعلمها بحضور الأستاذ. فقد أثارت انتباهها حول ملخص الكلام الذي اختصر به العشيق الصناعي الأشياء، إنه وجيه نزيق، وتمنت لها عودة سريعة إلى السوق العمومية. متى شاءت، فإن أبواب النزل مفتوحة لها دائماً: "هنا بيتك يا ابنتي".

لقد احتلت مركز أنثى الأستاذ لا مركز العشيقة. وفي الفراش، كانت تتقد كالجمر لدى التأمل البسيط في وجه إميليانو غويدس وبعد أقل لمسة من أصابعه العليمة، إنه الحب الثابت والمتنامي الذي حملته بإخلاص.

العفوية سبقت اللباقة، وفقط مع الوقت امتزجا وذابا عواطف، ومع ذلك، فقد استمرت بالتصرف، كما لو كانت بصحبة النقيب، وكما لو أنها كانت تعيش وضعاً شبيهاً بالوضع السابق: منذ الصباح الباكر تبدأ العمل حتى ترتب وتنظّم ذلك البيت الواسع آخذة لنفسها أقصى الخدمات وأثقلها، في حين أن الموظفة كانت قد تركت نفسها للرخاء، ناظرة إلى الحلل في المطبخ، متبخترة في البيت والريش بيدها تنفض به الغبار، ودون أية فائدة، أمّا الصامت والنشيط ألفريدو ذو الشعر الأجعد الآخذ في الشيب، فكان قد جيء به من المصنع بصفة مؤقتة للعناية بالبستان والحديقة المهملين، وكان يقوم بالمشتريات ويحرس البيت وعفة تريزا. ومع تكهّن الأستاذ بالحقيقة مع أنّه كان يعرفها قليلاً، فإن الاحتياط ضروري، ولكن تريزا كانت تتدخل حتى في شؤون ألفريدو، عندما كان يذهب لرفع النفايات تكون هي قد فعلت ذلك، وبرفقة العامل والخادمة أكلت في المطبخ واستخدمت أصابعها، في حين أن الأدراج كانت مليئة بملاعق الفضة.

وأصبح المنزل بهيجاً: شاليه وثيرة وسط أرض واسعة مزروعة بالأشجار المثمرة ذات صالتين كبيرتين، الصالة الأمامية وغرفة الطعام وأربع غرف أخرى مطلة على نهر

بياوتينجا مع مطبخ واسع مجهز بالكامل، بالإضافة إلى الناحية حيث الحمامات. والغرف الأربع الخاصة بالموظفين، والاحتياطية، وتلك المعدة للرياح للزوار. "لماذا كل هذا القدر الكبير من المساحة؟" تساءلت تريزا وهي تنظفها، "ولماذا كل قطع الأثاث وهذه الأمور فوق العادة؟" كانت تكلف وقتاً وعرقاً ومشقة عملية والعناية بذلك الأثاث القديم، الثقيل، المصنوع من خشب الجاكاراندا والذي أسيء استعماله مع الوقت ونتيجة الإهمال. وفق ما عرفته تريزا فيما بعد، فإن الأستاذ قد اشترى البيت وقطع الأثاث والأواني والزجاجيات دون أن يناقش السعر الذي، كان رخيصاً، ومع الأسف فإن بعض الأشياء كساعة كبيرة، ومنبر، وصور قديسين قد أخذت إلى الجنوب بواسطة هواة جمع التحف، ومقابل أوراق من فئة العشرين.

سُرَّ الأستاذ بالشجر والأثاث، وكذلك بموقع البيت عند نقطة الخروج من المدينة، بعيداً عن المركز، وسط هدوء تام عادة، عندما لا تكون هناك حركة. في إحدى الليالي وقفت شاحنة أمام البيت وبدأ السائق مع مساعدين بتفريغ الصناديق والعلب، بأحجام مختلفة وبكميات كبيرة، على بعض منها كان مكتوباً (سريعة الكسر)، مطبوعة أو مكتوبة بالحبر. وفجأة امتلأ الشارع بالعمات والعاطلين عن العمل راكضين مواكب مواكب، ووقف الجميع في الممر المتاحم يتبينون الأحجام الكبيرة: ثلاجة، راديو، مكينة كهربائية، ماكينة خياطة، وسلسلة لا تنتهي من الأشياء، فالأستاذ لم يكن ليحسب حساب النفقات: "إنه لن يتأخر في الوصول مع زوجته"، ووقفت العمات عند مكان مرتفع ونظمن حلقات بينهن، ولكن الأستاذ الذي يعرف هذه الأمور وصل بالسيارة عند الفجر؛ أما الحلقة الأخيرة من الفضوليات فكانت قد انتهت في التاسعة عندما قرع جرس ماتريز.

عندما استيقظ في الثامنة صباحاً - عادةً يصحو في السابعة ولكنه في تلك الليلة كان قد بقي مستيقظاً حتى انبلج الفجر وهو غارق في العمل المفرح واللهو اللذيذ - فإنه لم يجد تريزا تحت الشراشف. فقام ليجدها تحمل خرقة بقبضة يدها، في حين كانت الخادمة في الصلاة، ولم تتحرك إلا لتبتسم وتلقي عليه تحية الصباح؛ لم يقم إميليانو عندها بأي تعليق، واكتفى بأن دعا تريزا إلى تناول القهوة.

- "لقد شربت منذ حين". إن الفتاة ستخدم السيد. "اعذرنى، فإني متأخرة.."
وتابعت القيام بالعمل التنظيفي الرتيب.

وبينما يفكر، تناول الأستاذ القهوة بالحليب ورقيق الذرة المحمص والموز وحلوى البيجوس مرافقاً بنظرة حركة تريزا في البيت. لقد قلبت غرفة النوم رأساً على عقب بغية تنظيفها، وجمعت النفايات وخرجت بالمبولة لتفرغها في المرحاض. ووقفت في باب المطبخ وألقت نظرة سريعة على السيد بانتظار أن ينتهي لتأخذ الصبحون، وبعد إفطار الصباح ذهب الأستاذ للجلوس في أرجوحة الحديقة محملاً بالكتب ولم يبرح مكانه إلا قبيل الظهر ليستحم، وعندما رآته قد بدّل ملابسه سألته تريزا:

- هل أستطيع أن أعدّ طاولة الطعام؟

ابتسم إميليانو:

- بعد أن تكوني قد استحمت، وجهزت نفسك وارتديت ملابسك للغداء. لم تفكر تريزا أن تستحم في تلك الساعة مع الكثير من العمل الذي يجب أن تقوم به بعد الظهر.

- أفضل أن أبقى الحمام إلى حين أكون قد انتهيت فيه من أعمال الترتيب، وما زال عندي الكثير من الأشياء لأقوم بها.

- كلا يا تريزا. إنك ستأخذين حمامك الآن بالذات.

أطاعت، لقد تعودت أن تطيع. وبينما هي تجتاز الردهة عائدة من الحمام إلى داخل البيت، رأت ألفريدو يحمل زجاجات إلى الحديقة حيث وضعت طاولة صغيرة أمام المقعد المصنوع بدقة ومهارة فنيّتين، وكانت الطاولة أحد الأشياء الكثيرة الواصلة في الشاحنة. وهناك كان الأستاذ ينتظرها، فجاءت مرتدية فستاناً نظيفاً وأرادت أن تعرف:

- هل أستطيع أن أجلب الطعام؟

- "بعد قليل، اجلسي هنا، معي" أخذ زجاجة وقدهاً: "سنشرب نخب بيتنا".

لم تكن تريزا تشرب. كان النقيب قد أعطاهم مرة جرعة من الكاشاسا فبالكاد تذوّقتها وقامت بحركة امتعاض، ولكن وبشراسة، أجبرها جوستنيانو أن تفرغ الكأس في جوفها، ثم أعاد ملء الكأس. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يعرض عليها الشرب "هذه المملوكة واهية، لم يكن ينقصها سوى أن تبكي في عراك الديوك وكادت أن تختنق من تناول جرعة الكاشاسا". في نزل غابي عندما كان

أحد الزبائن يجلس في المشرب ويدعو امرأة لتشرب برفقته، كانت المرأة مجبرة على طلب الكونياك والفرموث، وكان المشروب الذي يقدمه أرودا إلى النساء في مثل هذه الحال في كؤوس كبيرة لا يعدو كونه شاياً مغلفاً بالورق وليس له من الكونياك والفرموث سوى اللون والسعر، وكان ذلك نظاماً ممتازاً، صحيحاً ومربحاً.. بعض الأحيان كان الزبون يفضل زجاجة بيرة، وكانت تريزا تأخذ منها جرعة دون حماس، لم تتوصل قط إلى أن تحبّ البيرة، حتى عندما تعودت المذاق المر كالبيترز التي كان يفضلها الأستاذ.

أمسك بالكأس وارجل الدعاء:

- ليكن منزلنا مليئاً بالسعادة.

مع تذكّر الكاشاسا قرّبت الكأس من شفيتها بما فيها من الشراب الصافي كلون الذهب، ذقت مندهشة الطعم الطيب فعادت تتذوقه من جديد.

- "إنه نبيذ بورتو" قال الأستاذ "أحد أكبر اختراعات الإنسان، وهو أهمّ اختراع عند البرتغاليين، اشربي دون خوف، فالشراب الجيد لا يسيء؛ ليست الساعة الأكثر تلاؤماً لتناول ليكور، ولكن في هذه الحال ما يهم أكثر من الوقت هو طعم الشراب".

لم تفهم تريزا كل العبارة، ولكن فجأة أحست بنفسها مطمئنة كما لم تحس من قبل. وكلمها الأستاذ عن نبيذ بورتو، وكيف يجب تناوله بعد وجبة الطعام، بعد القهوة أو بعد الظهر وليس قبل الطعام. لماذا يعطيها إذاً لتشرب في الساعة غير الملائمة؟ لأنه ملك كل المشروبات، فلو أنه عرض عليها منذ البدء بيتر أو جين فإنها ربما ستستغرب الطعم، واستمر إميليانو في التحدث إليها عن الخمور وأنواع الليكوز وأنها مع الوقت المناسب عليها أن تميز بينها وأن تجزم ما إذا كانت موسكاتل أو جيريز أو ماديرا أو مالاغا أو توكابي، وحياتها لم تكن إلا لتبدأ الآن... "انسي كل ما حدث لك، امحيه من ذاكرتك وابدئي هنا حياة جديدة".

قرّب الكرسي إلى تريزا لتجلس إلى الطاولة، وكونها لا تعرف كيف تصبّ الطعام فقد قام هو بالعمل، بادئاً بتجهيز الصحن للفتاة التي لا تصدّق عينيها: أين يمكن رؤية سخافة كهذه؟ شرباً مرطب المانجابا وكرّر الأستاذ المشهد الاحتفالي مقدّماً لها الكأس الأولى. مرتبكة، فإن تريزا كانت تنقر نقرأ الطعام وهي تصغي إليه وهو يتكلم عن عادات فن الطبخ الغريبة وفي كل مرة بصورة أغرب.

مع الأخبار القليلة، جعل الأستاذ تريزا منطلقة الروح، وجعلها تقفز تعجباً وهو يصف لها بعض المأكولات الغريبة: بيض السمك، والزعانف، وأنواع الجراد، كانت تريزا قد سمعت أن هناك من يأكلون لحم الفئران فأيد الأستاذ ذلك: "لحم ممتاز"، كانت قد أكلت مرة لحم جرد القمح الذي قتله وسلخه شيكو نصف الكعب، وأحبّت لحم الجرد. "كل ما يُصطاد هو طيب الطعم"، قال إميليانو، "وله مذاق خاص ونادر، هل تريد تريزا أن تعرف عن حشرات الأرض وأطبيها؟"

- ما هي؟

- الحلزون أو ما يسمى بالبراق.

- براق؟ ويلي كم هو مقرف...

ضحك الأستاذ ضحكة واضحة رئت مفرحة في مسامع تريزا.

- إني إذا سأعد صحناً من البراق يا تريزا وستلحسين أصابعك بعده. هل

تعرفين إني طباخ ماهر؟

هكذا بدأت تريزا بالترفيه عن نفسها، وبعد الطعام، ولدى تناول الحلوى. ضحكت متمادية في ضحكها عندما سمعته يصف كيف أن الفرنسيين يضعون الحلزونات طيلة أسبوع في صندوق مليء بطحين الذرة الذي يغدو الطعام الوحيد لها، ويغيرون الطحين كل يوم إلى أن تغدو الحيوانات نظيفة كلياً.

- والجراد؟ يأكلون الجراد؟ أين؟

"في آسيا، ممزوجة مع العسل، وفي كانتاو يعشقون أكل الكلاب والأفاعي، وأين الغرابة، ألا يأكلون في منطقة الداخل الأفاعي السامة؟" وعندما قاما عن المائدة أخذ الأستاذ بيد تريزا فابتسمت له ابتسامة مختلفة، لقد بدأت اللياقة.

في الحديقة من جديد، وعلى المقعد القديم نفسه، المزخرف ببعض الحبيبات الرخامية الزرقاء، قبل خفيفاً شفتيها المبتلتين بخمر بورتو الذي سكه ثانية، عارضاً عليها جرعة صغيرة تساعد على الهضم:

- "يجب أن تتعلمي شيئاً قبل سواه يا تريزا، يجب أن تضعيه في رأسك مرة

واحدة وإلى الأبد" كان يلاعب شعرها الأسود "ولا تنسي في لحظة واحدة أنك هنا السيدة الأولى ولست خادمة، وهذا البيت بيتك، إنك سيدته. وإذا كانت

خادمة واحدة لا تكفي، فاستخدمي أخرى، أو أكثر إذا احتاج الأمر، ولا أريد أن أراك أبداً بعد اليوم غارقة في تنظيف الأثاث أو حاملة أي شيء ثقيل".

وجدت تريزا نفسها مرتبكة، لقد اعتادت على سماع الصراخ والإهانات، وعلى تلقي الصفعات والضرب بالمسطرة والسوط عندما لا تنتبه إلى العمل وعندما لا يتم تنفيذ أمر ما في حينه، وكانت تنام في فراش النقيب، ولكن ليس من أجل ذلك تركت نفسها تكون آخر ضحاياه. وفي السجن أمروها بتنظيف ثلاث زنانات والمراحيض، وفي نزل غابسي كانت تبقى نائمة حتى ساعة الغداء كأكثرية الموجودات هناك. "إنك ربة البيت، فلا تنسي هذا، لا تستطيعين أن تمشي وسخة، مهملة، ومرتدية بشكل سيئ. أريد أن أراك جميلة... مع ذلك فإنك وإن كنت وسخة وترتدين الأسمال تبقين جميلة ولكني أريد جمالك في أحلى حللك، وأريد أن أراك نظيفة، سيدة" .. وكرّر "سيدة". - "سيدة؟ لن أكون أبداً..." فكرت تريزا وهي تسمعه، وبدا الأستاذ كأنه يقرأ أفكارها كما لو كان ذا موهبة في التكهّن.

- إنك لن تكوني سيدة في حال واحدة: إذا لم تريدي، إذا لم يكن عندك الإرادة لتكوني، إذا لم تكوني ما أعتقد أنا أن بإمكانك أن تكوني. - سأبذل جهدي..

- لا يا تريزا لا يكفي أن تبذلي جهدك.

نظرت إليه تريزا فرأى إميليانو في عينيها ذلك الوهج الماسي:

- لا أعرف كيف تكون السيدة، ولكن لن تراني بعد اليوم وسخة ومهملة، أكفل لك هذا.

- فيما يتعلق بهذه الوظيفة التي تركتك تشتغلين عندما كانت لا تفعل شيئاً فإني سأصرفها في الحال...

- ولكن لا ذنب لها، من راح يفعل الأشياء هو أنا، أنا معتادة على ذلك وعملت...

- حتى وإن لم يكن لها ذنب، إنها لم تعد تنفع، فبالنسبة إليها لن تكوني أبداً السيدة؛ فقد رأتك أحياناً كثيرة تقومين بعمل خادمة، وهي لن تكن لك احتراماً، أريد أن يحترمك الجميع؛ إنك هنا ربة البيت ولا يوجد أحد سواي أعلى مكانة منك، أنا ولا أحد آخر.

بقيت تريزا في الغرفة مع الميت أطول وقت ممكن. مدّوه فوق السرير، كنفوا يديه فوق صدره، ووضعوا رأسه فوق المخدة. وذهبت تريزا إلى الحديقة فقطفت وردة متفتحة حديثاً، حمراء قانية، وعادت تضعها بين أصابع الأستاذ.

عندما كان يترجل من السيارة واصلًا من المصنع إلى أراكاجو، كان الأستاذ بعد قبلة الترحيب الطويلة يعطيها القبعة والباستون الفضي، بينما ألفريدو يحمل رزماً من الوثائق والكتب، وربطات كبيرة إلى الصالة والمطبخ.

كان من عادة الأستاذ أن يستعمل باستون الفضة خارج البيت، وليس فقط في الحقل عندما كان يمتطي حصانه راكضاً من قصبة إلى أخرى ومن مرعى إلى آخر يعاين قطعانه، ولكن في المدن أيضاً، في باهيا وأراكاجو المصرف ورئاسة مجلس إدارة إكزومبورتكس ش. م، ... لقد كان الباستون زينة، ورمزاً، وسلاحاً ولكنه بين يدي الأستاذ كان سلاحاً مخيفاً: في باهيا، كان قد حمل على الهرب شابين منحرفين بمجرد أن لوح بالباستون، وكانا قد أخطأا في تقديرهما وحسبا أن بإمكانهما أن يأخذا الأستاذ على حين غرة. ويوماً، عند مركز المدينة جعل الكاتب الصحفي هارولدو بيرا يتلع مقالاً في الجريدة. وكان الكاتب الذي قد استأجره أعداء آل غويدس قد كتب مقالاً اتهامياً عنيفاً في إحدى المجلات الأسبوعية ضد الزمرة المتسلطة، ونسب إلى إميليانو زعيم العائلة أفضع التهم: ساحر القاصرات العذاري من بنات الأرياف، ممول بلا روح، ومستغل تعب الأجراء والمياومين، ولص أراض، ومهرب كبير للسكّر، مراب وسارق صناديق مال الشعب بالتآمر مع عصابة المراقبين الماليين في الدولة. أما أخواه ميلتون وكريستوفافو فقد شملتهما الرقصة الصحفية وصنفتهما عاجزين مذبذبين وجاهلين غير مؤهلين ودون أن يهتمل الصحفي الإشارة إلى شانندو ابن ميلتون والمعروف بالكسندر غويدس باللوطي ذي الميول الجنسية الانحرافية، الذي أرسل إلى الريو دي جانيرو ومنع من المثول في المصنع لكونه معجباً بالعمال العبيد الرياضيين.. إن المقال الصحافي إذا قرئ بإمعان لعرف أنه يحتوي على حقائق عديدة وإن تكن قد كتبت بالقبح، كما يؤكد أحد السياسيين المبتدئين في منطقة الداخل عند مدخل القصر الحكومي، وما كاد ينهي جملته حتى نظر حوله فوضع النائب يده على فمه؛ كان الأستاذ يصعد

إلى هناك وبيده الباستون، بينما كان الصحافي بيرأ صاحب المقال يتزل بخطوة واثقة من النجاح. لم يجد الوقت للهرب، وإذا بالكاتب المجيد يتلع المقال ناشفاً وبقي على وجهه أثر ضربة الباستون.

هنا في أشتانسيا، ومع ذلك، فإن الأستاذ عندما كان يخرج في نزهته اليومية بعد العشاء، فقد كان يحمل بيده زهرة بدلاً من الباستون. في تلك النزهات لم يكن الصناعي يظهر بعد في الشارع برفقة تريزا، وكان يقوم وحيداً بنزهات الليل إلى الجسر القديم، ومرفأ نهر بياوي، وتبقى هي في البيت، مخبأة عن الأنظار، ولم يكونا قد شوهدا قط معاً "إن الأستاذ على الأقل يحترم العائلات، وليس كالباقين الذين يداعبون الفتيات على مرأى من الناس". هكذا كانت السيدة جانين حبيب الموظفة في البريد والهاتف، السمينه وذات اللسان السليط، تطري على فضائل الأستاذ.

وحدث ليلة، أن قال لها بعد أن قبلها: "إلى اللقاء العاجل، تريزا، سأعود في الحال، سأحرك رجلي قليلاً لتيسير عملية الهضم". ركضت إلى الحديقة وقطفت زرد كبير ذا لون أحمر قاتم وقدمته للأستاذ متممة:

- لكي تتذكرني وأنت في الطريق...

في اليوم التالي اكتفى بالقول:

- وأين زهرتي؟ إني لا أحتاج إليها لأتذكرك، ولكن يبدو الأمر كما لو أنني حملتك معي.

في الفراقات المتتالية، وفي تجدد الحزن، عندما كان يهم بأن يستقل السيارة ويذهب، كانت تريزا تقبل وردة ثم تعلقها بدبوس على ياقة السترة، وفي يد إميليانو من جديد الباستون الفضي.

الباستون في اليد، الوردة على السترة، وقبله الوداع: دفء الشارب، ورأس اللسان يمر على الشفتين، ومن هناك يذهب الأستاذ إلى حياته المتنوعة بعيداً عن تريزا. وعندما يعود إلى حدود أشتانسيا، للإقامة مدة قصيرة موزعاً وقته بين البيوت الأخرى، وبين مواعيد عديدة ومصالح وانشغالات، كانت تريزا تكتفي بأن تنتظر وردة تتفتح لتقدمها في وقت العشق القصير.

في الغرفة، بعد أن وضعت الزهرة بين أصابع العشيق الميت، حاولت تريزا أن تقفل عينيه الزرقاوين النقيتين، الباردتين، غير الواثقتين في بعض الأحيان فكأفهما

تريدان أن تريا ما حولهما مركبتين في تريزا، تعرفان عنها أكثر مما تعرف هي عن نفسها.

14

في سياق تعلم الخمور المكررة والمقطرة، انتقلت تريزا إلى الجزء الأصعب المتعلق بخمور المائدة، القوية المقطرة المقبلة والمساعدة على الهضم، وفي إحدى الغرف الخارجية رتب الأستاذ غرفة جعلها نوعاً من مستودعات الخمور المعتقد يعرضها متباهياً أمام جوان ناسيمنتو والكاهن فينيسوس، وقد استودع فيها أنواعاً محترمة امتحنها جيداً قبل إيداعها وعليها التواريخ الموضوعة بدقة ووضوح. أما لولو سانتوس فكان وفيّاً للبيرة وبينما كان يصبها متظاهراً بالغضب، كان يردد: "بربري، لا ذوق له من يعتبر الويسكي أرقى المشروبات".

لم تقم تريزا بشق طريق واسع في كهف الخمور وظلت وفيه لمكتشفاتها الأولية:

خمر بورتو، كوينترو، الموسكاتل، وقد أصبحت الآن تقبل الخمور المرة قبل الطعام. وفيما يخص خمور المائدة، فإنها كانت تفضل الحلوة الطعم منها ذات اللذعة الخاصة التي تعطر الفم..

وكان الأستاذ يعرض الخمور الناشفة النبيلة، والحمراء الشهيرة، أنواعاً مختارة، بينما جوان ناسيمنتو والكاهن يقلبان أعينهما مبدين التعجب. ولكن تريزا انتبهت، مع استمرار ولائم العشاء إلى أن المعلم ناسيمنتو المعروف بخبرته والشهير بذوقه الرفيع، كان يفضل الخمور البيضاء الأقل نشافاً والأخف مفعولاً وذات النكهة الخفيفة على الرغم من إطراءاته للخمور الناشفة والحمراء التي، وهو يسكبها، كان يمسح شفثيه بلسانه. ولم تخف تريزا أبداً ولم تدعه ينتبه إلى اكتشاف مخادعة الرفاهية:

- "هل يرافقني السيد جوان بكأس بورتو وإن لم يكن الوقت مناسباً الآن؟"

- بسرور يا تريزا. إنه يليق بنيل كبير.

ليس عندها كالمعلم ناسيمنتو موجبات للذوق الرفيع، وليست مضطرة إلى أن تكذب حيث لا ضرورة إلى ذلك، إنها كانت تفصح للأستاذ عن اختياراتها المفضلة بينما إميليانو يتسم لها ويقول: "تريزا قرص العسل".

منشغلاً في التفكير بعمله وقت تريزا الذي تعاني فيه الفراغ خلال غياباته الطويلة والمتتالية، فقد اشترى لها ماكينة خياطة وصنارات صوف:

- هل تجيدين الخياطة يا تريزا؟

- أجيد الخياطة؟ لا أعرف إذا كنت أجيدها، ولكنني في المزرعة كنت أقوم بتصليح ملابس كثيرة على ماكينة المرحومة.

- ألا تريدين أن تتعلمي؟ هل سيكون عندك ما تفعلينه أثناء غيابي؟

كانت مدرسة سيدة النعم للخياطة العالية تقع في شارع صغير خلف موقف تريسّي. ولكي تصل إلى هناك، كانت تريزا تجتاز مركز المدينة، وكانت المعلمة الأنسة سافالينا (سالفيا لأن أباهما من السلفادور، ولينا اشتقاقاً من اسم أمها هيلينا)، فتاة ذات أرداف عريضة وصدر من البرونز، وأنثى رصيف ذات خبرة عريقة، قد دبرت لها بصورة استثنائية وقتاً خاصاً للتعليم بعد الظهر، وتلقت أجورها مسبقاً عن الدروس الكاملة وعددها خمسة عشر درساً. خلال الدرس الثالث تخلت تريزا عن الدرس وتركت المقص والمقياس المتري والإبرة والمسطرة، لأن المعلمة المحترمة كانت قد ألححت منذ الدرس الأول إلى إمكانية أن تربح تريزا مبالغ كبيرة إذا ما تساهلت مع بعض السادة الأغنياء من مستوى الأستاذ وطرازه وشركاء في مصانع النسيج و"كلهم كتومون وذوو ترفع"؛ وإذا بالتلميحات تتحول إلى عروض مباشرة؛ إن المكان ليس مشكلة واللقاءات كان ممكناً أن تتم هناك، "في الغرفة الأخيرة، آمنة وممتازة وفيها فراش وثير إنه من الإسفنج اللين يا عزيزتي"، إن الدكتور براودليو هو شريك في إحدى الشركات وكان قد رأى تريزا تمر في الشارع وتختفي..

وضعت تريزا سترتها، ودون أن تستأذن أدارت ظهرها وخرجت. ووجدت سافالينا نفسها مجروحة ومتعجبة فراحت تتمتم وهي منهمكة بأزرارها:

- "متعجرفة... سأرى ماذا سيحل بك عندما يضع الأستاذ رجله في قفاك... ستأتين إلى هنا لاهثة لأجلب لك زبونا"... لكن تفكيراً مزعجاً قطع الشتم: هل عليها أن تعيد مالاً بدل اثني عشر درساً لم يتم إعطاؤها "لن أعيد شيئاً، إنها ليست غلطتي إذا كانت المتمسكة بالشرف التافهة قد تخلت عن الدرس...".

عندما عادت، أراد الأستاذ أن يعرف التقدم الذي أحرزته تريزا في مدرسة الخياطة العالية. لقد تخلت عن الدرس، إنها لم تحب ذلك وقد تعلمت ما فيه الكفاية

للقيام بالأمور الضرورية وكفى. كان الأستاذ ذا موهبة في التكهّن، فمن كان يستطيع تحمل تلك العيون النقية الزرقاء.

- تريزا، إني لا أحب الأكاذيب، فلماذا تكذّبين؟ هل كذبت عليك في يوم؟
أخبريني بالحقيقة، ماذا جرى؟
- لقد جاءت تعرض عليّ رجلاً..

- إنه الدكتور براودليو، أعرف. لقد راهن في أراكاجو أنه سينام معك وسيركب لي قروناً. اسمعي يا تريزا: لن تنقصك عروض كهذا فإذا أردت في يوم ولأي سبب أن تقبلي، فقولي لي أولاً. سيكون ذلك أفضل لي وعلى الأخص أفضل لك.

- "إن السيد لا يعرفني جيداً وإلا كيف يستطيع أن يفكر فيّ سوءاً؟" ورفعت تريزا صوتها بغضب، والشكوى ارتفعت، والعينان لمعتا، ولكنها ما لبثت أن خفضت رأسها وصوتها وأكملت: "إني أعرف لماذا تفكر هكذا: لقد ذهبت لتأقي بي من المنطقة المعروفة وأنت تعلم إني حين كنت مع النقيب عاشرت آخر غيره. لقد عاشرت فعلاً آخر ولكني لم أكن أحب النقيب، لقد أخذني بالقوة، ولم أكن معه أبداً بإرادتي، إني أفضل منطقة الدعارة، على أن أعيش غير موثوق بي، مع الخوف مما يمكن أن ينتج عن ذلك".
أخذها الأستاذ بين ذراعيه:

- "لا تكوني حمقاء. أنا لم أقل إني أشك فيك، أو إني أعتقد بقدرتك على الغدر، فعلى الأقل ليس هذا ما أردت أن أقوله... لقد قلت، إذا تعبت يوماً مني وكان لك اهتمام آخر فتعالى وقولي لي، فهكذا يتصرف الناس المستقيمون. لم أفكر بالاعتداء عليك وليس عندي سبب لذلك، ولكن فقط عندي الأسباب لأراك مستقيمة وأنا سعيد بذلك". ودون أن يتركها من ذراعيه، ابتسم وتابع:

- أنا أيضاً أريد أن أكون وفياً، وسأخبرك بكل الحقيقة. عندما سألتك عما حدث، فقد كنت أعرف كل شيء، ولا تسأليني كيف. هنا، كل شيء يعرف يا تريزا، وكل شيء يحكى عنه.

في تلك الليلة، بعد العشاء، دعاها الأستاذ للخروج معه لمرافقته في النزهة حتى جسر نهر بياوي ولم يكن قد فعل ذلك من قبل. ومعا في تلك الليلة، العجوز

والصغيرة، ولكن لا هو كان يوحى بأنه قد تجاوز الستين، ولا تريزا كانت تبدو في السادسة عشرة، لقد كانا رجلاً وامرأة عاشقين متشابكي الأيدي عشيقين دون ارتباك، يسيران معاً فرحين. في الطريق، كان المشاة القليلون ليلاً، يجهلون الأستاذ والعشيقة ويرون أنهما زوج وزوجة مولهان. بعيداً عن المركز والحركة لم يعودا يثيران الكثير من الفضول، ومع ذلك فإن عجوزاً وقفت لتنظر إليهما يمران:

- أسعدتما مساء يا أحبائي أمضيا بأمان الله!

بعد عودتهما إلى الشاليه بعد أن شاهدا النهر والسد وميناء الزوارق، تركها الأستاذ في الغرفة ومضى يفتش في الثلاجة عن زجاجة الشمبانيا التي وضعها هناك لتبرد. وعندما سمعت السدادة تتطاير في الهواء وقد أطلقت صوتاً، ضحكت تريزا وشفقت بكفيها بفرح طفلة صغيرة، وصبّ إميليانو غويدس في قده واحد لكليهما وشرباً معاً فاكتشفت تريزا طعم الشمبانيا الذي لا مثيل له. كيف تفكر برجل آخر، غنياً كان أو فقيراً، شاباً أو ناضجاً، جميلاً أو بشعاً، إذا كان عندها العشيق الأكثر كمالاً والأكثر روعة ومعرفة؟ وكل يوم كان يعلمها شيئاً جديداً، يعلمها قيمة الوفاء وطعم الشمبانيا، مقياس المتعة الأطول والأعمق.

- ما دام السيد يرغب فيّ فلن أكون لأحد آخر.

حتى مع انطلاقة الشمبانيا لم تكن تقول له "أنت" ولكن في الساعة الأخيرة، عندما كان العسل يتدفق، خجلة، خائفة، كانت تقول: "آه، يا حبيبي".

15

ظهرت نينا عند باب الغرفة تسير على أعلى أخصيها متجلبة بالأسود الذي بدت معه كأنها صورة كاريكاتورية أو عاهرة وضيفة في سوق بغاء رخيص؛ ولكي لا تزعج أحداً، أو لكي تظهر بصورة مفاجئة مسترقة من تريزا تعبيراً أو حركة أو أي ملمح خفيف يظهر على وجه تريزا لأن "النذلة لا تستطيع أن تخفي إلى ما لا نهاية سرورها". إنها - أو تريزا - ستفوز الآن بالمبلغ الكبير وستتمكن من التمتع بحياتها مهما تكن متكئة، متخفية التعابير، فإنها لا بد أن تكشف القناع عن وجهها في النهاية. حتى الآن ومع خبثها العضوض، لم تستطع أن تذرف دموعاً

واحدة من عينيها الناشفتين، علماً أن ذرف الدمع مسألة سهلة وبإمكان أي كان القيام بها، وعند الباب، ذابت نينا إجهاشاً في البكاء.

كان الخادمان، الزوج والزوجة، سيكملان السنتين في وظيفتهما في بيت تريزا ولو عاد الأمر إلى الأستاذ لصرفهما منذ زمن بعيد لا بسبب الزوج لولا المسكين بل بسبب نينا التي لم يكن يحبها إميليانو:

- هذه المرأة ليست كائناً صالحاً يا تريزا.

- إنها جاهلة، مسكينة ربّما، ولكنها ليست سيئة.

وكان الأستاذ يضرب بالمسألة عرض الحائط، وهو يعلم السبب الحقيقي في صبر تريزا في أن تغطي على الحقيقة وتستمر في التغاضي عن أكاذيب هذه المرأة: فالصغيران لازينيو وعمره تسعة أعوام وتكينيا وهو في السابعة، هما تحت حماية تريزا وعنايتها وتربطها بهما مظاهر أمومية مقنعة. وإذ إنها كانت معلمة مجانية ومولّهة بالتعليم، فإن تريزا كانت تشغل وقتها بإعطاء الدروس لقسم من الأطفال خلال تغيب العشيق الذي لا ينتهي، وكانت تختار الأطفال بطريقة عشوائية من الشارع وتأتي بهم إلى هناك. وكان الصغيران لازينيا وتكينيا، بعد ساعة التدريس اليومية يقضيان قسماً طويلاً من الوقت مع المعلمة ويحصلان على الألعاب ووجبة العصر الغنية بالطيبات إلى درجة أن تلك المعاملة كانت تصيب نينا القاسية في عقاب الأطفال والضرب، بالارتباك. وعندما كان يحضر الأستاذ، فإن الأطفال كانوا يأتون فقط ليطلبوا بركة المعلمة. وكان الوقت يمر سريعاً بسبب الفرح والحيوية اللذين ينتجان عن حضور الأستاذ، وكونها برفقة إميليانو فإن تريزا لم تكن بحاجة إلى أي شيء آخر. ولكن، في أثناء غيابه، فإن أطفال الشارع، وعلى الأخص الصغيران الموجودان في البيت، كانوا ضروريين لرفقة تريزا ليخففوا عنها العبء الثقيل من الوقت الطويل الذي تقضيه منتظرة عودة العشيق، وليمنعوها من التفكير في المستقبل البعيد، إذا جاء الغياب نهائياً وإذا تعب منها الصناعي يوماً.

لم تكن تفكر بالموت، ولم يكن الأستاذ يترأى له موضوع الموت الذي كان يرى أن شأنه مع الآخرين وليس مع الأستاذ نفسه.

بسبب الأطفال كانت تريزا تتحمل عدم اكتراث نينا ومشاعر العدائية المزعجة التي كانت تظهر بوضوح أحياناً على الخادمة. وكان الأستاذ، كونه يشعر

بالذنب إذا ما رأى طفلاً مرمياً في الشارع أبداً، يتغاضى عن أساليب نينا: حسود، حقود، تحاول أن توغر صدر الأستاذ عند كل مناسبة. عند الصباح. عندما خرج من الغرفة، لمح إميليانو غويدس تريزا في الحديقة، موزعة بين الطفلين تلهو معهما، وعندما لمحاه طلبا منه البركة وجريا راكضين إلى البستان، إنها الأوامر المحددة.

على باب الغرفة قامت نينا بعمليات الحساب الصعبة: متى تضع العشيقة يدها على وصية المليونير العجوز؟ وكانت نينا تشك كليا في الإخلاص والوفاء ولا تعتقد بحب تريزا للأستاذ، ولا يعدو الإخلاص والصراحة والعطف عن كونها خبثاً وتمثيلاً بهدف وضع اليد على الميراث. إنها الآن غنية ومستقلة وستمارس المعرفة التي علمها إياها على أحسن وجه. وبالتزامن مع هذه الشكوك، ملأت نينا صوتها بالأسف والحزن:

- مسكينة السيدة تريزا لقد كانت تحبه كثيراً..

- نينا أرجوك اتركيني وحدي.

"الأمر واضح لقد بدأت المرأة الوضيعة بشحذ أظافرها وصقل أسنانها لتعض".

16

في يوم من الأيام جاء ألفريدو يستأذن بالانصراف:

- إني ذاهب لتوي يا سيدة تريزا. إن ميزابل سيبقى في مكاني، إنه شاب طيب.

كانت تريزا قد عرفت من الأستاذ بطلب ألفريدو: لقد جيء به لمدة شهر في حالة طارئة، وبقي ستة أشهر بعيداً عن العائلة والمصنع حيث عاش دون خدمة محددة بتصرف إميليانو، إنه رجل كل الأمور ويجيد العراك. ولولا أحفاده لبقى في أشتانسيا أرض الناس الطيبين التي يحبها، وأكثر محبته لتريزا:

- إنها امرأة مستقيمة يا حضرة الأستاذ، ليس من امرأة مثلها، ومع كونها عصرية فإن عقلها عقل إنسان ناضج، تخرج من البيت فقط في حاجة، وفي الشارع لا تنظر إلى أحد، تعيش وعينها على الباب تنازع الوقت ريثما يعود الأستاذ وفي كل ساعة تسألني: هل تعتقد أنه يصل اليوم يا ألفريدو؟ أنا أشهد على ذلك وهي تستحق حماية الأستاذ. وعندما لا يكون الأستاذ موجوداً فإنها لا تفكر إلا بشقيف نفسها.

إنها مسألة أساسية للحكم النهائي على تريزا، وألفريدو قد زوّد الأستاذ بكل المعطيات والمقاييس والأوزان والأمور الطارئة في غيابه: منذ عرض معلمة الخياطة العالية، كان ألفريدو قد طارد المحاسب المدقق أفيو أولر مطاردة ما تزال موضع الأحاديث حتى اليوم. كان ذلك المدقق من نوع دانيال وممثلاً لنقابة التجار، غارقاً، مع صبغ شعره بالبريق اللامع والعطور الرخيصة، في الإغراء المبتذل للفتيات، وكان قد نقل من باهيا إلى سرجيبي والأغواس وقد سحر بالفتيات الجميلات في أشتانسيا اللواتي كن جميعاً عذارى مع الأسف. ولكنه كان يسير مفتشاً عن الصحن الأفضل والأكمل، عن امرأة جميلة الفراش، لا خطر معها من الخطيب أو الزوج، ولديه الوقت الحر والصدر المرتبك، على أن تكون عشيقة غني من الأغنياء.. أخيراً، علم بتريزا، ثم لمحها تخرج من أحد الدكاكين بروعتها تلك، فجد خلفها وقال لها المحاملات التي ترافقها الحركات الإغرائية. وكان يمتلك طرقاً من الإغراء لا تنفذ لكثرتها وكل طريقة أكثر وقعاً من الأخرى. عجلت تريزا في الخطو، ففعل ساحر النساء الشيء نفسه، وإذ صاراً وجهاً لوجه وقف أمامها مانعاً إياها عن المرور، وإذ كانت تريزا تعلم كم أن فضيحة كهذه يمكن أن تكون ذات وقع سيئ على الأستاذ، فقد حاولت تريزا أن تحيد من أمامه، ولكن النجم اللامع وقد فتح ذراعيه، لم يترك لها مجالاً للمرور:

- لن تمرّ إذا لم تقولي لي اسمك ومتى نستطيع أن نلتقي...

بذلت تريزا جهداً للمحافظة على هدوئها فأرادت أن تحتاز الشارع، فمدّ الشاب يده محاولاً الإمساك بها لكنه لم يتوصل إلى لمس ذراعها. ولم يدر أحد من أين ظهر ألفريدو في تلك اللحظة، فسدّد له لكمة على أنفه جعلت اللكمة الثانية غير ضرورية، فانبطح ساحر النساء على وجهه أرضاً ثم ملّم نفسه راكضاً في الحال إلى الفندق حيث اختبأ حتى ساعة وصول باص أراكاجو. كان ينقص أفيو أولر الخبرة العميقة في اقتحام العشيقات. من يرغب في التعامل مع نساء مصاحبات يجب أن يعرف قبل كل شيء طبيعتهن النفسية ووجهات نظرهن في الشخص الذي يضعهن تحت حمايته. وإذا كانت غالبية المصاحبات قد أعطين أنفسهن للمتعة والمجازفة بوضع القرون لمن يصاحبهن، فإن أقلية منهن جديات ومخلصات للعهود وبعض رجالهن ذوو دماغ حساس في هذه الأمور ولديهم حساسية للقرون.

وبواسطة ألفريدو عرف الأستاذ سبب تأخر تريزا مع كتب القراءة ودفاتر الخط، لقد التحقت بالمدرسة قبل أن تباع إلى النقيب، خلال سنتين ونصف أعطتها المعلمة مرسيدس ليما ما استطاعت من المعرفة التي لم تكن شيئاً يذكر، وأرادت تريزا أن تقرأ الكتب الموزعة في البيت فانكبت على الدراسة.

وبالنسبة إلى إميليانو غويدس كان عملاً ممتعاً أن يتابع ويوجه خطوات الصغيرة تريزا، مساعداً إياها على التمكن من القواعد والتحليلات اللغوية، وكان الأستاذ قد علم تريزا أموراً كثيرة في الحديقة والبستان والبيت والشارع وإلى طاولة الطعام وعلى مرّ الأيام، ولكن بالنسبة إلى تريزا لم يكن شيء أكثر فائدة ومتعة لها من ذلك الدرس المميز. وقبل أن يذهب كان الأستاذ يترك لها واجبات لتقوم بها ومواد للدراسة وتمارين لغوية. لقد ملأت الكتب والدفاتر وقت تريزا الفسيح مانعة عنها السأم والقلق.

وكان جوان ناسيمنتو قد جلب لها طبخة شهيرة هي العجوز أيولينا، المتأففة المتدمرة من الحياة وذات المزاج السيئ، ولكن أية فنانة في الطبخ هي! إنها في إعداد الطبخ المعقد والصحون الشهيرة في سرجيبي وباهيا وفي إعداد سمكة الأغواس الحارة موهوبة تستحق التقدير. وتعلمت معها تريزا أن تضع كمية الملح اللازمة، وأن تمزج البهارات، وأن تطلع على الإعداد الدقيق للطبخ، وأن تتعلم قواعد وضع السكر والزيت وكمية الكوكو والبهار والفلفل في الطعام. وعندما كانت العجوز أيولينا تجلس ورأسها مثقل بالهموم وصدرها مشحون بالألم، كانت تترك كل شيء وتذهب في الحال غير راضية، وكانت تريزا تشغل المكان الفارغ أمام موقد الحطب الكبير "من يريد أن يأكل لذيذاً وأفضل ما يكون، فلا يوجد لإعداد ذلك ما هو أنسب من فرن الحطب".

- "هذه العجوز أيولينا في كل مرة تجيد أكثر صنع الطعام..." قال الأستاذ ذلك وهو يكرر وضع شريحة من الدجاج في صحنه "إن شواء دجاجة معدة بالتوابل لتكون صحناً بسيطاً هو من الأمور الأكثر صعوبة. لماذا ضحككت، تريزا؟"

- أخبريني، هيا.

لم تلمس العجوز الدجاجة ولم تهتم بالشواء لأنها كانت قد اختفت في نوبة من نوباتها المزاجية. أما الحلويات فأجل، حلوى الكرز والجاكا والأراسا، كانت من صنع أيولينا. "بالله، يا تريزا كيف أصبحت طبخة، متى، ولماذا؟".

"هنا في بيتك يا سيدي، ولأعجبك أكثر. تريزا في المطبخ وفي الفراش وفي
الدرس".

رجوع ألفريدو إلى المصنع وضع حداً لمرحلة من مراحل حياة تريزا وإميليانو،
وكانت المرحلة الأصعب. لقد كان ألفريدو صامتاً، هادئاً، ومزيجاً من جنيناتي
ومستزلم، رجلاً شجاعاً وصديقاً وفياً، وبعنايته أثمر البستان وأزهرت الحديقة وفي
ظل ما تركه تبادلاً الثقة واللباقة والعطف. تعودت تريزا على صمت ألفريدو
ووجهه البشع ووفائه.

بوجود الأستاذ كان الوقت لا يتعدى المقبلات، الغداء، العشاء، الأصدقاء
الكتب، النزهات، وحمامات النهر، والمائدة، والفراش، الشبكة الأرجوحة
الموضوعة في الحديقة، أريكة الصلاة الكبيرة حيث يتفحص الوثائق ويخط الأوامر،
والمنير في الغرفة حيث تخطط وتدرس، والحمام حيث يستحمان معاً وكان ذلك
واحداً من اختراعات الأستاذ الأكثر جنوناً. هنا وهناك وهناك وأينما كان، فهو
طيب.

17

حوالي الثانية صباحاً عاد الدكتور إماريليو ومعه شهادة الوفاة وأخبار أهل
الأستاذ، ولكي يعرف مكانهم في حفلة أياي كلوبي، كان قد أيقظ نصف
أراكاجو غير سلسلة من المكالمات الهاتفية إلى أن توصل إلى التكلم مع الابن
الأصغر كريستوفالو الذي يظهر السكر في صوته؛ كان نضالاً استغرق أكثر من
ساعتين. لحسن الحظ أن عاملة الهاتف بيا توركا لم تتذمر من تجاوز الوقت المحدد
للعمل، فهي كانت فضولية وذات اهتمام بمعرفة الأخبار وتفاصيل موت الثري
الكبير. والحقيقة أن الطبيب ولكي يحصل على رضى عاملة الهاتف، أطلعها على أن
موت الأستاذ جاء وهو عار وفي ظروف خاصة جداً. ولم يستلزم الأمر إعطاء
التفاصيل لأن بيا توركا، ربما بفضل المهنة والاختبارات، كان عندها لاقطات
هوائية ذات قدرة عجيبة.

- لقد تعلق بيا توركا بالهاتف إلى أن تمكنت من الحصول على أراكاجو
وكانت متعاونة جداً، وعندما علمت بمكان العائلة انتهت إلى القول "فيها". في

الحقيقة لم يكن بالإمكان سماع شيء بسبب الموسيقى الصاخبة في الاحتفال ومن حسن الحظ أن هاتف أياقي يقع في المشرب وكان كريستوفافو هناك يشرب الويسكي، وعندما أعلمته النبأ اعتقد أنه فقد صوته لأنه ترك الهاتف وتركني أصرخ إلى أن جاء شخص آخر وذهب لينادي على الصهر الذي قال إنهم كانوا سيغادرون المكان في الحال.

ومع الطبيب كان قد وصل جوان ناسيمنتو حزينا متأثراً متخوفاً: "ويلي يا تريزا أية مصيبة! لقد كان إميليانو أصغر سناً مني بثلاث سنوات ولم يكمل بعد الخامسة والستين. لم أفكر قط أنه كان سيرحل قبلي. كان قوياً ولا أذكر أنني رأيته مرة يشتكي من سبب صحي".

تركتهم تريزا في الغرفة وخرجت لإعداد القهوة بينما كانت نينا في حالة هستيرية متشكية باكية لا يستطيع أن يعزبها أحد وكأنما كانت حفيدة، أو قرية أو نسية. لولا ينام جالساً إلى طاولة المطبخ ورأسه فوق ذراعيه، وذهبت تريزا بنفسها لتقديم القهوة.

في فراش الشراف النظيفة مرتدياً كما لو أنه كان سيرأس اجتماعاً لمديري المصرف الإقليمي في باهيا وسرجيبي، رقد إميليانو غويدس وعيناه الوضاعتان ما تزالان مفتوحتين ومركّزتين على الحياة والأشخاص تريدان أن تريا كل شيء وأن ترافقا منذ البدء رحلة جسده الطويلة في بيت العشق حيث مات وهو يشهق بالرجفة الجنسية. وإذا جوان ناسيمنتو برموش عينيه المبللتين يعود بالكلام إلى الطبيب:

- لا يبدو ميتاً عزيزي المسكين إميليانو. إن عينيه مفتوحتان ليأمر كلاً منا كما فعل منذ كان طالباً في الكلية. الوردية في اليد ولا ينقصه غير الباستون. القاسي والكريم، أفضل صديق، وألد عدو إميليانو غويدس سيد كاجازيراس.

- "لقد قتله الاشمزاز" كرّر الطبيب تشخيصه "لم يفتح قلبه لي قط ولكن الأخبار سرت، وعرفت ذلك دون أن أسأل. كان صديقك إلى هذا الحد، ألم يقل لك شيئاً أبداً يا جوان؟ حتى قبل أمس؟ ألم يقل شيئاً متعلقاً بابنه أو بصهره؟"

- لم يكن إميليانو شخصاً يتحدث عن حياته لأصدقائه. لم أسمع قط من فمه غير الإطراءات على العائلة، فكل أفرادها صالحون، كاملون، إنها العائلة الإمبراطورية. لقد كان متكبراً جداً فلا يتحدث إلى أحد كائناً من كان عن أي

شيء غير لائق بحقّ عائلته. كان عنده ضعف تجاه ابنته كما أعلم، عندما كانت عزباء كان في كل مرة يأتي إلى هنا يتكلم عنها طيلة الوقت، عن جمالها، ذكائها، وأفعالها الطيبة، بعد أن تزوجت لم يعد يتكلم...

- ماذا يقول؟ يتكلم عن القرون التي تضعها في رأس زوجها؟ لقد شأهت أباهأ، فإذا هي حارة الدم وشهوانية، ملتهبة، ويقولون إنها تمنع فساداً في بيوت أراكاجو. هي من جهة، وزوجها من جهة أخرى، وهو ليس أقل منها فحشاً، وكل واحد يعيش الحياة التي يرغب فيها.

- "إنها الأزمنة الحديثة والزيجات الاعباطية.." انتهى جوان ناسيمنتو إلى القول "مسكين إميليانو، كان مجنوناً بعائلته وأولاده وإخوته وأحفاده يساعد حتى آخر أقربائه. وها هو يبدو حياً ولا ينقصه إلا الباستون في اليد..".

عادت تريزا وصينية القهوة معها:

- الباستون، لماذا يا سيد جوان؟

- لأن إميليانو كان يستعمل في الوقت نفسه الوردة والباستون الفضي.

- "ليس معي يا سيد جوان، ليس هنا" وكانت تلك الحقيقة.

- "في بعض الأشياء، يا تريزا، إنك تشبهينه، أنظر إليك وأرى إميليانو. مع التعايش أصبحت مماثلة بالوفاء، والكبرياء، وأعرف ماذا بعد..." صمت برهة ثم تابع:

- أردت أن أراك الآن وأستأذن ما دام برفقتك، ولا أريد أن أكون هنا حاضراً حين يصل أهله. لقد جاء إلى أشتانسيا بسببك وأعطى بعض وقته المليء لنا ونقل إلينا حبه للحياة. عندما وصل كنت قد استسلمت للشيخوخة بانتظار الموت، فبعثني من جديد. أريد أن أستأذن منه أمامك، أما الآخرون فلا أعرفهم ولا أريد أن أتعرف إليهم.

خيم الصمت من جديد، بينما الميت منفتح العينين. ثم تابع المعلم جوان:

- لم يكن عندي قط إخوة يا تريزا، ولكن إميليانو كان بالنسبة لي أكثر من أخ، ولم أفقد كل ما تركه والدي إلا بفضلله هو لأنه كان يهتم بأعمالي ومع ذلك لم يفتح فمه يوماً بشكوى لي. حتى في هذه اللحظة كنت أقول لإماريليو: الكبرياء، والكرم، والباستون والوردة. لقد جئت لأرى إميليانو وأراك أنت يا تريزا. هل أستطيع أن أخدمك بشيء؟

- شكراً جزيلاً يا سيد جوان. لن أنسى قط السيد ولا الدكتور إماريليو، ففي هذا الوقت الذي عشته هنا كان لي أصدقاء وهبني إياهم.

- هل ستبقين في أشتانسيا يا تريزا؟

- من دون الأستاذ لا أستطيع يا سيد جوان.

ارتشفا آخر جرعة من القهوة وبقيتا صامتتين. جوان ناسيمننتو يفكر في مستقبل تريزا، المسكينة تريزا، يقولون إنها عانت معاناة قاسية قبل أن تأتي لتعيش مع إميليانو، لقد عاشت سابقاً عيشة الكلب. الطبيب، محزوناً، ينتظر الكاهن لاستقبال أهل الذين هم في هذه الساعة على الطريق في سباق جنوبي إلى أشتانسيا: الابنة، الصهر، الأخ، الكنة، والمرافقون.

يخاف الدكتور إماريليو من لقاء العائلة مع العشيقة، إنها مشكلات حساسة، ولا يعرف الطبيب كيف يحلها. لا يعرف جيداً بعض أقارب الأستاذ إميليانو. من يعرفهم جيداً هو الكاهن غينيسوس إذ كان قد ذهب سابقاً عدة مرات إلى المصنع لكي يقيم القداس... أين هو الكاهن، لماذا تأخر حتى الآن؟ تأمل جوان ناسيمننتو صديقه الميت طويلاً، وبدا عليه التأثير فلم يخف دموعه وخوفه من الموت:

- لم أفكر قط أنه سيرحل قبلي، ولم يعد دوري متأخراً... تريزا يا ابنتي أنا ذاهب في الحال قبل أن يصل هؤلاء البشر. إذا احتجت إليّ في يوم... غمز تريزا، ولمس جبهتها بشفتيه قليلاً، وبدا أكبر سناً في تلك اللحظة من الساعة التي وصل فيها ليرى صديقه الميت ويستأذنه بالانصراف. "إلى اللقاء العاجل يا إميليانو".

18

ألم تحسي يا تريزا أبداً بضربة الباستون، والألم الأليم، وقلة الطراوة فيه؟ ألم تلمسي الباستون من الناحية الأخرى من ناحية قبضة الفولاذ؟ قبل تلك الليلة التي شيعنا بها جثة المواطن الرفيع الشأن الأستاذ إميليانو غويدس في بيته غير الشرعي، ألم تكوني يا تريزا مدخولة بالموت ولم تكوني من قبل قد رأيت الموت متمدداً فيك تمهدداً مادياً حقيقياً مع رغبة متقدة ناراً وبرداً في بطنك الأملس؟ ألم يحدث لك هذا يا تريزا؟

أجل، حدث، يا معلم جوان؛ إنما بيد الموت نقلت إلى حدود الفهم واللباقة. ولم تعيش تريزا مع الأستاذ حياة ناعمة دائماً، فقد عرفت أوقاتاً من الحزن والنضال، والشعور بالموت. ولقد امتد الموت داخلها قبل الموت وتغلغل في أحشائها في رحلة من رحلات المرارة. وأحست بنفسها ميتة، ولكنها ولدت من الحب من جديد ومن معاملة العشيق لها: عطف، رفاهية، وفاء، كلها كانت أدوية عجائبية. الموت والحياة، الوردية والباستون.

ولكنك لن تسمع الحكاية من فم تريزا النظيف والوفي يا معلم جوان. وبين أصابع الميت وضعت فقط وردة الوداع. ولكن. شاءت أم أبت، فإن الذاكرة تسجل. تجلب وتمتد إلى جانب جثة الأستاذ جثة من لم يموت ويدفن، جثة من لم يصل بعد إلى الموت، جثة من انطفأ قبل أن يولد، الجثة التي تبعثرت بالدم، جثة الجنين. إنهما الآن جثتان فوق الفراش، فراقان، موتان، وكلاهما نما في داخلها. مع تريزا، إنهم ثلاثة أموات، لقد ماتت هي اليوم للمرة الثانية.

عندما تأخرت عادتها الشهرية الدقيقة ذات الثمانية والعشرين يوماً، ومع علامات أخرى بدت عليها، فإنها أحست بقلبها يتوقف: لقد كانت حاملاً. الشعور الأول كان تألقاً نفسياً، لقد كانت تظن أنها عاقر ولن يكون عندها ابن. ابنها هي والأستاذ، يا للفرح الذي لا حدود له.

في مزرعة النقيب، لم تكن السيدة بريجيда تسمح لها بالعناية بحفيدتها، لا بالعناية ولا بملاعبة الطفلة، إذ كانت ترى في تريزا عدوة، تأكيد المكائد والمؤامرات لتفرد بميراث ابنة دورس، ذلك الميراث الذي سيشتمل على كل أملاك جوستينيانو دوارتي دا روزا عندما يهبط من السماوات إله الثأر وبيده سيف النار. بعد ظهر يوم أحد، وبدعوى من ماركوس ليموس، كانت تريزا قد خرجت من نزل غابي في كيا داغو لتشاهد عرضاً سينمائياً في مركز مدينة كاجازيراس الشمالية. وبينما كانت تحتاز محلة ماتريز، شاهدت السيدة بريجيда مع الطفلة في باب دارتها الخاصة التي كان قد اشتراها الدكتور أوبالدو ورهنت، وكادت تضيع ثم استعادتها في النهاية، جدة وحفيدة في الرفاهية والرضى، لم تكونا تبدوان كما في السابق العجوز المجنونة ذات الدماغ المنحل والطفلة الملائكية، صحيح ما يقولون إنه ليس لبعض أوضاع السوء من علاج أحسن فعالية من المال. في المزرعة، كانت السيدة بريجيда

قد منعت تريزا عن لمس الطفلة وكذلك عن لمس اللعبة هدية العرّابة السيدة بياتريز أم دانيال. لم تحبل من دان في فراش المتعة. وأكثر من سنتين مع النقيب لم تستطع الحصول على طفل وذلك دون أن تحتاط، مع أن النقيب لم يكثر بالأمر ولا يعترف بالأبوة. وعندما كانت إحدى الفتيات تبدو حاملاً كان النقيب يصرفها بلا رحمة. أجهضي، أولدي، افعلي ما تريدين، فالنقيب لا يهتم بهذا.. وإذا جاءت إحداهن وابنها على ذراعها تطلب مساعدة كان يرسل ترتو كاشوخوا يركض وراءها ليطردها... ابن شرعي، فقط، من دورس.

"إنها عاقر وأرض بوار"، قالت تريزا ذلك للطبيب عندما كانا قد وصلا حديثاً إلى أشتانسيا، فأوصاها بالاحتياط واتباع أساليب منع الحمل.
- لم أضع طفلاً قط.

- أحسن. لا أريد طفلاً في الشارع، كنت دائماً ضد الفكرة، إنها مسألة مبادئ. ليس لأحد الحق في أن يضع طفلاً في هذا العالم ويتركه في وضع غير لائق. وأكثر من ذلك فإن من يتحمل مسؤولية عائلية، لا يجب أن يكون عنده ولد خارج نطاق البيت. إن الابن الشرعيّ يؤتى به من زوجة في البيت. الزوجة وجدت لتحمل وتلد وتربي الأولاد، أما العشيقة فلمتعة الحياة، وعندما تبدأ بالاهتمام بالطفل تصبح كالزوجة وأي فرق بينهما حينئذ؟ أولاد في الشارع، لا، هكذا أفكر. أريد تريزا لراحتي، لتجعل حياتي فرحة في الأيام الباقية لي، وليس من أجل الأولاد والذوبان من أجلهم. هل أنت موافقة يا قرص العسل؟

غرس تريزا عينيها الوضائتين في الأستاذ كأفهما صفيحتا فولاذ زرقاوان:

- لا أستطيع حتى أن أنجب.

- هكذا أفضل إن أخوي ميلتون وكريستوفافو قد أنجبا أولاداً في الشارع، أما كريستوفافو فعنده عائلتان وسلسلة من الأولاد وهذا هو الأسوأ. الزوجة شيء، والعشيقة شيء آخر ومختلف. أريدك لنفسك ولا أريد أن أتقاسمك مع أحد، فكيف بالحري مع طفل، بالإضافة إلى هذا هنالك مسألة سني. لم أعد في السن الملائمة لإنجاب طفل صغير، ولن يكون عندي الوقت لأجعل منه رجلاً. أريد أن أكرّس لك كل وقتي الباقي... "ثم أخذها بين ذراعيه، "إن العشيقة هي لهذا يا قرص العسل..".

ولكنها لم تكن عاقراً، آه فإن طفلاً من الأستاذ ينمو في أحشائها، هاليلويا! وتجاوزت انفجار الفرح الذي لا يمكن وصفه، ثم راحت تفكر، لقد تعلمت التنكر في السجن، إن الأستاذ كان على حق: وضع طفل طبيعي في هذا العالم هو الحكم على البريء بالألم. في نزل غابي شهدت على أكثر من حالة: ابن كاتارينا مات في الشهر السادس بسبب المعاملة السيئة التي عاملته بها المربية التي جيء بها لتعتني به. ابنة فيفي بقيت تعاني من الضعف في صدرها وتنزف دماً بسبب سوء التغذية الذي سببته للطفلة العجوز اللعينة الموكل إليها أمر تربية الصغيرة، والتي كانت تصرف على الكاشاسا المال الذي تعطيها إياه فيفي لتعيل ابنتها. النساء في السوق العمومية والأولاد في كنف الإهمال. كان أسوأ ما في تلك الحياة العامة هو الحزن على الأطفال.

19

كان قد مضى على غياب الأستاذ ثلاثة أسابيع وهو يعالج مشاغل مهمة في باهيا في حرم المصرف، فذهبت تريزا إلى عيادة الدكتور إماريليو: امتحان نسائي، أسئلة، تشخيص سهل إنه الحمل. "والآن يا تريزا؟" ظلّ ينتظر الجواب بينما عينا تريزا تائهتان، غائرتان: آه، ولد يولد منها ومن الأستاذ، ينشأ جميلاً ومدللاً، وله عينان زرقاوان بحريتان ويقوم بحركات لطيفة ولا ينقصه شيء في هذا العالم، ويصبح وجيهاً مثل أبيه! أو ربما فتاة هوى من زقاق إلى زقاق ومن يد ليد؟ - إني أريد أن أجهض، دكتور.

كان للطبيب وجهة نظر ثابتة وتحفظات مناقبية في هذا الصدد: - إني لا أوافق على الإجهاض يا تريزا. لقد قمت سابقاً ببعض الإجهاضات ولكن في ظروف خاصة وللضرورة القصوى، ولكي أنقذ حياة النساء اللواتي لم يكن قادرات على الحمل. إن الإجهاض هو دائماً خطر للمرأة جسدياً ونفسياً. ليس لأحد الحق في أن يتصرف في حياة...

حدقت تريزا في الطبيب، فهذه الأشياء سهلة لتقال ولكنها صعبة لتسمع: - "وعندما لا يكون للأشياء حل؟ أنا لا أستطيع أن أنجب طفلاً فالأستاذ لا يريد" ورفعت صوتها لتكذب "وأنا كذلك لا أريد. ولد دون أب، لا أريده. إذا لم

يكن السيد راغباً في عملية الإجهاض، فإني سأدبر من يقوم بالعملية ولا يعوز أشتانسيا أشخاص كهؤلاء؛ القابلة توكا قامت حتى الآن بعمليات إجهاض كثيرة وتقريباً تقوم بعملية في الشهر. سأتكلم معها".

ولد دون أب، مسكينة تريزا. إن الطبيب يخشى المسؤولية:

- لن تتسرع في ارتكاب حماقة يا تريزا، وليس من داع لكل هذه العجلة. لقد سافر الأستاذ منذ وقت طويل، أليس كذلك؟ لن يتأخر في الرجوع. سننتظر إلى أن يأتي ليقرر. وإذا لم يرد أن تجهضي؟

وافقت. لا تريد شيئاً آخر غير الاحتفاظ بالأمل: آه، ولد، ابنة، وفوق ذلك ابن الأستاذ:

ووصل إميليانو بعد عدة أيام في ساعة الغداء، ولكن لشدة اشتياقه إلى تريزا وقبل أن يذهب إلى المائدة الجاهزة، حمل العشيقة إلى الغرفة وابتدأ بالاحتراق مع الضحك والمزاح "إني جائع إليك، جوع وعطش إليك يا تريزا". لم يرها كذلك عصبية قط، فرح غامر وسحنة انشغال ذهني. ومرّت الرغبة الأساسية فتمددا في الفراش ويده فوق بطن تريزا، فأراد أن يعرف:

- إن لدى حبيبي تريزا شيئاً تقوله، أليس كذلك؟

- أجل، لا أعرف كيف حصل الأمر ولكني حامل.. إنها بشرى سعيدة جداً إذ كنت قد اعتقدت أنه لن يكون لي ولد قط.

عتمت غيمة وجه الأستاذ، وأصبحت يده ثقيلة فوق بطن تريزا وأصبحت عيناه الوضاءتان قطعتي فولاذ زرقاوين باردتين. صمت لثوان مرّت كأفها الزمن، وكأن قلب تريزا قد توقف:

- يجب أن تجهضي يا حبيبي، إني لا أريد ولداً في الشارع وقد شرحت لك سابقاً السبب، هل تذكرين؟ ليس من أجل هذا جئت بك إلى قربي.

كانت تريزا تعلم علم اليقين أن القرار لن يكون غير هذا، ولكن ليس بسبب معرفتها هذه كان سماعها للأمر قاسياً. لقد انطفأ في داخلها النور. وصارعت قلبها:

- أذكر وأظن أن السيد على حق. لقد قلت للدكتور إماريليو أنني أريد أن أجهض بأي طريقة، ولكنه طلب مني أن أنتظر عودتك لتقرر. بالنسبة لي فقد

قررت وأريد أن أجهض. مع صوتها الواضح والأكيد، شبه العدائي، لم يستطع الأستاذ أن يتلع شيئاً أكيداً كهذا.

- لقد قررت أن لا يكون عندك طفل مني.

نظرت إليه تريزا متعجبة، فلماذا يسألها هذا السؤال إذا كان هو نفسه قد قال، عندما كانا قد استقرا في أشتانسيا، إنه لا يريد ابناً في الشارع، والابن تستطيع الزوجة وحدها أن تحمل به، وإن فراش العشيقة هو للمتعة، وإن العشيقة هي لتمضية الوقت؛ ألم ير كيف سيطرت على نفسها لتتمكن من الإدلاء بالقرار بصوت ثابت ودون أن ترتجف شفتاها؟ إنه يقرأ أفكار تريزا. فكيف لا يعرف كم هي راغبة في طفل وكم تكلفها الشجاعة التي تبديها؟

- "لا تسألني هذا، إنك تعرف أنها ليست الحقيقة. إني سأجهض لأنني لا أريد طفلاً يعيش ما عشته أنا. ولو كان الأمر مختلفاً لما فعلت وحتى لو كان ضد إرادة الأستاذ". رفعت تريزا عن بطنها يد الأستاذ الثقيلة، ونهضت من الفراش واتجهت نحو الحمام. وترجل إميليانو بسرعة وأمسك بها وأعادها، إلهما عاريان، وجهاً لوجه. وجلس الأستاذ إلى المنصة حيث تعود أن يقرأ وتريزا على عنقه:

- سامحيني يا تريزا. لا يمكن أن يكون الأمر غير كذلك. أعرف كم هو صعب ولكني لا أستطيع أن أفعل شيئاً، فلديّ مبادئ وقد كلمتك سابقاً. لم أخدعك أبداً. إن لديّ مشاعر أيضاً، ولكن ليس من الممكن الاحتفاظ به.

- "كنت أعرف. من قال إن الأستاذ ربما كان يريد طفلاً هو الدكتور إماريليو والجدباء أنا". بدت ككلب يضربه سيده، صوتها المرتجف عبر عن ألم؛ تريزا باتيستا على عنق الأستاذ والعشيقة لا يحق لها إنجاب طفل... انتبه الأستاذ إلى الحزن الذي لا نهاية له:

- "أعرف ما تحسین به، تريزا، ومع الأسف لا يمكن أن يكون الأمر بطريقة أخرى، لا أريد ولن يكون لي ولد في الشارع، لن أعطي اسمي. إنك تتساءلين بالتأكيد ما إذا لم يكن عندي الرغبة في طفل مني ومنك. كلا يا تريزا ليس عندي. إني أريدك أنت وحدك دون أحد آخر. لا أحب أن أكذب وإن لتعزية الأحزان". واتخذ وضعيّة كما لو أن ما سيقوله سيكلفه الكثير:

- "اسمعي يا تريزا وقرري أنت بنفسك. إني أريد لك كل الخير إلى حدّ أنني مستعد لأن أتركك تأتين بطفل إذا كنت تريدين وأن أعيلك ما دمت حياً، ولكن لن أعترف به ابناً، ولن أعطيه اسمي، وبهذا تنتهي حياتنا المشتركة. إني أريدك أنت، تريزا، وحدك، دون ابن، ودون أحد ولكني لا أريدك رغم إرادتك، حزينة مجروحة، وسيكون سيئاً ما كان حتى الآن جيداً، قرري يا تريزا واختاري بيني وبين الطفل. لن ينقصك شيء، أكفل ذلك، ولكن لن يكون لك شأن وإيائي". لم تتردد تريزا، وبينما تضع ذراعيها حول عنق الأستاذ أعطته شفيتها ليقبلهما: إنها مدينة له بأكثر من الحياة، مدينة له بحب الحياة.

"بالنسبة لي فإن السيد قبل أي شيء".

جاء الدكتور إماريليو ليلاً وتحدث على انفراد مع إميليانو في الصالة. ثم ذهباً لملاقاة تريزا في الحديقة وعيّن الطبيب صباح اليوم التالي موعداً للعملية، في البيت، هناك بالذات.. أين هي التحفظات المناقبة المتشددة، ووجهة النظر التي لا تقبل الجدل يا دكتور إماريليو، وأية نهاية حملتها؟ لقد اختفت كلها يا تريزا فطبيب الريف لا يحق له بوجهة نظر ورأي مستقيم، ولا يعدو كونه أداة بتصرف أسياد الموت والحياة.

- نامي مطمئنة، يا تريزا، إنها عملية إجهاض بسيطة، شيء لا يذكر.

شيء لا يذكر وحزين، دكتور. اليوم بطني خصب وغداً مرعى للموت. إن الدكتور إماريليو لا يفهم النساء. لم تذهب تريزا باتيستا إلى العيادة لغرض الإجهاض، وما دام الأستاذ لا يفعله فإنها كانت لتذهب إلى أية فضولية أخرى من أولئك النساء اللواتي يرسلن إلى الملائكة في السماء الأجنة التي يجهضنها، فلماذا إذا النظرة الحزينة والوجه المتألم؟ لماذا؟ لأن الطبيب كان أمل تريزا الأخير في النضال من أجل طفل، وربما كانت تحفظات الطبيب ووجهة نظره التي لا تقبل النقاش حول أن لا أحد يستطيع التصرف بالحياة المقررة ويقرر موت الآخرين. لعل كل هذه الأمور كانت تستطيع أن تبدل مبادئ الأستاذ... ولد في الشارع؟ لا. فاختاري بين الطفل وبينني. وداعاً يا ابني الذي لن أعرفه، وداعاً أيها الطفل الذي أريده، وداعاً.

الشيء الذي لا يذكر مرّ دون مضاعفات! وظلت تريزا في الفراش فقط عملاً بنصيحة الدكتور تحت وإصرار إميليانو الذي لم يتركها وحيدة لدقيقة واحدة وهو

يقدم لها الشاي والقهوة والمرطبات والفواكه والشوكولاته والملبس ويقرأ لها ويعلمها الخدع بورق اللعب متوصلاً إلى جعلها تبتسم طيلة تلك المرحلة الكثيرة. على الرغم من المكالمات الهاتفية المتكررة والضرورية من أراكاجو وباهيا بسبب مشاغل مهمة، فقد تأخر الأستاذ أسبوعاً كاملاً في إقامته مع عشيقته. أيام دلال وغنج ولباقة تصرف وتفان لا حُدَّ لها ريثما تحس تريزا بنفسها نظيفة من كل شعور بالاشمئزاز، مدفوعة بالتضحية، وسيدة في أن تعيش دون أن يبقى فيها أية علامة واضحة. هكذا كان الأستاذ، الباستون والوردة.

20

في باب الحديقة التقى الكاهن فينيسيوس بجوان ناسيمننتو فتصافحا ومعهما الجمل المعدة للمناسبة: "ما هذا؟ إن صديقنا حتى قبل أمس كان ما يزال في صحة جيدة، هكذا هي الحياة، لا أحد يعرف ما يحدث غداً، وحده الله يعرف كل شيء". واختفى المعلم جوان في الشارع الذي ما يزال مظلماً. دخل الكاهن إلى الحديقة ومعه الشماس الأحذب العجوز النحيف وهو يحمل أشياء خاصة بالطقوس الدينية وجاء الطبيب لملاقاة المحترم:

- أخيراً وصلت يا أبانا. كنت قد أصبحت عصبياً.

- إن إيقاظ كليرينسيو ليس مسألة سهلة وكان عليّ أن أمر بالكنيسة.

أنزله كليرينسيو إلى داخل البيت، وهو يعرف نينا منذ سنوات طويلة. النجوم تشحب في السماء، والليل يتقدم ولن تتأخر علامات الفجر الأولى. وتأخر الأب فينيسيوس في الحديقة يتحدث مع الطبيب وهما يجلسان النبا جيداً، وكان الكاهن ما يزال يغالب النعاس عندما ألقى الدكتور إماريليو الحكاية على مسمعه، وهو الآن يريد التأكيد:

- فوقها؟

- أجل فوقها.

- في الخطيئة المميتة!

- إذا كان في المسألة خطيئة، يا أبانا، فنحن كلنا شركاء فيها، أجل لقد

اشتركتنا في حياتهما وعشنا معهما..

- لا أقول غير هذا يا حضرة الدكتور العزيز، ولكن ما الذي يمكن عمله؟
وحده الله هو القادر على كل شيء، له الحق في أن يحكم ويغفر.

- أبانا! أنا أعتقد أن الأستاذ إذا ذهب إلى الجحيم فليس لهذا السبب بل
لأسباب أخرى...

دخلا معاً إلى غرفة الطعام حيث كان الشماس يتمتع بالطعام مع تنهدات نينا.
في الغرفة، وهي تجلس إلى كرسي إلى جانب السرير كانت تريزا ممتعة.
وعندما سمعت الخطي أدارت رأسها، وتكلم الأب فينيسيوس:

- تعازي يا تريزا، من كان يعتقد؟ ولكن حياتنا هي بيد الله، فليرحم الله
الأستاذ وليرحمنا جميعاً.

- "آه، كل شيء إلا الشفقة يا أبانا، لو سمع الأستاذ لغضب، لقد كان يكره
الشفقة".

وجلس الأب فينيسيوس حزيناً كما يجدر به أن يكون. كان يحب الأستاذ
القدير، ولكن المحبوب والمثقف أيضاً قد مات، ومع موته انتهت أساليب الضيافة
الحضارية الوحيدة والرفقة الفرحة، والسجلات الحيوية، والخمور الممتازة المستوردة،
والمعيشة الحلوة، ربما سيستمر في الذهاب إلى المصنع ليقدم القداس في عيد السيدة حنة،
ويعمّد الأطفال ويزوّج أبناء الشعب، ولكن من دون الأستاذ لن تكون هناك الحيوية
نفسها. إنه يحب تريزا أيضاً، الكتوم، والذكية التي تستحق أفضل حظ، فإلى أية أيدٍ
ستذهب بعد اليوم؟ ولكن لا أحد منهم يمكن تشبيهه بالأستاذ. وإذا بقيت هنا فستظل
من واحد لآخر مرتمة بين أيدي نصف دزينة من الوجهاء والأغنياء.

من يدري إذا كانت ستسافر إلى الجنوب حيث لا يعرفها أحد هناك، وكونها
جميلة ومحبوبة فقد تتمكن من الزواج. ولم لا؟ إن حظ كل واحد بيد الله القادر
على كل شيء. وكان حظ الأستاذ أن يموت هنا، هنا فوق العشيق، في الخطيئة
المميتة، الرحمة يا الله، له ولها.

إن عيني الأستاذ النافذتين المفتوحتين تراقبان الكاهن فينيسيوس، إنهما لا
تبدوان عيني ميت. إن خطيئة الأستاذ الكبرى لم تكن هذه والطبيب على حق في
ذلك، كافر، فاحش، وإذا اقتضى الأمر، فهو بلا رحمة وغارق في الكبرياء! هذا
العالم، من يستطيع أن يفهمه؟

- ساعدك الله في هذه المحنة يا تريزا.

أهملت عينا الكاهن الحزینتان النظر في عيني الأستاذ المنقبتين وطافتا الغرفة، على الطاولات كتب وأشياء متعددة وخنجر فضي، في الحائط رسم نساء عاريات بين أمواج البحر، والمرآة الكبيرة لتعكس صورة الفراش عليها، وفقط وردة واحدة بين يدي الميت، غرفة فارغة من كل ما يشير إلى الإيمان، وبجدة كقلب إميليانو غويدس، هكذا حافظت عليها تريزا كما يحبها الأستاذ، ولكن العائلة ستصل، يا تريزا، في أية لحظة، وهم قوم متدينون، فحاولي أن تأخذي بعين الاعتبار إجراءات الطقوس الدينية والمظاهر.. فهل سنسمح لأهل الفقيد أن يجدوا جثة زعيم العائلة من دون أية إشارة إلى كونه مسيحياً؟ على الرغم من أنه كان كافراً، فقد كان مسيحياً يا تريزا، عليك أن تأمري بإقامة قداس في المصنع وأن تحضره إلى جانب الزوجة والإخوة والكنات والأولاد والأحفاد والأهالي والناس الآتين من بعيد. أمام الجميع، وهو واقف ليعطي المثل.

- ألا ترين يا تريزا أنه من المستحسن إشعال شمعتين على الأقل عند قدمي صديقنا؟

- كما تريد يا أبانا، أعط بنفسك الأوامر بذلك.

- "إيه تريزا، لا تطلين الشمعات بفمك ولا تضعينها بيدك! أنت والأستاذ، بئران من الكبرياء. الرحمة يا الله!" يتململ الكاهن ويرفع صوته:
- كليرينسيو! كليرينسيو! تعال إلى هنا. اجلب شمعاً.
- كم؟

نظر الكاهن إلى تريزا فوجدها ممتعة مرة أخرى، بعيدة، غير مكترثة بعدد الشمعات، وهي ترى، وتسمع وتحس بالأستاذ وحده وبالموت.
- اجلب أربعاً...

في ظلمة الليل تحرك الشماس إلى معدات الطقوس.

21

لم تبق علامة ظاهرة، وقد بذل الأستاذ جهده. فإن شخصاً واحداً لم يتبين أبداً أثر المראה في تصرف تريزا، وكأنما كانت قد استوصلت من ذاكرتها ذكرى

الحادث. ولم يعودا هي وإميليانو يتحدثان في الموضوع. نادراً ونادراً جداً، بعد ذلك، كانت عينا تريزا تضيعان في الفراغ، ويذهب تفكيرها بعيداً، وعندها كان الأستاذ ينتبه إلى الهرب القائم الذي تغطيه فوراً ابتسامة! آه.

إن الغياب الثقيل هو غياب ذلك الذي لم يشهد النور، والذي أحست به فقط عندما اغتصبت آلات الطبيب الحديدية من بطنها وانتزعته بأمر من الصناعي.

لم يعرف إميليانو غويدس قبل ذلك وجعاً في ضميره لعمل قام به. وفي مناسبات لا تحصى، وفي أعماله اليومية بوصفه إقطاعياً وصاحب مصنع ومصرفياً ورجل أعمال متشاجراً، آمراً، مرتكباً المظالم والسطور والأعمال المشينة، لم يحس بعذاب الضمير لأي شيء من كل ذلك، ولم يتذكر ما يؤسف القيام به أو إعطاء الأوامر بتنفيذه. كل تلك الأعمال كانت ضرورية وعادلة وحتى عملية الإجهاض فقد دافع عنها بحجة الدفاع عن مصالح عائلة غويدس وراحته الشخصية، هو إميليانو، فلماذا إذا يؤلمه العمل القبيح ويشعره بشعور متعب وملح؟

تريزا في الفراش، يابسة في باطنها، والأستاذ يذل جهده في أن يجعلها تبسم وسط ذلك الألم. في ذلك اليوم من اللف والدوران عرفت العلاقات بين العشيقين شيئاً من التبدل: لم تعد تريزا باتيستا لعبة بين يدي الأستاذ إميليانو غويدس، ولا نبعاً للذة ولا تسلياً للعجز الغني يمارسها عبر شغفه بالكتب والخمر ومراهنته باعتباره سيداً نبيلاً على أن يحول بنت مزرعة صغيرة في منطقة الداخل إلى سيدة كاملة بصبغها بصباغ التصرفات الحلوة والرهافة والذوق والأناقة. وكذلك في الفراش، فإنه كان قد وصل بها إلى الانفجار الجنسي الغرائزي لخبرته بالمداغة الطويلة، وبتكرير المتعة وتنقيتها في كل لحظة، وفي جعلها تكتشف وتفتح سلم اللذة درجة درجة. وفي الوقت نفسه يحاول أن يجعل من تريزا أنثى فوق العادة وامرأة وسيدة. إنها تسلية مؤلّهة، ونزق.

حتى ذلك اليوم من الرماد، عدّت تريزا نفسها قبل كل شيء جزءاً من الأستاذ وكان إقرارها بالفضل يحتل المكانة الأولى في عواطفها التي تربطها بالصناعي. لقد أصدر أمراً لإطلاقها من زنزانة السجن، ثم ذهب شخصياً ليأتي بها من غرفة السوق العمومية الكئيبة، وجعل منها عشيقته ثم عاملها كما لو أنها كانت أحداً ما، شخصاً ما، وبطية واهتمام، ووهبها حرارة إنسانية ولباقة، ووقتاً وانتباهاً

ورفعها من الضعة، ومن عدم اكتراث القدر بها، معلماً إياها أن تحب الحياة؛ وعملت تريزا من الأستاذ قديساً، وواحداً هو أعلى بكثير من الآخرين وهذا ما جعلها دائماً تشعر بالحياء، أمامه. لم تكن ندأ له، لا هي ولا أي شخص آخر؛ وفقط في الفراش، في ساعة الممارسة، كانت تراه رجلاً من لحم وعظم، ومع ذلك أيضاً كانت تراه متفوقاً على الآخرين بالأخذ والعطاء.. بالمقياس العاطفي، أو بالعاطفة نفسها، لا يوجد بالنسبة إليها من يمكن تشبيهه بالأستاذ.

لكي تختار بين الأستاذ وبين الحياة التي تحملها في بطنها فإن تريزا، ودون أن تعي، اختارت أن تقسم نفسها. لم يكن بإمكانها أن تتردد، ولم تتردد في اللحظة الباردة والقاسية التي تخلت بها عن جنينها وتصرفت بحياة وموت الآخرين. وفي برهة سريعة كان عليها أن تزن القيم الكبيرة ووضعت حب المرأة فوق حب الأم. ولا شك في أن الإقرار بالفضل لعب الورقة الأقوى في الاختيار. ودون أن تلاحظ، فإنها دفعت ثمن التقسيم في نفسها ونالت مصداقية لا حدود لها بالنسبة إلى العشيق. ووجدت نفسيهما قرييين جداً الواحد من الآخر، وغدا كل شيء أسهل من تلك اللحظة فصاعداً.

كان الأستاذ يعلم أن المصالح المالية لا تؤثر بشيء في القرار، فكفل لتريزا النفقة والحاجات الأخرى كاملة، وللطفل أيضاً، ولم يلزمها في الوقت نفسه بأي واجب أو اتفاق. "ما دمتُ حياً، فأنت والطفل سيكون لكما كل ما تحتاجانه، ولكنه لن يحمل اسمي، وأنت لن تكون لك علاقة بي"؛ المال يعني لها القليل، وإميليانو ظل متمسكاً بفكرة أن شيئاً لن ينقص العشيقة لأنها لا تسأل، لا تطالب ولا تحاول أن تستفيد. وخلال السنوات الست الماضية من المصاحبة لم تطلب تريزا أي مصلحة آنية. وإن كان قد وصل ليلة الوفاة، فقد أعطاها الأستاذ كالعادة أكثر مما تحتاج لتصرف على حاجاتها وحاجات البيت، لم يكن عندها نفقات شخصية، وعملياً كان الأستاذ يأتيها بكل شيء: فساتين على الموضة، أحذية، والقشدة والمراهم اللطيفة والعطور والجواهر وصناديق الشكولاته لتتقاسمها مع أطفال الشارع.

لم تكن تريزا جاهلة، غير مكترثة بالأشياء الطيبة والجميلة، بل على العكس تماماً، فكونها ذكية مرنة، كان عندها تقدير، وإعجاب بالأشياء الحلوة، وتعلمت أن

تميز بينها وأن تقدّر لها حق قدرها، ولكنها لم تجعل نفسها عبدة الانشراح، وصولية، ومتمسكة بالرفاهية. كانت تقدر كل غرض، وكل تذوق، وكل دلال، ولكنها تستطيع أن تعيش من دونها، لن ينقصها شيء سوى حسن المعاملة، وحرارة العواطف والانتباه الدائم، والصداقة الأليفة والحب.

وإن تكن قد اختارت العشيق في ساعة الاختيار، فإنها قد فعلت لأنها كانت تضعه فوق كل أشياء الدنيا بما في ذلك ولدها: "بالنسبة لي فإن السيد يأتي قبل كل شيء".

في اليوم التالي على الإجهاض، تفقد الدكتور تريزا ليسمح لها بمغادرة السرير والمشي في الحديقة "ولكنّها"، قال الطبيب، "ما زالت بحاجة إلى راحة القلب والجسد".

- "لا تخرجي من هنا لتشتغلي، يا عمّة، لا تستغلي قواك ولا تجهديهما"، وقد نادها عمّة ليشد من عضدها ويظهر لها التقدير: "أريد أن أراك قوية وفرحة".

- كن مطمئناً دكتور، لم أعد أحس بشيء أو أنك تظن أنني مدللة؟ كل شيء انقضى، تستطيع أن تطمئن.

متأثراً بشجاعة تريزا ورغبة منه في منحها المساعدة المطلقة، فإن الطبيب نصح إميليانو، بينما يستأذن الأخير بالانصراف عند مدخل الحديقة:

- عندما يذهب الأستاذ إلى باهيا ليأت معه بلعبة من هذه اللعب الكبيرة التي تتكلم وتمشي، إلى تريزا، فهذه تعزية لها.

- أو تظن، يا إماريليو، أن لعبة تستطيع أن تغني عن طفل؟ أنا لا أظن، سأجلب معي أشياء كثيرة، كل ما أجد من أشياء جميلة، ولكن لعبة، لا، تريزا يا عزيزي ليست فقط جميلة وشابة، إنها حساسة وذكية، إنها صغيرة السن ولكن عواطفها عواطف امرأة ناضجة مليئة بالخلق العميق. وقد أعطت لتوها البراهين على ذلك. لا يا صديقي، فأنا، إذا جئت بلعبة لتريزا فلن تحبّها، لو كان بإمكان لعبة أن تحل محل ولد فكل شيء في الدنيا يصبح سهلاً.

- ربما كان الأستاذ على حق. غداً أعود لأراها. إلى اللقاء، أستاذ.

من باب الحديقة رأى الأستاذ الطبيب ينعطف عند الركن ويده الحقيبة. "إن ما خسرت تريزا يا إماريليو وما أخذته منها عنوة مستخدماً الخدعة في ذلك، واضعاً

إياها بين الصليب والعطش، يمكن تعويضه بالعطف والحنان وحسن المعاملة والصدقة. الثمن يُدفع بالحب وحده".

عطف، حنان، حسن معاملة، صداقة، مال وتقديرات، هذه هي بالتأكيد العملة القوية في معاملة العشيقات ولكن يا إميليانو ماذا عن الحب؟

22

أشعل الشماس شمعتين عند أعلى الفراش وآخرين عند أسفله، بينما كان يدخل إلى الغرفة وهو يمضغ صلاة ويرسم إشارة الصليب، كان نظره النزق موضوعاً في تريزا يتخيلها في ساعة موت الأستاذ وهي تتلقى في حلقها الدم وقُبلة الموت، هل يمكن أن تكون هي قد بلغت الرجفة؟ شيء مشكوك فيه، فهؤلاء الفتيات المقيمات مع رجال مسنين، لا يفعلن في الفراش غير التمثيل ليخدعن العفنين تاركات اللهب الجنسي للآخرين، للفتيان والزبائن.

لم تكن نينا تعتدي على أحد، وعلى العكس، فمع كل ذلك أكدت أن تريزا حافظت على نفسها بشرف، وليس عندها أية سابقة معروفة ولا تستقبل آخرين في الخفاء. بالتأكيد بسبب الخوف، قال غويدس هؤلاء هم صنف من الظالمين... أو لتكفل لنفسها الرفاهية والراحة، فقد ضربت رجل شرف قوية في الأرض.. يمكن أن تكون شريفة ولكن ليس هذا بالأمر المؤكّد. هؤلاء المغرضات يخدعن القادرين، فكيف بالحري بعجوز أحرق موّلها بها وخادمة أمية؟

جالت عينا الشماس من تريزا إلى الكاهن فينيسيوس! "من يدري، الكاهن ربما؟" هو كلاي أسيو الشماس المنتبه، المتيقظ، لم يأخذ قط الكاهن في وضع مشين يهزّ رجله أو يرفع رداءه الكهنوتي. أما مع الكاهن فريتاس المرهف فالحديث كان مختلفاً: ففي البيت كانت الخادمة دائماً مباحثة، وكم جئته من الشارع إلى هنا. كانت أياماً جميلة بالنسبة إلى الشماس الذي كان يقوم بمهمته في الخفاء ووراء الأقنعة، الكاهن فينيسيوس شاب رياضي ذو لسان سليط قليل الصبر مع السيدات ولم يفسح المجال أبداً لتعليقات ثقيلة على الرغم من جد العمات في الشك في أمرها معه. ومع تلك العفة والترفع، فإن الكاهن لم يمتنع عن ارتياد منزل تريزا حجر العشق وبيت الخطيئة حيث كان يتخم نفسه بالطعام والنبذ متمتعاً بطعم الشص

الملقى له، طعم الشص فقط؟ ربما. في هذا العالم العتيق يمكن العثور على كل شيء حتى على كاهن بكر، مع كل ذلك فإن كليرينسيو لم يكن ليتعجب لو اكتشف أن الكاهن والفتاة كانا يأكلان نقرأ نقرأ كما السنونو. كاهن وفتاة سهل وصولهما إلى الجحيم، ومن عرف هذا فهو كليرينسيو الشماس والخبير. تريزا ممتعة في الكرسي. ألقى كليرينسيو عليها النظرة الأخيرة: "امرأة رائعة لو كان بإمكانه الحصول عليها. آه، أية متعة! ولكن ليس الليلة، ما دامت قد عاشت الموت فيها. وارتعد الشماس: إنها نموذج كرية". رسم إشارة الصليب، وكذلك الكاهن، وخرج الاثنان، كليرينسيو ليتابع الحديث مع نينا ولولا، والكاهن لينتظر عائلة غويدس في الحديقة. طلع الفجر مع رذاذ المطر. في الغرفة ما يزال هناك ظلام وأربع شمعات ونداء متردد تافه بين تريزا والأستاذ.

23

أصبحا يظهران معاً في الشارع خلال النهار. في البدء، يظهران في نزهاتهما إلى مسبح النهر حيث الحمام هناك كان متعة من متعات الأستاذ. ومنذ أن أقام بيت مصاحبة في أشتانسيا، أصبح الصناعي زبوناً دائماً لحمام كاشويرا دو أورو على نهر بياو تينغا، وحيداً أو بصحبة جوان ناسيمينتو كان يذهب إلى النهر في الصباح الباكر:

- هذا الحمام صحي يا معلم جوان.
- عندما عاد من سفرته الأولى بعد عملية الإجهاض جاء الأستاذ بألف تذكارات لتريزا ومنها مايو سباحة:
- لكي نذهب معاً إلى حمام النهر.
- "لكي نذهب؟ نحن الاثنان معاً؟" أرادت تريزا أن تعرف.
- أجل يا قرص العسل، نحن الاثنان معاً.

كانت تريزا ترتدي المايوه تحت الفستان بينما الأستاذ يتحفظ بستره قصيرة جداً تحت لباسه، ويجتازان أشتانسيا في اتجاه النهر، وعلى الرغم من الساعة الصباحية المبكرة، فإن الغسالات كن ينفضن الملابس وينشرها فوق الحجارة وهن يعضغن التبغ المعجون، وكانت تريزا والأستاذ يبدأان بأخذ دوش بارد في كاشويرا

دو أورو. ولكون المكان خالياً: كانا يركضان عبر ظلال الأشجار الكثيفة إلى حيث كان النهر يتسع وتتجمع في حوضه المياه النظيفة، إلى هناك كانا يذهبان بعد الدوش وهما يجتازان قطع الملابس التي نشرتها النساء.

كانت المياه في أعماق نقطة منها تصل حتى كتف الأستاذ. هناك كان يمد ذراعيه ليمسك تريزا ويعلمها السباحة. مع المزاح، والضحك المتعالي، والقبل المتبادلة بدلال؛ ويملّ الأستاذ تحت الماء ويمسكها من خصرها بيد ويده الأخرى داخل المايوه أو على ثديها، الرغبة تشتعل في حمام نهر بياوتنغا. عند العودة، كانا يكملان في البيت صحتيهما السعيدة في الحمام والفراش. صبيحات أشتانسيا لن تكون بعد اليوم.

في البدء أثارا فضول الجميع؛ وراء الشبابيك، المستطلعون والعزباوات يأسفن لتصرف الأستاذ الجديد وإن كان سابقاً تصرفاً وقوراً وحذراً؛ لقد أضاع الأستاذ التكتّم مع مرور الوقت، وأصبح عجوزاً مرحاً يريد أن يرضي نزوات الفاجرة الشابة. ولم تكن الخليعة تريد شيئاً آخر سوى التباهي بعرض العشيق الغني تتعلق به على مرأى من السكان مع عدم احترام العائلات. عند أعلى مستوى من الماء في النهر كان يقف عارياً لا ينقصه سوى أن يدخلها هناك على مرأى من النساء. على مرأى من الغسالات لا، لا، إنهن لا يستطعن أن يرين، وحدث ذلك عدة مرات؛ تريزا متعلقة بالأستاذ، على عجل، وخوفاً من أن يطلع أحد هناك، ولكن العمات لم يتخيّلن قط أن تريزا كانت قد أبدت مقاومة ما عندما دعاها.

- معاً؟ إن الناس سيتكلمون، وسيتدخلون في حياة الأستاذ.

- "دعهم يتكلمون يا قرص العسل" وبينما يأخذها من يديها أضاف: "لقد حان الوقت...".

أي وقت؟ ذلك الوقت في البدء كان وقت عدم الثقة والتفاهم؟ هي تعطي نفسها بعنف ومع الجوع إلى الملاطفة وهو يوجّهها شيئاً فشيئاً بصبر. كان وقت الاستعداد والتمرن، بينما ألفريدو يتعقبهما في الشارع. يصغي وينقل الأحاديث ويحرس الباب ويركض وراء ذوي الإغراء والمتدخلين في ما لا يعنيهم. وكان وقتاً تبقى فيه تريزا مخفية في الحديقة والبستان وداخل البيت ومنهمكة بمتطلبات المسؤولية التي ألقتها الأستاذ على عاتقها، وعلى الرغم من المجاملة والراحة

والاهتمام الدائم والحنين المتزايد، فإن بداية ذلك الوقت كان لها جذران وزنانات السجن. وكانت تريزا مرتكبة، خائفة، منسجمة ترى في طريقة التصرف تلك ثقل ذكريات الماضي القريب، وكان الأستاذ يتأمل في المواد الأولية الضرورية ليجعل منها عشيقه مثالية: الجمال، الذكاء، الأخلاق، وذلك البريق في العينين السوداوين، إنها ماسة خام يجب صقلها، وطفلة يجب تحويلها إلى امرأة. في ذلك الوقت كان مستعداً أن يضيع معها الوقت والمال والصبر، إنها تسلية مثيرة، ولكنه لم يكن يحسّ نحوها بشيء باستثناء التسلية والرغبة: رغبة ملحة، لا سيطرة عليها، ولا حدّاً لها، إنها رغبة رجل عجوز في فتاة صغيرة؛ وقت التمرين كان سجناً ذا زنانات وجدران، وامتحاناً صعباً.

أي وقت؟ أذلك الذي خلاله فتحت زنانات السجن وانطلقت الضحكة؟ عندما انتهت التمارين وعرف فيها الأستاذ امرأة مستقيمة جدية بالثقة والتقدير، وليست فقط ذات مصلحة، وعندما انتهت شكوك تريزا وأعطت نفسها دون تحفظ جسداً وروحاً ورأت في الأستاذ سنداً وارتمت على قدميه عشيقه له ولكن ليست نداءً مثيلاً في أي وقت؟ أوقت الحذر والتكتم؟ كانا يخرجان معاً فقط في الليل، بعد العشاء، يشقان طرقاً غير مزدحمة، ولم يكونا يستقبلان في البيت غير الدكتور إماريليو وجوان ناسيمينتو بالإضافة إلى لولو سانتوس الصديق الأول.

لقد ولّت تلك الأوقات، أجل، ولكن وقتاً آخر بدأ في يوم الرماد، يوم الموت، لم يكن وقت الوحدة مع ذلك؟ ففيه كان ينتهي كل شيء دفعة واحدة أو ينكسر الحب الكبير مظفراً.

وأصبح الأستاذ يأتي غالباً إلى أشتانسيا ممدداً مدة بقاءه في الشاليه الذي أصبح فيما بعد مقر إقامته حيث كان يقضي أكثر أوقاته. وأصبح يستقبل فيه ليس فقط الأصدقاء على العشاء والغداء والاحتفالات بل أيضاً وجهاء المدينة: القاضي، رئيس البلدية، المطران، المدعي العام، ومفوض الشرطة، وكان يدعو إلى أشتانسيا، مسؤولي المصرف الإقليمي وشركة إكزومبورتكس المساهمة، لمناقشة الأعمال والبت النهائي بالقضايا.

ولم تعد تريزا ابنة المزرعة الريفية الصغيرة التي أطلقت من السجن والسوق العمومية، وذات الجسد والقلب اللذين يحملان آثار الحديد والنار، لقد اختفت

الآثار، وبعناية الأستاذ نمت بروعة، وكبرت بالأناقة والنعمة وأصبحت امرأة تبهر بشبابها. من قبل كانت وحيدة مستوحشة وأصبحت عقلانية ومنفتحة على الآخرين، كانت مقفلة، فانفتحت على الفرح.

كان وقت حب عندما أصبحا مكملين الواحد للآخر، حب فارس يسابق الريح، حب كائن متفوق، سيد، وحب صغيرة ريفية، ابنة مزرعة رباهها لتكون عشيقه، وجعل منها صبية، مصبوغة بالتربية والرهافة صبغاً، ولكنه كان حباً عميقاً وخالداً، تكتنفه الرغبة.

بالنسبة إلى إميليانو أصبح كل وداع أصعب من سابقه؛ بالنسبة إلى تريزا أصبحت أيام الانتظار أطول فأطول. قبل عدة أشهر من وفاة الأستاذ، كان أحد مديري المصرف قد لخص الوضع لزملائه الذين يثق بهم في الإدارة:

- نظراً لمجرى الأمور، ففي القريب العاجل سينتقل مقر المصرف من باهيا إلى أشتانسيا.

24

من كان ليغامر بإظهار شجاعة عندما كان الأستاذ حياً وبيده الباستون؟ لا أعرف رجلاً ذا صدر يتسع لمثل هذه المغامرة بين من أنا على علاقة بهم أو غيرهم. فمن هم في ميادين الفضائح، حيث المزاحمة على أشدها كون أمة المنتهكين الآن هي الأمة الأكثر عدداً في الشمال الشرقي ومع الكثير من المحررين الذين يملأون الصحف، فإن كسب العيش مسألة صعبة يا حضرة النقيب المحترم. اعذرني على الخطأ يا حضرة الميجر. لا نقيب ولا ميجر، لست عسكرياً إنك مجرد فلاح. إنك تتحرق إلى المعرفة ولكن لا تستعجل فإذا منحوك بزة عسكرية ورتباً فاضرب باقتدار واستمتع بالملذات.

أين هو الإلهام وأين تجد القافية لو كان الأستاذ حياً؟ مهما تكن الشجاعة في مجال الكتابة، ومهما يكن من أهمية للدخول في تفاصيل الأحداث، فلا أحد كان مستعداً لأن يتلقى ضربة على وجهه أو أن يتلع ورقة مطبوعة وإن تكن كلماتها مملحة وممزوجة بالبهار. إن الكمان هو سلاح العيد ولم يصنع ليواجه الفأس والخنجر والمسلس. مع الفضّة في الباستون التي تتبختر في طرقات منطقة الداخل، وهنا، في

جادات باهيا العريضة، باهيا العاصمة الأولى لهذه البرازيلات العديدة، ليس من مجنون ليخرج في الحديث عن الأستاذ والعشيقة، ولا أرى رجلاً يمثل هذه المقدرة.

عندما تمّ تسجيل الحدث، فإنّ النبأ راح ينتقل من فم إلى فم، وكل من كان مغنياً راح يغني الفضيحة، إذ منذ زمان طويل لم يظهر موضوع مثير لمزاح سمج كهذا. فمن باهيا إلى سيارا حيث نهاية العالم، ترددت الأنشودة نفسها:

"مات العجوز الغني

فوق فتاة الهوى

وسط ماخور الزنى".

هل فكرت يا حضرة النائب ماذا سيحصل لو سمع الأستاذ قلّة الاحترام تلك: عجوز غني، فتاة هوى، ماخور زنى؟ كيف شاعت الحكاية، وكيف أصبحت نبأ من حق الجميع أن يعرفوه، ومن حق كل الأخصاء؟ من أشاع النبأ؟ هل هم الخدم، الطبيب، الكاهن المعلم، الشماس؟ كلهم أشاعوه، ولا أحد أشاعه، فهذه الأمور يمكن التكهن بها، ولا يفيد بشيء نقل الجسد الآن لإثارة مشاعر زبائن آخرين في بيت العائلة، ولا اختراع قصة موت لاثقة، ولمخادعة كل الإنسانية؛ لتحرير الأخبار لا يحتاج الأمر إلى الكثير من التفاصيل. فحين ينكشف الشيء الرئيسي، الأساسي، فإن الناس تخترع التفاصيل وفق متعتها في نظم القوافي.

مقالات كثيرة كتبت غير الثلاثة التي عرفت بها يا حضرة السيناتور، ففي باريبا ظهر مقال بعنوان "الثري الذي مات وهو يأكل عذرية عذراء"، ومن العنوان يعرف حضرة الرئيس أن الكاتب يكون قد سمع صياح الديك ولكن لا يعرف أين سمعه. وفي المقال المشار إليه هنا لم تتم الإشارة إلى اسم الأستاذ واستعيض عن الاسم بالثري بالمليونير، بفلان وعلان، والذي كان ولكن كيف عرف محرر كامبينا غراندي باسم تريزا الكامل؟ لم أر قط مقالاً أوسخ من هذا، وكل القوافي فيه تنتهي بالروي.. نية - .. رة.. قطعة... باء... طة... فهل رأى المحرر، نائباً؟ أليست محرراً، نائباً؟ أليست سيناتوراً، ولا مرشحاً؟ يا للأسف: إن السياسيين يخبئون دائماً بعض المال الكثير، ويحدث أيضاً أنهم لا يصرفون ما لهم بل مال الشعب البرازيلي.

إذا لم يدبر لك طونينو صاحب المكتبة نسخة فلن يستطيع أحد الحصول على عدد واحد من قصة العجوز الذي مات وهو يدخل الخلاسية منتشياً والتي كتبها

في أراكاجو الأعمى هيليو دورو ذو الاسم البشع، ولكن وصفه للعملية الجنسية قبل الموت وصف ملهب إلى حد أن أي قارئ يقرأها وقربه امرأة فإنه سيشدها إلى صدره وسينسى كمية الكروزيرو التي أنفقها على شراء القصة. إن وصف الموت من الجمال والإثارة إلى حد يجعلك تتمنى الموت بالطريقة نفسها. وإن هيليو دورو لا يرى أقل من سواه لأنه أعمى ويبدو أنه رأى الحدث يحدث فعلاً.

ربما يستطيع طونينو أن يجلب لك إحدى الصحف التي طبعت هنا في باهيا: "العجوز الذي تشنج عضله في لحظة النشوة" وهي قصة قصيرة وكلها شعر حديث ذو أبيات غير مقفاة بل إن قوافيها مرسلة، وأيضاً "موت السيد فوق الخادمة" التي كتبها بوسيدونيو دي الأغوينياس. إنه روائي ذو قيمة ولكنه لم يوفق في هذا الكتيب الصغير المليء بالأخطاء، إذ جعل من السيد إنساناً سيئاً، وجعل منها خادمة قدرة، وأدخل الزوجة في الحبكة وجعلها تطلع عليهما في اللحظة الحاسمة لتقتل العجوز المسكين قلقاً؛ ولا تبدو الرواية خارجة من الحقيقة الذهنية للمعلم بوسيدونيو؛ ولكي يكمل السخافات فقد ركب للأستاذ في وصفه ذقناً مروسة كذقن تيليران وحول شعر تريزا الأسود إلى شعر زنجية أجعد. وقد دفعت العائلة مبلغاً من المال بدلاً من طبعات هذه القصة، ولكن العليمين أخفوا بعض الأعداد لبيعوها بهدوء فيما بعد، لا تستحق القراءة العناء لأن الكتابة لم ترفع العصا ولم تجعل الناس يضحكون.

ولكن ما حدث معي كان أسوأ لأنني كنت قد أعطيت اسماً للثيران ولم أتوقف عند قصة موت الأستاذ، فقد وصفت كل موبقات العائلة والقرون والانحرافات والشيكات من دون أرصدة والتهريب وإلى ما هنالك، وصفاً أدبياً رفيعاً، صدقني، ووقفت مع السجناء ولكي أطلق نفسي من هناك، كان علي أن أتخلي عن الطبعة الكاملة مقابل لا شيء، وجاء محامي العائلة إلى بيتي يرافقه مدير الشرطة فنقب وأتلف بعض الأعداد المخفية تحت الفراش والتي كنت قد احتفظت بها خدمة لبعض الأصدقاء المتميزين كسيادتكم. وقد هددوني بأكثر من السجن والضرب إذا ظهر أحد الأعداد للبيع. فانظر كم يجازف روائي مسكين، بحياته.

ومع ذلك إذا كان المحترم يرغب في قراءة "الممارسة الجنسية الأخيرة للأستاذ الذي مات في الساعة س" فعليك أن تدفع ثمن الأبيات وثن المجازفة الخطيرة؛

احصل على الحب مقابل ورقة من فئة الخمسمائة، وأنا أسهل لك الحصول على نسخة، النسخة الأخيرة الباقية، خدمة للأستاذ لا من أجل المال. في قصتي رويت كل شيء كما حدث ولم أضيع الوقت بالتفاهات، أخبرت بالحقيقة ولا شيء آخر: بالنسبة إلى الأستاذ، فإن الموت في تلك الساعة وتلك الطريقة هو بركة من عند الله؛ إن ثقل الموت بقي عبئاً على كتفي تريزا، وهو الحمل الأكثر إزعاجاً! هكذا كتبت لأني أفكر وأفهم أنا كويكادي سانتو أمارو، أنا الذي، بمعطفي وقبعتي أقف أمام مصعد عمارة لاسيردا أسجل وحيي وأبائي المقفأة.

25

عجباً! كم يشبه ذلك الرجل هناك الأستاذ إميليانو غويدس، فكأن الاثنين توأمان... قال ذلك متعجباً فاليريو غاما التاجر في إيتابونا الذي كان قد هاجر من أشتانسيا يافعاً وعاد أربعينياً جيد الحال ليزور أهله.

- "إنه ليس توأم الأستاذ، إنه الأستاذ بعينه، يتنزه مع صاحبة الفخامة فتاة الهوى" وأوضحت ابنة عم الزائر ذات يوم خُصّص للأخبار المحلية وبلسان منطلق: "إن الأستاذ منذ عدة سنوات يقيم مع عشيقته هنا مُعطياً بذلك شرفاً للمدينة..".

- لا تمازحي...

- "ألم تسمع قط يا ابن عمي أن مياه بياوتنغا عجائبية لاستعادة القوة والنشاط؟ إن العجوز هنا يعود إلى صباه" كانت تلوك ذلك بلغة شارع ركيكة ولكن بعيداً من سوء النية. في أشتانسيا، المدينة المضيافة والشريكة في كل هذا، حتى العمات المسنات يتأملن في الأحباب والعشاق بانسجام.

وقام العائد من المدينة بعدة مسيرات طويلة ليستجلي الخبر الذي أخبرته به الثرثارة، والذي لا يُصدّق! كان الأستاذ وتريزا يصعدان الطريق بخطى بطيئة يتمتعان بنسيم المساء. وعندما التقى بهما فإن التاجر فتح فمه متعجباً: والله إن ابنة العم لم تستنبط النبأ عن الأستاذ إميليانو غويدس ولا عن أي كان، ها هو برفقة امرأة جديدة شهية وبكل حرية في شوارع أشتانسيا. وبينما هو فاغر فاه مرتبكاً رفع قبعته ويده ليحيي المصري. وأجاب الأستاذ على التحية:

- "مساء الخير، فاليريو غاما العائد لرؤية الأرض!" كان إميليانو يحفظ دائماً أسماء وأشكال الأشخاص الذين كان له معهم أي نوع من العلاقات، وكان فاليريو زبوناً في المصرف.

- نعم أستاذ، هنا وهناك خادم لك.
في ظهوره بمظهر الأبله، فقد أثار ضحك تريزا وتعليقها:
- كأنه رأى العتمة..

- العتمة هي أنا! إن فاليريو هذا قد رأي فقط في المصرف وأنا بربطة العنق أناقش أعمالاً، وفجأة شاهدي وجهاً لوجه في أشتانسيا أسير في الشارع بقميص رياضي وبرفقتي امرأة جميلة، وهذه مفاجأة كبيرة حتى بالنسبة إلى تاجر في إيتابونا. عندما يعود إلى هناك فسيكون لديه ما يتحدث عنه.

- كان من الأفضل لو أن السيد لم يظهر معي كثيراً.
- "لا تكوني حمقاء يا قرص العسل. لست مستعداً لأن أتخلي عن متعة النزهة معك بسبب قيل وقال وزيد وعبيد. لا يهمني ولا يمر في ذهني أمر كهذا. كل ما يحدث يا تريزا ليس أكثر من غيرة لأنك لي. إذا أردت أن أقتل نصف العالم حسداً فما عليّ إلا أن آخذك معي إلى باهيا أو الريو وهناك، أجل، سأكون موضوع كلام لا ينتهي". ضحك وحرّك رأسه: "ولكني أناني مفرط لكي لا أخرج عارضاً على الملأ شيئاً أقدره، شخصاً كان أم غرضاً. إني أريد هذا لنفسني فقط".

- في الحقيقة، إني أرتكب معك مظلمة ممسكاً بك هنا في أشتانسيا منعزلة بين جدران الشاليه شبه سجينة. أليست هذه الحقيقة يا تريزا؟
- هنا عندي كل شيء وبقدر ما أريد، إني سعيدة.
هل يمكن أن يأخذها معه للتباهي؟ لا، حباً بالله يا أستاذ، لا...

كان النقيب يحب أن يثير غيرة الآخرين وهو يقتني ديوك عراق هراتية وأحصنة مسرجة ومسدساً ألمانياً وعقداً من العذريات. وأخذ تريزا إلى عراق الديوك الهراتية لكي يرى في أعين الأزواج هناك بريق الحسد الشديد. ولكن هل يكون الأستاذ مثل النقيب؟
- إني أريدك لنفسني فقط.

كان يكفيها الأصدقاء على العشاء، والحمام في نهر بياوتنغا ونزهة العصر والمسيرة الليلية وجسر نهر بياوي ومرفأ الزوارق، حتى لو اقتضى الأمر أن تبقى معتكفة في البيت فلم تكن لتهتم.

أكثر من مرة خططت لرحلات إلى أمكنة قريبة. الذهاب في الزورق البخاري إلى مصب نهر ريال عند الحدود بين باهيا وسرجيسي ليشاهد البحر مندفعاً عند شاطئ مانجوي سيكو مع امتدادات من الرمل واسعة، والزيارة لأهل ساكو قرية الصيادين. ولكنهما لم يخرجاً قط من المدينة ولم تعرف تريزا البحر في تلك المرحلة، وإن تكن قد رغبت جداً في القيام برحلة إليه، ولم يف الأستاذ بالوعد ولم يكن مهماً ألا ينفذه. كان يكفيها حضور الأستاذ وأن تكون معه في البيت وتتحدث إليه وتضحك وتتعلم وتخرج معه إلى الشارع وتمدد إلى جانبه. آه من التمدد إلى جانبه!

كان وقت تفرغ الأستاذ لتريزا قصيراً جداً، مسروقاً من وقت المصنع والمصرف والأعمال ومن وقت العائلة، وكانا يقضيانه كاملاً جنباً إلى جنب في الخفاء بين جدران الشاليه. ذلك الوقت كان بالنسبة إلى الأستاذ وقت راحة واسترخاء، وبالنسبة إلى تريزا كان الحياة كلها.

وتعودت المدينة على حضور الأستاذ المتكرر والمؤقت، وتعودت على ستره في حوض النهر، وعلى الزهرة في اليد، ورفقة العشيقة، وتوقف الاثنين أمام المباني القديمة ابتداء من باركي تريسيتي ووقوفهما على الجسر غير مكترئين بالألسنة التي تقبّح عملهما. وأضاع الأستاذ كلياً التستر، إن للرجل الغني - والجميع يعرفون - الحق في إبقاء عشيقة في البيت المفتوح مع حساب مفتوح وهذا شرط إلزامي في هذه الحال، ولكن كونه متزوجاً فليس جيداً أن يعرض صديقه على الملأ مسيئاً إلى العادات الصالحة لأن العظمة هي في أن تملك لا أن تعرض ما عندك.

ومع مرور السنين فقدت ألسنة الناس قوتها وزخمها ونكهة المعرفة الجديدة، وكان ضرورياً وصول ابن البلد الجديد إلى هذه الأرض لينتشل من النسيان موضوع ثرثرة كان في السابق موضوع إثارة، الأستاذ إميليانو غويلدس وعشيقته الرائعة والعنلية! الوطنية المخلصة دادا تعلّي من شأن مواهب أشتانسيا أرض الزهور وسماء النجوم والقمر المنير المجنون فرحاً والشعب المضيف المتغاضي، والملجأ المثالي للعشيق السري:

- من قال إني أخلق الأمور بنفسى يا ابن عمى انظر إلى الميجر أتيليو: لقد جاء إلى هنا عندما تقاعد كهلاً متعباً، ولم يكن ينظر إلى امرأة منذ سنوات، وكان قد نسي كيف تكون الممارسات الغرامية. ومع هواء أشتانسيا ومياه نهر بياوتنغا فإنه خلال أقل من شهر وضع في بيته فتاة هوى وجاء منها بولد. هو نفسه يخبر هذا لمن يشاء. وحتى صاحبة الأستاذ فقد انتفخ بطنها ولكنها أجهضت الجنين، إنها المياه العجائبية هنا يا ابن عمى.

- آه يا بنت عمى إن صبية الأستاذ تجترح المعجزات. تكفى نظرة منها ليقوم الميت.

26

عينا الأستاذ المفتوحان بدتا حيويتين على ضوء الشمعة الباهت، ومليئتين بالخبث كما لو كان يرافق بهما أفكار تريزا. لم يكن من حاجة إلى مياه بياوتنغا العجائبية، وقوة الفعل، والقدرة، وتكفى نظرة، ابتسامة، حركة، لمسة وإظهار الركبة حتى يذهبا إلى اللهب الجنسي مستهلكين أكبر وقت المصرفى فى أشتانسيا وجاعلين منه وقتاً قصيراً للمتعة.

لا تنظر إليّ هكذا يا إميليانو، لا أريد أن أتذكر مثل هذه الأمور فى ليلة موتك. ولم لا يا تريزا؟ لو متُّ فى غير ذراعيك، وفى غير داخلك وأنا أمارس الحب؟ ألم نعش حبيين مميزين، واحد منا مكرّس لتفسير المعاني والآخر للعواطف، وقد كان حياً فريداً من اللياقة والوجد. إذا لم تكونى راغبة فى الذكرى، فأنا أتذكر، أنا إميليانو غويدس معلم المتعة الكبير، وللمتعة استعملت الموت نفسه.

عينا الخبث بنفسيهما، والنظرة النافذة نفسها التى كان ينظر إليها أثناء العشاء على المائدة المحاطة بالأصدقاء، ويرىها رأس لسانه. منذ الليلة التى أخذها فيها من نزل غابى، وقبل أن يضعها على كفل جواده، كشف لها عن قدرة قديرة فى رأس لسانه الخارج من بين شاربىه ليفتح شفيتها، وكان يكفى أن يبين لسانه من بعيد، حتى تحس تريزا أنه يخترقها فى كل مطارحها.

لا يا إميليانو، لا تتذكر أكثر. أشح بعينيك عني، لتذكر أوقاتاً أخرى. كل ما بينا كان مثالياً وأكثر مما يمكن التفكير فيه. يا قرص العسل لا تكونى بلهاء لقد ولدت مثالتنا فى الفراش وفيه انتهت. منذ قليل، عندما كنت أهىء نفسى للقاء

رغبة الموت الذي لا مفر منه، ماذا تذكرت عندما شمت رائحة الكولونيا للذكور؟ آه إميليانو هذه الذكريات والعطور والممارسات انتهت كلها بالنسبة لي. كلا يا تريزا، الفرح والمتعة هما البهجة الوحيدة التي تركتها لك. فلتستغلي الوقت للمزيد منها.

لكي تعجبه، يوماً، وبعد حمام العصر فإن تريزا أخذت زجاجة كولونيا العشيق وعطّرت نفسها بها. ثم جاءت تلقاه عند أسفل السرير. ووقف إميليانو لكي يتناولها، وعندما شم رائحة العطر منها ضحك ضحكة عريضة:

- ماذا فعلت يا تريزا؟ هذا العطر للرجال.

- لقد رأيت الأستاذ يستعمله برغبة شديدة، فاستعملته أيضاً ظناً مني...

كانت ما تزال فتاة هيفاء ذات جسد يتكون من ردفين وقحين فرفعها الأستاذ وضمها إلى صدره. من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين ومن زهرة الروض إلى الجنيّة المعلقة فإن جسد تريزا بكامله كان ملك الأستاذ وحقل عمله.

مع الوقت أصبحت تريزا تعرف العطور وطريقة استعمالها. وفي ساعة حلاقة الذقن كانت هي نفسها تمسح له الوجه والشارب وشعر الصدر الأبيض بماء الكولونيا، كل حركة، كل كلمة، كل عطر، كانت لها قيمتها الخاصة.

آه إميليانو لا تتذكر الآن لحظات كهذه، ودع الموت يجلس كلياً في بطني لكي أستطيع بعدها أن أستعيد بهجة الفرح والمتعة.

27

وحدث أن أخبر الأستاذ تريزا حكاية جعل منها مادة تسلية وضحك وكانا بطليةا.

إن لفيفاً من العمات قد حوّل مرآة موضوعة إلى حائط غرفة النوم مقابل عدة مرايا مقابلة، إلى أعمال إثارة. كانت المرآة تعكس بالتأكيد الفراش والجسدين العاريين والملامسات، ومن أجل هذا فإن الأستاذ اختارها كبيرة ووضعها في المكان اللازم. وكانت الدروس التي تعطيها تريزا لأطفال الشارع تثير بحسبانها موضوع نقاش مثير: على وشك أن يهملها الصناعي، كانت تريزا كما تعتقد العمات، تنهياً لكسب الحياة وهي تتمرن على المهنة الشريفة.

ومتناقضات فيما بينهن كانت العمات يناقشن بالتالي أسماء الأغنياء المرشحين ليحلّوا محل الأستاذ بين ذراعي العشيقة عندما تصل النهاية التي لا بد منها وهي الضجر الذي لا مفر منه.

متهمة إياه بالتجسس، ممازحة، سألت تريزا الأستاذ كيف حصل على مثل هذه الأخبار ما دام غائباً أكثر الوقت عن أشتانسيا. وإذا كان ألفريدو قد عاد إلى المصنع فإن الأستاذ كان ما يزال على علم بكل ما يُقال.

- أعرف كل شيء يا تريزا فيما يعني كل الذين أهتم بهم. ليس فقط عنك يا قرص العسل. أعرف كل شيء عن كل واحد من أخصائي، وماذا يفعلون وثم يفكرون وحتى عندما لا أقول شيئاً وأتظاهر بعدم المعرفة.

- إن الأستاذ يخبرني بهذا العدد من المرشحين كما لو أنه يريد التخلص مني..

- "يا قرص العسل لا تقولي هذا وإن مزاحاً، إني أمتنع" قبلها في عينيها: "إنك لا تعرفين مدى الشوق إليك إذا ذهبت يوماً. أحياناً أخاف أن تتعبي مني لأنك دائماً وحدك وحياتك ضيقة، ومحدودة، حزينة".

تخلت تريزا عن نبرتها المفتعلة وعادت جدية:

- إني لا أعد حياتي حزينة.

- أهي الحقيقة يا تريزا؟

- لا ينقصني ما أفعله عندما لا يكون السيد هنا: البيت، مجموعة الأطفال، الدروس، وأجرب بعض وصفات الطعام في المطبخ ريثما يعود الأستاذ، وأسمع الإذاعة، أتعلم الموسيقى، وليس عندي دقيقة فراغ واحدة...

- حتى للتفكير في؟

- أفكر في الأستاذ طيلة اليوم. وإذا تأخر في المجيء إلى هنا أصبح حزينة. هذا هو الشيء السيئ الوحيد عندي، ولكني أعلم أن لا حل للمشكلة بطريقة أخرى.

- هل تريد أن أبقى باستمرار يا تريزا؟

- أعرف أنك لا تستطيع أن تبقى، وماذا ينفع أن أريد؟ لا أفكر في هذا، وأكتفي بما عندي.

- إن ما أعطيك قليل، يا تريزا؟ هل ينقصك شيء؟ لماذا لا تطلبين مني أبداً شيئاً ما؟

- لأنني لا أحب أن أطلب، ولأن شيئاً لا ينقصني. إن ما يعطيني الأستاذ هو أكثر من حاجتي ولا أعرف ماذا أفعل بأشياء كثيرة إلى هذا الحد. ليس هذا ما أطلبه، والسيد يعرف جيداً.

- أجل، أعرف، يا تريزا، وأنت؟ هل تعرفين أنت أنه محزن بالنسبة لي هذا الذهاب والإياب؟ اسمعي جيداً يا قرص العسل: أعتقد أنني لن أعود أن أعيش من دونك. عندما أكون بعيداً فإن الرغبة الوحيدة عندي هي أن أكون هنا.

ست سنوات، حياة، وأشياء كثيرة للتذكر، أشياء كثيرة؟ ولكن لم يكدر الحياة حدث مأساوي خطير، ولم يحدث حادث مثير يستحق صفحة جديدة من رواية، وفقط كانت الحياة تمر بسلام.

- إن حياتي رواية لا ينقصها سوى أن تُكتب... أكدت الخياطة فاوستا العاطفية، ومذبة أخبار سيدات المدينة.

وليست حياة تريزا باتيستا في أشتانسيا العريضة، السعيدة، هي ما يستحق أن يكون مادة لكتابة رواية. ففي أكثر الحالات يمكن أن تستخدم حياتها لتأليف قصيدة حب أو قصة قصيرة. فأتساءل غياب الأستاذ كان عندها آلاف من المشاغل الصغيرة لتملأ وقت الفراغ، وعندما يكون موجوداً فهو وقت الفرح. إنها مثالية عشيقين لم تتطور إلى ما يستحق أن يُروى عنه. على الأقل في الظاهر. يوماً، وهي تضحك علناً، أطلعت الأستاذ على أبيات شعر مكتوبة نظمها الشاعر أمينتاس ورفو في دكان أبيه البورجوازي الذي لا مثل أعلى له.

- إذا وعد الأستاذ بأن لا يغضب فسأريه شيئاً. لقد احتفظت به حتى أريه إياه. لقد وصل الظرف بالبريد موجهاً إلى السيدة تريزا باتيستا، شارع جوزي دي دومي، رقم (7) وفي نهاية الصفحتين المكتوبتين توقيع وألقاب الكاتب؛ أميناس فلافيو روفو، شاعر موله وفاقده الأمل، وبينما يضع رأسه على عنق تريزا، قرأ الأستاذ مقاطع الشاعر المسؤول عن الصندوق في الدكان:

- إنك تستحقين شعراً أفضل من هذا يا قرص العسل.

- حتى إن بعض الأبيات جميلة..

- جميلة؟ هل ترين أنها جميلة؟ حين يرى أحد شيئاً جميلاً فإن الشيء يكون فعلاً جميلاً. ولكن هذه الأبيات سيئة للغاية. تافهة: سذهب فيما بعد للقيام بجولة في الشارع وسندخل الدكان الذي يعمل فيه شاعرك..

- قال السيد إنه لم يكن يريد أن يفعل شيئاً.

- لن أفعل شيئاً. ولكن أنت ستفعلين، وستعيدين إليه أبيات الشعر حتى لا يكرر الجرعة.

فكرت تريزا والأوراق بين يديها:

- كلا أستاذ، لن أذهب، لا، إن الشاب لم يفعل أي شيء سيء إليّ، لم يرسل لي بطاقة أو رسالة، ولم يعرض عليّ ممارسة الحب ولا النوم معه، لم يعد بشيء، فقل لي إذاً لماذا يجب أن أذهب شخصياً لأعيد إليه الأبيات؟ فضلاً عن الذهاب مع السيد نفسه، أنا لأؤذيه، والسيد ليهدده في الدكان على مرأى من العالم. إن هذا لا يعود عليّ ولا على الأستاذ بشيء مفيد.

- سأقول لك لماذا. إذا لم نقطع في الحال أجنحة هذا الأبله فسيستمر في التجرؤ، والتدخل كالبهيمة، وأنا لا أسمع لأحد بأن يستغلك. أو يمكن أن تكوني أنت تقدرين هذه الأبيات إلى درجة أنك ترغبين في الاحتفاظ بها.

- قلت إنني أرى الأبيات جميلة، إنني أراها كذلك حقاً، لن أكذب، فبالنسبة إلى معرفتي القليلة فإن أي صفيحة براءة هي ذهب. ولكني قلت أيضاً إنني احتفظت بها يوماً لأريها للسيد، وسأعيدها بالبريد كما تلقيتها، وهكذا لن أسوء إلى من لم يسئ إليّ.

وإذ تحرر من كل ارتباك، ابتسم إميليانو غويدس:

- رائع يا تريزا. إن عندك عقلاً أحسن من عقلي. لن أتعلم فقط السيطرة على نفسي. إنك على حق. اتركي الشاعر يكتفي بهذا. كنت سأذهب إلى الدكان لإذلال المسكين. ولكن من كان سيذل هو أنا.

وارتفع صوته منادياً لولا وأمرأاً بالجحيء بالثلج والمشروبات:

- كل ذلك لأنني أرى أن لا حق لأحد بأن يضع عينيه عليك، إنه سخف. تريزا، لقد تصرفت كسيدة. إننا سنتناول الآن كأساً ونشرب نخب قصائد شعراء أشتانسيا إلى قرص العسل، خاصتي.

سيدة؟ إثر بداية الصداقة قال لها: أريد أن أراك سيدة. ولن تكوني سيدة إلا إذا أردت أن تكوني. كان ذلك تحدياً فوضعت ظفرها على البندق.
لم تكن تعرف كيف تكون السيدة. كانت السيدة بياتريز أرملة الطبيب والسياسي، سيدة في زمن زوجها، ولكن حين عرفتھا تريزا وتعاملت معها وجدتها أشبه بمجنونة ذات دماغ مائع. وفي ليالي الكاشاسا كانت غابي تتباهى بأنها كانت يوماً السيدة غرابينا كاسترو زوجة إسكافي قبل أن تصبح غابي الكاهن وتنتهي إلى صاحبة ماخور، ولم تكن يوماً امرأة راقية أبداً.

28

عبر الستائر المتدلية تسلل نور قليل إلى الغرفة منعكساً على وجه الميت، وظهر الدكتور إماريليو عند الباب عصبياً فأجال بنظره في المكان ليجد تريزا جالسة في الوضع نفسه.

- "إنهم لن يتأخروا في الوصول..." تتمم الطبيب.

لم يظهر على تريزا أنها سمعت. بقيت ثابتة في الكرسي وعيناها ناشفتان لا شفافية فيهما. ودون أن يثير أية ضجة انسحب الدكتور ببطء. كان يرغب في أن ينتهي كل شيء قبل أوانه.

لقد اقتربت الساعة يا إميليانو، ساعة مغادرتنا نحن الاثنين أشتانسيا إلى الأبد. مدينة جميلة ومضيافة كهذه لا يوجد في العالم كله. الصباحات في مياه النهر الجارية والمتسعة المكان، وغسق اللهفات القديمة، والأيدي المتشابكة في الطرقات، والليالي المعطرة بالقمر والياسمين، هذه، يا إميليانو لن تعود أبداً.

الرجال لن يغاروا من الأستاذ العجوز المرح بعد اليوم، والنساء سيكففن عن نقد العشيقة الفتاة المحظوظة! لن يروهما في الشوارع يجابهان المناقب بخطى وثيدة وضحك عال.

أما حزن الثرثرات فقد انتهى إلى السجال الكلامي المفتوح حول تعيين أحد وجهاء المصانع والمعامل والمزارع الكبيرة ليشغل المنصب الشاغر في فراش تريزا عندما انتهى الأستاذ إلى الموت.

لا تخف يا إميليانو لم أتحول إلى سيدة كما كنت تريد: ربما لأنني لم أتوصل،
أو ربما لأنني لم أرد أن أكون. أية فائدة من سيدة كبيرة؟ إني أفضل أن أكون امرأة
مستقيمة، ذات كلمة. حتى الآن كنت فقط عبدة، امرأة عامية، عشيقة، فلا تخش
شيئاً: هؤلاء الأثرياء هنا، أبدأ يا إميليانو! ولا واحد منهم سيمس طرف فستاني،
إن كبرياءك هو أيضاً ميراثي.

إن أهلك لن يتأخروا في الوصول، لقد خرجوا من الحفلة ويسرعون في
الطريق، إنهم آتون ليأخذوا الزعيم. وقد انتهى عيدنا أيضاً، وقد كان وقتاً قصيراً
لكي تفتح وردة وتذبل، لقد انتهت أشتانسيا يا إميليانو فدعنا نذهب في الحال.
لقد جاؤوا يأخذونك ويرفعون جثتك، أما أنا فسأحمل في أحشائي حياتك
وموتك..

29

كان الأستاذ قد وصل بعد ظهر يوم الخميس. وعندما سمعت هدير السيارة
جاءت تريزا راكضة من وسط البستان وذراعاها ممدودتان ووجهها مشرق فرحاً،
وبدت كذلك كأنها لوحة أسطورية تخرج فيها من غابة ميتولوجية امرأة عصفوراً،
فرآها إميليانو تحتاز الحديقة وفي عينيها بريق الفحم المشتعل وعلى فمها ابتسامة
المياه الجارية ينضح منها الحب، وإذ رآها اطمأن قلبه المنقبض.

لاحظت تريزا في وجه عشيقها آثار التعب واضحة على الرغم من الجهد
الذي بذله ليخفيها. قبلته في وجهه، وشاربه، وجبهته وعينه، وفي كل وجهه
لتمسح عنه السأم والإرهاق والحزن. هنا لا مجال للأعباء ومشاعر المعركة غير
الأكيدة والوحدة، يا حبيبي. عندما وصل إلى باب الحديقة فكأنه رسا عند مرفأ
سحري في عالم اخترعه حيث لا شيء هناك سوى السلام والجمال والمتعة. هنا
تنتظره الحياة مع الابتسامة في العينين، وبين ذراعي تريزا باتيستا.

دخلا البيت يتغازلان في حين كان السائق يساعده لولا ينقلان الحقيبة الكبيرة
والصندوق والرزم والتجهيزات والدراجة الصغيرة التي أوصت عليها تريزا لتهديتها
إلى لازينب الذي اقترب موعد عيد ميلاده. وجلسا على حافة الفراش لقبله
الترحيب الطويلة والمتكررة.

- "لقد جئت مباشرة من باهيا، لم أمر بالمصنع، فالطرقات بسبب الأمطار أضحت جد سيئة"، قال ذلك حتى يفسر التعب الظاهر ولكنه لا يخدع تريزا. من قبل لم يكن الأستاذ قد أتى مباشرة من باهيا مرة، إذ كان يتوقف دائماً في المصنع أو في أراكاجو لمعالجة أمور العمل المالية ويبقى مع الأهل. ولكن منذ تسلم صهره مسؤولية إدارة المصرف، أصبح نادراً ما يذهب إلى أراكاجو، في حين كان يجب أن يذهب ليرى الابنة المفضلة أكثر فأكثر، إنه تعب من السفر ولكنه أكثر تعباً من الإزعاج. خلعت تريزا حذاءه من قدميه ثم سحبت الجواب؛ في وقت منسي مضى، كان عليها أن تغسل كل ليلة رجلي النقيب وقد كان عملاً عبودياً ثقيلًا. النقيب، المزرعة، المخزن، والزنزانة مع صورة مريم وسوط الجلد، ومكوى الجمر، كل ذلك اختفى في المسافة البعيدة وذاب في زمن الأستاذ وانسجام هذه اللحظة. إنها تتمنى أن تخلع حذاء وملابس العشيق البهي النظيف العليم. العمل هو نفسه، ومن الأفضل القول إنه عمل الانتماء والخضوع نفسه. ولكن في وقت النقيب كانت عبدة وأسيرة الخوف ولكنها عشيقة الأستاذ وعبدة الحب معه. تريزا سعيدة كلياً. كلياً؟ لا، لا إنها تراه متكدرًا مجروحاً ومرارته النفسية تنعكس عليها وتكدرها ولكنها تجرح الأستاذ أكثر في محاولة إخفائه لما يحس به. سأجهز حماماً حاراً لكي يرتاح السيد من السفر.

بعد الحمام ذهبت إلى الفراش مليئة بالسرور. وفي ساعة الغروب وعند نسيم المساء المنعش عادت تريزا والأستاذ إلى الحديقة. وهادئاً ناعماً بدا ليل أشتانسيا يمتد فوق الشجر ومجمع البيوت والناس. من المطبخ تمنت العجوز أيولينا بعدم رضاها وبتمتعات لا تفيد شيئاً، وأطلقت كلاماً يفيد دعوة إلى التمتع بالطيبات، إنها تهين شكاوى ملتعبة للعشاء. وجاء لولا بالطاولة والقناني والثلج، وبعد أن خدم إميليانو في إعداد الشراب تمدد الأخير في الأرجوحة ومن ثم في البيت.

ودون أن يشير إلى الحادثة حدثته عن الكرّمس:

- سيتم نهار السبت بعد غد. وقد جاؤوا يطلبون هدية فاستفدت من السانحة وأهديت مظلة الضوء ذات القوقعات المصبوغة التي لم يكن السيد يستطيع تحملها، هي تلك التي أهديت لك في أراكاجو، هل تذكر؟

- أذكر! ساعة!.. تاجر من زبائن المصرف أهداها لي:

- الأستاذ دقيق الملاحظة ويجد في كل شيء عيباً. لا أعرف كيف أحبني أنا النكرة التي لا تفيد بشيء.

- قرص العسل، لقد ذكرتني الآن بزواجتي الأولى إيزادورا. لم أخبرك، أنني ولكي أتزوج، فإنني تقريباً تشاجرت مع والدي العجوز الذي كان ضد الزواج منها كونها كانت فتاة فقيرة من عامة الشعب، وخياطة. كانت أمها تصنع الحلويات للأعياد ولكنها لم تر أباهها أبداً. كنت أكاد أنتهي من تخصصي وكان حباً مفاجئاً إذ حين وقعت عيني عليها أعجبتني. وخلال أقل من شهرين قمت بالخدمة التقليدية لها وإذ كنت أحبها فقد تزوجتها. وكان عليّ أن أذهب للإقامة في المصنع والعمل إلى جانب والدي متخلياً عن مشاريعي التي كانت مختلفة. ولم أندم فقد كانت تستحق. وانتهى والدي إلى محبة عارمة لإيزادورا. وكانت هي من أقفلت عينيه ساعة الموت. جميلة، متفانية، خلابة ومثيرة. بقينا متزوجين طيلة عشر سنوات ولكنها ماتت بالتيفوئيد خلال أيام من إصابتها به. لم تحمل قط ولذلك كانت تقول: "إني عاقر لا نفع مني يا إميليانو فلماذا تزوجتني؟" وفعلت المستحيل لأرزق طفلاً وأخذتها إلى الريو وساوباولو ولم يستطع الأطباء شيئاً، لا الأطباء ولا المعالجات غير الشرعية. ورغبة منها في الحصول على طفل فقد قامت بوعود سخيفة ونذور في باهيا وكانت تتناول الجرعات المرقية وكل شيء يعلمونها إياه، المسكينة. لقد ماتت وهي تطلب مني أن أتزوج من جديد لأنها كانت تعرف كم كنت أتمنى طفلاً. هي، أجل، تستحق العناء. هي وأنت يا قرص العسل.

وبدا متشككاً فيما إذا كان يجب أن يستمر أم لا. هزّ برأسه ودفع عنه الأوهام وغير الموضوع:

- إذاً نهار السبت هناك كرمس في محلة ماتريز؟ هل ترغبين في الذهاب يا قرص العسل؟

- لأفعل أي شيء وحيدة؟

- من قال لك إنك ستذهبين وحيدة. وحيدة، لا أسمع، ولن أجازف بهذا مع كل هذه النسور الجائعة وراءك. إني أدعوك إلى أن تذهبي برفقتي المتواضعة. ولشدة المفاجأة صفقت بكفيها بحركة طفولية:

- "نحن الاثنان؟ وتسألني إذا كنت أقبل؟ لا تسأل". ولكن فجأة حلت المرأة المفكرة مكان الشابة المتحمسة: "إن ذلك سيكون مدعاة للكلام الكثير ولا يستحق الأمر العناء".

- أيهمك أنت أن يتكلموا؟

- ليس من أجلي بل من أجل السيد. يستطيعون أن يتكلموا عني أنا شخصياً بقدر ما يروق لهم.

- وعني أيضاً يا تريزا. اسمعي يا تريزا واعلمي مرة واحدة وإلى الأبد: لم يعد لدي أي سبب لأخفيك عن أحد كائناً من كان. انتهت المناقشة، سنشرب لنحتفل.

- لا لم ننته بعد. أليس نهار السبت هو اليوم الذي يأتي فيه السيد جوان والدكتور إماريليو والأب فينيسيوس إلى العشاء؟

- سنقرب موعد العشاء لنهار الغد، هم أيضاً لا بد أن يذهبوا إلى الكرمس فالكاهن لا يستطيع أن يتغيب. نرسل لولا ليعلمهم بالأمر.
- إني مسرورة جداً..

بعد القبلية وملء الأقداح من جديد، وإذا كان قد عاد إلى عنق تريزا في الأرجوحة العريضة، أخبر إميليانو:

- تعرفين يا تريزا، هذه المرة جئت بنبيذ سيجعل دموع التأثير تنهمر من عيني المعلم ناسيمنتو، نبيذ يعود إلى أيام شبابنا، كان يباع في ذلك الوقت في باهيا ثم اختفى كلياً، ويدعى كونستانتيا، وهو من إنتاج أفريقيا الجنوبية. سترين العجوز جوان يهتز من أعماق أعماقه.

خلال العشاء، في اليوم التالي، رافقت تريزا جهود الأستاذ ليكون هناك جميع الضيوف التقليديين وليبقى على المائدة حيوية وقلبية. الأكل الشهوي، الخمور المختارة، سيدة المنزل الرائعة الأنيقة اليقظة، كل شيء هو الأفضل ولا ينقص غير الشباب، والقوة، وفرح إميليانو في العيش. إنها أمراض معدية. وفي تلك الليلة لم تتمكن تريزا من أن تنتزع المشاكل من رأس الأستاذ وتبعده الأمور التي تطارده، والأحزان العميقة، ولم تتمكن من جعله ينسى العالم الواقع خارج حدود أشتانسيا.

وانتهى الأستاذ مع ذلك إلى الانتعاش والضحك. الضحكة العريضة لرجل راضٍ عن الحياة. عندما انتهى العشاء، وبعد القهوة أشعل السيجار ولم يعد ينقص غير الليكورات والكونياك والمشروبات المساعدة على الهضم. اختفى الأستاذ من غرفة الطعام وعاد معه بقنينة وفي عينيه الوضأتين الحماسية، وعلى فمه ابتسامة:

- سيد جوان، امسك نفسك حتى لا تغيب عن الوعي، إن لديّ مفاجأة.. هل تعرف ما هذا الذي في يدي؟ انظر: زجاجة كونستانتيا، كونستانتيا، أيام زماننا.

ارتفع صوت جوان ناسيمنتو وأصبح فجأة صوت شاب:

- "كونستانتيا؟ لا تقل... وقف، مدّ ذراعه!

- دعني أرى: يداه ترتجفان. وضع نظارتيه ليقرأ التاريخ، ثم حدّق بحنان في الزجاجة أمام الضوء في لون النبيذ الذهبي واستطرد:

- إنك عفريت يا إميليانو. أين تدبرتها؟

إزاء انفعال صديقه، بدا الأستاذ أخيراً كأنه نسي المشاغل التي تقض مضجعه.

حين أصبحوا أمام الكؤوس، ذهب والمعلم جوان عبر الخمر في رحلة في عالم الذكريات. في يوم معمودية إميليانو كان الخمر الذي قدم بعد الاحتفال هو كونستانتيا. أبطال بلزاك يشربون كونستانتيا، وفي الكوميديا الإلهية تذكر ناسيمنتو الذي أتعب عينيه في القراءة. "فريدريكو الكبير لم يكن يستطيع التخلي عن هذا الخمر"، أضاف الأستاذ، "وكذلك نابليون ولويس فيليب وبسمارك"، إنهما عجوزان يشعان بطعم الشباب في النبيذ القاني. كان الكاهن والطبيب يصغيان بصمت وكأساهما مليئتان.

- "في صحتكم!" صاح إميليانو "صحتنا نحن يا معلم جوان!"

أطبق جوان ناسيمنتو عينيه ليتذوق الطعم بصورة أفضل: كان شاباً في شوارع باهيا وفي كلية الحقوق، مليئاً بالطموحات الأدبية قبل أن يقع مريضاً. ويجبر على التخلي عن دروسه وعن دروبه البوهيمية. وشرب الأستاذ بتمهل متذوقاً: كان شاباً غنياً يجري وراء العشيقات والاحتفالات مهتماً بالحمامة والصحافة، شاباً موجهاً في وجهة المهنة البراقة. وضحي بالمخططات والآمال تولّها بإيزادورا ولم يندم. وفتش عن تريزا بعينه فوجدها تحدق فيه مرتاحة لأن تراه أخيراً

غير منشغل التفكير ويضحك مع صديقه. مشى نحوها. أي حق له في أن يجعلها تشاركه أحزانه ومتاعبه؟ إنها لم تعطه غير الفرح ولا تستحق غير الحب.

- هل تحين كونستانتيا يا قرص العسل؟

- أحبه، أجل، ولكني ما زلت أفضل نبيذ بورتو.

- إن نبيذ بورتو هو الملك يا تريزا. أليس كذلك يا معلم جوان؟

وضع الكأس من يده على الطاولة، ولف يده خصر العشيقه، ولا يستطيع أن يكون شاعراً بالفراغ والحزن من يملك تريزا. وفيما بعد شرباً الكأس الأخيرة في الفراش.

30

ليلة السبت انبعثت الحيوية في محلة ماتريز، وكان الكرمس قد نظمته النساء المتطوعات لمصلحة بيت العجزة ودار الإحسان، وكانت الخيم الواسعة قد أقامها شباب وفتيات من المجتمع الراقى، وأقيم مشربان مع مرطبات، ومشروبات باردة وبيرة وسندويش وهوت دوغز ساخنة وكوكتيلات الليمون والأموندوين، والماراكاجو والطنجرينا والحلويات المتعددة مع مكان للتسلية محاط بالحبال... وفجأة ظهر الأستاذ والعشيقة تتأبط ذراعه. للحظة واحدة وقف الجميع لينظروا. وكانت تريزا رائعة وأنيقة إلى حدٍّ أجبر السيدات أنفسهن على الاعتراف بأن ليس في أشتانسيا امرأة يمكن أن توازيها حسناً وجمالاً. واجتاز عجوز الفضة وفتاة النحاس الشعب وراحا يطوفان من خيمة إلى خيمة.

وبدا الأستاذ فتى يافعاً فاشترى نفاخة زرقاء لتريزا وربح جوائز بالتصويب إلى الهدف من ربطة عنق إلى كشتبان، ثم شرب مرطب المانجايا وراهن في الروليت وخسر وتقدم إلى الأمام حيث اليانصيب على الهدايا، ودون أن يعرف الشيء الذي عرض في المزاد العلني والذي دفع فيه عشرون كروزيرو، دفع دفعة واحدة مائة كروزيرو، وحصل في الحال على حاملة الضوء ذات القوقعات المصبوغة، ذلك الشيء البشع. لم تستطع تريزا السيطرة على ضحكاتها عندما تناول المسؤول عن المزادة الورقة النقدية ومع حركة شكر أعطى الأستاذ الجائزة. ضحكت تريزا إلى أن تخلصت من عبء نظرات العمات والسيدات، وواجهت بهدوء التطلعات والوشوشات غير مكترثة بالفضولين. وذراعها بذراع الأستاذ سعيدة بالحياة.

في الكرّمس، بعض المتعنتين، وبعض المصطادين في الماء العكر كانوا بعيون مباشرة يتجسسون عليهما، وعدة سيدات وعمات جازفن برفع أعناقهن ليشاهدنهما. وشدّ الأستاذ بجسد تريزا إليه فأرخت الأخيرة رأسها على كتفه. وداعب إميليانو شعرها الأسود ولمس وجهها وقبلها في فمها قبلة طويلة عميقة وعلنية: فضيحة! التجرد من القناع لذة رائعة، آه من المحظوظين.

وهي ما تزال في ظلمة الغرفة وصمتها، سمعت تريزا هدير سيارات في الشارع، كم؟ أكثر من سيارة بالتأكيد. لقد وصلوا يا إميليانو، أهلك، عائلتك، قومك، سيأخذون جسدك ويرفعونه، ولكن ما دمت في هذا البيت فسأبقى فيه، ليس عندي أي سبب لأختفي أو أهرب من أي كان، وأنت قلت هذا، اعلم أنه لا يهملك أن يروني، وأعرف أنك لو كنت حياً ووصلوا هم فجأة لكنت قلت لهم: "هذه هي تريزا، امرأتي".

31

ذلك الأحد من أيار مضى برتابة. كانا قد بدأ بحمام النهر الصباحي الذي عادا منه بسرعة، إذ كان المطر قد بدأ يهطل وراحت حبات الماء تغسل وجه السماء. وظلا في البيت طيلة النهار وإلى ما بعد العشاء. الطبيب في تكاسل ملائم له يذهب من الفراش إلى الأريكة ومن الأريكة إلى الأرجوحة.

وظهر عند المساء رئيس البلدية، إذ كان قد جاء ليطلب مساندة إميليانو في قضية مالية للبلدية لدى السلطة التنفيذية في الدولة: "إن كلمة واحدة من مواطن أشتانسيا الأول - ونحن نعتبر سيادته واحداً منا - إلى الحاكم يمكن أن تكون دون أدنى شك حاسمة". أرادت العشيقة أن تغادر المكان لتتركهما على راحتهما، ولكن إميليانو أخذها من يدها ولم يسمح لها بالخروج. ونادى على لولا وأرسله ليأتي بالمشروبات وبالقهوة المعدة في الحال.

وإذا لم يكن قد بدا جيداً بالكامل، فقد بدا على الأقل متوازناً مع نفسه، وعاد إلى الحيوية السابقة. يضحك، يتحدث، يناقش مشاريع رئيس البلدية، يأمر، وإذا هو خارج من التعب والمرارة، الأيام القليلة التي مضت في أشتانسيا برفقة العشيقة بدت كأنها لأمت جراحه وقضت على الكآبة. ابتسمت تريزا وهي إلى

طاولة العشاء؛ يوم راحة ملائم يعقب ليلة أمس التي لا تنسى في الكرمس، ليلة رائعة، سطحية، وكانت أسعد ليلة في حياتها.

ليلة لا تنسى ليس فقط بالنسبة إليها، بل بالنسبة إليه أيضاً. بعد العشاء خرجا في نزهتهما إلى الجسر والمرفاً القديم. وتحدث إميليانو:

- "منذ سنوات لم أتسلّ كما حدث أمس، إن عندك موهبة الفرحة يا قرص العسل". وكان ما قاله هنا بداية آخر حديث بينهما.

تذكرت تريزا ما فعله الأستاذ عندما ترك حاملة الضوء ذات القوقعات المصبوغة تقع وتتحطم معلقاً على ذلك تعليقاً هزلياً: "استرح بسلام يا ملك قلة الذوق ووداعاً إلى الأبد". ولكن إميليانو لم يضحك، فقد غرق في القلق من جديد وبدا وجهه منقبضاً ورأسه مريحاً من الأحزان والاشمئزاز.

غرق الأستاذ في صمت ثقيل، وحاولت تريزا أكثر فأكثر أن تسحبه من مشاغله وتعود به إلى الضحك إلا أنها أخفقت. وتوقف الحديث عن فرحة أمس حتى بداية ليل ذلك الأحد من أيار.

وبقي الجزء الأخير: الفراش، فإلى الحب دون عقبة، إلى امتزاج الجسدين والرغبة واللذة والانطلاق الذي لا نهاية له لكي تقتلعه من الحزن المتراكم وتخفف عنه العبء، آه، لو كان بإمكان تريزا أن تتحمل عنه كل ما يحزنه ويتعبه. إنها متعودة على الحياة الشاقة، وقد أكلت من الناحية العفنة بوفرة، أما الأستاذ فقد حصل دائماً على ما أراد وكيفما شاء، والآخرون يطيعون، يحترمون وينفذون الأوامر صاغرين، وقد شاخ وهو يتمتع بالحياة الطيبة: المسألة بالنسبة إليه هي أصعب، في الفراش، من يعرف، فقد يهدأ وهو داخل تريزا.

ولكن، بعد إغلاق الباب، أعلن إميليانو:

- أريد أن أتحدث معك يا تريزا، لنبق هنا، في الأرجوحة، قليلاً.

يوم الخميس كان على وشك أن يفتح قلبه عندما تحدث عن الزواج الأول وأشار إلى إيزادورا؛ وكان العبء لا يطاق حتى بالنسبة إلى كبرياء الأستاذ، وقد جاءت الساعة ليقسم الحمل، ويخفف عنه العبء، وسارت تريزا باتجاه الأرجوحة:

إني مستعدة يا حبيبي. فقال إميليانو:

- تمددني قربي هنا واسمعي.

فقط في بعض اللحظات يقول لها "أنت"، عندما يريد أن يجعل الألفة بينهما أعمق مما هي. "أنت تريزا، قرص العسل خاصتي".

هناك في حديقة البتائج، والقمر ينتشر فوق أشتانسيا منساباً كالذهب فوق الثمار، وعطر الياسمين يملأ الأنفاس عبر نسيم الليل، كان صوته غضوباً فأخبرها بكل شيء... تحدث عن خيبة الأمل، عن الضعف، عن الوحدة في حياته العائلية، إن إخوته عاجزون، والزوجة تعيسة، والأولاد كارثة.

لقد بدد حياته في العمل الشاق والمتواصل لمصلحة عائلة غويدس وإخوته وكل قومه، وعلى الأخص، الزوجة والأولاد، الأستاذ إميليانو غويدس أكبر آل غويدس أصحاب مصنع كاجازيراس وزعيم العائلة. حمل الآمال، وخطط المشاريع، وحلم بالنجاح والأفراح، ومن أجل تلك الآمال الدافئة، وتلك المشاريع الجبارة، والنجاحات الرائعة ضحّى بنصف العالم، بكل الأشخاص الآخرين بمن فيهم تريزا. احتقر حق الغير، حقر العدالة، وتجاهل كل حق ما لم يكن في مصلحة آل غويدس وظلوا دائماً غير راضين، ودائماً يطلبون المزيد، ومن أجلهم قاتل إميليانو دون كلل وفي يده باستون الفضة. الرجال تحت إمرته، السياسيون، مسؤولو الضرائب المالية، القضاة، رؤساء البلديات وكل السلطات في تصرفه، وتعامل مع الجميع بالرشوة والمال، وبالتباهي والاحتقار. كل ذلك من أجل آل غويدس وبالدرجة الأولى من أجل جايرو وآباريسيدا، ولديه.

آه. تريزا، لا أحد منهم يستحق العناء، العناء الشاق، لا الإخوة ولا قومه هو - لا يستثنى أحداً - لا الزوجة ولا الأولاد، وقت ضائع، وطاقة هدرت في غير مكافئها، ونضال عبثي. الجهد والمصلحة والحنو والصداقة والحب لم تكن كلها ذات قيمة، المظالم، والسحق والعنف ودموع الكثيرين، وبأس العديدين والدم المراق، كلها لم تكن ذات جدوى "حتى دمك أنت، تريزا، هدرته من أجلهم فقد دمرت أحشائك لأقتل طفلنا، كل هذا من أجل أي شيء يا تريزا؟؟"

32

صوت الدكتور إماريليو ينطلق متحياً ليدل على الطريق:

- من هنا، رجاء.

برز في باب الغرفة شاب أسمر يكاد يكون بطول الأستاذ، حسن الشكل ومتأنق مثله، ولكن، في الوقت نفسه، هو نقيضه، في العينين المتمدنتين بريق شر، وفي الفم ابتسامة تشرد، قوي ولكنه يبدو سريع العطب، وضع يجعل نفسه نبيلًا، منطو ويظهر الصراحة، يرتدي بزة سموكينغ مصنوعة عند خياط أسعاره مرتفعة، وبدا كأنه أعطى كيانه كله للحفلات الصاخبة، والرفاهية، والحياة الحلوة. ونصف مختف وراء الواصل الجديد، قال الدكتور مقدماً:

- تريزا، هذا السيد هو توليو بوكاتلي، صهر الأستاذ.

بلى، كنت على حق يا إميليانو، يكفي إلقاء نظرة عليه حتى تتعرف فيه على صياد مهوور النساء، وعلى الانحراف الأخلاقي. ألم تر تريزا قط واحداً كهذا في المجتمع الراقى؟ وكائناً ما كان مستوى المنحرفين الاجتماعي، فإن عندهم غرضاً مشتركاً وعلامة لا تحدد ولكنها سهلة الانكشاف لدى من مارست الدعارة.

- "مساء الخير..." بلهجة إيطالية مع محاولة تصحيح فاشلة للفظ.

تأخرت عينا الشاب الأرنبيتان محذقتين في تريزا، تحسبان القيمة والسعر، إنها أجمل بكثير مما وصفوها، سيدة ذات مواهب؛ إن العجوز اللعين كان يجيد الاختيار والاحتياط: لسبب ما أبقيت مخفية هنا، في أشتانسيا، وتأمل في عمه والد زوجته، إنه ميت وعيناه مفتوحتان، كأنما ما يزال حياً، إن عيني الأستاذ كنصل سكين بارد قاطع يستقران في داخل الأشخاص، ولم يتمكن توليو أبداً من أن يخدعه. لقد عامله إميليانو دائماً بمنتهى اللباقة، ولكنه لم يكن له أبداً أقل احترام حتى عندما أعلن نفسه إدارياً قديراً على إدارة الأعمال وربح المال، ومنذ اليوم الذي قدم إليه لم يرَ الصهر في عيني الأستاذ غير الاحتقار وعدم التقدير. عينا براقتان، زرقاوان، مهددتان، لا رحمة فيهما. وفي المصنع، لم يحس توليو قط أنه في أمان: فلماذا إذاً أرسل العجوز القدير أحداً من أولئك الأزلام ذوي الصوت الأبح والجرائم العديدة لتصفيته؟ حتى الآن فإن العم ما يزال يحدجه بنظرة اشمئزاز، الاشمئزاز هو التعبير الصحيح.

- "سميرا فيفو الباتروني" ..

يبدو حياً ولكنه ميت. لقد انتهى السيد، وأخيراً ها هو توليو بوكاتلي رجل غني، غني عفن؛ لقد كلفه الغنى الكثير من التعرض للاحتقار والسخرية والصبر.

وصلت من الصالة الواسعة أصوات رجال ونساء وبينها صوت الكاهن فينيسيوس. دخل توليو إلى الغرفة مفسحاً المجال لمرور آباريسيدا غويدس بوكاتلي. قبة فستان الاحتفال تعرض هديها المغريين، وينفتح الفستان من الورا حتى منحور القفا. آبا صورة عن أبيها، الوجه المعبر نفسه، جمال صاعق، عدائية تقريباً، والفم متألم كفم إميليانو، ولكن، في فمه هو، كان الشبق مغطى بلون الشارب الكث الرمادي. في الحفلة شربت قليلاً، وكانت مهتمة بالرقص مع أولافو بيتنكور طبيب أمراض نفسية شاب وحب جديد لأن آبا تحب التغيير، ولكن خلال رحلتها إلى أشتانسيا فقد جرعت تقريباً زجاجة ويسكي كاملة.

استندت على ذراع أولافو. وعندما، بعد ذلك، لمحت جسد الأب الذي لم يكن مضاء كفاية ببقايا الشمعات الأربع ونور القمر الضئيل، وقعت راکعة إلى جانب الفراش قرب الكرسي الذي تجلس عليه تريزا:

- آي. بي. بابي.

حتى وإن تكن ابنتك يا إميليانو، فإنك لم توفرها واستعملت لها الاسم الصحيح الخام عندما وصفتها بالعاهرة، ولكنك لم تلق اللوم على نفسك ولم تقاصص دمك ونوعية الإنسان فيك. آه، لو أنها ولدت رجلاً على الأقل.

التنهيدات تتجمع في صدر آباريسيدا، "آي. بي. بابي!" مدّت يديها ولمست جسد الأب، "لقد ذهبت حزينا، لقد توقفت عن أخذي من عنقي، وأنت تداعب شعري بحنان، وعن أن تسميني ملكة وتشعل أحلامي، حلمك مصري. آي. بي. بابي."

منحنياً فوقها، وحيداً، فإن خبير العقل الباطني والعقد النفسية الشاب بدا مستعداً لنجدتها بإعطائها حبة مسكن، أو يجعلها تبتلع حامض البريتوريكو، أو يحقنها بإبرة و يمنحها يده ونظرة مؤاساة وقبلية كريمة. من زاوية الغرفة، كان توليو يرافق انفعال آباريسيدا باهتمام ولكنه يمتنع عن التدخل، لا لأنه غير مكترث بألم الزوجة، ولكن كونه رجلاً مجرباً وذا مستوى رفيع، فإنه يعرف أنه في ساعة كهذه يكون الطبيب أو العشيق أكثر فائدة وإراحة من الزوج. وأفضل من ذلك إذا كان الطبيب والعشيق قد ذابا في شخص واحد يرافقها في الرقص، وهو كناية عن نموذج متطفل وغير قادر على المقاومة. وفي موضوعات حساسة كهذه فإن توليو بوكاتلي كامل الرهافة وحسن التصرف.

مع ذلك، فإن عيني آباريسيدا المبللتين عندما ارتفعتا طلباً للنجدة وطلب الإمساك بأحد لم تفتشا عن العشيق بل عن الزوج. إذا كان في العائلة من يقدر على قيادة دفة السفينة وتحمل مسؤولية القيادة وتأمين استمرار الاحتفالات، فإنه ابن بواب قصر الكونت فاسيني في روما، توليو بوكاتلي، الوحيد. فابتسم لآباريسيدا، لأن رباطاً قوياً يجمعهما وهو المصلحة القوية بقدر قوة الحب.

مجموعة صاخبة تتجادل في غرفة الطعام مع الكاهن. وارتفع صوت نسائي منازعاً:

- لا أدخل ما لم تخرج تلك المرأة من الغرفة. إن حضورها قربه هو صدمة للمسكينة إيريس ولنا كلنا.

- "هدوءاً يا مارينا، لا تثوري..." صوت رجل مهدئ يكاد لا يكون معروفاً سابقاً.

- ادخل أنت إذا أردت لأنك معتاد أن تعيش مع العاهرات، أما أنا فلا. يا أبانا أخرج تلك المرأة من هناك.

إنها زوجة كريستوفافو بالتأكيد. الزوج عرييد، وهي مارينا لاعبة الورق، من تضطهد الآن فتاة الهوى وأولاد الزوج الطبيعيين، مستعملة ورق اللعب لأعمال السحر القاتلة، وكذلك الكتابة السحرية لكي ينتهي الجميع بكارثة، وكذلك لاجئة إلى الهاتف لتصب البصاق والشتائم، هي تعيش من أجل هذا، وتريزا بالنسبة إليها امرأة صغيرة جاء بها من زاوية الشارع..

وقفت تريزا، بوجه حجر مصقول، فوق السرير: "إلى اللقاء العاجل يا إميليانو". لمست رموشه بأصابعها، وأقفلت عينيه، ومرّت بين الأهل خارجة من الغرفة. رفعت آبا هامتها لترأها، لترى عشيقة الأب التي حكى عنها الكثير، عضّ توليو شفته السفلى، مشتتاً: إنها أكلة طيبة.

الآن، أجل، ففي الفراش جسد الميت ليس إلا، إنها جثة الأستاذ إميليانو غويدس، سيد كاجازيراس السابق، وقد أغمضت عيناه إلى الأبد. "أي. بي. بابي"، وتلوّت آباريسيدا.

وتنفس توليو بوكاتلي عميقاً، توليو الإيطالي ابن بواب قصر الكونت فاسيني زعيم كاجازيراس الجديد.

- كل هذا من أجل أي شيء يا تريزا؟

متموجاً خجلاً، مهتراً غضباً، ذا وجد لا يوصف ملتفاً بالمرارة، فإن صوت الأستاذ تحول مع كل ذلك إلى تدمير من سوء الطالع وإلى نكد. نكد؟ لا يا تريزا. إنه ليل العبارات اللبقة، وقسم يمين الحب، والمثالية! إلى هنا وصلاً معاً، ولكن فقط، بعد اجتياز طريق صحراوي شاق وعبر رمال الكراهية والمرارة. مسيرة شاقة، وبالنسبة إلى تريزا هي امتحان صعب، في نعومة أيار، بين روائح الياسمين وشجر البينانجيرا، في ليل أشتانسيا، تصارع الموت والحياة ليمتلك أحدهما قلب العجوز الفارس، بينما تريزا تنزف قربه؛ هناك، وصلاً إلى حدائق المثالية ولكن في وقت متأخر. في البداية لم يكن هناك غير الغضب والحزن، والقلب المفتوح عارياً تشققه الجروح:

- هل تعرفين كيف أحس بنفسي؟ كأني مكسو بالطين، وقدر.

قدر من كان نظيفاً كالفجر، حتى في ممارسة العنف والتأديب. كان مرعباً الإصغاء إليه، وهمسه وهو يتحدث عن العائلة، دقيقاً في تحليل الأشياء، نبي التعبير، متأسفاً، لا يرحم، قال:

- لقد نزعته من قلبي يا تريزا.

هل يكون صحيحاً؟ هل يستطيع أحد أن يفعل ذلك ويظل حياً؟ أليس أمراً قاتلاً عندما ينزع أحدهم قلبه من صدره؟

- وحتى مع ذلك لم أكف عن النضال وعن الصراع من أجلهم، أنا أبدو السيد ولكني في الحقيقة عبد، حتى قلبي يظل يخفق من أجلهم، وإن فارغاً... حتى ضد إرادتي. هل هو فقط واجب الزعيم أو حب الأب والأخ المقاوم لخبية الأمل، والاشتمزاز، وهو ينازع البقاء، إلى أين، يا إميليانو؟ يلعب الكبرياء دوره في عذابك الأليم ووحدة القاتلة؟ البرد والحمى يعصفان في جسد تريزا في اجتياز سلسلة السقوط وعدم وجود العزاء.

كان عمل الإخوة الوحيد، باستثناء إنفاق المال، شغل مراكز إدارية في الشركات، والمصرف الإقليمي، وكانوا باستمرار نواب رؤساء مجالس لا فائدة منهم، ولم يكونوا سيئين وحسب بل عاجزين بالقدر نفسه.

الأخ ميلتون في المصنع يظن نفسه سيداً إقطاعياً كاملاً، لا عمل له غير الفتيات، مهملاً العمل لا ليختارهن جميلات، فأية واحدة كانت تفي بالغرض، وكلهن برسم الحمل منه. أما زوجته إيريني، فكانت ضخمة الجثة تعيش على الشوكولاته والصلاة، وقد ولد لها ابن فقررت الأم أن تكون مهنته كهنوتية؛ ففي عائلة غويدس كان هناك دائماً شاب مكرس لخدمة الله، وكان الأخير في ذلك هو العم جوزي كاريلوس الشهير بضلوعه في اللغة اللاتينية، وقد مات في التسعين في أنقى مراحل القداسة، وسمكة القرش الضخمة إيريني زوجة ميلتون أوجدت كاهن المستقبل في رحمها بعيداً عن الوضاعة والأولاد والخطيئة.

- "ولكنه لم يصلح لأن يكون كاهناً بل كان منحرفاً جنسياً. وكان عليّ أن أرسله إلى الريو قبل أن يأخذه المسكين ميلتون بالجرم المشهود. ومن دفع الثمن كان أنا يا تريزا" وارتجف صوته غضباً: "لقد رأيت بعيني أحد آل غويدس يرضي أن يكون مطية ويقوم مقام امرأة. أضعت عقلي عندها ولم أقتل الشقي ضرباً بالباستون لأن إيريس وإيريني ساعدتاه بالصراخ وأخذتاه بعيداً. ما زالت يدي تؤلمني حتى اليوم وأحس بالتقرز عندما أتذكر.

إن بنات أخي ميلتون الطبيعيات مرميات في السهول، والكثيرات منهن يمارسن الدعارة في كباداغوا وكاجازيراس الشمالية، والمنطقة العامة! أما أبنائهم فهم في الحقول يزرعون ويقطفون قصب السكر ويشربون الكاشاسا دون أب معلن؛ وأما أولاد كريستوفافو، فيعرفون أباهم ويطلبون منه البركة، ويتقاضون مرتبات الحد الأدنى في المصرف الرئيسي وفي الفروع الأخرى، ويعملون حجاباً وبوايين أو عاملي مصاعد، بالمقابل فإن ولديه الشرعيين يتقاضيان رواتب مرتفعة فهما متخصصان في القانون، وأحدهما مساعد قضائي في شركة إكزومبورتكس والآخر في الأنترشتادول، وواحد عازب والآخر متزوج وكلاهما لا ينفعان لغير الحياة العذبة.

- في مرة من المرات يا تريزا أجبرت صحفياً في وسط الشارع على ابتلاع مقال مكتوب ضدي وضد عائلتي. ابتلعه على الناشف وهو يبكي ويتوسل؛ ابتلعه كله وكان مقالاً طويلاً وحقيقياً.

"شيء مؤسف"، وألقت تريزا بنفسها على صدر العشيق المتألم، وغزت أشتانسيا رياح موسمية وأطفأت غيمة سوداء ضوء القمر.

اختفى ظهر تريزا، باتجاه غرفة الاستراحة فاندفعت مارينا إلى داخل غرفة الميت مع زوجها.

- "إميليانو، سلفي، أي شقاء هو هذا" ركعت على ركبتيهما أمام فراش الميت، بصراخ امرأة محترفة الطحن والتلين، بنبرة متهدجة، تلطم صدرها.
- آخ يا إميليانو، يا سلفي!

كريستوفافو يتأمل أخاه، لم يصح بعد من الصدمة، ويكاد لا يعترف بالموت الموجود أمامه. لكثرة الشرب والسكر لم يبق له غير صوت متقطع: بدا متماسكاً بخوف! دون إميليانو يحس بنفسه يتيماً، فبعد موت الأب، وهو صغير، كان مرتبطاً بأخيه.

كيف ستكون الأمور الآن؟ فمن يأخذ المكان الشاغر ويتحمل مسؤولية القيادة؟ ميلتون؟ إن ميلتون لا طاقة له ولا خبرة لديه بمهمة كبيرة كهذه، ولو أن الأمر كان متوقفاً فقط على المصنع لكان الأمر ممكناً، ولكن في الأعمال المصرفية، والشركات والاستيراد والتصدير، وفي النقل وسفن الشحن، فإن ميلتون لا يفقه شيئاً، لا هو ولا كريستوفافو، وليس جايرو أكثر منهما معرفة، فهذا لا يعرف غير الجياد، وإذا وضعت ثروة آل غويدس بين يديه، فإنها لن تمكث طويلاً مهما كانت! جايرو، أبداً، ومن يعرف جيداً بهذه الأمور سواه؟

- "آخ آخ يا سلفي ذي الحظّ العاثر" لقد قامت مارينا بواجبها كنسيبة قريبة فصراخها ينطلق مؤلماً.

مرّ توليو من أمام كريستوفافو خارجاً من الغرفة. وبقيت آبا عند قدمي أبيها، ورأسها متكئ فوق الفراش يأخذها النعاس لأنها كانت قد شربت بإفراط.

من إقطاعي في منطقة الداخل، جعل إميليانو غويدس من نفسه حامل مسدس متحضراً، وما كان فضيلة زراعية انحدر إلى رذيلة في عالم الإسفلت، وانتهت عظمة آل غويدس في كاجازيراس إلى لا شيء! هكذا كتبت جريدة هارولدو بيراف في مقالها الهجومي، وقد أعاد الأستاذ التأمل في الكلمة الخبيثة عدة مرات.

- ربما لم يكن عليّ أن آتي إلى المدينة، ولكن عندما أنجبت الأولاد تولد لديّ طموح في أن أجمع لهما مالا أكثر وأن أزيد من غنى العائلة، فمن أجلهم كل شيء كان قليلاً.

كان إميليانو قد تزوج مرة أخرى، وهو رجل ناضج وقد اختار خطيبته هذه المرة من عائلة مهمة ذات أراض واسعة. إنها وريثة غنية، فأضافت إيريس ملكيات جديدة إلى ملكية الأستاذ وأعطته ولدين: جايرو وآباريسيدا.

جهد الأستاذ في أن يقيم مع زوجته علاقات حنان وصداقة إذ لم يكن بينهما حب، فلم يتمكن، فاكتفى عندئذ بأن يزودها بأسباب الراحة والرفاهية، ولم تكن تطلب أكثر من ذلك، وقد بادلت الأستاذ القليل ولم تعطه غير الأولاد... وأن تبقى شريفة فإن المسألة لا تكلفها أي جهد أو تضحية، لأن ملذات الفراش لم تكن تعني لها شيئاً، ولا يتذكر إميليانو المرة الأخيرة التي ضمّها بين ذراعيه، وكانت جامدة بلا روح. حملت وولدت وهذا كل شيء. باردة، غير مبالية، في الحقيقة لم تهتم إيريس بشيء كائناً ما كان. حتى إنها لم تهتم بولديها اللذين تحمل إميليانو مسؤولية مراقبتهم: "سأجعل منهما قائداً وملكة".

الأولاد: آه نبع مستمر من الأفراح، دغدغة أحلام، ومن أجل الأولاد عاش الأستاذ وناضل.

- من أجلهما أمرت بالقتل وقتلت نفسي يا تريزا.

خيبة أمل عظيمة! تخرج جايرو من كلية الحقوق، مثل أبناء عمه، ولم يكتف بتبديل النساء في باهيا، وبحجة إكمال برنامج قانون في السوربون، فقد أبحر إلى باريس ولم تطأ رجلاه أبداً أرض الجامعة، ولكنه تعرف تعرفاً عميقاً على ميادين السباق وكل كازينوهات القمار في أوروبا، وورث الولع بالقمار؟ وفي النهاية تعب إميليانو من ذلك التبذير للمال سدى وجعله يعود؛ ومع تعدد الاختيارات فقد اختار جايرو إدارة المصرف العامة في ساوباولو؛ وبعد سنة تم اكتشاف عملية الاختلاس وهي كناية عن عدة ملايين بددها على الجياد وغواني السباق، والباكارا والروليت. شيكات دون رصيد تمّ تجميدها في مصارف أخرى: عملية لأخلاقية محض. وتمت السيطرة على الفضيحة ولكن لم يستطع أحد أن يمنع النبا من التشرب، ولم يكن المصرف قوياً وكذلك مستوى التغطية لفقد امتياز، ولقد فقد الأستاذ تلك القلعة من الحياة والحماسة.

- لا أعرف أن أقول لك يا تريزا ما أحسست به: مستحيل... وتقهقر إلى المصنع ثم أخذ جايرو يقضي يومه في العبث عندما لا يجد في الوصول إلى كاجازيراس وراء شجارات الديوك الهراتية.

- ماذا أفعل به، تريزا، قولي؟

وأسوأ من الجميع آباريسيدا المفضلة، تزوجت في الريو خفية عن العائلة ثم أعلمت أبويها بالاحتفال ببرقية طلبت فيها المال لشهر غسل في نيكاراغوا. زواج مليونيرة باهائية وكونت إيطالي، أشارت الأعمدة الاجتماعية في الصحف إلى الزواج، حتى الباردة إيريس اشمأزت من الدم الأزرق الآتي من شبه الجزيرة الإيطالية.

وعمل إميليانو لمعرفة من كان ومن أين أتى الصهر غير المنتظر، ولمعرفة أصل ذلك الذي يفترض أن يكون نبيلًا إيطاليًا. لقد ولد توليو بوكاتلي فعلاً في قصر كونت حيث كان والده يعمل بواباً وسائقاً. وكان ما يزال صغيراً عندما تخلى عن مجمع السكن المليء بالرطوبة وانطلق ساعياً وراء ثروة سهلة، ومرّ بأوقات عصيبة ودخل السجن، وكان عنده ثلاث فتيات أرصفة يمارسن الرذيلة ليكسونه ويطعمنه عندما أكمل الثامنة عشرة من عمره، وعمل بواب ملهى، وأسد مزرعة صغيرة، ودليلاً سياحياً للعروض السينمائية الجنسية التي تعرض السحاقيات واللوطيين، ولمع بصفة جيغولو مع العجائز الأمريكيات الشماليات. وكان يعيش حياة سهلة ولكنه لم يكن يشعر بنفسه سعيداً، إنه يريد غنى حقيقياً وثابتاً وليس فقط بعض المال السذي هو دائماً قليل وغير أكيد. في الثامنة والعشرين من عمره جاء إلى البرازيل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى إثر ابن عم له من أفراد عائلة ستوروتي الذي قام بالانقلاب الرائد متزوجاً من فتاة غنية من الساوباولو، ومن هناك، ولكي يثير غيرة الأهل الفقراء، كان ابن العم يرسل صوراً لمزرعة القهوة والجياذ الأصلية والجوائز في المدينة مع قصاصات من الصحف تحمل أبناء ولائم العشاء والاحتفالات. هذه، بالضبط، أحلام توليو والثروة الأمانة والحقيقية: مزرعة، قطعان ماشية، بيوت، وحساب مصرفي. وترجل إلى اليايسة من الدرجة الثالثة في سفينة رست في مرفأ الستنوس ومعه بدلتان وختم ولقب كونت. وبعد ستة أشهر من الإقامة في البرازيل قدمته زوجة ابن العم إلى آباريسيدا غويلدس في إحدى الحفلات في الريو دي

جانيرو، الحب، والخطوبة، والزواج تعاقبت كلها بسرعة فائقة، لقد كان الأوان قد آن لأن ستوروني لم يكن مستعداً لأن يأوي متشرداً، وإن يكن مواطناً وابن عم. منذ عودته من الولايات المتحدة، ولدى وصوله إلى باهيا للتعرف على عائلة الزوجة فتح توليو يد الدم الأزرق، وتخلي عن لقب كونت لأن كل روماني نبيل كما هو معروف؛ وخائته الشجاعة لأن عيني إميليانو سببتا له خرساً بارداً، وقدم نفسه شاباً متواضعاً فقيراً، ولكن مستعداً للعمل بنشاط بانتظار فرصة مناسبة.

- كنت قد قررت إرسال من يقتله في المصنع، ولكنني إذ رأيت ابنتي سعيدة وتذكرت إيزادورا المسكينة والمستقيمة، قررت أن أعطيه الفرصة وقلت لألفريدو بأن يعيد سلاحه إلى غمده، لأن العمل قد تم تأجيله إلى حين يتصرف بصورة سيئة مع آبا فيجعل ابنتي متألمة.

وكانت هي من بدأ بالتصرف السيئ، وراحت تتركب له القرون كيفما اتفق، وهو، معتزاً بنفسه، دفع لها بالعملة نفسها، وأخذ كل واحد يتصرف كما يروق له. ولكنهما، وهذا أمر غريب، صديقان، فرحان، متحدان، يعيشان بانسجام لا نهاية له. وبقدر ما يجهد في معرفة السر فإن إميليانو لا يستطيع أن يفهم:

- تيس غنم للتناسل وقرنان كبيران.

الصهر ذو قرنين، وماذا عن الابنة؟ آبا، الابنة الوحيدة، المفضلة. "إني سأجعل من جايرو قائداً ومن آباريسيدا ملكة"؛ ولكن القائد أصبح كلباً والملكة غدت عاهرة، انحطت إلى درجة الوقوع في يد هذا الشخص المنحط، اللامناقي، المجرد من أي أصل، هل يرسل من يقتله؟ لماذا، ما دامت الابنة لا تستحق زوجاً أفضل، وما داما يعيشان مسرورين الواحد مع الآخر؟

إن ما يجمعهما هما الولدان الصغيران، والمصالح المالية والتقنع.

أكثر من ذلك، إذا قتله، فمن يبقى لقيادة السفينة عندما يموت الأستاذ؟ إنه ليس أبله، إنه عليم بالأعمال، وقادر على أن يديرها، ومن المؤسف أن يكون عفناً وقد لوّث آباريسيدا بعفونته! لوّث آباريسيدا! ألم تكن هي تحمل في دمها العفونة؟ - الويل لي يا تريزا مما انحدر إليه آل غويدس الكاجازيراس.

في صوته المنكسر اشمئزاز تحول إلى غضب، إلى نصل سكين بارد في العينين يعكس التعب ولا شيء آخر. لن يبقى غداً من آل غويدس حتى الاسم، غداً سيصبح اسمهم البوكاتلي.

- إن دمي يا تريزا دم فاسد، ملوث.

36

في غرفة الطعام كانت نينا تقدّم القهوة الساخنة وأذنها مصغية. لقد رأت في صوت توليو وحركاته سيداً كبيراً وشاباً جميلاً، إنه زوج ابنة الأستاذ! وبينما تمر كانت تستجليه وعيناها منخفضتان.

وبينما يقوده الطبيب، طاف توليو كل أرجاء البيت يزن المحتويات، ولم يعد ينقص غير الاطلاع على غرفة الاستقبال وغرفة الاستراحة القديمة ليكمل الجرد.

- هل هذا البيت ملك أم إيجار؟

- "البيت؟ ملك. لقد اشتراه الأستاذ مع الأثاث وأكثر المحتويات الموجودة فيه" واستسلم الدكتور إماريليو للذكريات: "كان يصل دائماً والسيارة مليئة، مليئة بكل شيء. هذا البيت كان سيكون بسعر أصغر ما فيه تلك الخزانة، هل تراها؟ لقد اكتشفتها مهمة على بعد ثلاثة فراسخ من هنا في موقع أحد المرضى وتحدثت إلى الأستاذ إميليانو، فأراد أن يذهب ليراها في الساعة نفسها وذهبنا في اليوم التالي على الحصان؛ إن صاحبها فقير يائس، ولم يرد أن يعطي ثمناً لأنه عدّها شيئاً قديماً مهماً في زاوية بعيدة. ومن وضع الثمن كان الأستاذ يدفع سعراً مرتفعاً.

ومهما يكن السعر الذي دفع مرتفعاً فهو بالتأكيد يبقى بخساً، لأن سعر الخزانة ثروة في أي معرض تحف قديمة في الجنوب. لاحظ توليو اهتمام عمّه الميت في كل تفصيل من التفاصيل، لا بريق قصر باهيا ولا الدار الكبيرة التابعة للمصنع تحتفظ بطابع إميليانو غويدس المتميز كما في هذا البيت الذي يطوف فيه متفقداً، إذ لا شيء فيه نافر أو في غير محله، إنه ليس منزلاً مريحاً ومقدراً فحسب، بل هو أكثر من ذلك، عش راق وملجأ سحري! سمع توليو الكثير من الكلام عنه عندما كان صغيراً. هكذا كان بيت أحد عمومته في فلورنسا: شخصياً وحميمياً.

- كم من الوقت دامت هذه العلاقة، هل يعرف السيد؟

فكر الدكتور إماريليو وحسب:

- أكثر من ستة أعوام.

فقط في آخر حياته استأثر العجوز الأكبر بعش غرام كهذا اعتبره بيته الحقيقي ومن يدري، ربما اعتبرها امرأته الحقيقية. لم يحس توليو أبداً بضرورة توفير مسكن شخصي، مع هدوء، وطمأنينة وسلام متوفرة هناك حتى في الموت، أما فيما يتعلق بامرأته فهو راضٍ دائماً عن آبا ذات الغنى والأمان والرفقة الفرحة؛ إنها تعيش وتدع الآخرين يعيشون؛ إنها القسم الآخر من توليو بوكاتلي. وفقط، من الآن وصاعداً، يقتضي أن يراقب النفقات. كان أخوها الأكبر قادراً أن يكون مبذراً فقد ولد غنياً وكان حدوده قد ملكوا أراضي وعبيداً ولم يتذوق قط طعم البؤس. لكن توليو جاع يوماً وهو يعرف قيمة المال الحقيقية وهو سيمسك بالنقاط الحساسة بيد من حديد..

- ووثيقة الملكية باسم من؟ باسمه؟ باسمها؟

- باسم الأستاذ. لقد وقعت شاهداً. أنا، والمعلم جوان..

- بيت جميل. لا بد أنه يساوي مالا كثيراً.

- هنا في أشتانسيا العقارات بخسة الثمن.

لو كانت قائمة في ضواحي أراكاجو لكانت مكاناً رائعاً للقاءات الحب. ولكن في أشتانسيا، لا فائدة منها؛ من الأفضل بيع الدار أو تأجيرها.. ولا بد من أخذ الأثاث إلى باهيا. يفكر توليو باستعماله في بيته هو، في العاصمة، فبالنسبة إليه انتهت أراكاجو.

قدم له الدكتور إماريليو شهادة الوفاة. فاحتفظ بها توليو في جيبه:

- هل مات نائماً؟

- نائماً؟ يعني... في الفراش ولكن ليس بالتحديد وهو نائم...

- ماذا كان يفعل إذا؟

- ما يفعله رجل وامرأة في الفراش...

- وهو يفعل؟ مات فوقها؟ يا للحدث!!

إنه موت العادلين، ولكن وبالمقابل بالنسبة إلى امرأة، فهو الكارثة، عندما كنت قواداً يا توليو عرفت حادثة كهذه فجنت المرأة ولم تعد أبداً كما كانت.

- المسكينة... ما هو اسمها الكامل؟ تريزا أي شيء؟
- تريزا باتيستا.
- هل يعقل أنها تفكر في البقاء هنا؟
- لا أظن. قالت إنها ذاهبة في الحال من أشتانسيا.
- هل يعتقد السيد أن أسبوعين أو ثلاثة كافية حتى تغادر البيت؟
- طبعي أن العائلة تريد أن تباع أو تؤجر البيت حتى ينسى الناس بالتالي هذا الموضوع.
- أظن أنه الوقت الكافي. أستطيع أن أتكلم معها.
- أنا نفسي سأتكلم...
- وقفنا واتجهنا إلى غرفة الاستقبال التي كان قد حوّلها الأستاذ إلى مقر عمل
- ينفتح على غرفة الاستراحة القديمة حيث الكتب وأغراض تريزا وحيث هي الآن
- تجهز حقيبتها. ألقى توليو عينيه على الصبية وراح يتفحصها من جديد معجبا، إنها
- أثني رائعة، فمن الذي سيرثها عن العجوز الأكبر؟ واقترب منها:
- اسمعي يا جميلة. نحن في الأيام الأولى من أيار، وتستطيعين أن تستمري في
- السكن في البيت حتى نهاية الشهر.
- لا أحتاج.
- انطفأ في العينين السوداوين العدائيتين بقدر ما في عيني الأستاذ الزرقاوين.
- وفقد توليو شيئا من ثقته المعتادة، ولكنه ما لبث أن جمع قواه، فهذه لا تستطيع أن
- ترسل من يقتله في أراضي المصنع. والآن من يستطيع أن يفعل، أن يحل ويربط، فهو
- نفسه توليو بوكاتلي.
- هل أستطيع أن أفيدك بشيء؟
- بلا شيء...
- ومن جديد يقيسها من أعلى إلى أسفل ويبتسم لها، نظرة وابتسامة مليئتان
- بالمعاني المضمرّة:
- مع كل هذا، مري بالمصرف في أراكاجو، فستحدث عن حياتك، ولن
- تضيعي وقتك... وقبل أن ينهي عبارته أقفلت باب الغرفة في وجهه. وضحك
- توليو.

رفع الطبيب يديه بحركة غير دقيقة، فلا شيء من كل هذا يعجبه، إنها ليلة سيئة، وعاء، يرتاح من كل هذا بعد انطلاق سيارة الإسعاف بالجنّة، وفي البيت زوجته السيدة فيفا تنتظره مغالبة النعاس حتى يخبرها بالباقي، ورافق الدكتور إماريليو توليو إلى الحديقة متعباً حيث ينام طبيب الأمراض النفسية أولافو بيتنكور في الأرجوحة.

في غرفة الطعام وهي مبدية التعجب ومتعطشة، أصغت مارينا إلى وشوشة الخادمة نينا التي فصلت قائلة:

- إن الشرشف ملطخ كله... إذا رغبت السيدة أن ترى فيني أستطيع أن أريها إياه فقد احتفظت به لما بعد...

وبينما راحت الخادمة لتأتي بالشرشف، ركضت مارينا إلى باب الغرفة ونادت على زوجها:

- كريستوفافو، تعال إلى هنا، بسرعة. -

الشرشف مفروش فوق الطاولة والخادمة تشير إلى اللطخات فلمسته مارينا بظفرها:

- يا للقدرة!!

ووصل كريستوفافو والكاهن فينيسيوس إلى الغرفة.

- أي شرشف هذا؟ الكاهن لا يحتاج إلى جواب ليعلم، فالشرشف لا يمكن أن يكون غيره، وبالتأكيد... وقد أحس بالخرج قال:

- "نينا، خذي هذا الشرشف من هنا في الحال فوراً"، وتوجّه إلى السيدة مارينا:

- من فضلك سيدة مارينا.

وقد استرعت الأصوات انتباههما، فقد انضم توليو والدكتور إماريليو إلى المجموعة.

- ماذا يحدث؟ أراد الإيطالي أن يعرف.

ارتعشت مارينا وهي في مناخها النفسي المعتاد:

- هل كنت تعلم أنه مات فوقها؟ إنها إباحية مخيفة... هل رأيت المرأة في

الغرفة؟ ما الذي يجب أن تفعله لكي يسكت هؤلاء الناس وحتى لا يعرف أحد؟ فإذا شاع النبأ فسيكون مدعاة للسخرية: إميليانو غويدس يموت في ساعة..

- "إذا استمرت السيدة بالصراخ بهذه الصورة الهستيرية فستعرف المدينة كلها في الحال ومن فمها هي"، ثم توجه توليو بالحديث إلى كريستوفافو: "عزيزي، خذ زوجتك من هنا وضعها قرب آبا الوحيدة في الغرفة".

إنها أوامر، الأوامر الأولى التي أعطها توليو بوكاتلي.

- "تعال يا مارينا" قال كريستوفافو.

وشرح توليو للكاهن والطبيب:

- سنضعه في سيارة الإسعاف كما لو كان مريضاً وحسب، بحجة أنه التهاب أو انهيار، كما تريد يا دكتور إماريليو. إنه لم يمت فوق أحد، فرجل في مركزه يجب أن يموت بصورة مشرفة على طريق المستشفى آتياً من المصنع...

سمعت في البعيد صفارة الطوارئ توقظ الناس وفضول أشتانسيا، ولن تتأخر سيارة الإسعاف في الوقوف أمام الشاليه، وترجل الممرضون ومعهم حمالة جلدية:

- الأفضل يا دكتور إماريليو أن تأتي في سيارة الإسعاف حتى أراكاجو لأجل

المظاهر.

لن تنتهي أبداً هذه الدوامة! ولكن الدكتور فكر في ورقة الحساب التي سيقدمها ووافق. وبينما يمر، قام بقفزة إلى البيت ليهدئ فيفا زوجته الفاقدة الصبر، وأيقظت صفارة الإسعاف الأطفال والجيران والطبيب النفساني أولافو بيتنكور الذي خرج مسرعاً ليتفقد آبا المهملة وحيدة. كيف أخذه النوم بحق الشيطان، جاء ليدخن سيجارة فغفا في الأرجوحة، فهل ستغفر له؟ وبينما يركض التقى تريزا في غرفة الطعام.

دخلت تريزا الغرفة وبدأت كأنها لا ترى الأهل والمعزين. ومشت قرب فراش الميت وبقيت برهة صامته وهي تحديق في وجه الحبيب.

- "خذوا هذه اللعينة من هنا..." صرخت مارينا.

- "فينيسلا بوركا مادونا! أقفلي فمك!" صرخ توليو منفجراً.

كان تريزا لم تسمع، وكأنها كانت وحيدة هناك، فانحنت فوق جثة الأستاذ ولمست وجهه وشاربه وشفثيه وشعره. "إنها ساعة الذهاب يا إميليانو، إنهم سيأخذون فقط جثتك ولكنك ستذهب معي أنا". وقبلت عينيه وابتسمت له، وأمسكت العشيق من كتفيه، الحبيب، الصديق، حبيبها، وخرجت. وعلى الحمالة

الجلدية وضع الممرضون جثة الصناعي، مدير عام المصرف، رجل الأعمال، صاحب الفراسخ والفراسخ من الأراضي، المواطن الأول لكي يموت ميتة مشرفة في سيارة الإسعاف على طريق المستشفى بسبب التهاب أو انهيار كامل، أو كما يفضل الدكتور إماريليو.

37

- دم فاسد هو دمي يا تريزا. دم ملوث هو دمي ودم عائلي.
ساعتان أو أكثر قليلاً، كأنهما أبدية من الأسف. روى خلالها إميليانو وعلق تعليقات قاسية بكلمات خام دون أن يختارها كعاداته. لم تتخيل تريزا أنها ستسمع من فم الأستاذ وصفاً يتناول أموراً إلى هذا الحد، وأن تسمع مثل هذه العبارات فيما يتعلق بالإخوة والابن والابنة. في بيت الهوى، لم يكن يتكلم أبداً عن العائلة، إن تكن قد أفلتت منه في هذا الصدد أية إشارة خلال هذه السنوات الست إلى أمر عائلي فلإطراء عليها والرفع من شأنها. لقد أراها مرة صورة لابنته آبا تبدو فيها صبية ذات عينين زرقاوين كعيني أبيها وفم شهواني جميل. "إنها كاملة" قالت تريزا واستطرد هو: "إنها كنزي". وفي ليل ذلك الأحد من أيار أدركت تريزا مدى امتداد الكارثة التي هي أبعد بكثير مما استطاعت أن تتخيله عبر الإيحاءات والكلمات الفالطة والعبارات التي يلقيها الأصدقاء والغرباء عبر صمت إميليانو. لا بد أن محافظته على نفسه فرحاً في التعايش معها ومع الأصدقاء قد كلفته الكثير ليقى حميماً، حكيماً، ومحتفظاً مع ذلك لنفسه بالتجربة المرة، بل بالفلفل الحار الذي يستهلك كيانه، وفجأة نضح الإناء بما فيه.

- دم فاسد، عرق فاسد، جنس بشري منحط.
فقط شخصان من عائلته لم يصدماه، ولم يخونا ثقته ولم ينخدع معهما:
تريزا وإيزادورا، وراح يفكر في إيزادورا، الخياطة المسكينة، الزوجة النموذج، الرفيقة التي لا تنسى والتي من أجلها علق الصناعي الأوامر المعطاة إلى ألفريدو للقضاء على توليو بوكاتلي، لكي لا يقتل الصهر ويعطيه فرصة أخرى.
- إن دم عائلي يا تريزا دم صالح، ليتني ما زلت شاباً لكي أنجب منك أولاداً
حلمت بهم.

وعبر طرقات وعرة ومسالك عميقة وصلا إلى قسم الحب وإلى المثالية الرفيعة.
فبعد أن قال لها كل ذلك بمرارة وغضب وتولع، وكما لم يفكر قط بأن يقوله
لإنسان، أو شريك أو صديق، فإن الأستاذ أخذها بين ذراعيه وقبل شفيتها وأبدى
أسفه:

- تأخرت أكثر من اللزوم، يا تريزا، تأخرت لكي أعرف، تأخرت في إنجاب
الأطفال الذين حلمت بهم، ولكني لم أتأخر لكي أعيش، ليس عندي سواك في هذا
العالم يا قرص العسل، فكيف استطعت أن أكون ظالماً ووضيعةً إلى ذاك الحد؟
- ظالماً؟ ووضيعةً؟ معي؟ لا تقل هذا، ليست الحقيقة. لقد أعطاني السيد من
كل شيء، ومن أنا حتى أستحق أكثر من هذا؟

- عندما كنت أمشي معك منذ قليل في طريق المرفأ، انتبهت فجأة إلى أنني
إذا مت اليوم فستبقين بلا شيء لتعيشي، لا بل ستكونين أكثر فقراً مما كنت عندما
وصلت إلى هنا لأن حاجاتك الآن أكبر؛ كل ذلك الوقت، وطيلة ست سنوات، لم
أفكر أبداً بهذا. لم أفكر، فكرت فقط في نفسي، وفي المتعة التي تعطيني إياها.
- لا تقل هذا، لا أريد أن أسمع.

- غداً صباحاً سأتصل هاتفياً بلولو طالباً منه المجيء في الحال ليضع هذا البيت
باسمك وأن يضيف فقرة إلى وصيتي، فقرة تكفل لك حياتك بعد موتي. إني عجوز
يا تريزا.

- "لا تتكلم هكذا، أرجوك..." وكررت: "رجاء، أتوسل إليك".
- حسناً، لن أتكلم أكثر، ولكنني سأأخذ الاحتياطات اللازمة، فلأصحح على
الأقل جزءاً من الظلم: لقد أعطيتني الأمان، والحب، وأنا بالمقابل أبقيتك سجيناً
هنا، مرتبطة بإراحتي، كأنك شيء، غرض، أو أسيرة، أنا السيد وأنت الخادمة،
وأنت حتى اليوم ما زلت تعدينني السيد. لقد كنت سيئاً معك وبقدر ما كان
النقيب نفسه. لقد كنت نقيباً من نوع آخر يا تريزا، ولكني مصبوغ، نظيف من
الخارج، أما من الداخل فقد كنت الشيء نفسه، إميليانو غويدس وجوستنيانو
دوارتي دا روزا متساويان، يا تريزا.

- آه! لا تشبه نفسك به! ليس من رجلين مختلفين بهذا القدر، لا تسئ إليَّ
بالإساءة إلى نفسك بهذه الطريقة. لو كنتم متساويين، لماذا كنت سألقي هنا، لماذا

كان عليّ أن أبكي من أجل عائلتك ما دمت لا أبكي على نفسي؟ لا تشبه نفسك به فهذا يسيء إليّ. لقد كان الأستاذ دائماً صالحاً بالنسبة لي وقد علمني أن أكون امرأة مستقيمة وأن أحب الحياة.

وولد إميليانو من رماده من جديد على صوت تريزا المتولّ.

- لقد تعلمت خلال هذه السنوات من أكون، لقد تعرفت على الجانب الجيد فيّ وعلى الجانب السيئ الذي أستطيع أن أكون. لقد وضعت يدي في قلبي واقتلعتة ولكن قلبي لم يبق فارغاً ولم أمت، لأنني أملكك، أنت ولا أحد آخر.

وبنجل مراهق طارئ، ومع حزن ملح، بدا الأستاذ مخلوقاً لا حماية عنده، متناقضاً مع السيد المتعود على الأمر والنهي، المستقيم، الحازم الوقح والصلف عندما يقتضي الأمر. بينما صوته يرتجف ويكاد يختنق.

- أمس، في الكرّمس، بدأت حياتنا الحقيقية، يا تريزا. الآن فإن الوقت الكامل هو لنا والعالم كله ملكنا، لن أتركك وحيدة بعد اليوم، وسنكون من الآن وصاعداً معاً، هنا وحيثما كنت، ستسافرين معي، لقد انتهى الخيال يا تريزا.

وقبل أن يقف كشجرة باسقة ويأخذها بين ذراعيه منهيّاً الحديث المروع ومحادثة الحب الناعمة، قال إميليانو غويدس:

- ليتني كنت عازباً لأتزوجك. لا لأن الزواج يبدل شيئاً مما تعين لي. إنك امرأتِي.

وعندما انتهت القبلّة، تمتت:

- آه. إميليانو، حبيبي.

- لن تناديّني أبداً بالأستاذ. وحيثما كنا.

- أبداً، أبداً، يا إميليانو.

ست سنوات مرّت على الليلة التي أخذها فيها من سوق البغاء. فأخذ الأستاذ تريزا بين ذراعيه وقادها إلى غرفة الملذات. كانا قد تجاوزا المصاعب الأخيرة، وأصبحا، إميليانو غويدس وتريزا باتيستا، عجوز من فضة وصبية من نحاس.

انطلقت سيارة الإسعاف، وظلّ الفضوليون متجمعين أمام الشاليه ينتظرون معلقين، واختلطت نينا بهم وهي تبلع لسانها بعدما أمسكت بالأولاد. في الغرفة، انتهى الكاهن من استعادة المبخرة وقرامي الشموع وألقى نظرة حسد أخيرة على المرأة الكبيرة، "آه، من الخليعين! اذهب الآن لتوك". واستأذن الكاهن قبل أن ينصرف:

- ليساعدك الله يا تريزا.

انتهت تريزا من إعداد الحقيبة، وعلى طاولة عمل إميليانو باستون الفضة فوق بعض الأوراق. فكرت في أن تأخذه معها، ولكن لماذا تحتاج إلى الباستون؟ من الأفضل أن تأخذ وردة. غطت رأسها بإزار أسود مطعم بالورود الحمراء، آخر هدايا الأستاذ لها، وقد أتاها به يوم الخميس الماضي.

قطفت من الحديقة الزهرة الأكثر احمراراً وحيوية، كأنها من لحم ودم، أحبت أن تقول وداعاً للأطفال وللعجوز إيلينا ولكن نينا أخفت الأولاد، والطباخة لا تصل قبل السادسة.

الحقيبة بيدها اليمنى والوردة باليد اليسرى والشال على الرأس، فتحت تريزا باب المدخل، مرّت عبر الفضوليين كأنها لا تراهم؛ خطوة واثقة، عينا ناشفتان، وتوجهت إلى نقطة توقف سيارات النقل التي تنطلق في الخامسة صباحاً إلى سلفادور من حيث يمر قطار سكة ليستي البرازيلية.

القسم الخامس

تريزا باتيستا ترمي الموت في البحر

1

أهلاً وسهلاً. تفضل بالجلوس، وتصرف كما لو كنت في بيتك وأنت في مرتع الإله شانغو، ريثما أكون قد جهزت المائدة وجئت بالأبواق لتراها. إنك تريد فقط أن تستوضح أمراً بسيطاً لا غير. لقد وصلت إلى هنا مع توصية من صديق عزيز، وإني أضع نفسي تحت أوامرك، أجل، تستطيع أن تسأل عن أي شيء في هذا المرتع الإلهي، حيث، باستثناء الآلهة، لا أعرف سيداً آخر يأمر وينهى غير الصداقة. إنك تريد أن تعرف حقيقة القديس الذي يقرر حياة تريزا ويحميها من الشر، الملاك الحارس الذي يكلل هامتها. وتقول إنك سمعت، هنا في رواحك ومجيئك إلى باهيا، أموراً غامضة، غير متوافقة، ومتضادة. إن هذه البلبلة في الأخبار، طبيعية، وتحدث غالباً، إذ في هذا الزمان، كل واحد يعرف كل شيء ولا يعترف أحد بالجهل، كما أن الاستنباط لا يكلف شيئاً. بالمقابل فإن كلفة حراسة الآلهة هي الحياة برمتها، والويل ثم الويل من أم الآلهة إذا تم اختبارك ولم تستطع أن تفي بالوصية، وأردت أن تخدع النور والظلمة وأوراق الغابة وأمواج البحر وقوس قزح والسهم الضائع. لا أحد يستطيع أن يضل النافخين في الأبواق، ومن ليس عنده المؤهلات فليأخذ دفة السفينة في ساعة ريح البحر المؤاتية، ومن لم يتلق الأمر مع مفتاح السر وجواب التكهن، فمن الأفضل له ألا يتدخل فيما لا يعنيه، فهذه الأشياء ليست ألعيب، إنها خطر مميت. أشياء أخرى أستطيع أن أخبرك بها في مناسبة أخرى عندما يكون عندك متسع من الوقت والصبر لتسمع.

لكي تأخذ الأبواق عن المائدة يكفي أن تكون عندك يد وشجاعة. ولكن، لكي تقرأ ما هو بأيدي النافخين، فمن الضروري أن تعرف عن النور والعتمة، عن

الليل والنهار، عن الولادة والموت وعن الكراهية والحب. لقد حملت اسمي قبل أن أولد وبدأت أتعلم منذ صغري، وعندما ترعرعت وقسا عودي بكيت خوفاً، ولكن الآلهة أعطتني القوة وأضاءت تفكيري. تعلمت من جدتي وخالاتي العجائز، ومن أمي أنينيا، ألا أحترم في باهيا غير يالوريشا، الراقصة الإلهية في احتفال غتويس الصغيرة، وأختي ومثليتي في المعرفة والقدرة، لأنني أعتني بالنافخين في الأبواق، وأجتاز النار فلا تحرقني.

أما فيما هو متعلق بتريزا، فدعني أقل لك إن هناك سبباً للغموض، وحتى لمن يعرف الكثير في هذا الأمر فهناك ارتباك في قراءة الأبواق الموجودة فوق الطاولة. أناس كثيرون مروا من هنا ولم يتفقوا: القدماء حكوا عن يانسان، والحديثون عن يمانجا وسموها أوشالاً، شانغو، وأوشوسي، أليست هي حقيقة؟ وإيوا، وأوشو ماري؟ ولا تنسى أوغون ونانيا وأومولو.

كذلك إن لعبت اللعبة ونظرت في العمق! سأخبرك: لم أرقط شيئاً كهذا وقد مضى عليّ خمسون سنة وأنا في هذا المرتفع أخدم شانغو منذ أكثر من عشرين سنة.

من تقدم شاهراً سيفاً براقاً هي يانسان وهي تصرخ: "إنها شجاعة وجميلة العراك، إنها، ومع أوشوسي جاءت تريزا من الغابة اللامتناهية، من السفح الأجرد، ومن البوار المقفر، ومن القحط والجفاف". حياة حرب منذ البدء وحتى النهاية، ليساعدها في العراك البشع والدموي، ما عدا يانسان الأولى، فإن شانغو وأوشو ماري وإيوا ونانيا وأوسين جاؤوا بالأوراق. وبإله المعرفة أوشولوفا، أوشالاً العجوز، والدي، انفتح أمامها الطريق الأكيد، حيث عبرت.

ألم يكن أومولو مقيماً في رحم تريزا في مدينة بوكين عندما شاع وباء الجذام الأسود؟ ألم يكن هو من مضغ الطاعون بسن الذهب وجعله يهرب؟ ألم يعلنها تريزا أومولو في احتفال الراقصين في موريكابييا؟ وماذا؟ لقد جاء أومولو مولهاً متشقق الجراح يطالب بحصانه. وانظر إلى أية بليلة عصفت. لم يكن هناك مخرج غير المناداة على أوشوم لكي تمنح الهداية للسادة المهتمين. لقد وصلت بقلائد الدلال والملابس الصفراء تشع بأنوار الذهب، وفي سجود الآلهة عند أقدامها عشقاً، إنثاءً وذكوراً، ابتداءً من أوشوسي وشانغو زوجها، وعند قدمي أوشوم، وحول

روعتها، فإن تريزا أخذت من أوشوم سطوة الحب ونكهة العسل، وحب الحياة ولون النحاس. لقد كان بريق العننين السوداوين مع ذلك بريق عيني يانسان الذي لم ينتزعه أحد.

وإذ رأيت تريزا باتيستا محاصرة ومهاجمة من كل النواحي، تساندها الآلهة فقد قلتُ لها مختصراً اللعبة: حتى في أسوأ أزمة وفي أضنى تعب لا تستسلمي، وثقي بالحياة، واستمري سائرة إلى الأمام.

ومع هذا هنالك دائماً لحظة إحباط تام عندما يظن أشجع الناس أنه انتهى، فيقرر إلقاء السلاح والتخلي عن النضال. وهذا الإحباط حدث معها في مرحلة لاحقة، فاسأل هنا، وهناك وستعرف. أكثر من هذا لا أستطيع أن أقول لك لأنني لم أستجل الأمر.

بالنسبة لي، على كل حال، فإن من قاد خطوات تريزا هو إيشو الوحيد. ومن أحسن منه يعرف الدروب والشعاب ومن أكثر منه حباً لإحياء الاحتفالات؟ لم ينته العيد، وأبعد من برنامج حفلة الزواج، كان هناك حفلة زواج أخرى في البحر عندما مدّت الآلهة جانايينا لبدنها الخضراء للحبيين.

"بالنظر إلى طلب فرجيه هل يعرف السيد أن بطرس كان ساحراً؟ لقد قلتُ كل ما أعرف، وأنا جالسة هنا على عرش يالوريشا تساعدني حاشية الأوباس، أنا السيدة الأم إياناسو، أم القديس إشي دواوبو أفونجاه، المعروف بصليب سان غونسالو دو رتيرو المقدس حيث أوجه الآلهة وأحتوي في صدري بكاء المعذنين".

في حياتها دائماً موضوع شائك. فللمرة الثانية تلقت تريزا عرضاً بالزواج ولكن المرة الأولى لا تعد، لأن المرشح للزواج كان ثملاً جداً في اللحظة الحاسمة. ظلم، ربما، لأن مارسيلو روزاد لم يكن ينقصه الشوق والتفرغ ليقع في الحب، ولكن كانت تنقصه الجرأة لمواجهة تريزا وطلب يدها للزواج؛ تناول فوق ما في استطاعته من الكاشاسا، وإذ لم يكن معتاداً وقعت الكارثة: ففي اللحظة الحرجة من الاعتراف تقياً في بيت عزّاب التاميرا، في ماساو، حيث جاءت تريزا لملاقاته عدة مرات، ومن وقت لآخر، وحسب توفر المال. لم تمتنع تريزا ولكنها لم تصدق عروض حافظ الوثائق في شركة موس ومينيزيس الكبيرة ولم تكلف نفسها العناء لإظهار أسباب جدية في الرفض، واكتفت بأن تأخذ الأمور مأخذ المزاح وانتهى

الأمر. ونتيجة الصدفة فقد اختفى مارسيلو في ذلك العالم حاملاً معه الذكرى وحب تريزا ولم يستطع أبداً أن ينساها.

وظلت تريزا تعمل راقصة سامبا في الملهى، وإذ لم يكن عندها نفقات كبيرة ولم تكن تقامر، وتتخذ عشاقاً، فإنها كانت تمارس بأقل قدر ممكن في بيت العزّاب رغم الطلبات الكثيرة والثابتة. وكانت مهنتها تلك قديرة، بسبب تكوينها الرائع وتربيتها الرفيعة وحركاتها المرفهة، ولكنها كانت تظل بعيدة عن كل مصلحة سواء كانت جنسية أو عاطفية، وهي غير مبالية بالرجال. وتقلص زبائنها إلى عدد قليل من السادة الأغنياء الذين كانت تختارهم تافيانا صاحبة بيت العزّاب بأصابعها وهم من الزبائن القدامى وذوي العملة الصعبة. ولكن لم يستحق أحد منهم أبداً أن تفكر فيه تريزا. وقد أرادها البعض خاصة بهم، وخدمهم، وهم يعرضون أمامها المحفظات المالية الكبيرة بعروض مغرية للصدقة. صداقة؟ أبداً!!! لن يتكرر الخطأ المرتكب عندما جرّبت مدير المركز الصحي في بوكين وذهبت تعيش معه.

ومنذ أيام أراكاجو البعيدة، لم تعد تحس بالدم يفور في عروقها ولا تريد أن تبادل أحداً النظرات بعينيها المضيئتين القاتمتين بحرارة عاطفية، لقد كانت فقط تسعى إلى الحب. لا، لا، لقد كان الحب يخرق قلبها وخنجرأ مسدداً إلى صدرها وشوقاً قاسياً وأملاً منهاراً. إيه جانواريو جيريا يا بحاراً يمخر الآن عباب المحيط اللامتناهي، أين تسير؟

كان عمرها خمسون جيلاً من العهر قضت نصفها في تسهيل الدعارة، فإن العجوز تافيانا التي تعرف كل شيء عن المهنة والطبيعة الإنسانية، عندما تعرفت إلى تريزا، وجدت فيها مصنعاً للمال، ورأتها امرأة من الجمال والإثارة بحيث تستطيع أن تثري بيتاً للعزّاب وقوادته وأن تجمع فيه ذوي النفوذ والقدرة. وصممت أن تقدمها للمسنين على أنها متزوجة، شريفة، ولكنها فقيرة، وقد جيء بها إلى بيت العزّاب لمصيبة في حياتها المؤلمة، وحاجة ملحة ويأس مرير، وقصة محزنة. وكانت تافيانا تستطيع أن تروي حكايات كثيرة ومتعددة تحفظها في وثائق ذاكرتها وفي مخزن لا ينضب، ولكنها حكايات حقيقية وكل حكاية أكثر تأثيراً من سابقتها. ومع هذه الخدعة الصغيرة ازداد كرم واهتمام الزبائن الفاضلين، فبالنسبة إليهم لا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر راحة من حماية امرأة متزوجة، شريفة، ومحتاجة،

ممارسين الملاطفة، ومركبين مع ذلك القرون للزوج، مستجيبين في ذلك لإرضاء الروح والمادة.

ورفضت تريزا، فهي لا تريد أن تجعل مهنة الدعارة المظلمة تزيد من ألمها. ومع الوقت، أصبحت الاثنتان صديقتين، ولكن تافيانا ظلت تهر برأسها وتستمر في تكرار التشخيص الذي شخصته آنذاك:

- أجل يا تريزا، فأنت لا طاقة لك على هذا، ولم تولدي لمثل هذه الحياة.

لقد ولدت لتكوني سيدة بيت، وأماً لأولاد. إنك بحاجة إلى أن تتزوجي.

لغرض ما، من يدري، حبّدت تافيانا معرفة تريزا باتيستا بالميريو داس نيفس المواطن المحبوب، والمتحدث اللبق وصاحب مخبز في بروثاس. لم يكن غنياً ولكنه كان في وضع مزدهر وقد ربطته بالقوادة روابط صداقة قديمة. فمنذ خمسة عشر عاماً تعرف في بيت العزّاب إلى الصبية ناتاليا الملقبة بناتادي لتي بسبب بشرتها البيضاء، وتعلقها بالموضة، وحدثاتها في المهنة، وهي واحدة من اللواتي ولدن ليكن ربّات بيوت حسب تعبير تافيانا. وإذا كان قد بدأ حياته تاجراً في ذلك الوقت، فإن الميريو كان يناضل ليل نهار ليجعل مخبزه المتواضع يزدهر على وفق طلبات الأحوال الحاضرة. وبعد عدة لقاءات مع ناتاليا عرف منها وبالوصف المحزن كيفية طرد والدها لها من البيت عندما علم أن حبيبها افتضّتها، بعدها ضمّها الطالب الجامعي إلى صدره في غرفته البوهيمية، ثم غيّر مكان إقامته، دون أن يترك عنواناً ودون أن يودعها. وأحس الميريو أنه موله بالصبية الشابة الساحرة وضحية الاعتداء فنشلها من بيت العزّاب وتزوج منها ولم يكن من زوجة أكثر منها استقامة حتى بين راهبات الدير. وكان مجداً في العمل ومستقيماً ولكن زوجته لم تمنحه أولاداً. وفي الحقيقة، كان الشيء الوحيد الناقص في الزواج هو الأولاد وما عدا ذلك فكل شيء كان أكيداً. وبعد عدة سنوات تحسنت الأحوال وأصبحت ناتاليا قادرة على أن تتخلى عن العمل كمسؤولة صندوق في المخبز حيث كانت تجد نفسها مغروسة طيلة النهار، وبعدها قررا أن يتبنيا طفلاً يتيم الأب والأم، إذ إن الأم كانت قد توفيت بعدما منحت الطفل نور الحياة، وبعد ستة أشهر من ذلك مات الأب، مساعد الفران، ضحية مرض وبائي، وتكفل الميريو وناتاليا الطفل وفي مكتب الأحوال المدنية أعطياه اسم أبوين جديدين ولقباً جديداً. وإن تكن السنوات

السابقة قد انقضت بسعادة هادئة، فإن العامين الأخيرين، وبعد ما شبّ الطفل عن الطوق كانا أكثر سعادة وولها، ولكن قدراً عائلياً مفاجئاً قضى على السعادة العائلية بسبب سيارة شاب ابن زانية من عائلة غنية كانت تسير بسرعة جنونية للوصول إلى مكان ما، والشاب كان على عجلة من أمره دون سبب موجب لذلك، فدهس ناتاليا أمام المخبز وترك الميريو في اليأس وجعل الطفل للمرة الثانية يتيم الأم. وبحثاً عن العزاء فإن الأرمل الجديد قد فتش عن تافيانا، الصديقة القديمة ليجد بعض العزاء فتعرّف على تريزا.

وكانت تريزا تأتي إلى بيت العزّاب في موعد محدّد سابقاً ملبية طلبات بعض الزبائن القليلين الذين تختارهم القوادة النشيطة. وعندما تنتهي الجولة كانت تريزا تصرف القاضي أو المصرفي وتتأخر أحياناً في الصالة لتبقى برفقة تافيانا للتحديث، وفي إحدى المرات تلك قدمت إليها الصديق الميريو داس نيفس "الشخص الذي له عندي مودة خاصة منذ كان شاباً بينما أنا متقدمة في السن". فكم هو عمر تافيانا إذاً؟ لعل لا عمر لها.

كان خلاسياً فاتح اللون، سميناً أنيقاً، يبدو عليه التفاؤل، مرتاحاً في عيشه ومتحدثاً لبقاً مع بعض الجهد في العثور على الكلمات الملائمة، وكان كل شيء في الميريو ذاك يوحى بالأمان والطمأنينة. ولكي تقوم بخدمة لتافيانا، فإن تريزا قبلت لقاء معه وعيّنت له موعداً بعد ثلاثة أيام مخصصة له فترة كاملة من بعد الظهر. "اهتمي بصديقي قليلاً يا تريزا، لقد فقد زوجته منذ زمن ليس بالطويل ولم ينزع ثوب الحداد بعد".

سأحمل الحداد في نفسي إلى الأبد.

طويل الباع، قريب من النفس فهو بعد الجولة الثانية من المهمة (كان زبائن تريزا التقليديون يتمكنون بعد معاناة طويلة من القيام بالجولة الأولى والوحيدة) فقد بقي الميريو يتحدث ويروي خصائص حياته المتعلقة بناتاليا والولد والمخبز الذي أصبح ينتج الحلويات وأصبح أكبر مما كان سابقاً وقادراً على مزاحمة المحتكرين الإسبان أسياذ السوق. وفي اليوم التالي، قال باعتزاز، إن المخبز سيصبح شركة أفران كبيرة

- وماذا سيكون اسمها؟

- معجنات سيدنا دوبونفين.

جلباً للحظ وتشریفاً للإله أو شالا، فإن الميريو لا يرتدي إلا الملابس البيضاء ومنذ وقت طويل. وأصبحت تريزا على علم بكل شيء مع مرور الأيام، لأن التاجر أصبح زبوناً دائماً. المرحلة الشعرية الجميلة من علاقتهما استمرت بين بيت العزّاب وعلى طاولات ملهى فلور دي لوتوس. وإذا لم تكن تريزا قادرة على أن تخصص له أكثر من فترة بعد الظهر واحدة في الأسبوع، فقد راح الميريو يرتاد الملهى في الطابق الأول من أحد مباني شارع دويتجولو حيث كانت تريزا سيدة الإثارة في السامبا البرازيلية. وطبقاً لعقد العمل الشفهي مع صاحب الملهى أليينور بينيرو، كان على تريزا أن تبدأ في العاشرة ليلاً وألا تغادر المكان قبل الثانية صباحاً. كانت تقوم بتقديم عرضها حوالي منتصف الليل بملابس مختارة، مفصلة بأناقة وتبرج على الطريقة الباهيانية. ولكن قبل العرض وبعده كانت تقبل دعوات الرقص والجلوس إلى بعض الطاولات المفرطة في استهلاك الشراب، طالبة لنفسها روح النعناع، أو شاياً داكناً، ولم تكن مهمتها في فلور دي لوتوس تبلغ أبعد من ذلك، وهناك تأنف عن المهنة التقليدية ولا تقبل الخروج مع الزبائن إلى الفنادق القريبة. وكانت تذهب من الملهى مباشرة إلى الغرفة المؤجرة في عمارة دونافينا صديقتها وعزيزتها المرفهة. الغرفة نظيفة ومتواضعة: "استقبلي الرجال حيثما تريدن ولكن ليس هنا، لأنني أرملة شريفة"، نهتها السيدة فينا العجوز المتقاعدة ذات العينين اللامعتين المتعبتين التي تهوى الإصغاء إلى قصص الراديو وتربية القطط ولديها منها أربع.

بينما الخبازون يخلطون العجين ويسخنون الفرن، كان الميريو يظهر في ملهى فلور دي لوتوس لرقصة سامبا، أو بلو، أو رومبا، واحتساء كأس من بيرة وإلقاء بيتين من الشعر. وقد رافق تريزا عدة مرات حتى باب بيتها قبل أن يعود إلى المخبز. وكانت الصبية تقدر حق التقدير مرافقتها لها وحديثه الهادئ الطيب وأساليبه المستقيمة.

ولم يطلب قط أن يقضي الليل معها محولاً بذلك العلاقات الطيبة من الحاملة إلى علاقة جدية. أما الفراش فكان فقط فراش المهنة ومرة واحدة في الأسبوع في بيت العزّاب، ولكن أغلب الوقت كانت العلاقة تعايشاً منسجماً وكان هو صديقاً ودوداً.

في الليلة السابقة على يوم طلب الزواج تأخر ألميريو في ملهى فلور دي لوتوس حتى ساعة خروج تريزا وهو يرقص، ويجهز على بعض كؤوس الكوكتيل متحدثاً. وعند باب الملهى دعا تريزا إلى مرافقته حتى بروتاس لتتعارف إلى المخبز الذي يعد مسافة قصيرة جداً في التاكسي. وقال إنه خلال نصف ساعة يعيدها إلى البيت. وفي الحال استغربت تريزا الدعوة، ولم تجد سبباً لترفضها إذ كان قد كلمها كثيراً عن الفرن الكبير وعن واجهات الفورميكا، ولم يعد ينقص سوى أن تتعارف على المؤسسة.

وبكبرياء الملاك الواثق من نفسه قال: "لقد بدأت من لا شيء أبيع الخبز متنقلاً من بيت إلى بيت" أطلعها على التأسيسات وعلى قسم الإنتاج والخبازين والمساعدين الذين يخلطون العجين والفرن المشتعل وألواح الخشب العديدة والواجهة والأبواب الأربعة المفتوحة على الشارع حيث يقف الزبائن، وكان المخبز مفتوحاً ومضاء خصيصاً لتريزا.

- ومع كل هذا سيتحول المخبز إلى شركة. آه. لو أن ناتا حبيبتى لم تمت! إن الرجل يشتغل باجتهاد فقط عندما تكون عنده امرأة يبادلها الحب ويعمل من أجلها. ومدحت تريزا، كما يجب، العمل والواجهات وتلقت مبتسمة جزءاً من بعض الخبز الأول المصنوع عند الفجر طازجاً. وكانت تهم بالمسير إلى التاكسي ولكن ألميريو طلب منها أن تدخل أولاً، ولدقيقة واحدة، إلى مسكنه المجاور. كان مصبوغاً بالأزرق والأبيض وذا شبابيك خضر ونخلتين في الحديقة تفصحان عن اهتمام المقيمين بهما:

- عندما كانت حيّة كان البيت والحديقة يستحقان النظر إليهما. أما الآن فقد أصبح كل شيء مهملاً.

لم يدعها لرؤية الأغراس المتسلقة في الحديقة، واجتازا الممر الداخلي باتجاه غرفة الطفل. كان الصغير نائماً في مهده وهو يمسك بيده دباً اصطناعياً مكسواً بالوبر والمصاصة واقعة فوق صدره.

- زيكس.. كان اسم الطفل جوزي وينادى بزيكس غنجاً.

- "يا حبيبي!" قالت تريزا وهي تمس وجه الطفل بيدها وتلاعب شعره المجعد. تأخرت في تأمل الطفل متأثرة وخرجت على رؤوس أصابعها حتى لا توقظه. وفي التاكسي أرادت أن تعرف:

- كم له من العمر؟
- لقد أكمل السنتين. سنتين ونصف..
- إن المهد صغير عليه.
- صحيح يجب أن أشتري سريراً. سأشتريه اليوم بالذات.
وعرفت تريزا في اليوم التالي لماذا كان كل ذلك. ففي بيت العزّاب وقد أشعل سيجاراً بعد الممارسة الجنسية الثانية، دعاها للقيام معه بنزهة. "في هذه الساعة المتأخرة؟" أجل كان عنده شيء يطلعها عليه ولكن ليس هنا بين جدران السوق العمومية.

كانت الدعوة مثل دعوته لناتاليا منذ خمسة عشر عاماً. ناتادي ليتي كانت ذات البشرة البيضاء وأساليب الدلال، أما الآن فإن من يدعوها، ذات لون نحاسي لا يرحم، وكان وله كبيراً في الحالتين وكلماته متشابهة:
- أنا بحاجة إلى إلهام الطبيعة.

عند الأصيل، شوهدت تريزا غارقة في الحزن وهي تجلس فوق الجدار العريض أمام كنيسة سيراث التي تقسم مدينة باهيا المزروعة بين الجبل وخليج المياه الهادئة، تتأمل في أشعة المراكب. وجلس إلى جانبها ألميريو واثقاً من نفسه. إنه الركن المناسب للإفصاح عن الحب، فهناك طلب ونال يد ناتاليا وكان مشهداً مؤثراً يكرر نفسه الآن.

- اسمحي لي أن أقول لك يا تريزا ما يختلج في صدري. إني أجد نفسي تحت رحمة صاعقة من العواطف. إن الرجل ليس سيد إرادته والحب لا يطلب إذناً ليدخل في صدر معذب.

"كلماته جميلة"، فكّرت تريزا، "صادقة". ومن يعرف ذلك جيداً... إنما هي: إن الحب لا يطلب إذناً، إنه يتفجر عنيفاً ويسيطر ثم لا يعود من أمر إزاءه. تنهدت؛ بالنسبة إلى ألميريو داس نيفس، فإن تلك التهيدة يمكن أن يكون لها معنى واحد. وإذا بدا أكثر حيوية، تابع:

- "إني أحب يا تريزا، إن نيران الحب تلتهمني". نغمة الصوت ومحاولة أخذ يد تريزا أيقظتها من شرودها. فحولت عينيها عن المشهد وفكرها عن جانو وحدثت ألميريو، فوجدته متحولاً وعيناه تحدقان فيها:

- إني موَّله بك إلى درجة الضياع يا تريزا، ضعي يدك على قلبك وأجيبيني بصدق: هل تعطيني شرف الزواج منك؟

وبينما تريزا تصغي إليه، وفمها مفتوح، تابع يقول ما لاحظته فيها في اليوم الأول من التعارف، وهو أنه وقع أسير حبها في الحال لا لجمالها وحسب بل لأساليبها وتصرفاتها، وقد جعله الحب ضائعاً فإنه لم يعد قادراً على أن يكتُم عواطفه في صدره. "هل تريد أن تجعلني سعيداً فتسمحين لي أن أذهب بك إلى الكاهن والقاضي؟"

- ولكن يا ألميرو إني لست أكثر من امرأة عامية...

كونها قد عاشرت بيت عزّاب تافيانا لا يعني شيئاً، فهناك التقى بناتاليا التي لا تنسى والتي لم تعط امرأة لزوجها ما أعطته هي من حسن الحظ والتوفيق، والماضي كائناً ما كان لا يُحسب ولا يوزن فحياة جديدة تبدأ في تلك اللحظة وهناك بالذات، حياة جديدة بالنسبة إليها وإليه، وعلى الأخص بالنسبة إلى زيكس. وإذا كان اعتراض تريزا الوحيد هو ذلك فليس من مشكلة وكل شيء بالنسبة له طبيعي. ومدّ يده إلى تريزا فلم ترفضها بل أخذتها بين يديها وقالت:

- لا ليس هذا هو الاعتراض الوحيد فهناك اعتراض آخر. ولكن، وقبل كل شيء أريد أن أقول لك إنني متأثرة جداً من طلبك. وكأنك قد وهبتني هدية ثمينة وتقديرية ولا أعرف كيف أشكرك. إنك رجل طيب وأقدرك كثيراً. ولكن ليس لأتزوج منك. اعذرني، لا أستطيع، لا...

- ولماذا، إذا لم يكن من سر؟

- لأنني أحب رجلاً آخر، وإذا عاد يوماً وما زال يريدني وحيثما أكون وأفعل ما أفعل فسأتحلى عن كل شيء وأذهب معه. وكون الأمر كذلك، قل لي، كيف أستطيع أن أتزوج؟ لو لم يكن عندي اعتبار لك لارتكبت هذا الخطأ ولكنك أنا زائفة حتى وإن كنت أمارس الحياة فإني أحتفظ بإخلاصي لنفسِي.

ظلّ الخباز جامداً حزيناً وعيناه ضائعتان في المسافات. وهي الأخرى صامتة حزينة تحرق في المراكب التي تشق مياه الخليج في طريقها إلى ريكونكافو. فأى اسم يكون قد أعطى المالك الجديد لمركب فلور داس أغواس؟ وهبط الشفق على المدينة والبحر واحترق الأفق دماً، وأخيراً وجد ألميرو الحائر كلمات ليكسر الصمت البارد:

- لم أفكر قط بوجود أحد ما في حياتك. هل هو شخص أعرفه؟

- لا أظن. إنه ربان مركب شراعي، أو كان هكذا على الأقل. وهو الآن
يبحر في سفينة كبيرة لا أعرف أين ولا أعرف إذا كان سيعود.
كانت ما تزال تأخذ بيديها الاثنتين يد ألميريو بهدوء وبحركة صداقة.
- سأخبرك بكل شيء.

وأخبرته عن كل شيء من البدء حتى النهاية. من اللقاء به في ملهى باريس
الليغري في ليلة العراك في أراكاجو، إلى التفتيش اليائس عنه في باهيا والفراق، وأخيراً
انتهت إلى تفصيل رسالة الربان كايثانو غونزا العائد من سفرة طويلة متأخرة من
كانافيرا في الطوافة فنتانيا. وعندما أنهت حديثها، كانت الشمس قد ذابت في المياه،
وفي المراكز البحرية أشعلت القناديل ولكن المراكب الشراعية ظلت عائمة في البحر:
- عندما أصبح أرمل جاء يفتش عني فلم يجدني، وعندما وصلت إلى هنا كان
هو قد رحل لتوه، ومكثت أنا منتظرة عودته، لهذا أنا هنا في باهيا. وبلطف تركت
يد ألميريو:

- يجب أن تفتش عن امرأة تكون زوجة لك وأماً للصغير، مستقيمة كما
تستحق. إني لا أستطيع أن أقبل، فاعذربي رجاء، ولا تأخذني بمأخذ السوء.
تناول ألميريو الطيب منديلاً يمسح عينيه المبتلتين بالدموع، بينما عينا تريزا
كانتا ناشفتين كأنهما جمرتان منطفئتان. ومع كل ذلك فهو لم يعتبر نفسه كلياً
خارج الرهان ولم يعتبر اللعبة خاسرة:
- ليس هناك ما أعذرْك عليه، فالقدر هو هكذا دائماً. ولكني أيضاً أستطيع
أن أنتظر. من يعرف، ربما في يوم...

لم تقل تريزا نعم أولاً، فلماذا تجرحه وتعذبه؟ إذا لم يعد جانو يوماً على دفة
مركب شراعي أو على رفة بريق أسود غريب، فإنها ستحمل في صدرها طيلة
العمر نضال الأرملة. في فراش بيت العزّاب أو النزل؛ لا بأس أن تمارس المهنة
اللعينة ولكن ليس ممكناً ممارستها في فراش العشق أو الزوجية، فهذا الأمر مستحيل.
ولماذا تقول كل هذا فتؤذي أحاسيس من قام بتشريفها وميّزها عن سواها؟
بعد ظهر ذلك اليوم الذي طُلبت فيه يدها للزواج ورفضت، كانت تريزا
باتيستا قد كررت لألميريو داس نيفس، كلمة كلمة، وصف البحار كايثانو غونزا.
وعلى الرغم من الأحداث الحالية غير الممتعة فإن هناك براهين على الحب والأمل:

- في يوم من الأيام ودون أن يخبر أحداً، فإن الصديق سيصل إلى الميناء ليرسو. هكذا قال البحار غونزا وهو على متن الطوافة يدخن غليون التبغ المعجون. وتعيش تريزا باتيستا على ذلك الأمل. أما ألميرو داس نيفس الرومنطقي الشجاع فقد سمع بعينين دامعتين وحنجرة مختنقة الرواية: إنها وصف مؤثر وتبدو كأنها قصة إذاعية تشد السمع وترهف الإصغاء! كان الخباز قد أراد الزواج من تريزا باتيستا وعند رفضها لم يعد الرفض خسارة له، ففي يوم ما قد تقبل ومن يدري؟ ولكن لو عاد الأمر إليه في تلك اللحظة وإذا جاء جانواريو جيريا من الخليج عند الشفق عائداً ليأخذ بيد الحبيبة الضائعة ويقترن بها في كنيسة سيراث وفي احتفال سحري غريب، فإن ألميرو سيكون أول من يهنئهما. إنه يتمثل ببطل إحدى الروايات التي كان قد قرأها وهو في سن المراهقة، شهم كريم وذو قلب نظيف ومستعد للتضحية من أجل سعادة الحبيبة. إن حركات وأوهاماً كتلك تخدم جيداً... وتريح للتعزية في ساعة من المراحة كذلك.

عبارات فضفاضة تضع مع ريح الجنوب في الليلة العاصفة، وعبر الأحزان المنتشرة في عباب المحيط الثائر. كان جانواريو جيريا مبحراً على متن سفينة الشحن البانامية وفي صوت البحار كايانو غونزا أصداء صماء من التأثير العميق، إنه يريد الخير لصديقه ورفيق طفولته وأخيه في الرقص، ويتودّد بلطف وصداقة إلى الصبية الجميلة المنتظرة عودة حبيبها.

كان البحار غونزا قد علم بأن الصبية الجميلة تكاد تجنّ لتعرف عن أخبار جانواريو شيئاً، ففرح لمعرفته بأنها ما تزال حية إذ كانوا قد أخبروا صديقه كذباً بأنها ماتت فيمن ماتوا بالجذام الأسود. خبر مفرح!

وظلت تريزا طيلة شهر، تأتي يومياً إلى سوق موديلو البحري أو إلى الرامبا، لتعرف ما إذا كانت السفينة فنتانيا قد عادت من سفرها، وكانت تفتش في المرفأ عن الطوافة، والطوافة بمشهد جانواريو الأخير عليها، كأنما ترسو في عينيها عند جسر أراكاجو تتلقى أحمال السكر؛ إن تاريخ العودة غير محدّد فالبهارون يتوقف مصيرهم على الشحن والرياح والدوامات وأنواء البحار، وعلى الإلهة يمانجا حين تمنحهم الوقت المناسب للإبحار.

ذلك الانتظار وسم بداية حياة تريزا باتيستا في مدينة باهيا بميسمه، وحدّد العلاقات الأولى التي أقامتها وهي تسقط أخبار القبطان، جانواريو جيريا ومركب

فلور داس أغواس الذي كان يمتلكه؛ وكان الجميع لطفاء معها ومن المستحيل أن ترى شعباً أكثر تهذيباً من ذلك الشعب الذي بدأت علاقتها به. ولكن الأنباء، مع ذلك، لم تصل. لقد جاءت إلى العاصمة لتعرف عن جانواريو فخرجت إلى الميناء لتسأل. وقد حصلت من هنا وهناك على أجزاء من حكايات ولكن البحار كايثانو وحده هو من أخبرها بكامل الرواية.

على أثر وباء الجذام الأسود في بوكين، بدأت تريزا تطوف منطقة الداخل من مدينة إلى مدينة ومن مقاطعة إلى أخرى شيئاً فشيئاً، وقد عرفت في تجوالها أشبلانايا، سيبو، الأغونياس، وفيرداي سانتانا، رحلة طويلة وشاقة كانت تريزا خلالها دون مورد مالي ملزمة بأن تمارس المهنة في أسوأ الظروف، وخلال تلك الأشهر أكملت معرفتها العميقة بالحياة العامة، وتعاطت مع أناس عاديين جداً ولكنها كانت تستهدف من كل ذلك الوصول إلى بحر جيريا فتابعته بإصرار حتى النهاية.

وفي باهيا بدأت التفتيش. كانت في البدء خجولة وهي تتخيل أن جيريا ما يزال متزوجاً، لم تأت لتنعص عليه الحياة وتسبب له المشاكل ولم تكن تريد سوى الاستقرار في المكان حتى تستطيع أن ترافق خطواته دون أن يراها. فقط؟ كانت تحب أيضاً أن تتأمل مركب فلور داس أغواس وإن من بعيد، من بعيد؟ من يعرف بالتحديد ماذا كانت تنتظر تريزا وما الذي كانت ترمي إليه إذا كانت هي نفسها لا تعرف؟ كانت تفتش عنه ولا شيء آخر.

في محلة الرامبا والسوق التجارية البحرية كان الجميع يعرفونه، ويقدرونه، ولكن أحداً لم يعط أي أخبار عنه، كان الجميع يعطون عنه أخباراً ولم يكن أحد لا يرغب في الحديث عن صاحب المركب الشراعي، والأخبار لا تفي بحاجة عندما تكون متناقضة، ولكن شيئاً واحداً أكيداً مع كل ذلك: لقد ماتت زوجة جانواريو منذ وقت طويل.

بعد مراسيم دفن زوجته، ذهب جانواريو ينظف جسده قبل أن يقوم برحلة ذات أهمية كبيرة كما قيل. إني ذاهب إلى ربوع أراكاجو حيث ينتظرونني، أضاف، "من كان ينتظره هو أنت أليس كذلك؟" سألتها إحدى النساء؛ بعد ذلك لم يظهر أبداً من جديد. هل يمكن أن يكون قد عاد من تلك الرحلة وبدأ رحلة أخرى؟

رحلة؟ رحلتان؟ هل هو حي أم ميت؟ مفقود؟ أين؟ وحدها تريزا تمكنت من معرفة الحقيقة عندما في النهاية عادت السفينة فنتانيا من جنوب الولاية محملة بالكاكاو. وتمت المحادثة على متن الطوافة الراسية أمام أضواء المدينة. تضرب فيها ريح الجنوب فوق مياه الخليج اللامتناهية. إنها ليلة خطيرة في البحر، ليلة سيئة للملاحين، "لقد اتخذت الإلهة جانايينا شكل عاصفة مفتشة عن خطيب لها تلهو معه في أعماق المحيط"، قال الملاح غونزا ذلك وهو يضع أصابعه في الماء وكان القبطان قد رحّب بتريزا بحرارة، ولكن دون فرح.

لقد علم أنك في باهيا ففتش عني ليسأل. إنني هنا الآن لأنني غداً سأفرغ سفينة الشحن مباشرة.

جلساء، وراحت الريح تعبت في شعر تريزا الأسود، وتطلع من عنابر التحميل رائحة الكاكاو المجفف، وسألت تريزا وهي خائفة من الجواب:

- ماذا حدث لجانو؟ أين يسير؟ إني في باهيا منذ أكثر من شهرين ولم أعلم بعد شيئاً أكيداً عنه، كل واحد يقول شيئاً مختلفاً. وليس من خبر أكيد سوى أن زوجته قد توفيت.

- مسكينة. كان مؤلماً في النهاية النظر إليها، لقد أصبحت خيطاً رفيعاً جلدًا وعظماً. لم يتعد عنها جانواريو خطوة واحدة إلى أن أقفل عينيها، خلال الأيام الأخيرة جاء أبوها ليتفقدوها وينقلها إلى المستشفى وكان الوقت متأخراً جداً. لم تعد هي آنذاك امرأة وتألم هو ألماً شديداً.

أصغت تريزا بصمت، وكانت الريح والحزن تكمن خلف صوت غونزا، وكأنها تصغي إلى جانواريو جريبيا يحدثها في ظلمة بحر أتالايا: "التي أحببتها وأردتها وسرقتها من عائلتها كانت قوية جميلة وفرحة، وهي اليوم مريضة، بشعة، حزينة وكل ما عندها هو أنا فلن أتركها في الشارع تعاقر البؤس، إنه رجل مستقيم، جانو...".

- بعد ذلك، أخذ شحنتين أو ثلاثاً ليكسب بعض المال وترك المركب في عهدتي وجدّ يفتش عنك. "هل تتذكر تريزا باتيستا تلك الصبية السمراء في أراكاجو؟ سأذهب للمجيء بها لتعيش معي، سأزوج من جديد..." هكذا قال لي.

وأشعل الملاح غونزا الغليون الذي أطفأته الريح، الطوافة تصعد وتهبط والأمواج تتزايد وريح الجنوب، تزجر، تنادي على الموت لمساعدتها في الحصاد.

تريزا صامنة تتخيل جانو يفتش عنها متحرراً، من الأصفاد والأغلال وطائراً عملاقاً مستعداً لأن يحملها معه إلى البيت والمركب الشراعي. آه من الفراق!

- قضى أكثر من ثلاثة أشهر يفتش عنك في الخارج. ووصل إلى هنا وليس معه فلس واحد، وفي شاحنة اشترط صاحبها مساعدته ليأتي به. وأخبرني بكل سفرته ووصل إلى سرجيبي واجتاز الأغواس، برنامبوكو، وبارايا، وأدرك ناتال وتوقف في سيارا وتعرف إلى أراض واسعة وأناس كثيرين، ولكنه لم يجد ضالته التي كان يفتش عنها، وعاد من جديد إلى أراكاجو وتوغل في سرجيبي حين أخبروه عن موتك بالجذام الأسود، وأعطوه تاريخ الوفاة والساعة ووصفوك له وصفاً دقيقاً. ولكنهم لم يعرفوا أن يحددوا المكان الذي دفنت فيه. إن عدد الأموات كان مرتفعاً جداً، ولم يكن هناك وقت لمراسيم الدفن إذ كانوا يدفنون كل خمسة أو ستة أشخاص معاً في القبر الواحد. كان ذلك ما أخبروه لصديقي.

أجل، كانت تريزا قد خرجت لملاقاة الموت ومواجهته يأساً من أن لا تكون معه، ولأنها حاولت أن تنساه في الطبيب الوضع أوتو أشبينيرا مدير المركز الصحي وملك الجبناء، ولكن الموت لفظها وحتى الجذام الأسود لم يردّها. في ليلة الضياع تلك لم يعد إلا وجه تريزا المحجّر، وجمرة غليون الملاح كايثانو غونزا، والعاصفة التي تعبت في البحارين والإلهة جانايينا تفتش عن عشيق.

- إن صديقي جانواريو قد تغير، ولم يعد هو نفسه، وحتى إنه لم يعد راغباً في العناية بالمركب الشراعي، كان يبقى جالساً هنا على متن السفينة فنتانيا، صامتاً ولا يفتح فمه إلا ليقول لي: "كيف ماتت؟ كنت أفكر في أن أعيش معها يوماً!" هكذا كان يقول عندما يتفوّه بكلمة وغالباً ما يظل صامتاً. وذهب فيما بعد عندما وصلت إلى هنا سفينة شحن بانامية كبيرة ودخلت المرفأ لتترك في المستشفى ستة مصابين بداء الكلب. كان كلب على ظهر السفينة قد أصيب بالمرض، وقبل الإجهاز عليه تمكّن من أن يعضّ ستة بحارة وينقل إليهم المرض، ولكي تتابع السفينة رحلتها استأجر قائد السفينة عمالاً من هنا وكان جانواريو أول من تمّ استخدامه، وقبل أن يغادر طلب مني أن أبيع مركب فلور داس أغواس وأبقي معي المال إذ لم يكن عنده أحد في هذا العالم، ولم يكن يريد أن يبقى مركبه مهملاً في الماء. وبعثه

وأبقيت المال في المصرف ليعود عليه ببعض الفائدة وهكذا إذا عاد يوماً فسيتمكن من شراء مركب جديد. هذا كل ما حدث.

واكتفت تريزا بالقول:

- سأبقى هنا إلى أن يعود. إذا كان ما يزال يريدني فسيجدني هنا بانتظاره.

ما هو اسم السفينة، هل تتذكر؟

- بالبوا، وكيف أنساه؟ لقد خرج ليلاً من الميناء ومنذ ذلك الحين لم أعد

أعرف شيئاً عنه، في يوم ما، سيرسو هنا من جديد.

بعد رفض عرض الزواج عرفت العلاقات بين تريزا باتيستا وألميريو داس نيفس تبديلاً حساساً ودقيقاً...، حتى ذلك الحين كان صاحب المخبز زبوناً بالنسبة إلى تريزا، وكان متميزاً جداً عن سائر المستن ليس فقط عمراً، فهو لم يكذب يتجاوز الأربعين بينما الآخرون من الزبائن، وهم خمسة، كانوا في حدود الستين، ولكن الطريقة التي تراه فيها وتعامل بها معه خارج جدران بيت العزّاب كانت مختلفة فتقابله في الملهى حيث بالتأكيد لم يكن يأتي إلى هناك أي أحد من الآخرين. وكان ألميريو يتحدث عن الأعمال وأسعار الطحين والفقيرة التي تعيش في ذاكرته وشؤون الطفل الصغير، وكانت تريزا تصغي إليه باهتمام وتراه زبوناً ظريفاً ولطيفاً وقد حجز دوره في يوم محدد وساعة محددة من الأسبوع.

عند غروب شمس ذلك اليوم الذي أشعل الأحزان فوق البحر، أصبحت تلك العلاقات حميمة بشكل أو بآخر، في الظاهر سارت تلك العلاقات في اتجاه معاكس. ففي حياة النساء العاميات تحدث أشياء غريبة وغير مرتقبة لا معنى لها. ولم يعد ألميريو يراها عارية في الفراش تمارس مهنتها بجداراة وتعرض روعتها كاملة. لقد خسر صفة الزبون ولم يعد أحد من الاثنين يعود إلى بيت العزّاب كل يوم خميس في الرابعة عصراً، على الرغم من أنهما لم يتناقشا حول الموضوع وقد فهم كلاهما استحالة وجود اتفاق على ممارسة الجنس من الآن وصاعداً، ولكنهما ظلا صديقين تربطهما روابط قوية من الثقة والتقدير التي تعمقت في ذلك المكان في القلوب المنفتحين على الحقيقة.

وظل ألميريو يتردد على ملهى فلور دي لوتوس باستمرار ليحتسي البيرة ويرقص الفالس ويرافق تريزا حتى باب دارها... كما ظل مرشحاً مولها للحصول

على يد راقصة السامبا، ولكنه الآن لا يمس يدها ولا يعبر بنظراته عن الأحزان ولا يزعمها بالتوسلات والعروض. لم يعد هناك غير الحضور والمرافقة... لقد حمل الوله في صدره كما كانت تريزا تحمل معها حب جانو الضائع في بحر السفن الواسع. وكان يسألها أحياناً: "أما زلت دون أخبار، ألم تعرفي شيئاً عن السفينة؟" وكانت تريزا تتنهد، وفي مناسبات أخرى كانت هي من تريد أن تعرف إذا كان الصديق لم يجد بعد خطيبة توافق مزاجه، أو امرأة قادرة تتحمل مسؤولية مركز ناتاليا الشاغر إلى جانب الطفل والميريو في البيت والمخبز في الفراش والقلب؟ وكان الأرمل يتنهد.

ولم يكن يستغل تريزا، أو يظهر رغبته في الانتظار الطويل ليعرض نفسه بديلاً عن جانواريو، بل على العكس كان يفتش عن وسائل للترفيه عنها داعياً إياها إلى الاحتفالات والنزهات. لم يجدد عرضه ولم يعد يتكلم عن الحب. وكان الميريو دائماً محيطةً بتريزا، يساعدها كي لا تشعر بنفسها وحيدة مهملة، وانتهت هي إلى الوفاء للصدقة المخلصة والاعتراف بالجميل. وفي أوقات الشوق واليأس التجأت تريزا إلى حرارة بعض الأصدقاء كالربان كايانو غونزا والرسام جنر أوغوستو والميريو داس نيفس وغير هؤلاء كانت فيفيانا، ماريا بيشكو، والزنجية دومنغاس، ودولسينها، وأناليا، وكلهن من المنطقة، واعتمدت أيضاً على لطف سكان محلة رامبادو مركادو، ومحلي أغوادوس نينوس وبرتودا لينا.

كان بطبيعته فرحاً ومنطلق الروح، فلا الترمل ولا التوله تمكنا من إحباط حيوية الميريو داس نيفس وجعله معتكفاً في بيته، كان يحب جداً الاحتفالات على الرغم من أساليبه الهادئة، وكان عنده دائماً دعوة يوجهها إلى أحد ما عندما يأتي متماسكاً ومبتسماً إلى ملهى فلور دي لوتوس، وكان عاطفياً في تعامله إلى أقصى الحدود، وحاضراً في الحياة الشعبية في المدينة ويعرف نصف سكان باهيا حق المعرفة. وفي إحدى الليالي عندما أرادت تريزا أن تعرفه بالرسام جنر أوغوستو الذي جاء إلى الملهى ليراها ويتعاقد معها لتكون نموذجاً لإحدى لوحاته، فإنها أصيبت بالتعجب: إن صديقيها يعرف أحدهما الآخر، وهما صديقان ورفيقان في احتفالات بنسيون دا برايا إي دو بونفيس وفي الاحتفال الراقص بعيد السيدة... ودار بين المدعوين حديث استهله الرسام جنر أوغوستو:

- هل نسيتني يا ألميريو؟ وماذا عن الحفلة التقليدية في بيتك؟
- لقد فقدت زوجتي الحبيبة يا صديقي جنر، إنه القدر المأساوي. وقبل أن
أنهي الحداد لن أستطيع أن أقيم احتفالاً في بيتي.
- لم أعرف، اعذرني. اقبل تعازي.

ونظر إلى تريزا حذراً، أما التاجر المتواضع المنطلق الروح والمبتسم دائماً الذي
ينفث دخان سيجاره، فكان رجلاً بما فيه الكفاية لينقذ تريزا من ملهى فلور دي
لوتوس ويأخذها إلى البيت، فهل تقبل الصبية؟ لقد كانت تبدو شابة تعيش في
الحزن العميق، وفي حياتها ملامح مبحر، ولكن ألميريو كان شبيهاً بقبطان متأمل:
"انتظر صامتاً، فالزمن يعمل لمصلحتك". وقربه تجلس تريزا مطمئنة.

التقى بها الرسام صدفة، منذ وقت قصير مضى، في السوق، حيث كان
يتحدث مع كامافيو دي أوشوسي وشخصين آخرين يبدوان غريبين: أحدهما ذو
ذقن وشارب كثيف، والآخر ذو عينين مستديرتين يرتدي معطفاً مفتوحاً من
الخلف. وعندما رأى كامافيو تريزا تقدم ليتحدث إليها، إذ كانا قد تعرفا على
بعضهما منذ وقت بعيد.. وتقدم الرسام هو الآخر:

- ولكن، ها هي تريزا باتيستا! هل تعمل هنا؟

وظل يرتاد ملهى فلور دي لوتوس حيث كانت تريزا تجالس الزبائن في الصالة
وتقدم برنامجها الراقص نفسه الذي كانت تقدمه في أراكاجو مع بعض التعديلات،
وظهر في الملهى وحيداً في البدء، ثم مع زمرة من البوهيميين الفنانين من قليلي المال
والكثيري الحيوية. وكلهم ترشحوا لمضاجعتها استلطافاً وتحبباً، ومجاناً، ولكنها لم
تقبل أية علاقة مع أحد منهم فلم يفتأوا لذلك.

لقد استخدمها البعض نموذجاً مستعملة مهنة أخرى من المهن التي تدر عليها
بعض المال. ومن ينظر إلى عيني الإلهة يمانجا كما نحتها ماريو كرافو على الخشب
ذات إنسانية عميقة عشيقة وزوجة وأماً، يستطيع أن يتبين بسهولة وجه تريزا
وشعرها الطويل في تلك المنحوتة التي يمتلكها أحد أصدقاء الفنان. وكذلك لوحات
الخلاصات التي رسمها جينارو دي كارفاليو، فمن الذي أوحى بها؟ إنها تريزا بتلك
السحنة الغائبة الضائعة في مسافات البحر اللامتناهية... كثيرون من الفنانين
والراغبين في تريزا استخدموها نموذجاً من أمثال كالا ودوريغال كلامي. وبرفقتهم

تذكرت تريزا عدة مرات أيامها في أشتانسيا مع الأستاذ وتلك الرغبة العارمة في الحياة.

هكذا تعرفت تريزا على الكثيرين وحضرت عدة احتفالات وتنزهت في النهر الأحمر حيث كان يقيم الرسام فكانت له نموذجاً لعدة رسوم مختلفة، وفي مدرسة الباليه علّمها المدرّب باستنيا رقصة السامبا الأنغولية، وفي الطوافه حدّثها الملاح غونزا عن الرياح والعواصف ومرافئ ريكونكافو، وتلقت الكثير من العروض وارتادت الاحتفالات الدينية الراقصة في أماكن متعددة.

ولكن المشوار اليومي والإلزامي الذي كانت تصرّ عليه، كان ذهابها إلى رامبادو مركادو، ميناء الزوارق في مرفأ باهيا. وعندما تكون الطوافه فنتانيا راسية، كانت تريزا تأتي إلى هناك لتحدث إلى الربان غونزا لتحفر بالخنجر في جرحها عندما تتحدث عن جانواريو جيريا.

وأصبح الناس يعرفونها في المرفأ من خلال أسئلتها المتكررة والمرتبكة.. من يعطيها علماً عن سفينة بانامية تدعى بالبوا، سفينة شحن سوداء؟ فيها أبحر ستة ملاحين من باهيا، فأى عباب يمحرون؟

وبمساعدة الملاح غونزا اكتشفت مركب فلور داس أغواس الذي أصبح الآن ملك البحار العجوز المعلم مانويل وقد أطلق على المركب اسماً جديداً... اسم القديس جورجيسو تشريفاً لزوجته ماريا كلارا ابنة أوشوسي. وتأخرت تريزا جالسة قرب الدفة تمسك قبضتها بيدها، وعندما رأت ماريا كلارا الصبية السمراء غائبة مضطربة وعيناها شاخصتان إلى الفراغ أرادت أن تقطع عليها الذكرى والحركة وحرارة يد جانواريو. قالت لها:

- ثقي بأنه سيعود. سأنذر نذراً إلى الإلهة يمانجا.

ما عدا قارورة العطر والمشط العريض لتسرح شعرها، فإن يمانجا طلبت دجاجتين غنيتين لتأكلهما وحمّامة بيضاء تطلق فوق البحر. في ملهى فلور دي لوتوس وبيت عزّاب فيفيانا، تعرفت تريزا إلى فتيات كثيرات وأقامت صداقة مع بعضهن وأصبح اسمها يلفظ باحترام منذ وقوفها في وجه نيكولاي بيشي كاساو، رجل أمن من شرطة المحافظة على التقاليد الذي كان يفرض الإتاوة على النساء العاميات في كل الرقعة الواسعة التي تنتشر فيها محلات الدعارة من باروكينيا إلى

بيلورينيو ومن ماسييل إلى لاديرا دا مونتانيا ومن تاباو إلى كارني - سيكا، وكان يصدف أن تتناول الغداء في دار أناليا في بيلورينيو، وفي بيت الزنجية دومنغاس وماريا بيتسكو في باروكينيا.

أما ماريا بيتسكو، فقد كانت شابة خلّاسية جميلة، ذات قامة هيفاء وابتسامة دائمة، وكانت سريعة البكاء وسريعة الوقوع في الغرام إلى حدّ أن كان لها في كل أسبوع عشيق بسبب قلبها المتذبذب، وقد حدث أن أنقذتها تريزا من الوقوع ضحية، بل الأفضل القول، من خنجر الإسباني رافايل فيورا.

ففي ليل الثلاثاء، ومع حركة رواد الملهى القليلة كانت المدعوة تتحدث جالسة إلى إحدى الطاولات في عمق المكان حيث النساء جالسات بانتظار دعوة إلى الرقص أو الشراب، فاقتحم المكان أحد ديوك المزابل الجنسية وقد جاء حديثاً من فيفو وما يزال مرتدياً الأسود وملتفاً بالمأساة ليظهر نوبات غيرته، وكان كل شيء قد مرّ بأسلوب أرجنتيني هادئ وأطوار حب سريعة وملتهبة:

- أيتها العاهرة الملعونة!

شهر رافايل خنجره فوقفت الفتاة صارخة من الرعب، ولكن تريزا سددت إليه ضربة في الوقت المناسب فانحرف الخنجر مستوياً في كتف ماريا بيتسكو فأنهمر الدم الكافي ليغسل الشرف الإسباني الرفيع.

عندها ركض جمع غفير من الرجال والنساء وكان ذلك اللغط. وفي هذه المناسبات يظهر دائماً متطوع ليخبر الشرطة، وهو بالإجمال شخص لا علاقة له بالموضوع وقد وجد نفسه فيه بمحض صدفة أو أنه يقوم بذلك بدافع فطريّ إلى أن يكون مخبراً. حملوا ماريا إلى غرفة في الطابق الأعلى حيث كانت النساء يمارسن المهنة بالتعريف المعلقة هناك، وقد تبعها اللغط تاركاً القاعة الكبرى شبه فارغة. واستفادت تريزا من ذلك لتسهل الهرب للمنتقم قبل أن تصل الشرطة وتضعه في السجن وتبدأ المحاكمة.

- اخرج أيها المجنون ما دام هناك وقت. أليس عندك مكان تختبئ فيه عدة أيام؟

كان عنده أهله الذين استوطنوا في باهيا، فأهمل الخنجر وتخلّى عن الغرام وجد في الشارع ثم اختفى في الأزقة ووصلت الشرطة بعد نصف ساعة متمثلة بحارس

واحد لم يستطع أن يلم بشيء عن الحادث، ولم يعرف أحد إعطاء أية معلومة عن الخنجر والمجرم والضحية. وكأن النبا لا يعدو كونه مزحة ثقيلة قام بها أحد الذين يتمتعون في تضليل السلطة. أما صاحب الملهى فى الطابق الأعلى فقد فتح زجاجة بيرة مثلجة للحارس الذى وقف خلف البار.

أما المصابة التى كادت تكون ضحية فقد نقلها الميريو وتريزا فيما بعد إلى باروكينيا حيث اعتنى بها طالب صيدلية كان ثملاً بشكل محتمل فى تلك الساعة وقد وقعت المصابة مغرمة به فى الحال ولم يعد غرامها مختلفاً عن سابقه.

بعد قليل من الوقت على الحادثة مع رافاييل، ذهبت تريزا إلى بيت ماريا بيتسكو للغداء فوجدتها متبدلة وكأنها شخص آخر. لم يبقَ فى كتفها إلا أثر قليل لطعنة الخنجر، ولكن أين الابتسامة والفرح الدائم واللامبالاة والإيحاء بالمتعة وكل الصفات الأخرى التى تجعلها شعبية فى المنطقة؟ فقد بدت ذات وجه متجهم منشغل، وملبد بالهموم، لم تكن وحدها كذلك بل الزنجية دومنغاس أيضاً ودوروثيا وبيكينوتا رفيقاتها فى الشقة، وكذلك أسونتا صاحبة السوق العامة. وكانت أسونتا على رأس المائدة تتأمل فى الطعام شاردة الذهن.

- ماذا ألم بهن؟

- ماذا ألم بهن؟ بل ماذا ألم بنا جميعاً؟ إنهم سيغيرون مكاننا ألم تسمعى بالنبأ؟
- "فى الأسبوع المقبل. إذا أردت أن تأكلى معنا فعليك أن تذهبنى إلى كودى جودا" أجابت أسونتا بمزاج سيئ.

- ما هذا الموضوع؟ لم أعرف شيئاً.

- اليوم صباحاً بيشى كاساو والتحري كوكا دخلا من بيت إلى بيت هنا فى باروكينيا منذرين "جهزن أمتعتكن، سيكون هناك تغيير" أجابت ماريا بيتسكو:

- "لقد أعطونا مهلة أسبوع، نهار الاثنين المقبل، أى منذ اليوم وحتى الثامن من الشهر، فإن تغيير المكان يجب أن يتم". وكان صوت أسونتا مهتراً تعباً.

- قال إنه سيغير مكان الجميع ابتداءً من هنا، ثم أفراد سوق باسيل ثم بورتاس دو كارفو ثم بيلورينيو وبالتالي كامل المقودة.

- وإلى أين؟

لم تستطع أسونتا أن تبتلع ذلك، فإن غضبها قد تهادى:

- "هنا أسوأ ما في الموضوع. إلى أين؟ إلى حفرة تعيسة في الجزء الأسفل من المدينة قرب كارفي سيكا في لاديرا دو باكاليو، إنه مكان متعفن وضع. لم يكن أحد يقيم هناك منذ زمن طويل. لقد ذهبت إلى هناك لتفحص المكان فوجدته مبكياً". وبينما النساء يعضن بصمت ويشربن البيرة استنتجت أسونتا:

- يبدو أن أصحاب المكان هنا هم من الوجهاء وأقرباء مدير الشرطة كوتياس. إنهم جماعة محمية وتعرفين كيف. إن بيتاً مهدماً يتسرب المطر إلى داخله لا يساوي شيئاً. أوجره للفتيات وأربح منه ثمناً مرتفعاً. هكذا يتصرفون في مديرية الشرطة.

- زمرة من الغربان.

- وأنتن هل ستغيرن المكان؟

- وأي حل! أليست الشرطة هي التي تأمر هنا في المنطقة؟

- أليس هناك طريقة؟ تقدم شكوى، أو مطالبة؟

- المطالبة إلى من؟ أيتها المخلوقة! هل رأيت في حياتك امرأة عامية لها الحق

في المطالبة؟

- إنه استغلال، ومن الضروري عمل شيء.

- وماذا تستطيع الفتيات هنا أن يفعلن؟

- أن لا يخرجن من هنا وأن لا يغيرن مكان إقامتهن.

- أن لا يغيرن مكان إقامتهن؟ وكأنك تجهلين حياة المرأة العامية، إن العاهرة

لا حق لها بالمطالبة، إن لها الحق فقط أن تتعذب، يجب أن تبقى صامتة وإلا فأمامها

السجن.

- هل يمكن ألا تكوني على علم بهذا حتى الآن؟ ألم تتعلمي بعد؟

فليعلم من لم يعلم بعد، ومرة واحدة: ليس للعاهرة أي حق، إنها فقط لمتعة

الرجال وتتقاضى من أجل ذلك التعريفة المحددة، هذا ولا شيء آخر، وما عدا ذلك

فإنها تتلقى؛ تتلقى من القواد، وحامي النساء، ورجل الأمن والحارس، والجندي،

والخارج على القانون والسلطة؛ إن الرذيلة والفضيلة معاً ينكرانها، إنها تتلقى من

الذين يسندون ظهورهم إلى الكراسي ومن شاء صفعها على وجهها... ولا عقاب

على ذلك.

فليخبرني رجاء السيد المكلف بمعالجة القضايا الشعبية صاحب الاسم المُجَلَّ في الصحف، إذا كان قد كَلَّف نفسه عناء التفكير في العاهرات؛ طبعاً لا، باستثناء المرات التي لا يمكن الاعتراف بها والتي اندس خلالها في فراش بعضهن ليتمتع باللحم تلبية للمتطلبات الغرائزية.. إنه سرير وضع في نظر العالم كله ولحم قاس، وغرائز منحلة.

هل يعرف الزعيم الذي لا يُقهر أنه عمل تجاري رابح أن يمتلك الإنسان بيوتاً يؤجرها في أسواق البغاء؟ والشرطة تحدّد مكان الأسواق العامة على وفق المصالح السياسية والتي في طليعتها مصالح الأهل فالأصدقاء ثم الزملاء؟ إن بدل إيجار دار إلى عاهرة هو أكثر من إيجاره إلى العائلات، هل كان يعرف بطل الاستغلايين هذه الميزة؟ وأكثر من ذلك فأى شيء بالنسبة إلى العاهرات هو أصعب منالاً وأغلى ثمناً والجميع يرون عدالة في هذا فلا يعترض عليه أحد. لا أحد، حتى المدافع النبيل عن الشعب. ألم تكن تعرف؟ إذاً اعرف الآن. واعرف أكثر أن التصرف بحياة العاهرة هو خارج التحديد القانوني. إذ يكفي للشرطة أن تقرر بأمر من مديرها، أو مفوض فيها، أو أي رجل أمن، حتى يقرر تغيير حياة العاهرة إذ ليس بمتناول يدها اختيار المكان الذي تقيم فيه وتمارس مهنتها.

وعندما تعتق العاهرة من كل شيء وتتمدد في الفراش لاستقبال الرجال ومنحهم اللذة مقابل تعريفة ما. فهل يعرف المناضل في سبيل العدالة الاجتماعية كم من الذين يأكلون من هذه التعريفة؟ من صاحب البيت المؤجر، من الباطن ومن القوادة، إلى مسندوب الشرطة ومن حامي النساء إلى التحري ومن الحكومة إلى المعارضة، ليس للعاهرة من يدافع عنها، فلا ينتفض من أجل حقوقها أحد، والصحف لا تخصص أعمدة لتصف مآسي أسواق المهنة، إنه موضوع ممنوع، إن العاهرة هي موضوع في صفحات الجريمة متهمة بكل شرور العالم ومسؤولة عن ضياع الرجال؛ وعلى من تقع مسؤولية ما يحدث في هذا العالم من شرور؟ على العاهرات، نعم سيدي.

وهل أخذ محامي المقموعين علماً بوجود ملايين النساء اللواتي لا ينتسبن إلى أية طبقة، واللواتي ترجمهن كل الطبقات الاجتماعية وتضعهن على هامش النضال والحياة موشومات بالنار والحديد؟ فلا كتاب مطالبة لهن، ولا مظاهرة ولا علم، ولا وقت لديهن لغير المهنة، ومليئات بالأمراض، ولا طبيب معهد لهن ولا فراش

في مستشفى، جائعات عطشات ولا حق لمن في ضمان غذائي أو اجتماعي أو في إجازة سنوية أو في إنجاب الأطفال ولا حق لمن في المساكنة والحب، هن فقط عاهرات ولا شيء آخر. هل تعرف أم لا؟ إذا كنت تجهل فاعلم مرة واحدة.

إن العاهرة هي قضية من قضايا شرطة الدعارة والأمن، ولكن هل فكر يوماً أبو الفقراء العطوف ماذا سيحصل إذا قررت العاهرات في العالم يوماً القيام بإضراب عام فأقفلن أمكنتهن ورفضن العمل؟ هل فكر في الفوضى التي ستعم العالم ونهاية الأزمنة؟

إن أسفل السافلين يجد من يدافع ويناضل عنه ما عدا العاهرات. إني الشاعر كاسترو ألفيس الذي مات منذ مائة عام، أنا أقوم من الموت في المحلة التي تحمل اسمي وتمثالي وأعتلي الخشبة التي أعلنت منها تحرير العبيد في مسرح سان جوان الذي التهمته النيران لأجعل العاهرات يقلن بصوت واحد: كفى.

استحصلت شركة هـ. ساردينيا للتوظيفات المالية والتمويل والإنشاءات وبيع وشراء العقارات العامة، على مساحة أرض واسعة عند قمة الجبل المشرفة على الخليج، مستفيدة من التسهيلات التي منحتها الحكومة للأعمال المخصصة لتطوير السياحة، وقد خصص المكان لقيام مجمع حديث ومتطور من العمارات السكنية والفنادق والمطاعم والمحلات التجارية ودور السكن المختلفة والأسواق، بالإضافة إلى الحدائق وأحواض السباحة والحمامات التركية ومواقف السيارات. وباختصار كل ما ينقص المدينة لتأمين الرفاهية للذين سيقيمون هناك ولمتعة الزائرين عامة.

ووزعت إعلانات ملونة دعي فيها الناس للمشاركة بالمشروع العملاق والتوظيف فيه والحصول على الفوائد خلال أربعة وعشرين شهراً، لأن المخطط مثالي والأرباح مضمونة، والاستفادة لا حصر لها. "كن أنت الآخر صاحب مشروع باهيا دي تودوس سانوتس الذي هو أكبر مشروع سكني في الشمال الشرقي، قم بالسباحة دون أن تغادر باهيا: ولكل شريك الحق بعشرين يوماً في العام من الضيافة في فندق من فنادق المجمع ولا يدفع مقابل ذلك أكثر من 50% من الأسعار المبينة التي يدفعها الزبائن العاديون".

أما في القسم الأسفل من المساحة المخصصة للمشروع الذي يسكنه بعض الهامشين وأزلام قبضايات المنطقة، فقد أمرت الشركة بهدم الأكواخ الخشبية وطرده المقيمين فيها.

وبينما يتفحص المكان برفقة بعض المهندسين، فإن العجوز هيوليتو سردينيا السيد الأكبر القادر على استحصال الحليب من الحجارة، حسب رأي عالم الأعمال، قد تأمل طويلاً في المراحل الواجب اتباعها.

ففي المرحلة الأولى سيتم تجهيز التصاميم والانتهاء من التنظيم والإعلان عن مصالح الجمهور والحصول على المال اللازم للتمويل، في حين أن المهندسين المدنيين والمصممين والفلاحين وسكان المدينة على السواء يدرسون ويرفعون المداميك الأولى للمشروع العملاق، أما الأعمال الحقيقية فلن تبدأ إلا بعد عامين.

"خلال عامين هل تبقى هذه الأكواخ قائمة؟" تساءل العجوز هيوليتو، "أم يجب هدمها في الحال لتنظيف المنطقة كلياً حسبما يطالب به أحد المهندسين؟"
- لو لم تكن هذه الأكواخ مخصصة للدعارة من الصنف العامي، لا أعرف لأي شيء يمكن استخدامها؟

أصغى العجوز صامتاً: "هنالك مال ليربحه".

لم يكن قرار نقل السوق العمومية من المنطقة العليا في المدينة إلى المنطقة الساحلية أمراً مفاجئاً بقدر ما بدا لأسونتا والمقيمات معها. ولو أنهن قرأن الصحف بانتباه لما تفاجأن بقرار التحويل الذي نقله إليهن شفهيّاً، بيشي كاساو والتحري دالمو كوكا خلال زيارة الأخيرين الصباحية، ولكنهن كن يكتفين بقراءة صفحة الحوادث والأعمدة الاجتماعية، حيث كن يجدن المؤونة الكافية من الاختلاجات، فمن جهة السرقات والجرائم وأعمال العنف والشذوذ والبغاء، ومن جهة أخرى الاحتفالات والاستقبالات والولائم والابتسامات والعشق والشمبانيا والكافيار.

- "يجب عليّ في يوم من الأيام أن أذوق هذا الذي يسمونه كافيار..."
أكدت ماريا بيتسكو بعد قراءة الوصف المثير في الصحيفة للعشاء الذي أقامته مدام تييتي موسكات، وقد حرّر تغطية الخبر الصحفي اللامع لولو زينيو، وزاد من التهنيدات وعلامات التعجب "إن الشمبانيا لا تغريني فلقد شربت منها حتى الانتفاخ".

- "الشمبانيا الوطنية يا عزيزتي لا تفيد، إن الشمبانيا الطيبة حقاً هي الفرنسية وهذه لا يمكن أن تصل إلى حلقك" وضحت دوروثيا واضعة النقاط على الحروف.

- وهل تناولت منها أنت يا أميرتي؟

- مرة واحدة على مائدة العقيد جارباس في إيتابونا في بالاس، أيام اللعب، ولكنها فقايع فكأنما تشربين رغبة ذائبة.

- سأتدبر عقيداً لي يوماً يكون متمكناً وأروي نهمي إلى الكافيار والشمبانيا الفرنسية. فرنسية إنكليزية أميركية يابانية، سترين.

وبينما يتناقشن فيما بينهم في الشمبانيا والكافيار غير مكترثات بالصفحات النظيفة والآراء والافتتاحيات، فإنهم لم يقمن أي حساب للمذلة المفاجئة التي أحس بها أصحاب الصحف كون منطقة السوق العمومية تقع عملياً وسط المدينة.

وفي منطقة باروكينيا إلى جانب محلة كاسترو ألفيس على مقربة من شارع تشيلي، الوسط التجاري النابض الذي تقع فيه دكاكين الأجواخ والملابس والأحذية والمجوهرات والعطور الأكثر أناقة، كانت نساء المجتمع المخملي الآتيات للشراء ملزمات بالمرور في أوساط العاهرات، وكان يمكن رؤية الدعارة في كل وسط المدينة. وفرض الحل نفسه: تغيير المنطقة وتحويلها إلى مكان سري وبعيد وكونه من المستحيل القضاء على الدعارة، الشر الذي لا بد منه، فعلياً على الأقل أن نخفيها عن أنظار العائلات الكريمة وفضول السياح وللبدء في ذلك لا بد من تنظيف باروكينيا من وجود الداعرات المعدي.

وأحست الصحافة بأنها مهانة كما يمكن ملاحظته مع هذه التعليقات، وعلى الأخص عندما كان يشار إلى الأسواق العمومية الواقعة في باروكينيا على أنها وكر الدعارة الذي لا بد من إتلافه واقتلاعه من جذوره بصورة طارئة وملحة.

أما السلطات المختصة بالمحافظة على العادات والتقاليد فإنها لم تكذب تسمع بالصرخات الوطنية في الصحف، حتى سارعت بقرار عاجل إلى نقل النساء العموميات من باروكينيا إلى لاديرا دي باكاليو.

- إنهم آلاف من البحارة يدفعون بالدولار. هل فكرتم؟

الاثنان الآخران يتفحصان الخبر في الصفحة الأولى من جريدة المساء، ولا شك في النبأ، إن الفكرة تبدو جيدة.

- وماذا تقترح بالتحديد؟

من يدخل مسرعاً لشراء السجاير أو الثقاب من بار دو أليتي المعروف من قبل الزبائن ببار العاهرات، ووقع نظره على السادة الثلاثة بربطات العنق والقبعات على

الرؤوس، وهم يتناقشون بحيوية في حجم رأس المال، ووضع السوق الاستهلاكية، ومراحل تسويق المادة، ومدة التفتيش واختيار المساعدين القادرين وتحديد نقاط العرض والبيع وحساب الربح، يستطيع فوراً اعتبارهم رجال أعمال وهم في طور تأسيس قواعد الشركة المالية، وبطريقة ما، لا يخطئ في اعتباره.

ما لبث الاثنان اللذان يحتسيان البيرة إلى طاولة قريبة ويعيران الانتباه إلى الشركاء الثلاثة أن تبيّنهم على حقيقتهم، وتبيّن مهنتهم الحقيقية إذ إن التحري دالمو غارسيا والمحقق نيكولاو رامادا جونيور والمفوض لا باو أوليفيرا كانت تفوح منهم رائحة شرطة إلى مسافة كيلومترات، وكوّنهم رجال شرطة لم يكن شيء يمنعهم من تحقيق مكاسب كبيرة عندما تسنح فرصة استثنائية كذلك؛ ثلاث سفن حربية من الأسطول الأميركي في مناورات في جنوب الأطلسي تتوقف في مياه باهيا، وتتأخر هناك عدة أيام وليال راسية في المرفأ وآلاف من البحارة سينتشرون في المدينة وجميعهم بحاجة إلى واقيات جنسية والدفع بالدولار، فكيف يستطيع دماغ بيشي كاساو الصغير أن يستوعب فكرة ممتازة كهذه؟ "انظر إلى أي حدّ يمكن أن يقودك حب المال"، فكّر المفوض لا باو، الذي بلغ هو الآخر مبلغ الحصول على بعض المال السهل: التمتع الفكرة في رأسه الجامد وأصبحت أكبر تفاهة في العالم طاقة ذكاء براءة.

- "وماذا لو أننا وسعنا قليلاً أعمالنا؟" ألمح التحري دالمو.

- توسيع أعمالنا؟ ولكن كيف؟ هل ستبيع التين والبارمباوس في المنطقة، إن هذا من اختصاص أهل السوق ولا يستحق العناء.

لم يدرك المفوض إلى أين أراد التحري أن يصل، ولم يكن الأمر سهلاً على كل حال.

- من تكلم عن التين والبارمباوس؟ إني أتكلّم عن بعض السجائر.

- "سجائر؟" بذل بيشي كاساو جهداً كبيراً ليدرك ما يعنيه رفيقه، وظنّ أنه فهم الأمر: "آه. لقد عرفت، إنك تريد أن تستبدل بعض قمصان فينوس بكروزات من السجائر الأميركية، أليس كذلك؟ إن المسألة مفيدة، فالسجائر الأميركية هي مال في الجيب، أعرف أين يمكننا أن نضع الكمية".

بديهي أنه من غير المعقول انتظار فهم سريع من بيشي كاساو، ولكن المفوض كان رجلاً ذكياً ومجرباً، ونبع العرق من جبهة التحري فأخفض صوته:

- سجائر حشيش، ماريجوانا.

- "آه، إن هذه البضاعة تفرض تجارة سرية، إنها عمل معقد وأكثر جدية وليس مناسباً مناقشة الأمر في البار أو في أي مكان عام". ووقف المفوض.

- سنخرج من هنا، يجب أن ندرس الأمر بهدوء.

وقف بيشي كاساو وصرخ في صاحب البار:

- "هون ياواد".

إنها مكاسب صغيرة لمن يدافع عن المناقب ويحافظ على الأمن العام. آه. آلاف من البحارة! ولشدة فرحه، كان بيشي كاساو يرغب في الرقص. وبينما الأخير يمر أصاب بكتفه أحد الزبائن الداخلين فكاد يوقعه أرضاً. ثم ضحك في وجهه:

- ألم يعجبك؟ إذن افعل ما تشاء.

كان قد لقب بيشي كاساو لأنه أكل الابنتين القاصرتين بالإضافة إلى شقيقة الزوجة، القاصر هي الأخرى. يأكل النساء بقدر ما يستطيع، لأن حبه للعائلة يشعل صدره هو نيكولاو رامادا جونيور، وهذه الممارسات ضمن العائلة أصبحت شائعة عند الملاء عندما أطلقت شقيقة زوجته لسانها معلنة:

- إن بيشي كاساو يعتدي على ابنتي الاثنتين. لقد اعتدى عليّ أنا الأخرى في

فراش شقيقتي.

إنها مخلوقة عاقبة تثير الفضائح وتنقل إلى جميع الناس أسرار بيتها الخاص بسبب الغيرة.. وكانت قد أعلنت عن رغبتها في إهمال العائلة والتخلي عنها لمصاحبة موظف كبير في أمانة سر وزارة الزراعة، وعندها طالب نيكولاو بتعويض له عن النفقات التي أنفقها على أم زوجته خلال السنوات الخمس الأخيرة: نفقات إيجار وطعام وملابس وتربية كاملة. ولكنه مقابل المال الذي بدّده عليها والتفاني والإخلاص والعطف الذي أظهره في الفراش، لم يتلق غير الشتم وغير اللقب الذي سيرافقه طيلة العمر ولا يحق لأحد أن يكون عاقاً، أليس كذلك؟

إنه خمسيني سمين، ذو شكل نحشن، وقبعة سوداء وملابس أنيقة، أما بيت المسدس فدائماً تحت سترته ليفرض الاحترام، وكونه موظفاً في الشرطة مع كل هذه السوابق فأين يمكنه هو نيكولاو بيشي كاساو أن يخدم في غير مركز الشرطة لمراقبة بيوت القمار والمحافظة على التقاليد ليفرض القانون ويكافح الرذيلة؟

كان واحداً من صغار الفتوات في المنطقة، ينتزع المال انتزاعاً من القوادين والقوادات ومن أصحاب وصاحبات بيوت الدعارة والملاهي والمحلات التجارية، وكان يأكل ويشرب مجاناً ويختار المرأة التي يريد مضاجعتها مهدداً ومضطهداً. والويل لمن ترفض دعوة بيشي كاساو، فإنها تدفع غالياً ثمن تردها، وتلك المدعوة تريزا باتيستا، مثلاً، ستلقى جزاءها، لأنها لم تكتف برفض مجاملات "القوي" ولكنها أيضاً عرضته للسخرية في ملهى فلور دي لوتوس أمام الزبائن:

- "احترم نفسك، لو أردت أن أضاجع خنزيراً فإني أفش عنه في الحظيرة" وإذا كانت قد تعبت من عروض وتهديدات مفتش الأمن ذاك، فإن تريزا قد فقدت أعصابها مستعدة لكل شيء وفي عينيها ذلك الوهج الماسي الحاد.

ومقابل بيشي كاساو فإن التحري دالمو الملقب بكوكا غارسيا، كان يظهر كأنه عارض أزياء ورجل لطيف... يبدو شاباً ذا ملابس أنيقة وعلى الموضة ويعتمر قبعة رمادية ويحمل سلاحاً سرياً وذا سلطة تبدو واضحة في تصرفاته الفوقية ونظراته الثاقبة. ولكنه على الرغم من الحيوية والشباب والأناقة، فإنه كان الأسوأ بين الاثنين وكانت ردود فعله العنيف غير مرتقبة.

أما ما هو متعلق بالكوميسير لاباو أوليفيرا، فإنه على الرغم من مرتبه المتواضع قد أصبح ثرياً. وحسبما هو معروف عنه لم يكن يمتنع عن القيام بعملية مالية مربحة أياً كانت. وكان قد تعرض مرتين للتوقيف بسبب إساءته استخدام وظيفته، ولكنه خرج بريئاً لأن التحقيق عجز عن إثبات الإساءة وتقديم البراهين ضد شرفه الشخصي وسلوكه المهني.

ولم يكن لتريزا أي حق في التدخل في موضوع تحويل مكان سوق البغاء، لقد كانت تمارس العمل في السر وفي بيت عزاب فيفيانا، ولكنها لم تكن تمارسه في السوق العمومية ذات الأبواب المشرعة لأي كان، كما أنها كانت تقيم في دار لا شبهة عليها تقع في شارع محافظ وليس في نزل فتيات هوى. ومع ذلك شاركت في المعركة وكانت حسب إفادات الشهود واحدة من أكثر القائمات بأعمال الشغب والإخلال بالأمن وأكثرهن صخباً ونشاطاً؛ وهي في رأي بيشي كاساو المسؤولة الرئيسية عن أعمال الشغب، وانصب غضب رجال الأمن عليها بالدرجة الأولى، وألقيت عليها المسؤولية عندما كان كل شيء قد انتهى.

كانت تريزا قد جاءت معها من منطقة الداخل بشهرة بنت شارع، وعرفت بأنها امرأة مطلقة شعرها للريح وذات تربية سيئة، لم يدعها أحد للمشاركة ولم يسألها أحد رأيها فلماذا تدخلت في ما لا يعنيه؟ كانت ذات طبيعة تدفعها إلى تحسس معاناة وآلام الآخرين، ولا تستطيع معها تحمل المظالم وهي لا تقوى على الرضوخ والاستكانة. وكأن المرأة العامية يجب أن تكون حيواناً خنوعاً، فكيف يحق لها أن تعصي السلطات وتواجه الشرطة وتعلن الإضراب، إن هذه الأمور هي نهاية العالم.

"لقد تم فرض سلطة القانون بفضل التحرك الفعال والدقيق لرجال الشرطة"، كان هذا هو تصريح مفوض عام الشرطة هيليو كوتياس في مقابلة صحافية أضاف فيها: "إذا كانت الدقة في العمل قد وضعت موضع الشك فإن حيوية رجال الشرطة كانت متوفرة كلياً، وهناك من يتكلم عن القساوة والعنف غير الضروريين مستشهداً على ذلك بالفتاة التي أصابتها رصاصة في عنقها وبالجروح التي أصابت الطرفين؛ فإذا كانت قد حدثت أعمال متطرفة فعلى من يقع الذنب؟" ... ثم سأل كوتياس زملاءه الصحفيين: "لو لم نضرب بيد من حديد فيلبي أين كنا سنصل؟" مع هذا السؤال وبعض الصور التي التقطت انتهى اللقاء الصحفي العام، وتم تناول الموضوع في صحف ريو دي جانيرو الصباحية التي خصصت تحقيقات واسعة لأحداث الليلة الماضية مع نشر صور عديدة شوهدت تريزا باتيستا في واحدة منها وقد ألقى عليها القبض ثلاثة من رجال الأمن، وإذا إن مصيرها متوقف على حكم القضاء، فلم تبق من القضية إلا أن تقدم الدعوى المقدمة من مؤسسة هـ. سردينيا وشركاه ضد الدولة مطالبة بالتعويضات عن الأضرار التي لحقت بممتلكاتها، إذ إن المسؤولية في هذه الحال تقع على الدولة بسبب تخليها عن المحافظة على الأمن العام، والدعوى رابحة سلفاً ولا شك في ذلك...

لم يستطع جنتلمن الشرطة هيليو كوتياس أن يخفي حيرته:

- أين كان يسير السادة في تلك اللحظة، وماذا كانوا يفعلون؟ بحق الشيطان! بيشي كاساو يقدم الاعتذارات، والمفوض لا باو يؤثر المحافظة على الصمت وهو يرمق مدير عام الشرطة بنظرة هي في الظاهر ليست ذات معنى ولكنها باردة وثابتة، مما يثير المدير العام: "لا ترفع صوتك أمامي فيني لا أحتمل. إذا فعلت ذلك

فإني سأردّ لك الصّاع صاعين، أنا لست موظفاً في شركة خاصة وحتى الآن لم يقل لي أحد كم سأربح في نقل سوق البغاء"، لم يبدل مدير عام الشرطة نبرة صوته عند إعطائه الأوامر:

- أريد كل النساء هنا وفي الحال. كلهن، سري إذا كن سينتقلن أم لا.
انسحب المفوض برفقة بيشي كاساو، وقبل أن يصل إلى الباب بدأ بالمسير بشكل طبيعي بعد أن كان قد هرول عند تلقيه الأمر.

وجئن جميعهن، وعددهن ست نساء ولم تدم المقابلة أكثر من دقائق، وكبداية حوار أخذن يصغين إلى مدير عام الشرطة وهو يضرب الطاولة بقبضة يده، "بماذا كنن تفكرن؟ أبأنه لم يعد في باهيا سلطة؟ لقد تلقيتن أمراً بالانتقال وبالعنوان الذي يجب أن تنتقلن إليه مع أمتعتكن لتقمن فيه. وكأنكن لم تبعلن الأمر واستمررتن بتلويث محلة بارو كينيا، أي نوع من الجنون هو الذي أصابكن؟"

- "لا يستطيع أحد أن يقيم في مثل تلك الزنانات القائمة الضيقة، لا يمكن الإقامة هناك ولا استقبال رجل" قالت أكاسيا ذات الشعر الأبيض، العوراء، وسيدة أحد البيوت حيث كانت ثماني نساء يقمن ويمارسن الدعارة.

- معي هنا مندوب وزارة الصحة العامة، وهو يفيد بأنه تتوفر في الغرف كل الشروط الصحية الضرورية. أو أنكن ترغبن في أن تقمن في قصور محلات فيتوريا ودابارا ودا غراسيا؟ بماذا تفكرن؟

- "ولكن يا أستاذ... حاولت أسونتا أن تضيف.

- اقللي فمك! لم أرسل بطلبكن للقيام بحديث ودي. إن المكان صحي وتوافق عليه دائرة الصحة العامة والشرطة. لم يعد من شيء يمكن مناقشته، إني أعطيك فرصة حتى يوم غد لكي تنتقلن، وحتى مساء الغد إذا بقي نزل واحد مفتوحاً في محلة بارو كينيا فإن العصا ستأكل من أقفيتكن... وليس عليكم أن تشتكين فيما بعد وقد أعذر من أنذر.

عند مروره مساءً بمديرية الشرطة، كان هيليو كوتياس يفتش عن بعض المعلومات المتعلقة بقرار نقل البيوت.

- أين هو المفوض لاباو؟

- يقوم بالخدمة في الشارع، أستاذ.

- ونيكولاو؟

- هو أيضاً. لقد خرجا معاً.

بالتأكيد لمراقبة العملية التي كلفا بالقيام بها. على كل حال فإن المهلة تدوم حتى اليوم التالي، في هذه الأثناء كانت كارمن تنتظر في السيارة واضعة على رأسها قبعة بيضاء، إذ كانا ذاهبين إلى دارة النائب في الجمعية العمومية ليلعبا البيريا مع بعض المتزوجين من أصحاب الوجاهة، فابتسم مدير عام الشرطة وهو يفكر ببادا. أمس قال لها إنك تمثال تاناغرا وسيقول لها اليوم إنك جوكوندا دي ليوناردو. إنه في كل الحالات لا يشرب الويسكي المقلد ويكتفي بكأس من البيرة، ولكي يختصر الوقت أمر السائق باختصار الطريق فهما متأخران، ودخلت السيارة عبر أزقة ضيقة بينما الأضواء الأمامية تنعكس على النساء اللواتي يلهثن في صيد رجل بينما بعضهن عاريات، كما خلقتني يا رب، عند أبواب دور الدعارة، وتلصصت كارمن بفضولية.

- إنك الآن من يأمر هؤلاء القوم أليس كذلك؟ يا صغيري هيليو أنت الآن ملك القحاب. فيا لك من سعيد الحظ.

- إني لا أرى أية سعادة في هذا المركز الحساس الذي يقتضي الكثير من المسؤولية.

وخرجت السيارة من الأزقة عند أسفل محلة دوس سابا تيروس وانعطفت باتجاه نازاريه.

في متعرجات الأزقة القائمة كانت النساء يفتشن عن زبائن، فينادين، ويوجهن الدعوات، ويستعملن كلمات تشير إلى استعدادهن للقيام بأشياء خاصة... وعند الأبواب والنوافذ كان بعضهن يعرضن البضاعة للبيع، كالأثداء والأفخاذ والأقفية والفروج كمواد رخيصة... وبعض آخر كن يظهرن حسنات الهندام وذوات أوجه مصبوغة ويحملن الحقبة التقليدية فيتوجهن إلى شارع تشيلي حيث في الفنادق هناك، كان يستضاف عادة أصحاب المزارع والتجار القادمون من الداخل.

في المشارب كان الزبائن العاديون والطارئون منهم يحتسون البيرة والكونياك والكاشاسا والكوكتيل، وبينهم القوادون، وبعض الفنانين، والمحدثون من شعراء

المدرسة الرومانسية، وفي ملهى فلوري دي ساوميجيل، كان الألماني هانسن بقامته الطويلة وشعره الأشقر يرسم مشاهد ووجوهاً وأجواء عامة، بينما يتحدث مع الفتيات وكلهن صديقاته ويعرف قصة حياة كل واحدة منهن.

الحياة هنا تتعرض للعفونة في حمأة الساعات الطويلة، ويزداد الزبائن بين التاسعة والحادية عشرة ليلاً حيث تأخذ الحياة بعدها بالعودة إلى التقلص. الشبان والشيوخ والرجال المكتملون، الفقراء وأصحاب الدخل المحدود، وغني فاحش الغنى وأصحاب المهن والجنود والعاطلون عن العمل والطلاب وأناس من كل المهن ومحترفو البوهيمية، جميعهم يشيخون هناك على طاولات المشارب الرخيصة والملاهي الكثيبة في أحضان الفتيات، ويبدو الليل هناك صاخباً، متعباً، وتسمه أحياناً سمات الارتباك والوله.

وفي ساعة الصخب الكبرى تمر من هناك النساء الفضوليات برفقة أزواجهن وعشاقهن، مجتازات شوارع المنطقة فتعترين الإثارة لرؤية حركة الدعارة الناشطة فيشاهدن النساء العاريات، وينظرن إلى الرجال داخلين إلى بيوت الدعارة ويسمعن الكلمات الشاذة، آه! كم هي طيبة ممارسة الحب في هذه البؤر في فراش عاهرة! ويصيبهن صقيع في نصفهن الأسفل.

وعند مرور سيارة مدير عام الشرطة، وفي منعطفات هذه المملكة الواسعة من الدعارة، شوهد بعض المارة من النساء والرجال يحثون خطاهم: تريزا باتيستا والتحري دالمو غارسيا آتيان من نقطتين مختلفتين فيصلاان معاً إلى باب بيت الدعارة الواسع الذي يملكه فافا. وبينما يلهث تعباً وهو يرتقي السلم، وقف رجل الأمن ينظر إلى المرأة: إنها راقصة السامبا في ملهى فلور دي لوتوس، يا لها من قطعة من الجمال الأسمر! هل انتقلت إلى العمل لحساب فافا؟ محافظة وعنيدة حسب إفادة زميله بيشي كاساو وهي تعمل الآن في أكبر بيت دعارة في باهيا. ماذا سيحدث إذا؟ في يوم ما، وبهدوء، فإن التحري دالمو كوكا سيستجلي حقيقة تأكيدات كاساو، إذ ليس لديه اليوم الوقت الكافي لذلك، إنه موضوع مهم يستحق أن يأتي من أجله لزيارة فافا. وتقدم مستمراً في ارتقاء السلم بينما انتظرت تريزا في الشارع بعض دقائق.

على الرغم من الإتاوة التي يدفعها شهرياً وبانتظام إلى مفوض الشرطة لاباو وإلى طابور كامل من رجال الأمن، فإن صاحب المنزل فافا قد تعرض

لعمليات ابتزاز عديدة نتيجة ابتداء رجال الشرطة التهم لابتزازه. لذا غدت الشرطة بالنسبة إليه مجموعة من البشر لا كلمة لها ولا عهد يمكن الركون إليه.

وإلى جانب سوء أعمال الشرطة فقد عانى فافا من خيانة النساء. إنه لا يقع في شراكهن بسهولة، ولكن عندما يحصل له أن يقع في الحب فإنه يفقد عقله ويتحول إلى طفل. ففي البدء يعشق، ثم تكبر القصة الرومانسية. ثم يجعل العشيقة المختارة تنقل إلى غرفة الطابق الأول مانعاً إياها من ممارسة الدعارة ثم يغرقها بالهدايا والطيبات، ولكن كم منهن انتهين هناك إلى سرقته؟ جميعهن تقريباً.. فيا لمن من صنف تافه وعاهرات بلا قلوب.. لقد كن يضاجعنه بغية انتزاع أكبر قدر ممكن من المكاسب ولكنه يثور عند ذكر واحدة: إنها أنونسياسو دي غراسا الشقراء السمينة الطويلة ذات الابتسامة الدائمة. لقد كانت تبدو كأنها الطيبة بعينها، وذلك حتى اليوم الذي كان فيه مقعداً في فراشه وعاجزاً عن النهوض دون مساعدة، فجاءت تعلمه برغبتها في العودة إلى منطقة الداخل في ذلك الصباح الباكر وفي الحال أخذت المال المحفوظ في الدرج وهو حصيلة عمل اليوم السابق وابتسمت له متهتكة إذ لا يفيد به شيء الصراخ في تلك الساعة المبكرة حيث ينام الجميع في المنزل الموحد الأبواب، وشاهدها فافا تعبت في الدرج وهو في فراشه. أين وجد القوة والوسيلة، لكي ينزل من فراشه ويزحف أرضاً؟ كيف تمكن من الإمساك بها؟ وعندما تدخل مرافقه جيكي ودخل الغرفة مسرعاً، كان هو قد ألقاها أرضاً وأمسك بخناقها. نجت منه بأعجوبة! فمن أعطاه القوة؟ يا له من سؤال!

"أريد أن أكلمك على حدة" قال له التحري دالمو غارسيا. ففكر فافا بأن المحادثة ترمي إلى انتزاع ماله. إن هذا التحري ليس مدوناً في مفكرته التي يدفع المال بموجب الأسماء التي تحتويها: فهو يعمل في قطاع المخدرات ويهتم بالمهرين بينما فافا يحافظ على نفسه بمنأى عن عالم المخدرات... لقد كان اسمه على كل حال دالمو كوكا وهو السيئ الأخلاق بطبيعته، ويعرف فافا هذا لأن كل ما يحدث في المنطقة يصل إلى سمعه. كان التحري كوكا الأقل جهلاً والأكثر حماقة بين الشركاء الثلاثة في الشركة الجديدة، والمكلفين باستقبال وحماية المدافعين الأبطال عن الحضارة الغربية لدى رسوهم العابر في مرفأ باهيا، وبالذفاع عن سلامة صحتهم بغية تقوية طاقاتهم الجنسية وإفساح المجال لأحلامهم الكبيرة.

وجلس كوكا على الكرسي ذي المرفقين إلى جانب الدرج الذي يضع فيه فافا ماله، وراح يخبر القواد بكل شيء دون أن يطلب انسحاب أماديو ميستري جيكي الشاهد على الحوار. إن بائعين متجولين سيتم توزيعهم في طول المنطقة وعرضها لبيعوا إلى البحارة الأميركيين مخدرات كان قد صنعها هارون مادروغا أحد أصدقاء بيشي كاساو... ولتلك المرحلة من العمل لم يكن كوكا بحاجة إلى مساعدة فافا، ولكنه كان بحاجة إليه في مسألة أكثر فائدة: ففي حين تؤخذ الاحتياطات في الشوارع ويوزع مسؤولو الأمن ذوو الثقة في بيوت الدعارة، فإن على فافا أن يعرض على الضيوف الطارئین من البحارة الأميركيين وبسرعة معقول سجناء من أفضل أنواع الحشيش الوطني.

- أترید أن تبیع الحشيش هنا في بيتي؟

"ليس هذا وحسب يا سندي. ستكون مسؤولاً عن كمية الحشيش وعليك أن تتسلمها في مساء اليوم لأن دالمو كوكا يفتش عن مكان آمن ليحتفظ بها إلى حين الشروع بالبيع بالمفرق" إن سفن الأسطول الأميركي قد تصل في أية لحظة والمكان الآمن للبضاعة هو دهايز فافا. أليس عند فافا خزانة حديدية موضوعة في الجدار؟ أجل، عنده مثل هذه الخزانة منذ حادثة عشيقته أنونسياسو دي غراسا، وإن تكن صغيرة فإن خزانة كتلك الموجودة في الغرفة تفي بالغرض على أن يغير المفتاح والقفل؛ إن بيت دعارة واسعاً وذا حركة دائمة من الرجال والنساء هو المكان المثالي، ومن هنا يمكن توزيع المادة بهدوء على رجال الأمن المكلفين بالبيع.

- "أترید أن تحتفظ بالحشيش في بيتي؟ في غرفتي؟" وكادت عينا فافا تخرجان

من حدقتيهما:

- "إنك مجنون! هنا في بيتي لا يمكن فعل ذلك. لا. أبداً."

اكتفى دالمو كوكا بالتهديدات. "فكر مرتين قبل أن ترفض لرجل الأمن خدمة صغيرة. ألم يكن موعد نقل السوق العمومية قد حان؟ سيتم نقل نساء سوق البغاء من باروكينيا إلى لاديرا دو باكاليو وكل المكان سيختفي من هنا، من مركز المدينة إلى منحدر الجبل في أسفل المدينة، ومن كانت الشرطة راضية عنه فسيكون له امتيازات، ولكن الويل لمن هو على اللائحة السوداء!" وكونه ربّ عمل كبير كهذا ومزدهر، فإن فافا يجب أن يحافظ على السلم مع رجالات

الأمن. وسيعود دالمو كوكا غداً مساءً ليدخل في التفاصيل وقد يعود معه بكمية الحشيش.

- كانت علبتان من السجائر الأميركية موضوعتين فوق الدرج فوضعهما التحري في جيبه وانصرف، وأطرق فافا رأسه مفكراً وهو لا يعرف ماذا يفعل. وخلافاً للنساء في محلة باروكينيا، فإن فافا كان يقرأ المجلات وأخذ منها علماً بالحملة المتعلقة بتحويل المنطقة، ولكنه لم يكن قلقاً إذ يكفي أن يثار الموضوع حتى تنهمر الصحف بنشر الفضائح حول القضية. ولكنه مساء أمس علم بأن مدير عام الشرطة كان قد أعطى مهلة ثمان وأربعين ساعة لإخلاء محلة باروكينيا وأعلن حالة الطوارئ. والآن وقد سمع فافا التحري يؤكد ذلك فإنه اقتنع بما هو أسوأ.

إن قرار التحويل يعني بالنسبة إليه خسارة لا حد لها. وربما يكون المخرج الوحيد من المأزق هو بالاحتفاظ بكمية الحشيش لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وسط هذه المعمة الجديدة المرتقبة. هذا إذا لم تكن كل العملية مسألة خيانة وعملاً من أعمال الشرطة كأن تضع هذه الأخيرة الحشيش في غرفته وتغزو المكان، وتضع حداً لحياته بغية الخروج بمدخراته.

وبينما هو في هذه الحال ظهرت غريتا غاربو أمام باب غرفته:

- يوجد هنا امرأة تريد أن تتكلم معك تدعى تريزا باتيستا.

ألقي نظرة على تريزا فكأنما انفجرت فيه كل كوامن الحب دفعة واحدة فأصبح متولهاً بها. إنه وله مفاجئ فهل يكون حباً من النظرة الأولى؟ يمكن القول "أجل": هي المرة الأولى ويتأمل فيها لحماً وعظماً واقفة إلى الباب وهي تبسم بسنّها الذهبية.

كان قد سمع الكثيرين يتكلمون عن تريزا باتيستا. وكان قد عرف بقضية خنجر توليدو وغضب الإسباني رافايل فيورا وتدخل تريزا لإنقاذ حياة ماريا بيتسكو، وفي الوقت نفسه إفساح المجال لهرب القائم بمحاولة القتل غيرة. فكان الحدثان مدعاة تقدير في كل المنطقة، ونقل إليه أيضاً ردّ تريزا العنيف على بيشي كاساو حين بصقت في وجهه، وقالوا عنها إنها كانت جذابة المظهر ولكن ما قالوه هو دون الحقيقة بكثير. وفي اضطرابه العاطفي نسي فافا زيارة دالمو كوكا غارسيا واشمئزازه وقلقه.

- تفضلي واستريحي.

اجتازت تريزا الغرفة سريعة مرنة، فيا سبحان الخالق! وجلست على الكرسي الذي كان يجلس عليه التحري. أخذت يدا فافا المقعد تدوران بعجلتي كرسية الطبي متقرباً منها. "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ إنك ترتادين بيت عزاب تافيانا صاحبة الزبائن المختارين اختياراً من الأغنياء فلن تأتي للعمل في دار دعارة مشرع الأبواب لجماهير الناس العادية. هناك في ليلة واحدة وبممارسة جنسية واحدة مع عجوز حسن التربية، نظيف وكريم تربح تريزا ما لا تستطيع أن تربحه أية فتاة هنا في بيت فافا خلال يومين وليلتين من العمل تستقبل الرجال واحداً إثر واحد".

وبحركاتها الصريحة والعزم دخلت تريزا في صلب الموضوع:

- هل سمع السيد بضرورة نقل مكان المنطقة؟

الصوت الدافئ يكمل صورة الحلم الهارب مع ضوء الفجر الأول. وبدأ فجراً آخر تكوين عينيها السوداوين في وجهها الهادئ ذي المسحة الكئيبة، وشعرها المسبل المسترسل على كتفيها، ورشاقتها، ولونها النحاسي ورهافة حركاتها الجدية... لم يفهم فافا مع كل ذلك معنى السؤال... ولم ينتبه إلا إلى المعاملة المهذبة التي تعامله بها، فهو لم يجد في كل باهيا من يناديه يا سيد، حتى الأشخاص الذين كانوا يخافونه وكانوا كثيرين. كيف يعاملها؟

- ناديني بفافا حتى أستطيع أن أناديك بتريزا فهذا أفضل؛ عمّ سألتني؟

- بسرور. سألت إذا كنت قد سمعت عن نقل المنطقة.

- كل الناس يتكلمون عن هذا النقل.

- إن لدى المقيمين هنا مهلة حتى الصباح ليذهبوا إلى محلة لاديرا دو باكاليو.

هل تعرف شيئاً عن زرنانات لاديرا؟

- سمعت أشياء.

- وهل تعرف أن من لا يحتويهم المكان الجديد سيتم نقلهم إلى ماسيل؟

- الآن وقد سألتني الكثير دعيني أسألك: لماذا كل هذا؟

- إن المقيمين في باروكينيا لن ينتقلوا.

- هيه؟ لن ينتقلوا؟

وكرر السؤال مشغولاً:

- كيف لن ينتقلوا؟
- بأن يبقوا حيث هم في باروكينيا.
- من قال لك هذا؟ العجوز أكاسيا؟ أسونتا؟ ميرابيل؟ ما تقوله ميرابيل لا يمكن كتابته. والعجوز أغاسيا سترفض تنفيذ القرار؟
- أجل! لن ينفذ أحد القرار.
- إن الشرطة ستتحويل إلى شيطان مصبوغ.
- الناس يعرفون هذا.
- إن الشرطة قادرة على إخراجنا بالعصا.
- حتى مع العصا فإن المقيمين هنا لن ينتقلوا. لن يذهب أحد إلى بيوت باكاليو وحتى إن استلزم الأمر البقاء في الشارع.
- أو في السجن.
- ولن يبقى أحد في السجن طيلة الحياة ولهذا جئت إليك.
- ولماذا؟
- يقولون إنه بعد باروكينيا سيأتي دور منطقة ماسيل. قل لي، وإن لم يكن فضولاً، هل السيد... عفواً: هل ستنتقل؟
- حافظ فافا على عينيه محدقتين في تريزا، ويا لتلك العينين الحذرتين المشككتين! فلماذا لا تكتفي بأن تكون جميلة؟ إنها جميلة جداً، سبحان الخالق:
- إذا استطعت أن أتخلص من الانتقال بطريقة ما فسأفعل.
- وإذا لم تجد طريقة؟ ها هي ميرابيل قد أعطت كل ما كانت تمتلكه من مال إلى المفوض لاباو، فقبض المبلغ ومع ذلك توجب عليها أن تنتقل كالأنخريات تماماً.
- وإذا لم تكن من طريقة؟ فإني لا أريد أن أفكر.
- ولكن إذا لم ينتقل أحد؟ فهل تظن أن الشرطة قادرة على إجبار الناس عنوة؟ لا أظن؟
- إن عصيان أوامر الشرطة هو أسخف الأفكار وأكثرها جنوناً، ولكن إذا كان بإمكان المقيمين هنا أن يجدوا المكان الذي سينقلون إليه أو يحافظوا عليه حيث هو منذ سنين فسيكون الأمر رائعاً... وعوضاً عن أن يجيب عن السؤال، سأل هو:

- قولي لي رجاء: هل تصدقن أن الشرطة ستتطاول على بيت تافيانا مع ما عندها من الوجهاء الذين يحمونها؟

- لا أعرف.

- إني أشك... تستطيع الشرطة أن تنقل أياً كان عدا تافيانا، وما دام الأمر كذلك فلماذا تتدخلين، وتتكلمين كأنما تعيشين في باروكينيا أو هنا؟ لماذا؟

- لأني إذا كنت أرتاد الآن بيت تافيانا، فإنني قد مارست المهنة سابقاً في بيت دعارة مشرّع الأبواب وقد أعود من جديد.

وصمت فافا برهة ورأى في عينيها ذلك الوهج الشعاعي:

- لقد مررت بمشاكل كثيرة، وتعلمت أن الناس الذين لا يعاركون لا يتوصلون إلى شيء في هذه الحياة... إن مقاومة أوامر الشرطة هي الفكرة الأكثر جنوناً وسخفاً ولكن من يدري؟ الأمر يستحق العناء.

- غداً ظهراً سأبلغك بقراري، سأفكر...

- سأعود غداً في تمام الثانية عشرة ظهراً. تصبح على خير يا فافا.

- ستذهبن الآن؟ ألا تريدن أن تتناولن شيئاً؟ جرعة ليكور؟ لديّ الجيد منه من صنع الراهبات.. ليكور كاكاو... إن الوقت مبكر سنتحدث قليلاً.

- لديّ ما أفعله قبل أن أذهب إلى ملهى فلور دي لوتوس.

- غداً ظهراً إذاً؟ تعالي لتناول الغداء معي. قولي لي ماذا تحبين أن تأكلي؟

- ما هو متوفر. شكراً جزيلاً.

- نهضت، فراح فافا يتأمل في لحمها وعظمها: سبحان الخالق! فاستأذنت وهي تبتسم.. وانتهى إلى أنها جميلة جداً ولكنها لا تستفيد من ذلك بسبب أفكارها السخيفة. يا فافا لا تكن مجنوناً، انتبه إلى نفسك، وتذكر أنونسياسو دي غراسا... إن في صدره نيراناً مشتعلة فكيف يستطيع فافا أن ينتبه لنفسه؟ لقد وقع في الحب وأصبح مولهاً بشكل أفقده رشده.

عندما ظهرت تريزا في اللحظة غير المنتظرة، بينما كانت السيدة باولينا تهم بتجهيز الحقائب وصناديق الأمتعة للانتقال، فإن تريزا لم تستأذن للدخول وأصغت إلى باولينا تقول:

- ابقني بجانبك وقولي ماذا تريدن؟ هل أنت بحاجة إلى المال؟

- شكراً. لم أجيء من أجل هذا. غداً يجب أن ينتقل المقيمون في باروكينيا.

- إنه استغلال وحكم اعتباطي، لقد كان المدعو بيشي كاساو هنا ويطلب مالاً من المقيمين من أجل الانتقال.

- ولكن المقيمين في باروكينيا لن ينتقلوا.

وبدا التعجب في عيني السيدة باولينا دي سوزا:

- هل سيعصون الأوامر؟ ومن يكفل النتائج؟

- كل واحد يستطيع أن يكفل النتائج إذا قرّر الجميع ألا ينتقلوا، لقد تكلمت في الأمر مع فافا وأظن أنه سيلعب اللعبة.

- أفصحي يا عزيزتي...

وأعادت تريزا الشرح مرة أخرى. إن إجبار الشرطة الناس على الانتقال مسألة بسيطة، ولكن كيف ستنتقل منطقة بكاملها إذا لم يرضخ أحد لقرار التحويل؟ إن المقيمين في باروكينيا قد قرروا ألا ينتقلوا.

- ألا يطيعوا؟ آه، إن الشرطة...

- أجل إن الشرطة ستستخدم العنف وتعتقل وستفعل كل شيء... ولكن حتى بهذه الطريقة سترفض النساء الانتقال ولن تذهب واحدة منهن إلى زنانات باكاليو، وإذا لم يستطعن استقبال الرجال في باروكينيا، فسيستمررن في الممارسة هنا وهناك في بيوت الصديقات. إن صاحبات بيوت العزّاب يستطعن المقاومة عدة أيام حتى تتخلى الشرطة عن قرارها... فمع الانتقال سيكون العطل والضرر أكبر بكثير من التوقف عن العمل عدة أيام.

- هذا صحيح.

إذاً؟ إن المقيمين في ماسيل لن ينتقلوا هم الآخرون، وفافا سيعطي جواباً غداً.. ولكن تريزا تراهن على خضوعه. وكذلك بيوت بلوريتيو وتاباو إذا كانت السيدة باولينا موافقة، وكل شيء متوقف عليها.

- جنون! أفضل طريقة هي الدفع وملء جيوب رجال الشرطة. وبيشي

كاساو الحقيّر قد بدأ يجني الأرباح.

- وإذا لم يفد الدفع؟ لقد دفعت ميرابيل فلم يحل الدفع المشكلة؟

كانت باوليننا إحدى ملكات الكارنفال، وذات سلطة في المنطقة فذهبت
تستشير أمها التي استقبلتها بالعناق، ثم تكلمت الأم بصوت ثابت لتجعل الموضوع
منتهاياً. "من أراد الذهاب يذهب ومن لم يرده يرسل رسولاً فيخسر الوقت والمال".

- "وهل الصبية تريزا موضع ثقة؟"

- "أجل! لقد كانت واضحة كل الوضوح: سلطوية، محاربة، ابنة يانسان
يحرصها الإله أوغون وينجيها الإله أوشالا من العواصف".

مساء اليوم الثاني كان ألميريو داس نيفس يرقص مع تريزا في ملهى فلو دي
لوتوس ويحس بها قلقاً... مضت أربعة أيام دون أن يفتش عنها، إذ ظل أسير
الفراش بسبب الأنفلونزا الحادة التي أصابته، وما كاد يغادر الفراش حتى جاء إلى
الملهى فاستقبلته تريزا مسلّمة عليه بحرارة.

- لقد اختفيت عن أنظاري لأنك بدأت تتكبر علينا ربما.

وكان القلق يختفي وراء تلك الممازحة. وعلى حلبة الرقص سألها إذا كان قد
وصلها أي نبأ جديد عن جيريبا. "كلا، لا يوجد مع الأسف". لقد اكتشفت
عنوان مكتب الشركة التي وظفت البحارة بطلب من قائد سفينة الشحن،
ووعدها هناك بأنباء يأتونها بها فيما بعد، وما إن يحصلوا على الأخبار حتى
يزودوها بها، "ومن الأفضل أن تودعي هنا رقم هاتفك". لم يكن لديها هاتف
ولكن ستمر من حين لآخر بمكتب الشركة. وقد ذهبت إلى هناك مرتين وحتى الآن
لم تحصل على شيء، ولا بد أن السفينة بالبوا قد اتبعت خطأً بحرياً جديداً، لأن
هذه السفن الباهيانية لا تسلك أبداً خطوطاً بحرية منتظمة، وتذهب إلى حيث تجد
حمولة فكأنها سفن غجرية، وأوضح لها الإسباني غونزالو مدير أعمال الشركة، وهو
ينظر إليها نظرات عادية باردة، ولم تجد تريزا إزاءها إلا التحلي بالصبر والرضوخ
إلى مشيئة الخالق.

وأراد ألميريو أن يعرف ما فعلته خلال هذه الأيام، آه، أشياء كثيرة، وهو ليس
على علم بالتطورات ولديها الكثير لتخبره. وبدأت أكثر اضطراباً لا يهدئها رقص
ولا محادثة.

- هل تعرف مع من تناولت وجبة الغداء اليوم؟ دجاج محشو مشهود له.
أشك بقدرتك على التكهّن.

- مع من؟

- مع فافا.

- فافا محلة دون ماسييل؟ إنه شخص خطير. منذ متى تخططين به؟

- تعرفت إليه منذ فترة بسيطة... سأشرح لك الأمر...

لم يكن هناك وقت لتشرح! فقد دخل أحد الزبائن الملهى راكضاً وأعلن عند الباب دون أن يلتقط أنفاسه:

- في محلة باروكينيا بدأت عصا الشرطة تأكل الأفقية.

قفزت تريزا من بين ذراعي ألميريو، واتجهت إلى السلم المؤدي إلى أسفل وخرجت مهرولة إلى الشارع. وهرب التاجر هو الآخر دون أن يفهم شيئاً مما يحدث، ولكنه لم يكن يريد أن يترك تريزا وحيدة. وبدأت الشائعات الشعبية تجذب الناس، بعضهم كان محتاراً، والبعض الآخر مناقشاً... وازداد عدد المتجمعين في محلة كاسترو ألفيس. وكانت صفارات سيارات الشرطة تصل إلى هناك. وانتزعت تريزا نعلها لتسرع في الركض دون أن تلاحظ ألميريو وهو يلحق بها مقتفياً آثارها. مرّت بالقرب من تريزا شاحنة معبأة بالسجناء تعقبها شاحنة أخرى، بينما شاحنتان بقيتا في محلة باروكينيا لتكملا الحمولة.

لقد انتهت المقاومة وكانت الأزمة قصيرة وعنيفة. وترجل من حاملات الجنود الكثيرون من الحراس ورجال الأمن، فأقفلوا الشارع وغزوا المنازل وقللوا من الصخب. وهوت العصي على أكتاف الثائرات، والبعض من الرجال والزبائن الذين كانوا يقومون بالعمل هناك، حاولوا منع العنف فتلقوا نصيبهم من الهراوات واعتقلوا.

نساء كثيرات قمن بردود فعل. فقد عضّت ماريا بيتسكو التحري دالمو كوكا وأدمته، كما أن الزنجية دومنغاس بقوة الثور، ظلت تقاتل إلى أن استسلمت. وأوثقهن رجال الأمن ورموا بهن في السيارات المخصصة لنقل المساجين. حصاد كثير ومنذ وقت طويل لم يتم سجن مثل هذا العدد من العاهرات في معركة واحدة. أما الليل في السجن فسيكون ذا صخب كبير.

عند وصولها إلى بداية الشارع، لمحت تريزا رجلي أمن سريين يمسكان بأكاسيا. العجوز التي كانت تطلق الشتائم وتحاول التخلص منهما فانضمت تريزا إلى المجموعة:

"إنها تريزا الجميلة العراك" وبينما المسدس في يده مَيّز بيشي كاساو راقصة ملهى فلور دي لوتوس. آه! لقد أتت ساعة الانتقام وستدفع الكلبة غالياً ثمن نباحها.

وقرب تريزا كان أحد رجال الأمن يطلب من المجتمعين أن يتفرقوا وإذ سمع صراخ بيشي كاساو يشير إلى الفتاة:

- هذه الموجودة هنا: امسكها ولا تدعها تهرب. هذه بالذات.

رمت تريزا نعلها فأصاب رجل الأمن ومرّت أمامه تريد أن تصل إلى أكاسيا قبل أن يضعوها في شاحنة المساجين. فتقدم بيشي كاساو فوجدت تريزا نفسها بينه وبين الشرطي المجروح الوجه وهو يزجر ويصق غضباً: "ستدفعين الثمن أيتها العاهرة البائسة!" من أين ظهر فجأة العجوز الذي وقف بينها وبين بيشي كاساو بينما تمر شاحنة المساجين؟ كان العجوز متعافياً يرتدي بزة بيضاء وقبعة تشيلية وسلسلة ذهبية تتدلى على صدره.

- "اذهب من أمامي أيها العجوز القذر" هدد بيشي كاساو وهو يصوب إلى العجوز فوهة المسدس.

العجوز لم يكثرث وظلّ واقفاً أمامه لا يسمح له بالمرور. وحاول التحري أن يدفعه فلم يستطع أن يحركه من مكانه، وفجأة وصل الميريو ودفع تريزا إلى سيارة التاكسي. ولكنها اعترضت:

- إنهم سيأخذون أكاسيا.

- لقد أخذوها وانتهى الأمر. هل تريد أن تذهبي أنت الأخرى. هل جنت؟ وعلق السائق:

- لم أرَ في حياتي حقارة كهذه. إن ضرب النساء جبن.

حاول بيشي كاساو ورجل الأمن عبثاً أن يعرفا أين اختبأت الشقية. واختفى العجوز دون أن يترك أثراً. أي عجوز؟ ابن عاهرة قد سدّ الطريق... لم يرَ أحد عجوزاً، لا الآن، ولا قبل ولا بعد.

وغادرت شاحنة المساجين الأخيرة محلة باروكينيا، بينما صفارتها تلعلع وسط الفضوليين المتجمعين في محلة كاسترو ألفيس.

جاء رجال الأمن والشرطة من داخل بيوت العاهرات ببعض الأثاث الموجود في كل بيت، وهو كناية عن فرش وكماليات وملابس وصورة قديسة ومراة

صغيرة، وتمّ تجميع تلك الأشياء أمام الأبواب؛ فيما بعد جاءت شاحنة شرطة فتمّ تحميل الأظمار والخرق البالية ووضعت في محلة دا لاديرا دوبا كالياو. لقد تمّ الانتقال الرمزي، أما نساء المجمع الجديد عندما يطلق سراحهن، فسيُدفعن إلى نقل ما تبقى من قطع الأثاث الكبيرة الحجم والأشياء المستعملة، هكذا أبلغ المفوض لاباو المظفر مدير الشرطة العامة هيليو كوتياس عند انتهاء العاصفة، وخيّم الهدوء التام على المقودة الكبيرة: إن العصيان غير المسموح تمت تصفيته كما تمّ إطفاء نار الغضب الشعبي. إذا أراد الأستاذ الكبير أن ينام بهدوء فليضع السجناء من رجال ونساء في عهدة المفوض في السجن؛ "أستاذ، سيكون الليل ليل متعة خاصة".

في حين ذهب مدير الشرطة لينام مسترسلاً للهدوء، كانت أنباء العنف والسجون تجوب الأنحاء متسارعة في الأزقة والشوارع وبيوت العزّاب والنزول وتُحرق أسواق البغاء والملاهي والبارات. وأصغت السيدة باولينا دي سوزا إلى تقرير مأساوي من فم أحد الزبائن فتذكرت كلمات الأمس: "من لا يجازف لا يحصل على شيء". وفوراً أعلنت الفتيات الموجودات هناك:

- من يصادف امرأة من محلة باروكينيا، فليعلمها بأنها تستطيع أن تمارس مهنتها هنا ما دامت الأمور سائرة على هذا المنوال.

أما فافا هو الآخر فقد أصبح مهتماً بمتابعة التطورات، وبدا قلقاً وهو ينتظر وصول الأب ناتيفيدادي الذي منعه التزاماته المالية من الخروج خلال النهار ليأتي ويرسم اللعبة. وعند ساعة الغداء لم يستطع القواد أن يعطي تريزا الجواب الموعود:

- فقط بعد منتصف الليل، اعذريني. المسألة ليست متعلقة بي وحدي. ومن حسن حظه أن التحري لم يأت بعد بكمية الحشيش، ولكن يمكن أن يصل في أية لحظة. وإن دالمو كوكا قد اشترك في حملة التأديب في محلة باروكينيا ووصل الخبر بالتفاصيل إلى فافا، وكانت هناك المرأة الرائعة هي الأخرى ولم يتم اعتقالها بأعجوبة. وظلّ فافا جالساً على الكرسي الطبي تتنازعه أحاسيس متناقضة من طموح وحب واتزان وغضب.

بينما في بار فلوري دي ساوميغيل كانت المدعوة نيليا كاباريه فتاة شعبية في داخل سوق البغاء وخارجها وصديقة الجميع تعلن على الملأ:

- فليعلم كل واحد أن فتيات محلة باروكينيا ما دمن خارج بيوتهن فإنني سأقفل المكان ولن أستقبل رجلاً مقابل أي مبلغ من المال يدفعه، ومن كانت منكن امرأة مستقيمة فلتتبعني ولتقفل مطارحها الجنسية، ولتضع في ذهنها أن هذا الأسبوع هو أسبوع قداسة.

وقف الألماني هانسن وقبّل نيليا كاباريه في وجهها، وأعلنت ست نساء كن جالسات إلى الطاولات إنهن متعاونات معها. وخرجن إلى الشارع ورحن يعلنّ القرار من باب إلى باب. ودبّرت نيليا كاباريه مقلباً لصاحب البار فأدرّكته في الغرفة العليا من المكان وبصحبتها الأجنبية وبعض الشعراء وبعض المشرّدين والمصمم خليل عشيق أناليا، وهم بمجموعهم بقايا البوهيميين في عالم يستهلك نفسه سريعاً.

أغلق البار في الحال. لقد ابتدأت الآن روزنامة جديدة وانتهى زمن تولّه العاهرات في الشوارع، ولن ينتهي العقاب إلى أن تعود الفتيات جميعهن إلى محلة باروكينيا وينشذن الهاليلويا لإعادة فتح بيوت الدعارة. وكان الحل أكيداً إذ جاء عفويّاً. وقفزت النساء من فراش العمل، فأغلّقن أنفسهن على الرجال تاركات الزبائن وهؤلاء في قمة التوقّد الجنسي.

في المخبز، روت تريزا لألميريو إجراءات غزو محلة باروكينيا من قبل قوات مديرية أمن الملاهي والمحافظة على التقاليد، وكان ألميريو قد قرأ عنه الكثير في الصحف واطلع على معارضة نقل مكان سوق البغاء. في رأيه أن تريزا لا يجب أن تعود إلى ملهى فلور دي لوتوس في تلك الليلة لأن الشرطة تستهدفها، ألم تقرأ تريزا في غضب بيشي كاساو ذلك الحقد العارم؟

الأفضل أن تنام هنا في غرفة الطّفّل زيكس وليس في بيت السيدة فينا حيث يمكن أن تكون أيضاً موضعاً لاستغلال رجال التحري القادرين على فعل أي شيء. لكن تريزا رفضت العرض. وبعد أن ألقت نظرة أخيرة على الطفل المتمدّد في فراش جديد استأذنت بالانصراف.

- دعيني أرافقك حتى البيت على الأقل.

ولا حتى هذا، فهي لا تريد أن تأوي إلى فراشها الآن. قبل كل شيء يجب أن تنال جواب فافا. إنها الثانية عشرة والربع ليلاً. إذا رفض الجميع، دون استثناء، أن

ينتقلوا فإن الشرطة ستجد أذرعها في الهواء. "هل فكرت في ملامح هؤلاء الرجال المتعودين على الأمر والنهي؟" لكن ألميريو لا يشارك تريزا حماسها؛ لماذا يتدخل في أمر لا يعنيه؟ وما دام عنده الكثير من المشاكل فلماذا يفتش عن المزيد منها؟ من يدري فقد تنسى تريزا في العراك أحزانها الأخرى، تنسى السفينة بالبوا والغجري المبحر في المحيط الهادئ وجانو الحب، والبحار الضائع؟
- إذا سأتركك عند باب فافا.

عندما مدّ ألميريو بيده إلى تريزا أمام السوق العمومية ليساعدها على الترحل من التاكسي كانت مجموعة من النساء يهتفن هتافاً مبهماً:
- لقد أقفلت الممرات! أقفلت الممرات.

صعدت تريزا السلم:

- شكراً، ألميريو، وإلى الغد.

ولكن ألميريو لم ينصرف لتوه وطلب من السائق الانتظار. واقتربت النساء فأراد السائق أن يعرف معنى كل هذا. إن النساء في هذه المنطقة قد قررن إقفال أنفسهن على الرجال، هذا ولا شيء آخر.

هزّ السائق برأسه: "تسمع في هذا العالم أموراً غريبة، فأين رأيت احتفالاً بالجمعة العظيمة عند نهاية السنة؟ يا لهن من زمرة من الثملات!"

تأمل في المرأة الرائعة وأصبح عسيراً عليه السيطرة على كلمات الحب الواقفة على شفثيه. لقد تولّاه بها تولّها صاعقاً والطريق إلى الفراش ما يزال طويلاً. ولكن فافا يحب أن يتقدم بتؤدة وهو يعيش متعة الانتظار في كل لحظة، وكل كلمة وكل حركة، وهذا هو العشق الهادئ؛ إن قلبه رقيق رومانسي، ولكن الوضع الآن مختلف، فمع الحب تبرز المصالح المختلفة. فافا لا يزمع على الإفصاح عن مشاعره قبل أن يصغي إلى إيشو. عيناه تخذلانه مع ذلك، فإلهما تقعان قويتين على الفتاة؛ إن الأب ناتيفيدادي لن يتأخر في الوصول فقد خرج المعلم جيكي في تاكسي ليأتي به.

- اصبري قليلاً وانتظري دون أن تؤاخذي. أعرف أنك كنت في باروكينيا

في ساعة اللغط. ماذا ذهبت تفعلين هناك؟ لماذا تجازفين بنفسك؟

- لقد وصلت متأخرة جداً وكان عليّ أن أكون هناك منذ البداية. ألسْتُ من

قلتُ لهن ألا ينتقلن من المكان.

- لست منطقية، ولكني أحب الناس أمثالك الذين يكونون حركيين.
- هناك أكثر من عشرين امرأة سحينة بين سيدات نزول وفتيات هوى.
- أما زالوا يعتقلون حتى هذه الساعة. انظري، أهذا ما كنت تريدينه؟
- أكان من الأفضل طأطأة الرأس والانتقال للعيش في تلك الحفرة الكريهة؟
- ألا تجيب؟ إن الشرطة لا تستطيع إبقاءهن سجينات طيلة الحياة.
- وصلت عبر الممرات ضجة غير مرتقبة من الصراخ واللغط والهرج والمرج.
- خطوات، كلمات، ضحكات، وعدة أشخاص يهبطون الدرج مسرعين معاً.. أعار فافا انتباهه: "ماذا يجري؟" وأصبح الضجيج أقوى فأقوى في الطابق الأسفل كما في الطابق الأعلى. وظهرت غريتا غاربو في باب الغرفة مهتاجة:
- "فافا، إن النساء منصرفات لتوهن تاركات الرجال في الفراش في غمرة الشهوة. يقولون إن النساء قد أعلن الحداد بسبب مشكلة باروكينيا وقد أصابهن مسّ ما..". كانت تتكلم بانفعال وبصوت مرتجف وحركات عصبية.
- وانتقلت عينا فافا مثقلتين بالحذر من النظر إلى غريتا غاربو لتحققا في تريزا، فهو يرى في كل مكان يحيط به خيانة وتزويراً:
- ابقِ هنا، سأعود في الحال.
- وبسرعة توجه بالكرسي الطبي إلى غرفة الانتظار ترافقه غريتا غاربو:
- ما هذا، بحق الشيطان؟ إلى أين يذهبن؟
- وتبرعت بعض النساء بالتفسير: لقد أعلن الحداد ولن يعدن إلى العمل من جديد قبل أن تعود نساء باروكينيا إلى بيوتهن.
- "هل أنتن مجنونات؟ ارجعن، هيا. هناك زبائن ينتظرون". لم يطعنه، ثم هبطن الدرج كزمرة من الطلاب أهملوا صفوفهم. ووجه فافا الكرسي الطبي إلى الغرفة فسأله غريتا غاربو:
- هل ترى يا فافا أنه يجب أن أعلن الحداد؟ أو أبقى خارج هذه اللعبة؟
- اغربي عن وجهي!
- ثم حذج تريزا بعينين غريبتين وانفجر بالكلام:
- "كل هذا خرج من رأسك أليس كذلك؟ أنت من اخترع هذا الكرنفال"
- وأشار إليها بإصبعه مهدداً.

- ماذا تعني؟ عن أي كرنفال تتحدث؟

التعبير عن المفاجأة، والعينان الصافيتان الصريحتان، والوجه الهادئ قد قلبت كلها قناعة فافا... هل تكون تريزا مزورة وخبيثة إلى هذا الحد أو أنها لا تعرف شيئاً عن الموضوع؟ ثم أخبرها بجنون النساء والحداد المعلن، فالتمع وجه تريزا لسماع ما يقول... لم تتركه يكمل فنهضت:

- سآتي فيما بعد لأخذ الجواب.

وهبطت مهرولة إلى الشارع.

للمرة الأولى منذ سنوات طويلة لم ينشط في السوق العمومية وفي تلك الساعة بالذات اللهاث الكثيف وفنون ممارسة الشبق؛ ووسط ذلك الهدوء الثقيل كانت غريتا غاربو مترددة وهي تقلّم أظافرها وتهذبها متسائلة: هل يجب أن تلتحق أم لا؟ في غرفة فافا كان الأب ناتيفيدادي يجهز الأبواق السحرية ليفك اللغز، ووقف أماديو مستري جيكي مسنداً ظهره إلى الحائط. وتكلم فافا الحائر في أمره محدداً الوضع المتأزم:

- لقد أرسلت في طلبك يا أبي لأن الأمور أصبحت بشعة حولي وأريد أن تسدي إلى النصيحة.

إنه يريد أن يستوضح سبباً من الشكوك ولم يجد نفسه يوماً مضطراً إلى المساعدة كما هو الآن، إذا أرادت الشرطة أن تنقل فتيات حي ماسيال إلى محلة بيلار وتهدم المكان الحالي، فهل يجب أن يطيع كما هي عادته، أو أنه يجب أن يعمل بنصيحة الصبية الجميلة ويرفض الانصياع؟ هل عليه أن يستضيف فتيات محلة باروكينيا؟ وهل عليه أن يخزن هنا في الغرفة كمية الحشيش التي يريد أن يستودعه إياها رجل الأمن، أم أن القبول بالأمر الواقع مجازفة كبيرة؟ وفوق كل هذا تدور أحداث الحداد المفتوح الذي أعلنته العاهرات وهن يرفضن الممارسة؟ "فماذا تقول في كل هذا يا شفيعي إيشو؟ كيف يجب التصرف؟ إني ضائع ولا أعرف شيئاً".

"وأخيراً حدثني عن الصبية هل هي مستقيمة أم مزورة وهل أستطيع أن أثق بها أو أنها قادرة على الخداع والخيانة؟ لقد ربيت في صدري الدافئ أفاعي كثيرة، فإذا كانت هذه الصبية سيئة فنجني منها وأبعدني عنها، ولكنها إذا كانت ودية بقدر ما هي رائعة فإني أسعد رجل في العالم".

حرك الأب ناتيفيدادي الأقداح ورمى بالأبواق. وأنشد بصوت خفيض:

"بارا أو بيبي

تيريري لوفان".

من أعلى قمة في الأرض حيث تقيم الصاعقة أجاب تيريري بفرح:

"إيشو تيريري

بارا أو بيبي

تيريري لوفان".

ابعدوا جميعاً عن الطريق، فايشو سيمرّ خلافاً للإله أوغون بيشي مانيو فإن
الإله إيشو تيريري غضوب وقوي، صديق الحركة، صديق الصخب، ومحرض على
اللغظ والفوضى.

وعادت الأقداح تقفز من يد الأب ناتيفيدادي، تتدحرج ثم تتكلم، "هنا لا
أريد مخدرات من أي نوع، فقط الكاشاسا والطعام"، وإذ أصبحت الأبواق أجساداً
حية في يد الساحر فإنها استمرت تجيب.

"أريد أن أرى الأسواق العمومية مغلقة كلها، وسوق واحدة لا تبقى
مفتوحة، وأريد أن أرى الرجال مدججين بالسلاح وليس لديهم مكان يفرغون فيه
الرغبة والنزق، وإذا كانت هناك ضجة ودم مراق فلا يهم، ومن حي ماسييل لا
ينتقل أحد لأن الإله إيشو لا يسمح بذلك... لا من حي ماسييل ولا من أي مكان
لأن الأسواق العمومية قد أغلقت وأعلن فيها الحداد إلى أن تكف الشرطة عن
اضطهاد الشعب؛ من أمر بإغلاق الأسواق وإعلان الحداد هو أنا إيشو ولا أحد
آخر".

وقرأ والد القديس الأب ناتيفيدادي في أبواق العقاب الأزلي: "الويل للفتاة
التي تستقبل رجلاً قبل أن تصدح الهاليلويا في باروكينيا، الويل لصاحبة المنزل
ولصاحب سوق البغاء ولصاحبة بيت العزّاب إذا أبقى أحدهم الباب مفتوحاً وأراد
أن ينتهك إعلان الحداد.

الفتاة تصبح مستهدلة ينهشها المرض، يأكلها السفلس، عمياء، معقدة،
وجرباء... أما القواد أو القوادة فيموت قبل أن ينقضي شهر واحد، وموتاً شنيعاً
يموت وتنهشه الأوجاع".

"وماذا قلت لي عن الصبية؟ اسمها تريزا باتيستا، أريد أن أعرف إذا كانت مستقيمة أو أنها تنطوي على السوء والخبث طي هذا الجمال الرائع".
إيشو تيريري أمره بالصمت: "لكي تلفظ اسم تريزا فاغسل فمك أولاً... لا يوجد شخص أكثر استقامة منها، لا هنا ولا في أي مكان من هذا العالم. ولكن تراجع ما دام لديك الوقت فهي ليست مكتوبة لك... في صدرها خنجر مخفور وتريزا تائهة في البحر".

- مرضى أم وجع حب؟

- إن وجع الحب مرض قاتل.

- ولكنّ لوجع الحب علاجاً... لم يعيش أحد بقدر ما عاش فافا وزمن قد عاشه في الأسواق العمومية هو زمن مضاعف أضعافاً.
ولكسي يجري كل شيء على ما يرام، فإن الإله إيشو يطلب ضحية عاجلاً
واثنى عشرة دجاجة سوداء. ثم، أمر أن يبعد الجميع عن الطريق لأنه ذاهب لتوه:
"بارا أو بيسي تيريري لوفان".

"أرسل تحياتي إلى الصبية وإني حارس خطاها. والويل لمن لا تعلن الحداد. ومن أعلى القمة حيث تقيم الصاعقة توعد مرة أخيرة: والويل لها!"
الويل لها! صلاة ترددها فتيات المنطقة كلها، من باروكينيا إلى كارمو، ومن ماسيل إلى تاباه ومن بيلورينيرو إلى لاديرا دا مونتانيا.. من بيت إلى بيت ومن غرفة إلى غرفة، ومن فم إلى فم.
"الويل لها!" تهديد يطلقه فافا والسيدة باولينا دي سوزا والعجوز أكاسيا الأسيرة في السجن.

"الويل لها!" صوت إيشو في كل منعطفات المنطقة، إيشو سيد جميع الطرقات، وصاحب كل الأسواق العمومية ومالك المفتاح.

* * *

استيقظ مدير عام شرطة هيليو كوتياس مبكراً وكان له حديث طويل مع عم زوجته، أخسبره فيه مستشعراً بالظفر والاعتزاز بالنفس إن الانتقال قد تمّ عملياً وأصبحت محستويات الدور السكنية في محلة لاديرا دو باكاليو. وغدت المساكن مقفلة، فقد كانت معركة وكان عليه أن يضرب بيد من حديد. مسكين مدير عام

الشرطة إذ إن قريبه قد صدمه بقوله إن ليس من سبب لهذا الاعتزاز وليس هناك من ظفر في كل ما حدث.

لقد كان من الأفضل لو أن النساء انتقلن بهدوء، ودون فضيحة، ودون مهزلة ودون أخبار في الصحف أو مقابلات صحفية بلهاء. هذا ولا تتكلمن عن لقطة شاحنة الشرطة المحملة بمحتويات البيوت وبتعليق العجوز المتذمر الذي لا يرضيه شيء.

في الصفحات المخصصة لنشاطات رجال الشرطة، فإن الصحف قامت بالهجوم اللازم على أحداث باروكينيا. "أزمة عنيفة في سوق البغاء، لقد بدأ نقل المنطقة بالضرب بالهراوات"، "شاحنات الشرطة تنقل المتشردات إلى باكاليو..." هذه كانت بعض العناوين الرئيسية والثانوية للتحقيقات الصحفية، وأحدها تزيينه صورة الشاحنة الرسمية محملة بالأطمار المسحوبة من بيوت الدعارة... أما عن الضرب بالهراوات فلم تكن هناك أية لقطة، إذ كان هناك فقط مصور صحفي واحد هو الملتحي ريفو وقد صادف وجوده هناك أثناء العراك وفي الوقت الذي كان يجب البدء بتوثيق بطولة رجال الشرطة المناضلين ضد النساء وقد أخفضوا أذرعهم وهراواتهم وأعقاب مسدساتهم.. أخذوا منه آلة التصوير وأتلفوا الفيلم وأخذوه شبه أسير.... إن حراس المناقب والأخلاق المباركين هم قوم متواضعون ولا تعنيهم مسألة رؤية أنفسهم في الصحف وهم يقومون بضروب الشجاعة ويأتون الأبحاد بوفاء للقضية العامة، ويفضلون على كل ذلك صوراً عادية بسيطة مأخوذة في مديرية الأمن العامة.

صور كتلك الخاصة بمدير عام الشرطة كوتياس وهو يتسم ويقول في مقابلة مع مجموعة من الصحفيين الموثوقين: "إننا ننظف مركز المدينة من وباء سوق البغاء جاعلين حملة الصحافة الوطنية حقيقة قائمة. لقد بدأنا بمنطقة باروكينيا وسنتابع الحملة دون هوادة".

- ولن يبقى بيت دعارة واحد في منطقة البغاء كلها.

تصريح ذو قيمة أدبية وممدنية رفيعة المستوى وجديرة بالثناء والتصفيق. ومع كل ذلك فإن اللاهواة وتأمين النظافة المرتقبة، والتي تكاد تبدأ، قد شاعت أخبارها لتقوي مساندة القوادين والقوادات، ولحركة إعلان الحداد وإقبال النساء مطارحن على الرجال.

من جهة ثانية لم يكن كل ما قاله جنتلمن الشرطة للمحترفين الصحفيين مستحسنًا. فإن المعلق جيوفا دي كارفاليو الذي يؤيد قضية الفتيات والقليل الاعتبار لرجال التحري، قد انتقد بشدة عنف تصرف الشرطة. وهازئاً في نهاية التعليق في زاويته الشهيرة من أن تحويل سوق النساء من باروكينيا إلى لاديرا دو باكاليو كان جزءاً من الحملة الإعلامية السياحية في المنطقة الواسعة التي كان مصيرها سيؤول إلى أن تكون جنة لزوار المدينة على وفق ما أعلن عنه بشكل واسع، ولم يكن الشاعر جيوفا بقادر على أن يكون أكثر وضوحاً فقال: "إن الصحف كما تعلم جيداً، تعيش من المال المدفوع لها وليس من عائدات مبيعاتها". وبينما تنظر إلى وضع مدير عام الشرطة الرجولي في الصحيفة الصباحية، فإن زوجته كارمن التي ولدت وهي تحمل لقب سردينيا وظلت محافظة على خلقها السرديني علقت بعصبية:

- رجولي، أليس كذلك؟ ملك العاهرات يعاقب مطيعاته! إن الشرطة تفيده جيداً، فيا صغيري هيليو، ها أنت تنقلب رجلاً الآن.

على كل حال وعلى الرغم من التفاصيل الكثيرة المزعجة فإن مدير الشرطة بدا راضياً عن تصرفات مساء أمس... أما عشيقته بادا وقد قرأت الصحف، فإنها بدت متأثرة وهي تتكلم بالهاتف: "يا بطلي! هل تعرضت للخطر؟ أخبرني اليوم مساءً بكل شيء؟ في المكان المتفق عليه عند الرابعة؟ نابوليوني أنت".

* * *

حوالي الحادية عشرة صباحاً ترجل مدير عام الشرطة هيليو كوتياس من السيارة ودخل مديرية الملاهي والمحافظة على التقاليد، وأمر بالجيء بالفتيات الموقوفات في النظارة.

كان قد تم تأديب الرجال عند الفجر بين اعتراضات ومدافعات، ومنهم اثنان كانا قد سجنا وهما يرتديان سروالين داخليين فقط، وقد تلقى المسجونون من الرجال بعض التأديب حتى لا يعيقوا في المستقبل عمل الشرطة. بعض الصفعات مسألة بسيطة.

أما الضرب المبرح المتكرر فقد استحقته الزنجية دومنغاس التي خاضت المعركة برجولة خلال اللغط الذي توجه به رجال الأمن... لقد عجنها الضرب عجنًا، وغدت

هيئتها الجميلة والمغرية عجينة بشعة منفوخة، أما ماريا بيتسكو وهي تبصق في وجه الموركوكا وتعضه فقد أثارت شهية التحري الأنيق، وعند منتصف الليل فإن حارس الأخلاق العامة غزا السجن وهو مستعد أن يعتدي جنسياً على الفتاة، هناك بالذات، وعلى مرأى من الآخرين؛ وفي ليلة الرعب بين المعاقبات والشتائم فإن مشهد الحارس المخدر وهو يريد أن ينال من ماريا بيتسكو ويرميها أرضاً أمام الموجودين، جعل الآخرين من رجال الأمن يضحكون وهم يحيون البطل. ثم تعبوا وعادوا به من هناك.

كما يمكن ملاحظته بسهولة، وبنظر مساعديه، فإن مدير عام الشرطة قد أفلح في القيام بمهمته وتحمل مسؤوليته، ومع ذلك فإن رؤية الزنجية دومنغاس قد سببت له بعض الإحراج... إن جلد الفتاة الغامق يحمل علامات واضحة وانتفاخات كثيرة. واحدة من عينيها مغلقة، والفم متورم، وبالكاد تستطيع أن تقف على رجليها، وباحتقار واجه المفوض لاباو نظرة المدير العام المترددة! إنه عمل رجال وليس عمل مخنثين.

- "مخلوقة سيئة، بنت شارع. لقد اعتدت في السجن على الجميع وكان الحل بإعطائها أمثلة، ولولا ذلك لما استطاع أحد أن يخلد إلى النوم" أوضح المفوض ذلك وأضاف:

- ليس ممكناً الشفقة على همجية كهذه.

وقرّر مدير عام الشرطة في قرارة نفسه أنه من الضروري الاعتياد على عدم الشعور بالأسف، وهذه الهمجية لا تستحق الحزن.

القرار لا يفيد شيئاً ولأن معدته ضعيفة أمر بإطلاق سراح الفتيات، ولم يبق سوى صاحبات الدور فراح يستعرضهن الواحدة إثر الأخرى، وفي الحين نفسه يحاول أن يكون صلباً وأبويّاً.

- إذا لم تنتقلن بالحسنى فستعلن عنوة، بماذا يفيدكن الامتناع؟ من كانت منكن مستعدة للخروج مباشرة لتكمل الانتقال إلى المكان الجديد فلتتقدم خطوة إلى الأمام وسأعطي الأمر بإطلاق سراحها فوراً.

وما كادت ميرابيل تتحرك حتى سمع صوت العجوز أكاسيا:

- إننا لن نتقل. وحتى لو متنا في السجن فليس بيننا من تقبل بأن تتعفن في تلك المزبلة المخصصة لنا.

وفقد مدير عام الشرطة الرقابة الذاتية على نفسه، فضرب الطاولة بقبضة يده ووضع إصبعه في وجه العجوز وغدا رجولياً كما قالت كارمن كوتياس المولودة سردينيا:

- إذا ستتغن هنا؛ أيها المفوض أعدهن إلى السجن.

المفوض وهو بمزاج جيد يقترح:

- عدة دزينات من الحلوى لكل واحدة منهن، عند الغداء وعند العشاء، مكان الطعام، إنه ريجيم جيد وسيرغن على الانتقال قريباً، وسيرى الأستاذ. ودون أن يستأذن، وهو في قمة الفرحة، وقف بيشي كاساو عند باب النظارة وهو يفرك يديه:

- إن سفن الأسطول الأميركي قد وصلت إلى إيتابوا. ستمطر دولارات.

لشدة فرحه، بسبب النبأ المرتقب، ذهب المفوض في عجلة من أمره وقد نسي أن يعطي أمر النظارة أمراً بضرب كل قوادة دزينة من المساطر قبل زوم الحساء والخبز المبلل، وذلك عند الظهر وعند المساء ولم يكن بيشي كاساو دائم الاستقامة في تنفيذ الواجب، وهكذا فإن الممتنعات عن الانتقال قد تخلصن من العلاج ليهزلن ويصبحن رشيقات. وبينما يمرون باتجاه النظارة أيقظوا التحري دالمو كوكا غارسيا. ومهتزاً، فإن الأنيق سمع النبأ. "في إيتابوا شوهده الأسطول الأميركي والسفن تتجه إلى مرفأ باهيا محملة بالدولارات، يا رفيقي، والتبادل مؤات جداً ثلاث مرشدين سياحيين لبحارة ومدفعي الأسطول البحري لأمة الشمال الأميركي العظيمة والذين يشرف وجودهم المدينة". فعسى أن يجدوا في باهيا نساء جميلات وخبيرات ماهرات ومطلقات محبوبات؛ وحرصاً على سلامة المقاتلين الواصلين الذين لا يقهرون فإن قوات الأمن القومي ستواكب تحركاتهم متمثلة بأبطالنا الثلاثة. أجل إنهم أبطال أيضاً هم الثلاثة... ومع كون الواصلين أبطالاً فإنهم متواضعون وهم يدافعون عن الحضارة الغربية بلا تعب أو ملل وذلك ضد الشعارات الحمراء والصفراء واللاأخلاقية والإرهاب والتخريب.

"مساء أمس لم يستطع كامويس أن يقوم بما هو متفق عليه بسبب مصاعب غير مرتقبة اعترضت إمكانية إيصال كمية الحشيش. لقد عيّن موعداً آخر للقيام بهذا العمل مساء اليوم. وعسى أن ينجح في مهمته! أما في حال محاولته القيام بأي

عمل خياني فإننا سنفتح ملفه من جديد ونطبق القانون في القضية المحالة على الحفظ.

اذهب وفتش عنه يا زميلي، يا شريكى، يا رفيقى، وانبش مكان هذا الشخص وانتشل الحشيشة المقدسة من مكانها، لأنه لن تسنح لنا فرصة أخرى كهذه في القريب العاجل لنربح بعض المال اليسير".

وكما هي الحال في التنظيمات الإدارية المتبعة في إدارة الشركات الحديثة، فإن الشركاء الثلاثة قد وزعوا المسؤوليات والمهام في ما بينهم. وتعود للمفوض لاباو الشريك الأكبر والرئيس المهاب، مهمة التخطيط العام وتأمين الاحتياجات الضرورية.

واتفق مع بائعي المفرق وزعماء الشوارع في المنطقة على توزيع جرعات الهلوسة وسجائر الحشيش. "كم من البائعين؟" "ستعرف عددهم هناك، جموع حقيقية منتشرة في كل المنطقة لتعرض وتستبدل المواد المخدرة بالدولارات". وتم درس الموضوع من جوانبه كافة إلى حد أن البائعين قد تعلموا تردد جمل باللغة الإنكليزية، واتخذت احتياطات أمن لمنع السرقة أو التفريط بالمادة المخدرة والحشيش.. وفي الحقيقة فإن ما يكفل شرف البائعين هو الخوف من المفوض الذي بمجرد لفظ اسمه لاباو أوليفيرا، فإن الأرجل تصطك على الرغم من أن مظهره لا يشير إلى أية عدائية. ومع المفوض لا يتجرأ أحد على المزاح في أثناء الخدمة.

إنه عقل مدبر ومالي باهر، لقد حصل من المرايين المعروفين على كمية المال اللازمة لتمويل العملية، كما قال لرجل الأمن والتحري وهو يقوم بعمل الحسابات ويشير إلى الفوائد المرتفعة التي يجب أن يدفعها إلى المرايين وانتهى إلى القول إنه في الحقيقة، قد وضع من جيبه الخاص المبلغ الضروري الباقي ليوفر على رفيقه بعض المال.

في ذلك الصباح لم يخرج من المخفر. وقد أرسل حراساً يثق بهم يفتشون عن المسؤولين وعن بائعي المفرق وعن مسؤولي الشوارع؛ لقد أتى اليوم العظيم!

في وكر من أوكار تابواو كان المفتش نيكولاي رامادا جونيور المشهور ببيشي كاساو يناقش الأعمال مع عارون مادروغا أحد كيميائي برنامجو المشهورين. وانتهى بأن دفع له نصف المبلغ المتفق عليه لتزويده بخمسمائة جرعة من المخدر المعروف بكاسيتي ريجو المركب كيميائياً بطريقة لا تضاهى وان دوز فايف فاكس.

إنه عالم صاحب امتيازات ومعروف جداً في منطقة الداخل وبعض العواصم، فإنه من كان يقوم بالتحليلات للدكتورين الزوجين دورس وبارلو اللذين يليق الواحد منهما بالآخر، وكان مادروغا يقضي الصباح وهو يجمع كميات البول والبراز والدم من الزبائن، وعند العصر يعيد التحليلات ويجبي الأجور! وكان بالإضافة إلى ذلك يقضي وقت فراغه وهو يتأمل في المواد تتأكسد وتمتزج داخل قناني الزجاج، وفي أنابيب المختبر، يشبع أنفاسه بالروائح القوية، وينظر بمتعة إلى الألوان الغريبة والدخان الأزرق، فيا لها من أمور جميلة!! وبعد ذلك تعلم المصطلحات والمعادلات.

وإذ فقد القناعة فجأة، فإنه لم يمكس نفسه من حين لآخر عن الاحتفاظ بمبلغ إضافي دفع له بدل تحليل البول، ولكنه ما كاد يسلك طريق الاحتيال حتى افتضح أمره وأقيل من وظيفته.. وتظاهر بالحزن لأنه كان يقدر سيدي عمله الطيبين. وفي الوقت نفسه انتبه إلى أنه أصبح مؤهلاً في الكيمياء والصيدلة والطب شرط أن يمارس هذه الأمور في خدمة الإنسانية، ومن الأوضح القول: فقد مارس في بعض المناسبات الطب البيطري ولم يكن سيئاً في ذلك... وانتزع أنياب خنزير هنا وحدوة حصان هناك...

وذاع صيت بعض المواد الكيماوية التي ركبها عارون على شكل أدوية في الأوساط الريفية الشعبية، وبعض نواحي منطقة الشمال الشرقي حيث بيعت في الأسواق الشعبية والمعارض الأسبوعية... وروج لدواء أطلق عليه اسم لافابيتو الفعّال ضد السعال والتهاب الرئتين والقضاء على الجراثيم، وقد شاع في تلك الأوساط أنه شفى الكثيرين من المصابين بالسسل المزمن في منطقة الأغواس. أما دواء مارافيليا دو كايبيريبي فإنه ينظف الجسم ويشفيه من أي نوع من الالتهابات بما في ذلك السرطان والجرب!

أما الدواء المعطر فلور دي ماغوليا فإنه يجعل الشعر أكثر كثافة حسبما تؤكد بعض الصور التي تظهر الشعر قبل الاستعمال وبعده. وعند انتهاء زجاجة الدواء فإن الزبون إذا لم يصبح شعره كلبدة الأسد، فإنه يعيدها إلى مخترعها ويستعيد ماله. وحدث أن أحداً لم يطالب بذلك. "اختر لون شعرك باللون الذي تحب، اشتر جذور شعر أشقر أو أسود أو كستنائي أو رمادي أو أزرق أو أخضر وكيفما تريد شعرك أن يكون، الشعر الأخضر دارج في أوساط البذررات الرقيقة".

أما ما هو متعلق بالمخدر كاسيتي ريجو فهو، كما هو معلوم: هلوسة رائعة... وحسب رواية مخترعه عارون مادروغا في حديثه وهو يقدم المادة العجيبة إلى زبائنه، أخبرهم أن عجوزاً عمره مائة سنة بعد أن تناول جرعة منه نهض من فراش الموت وفضّ عذرية فتاة وقام بأربع ممارسات وفي الخامسة جعلها تحمل بتوأمين. ومات سعيداً من فرحته.

أما العبارة المكتوبة بحروف حمراء على زجاجة المخدر أفرديزياك: "وان دوز فايف فاكس"، فهي من وضع مادروغا أمّا ترجمتها فتبقى على التحري كوكا معلم بائعي المفرق الذين تعلموا منه أيضاً كيف ينالون دولاراً واحداً بدل كل أنبوبة مخدر، ولكن مسؤولي الشوارع لم يكن من الضروري أن يعلمهم كوكا شيئاً فهم يتكلمون كل اللغات ويضحكون ملء أفواههم، إنهم سادة شوارع باهيا الذين ستبقى ذكراهم خالدة. بعد قليل أرسل المفوض لا باو في طلب البضاعة لأن السفن الأميركية أصبحت على مرأى من منارة إيتابوا كما أخبر بيشي كاساو الكيميائي مادروغا.

- هل سيصلون اليوم؟

- لقد وصلوا تقريباً.

- هل ستفتح النساء أبوابهن الموصدة؟

- ما هذه الرواية التي تقولها؟

فأخبره مادروغا أنه مساء أمس ذهب إلى منطقة البغاء بغية التمتع ولكنه مع ذلك ظلّ متعباً. النزل وبيوت العزّاب فارغة، والغرف مقفلة والأبواب موصدة.. ثم دخل في بار فلوري دي ساوميجيل وكانت الصالة مليئة وصاخبة. على الطاولات نساء عديدات من صاحبات المهنة، ولكن واحدة منهن لم تقبل به، وأخبرته أن المقودة مضرّبة عن العمل إلى أن تعود فتيات باروكينيا إلى بيوتهن.

لم يعط بيشي كاساو أية أهمية للحدث: يكفي الشرطة أن تعتقل وتؤدب بنات الشارع كما حدث في باروكينيا، حتى تتعلم المشرذات الأخريات كيف يتجمعن في الحانات كي يشربن ويشتمن. وفجأة اعترت بيشي كاساو الدهشة عندما أصغى إلى كارون مادروغا يتكلم عن إحدى الفتيات التي بدت أكثر هيجاناً ولكنها جميلة جميلة، سبحان الخالق!.. اسمها تريزا باتيستا وتلقب هناك بتريزا ذات الرفسة على الخصيتين.

عندما سمع بيشي كاساو بهذا الاسم احتقن حقداً وانتفخت أوداجه:

- أمس تمكنت هذه الملعونة من الإفلات من يدي، وحتى الآن لا أعرف كيف هربت؟ حتى إن الأمر بدا كأنه شيء من السحر. ولكنها لن تلبث أن تدفع الثمن وستدفعه في الحال. لقد كان جيداً أن أعرف أنها منطلقة في تحريض العاهرات ضدنا، يا لها من عاهرة!

في الحادي والعشرين من شهر أيلول ذاك كان العنوان الكبير في صحيفة المساء يعلن إلى جميع سكان باهيا:
"المدينة في عيد، الربيع ورجال البحرية".

في بار فلوري دي ساوميغيل، عند المساء، وقبل بلوغ نبأ غزو رجال شرطة مديرية الملاهي والمحافظة على التقاليد لمحة باروكينيا، وقبل أن تندلع صرخة حرب نيليا كباريه، وقبل أن يلقي إيشو تيريري موعظته، كان الشاب خليل شماس يتحدث بكلمات ملهبة عن الضجة لدى المنسحقين المقلدين للعادات الأوروبية والمحتفلين بوصول الربيع وسط أمطار أيلول:

- ما عاد ينقصهم سوى ارتداء معاطف الفرو، والاصطكاك برداً. سترون غداً الطلاب صفوفاً طويلة ليعلنوا أن الربيع قد قرع أبوابهم، إنه استعمار حقيقي... سينالون ما يستحقون إذا أمطرت دون توقف.

بالإضافة إلى كونه طالباً في العلوم الاجتماعية في كلية الفلسفة، وأمين صندوق محل التحف القديمة الذي يملكه أبوه في شارع روي باربوزا، ومصمماً هاوياً يحلم بصالات العرض والنجاح والشهرة، ووطنياً صلباً، فإن خليل شماس هو العشيق الغيور لأناليا الناعمة... وإلى طاولة البار كان ثائراً ضد الاستيراد التافه للتقاليد الغربية التي لا معنى لها في البرازيل. ففي البلاد المدارية هناك ستة أشهر في العام من الأمطار وستة أشهر حارة والكلام عن الربيع والخريف مسألة تستدعي السخرية. "السخرية!" ووقف مشيراً بإصبعه مكماً إعطاء الصورة عن التعجب:

- "هنا يسود الربيع الدائم..." أجاب توم ليغيو الممثل المسرحي الذي يفتش عن دور لإظهار موهبته مستفيداً من المناسبة ليبدل من موجات صوته.

عند آخر الليل تنحل حلقة البوهيميين، فيذهب البعض لينخلدوا إلى النوم، ويتوجه البعض الآخر إلى أماكن النساء العمومية حيث، بعد يوم من العمل، فإن الفتيات ينتظرن ساعة وصول عشاقهن وأصحابهن.

ولكن في ليلة إعلان الحرب تركت أناليا الوظيفة قبل ساعة وهي ترافق زميلاتهما. وذهبت مع خليل تجوب المنطقة وتعلن عن إضراب النساء عن العمل وإقفالهن أنفسهن على الرجال، وكانت أناليا فرحة تضرب بكفيها:

- مع هذه الحكاية عن إقفال السوق العمومية سأستطيع غداً أن أشاهد استعراض الطلاب في عيد الربيع... منذ زمن لم أشاهده. هل تعرف أنني اشتركت في استعراض الطلاب في أشتانسيا؟

- إنك متخلفة!

- يا عزيزي ماذا فعلت بالمبادئ والقناعات؟

- نذهب معاً... سيكون يوماً جميلاً.

العنوان الكبير في جريدة المساء يشغل المساحة العليا من الصفحة الأولى. وللتعبير عن الحقيقة كاملة فإن رئيس التحرير قد أعاد صياغة العنوان: المدينة في عيد، الربيع ورجال البحارة والفتيات.

ترك التحري دالمو غارسيا زميله ينتظران في سيارة بويك قديمة هي ملك أحدهما، والذي يعرف في أوساط الهامشين بكامويس فوماسا، وصعد مسرعاً الدرجات المؤدية إلى باب السوق العمومية ليدفئ نفسه قليلاً؛ الباب مقفل، ذلك الباب مفتوح دائماً ابتداءً من الثالثة ظهراً هو الآن مغلق أمام جماهير الزبائن.

وقرع التحري الباب بيده وصاح ولكن لم يجبه أحد؛ أمام الباب الموصد انتبه دالمو كوكا إلى غياب النساء من محلة ماسييل، وعلى الرغم من أن الوقت ما يزال مبكراً فلا بد أن يكون هناك بعض المرح وبعض الأثداء المعروضة عبر النوافذ... لا شيء من كل هذا ولا يمكن مشاهدة فتاة هوى واحدة في أي مكان... إنها سوق بغاء مقفلة.. التحري دالمو كوكا غارسيا لا يفهم شيئاً مما يجري وضرب الباب مرة أخرى ونادى على فافا. لا جواب.

هبط السلم ودخل السيارة. أراد كامويس فوماسا أن يعرف:

- والآن؟

على الرغم من أنه برفقة خادم من خدام الأمن العام هو شرطي متخصص في حقل عمله، فإن كامويس لم يكن يحس بالأمان، ومنذ البدء، لعدم ثقته بدالمو لأن التحري لا أخلاق له وحتى إن كان يتعاطى المخدرات:

أين هو المال الموعود؟ التحري ما يزال عند وعده وسيحمل إليه مساء في الموعد المحدد المبلغ المتفق عليه، ولكنه جاء وليس معه فلساً واحداً إن السفن تكاد تصل فأين الأرنب؟ قال مسرعاً ومهدداً: "بسرعة إذا كنتما لا تريدان أن تدفعا الثمن غالياً"، أحس كامويس فوماسا بأنه لم يعد في وضع جيد:
- والآن؟

ردّد السؤال وهو يتوقّع الأسوأ.

- لا أعرف... لا أحد هنا والنساء اختفين، أين يمكن أن يكنّ؟

كامويس فوماسا ازداد اشمئزازاً وأمر شريكه:

- لنذهب من هنا...

جلس التحري دالمو وهو يردد مختاراً:

- بحق الشيطان أين هن النساء؟

بقي بعضهن في النزول مستفيدات من الفرصة لترميم الفساتين أو لكتابة الرسائل إلى أهلهن، رسائل مليئة بالكاذيب. أو ببساطة لأخذ قسط من الراحة، وضمن حدود سوق البغاء وفي فراش النزول أو بيت العزّاب أو السوق العمومية ولإشعار آخر، يمنع على أية فتاة أن تستقبل زبوناً أو عشيقاً، من أرادت أن تستقبل عشيقها فلتفعل في الشارع وبعيداً عن المنطقة، ومن يجرؤ على خرق اتفاق مساء الأمس، من يتجرأ؟ لقد هدد الإله إيشو بالمرض والموت والعمى والجرب والأمراض الزهرية.

أما الفتيات اللواتي كنّ قد أطلق سراحهن صباحاً من السجن، فقد حاولن العودة إلى بيوتهن المغزوة، فإما للاستمرار بالسكن فيها أو لأخذ الملابس والأشياء الشخصية. لكن الحراس المكلفين بحماية محلة باروكينيا لم يسمحوا لهن بالدخول، ففتشن عن ملجأ لهن في بعض النزول المعروفة، وفقط السيدة باولينا دي سوزا استقبلت اثنتي عشرة منهن بمقدار أربعة في كل غرفة... ووضعت السيدة يدها في حقيبتها وأرادت أن ترسل الزنجية دومنغاس إلى سان غونزالو دوس كامبوس.

- "إنك بحاجة إلى عدة أيام من الراحة يا صغيرة. لقد أسأؤوا معاملتك".

ولكن الزنجية لم تقبل بشيء من كل ذلك ورفضت مبارحة باهيا في تلك الساعة.

وقررت الأكثرية القيام بنزهة وامتألت المدينة ضحكاً وفرحاً ونعمة. وظهرت هناك موظفات وتاجرات وطالبات وربات بيوت وأمهات عاملات في إجازة... للقيام بالمشتريات، وحضور حفلات سينمائية أثناء النهار، ونزهات في الأحياء البعيدة زرافات وأزواجاً، أذرعاً متشابكة وكميات من الفتيات اللطيفات والصبايا الملتزمات والسيدات الجديات الهادئات...

وذهبت بعض الفتيات يزرن أولادهن الموكولين إلى الغرباء. أمهات طيبات يقدن أطفالهن باليد أو بالحزام ويفككن أقمطتهم ويملأهم مرطبات وحلويات، ويكسينهم قبلاً وعطفاً.

وكذلك بعض النساء المسنات ظهرن للاحتفال بالربيع. إنهن ليوم واحد معتوقات من واجبات الماكياج المرعب التي ترمي إلى إخفاء الأخاديد والتجاعيد في نضال غير مجد للحصول على زبون ما، إنهن لسن سوى تعبات مسنات.

ولم يكن من المألوف مشاهدة الفتيات وهن يشغلن المدينة بكاملها في عيد نادر كهذا، يركضن حافيات على الشواطئ أو يجلسن على أعشاب الحدائق أو هن في حديقة الحيوانات أمام الحيوانات البرية أو الطيور أو القروود أو في زيارة إلى كنيسة بونفين يتبركن بالقديس العجائبي.

أما اللواتي كن في أعلى القمة يتأملن في خليج باهيا، فقد استطعن أن يشاهدن حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ثلاث سفن حربية تجتاز مدخل الميناء.

قبل الساعة السادسة بقليل استقبل السيد المحافظ في قصر المحافظة قائد السفن الحربية الأميركية الشمالية التي ترسو في عرض الميناء. وبينما ترافقه قيادة الأركان العامة، فإن الأميرال راح يتبادل مع رئيس الحكومة الإطراءات ودعا الأخير إلى زيارة القيادة في اليوم التالي والغداء مع الضباط.

ولمعت عدسات التصوير، وبينما المصورون يقفزون من مكان لآخر، كان المحتفلون بعضهم ببعض من الرسميين يفتعلون الابتسامات والمجاملات.. ثم أعلم الأميرال قادة السفن بأن رجال البحرية قد حصلوا على الإذن بالمجيء ليلاً إلى المدينة: إنها الساعة المناسبة.

في نشرة أخبار الساعة من محطة أبايتي، الإذاعة الأكثر فعالية، والتي لها أكبر عدد من المستمعين، أذيع تحقيق عن السفن الحربية الأميركية الشمالية الراسية في

المرفأ "النبا الدافئ من إذاعة أبايتي" "بينما يقع الحادث يكون مذاعاً في أبايتي". إن "ميكروفون أبايتي هو المسموع في التاريخ"؛ كان يردد المذيعون هذه العبارات طيلة مدة برامج الإذاعة. أما المزارحون في المحطات الإذاعية الأخرى فكانوا يعلقون: "إذا لم يكن من حدث فإن أبايتي تخترع الأحداث".

وبعد وصف الزيارة التي قام بها كبار الضباط إلى المحافظة وإذاعة العبارات المتبادلة والدعوات الموجهة، فإن الإذاعة وصفت بالتفصيل الدقيق أسماء السفن الثلاث وتاريخ صنعها وعدد الضباط ورجال البحرية والمدافع وقدرة القذف والسرعة ومهمات الضباط في مراكز القيادة وكامل المعطيات الأخرى. لقد كان قسم التوثيق والدراسات مرة أخرى على مستوى تقاليد محطة الإذاعة.

وانتهى التحقيق الإذاعي مستنتجاً ومُعلماً جماهير المستمعين بأن رجال البحرية سيهبطون إلى اليابسة عند بداية الليل، ولم تعين الساعة المحددة لذلك بعد ولكن ربما يكون الهبوط إلى اليابسة حوالى الثامنة.

نُباً أخيراً ومثير للفضول متعلق بطريقة ما بزيارة رجال البحرية الأميركيين: "اعتراضاً على عملية تحويل منطقة سوق البغاء التي ابتدأت مساء أمس بتدخل الشرطة بعنف في محلة باروكينيا، فإن النساء العموميات قد قررن عدم ممارسة الجنس ما دامت زميلاتهن غير قادرات على العودة إلى منازلهن التي طردن منها وما دام التهديد بالانتقال قائماً".

حوالى الساعة الخامسة، وفي حين كانت بادا تأخذ حماماً سريعاً لتنظيف نفسها من العرق اللزج بعد منتصف نهار حار، فإن مدير عام الشرطة كوتياس، جنتلمن الأمن، العشيق السعيد، فتح المذياع وأراح جسمه على أنغام الموسيقى. إنها راحة مستحقة بعد ساعة من التمرين العنيف: إن بادا النحيفة هي قطار من الأخطار، مجربة، أنثى شهوانية كيفما تعاملت معها. كان يقول لها من قبل: "يا تمثال تاناغرا، يا جوكوندا اللغز"، ولكن اليوم عندما كانت عارية بين ذراعيه فإنه همس في أذنها: "جوزيفين، جوزيفيني".

- لماذا جوزيفين؟ إنه اسم بشع، اسم عذراء.

- ألسنت نابوليونك، بونابارتك؟ ألم يكن هو متزوجاً من جوزيفينا؟

- أفضل أن أكون ماري أنطوانيت.

- إنه خطأ تاريخي، يا حبيبي، أجل، ماري...

- "ماذا يهمني؟" أقفلت فمه بقبلة.

لا جوزيفين ولا ماري أنطوانيت، ولو كان للمثقف كوتياس حيوية لقال لها الآن: ميسالينا.

كانت بادا امرأة غضوباً وعنيدة، وكان على مدير عام الشرطة أن يبذل جهده الأقصى ليبقى على مستوى الوضع، أما كارمن، الزوجة، فقد كانت ذات خلق هادئ، وعندما كانت تحس به مهتماً بامرأة، كانت تقول به باحتقار:

- انتبه إلى تصرفك ولا تكن بشعاً في سلوكك فتتركني في موضع هزء.

كان ذلك يزعجه ويجعل كل شيء صعباً، ولم يكن غرض كارمن من ذلك سوى هذا. مع بادا عرف معنى الراحة، إنها حلوب ولا تشبع، وكانت تريد أن تعرف عن خصائص منطقة البغاء وليس فقط عن أزمة الأعمال وعن عمل هيليو السبطولي، ولكن عن حياة العاهرات الشخصية أيضاً، كيف هن وكيف يتصرفن: "آه. إني راغبة جداً في زيارة سوق عمومية" تعض الشفتين، وترتمي عليه ثم تطلب متنهدة.

- نادني بيا عاهرة، عُنْفني، اضربي يا شرطيّ الخاص.

كانت الشقة تقع في أعلى محلة غامبويّا، وعبر النافذة الداخلية يقف مدير عام الشرطة. يسيل منه العرق ويدخن السيجار ويصغي إلى موسيقى أغنية إيطالية هادئة ويتأمل في السفن الثلاث الراسية في المرفأ.

قبل أن يأتي لملاقة بادا، فإن المثقف كوتياس وتأدية للواجب، كان قد مرّ بالنظارة حيث أخبره المفوض لا باو أن كل شيء منتظم: البحارة سينزلون إلى اليابسة مساءً أو ليلاً، وشرطة المنطقة متأهبة، والشرطة العسكرية تدعم الشرطة المدنية درءاً لأية حادثة قد تقع في الشارع، أما ما هو متعلق بالقوادات في باروكينيا فإنهم ما زلن مصرات على رفض تعليمات الانتقال من أمكنة إقامتهن. وما سيجعلنه مستجيبات هو عملية جلد مشبعة لكل منهن، وذلك عند الصباح، عندما تنتهي الحركة في المنطقة.. أما الآن فإنهن سينلن بعض الحلويات ويتعرضن لعملية التجويع. "قليلاً من الصبر، أستاذ، ووضيعات محلة باكايا سيتم تأجيرهن بسعر جيد"؛ ضحك المفوض لمدير عام الشرطة وهو يلقي عليه تينك العينين اللتين

لا شفقة فيهما، لأنه مجرم، فكر جنتلمن الشرطة: "ماذا يعني وهو يتكلم عن التأجير؟ من يعلم، لعل الشركة جعلت المفوض يفتح فمه للكلام عن هذا؟" في المذيع انقطعت الموسيقى فجأة وعلا صوت المذيع بعد الفاصل الموسيقي الإعلامي: "الانتباه، الانتباه الشديد".

في الفراش وغير مكترثة بطلب الانتباه. ارتمت بادا فوق هيليو. وأثناء القبلية الملتهبة سمع المثقف المذيع يعلن: "الوضع في سوق البغاء يقلق السلطات وإن إنزال جنود البحرية قد تم تأكيده في الساعة الثامنة في ميناء محلة كايرو، وحتى الآن ما زالت الأسواق العمومية مغلقة. المفوض لاباو أوليفيرا الموجود في حي ماسييل لتنفيذ الإجراءات المتخذة كان قد أكد لنا أن عودة الأمور إلى مجاريها الطبيعية ستتم قبل إنزال رجال البحرية الأميركية. إنهم لن يبقوا هناك لمشاهدة السفن، أكد لنا المفوض مضيفاً: أين سيقف الذين هم مصابيح حضارتنا إذا حدث شيء سخيّف كهذا؟ إن تدابير حازمة ستتخذ عملياً والشرطة تسيطر على الوضع. أصغوا إلى راديو باهيا الأول".

المثقف هيليو كوتياس جال بعينه وحاول أن يتخلص من بادا. ماذا يعني هذا النبأ، ولماذا يقلق وضع سوق البغاء السلطات؟ وعادت الموسيقى مع أغنية إيطالية حزينة. وتوسل مدير عام الشرطة: "لحظة واحدة يا حبيبي"، وراح يفتش عن محطة إذاعية أخرى فوجد أخيراً واحدة: "لم يكن هناك من تبديل لكن قوات الأمن قد ازدادت بوصول الخيالة، الإضراب في سوق البغاء مستمر، إن مندوبنا هو في طريقه إلى المكان، وخلال لحظات سنذيع عليكم مباشرة من حي ماسييل حيث تحتشد قوات الشرطة. ابقوا على أجهزكم مفتوحة على إذاعة أبايتي، ففي أية لحظة قد تعود إليكم بأنباء جديدة".

وهي محتارة من أمرها، أخذت بادا جهاز الراديو بعيداً... مدير عام الشرطة يريد أن يذهب لأن الواجب يدعوه. أغرته وحاولت لفت انتباهه ولكن لم يفد كل ذلك، فهيليو لا يستطيع الآن إذ ينقصه الوقت والقوة والإرادة ويكفي النظر إليه لمشاهدة الأمر. يجب أن يذهب إلى المديرية العامة ويبقى على مقربة من تطورات الأحداث ويتبين معنى تلك الأنباء المثيرة ويتحمل مسؤولية المركز الذي هو فيه، فهو لمثل هذه الأمور سمي الأستاذ المثقف مدير عام شرطة الملاهي والمحافظة على التقاليد.

- عليّ أن أخرج الآن وفي الحال يا حبيبي. اتركي رجاء.
إنه لا يعرف بادا ولا يستطيع أن يتكهن بحدود عنف شهوتها:
- خشن!

خرجت الكلمة من فمها وهوت عليه فتركها وانصرف: عاهرة ذات شهوة
أزلية. من الأرض يرتفع صوت المذيع ملعلعاً: "إننا نذيع عليكم مباشرة من
بيلورينيو. لقد قررت الشرطة فتح الأبواب بالقوة في الأسواق العمومية".
بين ذراعي خليل شماس وهي تضحك لكل شيء، فإن أناليا كانت تصفق
لصغار وصغيرات التلاميذ في استعراضهم الربيعي. إنها تتذكر أزمدة التجمعات
المدرسية قبل أن تعمل في مصنع النسيج، وصاحب المصنع براوليو الذي أطلقها إلى
الحياة.

تناولا الغداء في مطعم بورتو المختص بالطعام البرتغالي، ولكي يشرب مع
الباكالياو البرازيلي، طلب نبذاً أخضر واستسلما لمشاعر الحب الخالد؛ وعند
خروجهما من المطعم اشترى لها باقة من البنفسج فعلقها على قبة فستانها الأبيض،
ولكي تفعل ذلك توقفت عند تمثال الصحافي جيوفاني غيماريس وفي ظل حبيب
الشعب تركت نفسها لقبة رفيقها: قبة عاشقين. وسارا بطيئاً في الشوارع.
لم يكونا يعرفان شيئاً عن مجريات الأحداث في المدينة، وعن السفن الحربية
الراسية في مرفأ باهيا وعن الشرطة التي تحتل حي ماسيل وبيلورينيو ووصلا المنطقة
التي تسمى سوق البغاء السفلى. ودخلا إلى مطعم جانغاديرو حيث تعشيا سمكة
حارة وشربا البيرة وضحكا دون سبب كان أسعد يوم هو الذي أقفل فيه سوق
البغاء في حين أن الربيع بدوره أطاع التقويم وجاء إلى مدينة باهيا.
في مديرية شرطة الملاهي والمحافظة على التقاليد شرح المفوض لاباو أليفيرا
للأستاذ مدير عام الشرطة خطة العمل:

- اترك الأمر لي. سأعيد بنات الزانية إلى العمل بأية طريقة، سيفتحن
مطارحنهن للعمل خلال ساعة واحدة، وإلا فإن اسمي ليس لاباو أوليفيرا. سأغير
اسمي إذا لم أفعل.

كان اسمه يصيب بالرعب فتيات الهوى والقوادات والمحتالين والنشالين
والمنافقين الهامشين وكل المواطنين الأبرياء، وكائناً من كان، ممن هم ملزمون على

التعاطي بأية طريقة من الطرق مع حامي حمى الأخلاق والتقاليد الجيدة. وكان الناس يتحدثون عن جرائم تمت في الشرطة ببرودة، وعن جثث مدفونة سراً وعن فظائع لا مثيل لها. وعندما كانت تصل مثل تلك الاتهامات إلى صفحات الصحف لم تكن تحد لها أدلة.

في تلك الليلة حتى رجال الأمن المستنفرون وهم من رفاق العمل القدماء والذين اشتركوا معه في الحملة، قلقوا عند رؤية المفوض وقد فقد أعصابه وأصبحت هيئته مخيفة، مخيفة إذ ليس من صفة أدق.. الحساسية وصلت إلى خارج جلده بينما مدير عام الشرطة المثقف هيليو كوتياس يجلس ويضحك، وقد وافق رغماً عنه، على مشاريع السلطات المختصة... ولكي يخفف من عبء المناخ النفسي العام اقترح جنتلمن الشرطة إضفاء اسم عودة مفرحة إلى العمل على عملية الهجوم... ولكنه لم يكن سعيداً إذ إن الشاعر جيوفت دي كارفاليو في تعليق سابق على الأحداث، عدّ عملية الأعمال وحشية وإنها جديرة بهتلر وبالنازيين في معتقلات الموت.

في بار دا أليتي أو بار العاهرات، فإن صاحب المكان غير منزعج، حيث يجهز المفوض لآباو نفسه للاحتفال مع أركانه بالمحاضرة الأخيرة. وقبل الحملة المفاجئة على قوات الشر الثائرة، فإن كامويس فوماسا المهرب الشرير يحاول أن يتسلم المال الذي يعود إليه نتيجة حمل كمية الحشيش الهائلة التي نقلها، وكان اختفاء فافا قد ترك التحري كوكا دون مكان يحفظ فيه البضاعة ودون أحد يأخذ منه المال ليدفع الخمسين بالمائة المتفق عليها، والمبلغ الباقي يدفع عند نهاية ليل رجال البحرية والدولارات، دولارات تهددها فتيات الهوى الممتنعات عن فتح مطارحنهن على الرجال. ألقى المفوض عينيه المظلمتين على المنحرف ولكن الوقح لا ينجل بسهولة، إنه يعيش فوق الخوف في غيمته المدخنة.

في سيارة البويك القديمة التي تدور بلا هدف خطرت للتحري فكرة مضيئة: لماذا لم تخطر له من قبل؟ فأمر بإرسال البضاعة إلى محلة لاديرا دو باكاليو ووضع الحشيش في غرفة من الغرف هناك. "اتجهوا إلى هناك وانتظروا مني خبراً". وما إن يتضح الوضع ومع عودة النظام والفتيات سيرسل خبراً إلى بائعي المفرق فيتجهون إلى المنطقة ويبدأ حصاد الدولارات، "ابقوا منتبهين رجاء. بعد العمل تأتي المكافأة".

وسار كل شيء على ما يرام ما عدا كامويس فهو يريد أن يقبض.
- "اغرب عن وجهي" زبحر المفوض.

أحس المهرب أنه لم يعد يستطيع التحمل دون أن يأخذ نفساً. ما عليه أن يفعل سوى الرجوع إلى باكاليو والاتقضاض على الحراس المزروعين هناك، وأخذ كمية الحشيش ووضعها في سيارة البويك وإرجاعها. ولكن قبل أي شيء من هذا لا بد له من مبرر لفعله.

في حين كان المفوض يتفق على تفاصيل العمل الذي يستهدف فتح الأسواق العمومية وعودة فتيات الهوى إلى ممارسة المهنة، شاعت في المدينة أنباء تستدعي القلق وقد صدرت كلها تقريباً عن الإذاعات التي تبثها.

المعلق الرياضي ذو الشعبية القوية نيريو فيرنيك في تعليقه المسائي وبسبب عدم وجود موضوعات رياضية جديدة، وبعد أن فصل أخبار أنواع الرياضة التي يمارسها جنود البحرية في الأسطول الأميركي، فضح وجود أحد أبطال الملاكمة العالميين من الوزن الثقيل في إحدى السفن الراسية في المرفأ وأن الملاكم قد ثار لمشكلة سوق البغاء المقفلة.

ومأساوياً كأنه قد أضاع ضربة جزاء في مرمى الخصم علق قائلاً: "إذا تبين أن جهود الشرطة ستكون غير مثمرة وأصرت العاهرات على تصرفهن السلبي ولم يلجأن إلى التعاون الفوري مع السلطات، وإذا ظل رجال البحرية الأميركية وهم لا يرون غير السفن في الميناء، فماذا يمكن أن يحدث؟ آه. كل شيء قد يحدث". وكما هو متعود على التعليق على مباريات كرة القدم، فإن نيريو فيرنيك بالطريقة نفسها راح يقترح ويصف ويعطى الأدلة، مختاراً وقلقاً، إن الإثارة هي سر الإرسال الإذاعي الجيد.

إن تجمع العسكريين في منطقة البغاء يعني دائماً وجود حوادث دامية، وفيما يخص الغرباء، فإن الخطر يزداد وخاصة أن العراك بين المضيفات والوطنيين ينتهي إلى مشاكل شارجية خطيرة فإلى أزمت كبيرة ذات نتائج غير متوقعة. وقد استشهد بأمثلة عديدة وذكر المستمعين بأيام الحرب.

"وماذا سيحدث"، سأل المعلق الإذاعي الشعبي، "عندما ينزل رجال البحرية إلى اليابسة يائسين من وجود امرأة وعدم عثورهم على من يمكن أن

تستجيب لغرائزهم الطبيعية؟ فهل سيعودون إلى سفنهم وإلى وحدة البحر ووحشته؟ إنهم سيفزون المدينة مفتشين عن امرأة في الشوارع الأخرى دون احترام للعائلات، يغزون، من يدري، المساكن؟ لقد حدث ذلك سابقاً والمستمعون يتذكرون بالتأكيد".

إن السؤال التهديدي يظل مطروحاً على موجات الأثير، والخوف يشق له طريقاً، ومطارح النساء مقفلة، واللغة يزداد.

لم يكن رئيس البلدية ريجينالدو بافاو يترك فرصة للظهور إلا ويستغلها ليردد اسمه ويضيف إلى امتيازاته امتيازاً جديداً. ولم يستطع أن يرى مكبر صوت يجود بالكلام دون أن يكون له يد فيه، إنه عاشق أحاديث، وخطيب أمي، ثرثار، ومتسيس محتال، إنه كالنسر، حيث هناك جموع من البشر وأياً كان سبب التجمع يظهر ويبدأ العمل؛ في تلك الليلة من إقفال سوق البغاء أين يمكن أن يكون خارج المنطقة؟

حسب حاسدوه أنه توجه إلى هناك لأغراض سرية، ولكنه لا يستطيع أن يفرغ غرائزه وقد استعمل وجود الصحفيين ومعلقي محطات الإرسال لممارسة دماغوجيته المعتادة... السنة خبيثة: فالأب الشعبي الخدوم قد تصرف مدفوعاً بحكم الضمير ورغبة منه في خدمة السلطات والجماهير الشعبية الواسعة.

عندما وصل إلى بيلورينيو مساء بعد جلسة المجلس البلدي حيث تم الاقتراع بالإجماع على تأمين الرفاهية لجنود الأسطول الأميركي الشمالي، فقد مرّ كما هي عادته الدائمة على دار السيدة باولينا دي سوزا التي يفضلها نظراً لمستوى نوعية الفتيات ونظافة الغرف وذلك الهدوء الشامل، ولأنه صديق أريوستو ألفوليريو الذي يستحق منه الوفاء والدعم، وببد تغسل اليد الأخرى، أخبرته صاحبة الدار السمينة بما حدث، "يعذرني الصديق الصدوق على عدم قدرتي، دون مشيئة مني، فليس ممكناً اليوم لأن السوق العمومية مقفلة".

كان معها راقصة ملهى فلور دي لوتوس ذات العينين الإلهيتين كأنها فينوس. لآخر مرة أخذت الأخيرة الكلام فقد استطردت قائلة: "إن السوق مقفلة وستظل كذلك إلى أن تعود نساء باروكينيا إلى بيوتهن، وقد تم سجنهن وأسيئت معاملتهن، وإلى أن تعود الفتيات المبعديات إلى فرشهن انتزعن منها ودون أن يكون هناك

تهديدات جديدة للانتقال"؛ مستعدة لكل شيء، حيوية، وموهبة، وقرر ريجينالدو بافاو ارتياد ملهى فلور دي لوتوس وهكذا يمكن للملهى أن يفتح أبوابه.. إن هذه الفتاة بشارة له.

بعد ذلك شوهد مسرعاً وهو يسير في المنطقة بين بيلوريتيو وتاباو وماسييل متحدثاً في البارات مع الزبائن ورجال الشرطة، واتجه بعدها إلى مديرية شرطة الملاهي والمحافظة على التقاليد حيث كان هيليو كوتياس يصغي إليه بتهذيب وطيبة.. "وفيما يخص قرار الانتقال فلا يمكن فعل شيء يا عزيزي ريجينالدو إنها أوامر عليا جاءت من فوق". وبحركة غامضة أشار مدير عام الشرطة إلى منشأ القرار في الأعلى.

أما الباقي فموكول إلى المفوض لاباو، وعليه أن يعيد سوق البغاء إلى العمل من جديد. عليه أن يتصرف بسرعة وقوة. في الثامنة رجال البحرية الأميركية إلى اليابسة.

عند هبوط الليل أصبحت المنطقة ساحة حرب... فقد أفرغت سيارات الشرطة الإمدادات التي طلبها المفوض؛ أما عربات المواجهة فقد أقفلت مداخل الشوارع الاستراتيجية والأزقة والزوارب. أما فرق الشرطة العسكرية، وهي تغطي الأحصنة، فكانت تصعد وتبسط من بيلورينيو وتدور حول حي ماسييل وأكثرية الفضوليين فضلت البقاء في تريو دي جيزوس بانتظار نتائج الأحداث.

لا يمكن مشاهدة امرأة واحدة تمارس المهنة؛ اللواتي لم يكن يتنزهن بقين في داخل المنزل ليسترحن. وأرسل المفوض لاباو رجال الشرطة ليوجهوا إنذاراً أخيراً إلى العاصيات: "أمامكن نصف ساعة لإعادة فتح المنازل وأخذ أماكنكن التقليدية عند الأبواب، وعلى النوافذ، وفي صالات الانتظار". وعلى الرصيف بقين واقفات عند أركان الأبنية دون جواب.

فقط كانت البارات تعمل، أما بيوت العزّاب والنزل وبيوت الدعارة فكانت مقفلة ومظلمة؛ لا شيء يذكر بالحياة التقليدية، ولا تسمع كلمات فظة ولا ضحكات خليعة ولا دعوات إلى الفراش، ولا عروض النساء نصف العاريات، ولم تكن تسمع سوى أصداء حوافر الأحصنة على حجارة الأرصفة السوداء، إن الجمعة العظيمة تقع في النصف الثاني من أيلول، فيا للروزنامة المجنونة.

في حي ماسييل وهو يشهر مسدسه، فإن المفوض لابات أوليفيرا أعطى الأوامر بمسير الفرق، فرق التقاليد الجيدة والمناقب! في محلة بيلورينيو، مع دقيقة تأخر بسبب ساعة اليد التي احتجزها لأحد المهريين، فقد تقدم بيثي كاساو وتبعه الحراس وجنود الشرطة.

وبدأت المعركة: أعلن مذياع راديو أباتي "حيث يكون النبا هناك تجدد أباتي، في الماء، في النار، في السلم والحرب"، "لقد أصبحت المنطقة جهنماً مشتعلة"، يرتجف على الميكرفون صوت بينتو سكوت الخنجرة الذهبية في إذاعة باهيا الأولى. تم فتح أبواب بيوت العزّاب والنزول بالعنف، بضربات من الأقدام، وبقوة أكتاف رجال الشرطة؛ الحراس والجنود يغزون البيوت، يعتدون على النساء ويجبروهن على الخروج إلى الشارع... ودخلت المشهد الهراوات، وأسواط الجلد، وفضل بعض رجال التحري استعمال الأسلاك الحديدية، وأمطرت ضرباً؛ صراخ وشتائم ونساء يهربن خارج الأبواب وأخريات يقاومن فيتم إيقافهن على ذمة التحقيق.. إنها بداية عملية "العودة المفرحة إلى العمل"، أما بالنسبة إلى فرق الشرعية فقد كانت ترفيهاً عن النفس.

في حالات كهذه تصبح مهمة العملاء معقدة وتصبح مستحسنة. في نزل سيرس غريلو غراندي كانت الإنشاءات الصحية دون عمل منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة مما أجبر النزيلات على استعمال المبال المتحركة، وقد تم تجميعها في داخل الدار فتيين هن في النهاية أن هذه المبال هي أسلحة فعالة في الحرب، وبدأن باستعمال المبال الممتلئة بالبراز فرمين بها المهاجمين وأجبرهم على الفرار؛ أما أمر الفرقة التحري دالمو فقد أدركته وهو يرتدي بزته الرمادية محتويات وعاء كبير كانت قد استعملته عدة مرات الفتاة الحديثة العهد في السوق وتدعى زابسي وهي مصابة بالإسهال الشديد، وأصبح الأنيق مكسواً بالبراز والبول والكراهية... فأمر بحملة تأديب عنيفة وأعطى المثل على ذلك.

وبينما يشهر مسدسه، فإن المفوض لابات أوليفيرا قاد بنفسه اقتحام نزل فافا، وقفز السلم دفعة واحدة وهو يقود بعض رجال الشرطة الذين هم موضع ثقته وأمر بخلع الباب وتكسير دفتيه الاثنتين. لم يجد نبضاً ينبض في الطابقين من العمارة الكبيرة. الغرف مقفرة وصمت مطلق يسود المكان "أين ذهب القواد: آه!" لو أن

النقيب وجده فكان يعلم كيف يجبره على إصدار الأوامر المضادة وتقرير فتح الدور العمومية. وكان يعتمد على ذلك ليحصل به على انتصار سريع وحاسم لأن من يأمر وينهي في المنطقة هو فافا، وكلمته قانون. "أين اختبأ ابن الزانية؟"

وبإشارة من لا باو تم خلع باب الغرفة، وغزا الرجال مقر الكسيح فلم يعثروا لفافا على أثر؛ وقد أصابتهم سورة من غضب فمزقوا شراشف الفراش وجمعوا أشياء للاستعمال وأخرى ثمينة وخلعوا قفل الدرج، فمزقوا أوراقاً هناك، وحاولوا فتح الخزانة المخبأة في الحائط فلم يفلحوا.

- ماذا تفعلون واقفين هنا؟ إنكم ستعيدون العاهرات إلى العمل يا عصابة الجبناء. أم إنكم خائفون من النساء؟

نظر إلى ساعة يده. بعد قليل سينزل رجال البحرية الأميركية إلى اليابسة. إن الوقت يضيق.

وقد حُملن عنوةً إلى الشارع، فإن النساء قد أخذن بالركض، هاربات، مختفيات في الأزقة الضيقة. وحاول جنود الخيالة المحافظة عليهن محاصرات ولكن الأمر ليس سهلاً. وانتشر القمع في المنطقة.

زبائن البارات، وفي طليعتهم الألماني هانسن، أخذوا يرمون الزجاجات الفارغة تحت حوافر الأحصنة احتجاجاً على أعمال عنف الشرطة. الشاعر تيلمو سيرا شغل ميكرفون إذاعة باهيا الأولى وراح يلقي كلمة حماسية.

"المنطقة تشرق!" إن جملة أحد المذيعين هذه أخذت تشيع الذعر إذ إن الكثيرين من المستمعين فهموا الكلمة بمعناها الحقيقي لا المجازي وأخذت أخبار الحرائق تسري في شوارع المدينة... وكانت آلات التصوير تسطع على وجوه الفتيات، بعضهن خائفات والبعض الآخر ثائرات. وأما التحري دالمو كوكا غارسيا، فقد تخلص عن الظهور أمام الأضواء. لأنه كان ملطخاً بالبراز والبول وتفوح منه رائحة كريهة.

من أجل دعوة عامة إلى الالتزام بالهدوء في المدينة فإن رئيس البلدية ريجينالدو بافاو شغل كل ميكروفونات إذاعة أبايتي "المزروعة كلها في قلب المعركة، ورئيس البلدية، هذا الرمز الشعبي لحل المشاكل السياسية موجود هنا مواجهاً معنا خطراً جسيماً في محاولته المباركة إيجاد مخرج للأزمة التي أخذ خطرهما يتنامى في المدينة".

كان صوت مفتعل القلق وصياد الأصوات الانتخابية ملعلعاً داخل آلاف المساكن، فهو في قصر البلدية كما في المراكز الانتخابية لم يستطع يوماً أن يحصل على جمهور غفير كهذا. أجهزة الراديو تعمل في كل المدينة، والسكان مصغون بانتباه إلى أنباء تطورات الأحداث ومصير إقفال سوق البغاء.

بقلب دام يوجه ريجينالدو بافاو كلمة إلى مستمعي راديو أبايتي، إلى شعب باهيا، ويصف المشهد المرعب الذي يدور أمام عينيه المنكسرتين من هول المشهد مشبهاً إياه بالأحداث التي عصفت بروما القياصرة التي يكلمنا عنها التاريخ العالمي. وترتج الكلمات في الهواء: "إن صوتي تخنقه العبرات".

ثم وجه دعوة مؤثرة إلى العاهرات: "إني أثق بوطنية المواطنات اللطيفات اللواتي قذفت بهن عواصف الوجود إلى الدعارة، وهن لن يرتكبن عملاً غير لائق بترك أبطال جنوب الأطلسي أبناء الأمة الأميركية المجيدة الذين لا يقهرون وهم... كيف أقول؟ قل: لن يتركهم ينظرون إلى السفن يا حضرة الرئيس"، استعمل عبارة المفوض لا باو أوليفيرا التي أصبحت شائعة الاستعمال على ألسنة المذيعين المختبئين وراء أبواب حي ماسيل وبيلورينيو.. "لن يتركهم ينظرون إلى السفن، لن يترك أولئك الأبطال الذين يجازفون بحياتهم من أجلنا لكي نتمتع بعطايا ومواهب الحضارة".

"إن إصراركن غير الملائم يهدد بخلق مشكلة دبلوماسية، فتأملن في خطورة الوضع واستجبن للحل يا أخواتي الحبيبات الملزمات بالممارسة".

نجاح لا يوصف ناله الخطاب الملهب لدى مستمعي راديو أبايتي، ولكن مع الأسف لم يصل الخطاب إلى أسماع المحترفات من النساء في السوق العمومية المشغلات في إنقاذ أنفسهن بالهرب متفرقات في الشوارع يحاولن الخلاص بين حوافر الخيل.

بعد ذلك توجه ريجينالدو بافاو إلى صاحب الفخامة محافظ الولاية: "مع الاحترام الواجب لشخص الرجل الكبير الموضوع على رأس المسؤولية عن مصير باهيا المجيد مستنجداً بمشاعر المسيحية وطاقته الموثوقة بوصفه محافظاً للولاية؛ وترجل رجال البحرية الأميركية إلى اليابسة وفتيات الهوى يقاومن أوامر الشرطة والوضع في سوق البغاء من الناحية السفلى أصبح متفجراً، والأزمة يمكن أن تمتد

حتى حدود تهديد راحة العائلات الكبيرة في باهيا. رئيس البلدية الشريف يستنجد بالمحافظ النبيل: "أعط أمرك يا صاحب الفخامة بإطلاق سراح سيدات النزول اللواتي ما زلن سجينات، واسمح لهن بفتح الدور التي أقفلت أمس من قبل الشرطة المستعدة بكل قواها لنقل هذه البيوت من باروكينيا إلى لاديرا دو باكاليو، إن المسألة أصبحت شديدة الخطورة، يا حضرة المحافظ، فعلق قرار النقل وامنع أن تتحول الأزمة التي ما زالت محصورة بحدود المنطقة إلى كارثة وطنية وفضيحة دولية".

في المدينة الهائجة، العائلات تقفل أبواب دورها السكنية؛ وهواتف قصر المحافظة ومديرية الشرطة لا تكف عن الرنين مطالبة بالنجدة.

في داخل سيارة البويك المخفية في غابة كثيفة، كان كامويس ورفيقه يصغيان إلى دعوة رئيس البلدية ريجينالدو بافاو كانا قد فتحا جهاز الراديو بغية الحصول على موسيقى ناعمة يسمعانها مع نفثات دخان الحشيش فأعار كامويس انتباهه:

- لقد فشلت الحملة. لنذهب ونأت بما يخصنا ما دام هناك وقت.

- "هكذا يجب أن نفعل" وافق الآخر القليل الكلام.

أخذ المقود وراح بالسيارة إلى لاديرا دي باكاليو. وأحس الشريكان بارتياح لأنهما سيريان البضاعة من جديد ويعودان بها. منذ البداية سار ذلك الموضوع بصورة سيئة مليئة بالارتباكات.

في الغرفة الموضوعة فيها البضاعة، كان فريق العمل المسؤول عن البيع بالمفرق قد أكمل تقسيم المواد الثمينة بقيادة سينسيناتو غاتو بريتو الذي بقي لحراسة كل هذه الكمية من الحشيش الممنوع عليه استعماله، فيا للوضع الذي لا يحسد عليه.

القسم الأكبر من قطع الأثاث التي جاءت بها شاحنة الشرطة من باروكينيا وتركت هناك كان قد تناهيه المشردون والصعاليك في أثناء النهار، ولم يبق إلا بعض الفرشات التي حملها بائعو الحشيش بالمفرق ليتمددوا عليها منتظرين؛ انتظار طويل، ورائحة سجائر الحشيش التي لا تقاوم، وبسجال قصير اتفقوا فيما بينهم على أن عدم احترام تعليمات التحري دالمو كوكا هو مجازفة خطيرة ولا داعي لها. ولكن لن يسيء إحراق سيجارة أو سيجارتين ما داموا ينتظرون؟ أي سوء في هذا؟ لا سوء بالتأكيد وانتهى سينسيناتو غاتو بريتو إلى الموافقة فهو أيضاً يحتاج نفساً عميقاً.

كانوا مستلقين بارتخاء في الفراش يدخنون ويحلمون عندما غزا كامويس فوماسا وبياغوردا الصالة. سينسيناتو غاتو بريتو يحب الهدوء في ساعة الرحيل. رفع رأسه وحدّق في الواصلين الجديدين وعرفهما. لقد جئتما بالتأكيد برسالة من الرئيس كوكا:

- هل هذه هي الساعة؟

شرح كامويس هزال العملية التي دبرها التحري. لقد أصبحت المنطقة جحيماً، ضرب ومطاردات وجنود شرطة؛ ومجنون هارب من مستشفى أمراض عقلية لا يفكر في بيع الحشيش بوجود الخيالة والشرطة المندسة في المكان، والعصا تأكل من ظهور الناس؛ لقد سمعوا كل هذا من الإذاعة؛ ومتشككاً فإن سينسيناتو لم يصدق كلمة واحدة من كلمات كامويس الذي انتهى إلى القول:

- لم يدفعوا لنا نحاسة واحدة وسنأخذ بضاعتنا.

- "تأخذ بضاعتك، يا للحماقة" بذل غاتو بريتو جهده وجلس في الفراش مردداً:

- تأخذ البضاعة؟ حماقة.

كامويس فوماسا تحت تأثير الحشيش يصبح أبا الرجولة:

- الأحق هو أنت وستدفع الآن ثمن جرأتك.

بعض المهريين انتصبوا واقفين وبدأت المشاجرة. القزم تحول مارداً. وترك سيجارة مشتعلة تقع على الفراش المثقوب وتنال من القش الجاف. امتد الدخان وبعدها اندلع اللهب.

في بيلورينيو، حيث قامت جيوش المناقب والقانون تحت قيادة التحري من الدرجة الأولى نيكولاو رامادا جونيور بالهجوم، فإن الإطار العام للمعركة كان شبيهاً بما حدث في حي ماسيل: نساء يضربن، ويؤخذن عنوة من منازلهن، ويؤتى بهن إلى المحلة مقيدات أو تطاردهن الخيالة... هنا يصبح الاختيار أكثر صعوبة، مداخل الشوارع المؤدية إلى تريو دي جيزوس ودوس ساباييتروس تسدها سيارات الشرطة. الهراوة مطلقة العنان لأن الأوامر هي الضرب إلى أن تقرر الجرمات العودة إلى ممارسة الدعارة وفتح الأسواق العمومية؛ وتنفيذ عملية "العودة المفرحة إلى العمل" ناشط على قدم وساق.

وكان غزو البيت الرئيسي للسيدة باولينا دي سوزا، بقيادة بيشي كاساو شخصياً، هو ما جعل تفاصيل المعركة تصبح أكثر إثارة ومضموناً، فالراقصات الممارسات غير متأكدات من قوة الأقفال، فوضعن وراء الباب قطع أثاث ثقيلة مما جعل مهمة الشرطة أصعب فأصعب للقيام بالواجب، وجعل غضب نيكولاي الحائر في أمره يزداد أكثر فأكثر.

أخيراً تم فتح الباب فانطلق بيشي كاساو عبر الممر إلى الداخل؛ ومن رأى أمامه؟ لقد رأى السوء بنفسه، بنت الشارع والموبوءة تريزا باتيستا. عندها فإن الملقبة بتريزا أم الرفسة على الخصيتين أنالت القائد كاساو بكل ما أوتيت من قوة ومن أعلى حذاء على الموضة تنتعله، رفسة عنيفة على خصتيه:
- آي بي ي ي ي.

صرخة التحري شلت حركة الفرق الغازية، وإذا بتريزا تخرق مسرعة رجال الشرطة وتخرج معها بعض النساء... بيشي كاساو أرضاً، يدها تمسكان بخصتيه الماء، ولم يعد يفكر في غير الانتقام وهو متأوه. بعد عدة دقائق، وعندما تمكن من الوقوف بمساعدة اثنين من الشرطة السرية، كان قد مزج بالألم أفضع مشاعر الكراهية.

محاطة بجنود الشرطة العسكرية، فإن تريزا أكملت هربها من بين أقدام الخيل راكضة باتجاه سلم الكنيسة روزاريو دوس نيفروس ثم أسندت ظهرها إلى أحد الأبواب. فعلت النساء الأخريات الشيء نفسه، والجياذ لا تستطيع أن تصعد الدرجات ولكن جنود الشرطة اقتربوا لإلقاء القبض عليهن.

خلف ظهر تريزا انفتح الباب، وعندما دخلت الكنيسة وما تزال قادرة على أن ترى عبر ظلمة قليلة اختفت وراء كرسي عالٍ ثم تسللت إلى مكان لم يعد أحد يستطيع أن يراها... ثم خرجت النساء من نزول بيلورينيو مهرولات، بعضهن بين أيدي الشرطة ورجال الأمن مأخوذات بعنف، وعجلن في الدخول إلى الكنيسة، نساء أخريات وصلن من ماسييل وتاباو تفتيشاً عن الأمن وملجأ يقين فيه. قليلاً قليلاً امتلأ بيت العبادة بالفتيات، بعضهن راكعات، رحن يصلين.

بعد التهام السمكة الحارة ترافقها البيرة المثلجة، استقل خليل وأناليا الباص باتجاه لارغو داسي. وكانت السيدة باولينا دي سوزا قد أعطت الأوامر إلى فتاتها

بالعودة باكراً، بغية تجنب المشاكل المحتملة مع زبائن مشكوك في أمرهم، وعند أعلى محلة كاسترو ألفيس ضرب خليل على رأسه ودعا أناليا إلى النزول:

- كنت سأنسى من جديد.

- تنسى ماذا يا عزيزي؟

- صورة القديس أونوفري التي طلبتها دونا باولينا.

في الأسواق العمومية والنزول التي تحترم نفسها، وفي غرف الطعام بالذات. يجب وضع صورة القديس أولوفري محاطة بالزهور والشموع المضاءة.

ومنذ وقت طويل كانت السيدة باولينا تفتش عن صورة كبيرة للقديس الشفيع لتضعها في المكتب حيث تعلق صورتى شفيع البحارة والسيدة العذراء. وكونها تعلم بتجارة صورة القديسين، المهنة القديمة التي يمارسها والد خليل، فقد طلبت من الأخير أن يحجز لها صورة للقديس أونوفري كبيرة، جيدة الإطار وليأتيها بها بأي سعر لأنه لا يوجد في المحلات التي تتعاطى هذه التجارة، مثل الصورة المطلوبة. عموماً، في تجارة السيد شماس، الأب، يساوي القديسون ثروات كبيرة، على الرغم من سوء المحافظة على حالة الصور التي تنقصها غالباً الأيدي والرؤوس والأفخاذ، وقد وعد خليل السيدة باولينا بأنه ما إن تأتي صورة للقديس أونوفري من منطقة الداخل حتى يحملها لها هدية. وقبل أمس وصلت الصورة الكبيرة، الجديدة، من الجفصين، ولكن خليل نسي أن يأتي بها.

ترك أناليا عند الركن، وذهب ليأتي بالقديس وعاد به ملفوفاً بجريدة وتابعا السير على الأقدام وهما يصعدان الطريق المؤدي إلى أجودا.

علم فيما بعد أن بعض سيدات النزول، من ماسيل وبيلورينيو على السواء، مرتعات من عنف الشرطة من جهة، وحاسبات الخسارة الناتجة عن امتناع الفتيات عن الممارسة في ليلة رجال البحرية الأميركية الذين يدفعون بالدولار؛ لقد فكرن بخرق الاتفاق وبإعطاء الأوامر إلى فتياتهن بالعودة عن الإضراب لفتح السوق العمومية من جديد.

علم فافاً فوراً، من المكان الذي يختبئ فيه، بالتهديد الخياني، فبعث رسالة مستعجلة إلى المنحرفات. "الويل لمن لا تلتزم بالوعد وتعصي أوامر الإله إيشو فهي لن تبقى في المدينة، ولا في المنطقة، وعليها أن تخلي المكان محتقرة إذا لم تمت قبل

ذلك ميتة بشعة. في الساعة نفسها أو في أي مكان آخر خلال شهر واحد فإن عقاب الموت الذي وعد به تيريري سينزل بها، والويل لها! "التفسير حافظ على التضامن حتى النهاية وأبقى وحدة الأسواق العمومية قائمة.

ومع ذلك ظهرت فجأة وسط الممعة فتاة هوى نحيلة وطويلة وفي يدها حقيبة، ذات شعر أشقر، وكعين عالين وترتدي اللون الفاتح: كانت قد خرجت إلى الرصيف تفتيشاً عن زبون. فارتعش جنود الشرطة فرحاً وأسرعوا إليها ليكفلوا لها محافظتهم على ممارستها المهنة. ثم تبينوا أنها امرأة مستعدة للتعاون في عملية "العودة المفرحة إلى العمل".

وعند اقتراب رجال الشرطة منها لاحظوا، ويا للصدمة البشعة، أن المرأة لم تكن إلا المنحرف الشاذ غريتا غاربو الغلام في بيت فافا الذي كان في أزمة وجدانية منذ البارحة! فقد فكر طويلاً وقرر في النهاية أن يستفيد من المناسبة النادرة: إن المدينة مليئة بالبحارة الأميركيين، وخالية من النساء، آه!

قبضوا عليه ووضعوه في سيارة السجن وهناك هوت الفتيات على المنحرف ضرباً؛ المنحرف الذي كان ضحية الطموح في أن يرضي وحدة البحرية الأميركية الشمالية.

في كوفهم مطيعين لتعليمات المفوض لا باو أوليفيرا الشريك الرئيسي في الشركة السياحية التي تأسست لاستقبال رجال البحرية الأميركية، وحوالي الثامنة مساءً، فإن سوق البغاء وجدت مغزوة بعشرات من بائعي المفرق رؤوساء المنطقة وكل واحد يحتل داراً عمومية ويشرف على زجاجات المخدر كاسيتي ريجو: "وان دوز فايف فاكس".

وفي اللحظة نفسها التي كانت قوات الشرطة بقيادة القائد الأعلى المفوض، تستعد للهجوم على النساء لإجبارهن على ممارسة الدعارة، فإن الرؤوساء وبائعي المفرق كانوا قد دخلوا السوق بتعبيرات إنكليزية ذات لهجة جهنمية قبيحة.

جهلاً منهم بالاتفاق بين قائدهم وبائعي المخدرات بالمفرق، فإن جنود الشرطة العسكرية توجهوا على الجياد باتجاه عصاة الأوامر محاولين تنظيف الشوارع من الوجود غير الشرعي والكثيف الذي يزيد البلبلة التباساً؛ كان البائعون قد توقعوا إيجاد زبائن لطفاء من البحارة الذين يمضغون العلكة ويوزعون السجائر ويشتررون الأدوية ويدفعون

بالدولار. وكل ذلك على مرأى من شرطة المحافظة على التقاليد التي هي كلها على علم بما يدور، ولكن بدل الفتيات والبحارة، فقد واجهوا الخيالة بتحتاحهم وتبعدهم عن المكان؛ الرؤوساء ابتعدوا والتجأوا إلى داخل البيوت. في الشوارع ساد الهرج والتساؤل وقد شاهد الجميع مجموعة البائعين ترتدي كلها قمصاناً من نوع واحد.. وانهمزم الضعفاء ورموا أرضاً المواد الكيماوية التي صنعها للهلوسة الصيدلي عارون مادروغا. وراحت النساء تستعمل زجاجات المخدر كاسيتي ريجو أسلحة ضد رجال الشرطة والأمن. وبينما يشهر مسدسه بيده حاول المفوض لاباو أن يمنع إفلاس الشركة وانهمار المنطقة الكامل. وسمعت عندئذ أصوات سيارات الإطفاء. عند بلوغها بداية محلة داسي انتبه خليل وأناليا إلى الأمر الخطير الذي يحدث في المنطقة؛ جموع بشرية هائلة في محلة تريو دي جيزوس تعلق على الأحداث، والقليلون يتجرون على المرور قرب عربات الشرطة والدخول إلى منطقة الأزمة، ودار الشباب والفتاة حول كلية الطب وهبطا إلى ناحية بيلورينيو. أخذت أناليا الصورة من يد خليل:

- اليوم لا تستطيع أن تذهب إلى هناك. السوق مقفلة، ومشيا بعض الخطوات معاً فوجدا نفسيهما في وسط اللغط محاطين برجال الشرطة، وتقدم حارس من حراس باتجاه أناليا، فتدخل خليل، وهربت الفتاة لا تعرف إلى أين تذهب مرتبكة وجاءها صوت من الأعلى يقول لها:

- إلى الكنيسة، بسرعة، يا ابنة بياوتنغا الجميلة.

وهي تركض اتجهت إلى الكنيسة، ولكن رجال الأمن كانوا يسدون السلم المؤدي إليها، ويمنعون مرور النساء، كيف تمر؟ هي نفسها لا تعرف ولكنها مرتت. أحست بنفسها بين ذراعي شاب جميل، يشبهها منظرًا ولكن من أين تعرفه، من هو؟ فجأة أصبحت من ناحية الكنيسة هي ومعها صورة القديس أنوفري أمام باب الكنيسة المفتوح قليلاً، سليميتين متعافيتين. من هناك نظرت من شق الباب إلى خليل وقد أخذه اثنان من رجال الشرطة إلى سيارة من سيارات الأسرى بينما هو يعاركهما. أرادت أن تركض إلى عشيقها ولكن النساء الأخريات منعهن وأوقفنها داخل المعبد وأخذن منها الصورة فرحات. وهي تنهد من البكاء رمت أناليا نفسها بين ذراعي تريزا باتيستا.

- "لا تبكي، يا صغيرة، كل شيء على ما يرام"، واستمرت تريزا بالتعزية:
"لن يبقى طويلاً في السجن السيدة باولينا سجينه هي الأخرى وأناس كثيرون
معه. ولكن لم يفتح أحد السوق العمومية".

جلس سائق التاكسي إدغار في سيارته حائراً في أمره في محلة كاسترو ألفيس.
الحركة بطيئة في تلك الساعة، عندما يكون أغلب الناس في منازلهم، يأكلون،
يتحدثون ويصغون إلى الإذاعة ويستعدون للراحة أو الخروج. مع سحب الناس من
باروكينيا وإقفال النزول مساء أمس، فإن تدفق الزبائن قد تدنى كثيراً في الجوار.
وما يزال الوقت مبكراً ليفتح ملهى التباريس أبوابه وتبدأ الحيوية من جديد.

وجد إدغار نفسه وحيداً في المحطة، بينما سائر السائقين قد ذهبوا للعشاء ولم
يعودوا بعد. ووسط الهدوء وفي انشغاله في أن لا يحضر زبون ما، فتح عينيه وتبين
غياب أهمية شخص مهتم بالانتقال بالتاكسي إلى مكان ما. وقبل أن يعود إلى النوم
ألقى نظرة على المحلة. ليس هناك سوى جاسيرو فروتا باو تبيع الذرة والفسق
وجوز الهند. لا أحد تقريباً، إنها ساعة معدومة.

علق نظره في مكان ما فأصابته الدهشة. أين هو تمثال الشاعر كاسترو ألفيس؟
إنه ليس في أعلى القاعدة وهو يمد يده نحو البحر الواسع مطالباً بالعدالة للشعب!
إلى أين ولماذا نقلوه؟ بالتأكيد لينظفوه، ولكنهم دائماً كانوا ينظفونه وهو في مكانه!
ودون حاجة إلى رفعه! غداً، بالتأكيد، ستشرح الصحف السبب الأكيد.

وعاد إدغار إلى شخيره المتقطع. وقبل أن يخلد إلى النوم انتبه إلى أن المحلة
تصبح مختلفة، صغيرة، دون تمثال الشاعر.

بعد اطلاعه على خطورة الوضع، فإن السيد المحافظ اضطر إلى الانسحاب من
الصالة التي تقدم فيها الويسكي قبل الوليمة التشريعية للأميرال وكبار الضباط
الأميركيين الشماليين ليتبادل بعض الكلمات مع رئيس البلدية ريجينالدو بافاو..
ريجينالدو مؤيد نشيط، لا شك في ذلك، ولكنه قصاص بلا رقابة ذاتية أو سيطرة
على النفس، وقد أبقى صياد الأصوات الانتخابية هذا على مسافة بعيدة، أمر بها
زعيم الولاية السياسي ذو الذكاء والحنكة الذي ولد فقيراً في أزقة سان فرانسيسكو
وارتقى المراتب العالية بمخططات مدروسة وشجاعة. إن ريجينالدو ممتاز إذا تم
استعماله في مثل هذه الظروف، ولكن يجب أن يتم الاستعمال بحذر لأنه إلى جانب

كونه أمياً فهو جريء. ولكن ضابط السجن كان قد أسرّ إلى مسامع المحافظ بأشياء مرعبة تحدث فاستأذن سيادته بأفضل ما عنده من اللغة الإنكليزية ونهض متجهاً إلى الغرفة المجاورة وراح يصغي إلى التقرير والدعوة.

متأثراً، مع صوته المخنوق بالعبرات، فإن ريجينالدو بافاو راح يتحدث عن المأساة اليونانية. لماذا اليونانية؟ هل قرأ رئيس البلدية أرسطوفان؟ أراد أن يسأله صاحب السيادة، ولكن الساعة ليست مؤاتية للمزاح. لقد اكتفى بإرساله. ينتظر ريثما يتخذ الإجراءات الضرورية: "انتظر هنا، يا عزيزي بافاو، وستأتيك أخبار جيدة لتنقلها إلى أخواتنا..".

- كيف؟ كيف قلت؟ تلك العبارة الجميلة، وكيف قلتها؟ آه! لتنقلها إلى شقيقتنا في سوق القدر.

- العاهرات ينتخبن هن الأخريات يا صاحب السيادة.

من المقر العام، اتصل المحافظ بمدير عام الشرطة:

- ما هي هذه القصة لنقل الفتيات عنوة؟ إهن عاهرات! أين سمعت بشيء كهذا؟ فقط في باهيا وفي عهدي أنا بالذات، ورجال البحرية يا عزيزي ماذا نفعل بهم؟

كان هنالك تفسيرات متزاحمة، غير واضحة، وضاع مدير عام الشرطة في إعطاء البراهين؛ إن خداع رجل سياسي بخبرة ودهاء المحافظ ليس أمراً سهلاً. وهل الموضوع ذو صفة روتينية عادية؟ لماذا إذاً تقف الشرطة هذا الموقف الصلف والعنيف مفسحة المجال لموجة عارمة من الإشاعات؟ بينما هو يفكر على الهاتف فقد قطع في الحال ثرثرة مدير عام الشرطة. المهم الآن هو القضاء على الاضطرابات الناتجة، ووضع نهاية لأعمال الفوضى في السوق العمومية وتجنب خيبة ظن البحارة. غداً، بهدوء، ومع الوقت الكافي، سيوضح هذا الموضوع ويضعه في صحن نظيفة لأن هنالك هدفاً مشكوكاً فيه وراء قرار النقل السريع. من يدري، فربما أعطته العاهرات الحجة المرتقبة من زمن بعيد لإقالة مدير عام الشرطة واستبداله بآخر. إن صاحب السيادة يجب أن يسير في الطرقات الوعرة، ولو لم يكن كذلك فكيف ينشط سياسياً ويتعامل بنجاح مع صغار الرجال وجنون العارفين؟ يجب صاحب السيادة أن يأخذهم من أرجلهم، فأخذهم من أيديهم لا يفيد.

وعاد إلى الصلاة حيث رئيس البلدية يحسب للوضع. ابتسم: "ريجينالدو ليس إلا فأراً صغيراً تنعكس أفكاره على وجهه. إنه الرسول المثالي لينقل إلى العاهرات رسالة السلم"، فكر صاحب السيادة.

- عزيزي بافاو، لقد أمرت بالإفراج عن النساء اللواتي اعتقلن أمس وكذلك بتعليق كل أمر بالانتقال. اذهب لإعلان النبأ السعيد. إذا أردت، مُر بالمديرية العامة وانقل أوامري الشخصية إلى مدير عام الشرطة؛ إنها مناورة صغيرة لاحتقار رأس الشرطة، رافق الفقيرات حتى بيوتهن في باروكينيا وضع لائحة الانتخاب في جيب سترتك، إنها هدية صديق لك.

- إن صوت ناخبي هو صوت لك يا صاحب السيادة! لا غبار على ذلك.

وبينما يمضغ ألعيب السياسة أته الأشياء السوداء لتستقر إلى جانبه "إذا لم أقم بواجبي بذكاء فسأختفي عند أول فرصة" فاتصل بمدير عام الشرطة ورئيس قسم الملاهي والمحافظة على التقاليد ونقل إليه أمر الإفراج عن قوادات باروكينيا والسماح لهن بالعودة إلى منازلهن وتعليق قرار النقل.

على الجانب الثاني من الخط، حاول زميله أن يبين بعض الأمور، ولكن المدير العام لم يفسح المجال، ومتذمراً قال:

- "لا يمكن استخدام الأصدقاء دائماً كما هو مرغوب. الموضوع لم يفلح، وعلى العكس فقد سار بصورة سيئة مع الأسف. أطلق النساء، واكفل وصولهن إلى بيوتهن، وأعط أوامرك إلى رجالنا بالانسحاب من المنطقة، واترك هناك فقط رجال الأمن العاديين". ولم يعد يطبق فقاطع تذر المدير العام.

- إنها أوامر المحافظ ولا أستطيع أن أفعل شيئاً. أما العجوز فلا تحزن عليه سأهتم به بنفسي وسأكلمه. ولا تنس أن تطلعي على التطورات ويجب أن أبقى المحافظ على اطلاع على الأمور.

وترك هيليو كوتياس الهاتف من يده، العجوز يبقى عليّ، ولكن كارمن على من تبقي؟ إن زوجته وعمه سينغصان عليه الحياة. يرغب بالتخلي عن كل شيء ويطلب الاستقالة، ويعود إلى البيت ويقفل على نفسه وينام، إنه خارج عن نطاق القدرة على المحافظة على توازنه.

على حافة الطاولة كفّ المذيع عن الإعلان عن معركة السوق العمومية ليث نبأ حريق كبير في أسفل المدينة يلتهم بيوت منطقة لاديرا دو باكاليو. ضرب مدير عام الشرطة يده على فمه، وترك المقر العام وراح يركض أمام الحارس المندھش، لم يكن لديه الوقت الكافي ليتقيأ في المرحاض القبيء المر.

هادئاً، متجيباً وذا سلطة كما يليق بمندوب صاحب السيادة السيد المحافظ، فقد دخل إلى المقر العام الخالي في قسم الملاهي والمحافظة على التقاليد رئيس البلدية ريجينالدو.

أعلنت إذاعة أبايتي أن الحريق الهائل يلتهم الغرف في لاديرا دو باكاليو والنبا هو الآخر يشتعل من مكان إلى مكان. أما الغرف القديمة التي خصصتها الشرطة للسكن الجديد للعاهرات اللواتي جلبن أمس من باروكينيا فتلتهما النيران الملتهبة.

سيارات الإطفاء تتجه إلى مكان الكارثة وتتبعها سيارات ميكروفونات إذاعة أبايتي: "ما زالت أسباب الحريق مجهولة ولكن كما هو معروف فقد تم الآن نقل كميات كبيرة من قطع الأثاث التي تملكها النساء العموميات بواسطة شاحنات الشرطة، وتركت هناك، فهل هناك ارتباط بين الحريق الهائل المشتعل أمام المرفأ وبين الوضع الذي يزداد تأزماً في منطقة سوق البغاء، حيث قوات الأمن تزداد عنفاً لقيادة العاهرات إلى العمل؟ في هذا اليوم الحادي والعشرين من شهر أيار تأريخ الاحتفال بقدوم الربيع تعيش المدينة ساعات قلق واضطراب. إن الزوارق التي ستأتي بالبحارة الأميركيين يتم تجهيزها لتتجه إلى ميناء الهبوط إلى اليابسة. كل الحذر يبقى قليلاً، ونذكر العائلات بضرورة البقاء في المنازل وإقفال الأبواب والشبابيك عند أول إشارة للفوضى.. أودع مدخراتك في مصرف باهيا وسرجيبي ونم مطمئناً.. ابقوا معنا على موجات الأثير في راديو أبايتي بانتظار أخبار جديدة مثيرة".

انفعلت بعض السيدات وتم نقل عجوز إلى الإسعاف الفوري بسبب نوبة قلبية. وتنهدت فيراليسي وهي تغلق الأبواب والنوافذ استجابة لإلحاح أم زوجها: الويل لمن يمنع غزو البحارة الأميركيين! إني تحت تصرفهم، وسأقول لأي يانكي أشقر وقدير، أقم لي العيد وادخل واكسر كيفما تشاء.

بينما كان مدير عام الشرطة هيليو كوتياس يتقيأ، قبل أن يأمر بإطلاق سراح العجوز أكاسيا وأسونتا وقوادات باروكينيا الأخريات، كانت أبواب كنيسة القديس روزاريو دو نيفروس تنفتح الواحد تلو الآخر، اندفعت النساء عشرات عشرات وتقدمن ببطء.

ركض الصحفيون والمصورون والمذيعون والتمعت عدسات التصوير. واحتلت النساء رويداً رويداً الفسحة العليا التي يؤدي إليها السلم. وكانت صورة القديس أنوفري في طليعة المظاهرات.

"لقد بدأت العاهرات مسيرة الاحتجاج! مسيرة السوق العمومية المقفلة". قال مذيع محطة أبايتي؛ رافضاً البقاء وراء التطورات فإن بينتو سكوت حنجرة إذاعة غريميو الذهبية نقل الخبر المثير: "العاهرات في المسيرة يزحفن إلى قصر حاكم الولاية!"

كانت صورة القديس أنوفري قد وضعت على حامله تم العثور عليها في الكنيسة، وحملت على أكتاف أربع فتيات، من بينهن الزنجية دومنغاس التي ما تزال آثار التعذيب بادية عليها، وماريا بيتسكو. من الزوايا الأربع للمحلة القديمة الشهيرة ظهر جنود الشرطة والأمن ورجال التحري والحراس يحملون المراكبات وأسطح المطاط والمسدسات والغضب والكرهية. وأخذت فرقة الخيالة من الشرطة العسكرية مركزاً واستعدت لسحق المسيرة، أو التجمع، أو التقدم أو أي شيء، بحوافر الجياد.

في قيادة قوات النظام والقانون العامة، المفوض لاباو أوليفيرا بعيني أفعى وقلب مسموم يلقي نظره على آلاف الأغلفة التي تحتوي على المخدرات وهي تنسحق تحت الأقدام مع مئات الزجاجات التي كانت قد ملئت بإكسير الهلوسة المسمى كاسيتي ريجو. ورؤوس أموال وديون ترتبت عليه والتزام بالدفع بالدولار ولكن بنات الزانيات دمرن كل شيء: المخططات الرائعة والأحلام الفنية.

في إعلان السلم وخلال ثانية تأهبت النساء معاً. وارتفع صوت فوفو المتعب الإنشاد:

"ظهرت بشكل ملاك"

تحمل على جناحيها
ألوان السماء".

خلف الصورة مباشرة تريزا باتيستا. وعندما رآها، نسي بيشي كاساو الوجود في خصيته فبدأ يزجر، في اللحظة نفسها تحديداً خرجت من بار فلو دي ساومينيل زمرة صاحبة من الزبائن بينهم النجم المسرحي مستقبلاً توم ليفيو، والألماني هانسن الذي يحفر على الخشب بالعرق والدم حياة نساء المنطقة والشاعر تيلمو سيرا، والبوهيميون الخالدون الذين عند الصباح وهم يخرجون تراهم يناقشون مصير العالم وينقذون الإنسانية من الكوارث والانحلال، وهم حراس الحلم عند الإنسان. بين يدي النحات القديرتين منحوتة خشبية لنساء نصف عاريات وكل واحدة لديها عند النحات سرّ المفوض يعطي الأوامر إلى الجنود ورجال الأمن للقمع والاعتقال والضرب والقتل إذا اقتضى الأمر.

انطلق الخيالة إلى مهمتهم وأنزل الحراس الدروع على وجوههم وسدّ رجال الأمن مسدساتهم. وضعت صورة القديس أونوفري أرضاً وهي واقفة. بجانب الصورة ظلت فوفو تردّد النشيد الديني! لها من العمر مائة سنة هي ألف في عالم الدعارة، ويكفي النظر إلى أحاديدها وجهها المجدد وفمها الذي دون أسنان ولكنها ما تزال تحب العراق وتكرم القديس:

سلام، سلام، سلام يا مريم.

ركض المفوض لاباو أوليفيرا، ركض لإسكانها فتعثرت في حفرة ووقع متدحرجاً ولم يقم، وبينما هو على الأرض انطلق الرصاص فأصاب العجوز وتوقفت عن الغناء وساد الصمت المحلة كلها؛ قرب صورة القديس هوى جسد فوفو النحيل، لقد ماتت وهي تصلي، ماتت وهي تقاتل، ماتت سعيدة.

ركض الجنود إلى المفوض وساعدوه على النهوض، ولكنه لا يستطيع الوقوف فقد انكسرت رجلاه الاثنتان. المفتش ليربو ثائراً رمى نفسه أرضاً وراح يضرب رأسه على الحجارة، لقد أنذره سابقاً: "أيها المفوض لا تكن مجنوناً لا تتجرأ على الإله إيشو".

اتجهت السيارات إلى مبنى الشرطة المركزية مليئة بالأسرى من النساء والبوهيمين، وعملياً اعتقلت المنطقة كلها. وبقي لقيادة عملية التنظيف الأخيرة

المفتش بيشي كاساو، ولكنه كان على عجلة من أمره: ففي السجن تنتظر تريزا تحت حراسة مشددة. سيحاولون مرة أخرى تعليمها الاحترام والطاعة. وبيشي كاساو يفرك يديه فرحاً بليلة تسلية كهذه.

عندما وصل رجال البحرية الأميركية إلى مركز منطقة البغاء في بيلورينيو على أمل إيجاد نساء جميلات فرحات في الغرف التي يعود زماؤها إلى أيام الاستعمار، فإنهم لم يجدوا هناك غير العجوز الطاعنة في السن، غير الصالحة للاستعمال حتى إذا لم تكن ميتة، وهي ممتدة قرب صورة القديس أونوفري شفيع العاهرات.

وأمام هول المشهد غير المرتقب، تلقوا الأوامر بالرجوع الفوري والإجباري إلى السفن: إن المدينة في حالة مزرية من الاضطرابات. لقد تأجل الاحتفال بالعيد. عجائب كثيرة، في رأي الصديق، اجتاحت عبر سلسلة الأحداث. الإله أوريشا يأتي في كل لحظة بعمل سحري. عجوز ملتجئ يخرج فجأة ليقتل على الشرطة طرقها ويفتح أبواب الكنيسة، وشاعر مات منذ مائة عام ينقذ الفتيات، والإله أوغون يمنح الثقة بالذات، والإله إيشو يعترض المفوض الثائر ويجندله أرضاً كاسراً له رجله الاثنتين، والقديس أونوفري يحرس في المنطقة المقفرة جسد فوفو، هذه الأمور بالنسبة إلى مادي هي جرعة وهم، والصديق يريد وصفاً للحقيقة الساطعة وليس لأعمال السحر.

لا تنس أن كل شيء حدث في باهيا الواقعة في شرق العالم وأرض القوى الخارقة. هنا، أيها الصديق المحترم، السخافات هي الخبز اليومي لهذا الشعب العاجز عن اختراع كذبة وإن حول موضوع شائك كهذا.

وليقل لي الوجه، رجاء: كيف يمكن للعاهرات اللواتي لا مال معهن، ولا سلاح ولا معرفة لهن بالقراءة، أن يواجهن الشرطة ويربحن حرب السوق المقفلة لو لم يتكلن على مساعدة القديسين والآلهة والسحرة والشعراء؟ وماذا كان حدث لهن؛ أجبني، لو كان لديهن القدرة والمؤهلات لفعل ذلك.

أشرح؟ لا أشرح، ولكنني أخبرتك لأنك رجوتني بالحاح والسائق ملزم بمعاملة الركاب معاملة جيدة، يتحدث إليهم ويعلق لي جعل الطريق جميلاً. من يفكر بشرح كل شيء في هذا العالم واضحاً كل أمر على محك التحليل، وأسر الحياة في خطوط

النظريات، ليس إلا مادياً مزوراً وعالمًا عاجزاً وراسماً للقواعد ومؤرخاً لسفرة قصيرة، إنه أبله.

ولكي أنهى حديثي، فإن أمراً غريباً حدث لي يضيف إلى كل ما سمعت أنا إدغار فريزا المعروف في كل محلة باهيا بالسوري. لقد قلت لك كيف رأيت في تلك الليلة القاعدة التي رفع عنها تمثال الشاعر كاسترو ألفيس في المحلة التي تحمل اسمه، وحيث نقطة وقوفي. أجل إنني حين استيقظت ثانية فيما بعد وعند مرور سيارات الشرطة وهي تحمل النساء أسرى في نهاية العراق، رفعت عيني إلى التمثال، فماذا رأيت؟ تمثال الشاعر وقد عاد إلى مكانه المعتاد وذراعه ممدودة إلى البحر وفي يده منحوتة عليها صور نساء وكلمات لا معنى لها: هل فكرت؟ والآن، أتمنى لك ليلة سعيدة، وكن حذراً مع الإله إيشو.

اليوم التالي كان عيداً في المنطقة. لقد أطلقت نساء بارو كينيا الهاليلويا وفتحن مطارحنهن. الفتيات اللواتي تم أسرهن أمس بدأ الإفراج عنهن عند الفجر وكذلك عن البوهيميين المتعاضدين معهن في البار والسجن.

عند الصباح شوهده العجوز هيبوليتو سردينا رئيس شركة الإنشاءات الكبيرة والقائمة بالمجمع السكني السياحي مجمع باهيا دي تودس سانتوس وهو أمام خرائب أمكنة لاديرا دو باكاليو التي التهمتھا النيران. كان قد جاء معه بمحامي الشركة الرئيسي المحاضر في القانون والقدير على الإجابة عن سيل الأسئلة المنهارة عليه. ما عدا أجنور الأمكنة ليس من خسائر أخرى يؤسف لها. واتفق القانوني الشهير ورجل الأعمال على مسؤولية الدولة عن الحريق بالتهاون في المحافظة على الأمن العام. ولكن في الحقيقة لم يضع شيء في تلك الأمكنة القديمة غير ما كان ثميناً جداً بالنسبة إلى سينسيناتو غاتو بريتو الذي فتح صدره للهواء ولكنه غدا فحماً أحرقتة كمية الحشيش التي كانت في عهده.

وظلت تريزا باتيستا وحدها أسيرة، حتى لو أرادوا إطلاقها مع الباقيات فإنه أمر مستحيل. فبعد زيارة بيشي كاساو لها في السجن، لم تعد في حالة ملائمة للخروج إلى الشارع. وعلى الرغم من أنه كان متوقعاً بسبب الوجد الذي ألم بخصيته، فإن أبا الشرطة لم يكتف بإعطاء الأوامر بالتعذيب بل اشترك هو شخصياً في العمل.

يائساً، فإن الميريو داس نيفس استعان بكل ما يملك وسط كل من عرفه للإفراج عن تريزا، فسار من شارع إلى زقاق ومن جادة إلى أخرى بعد ليلة الصخب تلك في معركة بيلورينيو. وكانت سفن الأسطول الأميركي الشمالي قد غادرت مرفأ باهيا حيث بقيت ثلاثة أيام بلياليها، وحملت معها آخر أحلام فيراليسي في أن ينال منها يانكي أشقر ذو طاقة جنسية هائلة؛ وكانت العجوز فوفو قد دفنت في مقبرة داس كينتاس ونسيت هناك، واختفى من صفحات الصحف والمجلات موضوع السوق العمومية المقفلة، وما تزال تريزا باتيستا في السجن.

وحتى الرسام جنر أوغوستو مع ما له من امتيازات لدى بعض الشخصيات في الحكومة، لم يتمكن من الحصول على الإفراج عنها. وليس هو وحده ولكن فنانين كثيرين كانت تقف لهم نموذجاً فصادقتهم، تدخلوا هم أيضاً وطالبوا بالإفراج عنها. وعود فوعود: "اليوم بالذات سيتم الإفراج عنها، اذهب وارتح"، حديث رتيب بلا جدوى، سجينة بأمر نيكولاي رمادا جونيور وفي خدمته؛ عليها أن تبقى في السجن إلى أن تعود إلى نشاطها الجنسي والفني الكامل.

لم يكتف بالضرب في ليلة الاعتقال. يستعمل العنف وأربعة رجال يضربون ويشاركهم بيوشي كاساو الذي كانت خصيته تؤلمانه وتمنعانه من أداء مهمته بكمال. والآن مع عودة قواه لم يعد يريد الرجوع إلى الضرب، ولكنه يريد أن يجعلها دون قدرة على الدفاع ليجعلها تتأسف على شتمها إياه في فلور دي لوتوس.. بأن يفعل فيها كل ما يمكن تخيله.

وتعب الرسام من التأجيل فسلم القضية إلى محام صديق له وهو الأستاذ أنطونيو لويس كالمون تيشيرا وعندما كان سيذهب إلى العدالة تم الإفراج عن تريزا وراح الجميع ينسبون لأنفسهم أمر الإفراج عنها.

في الحقيقة تم الإفراج عن تريزا بفعل فافا. هو الآخر نزل الميدان وقام بالعمل بالطريقة الصحيحة، اتصل بشرطة المحافظة على التقاليد ووزع بعض المال ولكن من ابتلع الحصة الكبرى كان المفوض لا باو الذي كان يفاوض وهو في فراش الألم ورجلاه في الجنبين معلقتان إلى أعلى، وكان عليه أن يبقى ستين يوماً على تلك الحال فيحاول بأي ثمن تقليص الخسائر الناتجة عن الشركة السياحية اللعينة التي أسسها ودفع فافا دون مناقشة.

دفع دون أن يناقش، ودفع حباً بلا أمل لأن الإله إيشو عاد مردداً إن تريزا ليست مكتوبة له. وأكثر من ذلك كان قد علم من ألميرو داس نيفس حبها للمعلم جانواريو جيريا الذي اختفى في عباب المحيط. مع ذلك لم يتركها في السجن بانتظار أن تتعرض هناك لأمثولة جديدة في حسن التصرف، وأخيراً رأت تريزا النور وأفرج عنها من السجن. استقبلها أماديو ميستري جيكي عند باب السجن المركزي وأخذها إلى فافا حيث كانت تنتظر تافيانا، لقد فقدت تريزا لونها وهزلت قليلاً. وبقي على صدرها وظهرها آثار سوء المعاملة. وأكثر من ذلك كانت متماسكة، معترفة بالفضل وسعيدة بالمعركة إنها الآن تريزا السوق المقفلة.

بعثت تافيانا برسالة إلى ألميرو فهرول إلى بيت العزاب وابتلت عيناه بالدموع عندما رأى تريزا فوقف جامداً دون كلمة. اقتربت منه وقبلته على خديه.

- "إنها بحاجة إلى الهدوء والاستقرار؟ لقد أصبحت هيكلاً عظيماً وأكل الكلاب لحمها" قالت تافيانا ذلك وأضافت: "الأفضل سحب تريزا من العمل لبعض الوقت، إن الرائحة ستفوح من حظيرة بيشي كاساو إذا علم بأنها عادت إلى الشارع وهو قادر أن يخترع لها مأساة جديدة. إنه ليس بشراً" بصقت باحتقار وداست على البصقة بانفعال لتلفظها باسم كاساو.

لم تكن تريزا ترى ضرورة للاختباء وأرادت أن تعود إلى حلبة رقص فلور دي لوتوس في ذلك اليوم بالذات وهكذا يمكن أن يعود إليها لونها. ولكن ألميرو وتافيانا لم يسمحا: "لا تفكري بهذا. هل تريدان أن تذهبي مرة أخرى إلى السجن وتقلقي أصدقاءك وتجعلي الجميع يصابون بالجنون؟ انزعي هذا من دماغك".

- "أعرف الآن، أين سأضعك" قال ألميرو.

بينما كانت تريزا نائمة في بيت أوشوم حيث استضافتها يالوريشا، فقد رأت في الحلم جانواريو جيريا ثم استيقظت مرتعبة. رآته في الحلم وسط البحر فوق صخرة تعصف بها أمواج عاتية ويحيط به الزبد والأسماك الكبيرة. مدَّ جانو ذراعيه لتريزا فاتجهت نحوه ماشية على الأمواج كما لو كانت تسير على أرض صلبة. وما

كادت تدركه حتى ظهرت من البحر مخلوقة إلهية نصفها امرأة ونصفها الآخر سمكة. بشعرها الطويل الأخضر لفت المخلوقة العجيبة جانواريو وحملته معها.. في اللحظة الأخيرة عندما اختفت المخلوقة العجيبة والبحار، لمحت تريزا وجه السمكة - المرأة ولم تكن الإلهة يمانجا كما بدا لها في البدء ولكنها كانت الموت بوجهه الكالح ويديه الياستين.

لم يمر حزن تريزا غير المرئي أمام أم الإله يالوريشا:

- ماذا حدث لك يا ابنتي؟

- لا شيء يا أماه.

- لا تكذبي أبداً على شانغو.

قصّت تريزا حلمها بالتفصيل فأصغت الأم للسيدة بانتباه، ولم تستطع أن ترتجل حلاً إلهياً فلجأت إلى اللعبة ثم توجهت إلى تريزا:

- كوني مرتاحة يا ابنتي، كل شيء على ما يرام، ليس من خطر كما تقول الرؤيا. كوني واثقة فالآلهة قديرة وهي حولك. لم أرَ في حياتي آلهة بهذا العدد الذي حولك.

- "ولا أنا..." استطرد نيزينيو: "لم أرَ قط مخلوقة محروسة إلى هذا الحد".

- مرة أخرى أخذت السيدة الأم قطعتين من الحجارة المقدسة وكما لو أنها كانت تفتش عن تأكيد، ثم ابتسمت وسلمت القطع الأربع إلى نيزينيو الذي حدّق في تريزا وسألها:

- ألم تشاهدي قط في طريقك في ساعة الخطر عجوزاً ملتجئاً؟

- أجل. ولكنه ليس دائماً هو نفسه بل شبيه به.

- إن الإله أوشالا يهتم بك.

وجددت الأم التأكيد بأن لا خطر يهددها:

- وإن في الساعة الأكثر نزاعاً عندما تفكرين بأن كل شيء قد انتهى، كوني

واثقة، لا تستسلمي، ولا تفقدي حيويتك.

- وهو؟

- لا تخافي عليه ولا على نفسك. إن الإلهة يانسان قديرة وجانواريو

محروسها. لا تخافي واذهبي بسلام، آشيه.

- "آشيه، آشيه". ردّد الجميع في بيت شانغو.

بعد عدة أيام من الضيافة الحسنة استأذنت تريزا السيدة الأم وغادرت الملجأ عائدة إلى غرفتها في دار السيدة فينا في دشتيرو.

وفي غياب راقصة السامبا، ولأنه لم يكن يعرف متى يستطيع أن يعتمد عليها فإن أليينور بنييرو صاحب ملهى فلور دي لوتس تعاقد مع راقصات ومغنيات أخريات بينهن المغنية باتاتيفا دي ماكاو الآتية من النهر الكبير الشمالي، وليس من الشرق الأقصى كما كان يتخيل بعض الزبائن؛ ورأت تريزا نفسها بلا عمل ولكنها ما لبثت أن تبلفت بإمكانية العمل في التباريس أكثر ملاهي باهيا أنيقة وأعلاها مستوى.. لقد كان عرضاً غير مرتقب ومشرفاً لها ولم تكن قد خطرت لها فكرة احتمال وجود اسمها ضمن لائحة أسماء الفنانين في ملهى التباريس الذي كان يستقدم العائلات فيه من الجنوب البرازيلي وبينهن بعض الأجنبيات. ولم تكن تعرف أن اللجنة الإدارية في الشركة التي تحتكر الرقص ومن ضمنها ملهى التباريس تعود إلى فافا. وكان عليها أن تنتظر نهاية عقد الأرجنتينية راشيل بوسيو لتحل محلها. ليس عليها أن تقلق من أجل هذا فهي تستطيع أن تنتظر أطول مدة! فالعمل في التباريس هو مجد مكرس.

كانت تستطيع الانتظار إذ لم يكن ينقصها المال. فقد أرسلت لها السيدة باولين دي سوزا، من يدفع لها وتافيا عرضت عليها أية سلفة تحتاجها من أجل ضرورياتها. ولكنها لم تصل إلى الرقص على حلبة التباريس.

ففي عصر أحد الأيام جاء حفيد كامافيو دي أوشوسي يفتش عنها حاملاً لها رسالة مستعجلة: إن المعلم كايثانو غونزا يرغب في التحدث إليك حالاً لأن الطوافة ستحمل شحنة جديدة ليلاً إلى كامامو. شعرت تريزا بخفقة في قلبها وأحست في الحال وبجدس أكيد أن الخبر سيئ. وضعت على رأسها الشال الذي كان قد أهدها لها الأستاذ قبل أن يموت وهبطت إلى محلة إيليفادور لاسيردا مع الفتى الذي جاء بالرسالة.

عند مدخل السوق، أخبرها كامافيو بأنه لا يعرف شيئاً عن سبب رسالة صاحب الطوافة، إذ تلقاها ونقلها في الحال، أحست تريزا بعدم الاطمئنان في صوت الصديق الذي كان يناديها بالعرّابة منذ عيد سان جوان الذي كانت قد

حضرته مع الميريو، وأبقى كامافيو عينيه بعيدتين عنها، تائهتين في البحر، ثم صعد الاثنان في الزورق واتجها إلى الطوافة.

وقبل أن يتلفظ المعلم غونزا بأية كلمة، وعندما لاحظت القلب الظاهر على وجهه قالت له تريزا بلهجة متموجة النبرات: "هل مات؟"

وأكد المعلم الموت! إن سفينة الشحن بالبوا غرقت عند سواحل البيرو. بسبب إعصار هائل ومات جميع من فيها ولم ينج أحد وقد أوصل الخبر بحارة السفينتين اللتين أسرعتا للنجدة دون أن تتمكن من الاقتراب بسبب هول الإعصار، وانقلبت زوارق النجاة هي الأخرى وفيها البحارة وقد جرفتهم الأمواج.

أعطاهما الجريدة ففتحتها تريزا ونظرت ولكنها لم تتمكن من القراءة، أخبرها المعلم كايثانو وهو يقرأ لها النبأ فعلمت عندئذ كيف تكون الإطراءات رمادية قاسية فيا لليلة المأساوية في المحيط الهادئ، ومع بالبوا غرقت ناقلة نفط أخرى. "من يعيش في البحر هو عرضة للعواصف والأعاصير"، ماذا يستطيع أن يقول لها غير هذا؟ ليس من عزاء في الموت. ونشرت الجريدة لائحة الغرق من باهيا فاستطاعت تريزا أن تميز فيها اسم جانواريو جيريا.. عيناها ناشفتان كجمرتين منطفئتين، وحنجرتها مقفلة.

على كتفي تريزا يزن الموت ثقيلًا، فيا للعبء السيئ. لقد حملت الأموات على كتفيها حتى الآن دون أن تبدي تعبًا ودون أن تقع في اليأس. لقد تحملت حتى الآن عبء الأموات وقامت من الموت ثلاث مرات، ولكن جانو يزن ثقيلًا، ومعه لا تستطيع أن تتحمل. "جانواريو جيريا البحار، جانو الحب، لقد مت وبموتك انتهيت دفعة واحدة".

لماذا الذهاب إلى شركة الملاحة والإصغاء إلى السيد غونزالو يؤكد النبأ ويقدم التعازي الشكلية وينظر نظرتة الباردة وهو لا يرى غير جمالك؟ ألم يكن هو من جهّز لائحة بأسماء البحارة للشركة؟ لكي يحفر حد الخنجر أكثر فأكثر في قلبها ويفقددها أملها الأخير؟ وهنالك، في الغرفة الأمامية الباردة في شركة الملاحة سمعت تريزا وعلى لسان الإسباني يقرأ البرقية التي تعلن موت جميع العاملين على ظهر السفينة بالبوا بمن فيهم بحارة باهيا. لماذا جاءت؟ لينغرز نصل الخنجر في قلبها أكثر إذا أمكن، لقد انتهت تريزا باتيستا.

على رأسها المنديل المزهري، هدية الأستاذ، المستعمل في الفرح والحزن، هو الآن منديل أرملة، وعلامة حداد، وعيناها ناشفتان، فارغتان. أنزلتها العربة التي استقلتها عند أعلى المدينة وما كادت تدخل محلة داسي حتى التقت بالتحري بيشي كاساو الذي بادرها عندما وقعت عيناها عليها:

- عاهرة البراز، كلبة، قدرة.

أراد أن يراها تقوم بردة فعل لكي يسجنها من جديد ويختم انتقامه منها. اكتفت تريزا بالنظر إلى الذي يستفزها، وأكملت الطريق فوقف التحري جامداً إذ كانت نظرتها نظرة شخص ميت، إنها نظرة عائد من الموت في الشارع.

استقبلها المعلم مانويل وماريا كلارا على متن المركب وأخذها في رحلة بعيدة كانت تريزا فيها بعيدة عن المدينة، والبحر، والخليج ونهر باراغواسو. كانت قد قررت مغادرة باهيا والعودة إلى أراضي منطقة الداخل حيث ولدت وترعرعت. إلى كاجازيراس دو نورتي. وما زالت غابي تتكلم إلى الرائعة التي لا يساويها أحد: "عودي عندما تريدن، فهذا بيتك".

تريد قبل أن تغادر إلى باهيا أن تجتاز طرقات جانو، في المركب فليشا دي سان جورجى الذي كان اسمه يوماً فلور داس أغواس وكان صاحبه جانواريو جيريبي الموشوم في يديه وذا الأغلال في رجليه. وتريد أن تتعرف إلى المرافئ التي وصفها لها في أراكاجو، عند جسر الإمبراطور: كاشويرا، سان فيليكس، ماراغوجيبي، سانتو أمارو، سان فرانسيسكو دي كوندي، والجزر الضائعة، والقنوات، يا لها من جغرافية من الأحزان، ماذا تفيدها الذكريات، واكتشاف المناظر. والإصغاء إلى الريح إذا لم يكن هو موجوداً ولن يصل أبداً؟

المعلم مانويل على الدفة، بقربه على مؤخرة المركب ماريا كلارا تغني أناشيد جانائينا موسيقى البحر والموت. أينايبى تمتطي العاصفة، ويمانجا تكسو بشعرها جسد الغريق، بشعرها الأخضر بلون الأعماق.

عند هبوط الليل، وموت القمر، والولادة مع الفجر، وبينما المركب قد رسا في مياه باراغواسو مرفوعة أشرعته. وإذ ظن أن تريزا نائمة فقد أخذ المعلم مانويل ماريا كلارا بين ذراعيه وأخذ يدفئان المياه حباً.

تنهدات الحب ترتفع وتريزا متمددة على الخشب وعيناها الناشفتان غائبتان، وفي صدرها نصل خنجر مسنون، وقلبها ميت، ويدها تلمس مياه البحر والنهر الممتزجة، إلهما بحر ونهر جانو الحب.

عندما ألقى المركب مرساته في رامبا دور مركادو، كانت تريزا مستعدة لمغادرة مرفأ باهيا واللجوء إلى منطقة الداخل. عند الميناء، في انتظارها ألميريو الطيب. الصديق المسكين سيتألم بسبب النأ ولكن الأسوأ من كل شيء هو البقاء هناك والقيام بالجولات البحرية التي يقوم بها جانو، والنظر إلى البحر حيث عاش، ولمس كل خشبة دفة كان قد وضع يده عليها.

وجه حزين، وصوت مختنق. ألميريو يعاني اليأس:
- "تريزا، إن زيكس مريض، مريض جداً، التهاب في السحايا الدماغية، يقول الطبيب ربما لن يشفى" تنهد يحترق في صدره.
- التهاب السحايا الدماغية؟

لحقت تريزا بألميريو وبقيت فوق رأس الصغير عشرة أيام كاملة، ودون أن تنام أو تأكل إلا قليلاً، وهي تهتم بالطفل. كانت قد حصلت على شهادة في التمريض منذ أيام الجذام الأسود.. لقد ناضلت مرات عديدة ضد الموت ونهرته في كل مرة: تريزا الجذام الأسود: الآن هي نفسها ميتة ولكنها من أجل اليتيم ستحيا. الدكتور سابيجو، طبيب شاب، بعد عدة أيام شوهد يتسم للمرة الأولى وبينما يتلقى شكر ألميريو أشار أمامه إلى تريزا الواقفة قرب فراش الطفل.
- إن الطفل مدين بحياته للسيدة تريزا وليس لي.

وقد رآهما جنباً لجنب يهتمان بالطفل، فإن الدكتور سابيجو بإصرار الشباب يضع نفسه حيث لا يطلب منه:

- "إذا كنتما غير مرتبطين فلماذا لا تتزوجان؟ إن كل ما يحتاجه الطفل هو هذا: أم". قال ذلك وانصرف تاركاً الاثنين الواحد أمام الآخر. فرفع ألميريو عينيه وفتح فمه خائفاً وجازف بالقول:

- كان يمكن أن يكون جيداً... بالنسبة لي هذا أكثر ما أتمناه.

محملة بالأموات، ميتة، مستسلمة، لقد انتهت تريزا باتيستا.

- أعطني وقتاً للتفكير.

- تفكرين بماذا؟

رفيقة في تربية الطفل وفي البيت، يمكن أن تكون. أما في الفراش، فقط، محترفة، قديرة، وكونها صديقة الميريو، ومدينة له بالمعروف، ومع احترامها له، سيكون مضمناً وصعباً الرجوع إلى ممارسة المهنة. هل ستكون عندها القوة للتمثيل؟ في فراش العاهرة ليس صعباً ولكن في فراش الزوجة ستصبح المهمة صعبة وواجباً مضمناً.

ولكن الميريو لا يطلب مني الحب، ويعتقد أن بإمكانه الحصول عليه مع مرور الوقت. إنه يريد فقط رفيقة له وللطفل، وفراشاً كفراش بيت العزاب، صداقة واهتمام.. إنها لا تملك الفرح ولا تستطيع أن تعطيه... لم يعد لديها قوة لتناضل، تريزا باتيستا تعب من الحرب.

- إذا كنت تقبلني هكذا...

وقبل أن تكمل السؤال هرول الميريو إلى داخل المخبز ليعلن النبأ. بيتانغا أو منغابا، مرطب كتجو، ماراكوجا، أو جنيا بادا؟ هل تفضل جرعة أباكاشي أو جنجيرا؟ أكراجيبي أو أبارا؟ لقد صنعتها كلها أغريينا ولا أحد يصنعها بأفضل منها، اقبل شيئاً، إني أجد متعة في الضيافة، والحديث حتى يكون طيباً وكاملاً يقتضي مرافقة الطعام والشراب، ألا تعتقد كذلك؟ أجل، إني أعرفها، لقد رأيتها هنا، فمن هذا البيت يمر أناس من كل أنحاء العالم، يا سيدي. الفقير والغني، الشيخ المحرّب والشاب المتهور، رسام الصور الزيتية أو الذي يرسم على الجدران، كاهن الدير العالم المتواضع والأحمق المدعي وكلهم يأتون ليأخذوا بيدي؛ أتحدث مع الجميع، وبأية لغة، دون حرج، لقد خلق الله اللغات التي يتفاهم بها الناس وليس لتعجيز المعرفة والصداقة بين البشر؛ أرحب بالجميع بحرارة لأني ذو تربية باهية مرهفة، وسأخبرك بكل ما أعرف، وبكل ما تعلمته خلال هذه الثماني وثمانين سنة التي أكملتها من عمري وعشتها جيداً.

من تشبه تريزا باتيستا التي عاقبتها الحياة إلى هذا الحد والتي تعبت بهذا القدر من الألم - الويلات وما تزال واقفة مع كل عبء الموت الذي على كتفها؟ أنا أقول لك ما أعتقد أنها تشبه.

وأنا أجلس إلى تلك الشرفة أتأمل بعيداً في النهر الأحمر، وأنظر إلى الأشجار وبعضها قد بلغ المائة سنة وقد زرعت أكثرها أنا وأولادي وبهاتين اليدين اللتين حملتا المعول في أحراج فرادلاس وفي معارك الكاكاو، مستذكرة زوجي، الرجل الفرح، الطيب، ويحيط بي أولادي الثلاثة، كنوزي، وبناتي الثلاث، وأحفادي وحفيداتي وأولادهم، وأهلي وأصحابي، أنا، أيولاليا ليال أمادو، لالو كما يناديني الجميع، تحبباً، أقول لك، يا سيدي، إن تريزا باتيستا تشبه الشعب ولا أحد غير الشعب، إنها تشبه الشعب البرازيلي، الذي تألم كثيراً ولكنه لم ينهزم، وعندما يظنونه قد مات فإنه يقوم من بين الأموات.

أقبل مرطب أومبو أو قطعة كاجا، وإذا كنت تفضل الويسكي فيني أستطيع أن أخدمك ولكني لا أكفل لك طعمه.

الاحتفال بزفاف تريزا باتيستا كان حدث الساعة وغدا موضوعاً للثناء والتبجيل لمدة طويلة في مدينة باهيا. وقد غطى رودولفو كويليو كافا كانتني المناسبة في جلسة اجتماعية مشيراً إلى الفرح والعظمة في الاحتفال الذي كان أكثر ما تكلم عنه الناس وأشاروا إليه في أحاديثهم باعتباره حدثاً لا يمكن نسيانه.

ونظراً لكثرة الطعام فقد امتلأت أربع طاولات كبيرة بما كان قد أعد منه، على طاولة منها المأكولات الزيتية فقط، من السمك الحار إلى كل أنواع الصفد، ومن المحشيات والتوابل على اختلاف أنواعها إلى كل الأنواع الباردة. على الطاولات الأخرى أنواع اللحوم المحشوة، خرفان، دجاج، ولحوم الماعز والغنم إلى جانب عشرين كيلو غراماً من التمن المصنوع، وكانت الصحون الكبيرة مليئة وما يزال الكثير منها في المطبخ. أما الحلويات والفواكه فحدث ولا حرج. أفضل من ذلك لا يمكن أن يكون، فمن الكوكودا وحدها خمسة أنواع. وما هو شراب فقد كان براميل وألفيات وصناديق كاملة، من البيرة، والكوكيتيلات المتنوعة، وقناني نبيذ كابيلينا الأحمر، الويسكي، الفرموت، الكونياك، وكاشاسا، سانتو أمارو الطيبة بالإضافة إلى المرطبات.. الأستاذ نلسون تابوادا رئيس اتحاد الصناعيين أهدى إلى الخطيب دزينة من الشمبانيا للاحتفال بعد الوليمة. أفران سيدنا بونفين عملت دون توقف لا لخدمة السكان هذه المرة، فقد عملت ذلك اليوم لحاجات الاحتفال وحسب. أليس العريس السعيد، ألميريو داس نيفس هو سيد المؤسسة المزدهرة التي

سيكون لها قريباً فروع وفروع؟ محظوظ، ومغامر، ولد فقيراً، وما دام قد حقق كل هذا فمن حقه أن يحتفل هذا الاحتفال الصاعق بزواجه الثاني.

دعيت باهيا كلها للاحتفال بالمناسبة، ومن لم يتلق سهواً الدعوة فقد جاء إلى هناك دون دعوة ولم يتخلف أحد. لقد تم الاحتفال في دار الميريو قرب المخبز وكان قد رقص بعض المدعوين داخل المؤسسة. الفرقة الموسيقية أوس ريس دو سون التي تعمل في ملهى فلور دي لوتس أضافت أسباب التبجيل، ولكن قمة الفرح كانت بعد منتصف الليل عندما وصل الثلاثي الكريكو إلى الشارع وتحول الاحتفال إلى كرنفال.

ووصل معاً كل أعضاء نقابة الخبازين من المحتكرين الإسبان والمزاحمين الوطنيين. وكان هناك رفاق الميريو في أخوية كنيسة بونفين، وفي ساو غونزالو دو روتيرو حيث كان عنده وظيفة ولقب. السيدة الأم، أولفا دي الأكيتو، إدواردو دي إيجيشا والمعلمان، ديدي ونيزينيو اللذان جاءا خصيصاً. الفنانون الذين وقفت تريزا نموذجاً لهم ماريو كرافون كاريبي، جنر، ميرابو والذين ما يزالون ينتظرون المناسبة والدور، والويل لهم لأنها لن تقف بعد اليوم! ومن هؤلاء إيمانويل، فرناندو كويليو، ويليز وفلوريانا تيشيرا الذي كان جيد الحديث يذكر تريزا بالصديق فلوري باتشولا في ملهى باريس الليغري في أراكاجو، ومع الفنانين الأدباء يستهلكون الويسكي ويختارون الأنواع، بعضهم ضائعون والبعض الآخر متفزلكون: جوان أوبالدو، ويلسن لينز، جيمس أمادو، الدازيو تافاريس، جيوفا دي كارفاليو، سيد شيناس، غيدو غيرا، والشاعر تلموسيرا. الألماني هانسن والمهندسان جيلبرت شافيس وماريا مندونسيا، منتبهون ويصغون إلى المعلم كالا للمرة الألف يروي قصة السمكة الحقيقية التي ابتلعت في نهر باراغواسو مركباً كاملاً ودفعة واحدة. فإذا كان لأحد مناسبة الالتقاء به فليستفد من المناسبة لسمع القصة، فمن لم يسمعها لا يعرف ماذا فقد.

ولو تتبعنا الأسماء المذكورة لتبين الازدياد في عدد الرجال والنقصان في عدد النساء، ولكن هذه ليست الحقيقة، فكل واحد كان برفقة زوجته وبعضهم كان برفقة أكثر من واحدة باسم لالو، جاءت السيدة زيليا بهدية عطر إلى الخطيبة وباسمها الشخصي قدمت خاتماً مقلداً جميلاً، وجاءت السيدات لوزا وناير ونورما

بباقيات من الزهور، أما النساء العموميات فلا يحصين؟ القوادات، رصينات، متزنات، مرتديات بأناقة؛ نساء من مستوى رفيع تافيانا، العجوز أكاسيا، أسونتا، السيدة باولينا دي سوزا تأخذ بذراع أريوستو ألفوليريو أما فتيات الهوى، فمتواضعات، خجولات، وبعضهن مع عشاقهن، وأما محظية أوغون الزنجية دومنغاس فبدت كأميرة.

في زاوية من الصالة، يكاد يكون مخفياً وراء ستارة النافذة كان فافا أشبينا لها أمام القاضي إلى جانب السيدة باولينا تونينيا وكامافيو دي أوشوسي وأمام الكاهن اختارت تريزا الرسام جنر أوغوستو وزوجته. أما شهود الميريو فكانوا المصرفي سيلستينو الذي يمدّه بالقروض والنصائح، والمحامي تيورسيو بربروز، والأستاذ جورجى قلمون مدير صحيفة المساء، إنهم قوم من الطبقة العليا. وأمام الكاهن فإن الخطيب احتفظ بالشاهدين على زواجه الأول: ميغيل سانتانا الجيد في الرقص والغناء. وكان بما يملك من مال قد ساعد الميريو على انطلاقته الأولى في العمل، وتافيانا صاحبة بيت العزّاب حيث عثر مرتين على خطيبة. ولأنه كان سعيداً في زواجه من ناتاليا فلماذا يبدل الإشبينين؟ أما الطفل زيكس، بتألق كامل، فإنه سيقود الخطيبين إلى القران: ولمثل هذه المناسبات لا يوجد خطيب بليغ أكثر من رئيس البلدية ريجينالدو بافاو: إنه لا يضاهى ولا يخاصم.

لم يغب إلا المعلم مانويل وماريا كلارا لأن المركب فليشا دي سان جورجى كان في رحلة بعيدة إلى كاشويرا وكذلك المعلم كايثانو غونزا، فهو لا يحتفل بغير البحر والنجوم.

من المستحيل أن تقع عين امرئ على خطيب أكثر سعادة من هذا. ملابس جديدة، بزة بيضاء إنكليزية المنشأ تليق بابن أوشالا المفضل. وقبل الساعة الرابعة، موعد الزواج، بقليل، ظهر حامل رسالة مربكة لتريزا. فطلبت الخطيبة من الميريو أن يأتي إليها لأمر طارئ في بيت السيدة فينا حيث كانت تستعد لحفلة القران.

في بيت السيدة فينا ماريا بيتسكو وأناليا تساعدان تريزا على ارتداء ملابس العرس والتبرج! أين يمكن رؤية خطيبة أكثر تألقاً من هذه؟ هل كانت تريزا تستعد لحفلة الزواج أو لدفنها هي بالذات؟

قالت أناليا للصديقة إنها لا تعرف كيف تقدر قيمة الحظ. "آه لو أعطي لي هذا الحظ لكنت أسعد إنسان في الأرض: إني أعيش مشمئزة من هذه الحياة، من فراش إلى فراش، ومن يد ليد، أبيع جسدي، أبدد الحب مع عشاق لا يستحقون: ألم تري ما فعل خليل؟" إنه شاب طيب ولكنه تخلى عنها ليتزوج من ابنة عم له، الملعون، قليل الحياء، إنها لا تلومه، فلكني تتزوج هي الأخرى كانت قد أنهت أية علاقة غير مثمرة، "آه، من يعطيني بيتاً زوجياً وطفلاً، زوجاً لي وحدي، وأنا له وحده، آه يا تريزا لو كنت مكانك لكنت أضحك مقهقهة، بأسناني كلها، بكياني كله"، وتوافق ماريا بيتسكو على جزء، ولكن بالنسبة إليها لن تكون وفية لرجل واحد، فليس الأمر بالسهل وعلى الأخص بين العديدين الذين يفتشون عن الارتقاء في الفراش دون أن يسألوا من عسى يكون صاحبه، ومن الذي يستعمله، للاتكاء والنوم، من البشر.

ارتدت تريزا ملابسها وتبرجت، ووضعت لها ماريا بيتسكو عقداً من عقود يانسان رمزاً للانتصار في حربها ضد الموت، وهو هدية فاليلوار ريفو، صائغ حلي الأورياس، وقد جاءت به الأم السيدة، وقادتها أناليا أمام المرأة لترى نفسها فإذا هي الروعة بعينها ولكنها حزينة.

وفي حين راحت الصديقات يهذين فقد وجدت تريزا نفسها متكئة على حافة المرأة. أخبار مؤثرة عن الانتصار وعقد أحمر قان موضوع في عنق من هزمت وانتهت. عجوز، تعب من الحرب، ميتة من الداخل.

تذكر أحداثاً ووجوهاً وأشياء بعيدة وأناساً لم يعودوا موجودين. الأستاذ، النقيب، لولو سانتوس، الجنين الذي انتزع من رحمها وقتل قبل أن يكون، أزمنة السجن، أيام الأسواق العمومية، مرحلة أشتانسيا الأمكنة التي سارت فيها، الصالح والطالح، الجيد والسيئ، سوط الجلد الخام والوردة. كم من العمر بلغت منذ أشهر قليلة في السجن، سجينة لدى شرطة المحافظة على تقاليد باهيا؟ ستة وعشرون عاماً؟ لا يمكن، من يدري، ربما مائة وستة وعشرون عاماً، ألفاً وستة وعشرين وربما أكثر فساعة الموت لا يهم العمر.

ضجة في الباب، مناقشة حادة، صوت السيدة فينا تجيب أحداً، الجواب والضحكة... تريزا ترتجف، يخفق قلبها بأقصى سرعة، من صاحب الصوت الذي لا ينسى، وهذه اللهجة القريبة من صوت بوق البحر؟

- ستتزوجين؟ يمكن أن تتزوجي ولكن مني أنا وحدي.

وقفت ترتجف، لا تصدق أذنيها، خرجت عبر الممر خطوة خطوة تنظر بخوف إلى الباب المؤدي إلى الشارع، يستعد للدخول بأية طريقة، عملاق، نسر، حي، بكليته، إنه هناك، عندها أطلقت تريزا باتيستا نفسها شهيقاً وصراخاً، وهي تبكي، رمت نفسها بين ذراعي جانuario جيريا.

- لقد تعطل الزواج! ماريا بيتسكو، وهي تقفز من التاكسي عند باب مدخل دار الميريو أعلنت ذلك. لقد تركت تريزا بين ذراعي المعلم جيريا. ألم يغرق، ألم يموت؟ أي ميت؟ ولا حتى نصف ميت، حي وحي جيداً، رجل ولا جمل، كأنه جذع خيزران، وتريزا الأكثر حظاً.. عندما غرقت سفينة بالباو كان قد تركها هو وتوكنيو قبل ثلاثة أشهر وبدأ رحلة العودة إلى البيت. وعند وصوله أخبره الإشبين كايانو غونزا بكل شيء. واعتذر الصديق الميريو، ولكن الزواج كان قد أصبح أمراً لا بد منه.

في اللحظة الأولى أصيب الميريو بصدمة عنيفة، وإحراج عميق لم يعرف كيف يخفيه؛ وأخيراً، ومعه أوراق الزواج جاهزة وقد دفعت تكاليف الاحتفال فلا بد أن يحدث. ولكن فضول قارئ الصحف العتيق، والمستمع الزمن لقصص الإذاعة، والمعتاد على تلبس شخصيات الأبطال الميلودراميين، جعله يستقوي على خيبة أمله وطلب معرفة التفاصيل. صدقوا: في أقل من نصف ساعة كان قد بدأ يشعر بالحماس للقصة. تقدمت ماريا بيتسكو لتعلن النبأ على المدعوين، وقد وصلت إليهم تقريباً مع القاضي والكاهن. انسحب القاضي في الحال؛ دون تيمونيو، على العكس، بقي ينتظر الميريو، فرما يكون المسكين بحاجة إلى عزاء.

- "وماذا سيحدث لكل هذه الكمية من الطعام؟" أراد العجوز ميغيل سانتانا أن يعرف وكان قد تناول غداء خفيفاً وحجز مكاناً وهياً شهية للوليمة. "يا إلهي، لن يكون هنالك احتفال" تلوت الزنجية دومنغاس التي كانت قد هيأت نفسها لرقص السامبا طيلة الليل.

كان الميريو داس نيفس برفقة أناليا يدخل الصالة عندما سمع الشكوى فرفع ذراعيه معلناً أن الذنب لا يقع عليه. "يا أبناء قومي"، قال "إن الزواج وقع مع الحمير في الماء، بالنسبة لي كان الأمر محزناً، ولكنه مفرح لتريزا، إن خطيبها الذي

اعتقدت أنه مات وصل من البحر في الوقت المحدد. كان أمراً سيئاً لو أنه وصل فيما بعد... هنا، أجل، كان سيكون الأمر سيئاً في كل الأحوال". وأعلن الموله الكريم أنه قادر أن يضحي بنفسه دون تدمير من أجل سعادة الحبيبة والخصم المحظوظ.

- "ما دام الأمر كذلك فلنحتفل" اقترح كايمي رجل النصيحة المخلصة. وجد ألميريو أن الصالة ملاءى بالناس، وهناك الكثيرون في الممرات، والطاولات، موضوعة، فبدأ بطولياً ورفع صوته ليسمعه جميع الحاضرين، وباهيا كلها:
- لن يكون هناك زواج ولكن العيد سيتم. فلنبداً بفتح زجاجات شمبانيا الأستاذ نيلسون.

- "هكذا، أجل، إنه كلام صحيح". وافق ميغيل سانتانا، متوجهاً إلى قاعة الطعام. الاحتفال بزواج تريزا باتيستا، على الرغم من أن الزواج لم يتم، جعل الليل ذا حيوية لا مثيل لها. أكلوا كل شيء، وشربوا كل المشروب، وليمة كنتك لم تعد تقام إلا في باهيا، ولم تكف فرقة الجاز عن الصخب وانتهى الرقص إلى الشوارع خلف الثلاثي إبيتريكو. عند منتصف الليل ألميريو وأناليا ترافقا كأههما رفيقان دائماً واعترفت له أناليا بأنها مولعة بالطفل، الآن، هل رأيت؟ كأن الأمر قصة رومانسية.

رفع الشراع وراح المركب يشق بحر باهيا. ربح البحر تزداد زججرة، والليل ثقيل. تريزا باتيستا مبتلة بالماء، وبدأ يقف عليها الملح، وتفوح منها رائحة البحر وشعرها الأسود مطلق للريح؛ لقد بعثت من جديد: "هاليلويا"؛ وتمسكت بصدر جانواريو جيريا. وبينما هو على الدفة فإن جانو راح يزن حسنات الإقلاع بالمركب المعروض للبيع: "إذا كان جيد الانسياب فسأشتري وأدفع نقداً، الإشبين غونزا وضع مالي في المصرف وعاد عليّ المال بالفوائد، إنه أوفى الأصدقاء. وأي اسم سنعطيه للمركب قولي لي؟" وقبل أن تختار اسماً تكلمت تريزا:

- هل تعرف إني قتلت رجلاً؟ كان سيئاً للغاية، ولم يكن يستحق غير الموت. ما زلت أحمله حتى اليوم عبئاً ثقيلاً.
أبقى جانواريو الغليون في فمه:

تريزا باتيستا

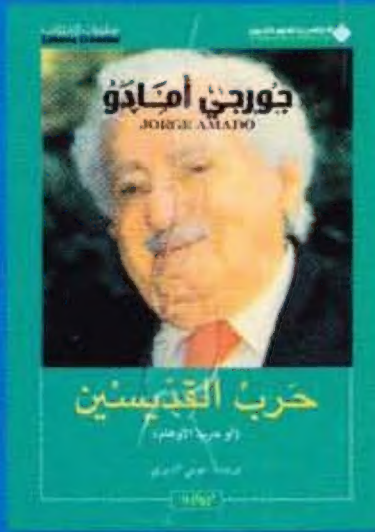
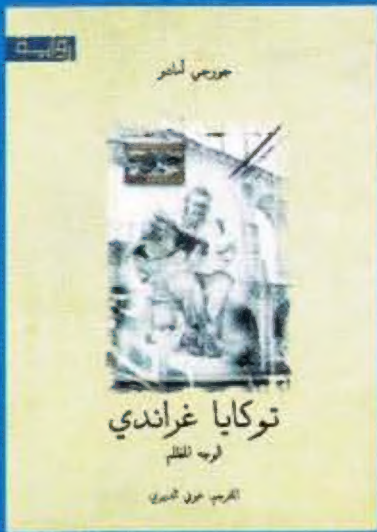
آراء في الرواية

«إنها التكوين الذي خلقه «فيدياس» البرازيل، جورج أمادو، على شكل رواية تتوزع بمنهجية واقعية حرّة تماماً. تمتزج فيها المعرفة الجادة بفرح لغوي شفاف ينغرز في الدم. إن أمادو - مايسترو - الرواية البرازيلية يجيد لعبة التقابل والثنائية في تشكيل الموضوع الأثير لديه / الإنسانية المعذبة مقابل اللاإنسانية...»
- الناقد أحمد خلف، (مجلة ألف باء)

«... وهناك رواية أمادو تريزا باتيستا التي لا يمكن نسيان عوالمها وبطلتها وأحداثها، صراع أثقل عليّ ولكنه صراع محبب أن تفاضل بين جودتين وبين طبقين فاخرين يحمل كل منهما خصائصه، ومذاقاته، ومكوناته... ويجعلنا نشكر اللذين أتاحا لنا أن نتناول من هذين الطبقين.»
- عبد الستار ناصر، (جريدة الجمهورية)

«تريزا باتيستا واحدة من روائع جورج أمادو... وها أنا من جديد، كأني التقي ذاكرتي، وأستعيد فرحي بشبابي... اللغة الحارة... الدم الحقيقي الذي يجعل الملامح ملامح... واللغة الخاصة... ونكهة الأرض التي لها رائحة أمة ومزايا إنسان... إن أمادو يكتب عن برازيله التي يمكن لفرط إيمانه أن تصير برازيلنا، أو أن تفيدنا بأن نحب أرضنا ونكون لصيقين بها...»
- الشاعر يوسف الصايغ، (مجلة ألف باء)

صدر أيضاً للروائي
جورجي أمادو



علي مولا

رواية جورجي أمادو

يُعتبر الكاتب والروائي البرازيلي جورج أمادو أحد أهم كتّاب البرازيل، بل أحد أهم كتّاب أمريكا اللاتينية وأوسعهم شهرة في العالم. ولد أمادو في مقاطعة باهيا في البرازيل عام 1912 وتوفي فيها عام 2001. وقد انخرط خلال حياته المديدة والحافلة في السياسة والأدب والنضال الحزبي فذاق طعم التشرد والنفي والسجن، لكنه أخلص للكتابة وكرس لها نفسه حتى رحيله. وقد انحاز في أدبه إلى جانب الفقراء والمحقوقين واتّصفت كتاباته بالطابع الشعري الذي تغلب عليه أجواء الأسطورة وبطولات البسطاء من الناس في ولاية باهيا مسقط رأسه. وقد نشر أمادو أكثر من أربعين كتاباً وترجمت معظم أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة بما فيها العربية.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102 بيروت - لبنان
هاتف: 785107/8 (+961-1) فاكس: 786230 (+961-1)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

ISBN 978-9953-87-345-9



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
هاتف: 2 1676179 (+213)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com

www.neelwafurat.com

نيل وفورات.كوم

جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت